

# فتح مصر الحديث

أو

# نابوليون بونابارت في مصر

تأليف

احمد حافظ عوض

صاحب جريدة كوكب الشرق

مطبعة مطر بشارع [illegible] بمصر

# اهداء الكتاب

الى زوجتي العزيزة التي لولا تعضيدها
ومساعدتها ما أمكن تأليف هذا الكتاب

احمد حافظ عوض



نابوليون الاول — امبراطور

« أفي استطاعتنا أن نكتب التاريخ ؟ وهل في استطاعتنا أن نستخلص أو نستخرج، من نص أو من وثيقة ، أقل أثر من روحها أو حقيقتها ؟ إنما أمرنا ان نعتمد على صيغة النص ببساطتها ، ونتمسك بعبارتها . فالصيغة هنا هي التي لها القيمة والوضوح. أما روح التأليف فليس بمحدود، وأما الافكار والمعاني فانما يسار فيها على الهوى ! . . لا بد أن تكون عظيم الغرور وواسع الخيال حتى تقدم على كتابة التاريخ ! »

بالزاك

"Est-ce que nous ecrivons l'histoire, nous ? Est-ce que nous essayons d'extraire d'un texte, d'un document la moindre parcelle de vie ou de vérité ? Nous publions les textes purement et simplement. Nous nous en tenons á la lettre.La lettre est seule appréciable et definie. L'esprit ne l'est pas; les idées sont des fantaisisies. Il faut être bien vain pour écrire l'histoire; il faut avoir de l'imagination." Balzac

# مقدمة الكتاب

لكل شيء تاريخ ، وللتاريخ تاريخ ، ولهذا الكتاب تاريخ !

وأول ما يجب ان يبدأ به ، بعد حمد الله وشكره على توفيقه وإلهامه ، هو ذكر السبب الذى دعا إلى وضع هذا الكتاب أو تاريخ الفكرة فيه ، وكيف تقلبت به الأحوال ، حتى ظهر على هذا الشكل والمنوال

وفى اعتقادى ان مصارحة الناس بالحقيقة عن فكرة وضع كتاب ، أو إتمام عمل من الاعمال العامة التى تعيش بعد صاحبها ، أو يقدر لها الخلود بين النفائس الأدبية ، والآثار القومية ، لما يساعد الأجيال الخالفة على تقدير الكتاب ، وتقدير ظروف واضعه ، وتجلو صدأ الحقيقة عن قيمة العمل ومنزلته ، فى الفترة الزمنية التى وضع فيها هيكله ، وتم فيها بناؤه . وتلك مهمة تاريخية أيضاً ، وكأنها تاريخ للتاريخ !

***

منذ عدة سنوات قام بنفسى خاطر أن أضع كتاباً فى تاريخ مصر الأحدث ، أى فى القرن التاسع عشر . يبتدىء بالحملة الفرنسية ، وينتهى بعهد اللورد كرومر .

ولكن هذا الخاطر لم يتجسم ، ولم يأخذ شكلاً محدّداً ، ولم تساعد الحياة الصحفية القلقة ، التى قضت علىّ بها المقادير ، على الانقطاع لعمل كهذا ، خصوصاً وأنا أطمع ، فيما أطمع ، أن لا أضع كتاباً فى التاريخ ، على الأسلوب الذى اعتاده كتاب اللغة العربية ، من جمع وتنسيق ، بغير بحث ولا تدقيق ولا تحقيق ، مما يحتاج إلى دراسة وانقطاع ، ومحاكاة للأسلوب الغربى الحديث فى كتابة التاريخ والخوض فى عبابه

وكل ما كان له من الأثر فى نفسى ، من جراء تلك الفكرة ، الرغبة فى الاطلاع على الكتب الأفرنجية التى وضعها المؤلفون والسياح عن تلك الفترة ، من العهد الأول ، أى قبيل الحملة الفرنسية وخلالها وبعدها . وبقيت هذه الرغبة تتنازعنى بشدة

مرة، وبلطف أخرى، ثم تعقبها فترة إهمال وترك، حسبما تلقفني أيدى المقادير من حياتي التي أشرت إليها

ومرت عدة سنوات ولم أجمع إرادتي مرة للجلوس على مكتب لوضع خطة لتنفيذ ذلك العمل الذى ملت اليه. وهكذا بقيت فكرة وضع هذا التاريخ أشبه بما وصفه اللورد روزبرى — فى كتابه عن نابوليون فى سانت هيلين — «بشيطان أدبى»[1] متسلط على جسمي، أغالبه ويغالبني، وأطارده ويطاردنى، حتى أراد الله ولا راد لارادته، أن يندلع لهيب الحرب الأوربية الكبرى فى شهر أغسطس سنة ١٩١٤

وكنت فى ذلك الوقت أتولى رياسة تحرير جريدة المؤيد بعد وفاة مؤسسها المرحوم الشيخ على يوسف، وكان المؤيد لسان حال السراى الخديوية، وصلتى الشخصية والعمومية بسمو الخديو السابق عباس حلمى باشا معروفة، ولها فى تاريخ مصر السياسى صحيفة ذات قيمة عظيمة لم يؤن بعد أوان نشرها. فكان من مقتضى هذه العلاقة، أن يصيبنى رشاش من النكبة التى أصابته بفقدان عرشه وملكه. ففقدت كل ما لدىّ، وكل عمل أتكسب منه. فتركت تحرير المؤيد، ونار الحرب مشتعلة، والظروف قاسية، والريبة بين الناس فاشية، وسيف السلطة العسكرية مصلت على الرقاب، ولى زوج وأولاد صغار، أخشى أن يحال بينى وبينهم بالنفى أو الاعتقال، فاخترت العزلة، مع التلطف والاحتيال، وانتقلت بأسرتى الى الاسكندرية. ثم قضت بعد ذلك السلطة العسكرية الانجليزية بأن لا أبرح ذلك الثغر، وأن أبقى فيه تحت إشرافها وسيطرتها، حتى تضع الحرب أوزارها.

وحمدت الله، (الذى لا يحمد على مكروه سواه)، على الخلاص من النفى أو الأسر أو الاعتقال، الى غير ذلك من ضروب الاضطهاد التى لاقاها المشتغلون بالسياسة الوطنية، وخصوصاً كل من كانت لهم علاقة مثل علاقتى، أو أقل منها بكثير، مع سمو عباس باشا حلمى الخديو السابق

(1) Literary Ghost.

ومع أنني كنت في بيتي ، مع زوجي وولدي في مدينة واسعة الأكناف ، إلا انني كنت مع هذا أقاسي ألم الاعتقال والضغط على الحرية ، ورضوخي للاستبداد ، واضطراري الى الانقطاع عن الحياة العمومية ، الصحفية والسياسية

فتحرك في صدري ذلك «الشيطان الادبي» ، وذكرني بكتاب تاريخ مصر في القرن التاسع عشر ، ووسوس الى بأن الاشتغال بتأليف هذا الكتاب مما يساعد على قطع رقبة الفراغ بسيف العمل . فكان من أثر ذلك انني استعنت بالله وبدأت في وضع الهيكل الذي يشاد عليه بناء الكتاب ، وقسمته في الهيكل الى أربعة اجزاء بحيث يكون في كل جزء رجل أو رجلان كبيران . الاول عن الحملة الفرنسية ، حتى خروج الفرنسيين من مصر بيد الترك والانجليز ، وبطلا هذا الجزء نابليون بونابرت وكليبر . والثاني من خروج الفرنسيين الي وفاة محمد علي وبطلاه محمد علي وابراهيم . والثالث من وفاة محمد علي الى الاحتلال الانجليزي ، ورجله اسماعيل . والرابع من الاحتلال البريطاني الى الحرب الاوروبية وبطلاه عباس وكرومر

هكذا كان الهيكل ، وهكذا كانت النية !

* * *

وبدأت أبحث وانقب ، وأجمع وأرتب ، ثم بدأت اكتب ، فرأيت انه لا بد لبيان الحالة السياسية والاقتصادية والادبية والاجتماعية التي كانت عليها مصر قبل قدوم الحملة الفرنسية ، من أن أضع مقدمة وافية . واستطردت في ذلك ، وخصوصاً لما وقعت في يدي كتب قيمة قديمة لم أكن قد قرأتها ، وفيها معلومات غريبة ، مثل كتاب (ثورة علي بك الكبير ) المشار اليها في صحيفة (٦٠) من هذا الكتاب ، وغيره من كتب السياح مثل فولني ، وبروس ، وبراون ، وسونيني ، وساباري ، ودينون . فطال البحث حتى بلغ في المقدمة اربعا وستين صحيفة من هذه الطبعة بحرفها الصغير هذا

ثم رأيت من الضروري أن أضع للقارىء العربي مقدمة أخرى عن تاريخ « فكرة الحملة الفرنسية » على مصر ، واسبابها السياسية والدولية ، وكيف تطورت الفكرة في عصور مختلفة . وكان لا بد كذلك من فصل موجز واف عن نشأة وتاريخ

بنابوليون الذى فتح مصر للعالم الاوربى ، وكان له فى هذه الديار ، وفى العالم اجمع ، شأن عظيم .

ولا بد من بيان كيف اختمرت فكرة الحملة فى رأسه ، وهل جاء مصر راغباً أو مكرهاً ، واستغرق هذا البحث وذاك ما يقرب من مائة صحيفة .

كل ذلك قبل الدخول فى الحملة الفرنسية

وتفتحت معى الابواب، وتشعبت المسالك، ووجدت نفسى أسبح فى بحر خضم من عويص المباحث، ومختلف الكتب والرسائل، والمذكرات الشخصية والعمومية عن الحملة الفرنسية، بحيث لم أصل - بعد مزاولة العمل خلال سنوات أربع ، تتخللها فترات انقطاع واشتغال بشؤون الحياة - إلى نقطة يحسن الوقوف عندها، إلا نقطة مبارحة نابليون أرض مصر ، وجاء ذلك فى هذا المجلد الضخم بهذا الحرف الصغير!

وكل ذلك لم يزد على نصف الجزء الأول من هيكل الكتاب كما كنت قد رسمته وصورته فى مخيلتى. فوقفت ثم أخذت ابحث عن كتب لم اطلع عليها ، ومذكرات لم تصل يدى إليها ، فاتسع المجال، واتفسح ميدان الخيال .

***

والقت الحرب أوزارها وارتفع كابوس الاعتقال، فطويت صحائف الكراريس والمسودات والتعليقات والمذكرات، وهرعت إلى ميدان العمل فى النهضة الوطنية، والحركة السياسية والصحافية، على أمل ان اعود إلى الكتاب فأتمه واكمل مافيه من نقص فى فرصة أخرى

ومرت على ذلك سنوات خمس والكتاب فى صحائف مبعثرة . وأوراق متناثرة، ومذكرات ومقتطفات متنوعة، وتعليقات متوزعة . . . وقد مل شيطانى ، وهجر دماغى، لأنها امتلأت كخلية النحل ، بكثير من المشاكل التى تلهى عنه، وكدت أنسى ما كتبته حتى أهملته ، لولا حنين كان يتولانى من آن لآخر ، ولولا ان زوجتى الفاضلة كانت تذكرنى به فى أوقات مختلفة ، لانها اشتركت فيه معى بروحها، ومساعدتها لى فى تعريب بعض القطع من الفرنسية إلى العربية، فى الأيام التى قضيتها معها فى شبه منفى بالاسكندرية . ومع كل هذا فلم أقدم على مباشرة طبع الكتاب

أو تنقيحه، لانني أعتقدت أنه عمل ناقص، وأنه ليس فى مقدورى ولا من رغبتى أن أتمه . وكنت أسوف، وأؤمل أن أنقطع له مرة أخرى، ولكن الفرص لم تتهيأ، والظروف لم تساعد .

وحدث انني مرضت ذات مرة فى صيف العام الماضى وتولانى يأس من الحياة وخيل لى ان المنية غدت قاب قوسين أو أدنى، فكان أشد ما يحزننى أننى قد أموت قبل ان أبرز للوجود هذا الذى عملته ! فلما منّ الله بالشفاء نظرت إلى مسودات هذا الكتاب، وقلت فى نفسى : قد أمرض ثانية وأموت ولا يتم هذا العمل ولا يطبع ولا ينشر، وهيهات أن يتولى إنسان تنقيحه وطبعه بعدى . وهكذا يزول من الوجود أثر من عمل أجهدت فيه نفسى، وانصرفت إليه بكل ما فى روحى من لذة معنوية ورغبة صادقة أدبية ووطنية

تخطر لى أن أبدأ بطبع ما كتبت : وأن أكتفى بما اليه وصلت، ولئن يظهر هذا العمل، على غير ارادتى، ناقصاً — أو بعبارة أخرى، أقل مما كانت تصبو اليه نفسى، وتتوجه اليه مطامعى، — فذلك أولى من أن لا يظهر مطلقاً، وأولى من أن تعدو عليه العوادى فتذهب به كأن لم يكن، وكأن لم أقض فى مزاولته عدة سنين من زهرة الحياة !

واختمر هذا الرأى بنفسى فاقدمت، وشرعت فى طبع ما كتبت . وأنا آسف على أن الزمن لم يسمح لى بان أصل بالكتاب إلى ما أردت، أو ما اليه طمحت !

ومع ذلك كانت تعاودنى رغبة الاصلاح والاتقان فكنت أمعن فى البحث والفحص، وكثيراً ما كنت أوقف الملزمة أسبوعا وأسبوعين حتى أحقق بعض النقط فى بعض المصادر التى كنت أعثر عليها فى المكاتب . ثم أحوّر وأغيّر، وأزيد وأنقص، وقد صبر معى القائمون « بمطبعة مصر » صبراً جميلاً يشكرون عليه، حتى وصلت الى النتيجة التي يراها القارىء بين يديه .

وها هو الآن بين يدى قراء اللغة العربية وأترك لهم الحكم عليه وعلى قيمته وحقه فى المنزلة التاريخية والعمل الأدبى . وكيفما كان حكمهم الذى يصدرونه عليه، فانني واثق من شىء واحد، وهو أنهم سيعترفون معى أننى وضعت أسلوباً جديداً

فى كتابة التاريخ العربى ، وأنني رسمت خطة لمن يريد أن يقتفى أثرها و يزيد فى تحسينها واتقانها ، وأننى بعبارة أوجز قد أزلت بعض الأنقاض ، وزفعت قليلا من الأتربة المتراكمة فى طريق من يريد السير فى اتمام هذا العمل

ويرى القارىء فى صحيفة ١٥٥ و ١٥٦ من هذا الكتاب إشارة الى ما كابدته وقاسيته من صعوبة البحث، ومن اظهار الأسف من أن الحكومة المصرية، وكتاب اللغة العربية منذ زمن محمد على، لم يظهروا أقل عناية بوضع كتاب مفصل عن تاريخ الحملة الفرنسية ، من المصادر العديدة والمجلدات الضخمة الموضوعة عن هذه الفترة باللغة الفرنسية، مع تحقيق كان أقرب سهولة فى أيام محمد على باشا وابراهيم باشا مثلا ، منه فى هذا الزمن بعد طول المدة وانقراض الذين عاشوا فى تلك الأيام القريبة . فأوجه نظر القارىء الى تلك الملاحظة

ومن هذا البيان يظهر للقارىء المفكر أنني فى هذا الكتاب لم أقم إلا بنصف الجزء الأول من الأجزاء الأربعة التى وضعتها هيكلا لكتاب تاريخ مصر فى القرن التاسع عشر . فهل من يقدم على إتمام الأجزاء الباقية على هذا النمط أو أحسن منه ؟ أما أنا فلا أؤمل أن أوفق للزيادة على هذا الذى فعلت ، الا أن يشاء الله غير ذلك

***

ولما لم يعد الكتاب تاريخاً كاملا لمصر فى القرن التاسع عشر ، كما أردت، ولم يصبح تاريخاً كاملا للحملة الفرنسية من بدئها الى نهايتها ، اخترت له اسمه الحالى ( فتح مصر الحديث ) لأن اليوم الذى وطئت فيه قدم نابوليون بونابارت أرض مصر بحملته ، كان يوماً فاصلاً بين القديم والحديث ، وكان فتحاً لباب مصر ومسألتها على مصراعيه للتدخل الأوروبى . وقد قلت فى هذا الصدد :

« كان ظهور السفن الفرنسية ، بمن تقل من جنود وضباط وقواد وعلماء ، وذخائر وبنادق ومدافع ، فاتحة عصر جديد لمصر ، بدأ بالاحتلال الفرنسى ، تحت قيادة أعظم القواد الحربيين الذين أظهرهم هذا الوجود ، ثم عقب بالنزاع بين أوربا، حول هذه البقعة المسماة وادى النيل . . .ذلك النزاع الذى ما برح يظهر على

جميع الاشكال ، وغريب الأحوال ، من مطاردة الفرنسيين وإخراجهم ، إلى معاضدة المماليك ، بانزال قوة انكليزية على الشواطىء المصرية ، ثم بمقاومة محمدعلى ، وإيقافه عند حد لا يتعداه ، فى مشروعاته ومطامعه ، ثم بالمعارضة فى فتح قنال السويس ، إلى التدخل فى أمور مصر المالية ، حتى كانت الثورة العربية ، والاحتلال الانكليزى ، والحماية الظاهرة ، والمقنعة ... كل هذه الحوادث والمشاكل خلقها وضع فرنسا قدمها فى مصر ، فانه من ذلك الحين ، أوجست انكلترا خيفة من تعاظم نفوذ أية دولة أوربية فى وادى النيل ، أو تقوية أية سلطة محلية ، مما قد يكون عائقاً فى تنفيذ سياستها القاضية بأن يكون طريقها إلى الهند فى يدها — فكان لها القدح المعلى فى كل هاتيك الحوادث والمشاكل ، إلى ان استقر قدمها فى مصر ، عقب الثورة العرابية . . . ومع ذلك فستبقى مصر سبباً لمشاكل أوربا ومنازعاتها وحروبها ، حتى تنال استقلالها التام بطريقة تجعل الباب مفتوحاً ، والثقة فى التساوى كاملة ، أو يحكم الله بأمر من عنده وهو خير الحاكمين »

* * *

لهذا سميته ( فتح مصر الحديث ) أى فتحها للنزاع الدولى ، والمدنية الأروبية ، والمستقبل السعيد لوادى النيل — من البحر الابيض المتوسط الى بحيرة فكتوريا نيانزا !

ولن يقف فى سبيل الوصول الى هذه الغاية ، بهمة الجيل الجديد ، والقومية الحديثة ، والتقدم الى الامام أحد ، كائناً من يكون !

هذا هو اعتقادى فى مستقبل مصر الكبرى ، أضعه أمام أبنائنا وأحفادنا مناراً يهتدى به ، وغاية تتوجه اليها النفوس والقلوب والعقول

والله سبحانه وتعالى يحقق للناس ما يتوجهون اليه باخلاص ومثابرة وعزم صادق

القاهرة فى ١١ ديسمبر سنة ١٩٢٥ — احمد حافظ عوض

# مصر قبل الحملة الفرنسية

## — ١ —

**مجمل تاريخ المماليك — المماليك والدول الاسلامية — نشأتهم — طبقاتهم في مصر — رقي المماليك البحرية — عمائرهم وتمدنهم — مصدر ثروتهم**

---

قبل الدخول في الكلام على الحملة الفرنسية على مصر وأسبابها ، وكل مايتعلق بها مما هو موضوع هذا الكتاب ، نرى من الواجب علينا أن نستفتحه بمقدمة وافية عن الحالة التي كانت عليها مصر قبل تلك الحملة

فنقول : —

كانت الديار المصرية منذ منتصف القرن الثالث عشر ، الى نهاية القرن الثامن عشر الميلادي ، أي الى يوم سقوطها في يد نابليون ، تحكمها وتتحكم في رقاب أهلها ، طغمة المماليك من بقايا الطبقة الثانية منهم . ولكي نوفي التاريخ حقه يجب علينا أن نشرح للقارىء ، بايجاز يليق بالمقام ، من هم المماليك ، وماهو أصل نشأتهم ، وأسباب قوتهم ، و بقاء سطوتهم ، ونوضح بقدر الاستطاعة ، الدور الذي لعبوه ، في تاريخ الشرق والاسلام ، الى يوم انقراضهم

يبتدىء تاريخ المماليك باقبال أواخر خلفاء الفاطميين على شراء المماليك الشبان بكثرة من قارة آسيا ، لاتخاذهم عبيداً وحراساً وبطانة . واستمرت هذه الحال حتى زمن الدولة الايوبية . وقد استفاد بهم صلاح الدين أعظم الفوائد ، فانه ألف من أولئك المماليك الاشداء الاقوياء جيوشاً قهر بها أوربا في جميع الحروب الصليبية . ولكن خلفاءه ضعفوا عن أن يستخدموهم كما استخدمهم صلاح الدين ، حتى اذا ولي الحكم الملك الصالح ، أكثر من ابتياع المماليك وجعل منهم أمراء دولته ، وخاصة بطانته ، فصار لهم من النفوذ ما جعلهم يتخذون لهم دوراً خاصة ، في

جهات منيعة تحكم على المدينة (فى جزيرة الروضة بالنيل) ومن أجل ذلك لقبوا «بالمماليك البحرية» ثم اشتد ساعدهم، وقوى جاههم، وفعلوا بالدولة الايوبية على ضفاف النيل، مثل ما فعل أشباههم، وأبناء نوعهم، فى الدولة العباسية على ضفاف الدجلة، اذ انتهى الامر بهم الى قتل آخر ملوك الدولة الايوبية وهو السلطان «توران» المعظم فى نفس الوقت الذى كان فيه لويس الحادى عشر، — الذى يلقبه كتاب الافرنج بالقديس لويس — يحاول بعد حبسه أن يعقد معهم اتفاقية سياسية فى عام ١٢٥٠ ميلادية

***

مثل المماليك فى تاريخ الدول الاسلامية، والممالك الشرقية، دوراً مهما جعل من الواجب على المؤرخين، أن يضعوا له بحثاً خاصاً، وتحقيقاً دقيقاً، ليظهروا ما كان لتلك الطغمة من الاثر الطيب أو السيء، وليشرحوا أيضاً ما اذا كان فى ظهورهم، وتقوية شأنهم، بل وفى ذكائهم ونشاطهم، وقوة بأسهم، فائدة للأمم الاسلامية، بحيث استطاعت أن ترد وقتاً ما بأولئك المماليك غارات الامم المسيحية، من القرن الثالث عشر الى القرن التاسع عشر؟ أوهل كان ظهور أولئك المماليك على مسرح السياسة الشرقية الاسلامية، سواء فى آسيا، أو شمال أفريقيا، — سبباً فى اضمحلال النهضة العربية الاسلامية الصحيحة، وقضاء على الحياة العلمية الفكرية، التى ابتدأت فى الازهار على شواطئ دجلة والفرات والنيل، فى عهد الدول الأموية والعباسية، والفاطمية، وماتفرع من الدولة العباسية من الدول الصغيرة، كدول بنى بويه وحمدان وغيرهما.

ان الجواب الصحيح على هذه الاسئلة يحتاج الى بحث مفصل، وتحليل دقيق، فى مؤلف خاص بهذا الموضوع، وهو ما لا يحتمله هذا الكتاب الذى وضع لغرض آخر، وزمن أحدث. ولكننى أغتنم هذه الفرصة لألفت اليه نظر محبى المباحث التاريخية: وفى رأيى أن الحكم فى هذا الباب مجازفة لا تصح، قبل عرض جميع الحوادث ونتائجها، وأسبابها، ومسبباتها، من وجوهها المختلفة.

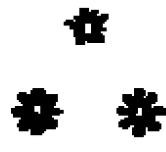
على أن الذى يهمنى من بحثى هذا من الوجهة المصرية الوطنية القومية ، هو أننى أميل الى الرأى ، بأن المماليك وخصوصا الطبقة الثانية منهم ، — كانوا سبباً فى بلاء هذه الديار ، وعذاب أهلها مدة طويلة من الزمان ، اذ صيروا وادى النيل ، ميداناً للسلب والنهب والمظالم ، كما سترى ذلك مفصلا فى بابه .

***

كلمة « مملوك » ، اسم مفعول من «ملك» ، وهو ظاهر المعنى لا يحتاج لايضاح وقد ذكر المؤرخون أن منشأ المماليك فى جهات « قفجان » من شمالى آسيا ، وأنه لما غزا المغول تلك الاصقاع تحت قيادة باتوخان حفيد جنكيزخان ، ساموا أهلها الذل ، وفتكوا بهم فتكا ذريعاً ، حتى هاجر سكان الولايات القسبينية والقوقاسية ديارهم ، فضعفت قبائلهم وتشتتت فى بلاد آسيا الصغرى . وكانت تجارة الرقيق الأبيض والاسود فى شدة انتشارها ، فكان النخاسون يبتاعون أحسن أبنائهم وأجملهم وأقواهم ، من أقاربهم أو آبائهم ، أو كانوا يختطفونهم فيبيعونهم لمن أرادوا من امراء وأغنياء الديار السورية والعربية والمصرية ، فيشب الفتى وقد نسى قومه وجنسيته ، واندمج فى سلك أمثاله المماليك تحت رعاية كبير منهم ، أو أمير من أمراء العرب أو غيرهم ، يقربونهم اليهم ، ويحبونهم لجمالهم وذكائهم وولائهم فى خدمتهم ، فيرقونهم بعد أن يشتد ساعدهم فى بطانتهم ، وعند ذلك تتطلع نفوسهم الى مراتب العز ومنازل الامارة والشرف بل الى الملك ذاته ، لأنهم كانوا يعرفون أن أمثالهم من المماليك الأرقاء الذين ابتيعوا صغاراً ، وربوا فى أحضان أسيادهم وملوكهم ، شبوا على الفروسية والاقدام ، ووصلوا الى أرقى مناصب الملك والسيادة . ولم يكن يخفى على صغيرهم قبل كبيرهم أن سلاطين المماليك — بعد الدولة الأيوبية — من عهد الملك الظاهر بيبرس ، فالملك المنصور قلاوون . فالسلطان حسن ، وبرقوق ، وبرس باى ، وقايت باى ، وجميع ملوك هذه الدولة وسلاطينها لم يكونوا الا مماليك ، أو أبناء مماليك مثلهم . ولقد روى الاسحاقى فى تاريخه رواية — وهى وان تكن من قبيل الاقاصيص التى لا يعتمد عليها المؤرخ ، الا أنها مثال

للتصورات العقلية ، والآمال النفسية ، التى كانت تدور بخلد المملوك وهو رقيق صغير. روى الاسحاقى عن عبدالملك الاشرف قايت باى المحمودى ، أنه لما جلبه الخواجا (كذا) محمود الى مصر وكان معه رفيقه أحد المماليك الذى جلب معه تحدثا مع الجمال « قائد الجمل » الذى يحملهما الى مصر فى ليلة مقمرة ، فقالا لعل هذه الليلة هى ليلة القدر التى يستجاب فيها الدعاء ، فليدع كل منا بما يحبه . فأما قايتباى فقال أنا أطلب من الله تعالى سلطنة مصر ، وقال الثانى وأنا أطلب من الله أن أكون أميراً كبيراً . أما الجمال فقال أما أنا فأطلب « حسن الخاتمة » فصار قايتباى سلطاناً وصاحبه أميراً ، فكانا اذا اجتمعا يقولان «فاز «الجمال» من بيننا !!» فانظر كيف كانت تحدث المملوك نفسه بالرقى الى مصاف الملوك !! فهل كان هذا رقاً واستعباداً ؟

لم يكن « الرق » الذى ينسبونه الى المماليك الا كلمة لا معنى لها ، لأنهم لم يكونوا هم الارقاء ، بحق البيع والشراء ، بل كان الأرقاء ، فى الواقع ونفس الأمر ، هم المصريون من جميع طبقاتهم . . . !



يقسم المؤرخون الحديثون من كتاب الشرق تاريخ المماليك فى مصر الى دولتين يسمون الاولى دولة « المماليك البحرية » وقد سموا بهذا الاسم لأنهم فى مدة حكم الملك الصالح ، ابتنوا دوراً كبيرة ، ومعاقل متينة ، عند الروضة حيث يتفرع نهر النيل الى فرعين ، ويسمى بالبحر الكبير ، فلقبوا لذلك بالمماليك البحرية ، ومدتهم على هذا التقسيم من سنة ١٢٥٠ الى ١٣٨١ ميلادية ، ويسمون المماليك الذين خلفوهم من أول السلطان برقوق من سنة ١٣٨١ الى سنة ١٥١٧ ، أى الى حين الفتح العثمانى ، بدولة المماليك البرجية ، « نسبة الى الابراج » ، أو الشراكسة « نسبة الى أصلهم »

ولما كان الفتح العثمانى لم يقض على سلطة المماليك ، بل زادها بعد ذلك عتواً وتجبراً ، كان الاولى — على رأيى — أن يقسم تاريخ المماليك فى الديار المصرية الى قسمين على النمط الآتى :

الاول من سنة ١٢٥٠ أى بعد انقراض الدولة الايوبية الى سنة ١٥١٧ وهو تاريخ الفتح العثمانى

الثانى من ١٥١٧ الى ١٨١١ أى الى أن قضى « محمد على » على البقية الباقية منهم فى مذبحة المماليك المشهورة بالقلعة

ولا عبرة بقولهم ان القسم الأول من المماليك البحرية كان من جنس غير جنس المماليك الشراكسة (الذين يبتدئون على حسب آراء المؤرخين الحديثين ، من تولية السلطان الظاهر برقوق الجركسى ) لأن المماليك فى أول أمرهم وفى أواخر الدولة العباسية ، الى مذبحة القلعة ، لم يكونوا من جنس خاص ، ولا من أمة معلومة ، بل كانوا دائماً خليطا ممن يباع ويشترى من الفتيان الحسان الأقوياء ، سواء أكانوا من شواطئ بحر قزوين ، وأواسط آسيا ، من تتر ومغول وشركس ، أم كانوا من بحرايجه من الأروام ، وجزر البحر الأبيض المتوسط . وهذا السلطان الظاهر «حوشقدم» ، من مماليك الطبقة الاولى ، يلقب بالرومى ، لأنه يونانى الأصل ، ويلقب بالناصرى ، ومع اسلامه ، كان له ولع بالعلوم والآداب اليونانية القديمة . وربما كان فيهم من أجناس مختلفة من الشعوب القائمة حول الادرياتيك ، أو من جزائر ايطاليا والبحر الأبيض على الاجمال .

ولولا أن المماليك كانوا فى القسم الثانى ، أتباعاً للدولة العثمانية ، ولو بالاسم ، وانهم لم يلقبوا أنفسهم بألقاب « الملك » « والسلطان » — اللهم الا أن يكون واحد منهم وهو على بك الكبير سنة (١٧٦٣—١٧٧٤) م . — لما كان ثمت داع الى تقسيم مدتهم الى دورين ، ولاكتفينا ، واكتفى المؤرخون بالقول بأن المماليك حكموا مصر من عام ١٢٥٠ الى حوالى ١٨١١ ، مع استثناء مدة الاحتلال الفرنسى ، وأول ظهور سلطة محمد على

***

## القسم الاول

كان مماليك القسم الاول من عام ١٢٥٠ الى الفتح العثمانى ١٥١٧ أرقى أخلاقا وأفضل سياسة ، وكان يظهر فيهم من وقت لآخر فحول سياسة ورجال عدل

ونظام ورفق بالرعية ، وكان مما يصلح شأنهم ، أن الوراثة كانت توجد بينهم من وقت لآخر مما ثبت دعامة الملك ، ولم يدعها مطمعاً لكل سفاك للدماء طامح للسلطة والامارة

امتاز مماليك هذه الطبقة بما تركوه فى القاهرة وضواحيها من الآثار النفيسة ، والمساجد البديعة النادرة المثال ، وما أبقوه من العمائر التى تدل على ذوق راق ورفاهية تضرب بها الأمثال

يقول العلامة (لاين بول) فى كتابه المسمى « القاهرة »

« لقد جمع هؤلاء المماليك بين المتناقضات التى لم تجمع فى طبقة من الامراء فى أى زمان أو مكان ، فبينما نعرف أنهم عصبة من الأفاقيين ابتيعوا بيع السلع ، ونشأوا أرقاء ، وربوا سفاكين للدماء ، ظالمين للعباد ، مخربين للبلاد ، نجد منهم ميلا غريباً للفنون ، يحق لأى ذى عرش وصولجان ، أن يفخر به على الأنداد والاقران ، ولقد أظهر هؤلاء المماليك فى لباسهم ، وفراشهم ومسكنهم ، وعمائرهم ذوقاً سامياً ، ورفاهية بالغة ، يصعب على أوروبا الآن ، فى عصرها « الاستاتيقى » المحب للجمال والتأنق ، أن تدانيهم فيه »

أنظر الى ما يوجد الآن فى القاهرة من المساجد الكبيرة التى تناطح مآذنها السحاب تجد أنها بنيت فى عصر مماليك الطبقة الاولى.. أنظر الى جوامع قلاوون ، والناصر ، والناصر بن قلاوون ، والسلطان حسن ، وبرقوق والمؤيد ، والاشرافية وقايتباى ، ثم انظر الى قباب قبور المماليك بالصحراء ، تر من جلال البناء ، وبديع العمارة ما لايدانى وكل ما بنى بعد ذلك فى العصر الاخير من القرن التاسع عشر ، انما هو تقليد وتشبيه بهاتيك العمائر ، التى تفخر بها القاهرة على مدن العالم

## من أين للمماليك بتلك الثروه ؟

هنا لا يجد المؤرخ المحقق مناصاً من النظر الى الحالة الاقتصادية التى كانت عليها مصر فى تلك المدة ، لأن موارد مصر معروفة ، وهى هى فى كل عصر من حيث الثروة الزراعية ، والتى لا يوجد فى وادى النيل مصدر سواها .ولم تكن

تربة مصر فى ذلك الحين كانت أخصب مما هى الآن ، بل لم تكن لحاصلاتها أسواق تباع فيها بأزيد مما تباع به اليوم . فمن أين كان للماليك ذلك اليسار وتلك الثروة الواسعة ، وتلك الاموال التى استطاعوا الانفاق منها على بناء هاتيك العمائر ، وعلى ما كانوا ينفقونه على ترفهم ونعيمهم ، وشراء المماليك والسرارى — ولم يكن ثمن المملوك مما يستهان به ، فكثيراً ما ذكر المؤرخون أنهم كانوا يبتاعون المملوك أو الجارية بألف أو ألوف من الدنانير . وقد جاء فى بعض التواريخ أن السلطان سليمان لما فتح مصر ووضع نظام حكومتها — ذلك النظام الذى سنشير اليه ، والذى ترك السلطة فى يد المماليك وأدى الى خراب هذه الديار — وأراد العودة الى بلاده نقل معه ألف جمل محملة ذهباً وفضة ، فضلا عن أسلاب اخرى وهدايا ثمينة.

ولم تكن فى أرض مصر مناجم للذهب ، ولا مصادر أخرى للثروة غير محصول الزرع . وكان المزروع منها قليلا ، والنيل يغمر أكثر بلادها فلا يستفاد به فى زمن الفيضان . فمن أين كانت لمصر وللمماليك كل هذه الثروة ؟

لم أجد بين المؤرخين الذين نقبت فى كتبهم من عنى بهذه النقطة ووفاها حقها من البحث العلمى والتاريخى مثل مستر « كامرون(١) » فانه وقف مثلما وقفنا عند حالة مصر الاقتصادية وسأل كما سألنا من أين كان يأتى المال ؟ ثم جاء بالجواب الشافى بعد بحث واستقراء فى المصادر الانجليزية المختلفة من كتب وتقارير رسمية ، فقال ماخلاصته :

انه لما كان المماليك أصحاب السلطة المطلقة فى مصر ، وفى سوريا أيضاً فقد ، وقعت فى قبضتهم جميع الموانىء وطرق القوافل التى توصل الى أوربا متاجر البلاد الهندية ، وغيرها من بلاد الشرق الاقصى ، بذلك تمكنوا من فرض الضرائب التى يريدونها على كل كمية من البضاعة الهندية التى تمر من طريق البحر الاحمر الى القاهرة ، ثم الى الاسكندرية ، وكذلك من طريق الخليج الفارسى الى البصرة ، وطريق القوافل منها فيناء ،

---

(1) Egypt in the Nineteenth Century by A. D. Cameron.

اسكندرونه لتنقل منها الى فينيسيا ( البندقية ) التى كانت واسطة لهم فى ايصال المتاجر الشرقية الى أوربا . وقد بقى هذا الاحتكار الاقتصادى، المنتج للمال، فى أيدى المماليك حتى اكتشف ( فاسكو دى جاما ) البرتغالى ، طريق رأس الرجاء الصالح الى المياه الهندية — ولم يكن قد دار أحد حول أفريقيا بحراً مثله. ولكى يصور القارىء لنفسه مقدار الثروة التى كانت تدخل فى أيدى المماليك ، نضرب له مثلا ، جاء به مستر كامرون ، كما هو.. قال:

« فلنفرض أن تاجراً من العرب ابتاع من البضائع الفارسية أو الهندية ، أصنافا كالحرير والبهارات والنيلة ، ماقيمته عشرة آلاف جنيه ، ثم أرسل هذه البضائع بحراً الى البصرة من طريق الخليج الفارسى ، أو بحراً الى السويس من طريق البحر الاحمر ، — وكان فى الغالب يفضل ارسال تجارته عن طريق السويس فالقاهرة فالاسكندرية ، لأن البصرة ، وان كانت أقرب اليه براً ، ولكن طريق القوافل من البصرة الى حلب فاسكندرونة أبعد شقة ، وأصعب مشقة ، وأكثر تعرضاً للصوص ولهذا كانت طريق مصر عند التجار أضمن وأروج .

قدرنا بضاعة التاجر بنحو ١٠٠٠٠ جنيه وهذه البضاعة حين تفرغ من السفن فى ميناء السويس تضرب عليها ضريبة لا تقل عن ٤٠٠٠ جنيه فيكون ثمنها على التاجر ١٤٠٠٠ جنيه ، وتقدر فى أرض مصر بحراً وبراً بعشرين الف ، وفى مرور هذه البضاعة فى أرض مصر يضاعف ثمنها حتى تباع فى الاسكندرية بنحو ثلاثين ألفاً ( بما يدفع للمماليك الحكام من الضرائب المشروعة وغير المشروعة ) لتاجر من تجار البندقية «فينيسيا» فلا يستطيع شحن هذه البضاعة فى السفن لاوربا، قبل أن يدفع مبلغ ٥٠٠٠ جنيه ضريبة الاصدار، فيكون مجموع ما وصل — من ثمن البضاعة التى كلفت الاوربى ٣٥ الف جنيه — الى سلاطين المماليك وأمرائهم فى أرض مصر ، مايقرب من ١٠٠٠٠ جنيه أى نحو ربع ثمن البضاعة فى تقديرها الأخير أو قيمة ثمنها الاساسى ، وقس على ذلك

ويضرب المستر كامرون مثلا آخر نقله عن كتاب اسمه « تقرير عن المحفوظات

القديمة لوزارة الهند» بقلم السرجورج بردوود ما يأتى «ولا مبالغة فيما ذكرنا فانه جاء فى التقرير المشار اليه انه فى سنة ١٦٢٠ صدّرت الشركة الهندية الانكليزية (التى امتلكت الهند) ٢٠٠٠٠٠ رطلا من النيلة، ابتيع الرطل منها فى مدينة «آجرا» (فى شمال الهند) بمبلغ ١٤ بنس (خمسة قروش ونصف) وبيعت فى لندره على حساب الرطل الواحد بخمسة شلنات (أى بخمسة وعشرين قرشا)»

ولاحظ أن هذا المثال المأخوذ من المصادر الرسمية كان فى عام ١٦٢٠ بعد أن استبدل طريق البحر الاحمر، والخليج الفارسى، بالطريق البحرى حول رأس الرجاء الصالح، لأن اكتشاف هذا الطريق وقع فى سنة ١٤٩٨ وقد قدر التقرير المشار اليه نفقات طريق مصر والشام بثلاثة أمثالها فى الطريق البحرى ولذلك يصح أن يقال أن ثمن الرطل النيلة كان يصل الى ١٥ شلنا بعد خمسة

ومما يجب ذكره فى بيان اثراء المماليك من مركز مصر، انه يضم الى هذه أن المسيحيين فى مقابل زيارتهم للقدس الشريف، كانوا يدفعون مبالغ من المال لمن تكون له السيادة على فلسطين من المماليك البحرية. فقد جاء فى تاريخ الدولة العثمانية تأليف المرحوم محمد بك فريد «أن السلطان سليم لما فتح مصر وعاد الى أدرنه وصل اليه سفير من قبل مملكة اسبانيا ليكلمه فى شأن حرية زيارة المسيحيين للقدس الذى كان قبلا تابعا لسلطة مصر، وتبعها فى دخولها تحت ظل الدولة العلية — فى مقابل دفع المبلغ الذى كان يدفع سنويا للمماليك.»

ومن هذا يظهر للقارىء أن التيار الذهبى الذى كان يسيل بتجارة الهند والشرق كله الى شواطىء البحر الابيض المتوسط، سواء من طريق مصر وهو الاكثر، أو من طريق سوريا، كان يمر فى أيدى المماليك فيأخذون منه ما يشاؤون من ضرائب ثم هدايا، ثم رشاوى، وهذا غير السلب والنهب، وبذلك استطاع المماليك فى الدور الاول بناء كل هاتيك العمائر وشراء المماليك والبذخ والانفاق.

وكان لهذا الحال الاقتصادية تأثير كبير على ادارة الاحكام فى البلاد المصرية، فالثروة عادة تغطى العيوب، وتدرأ المصائب، فكان المصريون من تجار وعمال

يستفيدون من تلك التجارة الشرقية الغربية، بين بيع وشراء، وقيام بما تستلزمه من نقل وتوزيع، ولذلك كان اليسار فاشياً بين المصريين، وكان المماليك من جهة أخرى قانعين بما يفرضونه من الضرائب على المتاجر الأجنبية وما يدخل فى خزائنهم من المال بحيث لم يروا ضرورة لظلم الفلاحين، ومصادرة التجار المصريين، واستلاب ما فى بيوت الناس من خير وبركة، كما اضطر أن يفعله خلفاؤهم المماليك بعد الفتح العثمانى، الذى حصل بعد اكتشاف طريق الرجاء الصالح وتحويل المتاجر الاسيوية بحراً الى أوروبا، بزمن قصير جداً (الأول فى ١٤٩٨ والثانى فى ١٥١٧)

## ﴿ اكتشاف الوصول الى الهند بحرا وتأثيره على ثروة مصر ﴾

ولقد أثر اكتشاف طريق البحر حول أفريقية، على ثروة مصر تأثيراً كبيراً اضطر معه سلطان مصر فى ذلك الحين، الى أن يبعث بعمارة بحرية الى مياه الهند لمحاربة البرتغاليين، واتلاف سفنهم، لأن «فاسكو دى غاما» البرتغالى لما دار حول رأس الرجاء الصالح، ثم وصل الى الهند سنة ١٤٩٨، وعاد منها الى بلاده، حرض قومه (كما فعل قرينه كولمبوس بعد اكتشاف أمريكا) على امتلاك البلاد الهندية التى زارها، وفعلا احتلوا جزءاً كبيراً من الجهة الغربية من الهند ولا تزال لهم مستعمرة برتغالية صغيرة للآن

قال جورجى زيدان: فى سلطنة «قانصو» الغورى (من ١٥٠١ — ١٥١٦) مانصه «ثم كانت الحوادث السياسية فتوقف الغورى عن اتمام ما كان يقصده من البناء والتحسين (فى جامعه ومدرسته فى أول شارع الغورية) لأن البرتغاليين لما استولوا على بعض بلاد الهند اثقلوا على العلاقات التجارية بينها وبين مصر فجهز قانصو الغورى إلى محاربتهم حملة عظيمة ذهبت غنيمة باردة لجيوش الافرنج فى البحر الاحمر» اهـ

بهذه العبارة الخفيفة مر المؤرخ جورجى زيدان على أكبر حادث فى تاريخ «مصر الحديث» دون أن يقدر له قيمته، فأولا لم يذكر لنا كيف بعث الغورى بهذه

الحملة العظيمة براً أم بحراً ... وقوله اتفقوا على العلاقات التجارية» لا يدخل فى ذهن القارئ نوراً يضيء له سلسلة الحوادث ، وتأثير وجود البرتغاليين فى الهند على ثروة مصر ، بل وثروة الشرق كله ، لأن الدولة العثمانية لم تدرك الخطر المحيق بالملا كها فى مصر وآسيا من استيلاء الأوربيين على البلاد الهندية ، ولو أراد الله وأوتى رجال الدولة العثمانية سعة فى المدارك السياسية ، لفضلوا الاستيلاء على شواطىء الهند الغربية ، على التوغل فى أوربا فكانوا بذلك يمنعون المتاجر الهندية من الذهاب الى أوربا ، قبل أن تمر ببلادهم ، مصر أو سوريا ، ثم كانوا ينشرون الدين الاسلامى فى بقية البلاد الهندية ، وكان الترك ، بدلا من محاربتهم لجمهورية البندقية ، واستيلائهم على جزر البحر الابيض — تلك الجزر التى لم تبق فى يدهم طويلا ، وكلفت من الاموال والرجال مالا يدخل تحت حصر — يتفقون مع فينيسيا على عدوهم وعدوها ، وهو الاستعمار الأوربى فى آسيا

ويرى الباحث من هذا أن سوء سياسة الدولة العثمانية كانت سبباً فى الاضرار بمصلحة مصر وثروتها ، كما كانت من بعد سبباً فى تركها فى أيدى مماليك الطبقة الثانية يسومون أهلها سوء العذاب ، حتى صارت الى ما صارت اليه ، عند قدوم الحملة الفرنسية تحت قيادة نابوليون بونابارت

والحق يقال ان جمهورية فينيسيا كانت أعرف بالخطر المحيق بثروتها وثروة مصر من الاتراك ، فانها هى التى حرضت السلطان الغورى على ارسال تلك الحملة الى المياه الهندية ، وهى التى أرسلت له بالاخشاب اللازمة لبناء السفن فى البحر الاحمر ، وكانت هذه الاخشاب تنقل على ظهور الجمال من الاسكندرية الى السويس ويتولى عمال مهرة من الفينيسيين إنشاء السفن ، ويؤكد السير بردوود فى تقريره الذى سبقت الاشارة اليه ، أن الفينيسيين اشتركوا بجيوش فى الحملة المصرية البحرية. وذكر: أن ذلك الاسطول المصرى سافر من السويس والتقى بالاسطول البرتغالى على شواطىء بومباى وأن الاسطول المصرى قهر البرتغالى وحطم سفنه وبمات قائده واسمه « لورانزو المائيدا »(Lorenzo da Al Maeyda) وهو ابن

حاكم الولايات البرتغالية فى الهند الغربية. وأخذ الهنود يقاومون البرتغاليين ، ويقلبون لهم ظهر المجن ، فخاف البرتغاليون العاقبة وجمعوا أسطولا جديداً قهروا به الأسطول المصرى الفينيسى ، فى شهر فبراير سنة ١٥٠٩ على مقربة من جزيرة ديو (Dio) ولا شك أن هذه المعركة البحرية كانت من المعارك الفاصلة فى التاريخ ، اذ لو أتيح للمصريين الفوز الاخير ، لقضى على الاستعمار الأوربى فى الهند الى زمن طويل ، ولبقيت مصر ، وبلاد الدولة العثمانية ، تتمتعان بثمار التجارة الهندية .

وعلى مثل هذه الحوادث الكبرى يمر مؤلفو تاريخ مصر ، الحديث ، مروراً غير لائق بمقام التأليف .

وكانت نتيجة تحويل التجارة الاسيوية عن طريق مصر عظيمة فى ادارة البلاد ونظاماتها وثروتها ، الى درجة أدت الى خراب مصر ، اذ بقى المماليك ، وبقى بذخهم ، وبقى تعودهم على الترف والنعيم ، وقل الوارد من الخارج ، فتحولوا الى امتصاص دماء المصريين حتى أوصلوهم الى ما يقرب من الفناء كما سيمر على القارىء فيما يلى :

## الفتح العثماني لمصر

بعد ثمانية أعوام مرت على تلك المعركة البحرية فى المياه الهندية أقبل السلطان سليم العثمانى على مصر بجيش جرار وبعد وقائع ومعارك مع السلطان الغورى فى مرج دابق ، قرب حلب — وبعد معارك مع خلفه « طومان باى » بالقرب من الخانكة — دخل القاهرة (فى شهر يناير سنة ١٥١٧) عنوة ولاقت العاصمة من جيوش العثمانيين الامرين ، اذ دار القتال فى شوارعها وحاراتها ، وأمعنوا فيها قتلا وسلباً ، ونهباً وحرقاً ، حتى لقد بلغ عدد من قتل من جنود المماليك ، ومن أهالى المدينة ، أكثر من خمسين ألفاً بشهادة مؤرخى الترك أنفسهم

ومن هنا يبتدىء القسم الثانى لحكومة المماليك (١٥١٧ — ١٧٩٨) لأن

السلطان سليم لما افتتح مصر كان فى امكانه القضاء المبرم ، على المماليك الجراكسة وغيرهم ، وكانت مصر استراحت من مظالمهم ، وتمكنت الدولة العثمانية من وضع نظام ادارى يجمع بين النفوذ العثمانى ، وبين تقدم الامة المصرية ، واستعمار هذه الديار على الطرق الحديثة . ولكنه على مايظهر ـ من جميع أقوال مؤرخي هذه الفترة الثقات ـ خاف لبعد مصر عن مركز الحكومة العثمانية (ولم يكن ثمت سكك حديد ولا سفن بخارية) أن يستضعف أحد الولاة جانب المصريين ، وهم دائماً مستضعفون ، ثم يبسط نفوذه فى البلاد ، ويستقل بها . وفى هذا الصدد يقول المرحوم على باشا مبارك ، فى الجزء السابع من « خططه التوفيقية » ماخلاصته .

لما أخذ السلطان سليم مصر ورأى غالب حكامها من المماليك التى ورثوها عن ساداتهم رأى ان بعد الولاية عن مركز الدولة ربما أوجب خروج حاكمها عن الطاعة ، وتطلبه للاستقلال . فجعل حكومة مصر منقسمة الى ثلاثة أقسام وجعل فى كل قسم رئيساً ، وجعلهم جميعاً منقادين لكلمة واحدة وهى كلمة وزير الديوان الكبير ، وجعله مركبا من الباشا الوالى من قبله ، ومن بكوات السبع وجاقات وجعل للباشا مزية توصيل أوامر السلطان الى المجلس ، وحفظ البلاد ، وتوصيل الخراج الى القسطنطينية ، ومنع كل من الأعضاء عن العلو عن صاحبه ، وجعل لأعضاء المجلس مزية نقض أوامر الباشا بأسباب تبدو لهم وعزله ان رأوا ذلك ، وجعل حكام المديريات الأربع وعشرين من المماليك وخصهم بمزية جمع الخراج الخ .... ثم استطرد فقال : وبهذا الترتيب تمكنت الدولة العلية من ابقاء الديار المصرية تحت تصرفها نحو مائتى سنة ، ثم اهملت تلك القوانين ولم تلتفت الدولة لما كان يحصل من المماليك فى الأمور المخلة بالنظام فضعفت شوكة الدولة وهيبتها التى كانت لها على مصر واخذ البكوات تكثر من المماليك وتتقوى بها حتى فاقت بقوتها الدولة العثمانية فى الديار المصرية فآل الامر والنهى لهم فى الحكومة ، وصارت سلطة الدولة فى مصر صورية غير حقيقية — ولو كانت الدولة العلية تنبهت لهذا الامر ومنعت بيع الرقيق لبكانت الأمور باقية على ما وضعها السلطان ، ولكنها غفلت عن هذا الامر كما

غفلت عن أمور كثيرة ، ومن ذلك لحق الاهالى الذل والاهانة وهاجر كثير منهم الى الديار الشامية والحجازية وغيرها ، وخربت البلاد وتعطلت الزراعة من قلة المزارعين ، وعدم الاعتناء بتطهير الجداول والخلجان التى عليها مدار الخصب وصار للبكوات الكلمة النافذة وانفردوا بالتصرف . اه

وقد أراد المرحوم على باشا مبارك بقوله ( منع بيع الرقيق ) هو شراء المماليك وتجنيدهم بواسطتهم أسيادهم الذين بقى لهم النفوذ المطلق فى الديار المصرية على الرغم من توالى الولاة الذين كانوا يلقبون بالباشوات من الدولة العلية . ولخوف الحكومة العثمانية من ولاتها ، ولرغبتها دائماً فى استرضاء المماليك ، لكيلا يمنعوا الخراج عنها كانت لا تكاد تبعث بوال من عندها حتى تعزله وتعين بدله ، وحتى لقد بلغ عدد ولاتها منذ الفتح العثمانى الى الاحتلال الفرنساوى — أى من ١٥١٧ الى ١٧٩٨ ، أى نحو ٢٨٠ سنة — أكثر من مائة وال ، قل من أقام منهم أكثر من عامين ، وكثر من بدل كل عام ، ولقد كان بعض أولئك الولاة ، كما أثبت المؤرخون ، من أهل الكفاءة والاخلاص ، وذوى الرغبة فى اصلاح ما اختل من شئون هذه البلاد ، فلا يكاد يشعر المماليك برغبته فى الضرب على أيديهم ، وكف مظالمهم ، حتى يقرروا عزله ، كما ترك لهم هذا الحق فى النظام الذى وضعته الدولة لهم كما تقدم . فكان الوالى بمقتضى هذه الظروف ، يوجه همته الى ارضاء المماليك والتقرب منهم ، وأخذ ما يستطيع أخذه من الاموال والطرف ، ليعود الى الاستانة مملوء الوفاض بادى الثراء .

وعلى الرغم من حيطة الدولة ورغبتها فى أن لا يستبد أحد من المماليك بالسلطة فى الديار المصرية ، ومع ما كانت تبذله من الوسائل للتفريق بينهم وغرس بذور الاحقاد فى صدورهم ، فانهم كانوا فى الواقع ونفس الامر مستبدين بحكومة البلاد وطالما ماطلوا الدولة فى ارسال الخراج ، بدعوى الحاجة اليه فى اقامة الجسور أو حفر الترع وهم لم يفعلوا شيئاً من هذا ، أو بحجة قلة الفيضان وعجز المحصول وتأخر الاهالى عن دفع الضرائب ، كما أن ذلك لم يمنع من اغتصاب الملك مراراً من الباشا الوالى وطرده

من الديار المصرية ، وبلغ الامر فى منتصف القرن الثامن عشر — أى عام ١٧٤٦ — أن قام المدعو ابراهيم بك القازضغلى ، كخيا الانكشارية ( ميرالاى وجاق أى فرقة الانكشارية ) واتحد مع اسماعيل رضوان كخيا العزب ، وقاوما الاحزاب الاخرى حتى استطاعا القضاء على عثمان بك الذى كان وقتئذ زعيم المماليك — أى شيخ البلد — وصارت مشيخة البلد لابراهيم بك المذكور فصادر ممتلكات كثيرين من الاغنياء فى القاهرة ، ووضع يده على جميع محصولات البلاد والكمارك والقرى والمخازن ، ولما عينت الدولة والياً جديداً لمصر عامله ابراهيم بك بالاحتقار فأراد الباشا الوالى الفتك به فلم يتيسر له ذلك . ثم لما ولى وال آخر غير ذلك وكان اسمه «راغب محمد» اتفق مع ابراهيم بك وحزبه مدة من الزمن ، فلم يوافق ذلك سياسة الدولة فسعت للايقاع بين واليها وبين البكوات ، فبعثت له بالاوامر القاضية عليه بابادتهم ، فحاول ذلك ولكنه فشل ، فلما عرف ابراهيم بك بمقاصده عزله

وكان من مماليك ابراهيم بك المذكور (وكانوا يبلغون الالفين عدا) فتى يدعى ( على ) اشتهر بالفروسية والاقدام ، فرقاه سيده ابراهيم بك الى رتبة البكوية . وكان لهذا المملوك شأن كبير فى تاريخ مصر ، لانه خرج على الدولة لما وصل بدسائسه الى مشيخة البلد ، ثم أراد أن يستقل بملك مصر فتم له ما أراد ، وفوق ما أراد

ذلك انه فى سنة ١٧٦٣ ميلادية تمكن على بك هذا من أن يكون كبير المماليك ، ولقب بشيخ البلد ، ولكنه لم يصل الى هذه الدرجة ، الا بعد منازعات وحروب مع أقرانه ، ومنافسة مع المماليك أنداده ، أدت الى تخريب البلاد ، والاساءة الى العباد ، الى درجة أحرجت الشيخ الحفناوى أحد علماء الجامع الازهر ، ( على ما بهم من جبن وفزع من المماليك ) فقال لهم ، كما روى الجبرتى ، « لقد خربتم الاقاليم والبلاد ، وكل ساعة خصام وحروب مع على بك » .

ومع ذلك بقى النزاع بين على بك وأقرانه البكوات ، حتى أجبروه على

الفرار الى بلاد اليمن ، ولكنه عاد باستدعاء أنصاره فى عام ١١٨٠ هجرية ـ ١٧٦٦ ميلادية ، وحين استقرت قدمه فى القاهرة ، قتل أربعة من البكوات فى ليلة واحدة ، ونفى أربعة آخرين . وكان من مماليكه ابراهيم بك الذى بقى حتى الحملة الفرنسية ، وعاش حتى بعد مذبحة محمد على فى القلعة . ومن مماليكه أيضاً أحمد بك الجزار المشهور الذى حارب نابليون فى عكا وصده عنها . ومن مماليكه كذلك محمد بك أبو الذهب الذى غدر به وكان سبب القضاء على آماله ومطامعه. ومنهم مراد بك المشهور فى الحملة الفرنسية

ولما خلا الجو لعلى بك ، أخذ فى مناهضة نفوذ الدولة العثمانية ، فشرع فى عزل وابعاد جميع مستخدمى الملكية والجهادية ، ورؤساء الوجاقات ، وابدالهم بمن هم على دعوته . وسعى فى تقليل العساكر العثمانية ، واكثار المماليك من دعاته ، وعمل مالم تعمله الدولة حين استيلائها على مصر ، بأن منع البكوات الذين كان يخشى من تغيرهم عليه ، من أن يقتنى أحدهم أكثر من مملوك واحد أو مملوكين . ولم يحفل بسلطة الوالى ونفاه من مصر ، فلما شعرت الدولة بمقاصده ، حاولت القضاء عليه ، ففشلت فى مساعيها ، ولما علم بمقاصد الدولة نحوه ، فعل كما فعل ( محمد على ) بعده : فأعلن استقلال مصر وطرد الوالى الجديد ، واتحد مع الشيخ ظاهر أمير عكا ، منتهزاً فرصة اشتغال الدولة العثمانية بمحاربة روسيا ، وعلى الرغم من النزاع الذى كان بين زعماء مماليكه «أى أحمد بك الجزار ، ومحمد بك أبو الذهب» فانه توصل بدهائه وحزمه ، الى بسط نفوذه على جزيرة العرب ، واستولى على جده وعين عليها والياً من مماليكه ، اسمه حسن بك ولقبه بالجداوى نسبة الى جده (وكان لهذا الرجل شأن فى حوادث مصر مع الفرنسيس ، (سيأتى دورها فى هذا الكتاب) ، واستدعى اليه «روستى» المشهور فى الحوادث الفرنسية ( وكان هذا الاخير تاجراً صغيراً من أهالى البندقية و بقى فى مصر من

ذلك الحين ، الى أيام الحملة الفرنسية ) (١) وكلفه بتنظيم التجارة الخارجية والمخابرات الدولية ، ونصح اليه روستى باتخاذ جدة مركزاً للتجارة مع الهند

ولم يكتف على بك بهـذا بل أعلن الحرب على الدولة العثمانية ، وحاربها فى اليمن والشام ، حتى امتـد نفوذه فى جميع شواطىء البحر الأحمر وبحر القلزم وبسط رواق سلطته على الحجاز ومكة المشرفة ، وعزل شريفها ، وأقام مقامه ابن عمه الذى لقبه « بسلطان مصر وخاقان البحرين » وأمر بأن يخطب باسمه فى المساجد وضرب النقود (٢) باسمه فى القاهرة

---

(١) روستى هذا اسمه كارلو روستى ( Carlo Rossetti ) أصله تاجر صغير فى فينيسيا . وحين كان براون (Browne) الرحالة الانجليزى بالديار المصرية فى زمن مراد بك حصل روستى المذكور على لقب أو وظيفة قنصل جنرال لامبراطور ألمـانيا ومع ذلك فقد كان موظفا عند مراد بك اذ عينه وكيلا أو مأموراً لجهة الطرانة لتحصيل الضرائب المفروضة على الاهالى ( هذه رواية براون فى سنة ١٧٩٢ — أى قبل الحملة الفرنسية بست سنوات فقط ) — وذكر براون انروستى حصل على امتياز من مراد بك يخول له احتكار النطرون الذى كان يطلب فى ذلك الزمن الى مرسيليـا وفينيسيا وليفورنيا . ولـكن روستى لم ينجح فى استثمار ذلك الامتياز لاختلال الامن ، واضطراب الاحوال ومع ذلك فقد أرسل روستى ابن أخ له يدعى السنيور فيرارى ( Sr. Ferrari ) الى مديرية البحيرة وجعل اقامته فى بلدة الطرانة وقد رآه براون فى تلك البلدة ونزل عليه ضيفا كما ذكر ذلك براون فى كتابه . وكان عند فيرارى حرس من جنود سلاقونية وصفهم ( براون ) فى رحلته المسماة ( سياحه فى أفريقيا ومصر وسورية من سنة ١٧٩٢ — ١٧٩٨ ومطبوع فى لندن سنة ١٧٩٩ وتوجد منه نسخة فى دار الـكتب المصرية مهداة من شخص اسمه عثمان افندى سنة ١٨٢٥ )

(٢) يوجد فى دار الـكتب المصرية كتاب باللغة الانجليزية مطبوع فى سنة ١٧٨٤ تأليف ستافرو لاسنجيان الرومى عنوانه ( ثورة على بك ) . وفى هذا الـكتاب شرح مسهب لحياة على بك الـكبير بقلم المؤلف الذى عرفه وعاشره واشتغل معه ، ولولا خوف الاطالة فيماليس من غرض هذا الـكتاب لنقلت للقارىء شيئاً كثيراً من هـذا السفر القيم . ولكنى أرى من الفائدة العلمية والتاريخية نقل البيانات الآتية عن النقود الذهبية فى زمن المماليك لنتخذ ذلك البيان قاعدة فى المعلومات التاريخية فى هذا الـكتاب . قال :

كانت النقود الذهبية فى زمن على بك على ثلاثة أصناف

١ — المحبوب — ٢ الزنجيرلى — ٣ الفندقلى .

| | | |
|---|---|---|
| والمحبوب يساوى بالعملة الانجليزية الحاضرة | ٥ر١٠ بنس | ٥ شلن |
| الزنجيرلى « « « « | ٧ | ٧ |
| الفندقلى « « « « | ٦ | ٩ |

وعقد له « روستى » المشار اليه، معاهدة سلمية مع الفينيسيين وعهد الى رجل أرمنى يدعى يعقوب، عقد معاهدة دفاعية هجومية مع الروسيا ، ثم سير حملة الى الشام تحت قيادة مملوكه محمد بك أبو الذهب فاتحد مع صديق مولاه الشيخ « ظاهر العمر » صاحب عكا، واستولى على غزة والرملة ونابلس وبيت القدس ويافا وصيدا وحاصر دمشق وافتتحها عنوة .

وليس غرضنا شرح تاريخ على بك فان الغرض من هذه المقدمة هو بيان ما كانت عليه أحوال مصر عند الحملة الفرنسية، وإنما أردنا، من ذكر قيام هذا المملوك بمناوأة الدولة العثمانية، اظهار ان سياسة الدولة فى مصر كانت عقيمة، وانها تركتها العوبة فى أيدى أولئك المماليك الآفاقين ، السفاكين للدماء ، الطامعين فى الاستزادة من الملك والسلطان . ويكفينا فى هذا المقام أن نقول فى بقية تاريخ على بك ( سلطان مصر وخاقان البحرين، كما كانوا يلقبونه ) ان مملوكه محمد بك ابو الذهب — ( الذى لقيه ( فولنى ) الرحالة الفرنسى فى غارته على سوريا ووصف جنوده المماليك وصفاً بليغاً فى كتابه (1) وكنا نود أن نأتى عليه لولا خوف الاطالة — أصغى لمساعى رجال الدولة العثمانية ، وصادف ماقالوه له هوى فى نفسه فانقلب على مولاه ، وولى نعمته ، وعاد بالجيش الذى افتتح به سوريا ليحارب سيده به ، وبعد تقلبات يطول شرحها فر على بك الى الشام، ثم عاد منها معضداً بالدولة الروسية ولكنه فشل ، وقبض عليه محمد بك أبو الذهب ثم مات مسموماً بيده . وقد روى الجبرتى : انه لما مات على بك أنعم محمد بك أبو الذهب على مراد بك

---

وكانت العملة الفضية كما يأتى:

قطعة الباره = ¾ البنس واسمها عند المصريين ( مصرية ) ـ ٥ باره وتسمى عند الترك « بشلك » خمسية وجمعها خماسى ـ ١٠ باره واسمها روبيه و ١٥ باره و ٢٠ باره وتسمى عند الترك يارم قروش وعند المصريين نصف قرش و ٤٠ باره وتسمى القرش — وعلى هذا يكون القرش المصرى فى ذلك الزمن مساوياً ٣٠ بنس اى نحو ١٢ قرشاً من العملة الحاضرة

(1) Voyage En Egypte et en Syrie pendant les années 1783-84-85 Par C. F. Volney 2. V.

الذى سيكون له معنا فى الحملة الفرنسية شأن كبير ، بسريته « نفيسة المرادية » التى اشتهرت بالمكارم والهمة . وسيأتى معنا ذكرها فى أيام الفرنسيس وفى زمان محمد على باشا أيضاً

أما محمد بك أبو الذهب فانه أعاد مصر تحت سلطة الباب العالى ، وهذا يؤيد ما ذهب اليه المؤرخون من أن انقلابه على مولاه ، كان بدسيسة من الدولة واستقر هو فى وظيفة شيخ البلد ، أى الحاكم المطلق فعلا ، وأخذ يعيث فى البلاد ظلما ، وجعل الضرائب ضعفين ، وأثقل كاهل الاهالى بالمغارم والمظالم ، والقتل والنهب والسلب ، وكان من المحتمل أن لو أستتب قدم على بك ، ولم يغدر به مملوكه ، أن يسير بالبلاد سيرة حسنة ، ويوطد فيها دعامة ملك أثبت من نظام ذلك التنازع بين المماليك والدولة ، ولكن مصر دائماً مقضى عليها بمثل هذه الظروف السيئة

* * *

مات محمد بك أبو الذهب بالحمى فى الشام وقد ذهب اليها محاربا ومنتقما من الشيخ ظاهر العمر وترك وراءه بحارا من الدماء ، واشلاء من القتلى ، وخرائب من السلب والنهب ، فكان من مماليكه المقربين اليه ابراهيم بك ، ومراد بك ، اللذان كانا يحكمان الديار المصرية عند قدوم نابليون بونابرت بحملته التى هى موضوع هذا الكتاب .

## ﴿ الحالة الادارية والحالة الاقتصادية لمصر قبل الحملة الفرنسية ﴾

لما احتل الفرنسيون هذه الديار ، ونقبوا فى آثارها ، وألفوا الكتب فى أحوالها ، كتب بعضهم من رجال البعثة العلمية مباحث دقيقة فى نظام حكومة المماليك قبل احتلال الفرنسيين ، وعلى هذه المباحث نعتمد فيما نكتبه فى هذا الباب ، لان ما كتبه المؤرخون باللغة العربية ، ممن شهدوا تلك الايام كالجبرتى ، ونقولا الترك ، والشيخ الشرقاوى ، لا يشفى الغليل ، والكثير منه خط وخبط لا يهتدى الباحث فى ظلماته الى قبس نور يستضىء به فى وضع مختصر عن نظام حكومة المماليك فى عهدها الاخير ، ولا فى بيان الحال الاقتصادية

للبلاد . ولقد تعبت كثيراً فى معرفة عدد سكان القطر فى ذلك الحين لما وجدته من التناقض البعيد فى الروايات. الا أنه بضم أقوال السياح وأقوال المؤرخين المتأخرين الى بعضها، يصح الاستنتاج أن سكان القطر فى ختام القرن الثامن عشر كانوا بين المليونين والثلاثة

وانه لمن المفيد كثيراً معرفة عدد سكان القطر المصرى ، قبل الفتح العثمانى ومقارنته بعددهم الذى أشرنا اليه

كان النظام الادارى الذى وضعه السلطان سليم لمصر ، ونقحه وزاد عليه السلطان سليمان بعده، يلخص فيما يلى :

أنشىء ديوانان تحت رئاسة الباشا الوالى يحضر اجتماع كليهما وهو جالس وراء ستار ولا صوت له فى أحدهما ، وما يقره الديوان ينفذه الباشا الذى يجدد تعيينه كل سنة .

وأما واجبات الديوان الاول فهى المفاوضة والاقرار على ما يتعلق بالامور الداخلية التى لا علاقة للدولة بها ، وأما أعضاؤه فهم أغوات الوجاقات ( الاورط او الفرق العسكرية) الست، ودفتر داريوها وروزنامجيوها (يعنى قومندانات الآلايات ورئيس كتابها ومدير حساباتها ) ونواب من جميع فرق الجيش، وأمير الحج ، والقاضى الاكبر ، وأعيان المشايخ ، والاشراف ، وللباشا الحق فى اصدار الاوامر بعقد جلساته. ولم يكن ذلك الا فى الحوادث الهامة

وأما الديوان الصغير فيعقد يومياً فى قصر الباشا وأعضاؤه هم كخيا الباشا (وكيله ) والدفتردار والاغا وكبار رجال المتفرقة ونائب من كل وجاق (فرقة) وينظر هـذا الديوان فى الاعمـال ، وما تحتاج اليه البلاد من الامور

ورسم السلطان سليم بأن يكون مقر الوالى قلعة الجبل، وأن لا تزيد مدة ولايته عن سنة واحدة ثم تعطى لغيره ، وزاد فى نظام الجند فأنشأ وجاقا سابعا ممن بقى من المماليك الشراكسة، ورتب لـكل وجاق ديوانا ينظر فى شؤونه وكان مجموع الوجاقات (أى الحامية العسكرية) عشرين الفا

وجعل السلطان سليمان للبكوات المماليك ، الذين أقامهم السلطان سليم ، امتيازات خاصة وأضاف اليهم ١٢ بيكا فوق العادة وهاك أسماء الموظفين الذين ينتخبون من البكوات المماليك وهم الكخيا ، اونائب الباشا ، والقباطين الثلاثة ، وهم قومندانات ثغور السويس ودمياط واسكندرية ، والدفتردار ، وأمير الحج ، وأمير الخزنة ، ومديرو المديريات الخمس ، وهى جرجا والبحيرة والمنوفية والغربية والشرقية .

وكانت وظيفة الدفترد ارضبط الحسابات، وحفظ الدفاتر والسجلات ، ولا ينفذ أمر بيع عقار الا بعد توقيعه عليه ، اشارة الى تسجيله فى دفاتره ، وأمير الحج يحمل الهدايا والصدقات التى كانت ترسل من السلطان سنويا ، الى الحرمين الشريفين . وأما أمير الخزينة فيحمل الجزية السنوية للأستانة ، من حاصلات مصر براً، وكانت مديريات القليوبية والمنصورة والجيزة والفيوم فى عهدة كشاف (مديرين) لافرق بينهم وبين البكوات فى النفوذ ، ولهم فى كل مديرية من هذه المديريات ديوان خاص من الوجاقلية والشربجية

وكان هم الباب العالى منصرفا الى العناية بالسويس ودمياط واسكندرية ، لانها أبواب الفاتحين لمصر ، فكان يرسل حاميتها من الأستانة ، تحت قيادة ضباط أتراك ، ولا تحسب هذه الحاميات من جيش مصر ، وان كانت نفقتها على الخزينة المصرية .

وقرر السلطان سليمان بأنه المالك الحر لجميع أرض مصر ، فلذلك كان يوزعها اقطاعات على الملتزمين (على نظام الاقطاعات في أوربا فى القرون الوسطى) والفلاحون هم الذين كانوا يقومون بزراعة الارض كانوا مجبورين على العمل فيها ، دون أن يكون لهم حق التصرف بالبيع أو بالشراء ولا يرث أبناؤهم الا حق الخدمة فيها وتنتقل الارض بالميراث لابناء الملتزمين .

واذا مات الملتزم من غير وارث ، تعود الأرض للسلطان مالكها فتعطى لملتزم جديد ، وكان على كل الملتزمين والفلاحين ضرائب أو خراج يدفعونه إما

نقداً أو أما عيناً وكان لا يحل لاحد الفلاحين ترك مافى يده من الارض ، أو التخلى عن تعهدها بالحرث والزرع ، بل كان يجبر على ذلك ويجلد بالسياط أو يقوم بدفع ماعليها من الخراج الى أولئك الملتزمين . ولم يكف هذا النظام العسكرى الذى لم يدع للمصريين ظلا من معنى الوجود ، حتى تطاولت مطامع الاتراك الى سلب القضاء الشرعى من يد علماء المصريين ـ ذلك القضاء الذى أبقى لهم شىء من النفوذ الدينى فى الاحكام والمواريث والقضاء ، فأصدر السلطان سليمان ( سنة ٩٢٨ هـ ) أمره بابطال قضاة المذاهب الأربعة من التصرف فى القضاء بديار مصر ، وتسليم جميع الاحكام الشرعية لقاض واحد من قضاة الروم ( أى الترك ) بحيث لا يصح لأحد أن يوقف وقفاً ، او يعقد عقداً ، أو يكتب وصية أو اجازة ، أو حجة ، أو غير ذلك من الامور الشرعية ، حتى تعرض على قاضى العسكر الذى يعين من الاستانة .

وروى المؤرخون أن أول قاضى من الترك عينه السلطان سليمان كان اسمه «سيدى جلبى» وهذا عين له وكلاء قضاة للمذاهب المختلفة من الترك أيضاً ، وجعل لكل قاض منهم نائباً من المصريين وأحدث هذا القاضى من أساليب امتصاص دماء الأمة ضريبة على التركات فجعل على كل تركة الخمس منها لبيت المال مع وجود الورثة من الذكور والأناث ، ولا ندرى بأى حق ، ولا على أية قاعدة شرعية ، وضع هذه الضريبة الفادحة . وغريب أن علماء مصر ورجال الأزهر لم يعارضوا فى ضريبة كهذه ، وبقى معمولا بهذه البدعة الى الزمن الأخير من سلطة المماليك فقد ذكرها الاسحاقى فى حوادث سنة ١٠٢٨ ( أى بعد فرض تلك الضريبة بمائة عام تماماً : وقال « وهذا العام وقع الطعن والطاعون بمصر المحروسة وقراها ، ومكث نحو شهرين فاشتغل الناس بموتاهم ، وأقفل غالب الاسواق فى مصر وحوانيتها ، ماعدا أسواق الاكفان فانها مفتوحة ليلا ونهاراً ، ومنع جعفر باشا ( الوالى التركي ) عامل الأموات من التعرض للموتى ، فصار الناس يدفنون موتاهم من غير اذن ، وحصل بذلك رحمة للعالمين . قال هذا المؤرخ « فياسبحان

الله !! يموت اليهودى ، وهو صاحب مائة الف ، فلا يتعرض له أحد من الظلمة ، ولا يسأل عما خلف واذا مات مسلم لم يدفن حتى يشاور عليه وتأتى الظلمة تخرجه من بيته ويختمون عليه( كذا فى الاصل )مع ان له أولادا (كذا ) وأخوة وزوجة فالحكم لله العلى الكبير. ألم يسمعوا قول العزيز الجبار « ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً انما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيرا » اه

***

هذه النظامات الادارية والعقارية والقضائية بقيت مرعية الجانب مادام نفوذ الدولة قوياً، ولكن لما استبد المماليك بالامر انهار جدار هذه النظامات التى لاتخرج عن كونها نظاماً عسكرياً لم تراع فيه مصلحة البلاد ، ولا ترقية شؤونها الاقتصادية أو السياسية ، حتى ولا العمل على حفظها من التدهور الى هاوية الفقر المدقع ، فلم تقرر فى ذلك النظام خطة مالية لحفر الترع وصيانة الجسور ، أو أى أمر يساعد على اصلاح الاراضى أو صيانتها ، وهى مصدر حياة سكان البلاد ، ومصدر خراج الدولة ، ومغارم المماليك ، وما يلزمهم من الاموال للبذخ والترف ، والانفاق على « بيوتهم » ومماليكهم الذين بلغ عددهم — فى أواخر القرن الثامن عشر عند زيارة ( فولنى ) لمصر نحو ٨٥٠٠ مملوك من الكبار الذين ينفق الواحد منهم على سلاحه وملبسه وزوجاته وسراريه، نحو الفين وخمسمائة جنيه فى العام، على تقدير « فولنى » وهو شاهد عيان

وكان البكوات الكبار من المماليك يخلعون على أتباعهم فى أيام المواسم، الخلع النفيسة المصنوعة فى فرنسا أو فنيسيا ، ومن كشامير الهند وحرير دمشق ، وكانوا اذا أعتقوا مملوكا ورقوه درجة يمنحونه منزلا فاخرا مؤثثاً بالرياش الفاخر، ويزوجونه ، ويهبونه الجوارى الحسان ، من بيض وحبشان ، فاشتد بذلك ساعدهم، وتقلص ظل الدولة شيئاً فشيئاً .

ثم كان التنافس بين زعماء المماليك سبباً فى تخريب البلاد فاذا خاف أحدهم على نفسه من فتك الآخرين ، يغير بجماعته على مديرية من المديريات ، ويستولى على

خراجها ، ويتولى أخذ ضرائبها من الملتزمين والفلاحين ، وكثيرا مايستحل المديرية أو المديريتين لنفسه ملكا حلالا !! فكيف كان من الممكن أن يستتب نظام ادارى أو عقارى ، فى أحوال فوضى واضطرابات كهذه مستمرة بلاانقطاع.

وزادالطين بلة، على المصريين الفلاحين ، أن الملتزمين ،ـ وكان غالبهم من محاسيب المماليك وأتباعهم الذين ، اما بعجز منهم عن التطلع الى مقام البكوات ، واما لضعف فى أجسامهم يعوقهم عن مجاراة الأقران فى ميادين الفروسية ، واما لرغبة منهم فى البعد عن غمرات التحزبات ، وأخطار المنافسات ـ ، كانوا يفضلون الاقامة فى الريف بعد نيل الالتزامات الواسعة ـ ونقول زاد الطين بلة على الفلاحين أن أولئك الملتزمين مدوا أيديهم الى مافى أيدى الفلاحين من الاراضى وجعلوها وسايا ( جمع وسية ) لهم وحتموا على الفلاحين العمل فيها بغير أجر كما كانوا كذلك يكلفون بالخدمة المجانية فى أراضى الأوقاف والحبوسات ، التى قل أن يصل شىء من ريعها للانفاق على ماخصص له .

مثل هذا النظام لم يكن ليؤدى مطلقاً الا الى هوة الخراب والافلاس وطالما حاقت بمصر المجاعات الحادة كما تراه مفصلا بأبلغ العبارات فى صحائف الجبرتى ، ولا يخفى أن الغزوات التى قام بها على بك الكبير من سنة ١٧٦٦ — ١٧٧٥ كلفت مصر وأهلها أكثر من ستة وعشرين مليوناً من الجنيهات وقد ذكر « فولنى » أن على بك الكبير إبتاع خنجرا مرصعاً بالجواهر الكريمة بمبلغ ٢٢٥٠٠٠ جنيه ولقد وصل الحال بالفلاح المصرى انه لم يجد سكناً يقيم فيه فكان يلتحف العراء ، وذو اليسار منهم يعيشون فى أكواخ من الطين ولا يجد الواحد منهم ماياً كله سوى الخبز الحقير المصنوع من الذرة والحلبة ، يتناوله بالبصل النىء أو الأعشاب التى يجمعها من جروف الترع والمجارى ، ويطبخها بغير لحم ولا ادام ، وكان رداؤه قطعة من القماش المصبوغ بالنيلة ، وهى ميراث الفلاحين واليها ينسبون ( أصحاب الجلاليب الزرقاء ) وأما البذخ والترف ، والذهب والفضة ، والملابس المزركشة ، والغلائل الرقيقة ، والخيل المسومة ، والسلاح المنمق بالجواهر الكريمة ، والدور الفسيحة ، والقصور

الفاخرة ، والنعيم على وجهه الأكمل ، فلم يخرج عن دور المماليك وأتباعهم ، وذوى المحسوبية عليهم من لصوص الانسانية

ذكر الشيخ عبد الرحمن الجبرتى فى كتابه ( عجائب الآثار ) ـ وهو مؤرخ هذه الفترة وجامع شتات أخبارها ، وله ميل للمماليك ـ عند كلامه عن مراد بك ، أنه جعل اقامته بقصر الجيزة ، وزاد في بنائه وتنميقه ، وبنى تحته رصيفاً محكما ، وأنشأ بداخله بستاناً عظيما نقل اليه أصناف النخيل والاشجار والكروم ، واستخلص غالب اقليم الجيزة لنفسه شراء ومعارضة ، وغصباً ، وعمر قصر جزيرة الذهب وجعل به بستاناً عظيما ، وكذلك قصر ( ترسا ) وبستان ( المجنون ) وصار ينتقل فى تلك القصور والبساتين الخ . واليك وصف كاتب فرنسى لقصر مراد بك بعد انخذاله فى واقعة امبابه ، وفراره للصعيد ، ودخول الفرنسيين فى منزله ، قال « ولما وصل المعسكر العام الى الجيزة فى الساعة التاسعة مساء نزلنا دار مراد بك فلم نجد فيها انساناً ، ولم يكن هذا القصر يشابه فى حجارته ، وتوزيع طرقاته ، قصور أوربا ، ولكنا وجدنا فيه مماتركه رجال مراد بك ، ولم يحفلوا بنقله ، فراشاً فاخراً ، وحرائر موشاة الأطراف بالذهب والفضة ، وأشياء من مفاخر الصناعة الاوربية الخ » ومثل هـذا الوصف بالنص ورد فى كتاب ( فيفان دينون ) [1] الذى قدم القاهرة آتياً من رشيد بعد مدة من سقوط القاهرة فى أيدى الفرنساويين . وروى كتاب الحملة الفرنسية أن الجنود الفرنسيين كانوا يجدون فى ملابس كل واحد من المماليك الصرعى فى ميدان القتال ( واقعة امبابه ) مالا يقل عن نحو مائتين أو مائتين وخمسين قطعة من الذهب ، عدا ما تقدر به ملابس الواحد منهم وطيلسانه وسلاحه وسراج جواده ، من المبالغ الطائلة

(1) Vivant Denon - Voyage dans la Basse et la Haute Egypte pendant la campagne du General Bonaparte—Paris 1803.

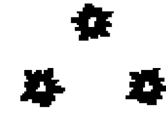
## تجارة مصر قبل الحملة الفرنسية

لم يكن من الممكن مع حكومة لحكومة المماليك، أن تنمو التجارة ، أو تتسع المعاملات الداخلية والخارجية ، وقد سبق لنا أن شرحنا ، فى هذه المقدمة أن مصر لم تعد بعد طريق التجارة الشرقية القادمة من موانئ آسيا الى أوربا ، بعد أن اكتشف طريق الرجاء الصالح . ولو كانت على ضفاف النيل حكومة عادلة ، لفضل التجار ارسال متاجرهم عن طريق البحر الأحمر ، ونقلها من السويس الى الاسكندرية بدلا من تعرضها لاخطار البحار العظمى حول أفريقية، وواسع المحيط الاطلانطيق. (وسنزيد هذه النقطة ايضاحا عند الكلام على تجارة الهند).. ، ولو أن الحكومة العثمانية، بعد فتح مصر ، فكرت فى صالح نمو التجارة ، وقدرت خسارة مستعمرتها الجديدة ، من اكتشاف طريق الرجاء الصالح ، خصوصاً وقد حاربت بأساطيلها البرتغال الذين كانوا يهددون تجارة مصر، كما سبق لنا بيانه ، نقول لو أن الحكومة العثمانية فكرت فى هذا الامر ، واعادت حفر خليج أمير المؤمنين (الذى احتفره عمرو بن العاص بأمر الخليفة عمر بن الخطاب لنقل المؤونة الى الحجاز ، والذى أمر بردمه، فى سنة ١٣٤ هجرية، الخليفة المنصور أبى جعفر ثانى الخلفاء العباسيين لكي يمنع وصول الامداد الى العلويين الذين طالبوا بالخلافة فى المدينة المنورة) لسهلت للتجارة النقل بحراً من الهند الى أوربا، عن طريق مصر ولكنهم لم يفعلوا هذا ، ولم يتمكنوا من نشر سيادتهم البحرية فى المياه الهندية ، وزد على ذلك أن مظالم المماليك وتعديهم على التجار الاوربيين الذين كانوا يأتون لشراء حاصلات مصر ، وما يصل اليها من الممالك الشرقية الآسيوية بطريق القوافل ، كانت من أكبر الضربات على التجارة المصرية ولقد انحط مقام الاسكندرية حتى لم يبق فيها من السكان الا ثمانية آلاف (١) وزاد الطين بلة فيها أن الحكومة العثمانية

---

(١) يقدر مستر براون فى كتاب رحلته فى مصر سنة ١٧٩٢ — ١٧٩٨ عدد

احتكرت لنفسها الجزء القديم من الميناء وهو الجزء الذى يصلح لرسو السفن فكانت السفن الأجنبية القادمة بالمتاجرة وللشراء مضطرة أن ترسو خارج الميناء الجديدة معرضة للزوابع والزعازع ، وروى مؤرخو الافرنج ( فى سنة ١٧٦٦ ) انه بينما كان على بك الكبير يحارب الدولة هبت ريح عاتية أغرقت اثنين وأربعين سفينة كانت راسية فى ميناء اسكندرية، ولم تكن الاسكندرية متصلة بالنيل بقناة تنقل لها الماء الحلو ، وكانت هناك قناة مرسومة فى الخرائط الفرنسية وهى الترعة المسماة بالمحمودية، نسبة الى السلطان محمود، ولكن ما كانت توصل المياه الا فى زمن الفيضان فقط ، فكان اعتماد سكانها على مياه الامطار يحفظونها فى الصهاريج



وحاول جماعة من تجار الانكليز تسيير القوافل بين السويس والقاهرة لنقل المتاجر الهندية الى عاصمة القطر، ثم نقلها بواسطة النيل، الى دمياط أو رشيد، ولكن مظالم المماليك، وتعدى العربان على القوافل، أوقف تلك المشروعات التى كانت تساعد على نمو التجارة المصرية. وليست هذه الاقوال لكتاب أوربيين حتى يتهموا بالتعصب لقومهم، فان الشيخ عبد الرحمن الجبرتى يقول فى ترجمة مراد بك «فأحدث المترجم ديوانا خاصا بثغر رشيد على الغلال التى تحمل الى بلاد الافرنج وسموه ديوان البدعة، واذن ببيع الغلال لمن يحملها الى بلاد الافرنج وغيرها، وجعل على كل أردب ديناراً خلاف البرانى ( يعنى الرشوة والمغارم ) ، والتزم بذلك رجل من أعوانه الموصوفين بالجور وسكن برشيد، وبقيت له بها وجاهة، وكلمة نافذة، فجمع من ذلك أموالا وايراداً عظيما ، وكانت هذه البدعة السيئة من أعظم أسباب قوة الفرنسيس وطمعهم فى الاقليم المصرى ، بعد ما أضيف الى ذلك من أخذ أموالهم ونهب تجارتهم وبضاعتهم، من غير ثمن ، واقتدى به أمراؤه ( أمراء مراد بك )

---

سكان الاسكندرية فى ذلك الزمن بنحو عشرين ألفاً من المصريين والاجانب . أما تقدير هذا فصدره كتب الفرنسيين عند الحملة . والتقديران غير موثوق بصحتهما تماما لان الاحصاء كان متعذر . وسواء كان سكان الاسكندرية فى ذلك العهد عشرة أو عشرين . فما لانزاع فيه ان هذا قد كان نهاية الانحطاط لمدينة كانت عروس الشرق فى زمن اليونان والرومان وفى أيام الدول العربية

وتناظروا فى ذلك وفعل كل منهم ما وصلت اليه همته واستخرجته فطنته » وقال عنه أيضاً: « واختص بالسيد محمد كريم السكندرى ورفع شأنه بين أقرانه فمهد له الامور بالثغر وأجرى أحكامه به، وفتح له باب المصادرات والغرامات ودله على مخبئات الامور، وأخذ أموال التجار من المسلمين وأجناس الافرنج ، حتى تجسمت العداوة بين المصريين والفرنسيين الخ » وقال فى ترجمة السيد محمد كريم المذكور « وقلده مراد بك أمر الديوان والجمارك بالثغر فزاد فى المكوسات ومصادرات التجار ، خصوصاً الافرنج »

ومن رأى «جودت باشا» فى تاريخه أن الذى دعا الفرنسيين للحملة على مصر هو ما أتاه المعلم نقولا النصرانى الذى جعله حسن باشا قبودان رئيساً للقلونجية ( البحارة ) فى الترسانة التى شادها هذا بالجيزة لانشاء السفن ، فانه بعد أن اشتد نفوذه وعظم شأنه، أكثر من التعدى على سفن الاسلام والافرنج معاً . (١)

وكانت نتيجة ذلك كله أن مصر قد هورت الى هوة الخراب الاقتصادى الذى تجرعت منه الامرين، وقاسى منه أهلها الجوع والعراء والمظالم، نحو ثلاثة قرون من الزمان حتى اضمحل شأنها، وفقدت منزلتها التى كانت لها فى العالم القديم والحديث، وحتى هجرها أهلها ، وهى البلاد التى لا يجب أهلها هجرها ، ولا غرابة أن تتضاءل مصر فى ثلاثمائة عام حتى تعود خيالا لما كانت عليه من قبل ، وحتى ينقص عدد سكانها من نحو ١٥ مليونا الى نحو مليونين ونصف

ولكن بالرغم عن كل هذا فانه بقيت لمصر تجارة ترد اليها بالقوافل من اليمن وبلاد الحبشة وسوريا شرقاً ، وطرابلس وتونس والجزائر والصحراء غربا . فكان يرد من اليمن ، البن وبهارات الهند والاقمشة الهندية الجميلة، ويرد من الحبشة الصمغ والعاج والريش، ومن دمشق الأقمشة الحريرية المشهورة ومن بلاد الغرب والصحراء

---

(١) يقول الشيخ عبد الرحمن الجبرتي فى تاريخه ان الذى انشأ هذه الترسانة (دار صناعة السفن ) فى الجيزة، هو مراد بك وليس حسن باشا قبودان وان مراد بك هو الذى عين نقولا المذكور رئيساً لها . ولهذه الترسالة ورئيسها نقولا كلام طويل سيأتى عند قدوم الحملة الفرنسية الى مصر قبل واقعة امبابه

الصوف والجلود . والتمر وما أشبهه ذلك . وكانت التجارة الاوربية بين الاسكندرية ورشيد ودمياط وموانى أوربا متواصلة الأخذ والعطاء فكانت يرد السفن من فرنسا بالأقمشة والمعادن والخردوات والمصنوعات، وتعود حاملة للأقمشة القطنية والبن اليمنى والريش والعاج والصمغ والقمح والارز

---

استعمار انجلترا فى الهند

وتأثيره فى تجارة مصر في ذلك العهد

لما اتسعت مطامع الشركة الانجليزية الهندية فى استعمار تلك الاقطار،وكانت تلك الشركة تحت سيطرة الحكومة الانجليزية فى لندن ، توجهت الانظار بالطبع الى هذه الديار المصرية لانها طريق الهند فى التجارة (والداء قديم وتعبير «مواصلات الامبراطورية البريطانية» ليس بالشيء الحديث)

وعلى الرغم من اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح حول افريقيا بحراً فقد كان طريق التجارة الطبيعي الى أوربا هو البحر الاحمر ، ومصر ، والبحر الابيض المتوسط ، وقد حدث فى منتصف القرن الثامن عشر الميلادى ثلاث حوادث اثرت على الحالة السياسية فى العالم، وأهمها تأثيراً على تجارة مصر ومستقبلها معاهدة باريس التى تنازلت فيها فرنسا عن كل دعوى لها فى الهند اجابة لطلب انجلترا ، والحادثتان الثانيتان هما ثورة على بك الكبير وخروجه على الدولة فى سنة ١٧٦٦ (كما سبق لنا القول )،والحرب التى شبت نارها بين الترك والروس سنة ١٧٦٨ وكان نتيجتها معاهدة « كاينارجه »

وكان من أهم النتائج لهذه الحوادث الثلاثة، زيادة نفوذ انجلترا بفضل مركزها الجديد فى الهند، ولهذا وجهت أنظارها منذ ذلك الحين الى مصر وكانت مطامعها فى أول الامر تجارية

وكان فى مقدمة الرجال الذين اهتموا بالعلاقات التجارية بين الهند وانجلترا عن طريق مصر رجل اسمه جامس بروس ( James Bruce ) الرحالة المشهور

الذى ساح فى البحر الاحمر وبلاد الحبشة وتقرب من على بك بواسطة روسيتى الفينيسى الذى سبق ذكره . وقد تمكن بروس هذا من الحصول على اذن من على بك والى مصر، يجيز للانجليز حرية سفر السفن الانجليزية، ودخولها ميناء السويس وسافر بروس الى الحبشة وفى أثناء غيبته عرض روستى على على بك مشروع ترويج التجارة بين مصر والهند لفائدة الجارك المصرية، فاغتنم على بك فرصة نشوب الحرب بين تركيا وروسيا فى سنة ١٧٦٩ واستولى على الحجاز عنوة بحد السيف .

وفى سنة ١٧٧١ اقترح انجليزى مقيم فى جده على على بك فتح طريق تجارى من الهند الى السويس مباشرة، وخابر على بك حاكم البنغال فى هذا الصدد ولكن قبل أن ينفذ هذا المشروع الاقتصادى خسر على بك ملكه فى الحجاز، وفى مصر أيضاً

وفى يناير سنة ١٧٧٣ عاد « بروس » من سياحته من الحبشة وكان محمد بك أبو الذهب هو الحاكم المطلق التصرف فى مصر فتقرب اليه «بروس» وانتهز هذه الفرصة للاتفاق مع محمد بك أبو الذهب على أن يسمح للانجليز بجلب بضاعتهم من الهند الى ميناء السويس

وقد ذكر بروس شيئاً عن هذه المخابرات فى كتابه المعنون «سياحة الى منابع النيل من سنة ١٧٦٨ الى ١٧٧٣ »(١) ولكن الحكومة الانجليزية لم تحفل كثيراً بمساعى بروس وخسرت التجارة المصرية والانجليزية سواء بسواء

ولم يقف الامر عند هذا الحد من معاكسة التجارة بين مصر والهند وأوربا بل أن الباب العالى اى تركيا، ارتأت أن سفر البضاعة الهندية من طريق السويس مضر بتجارة الاستانة عن طريق حلب، فأرسل الباب العالى فرماناً الى باشا القاهرة يأمره بايقاف كل تجارة تأتى عن طريق السويس ، ولم تكن هذه هى المرة

(1) **Travels to discover the sources of the Nile in the years 1768 - 1769 - 70 - 71 - 72 - 73 By - James Bruce of Kinnaird. 3rd Edition - London 1813.**

الاولى، ولا الأخيرة التى عاكس فيها الباب العالى مرور التجارة الهندية من طريق مصر

ولم تنجح محاولات «وران هاستنج» حاكم الهند، واتفاقية مع محمد بك أبو الذهب فى سنة ١٧٧٥، مادامت تركيا قد رأت، فى ذلك الوقت، أن مرور التجارة الهندية من طريق مصر مضر بصوالحها. وهكذا خسرت مصر واشتدت بها الفاقة والضنك

## المماليك والمال

لم يكن شره المماليك فى جمعهم للمال قاصراً على حاجتهم اليه فى البذخ والترف والانفاق على منازلهم وقصورهم وشهواتهم، اذ لو كان الأمر كذلك لما اشتدت وطأتهم على البلاد واستنزفوا ثروتها، وامتصوا دماءها الى النقطه الأخيرة، بل لقد كانت حاجتهم الى المال أشد واقوى من قضاء أوطارهم الشخصية، فقد قضى نظامهم بأن لا يقوم لواحد منهم شأن، الا بالاكثار من المال، فأولا لا يكون للملوك بعد عتقه عزوة، الا اذ أكثر من شراء المماليك خاصة له ليكون له منهم سند وجاه، والمماليك الذين يكونون من أتباعه، لا يداومون على التعلق بأهدابه، الا اذا أغدق عليهم المال، ومدهم بجميع ما يحتاجون اليه من فاخر اللباس، وجميل الهندام، والاسلحة الغالية الأثمان، ثم اذا تطلعت نفس الواحد منهم الى الامارة، اضطر الى بناء الدور الواسعة لاستقبال الزوار، ومدّ رواق نفوذه على الاقران، وكانت الدسائس والمنازعات بين البكوات و بعضهم، قاضية عليهم بالاكثار من المال فى حوزتهم، ليكون آلة قوية فى تصيد الاحزاب، وكانوا لا يرعون عهداً، ولا يعرفون الوفاء الا نادرا، فبينا نرى محمد بك أبو الذهب مملوكا وتابعاً ثم قائداً لجيش على بك الكبير فى الشام، نجده قد عاد بهذا الجيش للقضاء على مولاه. وبينا نرى اسماعيل بك مرسلا من قبل على بك الكبير على رأس ثلاثة آلاف مقاتل لمقاومة خائن عهده أبى الذهب، نجد هذا قد انضم الى الخصم، وعاد معه لقتال من أرسله لقتاله، وقس على هذا مثات

من الأمثلة يجدها القارئ ـ ان أحب ـ منثورة على صفحات الجبرتى ، وانما كان الوفاء للمال لحاجتهم اليه في قضاء أوطارهم ، وادراك مطامعهم

وقد ذكر الثقاة أن على بك الكبير حين خذله رجاله وأنصاره، التجأ الى صديقه الشيخ ظاهر عمر أو ( العمر ) (١) فى عكا وكان مقدار ما أخذ معه من الاموال ثمانمائة ألف محبوب ذهباً ( أى نحو أربعة وعشرين ألف جنيه تقريباً ) يحملها على ٢٥ جملا وقالوا أيضاً أنه نقل معه من المصاغ والحلى مايساوى أربعة أضعاف ذلك .

وقد قابل (فولنى) فى سياحته بالشام، جيوش على بك الكبير وهى ذاهبة لفتح سوريا، فقال ان الجيش المشار اليه كان مؤلفاً من نحو ٤٠٫٠٠٠ مقاتل ، ولكن لم يكن فيه من المماليك الخيالة غير خمسة آلاف ، ونحو ألف وخمسمائة من المشاة وهم من المغاربة والباقى خدم وأتباع، وبعد وصف هذا الجيش بالفوضى والاضطراب، والسلب والنهب ، أخذ يصف ملابس المماليك وصفاً بديعاً فقال ان ملابسهم لم تكن تصلح لامتطاء صهوات الجياد ، وانها تتكون من أربعة أو خمسة أردية وطيلسانات تتدلى الى أرجلهم، وكان قميص الفارس منهم من القطن الناعم الابيض، والثوب المتدلى فوق القميص من القماش الهندى الخفيف، وفوق ذلك القفطان من حرير مزركش تمتد أكمامه حتى أطراف الاصابع، ثم « الكرك » بأكمام قصيرة، ويطوف حول الرقبة فراء من السمور . ولكل واحد منهم طيلسان يلبسه فى الحفلات يلف به جسمه جميعه ! ! ! وهذا يحتاج الى المال الوفير ، ومصادر مصر كما سبق لنا القول ضئيلة ، وزادتها هاتيك الحروب والمنازعات، واهمال حال البلاد، فقراً على فقر ، فلا غرابة أن تصل الامة الى حال لا تستطيع معها الحياة . ولو طال

---

(١) جاء فى تاريخ جودت باشا عن تاريخ آل العمر ما خلاصته:
كان جد هؤلاء الجماعه رجل اسمه زيدان قدم من المدينة المنورة الى بلدة صفد فأولد عمر وعمر أولد الظاهر عمر وبعد انقراض أولاد «معن» دخلت ديار صفد فى يد بنى شهاب .
وفى ابتداء أمرهم تولى ظاهر عمر على تلك الديار من طرفهم ، ثم ارتقى أمره يوماً بعد يوم الى أن قوى شأنه، وارتفع ذكره، فصار متصرفاً فى كافة بلاد عكا وصيدا ويافا وحيفا ، والرمله ونابلس وصفد وجعل عكا مركز امارته وولى أولاده على النواحى ، وأصبح فى الحقيقة مستقلا عن الدولة العثمانية لا يبالى بها ولا بأوامرها

أمر المماليك على هذا الحال ، ربع قرن آخر من الزمان، لما بقى فى مصر من يحرث الارض أو يرعى الماشية.

## محاولات الباب العالى

### القضاء على المماليك

ولقد ذكرنا فى هذه المقدمة عند الاشارة الى الفتح العثمانى، أن السلطان سليما أخطأ فى عدم قضائه على سلطة ونفوذ المماليك مع مقدرته عليهم اذ ذاك ، ولكن فاتت العثمانيين الفرصة وندموا عليها ، خصوصاً وقد قويت شوكة البكوات بما كانوا يشترونه من المماليك الجدد ، وبما وصل الى أيديهم من أموال الأمة المغلوبة على أمرها ، ولم يعد للدولة العثمانية،ولا لواليها هيبة ولا سلطان . ليت شعرى لو أن السلطان سليما فعل ما تذهب اليه من ابادة المماليك ومنعهم ، عن استجلاب الرقيق من الممالك ، الى أن يضمحل حالهم فى زمن قريب ، ووضعت الديار المصرية تحت حكم الدولة العثمانية مباشرة ، أ كان يكون حالها بعد ثلاثة قرون ، من الزمان، أصلح مما وصلت اليه من الخراب والدمار؟؟؟ فقد كان من الممكن والمتصور أن لا يقع ما وقع فيها من تلك الحوادث المشئومة ، التى أتت على الحرث والنسل من جراء مظالم المماليك ومطاحناتهم ، وكانت ترتبت نظاماتها على حال أرقى وأصلح من تلك النظامات، وعمرت البلاد، ونما النسل، وحفظت الثروة، وتحسنت التجارة ، بل وحصنت شواطىء البلاد، ولم تصبح فى حال من الفوضى بحيث استطاع نابليون غزوها على أسهل مايمكن .. ؟؟

الحكم فى هذا صعب جداً ، فان تاريخ الدولة فى ممالكها الاخرى ، كالشام والعراق ، لا يضع فى نفس المؤرخ أملا أوسع ، بأن تكون أحوال مصر أرقى وأصح ، ولكن ربما قيل فى هذا أن موارد مصر وخيراتها الطبيعية ، ونيلها الذى يجرى بالبركة فى كل عام، وسلاسة أخلاق أهلها ، كانت تساعد على ترقيتها، ونموها أكثر مما جاز للدولة فى بلادها الاخرى . وعلى كل حال فكل ماأصيبت به مصر

فى تلك المدة لا يصح عدلا أن يلقى ذنبه كله على أكتاف المماليك ، بل تتحمل الدولة منه جزءاً كبيراً ، لأنها أخطأت فى توجيه همتها الى الفتوحات فى أوربا ، بدلا من توجهها الى الشرق ، لوضع سيادتها البحرية على المياه الهندية ، لتحول تيار التجارة الشرقية الى طريق مصر والشام ، بدلا من ذهابها الى أوربا ، حول أفريقية ، ولأن الدولة لم تتبع سياسة رشيدة مع المماليك بالقضاء عليهم مرة واحدة ، بدلا من خطة الايقاع بينهم ، ويترك باب الاسترقاق بشراء المماليك مفتوحا . ولكن الجزء الاكبر من ذنب سقوط مصر واضمحلالها ، يلقى عدلا على أكتاف المماليك ومظالمهم و بلاياهم فى هذه الديار

فى فجر القرن الثامن عشر وجه الباب العالى همته الى القضاء على المماليك ، ولكن لا بمحاربتهم ، ولا ابادتهم ، اذ يظهر أن ذلك كان متعذراً على الدولة وقتئذ ، أو انه لم ترده خوفاً من مروق القائد ، الذى تبعث به ، عن طاعتها ، واستبداده بملك مصر ، فاختارت خطة ايقاع النفرة والمنافسات بين البكوات وبعضهم بواسطة ولاتها . ويظهر للمتمعن فى تاريخ هذه الفترة ، أى من سنة ١٧٠٠ الى حين الاحتلال الفرنسى ، فى سنة ١٧٩٨ ، أنه وجد بين المماليك ، وبين الباب العالى حرب سرية ، فكان المماليك يعرفون أن الدولة تسعى لابادتهم باغرائهم على بعضهم ، ولكنهم كانوا فى الدهاء والسياسة أقل كفاءة من مناظريهم الاتراك ، وكان نفوذ الدولة الدينى والسياسى ، مساعداً لرجال الدولة على المماليك ، وزد على ذلك أن مطامعهم الشخصية ، وشهواتهم الذاتية ، وفساد أخلاق بعضهم ، وقلة ولائهم لأسيادهم وأقرانهم ، الى غير ذلك من صفات الشره والانانية ، كانت من أكبر الاسباب التى ساعدت الدولة عليهم فأضعفت شوكتهم ، وان لم تقض عليهم . ولا نرى بداً من الاشارة الى الحوادث والوقائع التى تبرهن على استنتاجنا هذا ، لأنى لم أجد من المؤرخين من صرح بهذا الرأى مع الايضاح الكافى ، أو وضع النقطة على العين ( كما يقولون ) ! !

فقد حدث فى سنة ١١١٩ ﻫ فى أيام حكم السلطان احمد ( ١١١٤ — ١١٤٣ ﻫ ـ ١٧٠٢ ـ ١٧٣٠ ﻫ ) ان ولى مصر حسن باشا ، وهو الذى بدأ بالقاء بذور الشقاق بين القاسمية والفقارية ، وقد كانت المنافسات والمحاربات ، بين هاتين الطائفتين من المماليك ، سبباً فى شقاء مصر وخرابها ، وفى هذا يقول الجبرتى ـ (وان كان قد أخطأ فى حكايته الطويلة الخرافية عن أصل القاسمية والفقارية )— « ولم يزل الامر ــ أمر الخلاف ـ يفشو ويزيد ، ويتوارثه السادة والعبيد ، حتى تجسم ونما ، وأهريقت له دما ،فكم خربت بلاد ، وقتلت أمجاد ، وهدمت دور ، وأحرقت قصور ، وسبيت أحرار ، وقهرت أخيار » اﻫ

وحدث فى سنة ١١٤٧ ﻫ و ١٧٣٤ م ( فى أيام حكم السلطان محمود ١١٤٣ــ ١١٦٨ ﻫ و ١٧٣٠ ـ ١٧٥٤ م ) ان عين بكير باشا واليا للدولة فى مصر ، ويظهر أنه كانت لديه أوامر بالايقاع بالمماليك ، قال عنه المؤرخون : أنه لما وصل الى القاهرة فى يوم السبت ١٤ شوال سنة ١١٤٧ وصعد الى القلعة ، فى موكب حافل ، فلما مر من وسط المدينة صاح الناس فى وجهه ، وعلا صراخ العامة من ثقل المغارم والكلف ، وفساد العملة ، فلم يحفل بصراخهم وصار حتى وصل القلعة ولم يلبث طويلا حتى أخذ يدس الدسائس بين الامراء لافساد أمورهم ، وتفريق كلمتهم ، ثم شغله تفشى الطاعون فى البلاد عن تنفيذ مآربه مدة ، ولكنه بعد ذلك استغوى بعضهم ، ودبر معه مكيدة للقضاء على بقية البكوات ، فاستدعاهم بدعوى النظر فى أمور الخزينة ، الى بيت الدفتردار وهناك وقعت مذبحة دموية تعد صورة مصغرة لمذبحة محمد على المشهورة بالقلعة ، عام ( ١٨١١ ) أى بعد ذلك الميعاد بنحو ثمانين سنة — (قال فيها الجبرتى) « قتل فيها أحد عشر من كبار أمراء المماليك وسبب بذلك فتنة اندلع لسان لهيبها فى القاهرة وضواحيها » وقال المؤرخون لهذه الفترة « ولما شاع الخبر بما جرى سار صالح الكاشف ، رأس هذه الفتنة ( أحد آلات الوالى ) الى بكير باشا ليلا من باب الميدان ، وأعلمه بما جرى ، فخلع عليه رتبة الأمارة ، فطلب منه مالاً يفرقه على العسكر المجتمعين معه ، فوعده بأن يرسل له ماطلب . فنزل صالح الى جامع السلطان حسن ، فوجد محمد كتخدا

الجاويشية وأتباعه وجماعة آخرون فلبث معهم ينتظر المال ، وصعد عمر جلبى ، ابن على بك قيطاس ( منافس صالح المذكور ) بطائفة من قومه الى بكير باشا ، يطلب بثأر أبيه ( محمد بك قيطاس أحد كبار البكوات الذين قتلوا فى المذبحة المشار اليها ) ، وكان وصوله بعد نزول صالح كاشف نخلع عليه الباشا امارة أبيه ، ! ورسم له بقتال قاتلى أبيه ومن معهم ، وكان الباشا يود لو أنهم يقطعون بعضهم بعضاً ، فنزل ابن قيطاس وأصحابه ، وأمامهم بيرق من المحجر ، خلف جامع المحمودية وبيت الحصرى وزاوية الرفاعى ، وعملوا متاريس على باب الدرب قبالة جامع السلطان حسن ، وجعلوا يطلقون بنادقهم ، على كل من يمر بهم من الخصوم ، وعلى من هم بجامع السلطان حسن ... ثم قال « ولما رأى كبار الوجاقات مابلغت اليه هذه الفتنة وأنها انما هى بايعاز من بكير باشا ، قاموا على قدم وساق ، وأحاطوا بالقلعة ، وأنزلوا بكير باشا ، ذليلا مقهوراً وسجنوه ، وكتبوا الى دار السلطنة ، بما وقع وطلبوا ارسال وال آخر ، فأرسل السلطان الأمير مصطفى باشا أمير ياخور لضبط أموال من قتلوا فى هذه الفتنة الخ . وقد أحسنت الدولة معاملة بكير باشا هذا وعينته فى أرقى وظائف الدولة !!!

ثم أرادت الدولة اتمام خطتها السياسية ، فعينت فى سنة ١١٥٢ ، سليمان باشا الشامى المعروف بابن العظم ، وكان أول عمل له فى مصر ايقاد نار الفتنة بين البكوات ، فوقعت فتن بين أمراء المماليك فقتلوا بعضهم بعضاً ولكن لما اتضح لهم أمر الوالى ، أنزلوه وعين بعده وال آخر ، وتعاقب ثلاثة من الولاة مدة ست سنوات ، ثم هبت الدولة مرة ثانية للقضاء على المماليك ، فعينت محمد رجب باشا والياً ، قال المؤرخون « فلما استقرت به الولاية أخذ يدبر الحيل لقتل من بقى من الامراء ، ثم استمال اليه حسين بك الخشاب وكاشفه بما فى نفسه ، وأقسما الايمان على أن لايخونا بعضهما ، وأعلن أن السلطان محمود يريد قطع دابر القطامشة والدمايطة وهم أصحاب الكلمة يومئذ ... ثم دبر لهم مؤامرة كالتى دبرها قبله بكير باشا ، ولكن هذه المرة فى القلعة فى ديوان الوالى ، ليشرف بنفسه على هلاكهم ، وهى أشبه بمذبحة محمد على أيضاً من حيث وقوعها فى القلعة ، واشراف الوالى ، كما

أشرف محمد على عليها . ولكنهم لم ينجحوا هذه المرة أيضاً، كما كانوا يؤملون ... حقيقة قتل بضعة من كبار الامراء ولكن ابراهيم جاويش، وهو سيد على بك الكبير ومربيه ، أخذ عدته وأدرك المكيدة ، فجمع قومه وانتهت هذه الفتنة كما انتهت مثيلاتها بانزال الباشا وعزله .

وعلت كلمة ابراهيم بك كما سبق لنا بيانه فى موضع آخر من هذه المقدمة ؛ ولكن الدولة بقيت مصرة على تنفيذ سياستها بتلك الخطة العقيمة ، خطة تقليبهم على بعضهم ، ولو خربت البلاد ، وأبيدت العباد ، فمن ذلك أن حمزة باشا الوالى فى سنة ١١٩٨ ه فى أوائل ظهور نجم على بك الكبير ، أراد الفتك بالبكوات فى القلعة كما فعل الولاة أسلافه ، قال مؤرخو هذه الفترة « وجاءت أيام عيد الفطر فركب الامراء فى ثانى يوم شوال الى قرة ميدان ليهنئوا حمزة باشا بالعيد... فلما حضروا فى ذلك اليوم وهنأوا الباشا ، وخرجوا إلى دهليز القصر يريدون الانصراف الى بيوتهم ، برزت لهم طائفة من الجند وسيوفهم بأيديهم مسلولة ، وآخرون يحملون البنادق واندفعوا عليهم ، فأطلقوا البنادق ، وأعملوا السيوف ، فأصيب عثمان بك الجرجاوى بضربة سيف فى وجهه ، وأصيب حسين بك كشكش بطلق نارى فى خاصرته ، وجرح كثيرون جراحاً بليغة ، فعند ذلك ارتفعت الأصوات وعلت الجلبة ، وصاح الأمراء بمماليكهم ، فاقتحموا الدهليز والسيوف بأيديهم ، وحالوا بينهم وبين المتآمرين ، وانتهت هذه المؤامرة الدنيئة ، كما انتهت سابقاتها بانزال الباشا وعزله !! وولى بعد حمزة باشا ، محمد راقم باشا سنة ١١٨٢ ه فبينا نراه يعضد خصوم على بك ، الذى لقب بالكبير بعد ، ويساعد على ارسال حملة لمقاومته تحت رئاسة حسين بك كشكش ، ويجمع لهذه الحملة المال بمصادرة التجار والأهالى ، نجده يقابل على بك ، بعد انتصاره على جيش حسين بك كشكش المشار اليه ، ودخول الأول القاهرة ظافراً ، فيخلع عليه ويقره شيخاً للبلد ، وكان ذلك مبدأ نفوذ على بك وعلو نجمه ، وكان قد حلب أشطر الدهر ، وعرف أن لا أمانة له مع هذه السياسة العثمانية، فعزل الوالى وأعلن

استقلاله بمصر ، ولكنه لم ينج من فخ الدولة والسقوط فى الهوة التى اتقاها، اذ تمكن رجال الدولة من التأثير على مملوكه محمد أبو الذهب كما سبق لنا بيانه . واستمر الحال على هذا المنوال ، حتى زمن مراد بك وابراهيم بك مملوكي محمد ابو الذهب ، فان الدولة أرادت هذه المرة أن تتخذ خطة حاسمة ، تليق بشرف الملك وشرف السياسة ، فأصدر السلطان عبد الحميد الاول أمره بارسال قوة الى مصر لتخليصها من أيدى المماليك ، فوصلت القوة العثمانية فى عمارة كبيرة تحت قيادة قبودان حسن باشا الى ثغر الاسكندرية سنة ١٢٠٠ هـ أى قبل الحملة الفرنسية بثلاثة عشر عاماً ، فصمم مراد بك - كعادته من العناد ، وحب الاستقلال - على مقاومة القوة العثمانية ، قال المؤرخون « فسار مراد بك بمن معه ونزلوا الرحمانية ، فلاقتهم الجنود العثمانية ( كما لاقت بعد ثلاثة عشر سنة فى هذه البقعة العساكر الفرنسية ) فانذعرت جنود المماليك ، من قنابل العثمانيين فشتت شملهم ، وفر مراد بك وابراهيم بك كذلك الى الصعيد ، كالعادة . ودخل حسن باشا الذى لقب بالغازى لفتحه مصر من جديد فتحاً لم يدم اكثر من سنة واحدة ، لأن حسن باشا استدعى للاستانة بسبب الحرب مع الروسيا فترك الاحكام فى مصر فى يد اسماعيل بك أحد المماليك يشاركه فى الحكم حسن بك الجداوى ، كما كان مراد وابراهيم ، ولم تستفد مصر من هذه الحملة العثمانية شيئاً ، اللهم الا ما ذكره المؤرخون من أن الجيش العثمانى أعاد فعاله المعتادة ، اذا خربت العساكر كل مامروا به من المدن والقرى ، ونهبوا مافيها ، ولولا همة حسن باشا نفسه ماأبقوا على شيء فانه كان يتهدد الجنود حتى اضطر الى رمى بعضهم بالرصاص ليردعهم عن أعمالهم الوحشية

وبعد أربع سنوات عاد مراد بك وابراهيم بك الى السيادة الفعلية على البلاد ، وبقيا يسومان أهلها الذل والاستعباد ، حتى داهمتهما الحملة الفرنسية ، كما سيأتى لك بيانه ، فى مكانه

ويصح لنا أن نقول هنا من اتمام الفائدة فى موضعها ان الباب العالى حاول بعد جلاء الفرنسيين عن مصر القضاء على البقية الباقية من المماليك لتخليص مصر

من شرهم . ولكن لم تنجح سياسة تركيا حتى استطاع محمد على فى مذبحة القلعة أن يخلص مصر من المماليك ، ويستخلصها لنفسه

## « الأوبئة التى فتكت بأهل مصر »
### فى عهد المماليك

ما كفى هذه الديار التعسة مالاقته من مظالم المماليك وعسفهم وتخريبهم وحروبهم، التى أفقرت البلاد من أهلها ، ومن خيرها ، ومن أرضها ، ومائها ، حتى بليت فى تلك الفترة بأوبئة فتاكة ، تسببت طبعاً من سوء الاحوال الصحية ، ومن نتائج الغزوات ، والحروب والتعفن ، وعدم تصريف المياه الآسنة فى الجداول والخلجان ، والبرك ، فحدث فى سنة ١٠٥٢ هـ (١) مايأتى بيانه :

فى أثناء ولاية مقصود باشا ، من قبل السلطان ابراهيم بن احمد ، داهم الوباء بولاق أولا ثم ظهر فى القاهرة ففتك بأهلها، وبكافة أهل القطر فتكا ذريعاً حتى كان اضطر الناس لكثرة الموتى ، الى دفنهم بغير صلاة ، وروى المؤرخون أن ٢٣٠ قرية صارت خراباً لفناء أهلها بذلك الوباء

وحدث فى سنة ١١٠٨ هـ وباء شديد سببه أن وقع في البلاد غلاء كبير مدة ولاية على باشا قلج، من قبل السلطان مصطفى، فقل ورود الغلال، وعزت الأقوات، وضاق العيش على الفقراء ، ومتوسطي الحال واشتد بالناس الجوع، قال المؤرخون « فأكل الناس الجيف وجذور الاشجار ، فثارت النفوس ، حتى اجتمع السواد الأعظم رجالا ونساء وأطفالا ، وصعدوا الى القلعة ووقفوا بحوش الديوان ، وصاحوا من الجوع ، واستغاثوا بالباشا ، فلم يجبهم أحد فرجموا ديوانه بالحجارة ، وأكثروا من الجلبة والصياح ، فركب الوالى وطردهم ، فنزلوا الى الرميلة ونهبوا مابها من حواصل الغلال ، وكذلك حواصل كتخدا الباشا، وكانت ملأى بالشعير والفول ، وأصناف الحبوب فلم يقدر أحدهم على ردهم ... واشتد الغلاء وضاق بالناس الخناق ، وعم الخطب ، ومات الكثير منهم جوعاً ، والعياذ بالله ،

---

(١) صاحب التوقيعات الالهامية يحدد هذا الوباء فى سنة ١٠٥٠

وخلت أكثر القرى من أهلها، وخطف الناس الخبز من الأسواق والافران، مع ندرته، ومات الناس، فتركت جثثهم فى الطرقات، فانشب الوباء أظفاره بالعباد فأراحهم من حياة مرة، وشقاء مستمر، فكانوا يحملون الموتى من الطرقات عشرات عشرات، ويذهبون بهم الى مغسل السلطان عند سبيل المؤمن فمات من جراء ذلك خلق كثير» اهـ ملخصا

وفى سنة ١١٤٧ هـ داهم البلاد وباء فى زمن باكير باشا، الذى أوقع الفتن بين الامراء وبعضهم - قال المؤرخون فى هذه الفترة : ان هذا الطاعون لم يسبق له مثيل، اذ انتشر فى البلاد قاطبة، وفتك بالناس فتكا ذريعاً، فكان الناس يدفنون موتاهم على ضوء المشاعيل لاشتغالهم ليلا ونهاراً بدفن الموتى، الذين يقعون فى الشوارع والطرقات قتلى الوباء فتبقى جثثهم ملقاة بعض الليالى والايام وطالت مدة هذا الوباء

وفى سنة ١١٧١ هـ. هاجم البلاد وباء آخر فى أول مدة استقلال على بك. قال المؤرخون « وكان ظهور الوباء عقب أن أمطرت السماء مطراً غزيراً جداً سالت منه السيول وامتلأت الأودية، واشتد الطاعون شدة بالغة فكثر الموت وصارت جثث الموتى تلقى فى الطرقات والحارات لكثرتها، وعدم وجود من يدفنها، وكثرت الجثث واجتمعت حولها الكلاب تنهشها. وطالت أيام الوباء وسمته العامة (قارب شيحه، اللى ياخد المليح والمليحه) ولم يرتفع الوباء من أرض مصر فى تلك المرة الا فى السنة التالية .

ثم فى سنة ١٢٠٥ - بعد الحملة العثمانية التى جاء فيها قبودان حسن باشا الغازى وتعينه اسماعيل بك كبيراً للمماليك. قال المؤرخون « وفى هذه السنة طرأ على البلاد، ولا سيما القاهرة، وباء شديد الوطأة لم تقاس البلاد مثله من قبل، فان عدد الموتى فى القاهرة بلغ نحو الألف فى يوم واحد وتقلب على حكومتها فى يوم واحد ثلاثة حكام، وسبب ذلك أن اسماعيل بك أصيب بالوباء فأقيم آخر من بيته مكانه فمات أيضاً، حتى فني كل من كان فى بيت اسماعيل فى يوم واحد، ولم يبق منه الا عثمان بك الطبل الذى مهد لمراد وابراهيم سبيل العودة الى السيادة فى مصر، وسمى هذا الوباء بوباء اسماعيل . »

أفبعد كل هذه الأوبئة التي تناوبت على القطر فى كل عهد المماليك ، وبعد كل هاتيك الحروب والمنافسات والمشاحنات بين المماليك وولاة الدولة ، وبين المماليك وبعضهم بعضاً ، وغارات أعراب البادية ، ومظالم الحكام ، يمكن ان يبقى فى هذه الديار المصرية الامن فاته الموت ، أو عجز عن المهاجرة ؟ لا غرابة أن يقول على مبارك باشا بعد وصفه النظام الذى وضعه السلطان سليم لمصر بعد فتحها «وخربت البلاد وهاجر الكثيرون منهم الى الديار الشامية والحجازية وغيرها »

## كلمة عامة عن المماليك

لم تمنع أخلاق المماليك الفاسدة ، ومطامعهم ومظالمهم ، من أن يوجد بينهم من آن لآخر ، بعض ذوى الكرامة وأصحاب التدبير ، وأن يوجد بينهم من ذوى الرغبة فى اصلاح أحوال البلاد ، ورفع المظالم عن الامة ، فقد روى الشيخ عبد الرحمن الجبرتى وغيره من الرواة ، عن اسماعيل بك ايواظ ، وهو ابن ايواظ بك القاسمى ، الذى قتل فى احدى فتنهم ، مع نحو سبعمائة من رجاله فى «الرميلة» بتحريضات والى الدولة ، كما سبقت الى ذلك الاشارة ، ولى ولده المشار اليه ، وسار فى امارة الحج ثم اشتعلت نار الفتنة فهرب واختفى ، ثم عاد ، وبعد فتنة أخرى استقرت له السيادة المطلقة فعلا فى القطر المصرى نحو ستة عشر عاماً الى أن قتل غدراً فى ديوانه بتحريض من الوالى أيضاً . وقال الجبرتى عن اسماعيل بك هذا « ان أيامه كانت سعيدة ، وأفعاله حميدة ، والاقليم فى أمن وأمان ، من قطاع الطريق وأولاد الحرام ، وكان صاحب عقل وتدبير ، وسياسة فى الاحكام ، وفطانة ورئاسة وفراسة فى الامور » وذكر الجبرتى وهو ثقة فيما رواه عنه ـ عدة روايات تدل على عدل اسماعيل بك ، وكرم أخلاقه ، وبعده عن نقائص المماليك أمثاله ، فما ذكره عنه أنه جدد سقف الجامع الأزهر ، وكان قد آل الى السقوط ، وأنشأ مسجد سيدى ابراهيم الدسوقى بدسوق ، ومسجد سيدى على المليجى بمليج ، ومن مآثره عن نفس صاحب الرواية انه كان يرسل غلال الحرمين فى أوانها ، ويجعل فى بندر السويس

والمويلح وينبع ، غلال سنة قابلة فى الشون ، لكى تشحن السفائن وتسافر فى أوانها، ثم يرسل خلافها على هذا النحو. قال الشيخ الجبرتى «ولما مات سنة ١١٣٦ ه ، ووصل خبر نعيه الى أهل الحجاز حزنوا عليه وصلوا عليه صلاة الغيبة عند الكعبة ، وكذلك فعل أهل المدينة فصلوا عليه بين المنبر والمقام ، ومات صغير السن على روايتين للجبرتى فهو يقول مرة فى الثامنة والعشرين ، ولكنه بعد أن ذكر أنه تولى الأحكام وعمره ستة عشر عاماً، وأنه حكم البلاد ستة عشر عاماً وطلع أمير الحج ست مرات. وهذا خلط من الجبرتى ، قال ورثاه الشعراء ثم ذكر فى كتابه قصائد مطولة خير مافيها قول بعضهم :

وكان جديراً بالرئاسة والعلا  فقد سار فينا سيرة سارها عمر
وكان له حزم ورأى ومنعة  ولكن اذا جاء القضاء عمى البصر
به غدر الجبار جركس ماكراً  فعما قليل سوف يجزى بما مكر

وكأنما ألف الناس قتل الأمراء بعضهم واحداً بعد واحد ، فلهذا أشار الشاعر ببساطة ( فعما قليل سوف يجزى بما مكر ) وأغرب من هذا أن شاعراً آخر من شعراء ذلك الزمن رثى اسماعيل بك هذا بأبيات ، يقول فى ختامها

ولابد أن الله يأخذ من سطا  عليه بتاريخ « سيقتل قاتله »

فاذا جمعت جمل كلمتى « سيقتل قاتله » تجد تاريخ سنة ١١٣٦ التى قتل فيها اسماعيل بك، وكان قاتله مملوكا اسمه ذو الفقار بتحريض من الوالى ، ومحمد جركس بك الطاغية الذى أنعم عليه اسماعيل بك ، وعفا عنه مراراً ، وكان نصيب ذى الفقار ، بعد أن صار شيخ البلد وأمير الامراء ، رصاصة قضت على حياته سنة ١١٤٢ ، بدسيسة من نصيره الأول محمد جركس ، الذى مات غرقا فى النيل من مطاردة رجال ذى الفقار ، وهكذا كانوا يفعلون ! ! !

وممن ذكروا بالخير، من أولئك الطغاة الظالمين، مملوك آخر اسمه عثمان بك الذى ولى الأحكام ، بعد مقتل ذى الفقار ، وغرق محمد جركس ، وفى مدته نكبت مصر بالوباء . كتب الجبرتى عن عثمان بك ذى الفقار، وقال أن ما رواه عنه ، هو

عن لسان والده الشيخ حسن الجبرتى، لان عثمان بك، كما روى الشيخ عبد الرحمن، « كانت له مع الوالد صحبة أكيدة ، ومحبة زائدة ، وصاحبه فى سفر الحج ثلاث مرات ، وكان لا يجالس الا أرباب الفضائل مثل المرحوم الوالد . . . . وقرأ على الشيخ الوالد تحفة الملوك، والمقامات الحريرية الخ » ،ومما هو جدير بالذكر فى هذا المقام قول الجبرتى « ان عثمان بك لما فر من مصر عاش بعد خروجه منها نيفاً وثلاثين سنة وللجلالة شأنه جعل أهل مصر سنة خروجه منها تاريخاً لأخبارهم ، ووقائعهم ومواليدهم الى الآن، من تاريخ جمع هذا الكتاب يعنى سنة ١٢٢٦هـ. فيقولون جرى كذا ،سنة خروج عثمان بك الخ » . وهذه الاشارة مهمة جداً لانها ترشدنا الى السنة التى بدأ فيها الجبرتى جمع كتابه وهى سنة ١٢٢٦هـ. — أى بعد خروج الفرنسيين من مصر بنحو عشرة سنوات ، وفى أيام سلطة محمد على ونفوذه، بل هى السنة التى وقعت فيها مذبحة المماليك فى القلعة، فهل معنى كلمة « جمع » أنه بدأ بالتأليف أو أنه جمع مذكراته وما كتبه من الحوادث فى أوقاتها منذ بدأ يكتب ؟ ويغلب على الظن أن الشيخ عبد الرحمن الجبرتى بدأ قبل ذلك بكثير ، وانه كان يدون الحوادث فى أيام وجود الفرنسيس بمصر .فقد جاء فى مقدمة كتابه « يقول الفقير عبد الرحمن بن حسن الجبرتى انى كنت سودت أوراقاً فى حوادث القرن الثانى عشر وما يليه ،وأوائل الثالث عشر الذى نحن فيه ، جمعت فيه بعض الوقائع اجمالية ،وأخرى محققة تفصيلية، وغالبها محن أدركناها ، وأمور شاهدناها، الخ... مما يدل على أن حوادث القرن الثالث عشر ، أى من ١٢٠٠ ، وهى السنة التى دخلت فيها الجنود العثمانية تحت قيادة حسن قبودان باشا — كان يقيدها فى أوقات مختلفة وانه لم يبدأ بجمع مسوداته فى أوراق منسقة النظام ، مرتبة على السنين والأعوام ، الا فى سنة ١٢٢٦ .باعترافه هو كما تقدم. ومما يزيد هذا الرأى تأكيداً قول الجبرتى فى الجزء الرابع فى نهاية سنة ١٢٢٥ هجرية « انقضت السنة بحوادثها التى قصصنا بعضها ، اذ لا يمكن استيفاؤها للتباعد عن مباشرة الامور، وعدم تحققها على الصحة، وتحريف النقلة وزيادتهم ونقصهم فى الرواية ، فلا أكتب حادثة حتى أتحقق صحتها بالتواتر والاشتهار ، وغالبها من الامور الكلية التى

لاتقبل الكثير من التحريف ، وربما أخرت قيد حادثة أثبتها ، ويحدث غيرها وأنساها ، فأكتبها فى « طيارة » حتى أقيدها فى محلها ان شاء الله تعالى ، عند تهذيب هذه الكتابة ـ وكل ذلك من تشويش البال ،وتكدر الحال، وهم العيال. وكثرة الاشغال ، وضعف البدن ، وضيق العطن »

وقد توسعنا فى هذا الاستطراد قليلا لأنه تحقيق تاريخى جدير بالاهتمام . ونعود الى عثمان بك ، فنقول انه كان من المماليك الأقوياء ، الاشداء فى الحق ، وأن أحوال مصر قد تحسنت فى الفترة القليلة التى حكم فيها من ١١٤٢ — ١١٥٦ أى نحو أربعة عشر عاماً وقد وصفه الجبرتى فقال :

«وطلع بالحج وعاد فى أمن وأمان ، وانتهت اليه الرياسة ، وشمخ على أمراء مصر ونفذ أحكامه عليهم» ، قهراً عنهم. وعمل فى بيته دواوين لحكومات العامة ، وانصف المظلوم من الظالم ، وجعل لحكومات النساء ديواناً خاصاً ، ولا يجرى أحكامه الا على مقتضى الشريعة . ولا يقبل الرشوة ، ويعاقب عليها ، ويباشر أمور الحسبة بنفسه ، ومنع المحتسب من أخذ الرشوات وهجج الشهود — شهود الزور — من المحاكم ولم يعهد عليه أنه صادر أحداً فى ماله أو أخذ مصلحة على ميراث ، ومات كثيرون من الأغنياء ، وأرباب الاموال العظيمة ، فلم تطمح نفسه لشىء من أموالهم وكان علي الهمة، حسن السياسة ، يحب اقامة العدل والحق فى الرعية ، وهابته العرب ، وأمنت الطرق والسبل البرية والبحرية ، ولم يأت بعد اسماعيل بك بن ايواظ فى أمراء مصر من يشابهه أو يدانيه الخ » وسرد الجبرتى عدة حكايات تدل على عدله وصلابته فى الحق .

ولكن مايكاد يتوطد قدم أمير من المماليك،وينال ثقة الرعية، ويقبض على مقاليد الامور بيده ، حتى تتحرك ضده الاحقاد والدسائس سواء من أقرانه البكوات ، أو بواسطة الوالى، فتثور الفتن، ويقتل ذلك الامير، أو يفر هارباً بحياته ،ويندلع لسان الفوضى ،وتلقى الامة والبلاد المحن والنكبات

ولم يكن لأحد من طبقات الامة المصرية ،ـ لا من التجار ولا من الفلاحين

صفة أو كرامة ، أو هيئة ، اللهم الا لفئة علماء الأزهر ، لما كان لهم من النفوذ الديني على المماليك والعامة على السواء ، فكنت ترى الامراء يجتمعون بهم ويزورونهم ، ويشاورونهم . وهذا الشيخ الحفناوي وقف فى وجه الامراء لما اجتمعوا بالقاهرة وقرروا ارسال حملة لمحاربة على بك (الكبير) وصالح بك ومحمد معهم « الذين استقروا بالمنيا وبنوا حولها سورا وأبراجا ركبوا عليها المدافع وقطعوا الطريق على المسافرين المبحرين والمقبلين ، وقال لهم « خربتم البلاد والاقاليم ، وعلى أى شيء هذا الحال ، وكل ساعة خصام ونزاع وتجاريد » الى آخر ما قال . فلم يسع الامراء الا الامتثال : قال الجبرتي « فلم يلبث هذا الشيخ الا أياما ومرض ورمى بالدم ، وتوفى فيقال انهم أشغلوه وسموه »

والدليل على أنه لم يبق من الامة المصرية بأسرها الا هيئة علماء الدين وغالبهم أهل ضعف ومسكنة وزهد وذل ، أنه على الرغم من كل هاتيك المصائب والرزايا والنكبات ، التى كانت تتساقط كالصواعق على رؤوس هذا الشعب المسكين ، لم نسمع فى كل هذه المدة ان حدثت فى البلاد فتنة ، أو وجدت حركة تذمر ، الامرة واحدة على أيدى بعض العلماء فى سنة ١٢٠٩ ، أى قبل احتلال الفرنسيين بأربعة أعوام فقط ، وحكاية هذه الثورة الأهلية الوحيدة فى بابها ، كما رواه الجبرتي عنها فى حوادث شهر الحجة من تلك السنة قال « وفيه وقع من الحوادث أن الشيخ الشرقاوى له حصة بقرية بشرقية بلبيس ، حضر اليه أهلها وشكوا من محمد بك الألفي واستغاثوا بالشيخ فاغتاظ وحضر الى الأزهر ، وجمع المشايخ ، وأقفلوا أبواب الجامع ، وذلك بعد ما خاطب مراد بك وابراهيم بك ، فلم يبديا شيئاً ، وأمر العلماء الناس باغلاق الاسواق والحوانيت ، ثم ركبوا فى ثانى يوم ، واجتمع عليهم خلق كثير ، وذهبوا الى بيت السادات ، وازدحم الناس على بيت الشيخ من جهة الباب والبركة ، بحيث يراهم ابراهيم بك ، فبعث اليهم أيوب بك الدفتدار ، فحضر اليهم ووقف بين أيديهم وسألهم عن مرادهم فقالوا ، نريد العدل ورفع الظلم والجور ، واقامة الشرع ، وابطال الحوادث والمكوسات التى ابتدعتموها وأحدثتموها ، فقال لا يمكن الاجابة الى كل هذا فاننا ان فعلنا ذلك ضاقت علينا

المعايش والنفقات ، فقيل له هذا ليس بعذر عند الله ، ولا عند الناس ، . وما الباعث على الاكثار من النفقات، وشراء المماليك،والأمير يكون أميراً بالاعطاء، لا بالاخذ، فقال اصبروا حتى أبلغ. ولم يعد لهم بجواب وانفض المجلس ، وركب المشايخ الى الجامع الأزهر واجتمع أهل الاطراف من العامة والرعية ، وباتوا بالمسجد »

وما يشير الى دسائس البكوات ضد بعضهم أن ابراهيم بك انتهز هذه الفرصة للايقاع بمراد بك شريكه فى الحكم ، على الرغم من تحالفهما ،فبعث للمشايخ يعضدهم ويقول لهم أنا معكم، وهذه الامور على غير خاطرى وأرسل الى مراد بك يخيفه من عاقبة ذلك فبعث مراد بك يصالح المشايخ .وعقد مجلساً حضره المشايخ والامراء وانتهى الامر كما يقول الجبرتى ، بأن تاب الامراء والتزموا بما اشترطه المشايخ عليهم ، وانعقد الصلح على أن يدفعوا سبعمائة وخمسين كيساً موزعة، وعلى أن يرسلوا غلال الحرمين ويصرفوا غلال الشون، وأموال الرزق، ويبطلوا رفع المظالم المحدثة ، والكشوفيات والتفاريد ( جمع فرده ـ ضريبة ) والمكوس وأن يكفوا أتباعهم عن امتداد أيديهم الى أموال الناس ويسيروا فى الناس سيرة حسنة ... وكتب بذلك حجة « فرمن » من فرمان ـ عليها الباشا ، وختم عليها ابراهيم بك ومراد بك ، فانجلت الفتنة ورجع المشايخ ، وخلف كل واحد وأمامه جملة عظيمة من العامة وهم ينادون حسب مارسم سادتنا العلماء ، بأن جميع المظالم والمكوس ، « بطالة » من مملكة الديار المصرية وفرح الناس ، وظنوا صحته وفتحت الاسواق وسكن الحال على ذلك نحو شهر ثم عاد كل ما كان ، مما ذكر وزيادة !! ـ اهعن الجبرتى بلغته وتعبيراته

وهناك ثورة أخرى صغيرة جداًوقعت فى الاسكندرية وتكلم عنها « براون » الرحالة الانكليزى، وكان زعيمها الشيخ محمد المسيرى كبير علماء الاسكندرية فى ذلك الوقت ، وله معنا شأن فى مدة الحملة وبعدها وكانت تلك الحركة ضد الكاشف المتولى زعامة الجند فى الاسكندرية، وقد روى أن مراد بك أرسل من القاهرة حملة صغيرة مؤلفة من كاشفين وبعض جنود من أتباعهما فأظهر الشيخ المسيرى كفاءة

فى حمله الاهالى على التسلح وترميم الاسوار ، والاستعداد للمحاربة فلما علم الكاشفان القادمان بذلك ، أعلنا أهل الاسكندرية انهما لا يريدان حربا ، وانتهى الأمر بأن عاد أحدهما يحمل هدية قدمها اليه أهل الاسكندرية ، وأخرى من التجار الأجانب (١)

وللشيخ المسيرى هذا شأن يذكر عند قدوم الحملة الفرنسية كما انه عاش الى زمن محمد على ، وكان له شأن معه

وبهذه المناسبة نذكر ان (براون) قدّر سكان الاسكندرية عند قدومه اليها فى سنة ١٧٩٢ بنحو عشرين الفا بينهم عدد كبير من الاروام ، ويتولى ادارة الاحكام فيها قاض يعين من الاستانة ومعه مشايخ المذاهب الاربعة ولكن (سافارى) الذى زار مصر ، وكان فى الاسكندرية فى ٢٤ يوليو سنة ١٧٧٧ ، يقول إن سكان الاسكندرية فى ذلك الزمن ، لم يكونوا يتجاوزون الخمسة الآلاف. والحقيقة بين هذين العددين ، أى حوالى الاثنى عشر ألفاً

## ﴿ مراد وابراهيم ﴾

لا نختم هذه المقدمة التى ألممنا فيها ، بعض الالمام ، بحالة مصر من الوجوه السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، والأخلاقية ، قبل قدوم الحملة الفرنسية — دون أن نأتى على ذكر لتاريخ الرجلين اللذين كانا يحكمان مصر ، فى ذلك العهد ، وعلى وصف موجز لأخلاقهما ، وظروفهما وأحوالهما .

كانت الكلمة العليا فى البلاد المصرية ، عند قدوم الحملة الفرنسية ، فى يد رجلين من مماليك محمد بك أبو الذهب ، وهما مراد وابراهيم ، أو ابراهيم ومراد ، لأنه من الصعب أن يقدّر الباحث فى حلكة تلك الفترة ، من كان منهما أولى بالتقديم من صاحبه . ذلك لأنه فى لحظة من اللحظات ، أو فترة من الفترات ، كانت تبدو القوة والنفوذ والسيطرة ، فى يد مراد ، وما هى الا أيام أو شهور حتى ترى مراداً منزوياً فى قصوره بين أخدانه ونسائه ، والامر كل الامر فى يد ابراهيم.

(1) Browne's Travels P. 11 & 12.

كان مراد رجلا جريئاً مقداماً ممتلئاً ثقة بنفسه ، أو بعبارة أخرى، مخدوعا مغروراً فيها . وكانت له حركات تدل على أنه عصبيّ المزاج حاده ، على أنه قد كان مع ذلك شديد الغيرة على مركزه ، لا يقبل الضيم ، ولا يرتاح الى السكون والدعة، بعكس مناظره أو شريكه ابراهيم ، فانه كان على جانب كبير من الدهاء والحيلة ، لا يقدم رجلا دون أن يفكر فى العاقبة ، ولذلك كنت تراه ينزوى ويترك الامر في يد منافسه حين يرىءمنه ميلا لذلك ، فلا يعارضه ولا يقاومه ، ولـكن يعمل لتحين الفرص لاسقاطه

مات مرادبك فى الصعيد ، والفرنسيون فى مصر ، ولـكن ابراهيم عمّر طويلا وهرب الى الشام ، وعاد مع الاتراك والانجليز لاخراج الفرنسيين ، وبقى الى زمن محمد على، وكان من الذين طاردهم محمد على الى بلاد النوبة ، ومات فيها

وكان الشيخ عبد الرحمن الجبرتى معاصراً لهما ، وعارفاً بطباعهما وأخلاقهما، فآراؤه من هذه الوجهة ، حجة ثقة ، وان كان الشيخ الجبرتي حاقداً بعض الحقد، لاسباب لا نعلمها،على مراد بك ، كما يظهر ذلك من الـكلام عنه، كلما عرض ذكر اسمه فيما كتبه من حوادث تلك الأيام

وخلاصة تاريخه عند الشيخ عبد الرحمن الجبرتى، انه كان من مماليك محمد بك أبى الذهب، ومحمد بك، مملوك على بك الكبير ، وعلى بك، مملوك ابراهيم كتخدا القاصدغلى

اشترى محمد بك مراد بك فى سنة ١١٨٢ هـ . ثم أعتقه وأمّره ، وأنعم عليه بالاقطاعات الجيلة وقدمه على أقرانه،وتزوج بامرأة الامير صالح بك، وسكن داره العظيمة بخط الـكبش.ولما مات على بك تزوج بسريته أيضاً ، وهى الست نفيسة المرادية الشهيرة الذكر بالخير.ولما انفرد محمد بك بامارة مصر ، كان هو وابراهيم بك أكبر أمرائه .فلما سافر محمد بك أبو الذهب الى سوريا محارباً للظاهر عمر ،أقام مقامه فى الحـكم ابراهيم بك ،وسافر مراد بصحبته.فلما مات محمد بك أبو الذهب بعكا ، اجتمع أمراؤه على رأس مماليكه فى رياسة مراد بك،فلما حضروا الى مصر

بجثة محمد بك ، اتفق رأى الجميع على امارة من استخلفه سيدهم وهو ابراهيم بك ورضى جميعهم برياسته « لوفور عقله وسكون جأشه » ( كذا عن الجبرتى ) . . . وعكف مراد بك على لذاته وشهواته فى دوره وقصوره . كل ذلك ( كما يقول الجبرتى ) على مشاركته لابراهيم بك فى الاحكام ، والنقض والابرام ، والايراد والاصدار ، ومقاسمة الأموال والدواوين ، وتقليد مماليكه واتباعه ، الولايات والمناصب . وأخذ فى بذل الاموال وانفاقها على أمرائه وأتباعه فانضم اليه بعض أمراء على بك وغيرهم ممن مات أسيادهم ، فأكرمهم وواساهم . ورخص لمماليكه فى هفواتهم ، وسامحهم فى زلاتهم ، فانقلبت أوضاعهم ، وتبدلت طباعهم ، وشرهت نفوسهم ، وعلت رؤوسهم »

ولما قدم حسن قبودان باشا الى مصر ، كما ذكرنا فى غير هذا المكان ، هرب مراد بك وأتباعه ، وكذلك فعل ابراهيم بك ففر الى الصعيد . فلما انقضت غزوة حسن قبودان باشا ، واضمحل شأن اسماعيل بك الذى أمّره حسن باشا على مصر ، عاد مراد وابراهيم الى سابق عهدهما . ومن ذلك الوقت داخل الغرور مراد بك وظن فى نفسه أنه هو الذى استرد مركزه ومركز زميله ابراهيم بك فى مصر

وصف الجبرتي مراد بك فقال :

« وكانت صفته أنه أشقر اللون ، مربوع القامة ، كث اللحية ، غليظ الجسم والصوت ، بوجهه أثر ضربة سيف ، ظالماً غشوماً متهوراً ، مختالا ، معجباً متكبراً ، الا أنه كان يحب العلماء ويتأدب معهم ، وينصت لكلامهم ، ويقبل شفاعتهم »

ووصف مارسيل (١) وهو من العلماء الذين رافقوا نابليون فى حملته على مصر ، وكان مديراً للمطبعة الفرنسية بالقاهرة ، وعضواً بالمجمع العلمى ، وسمع ، من المماليك وأهل القاهرة ، عن ابراهيم بك ومراد بك ، فقال عنهما فى كتابه

---

**(1) J.. J. Marcel de L'institue d' Egypte.**

وكان مسيو مارسل هذا مستشرقا متمكنا من اللغة العربية وقد ترجم القصيدة التى نظمها المعلم نقولا الترك فى نابوليون ، من العربية الى الافرنسية وألقى محاضرات فى المجمع العلمى عن كثير من الشؤون العربية والاسلامية

( مصر منذ فتح العرب الى الاحتلال الفرنساوى ) (١) ما تعريبه :

« كان ابراهيم بك ومراد بك ينافس أحدهما الآخر، ويغار منه ومع ذلك اتحدا ليظل الحكم فى أيديهما، على الرغم من اختلاف طباعهما . وكان أولهما أكبر سناً، وقد زادته السنون الطوال خبرة ومعرفة بفنون السياسة ، وقدرة على كبح جماح عواطفه ، واخفاء ما فى نفسه ، فكان دائماً على حذر من زميله الذى كان يعرف فيه الكبر والعجرفة ، ولكنه كان يشعر أيضاً من نفسه ، بأنه أقل منه شجاعة ، وقوة وكفاءة فى الشؤون العسكرية . فاجتنب ابراهيم بك سلوك أى سبيل يصطدم فيه مع مراد بك ، أو يضطره للحرب والقتال معه

وكان ابراهيم بك أقل جرأة من مراد بك ، ولكنه لم يكن أقل منه جوراً وطمعاً ، الا أنه كان يخفى غلظ قلبه وقسوته ، بما كان يتصنعه من الحلم والرأفة ، على خلاف مزاحمة الذى كانت تبدو عليه دائما علامات الحدة ، وسرعة الغضب . ولم يظهر ابراهيم بك ، سواء قبل ولايته الحكم ، أو بعده ، شيئاً من حسن الاخلاق بل كان سيء السيرة ، لا قلب له ولا ذمة ، جباناً كثير الاوهام ، حليف الوسواس ، سيء الظن بالناس ، كثير الوعود لا يبر بشيء منها ، خادعاً ما كراً ، يظهر المحبة والاخلاص لمن يريد قتله!! ولا يحجم عن اتيان أى عمل ، ولكن لا يصل اليه الا بطرق خفية ملتوية .

أما مراد بك فبالعكس لم يكن يطلب شيئاً بطريق الحيلة والخداع بل بالقوة. تظهر عليه علامات القوة والغلظة ، متين الاساطين ، قوى البنية ، مفتول الساعد ، حتى انه كان يستطيع أن يقطع رأس الثور بضربة واحدة من حسامه ، وتلوح عليه ملامح الجندى ، وهيئته كهيئة الليث الغضنفر . لم يباره أحد فى ميدان القتال ، واذا غضب ارتعش الواقف أمامه من قمة رأسه الى أخمص قدميه. ولم يكن يعرف كيف يكتم حقده وبغضه . ومع هذا فقد كان كريماً جواداً ، قريب العفو سريع الرضاء ، يقدر كفاءة الناس حتى أعداءه ، مخلصاً لأصدقائه ، باراً بوعده ، تظهر عليه أحياناً علامات الحدة والطمع ، وأحياناً يميل للحرية والاسراف ، ولكنه كان مع كل

(1) EGYPTE — Depuis la conquéte des Arabes jusqu'a la Domination Francaise

هذا فخورا بنفسه سفاكا للدماء ، سريع الغضب ، اذا ملكته سورته ضحى كل شيء ، حتى مصلحته الشخصية فى سبيل الانتقام . » اهـ . رأى مارسيل

وممن يوثق بروايته تمام الثقة فى وصف مراد بك ، الضابط « سونينى » الفرنسي (١) الذى ساح فى مصر سنة ١٧٧٧ . وذلك لأنه أولا بعيد عن الغرض الذى يمكن أن ينسب الى الشيخ عبد الرحمن الجبرتى ، أو الى مثل مارسيل الذى سمع عنه ولم يره ، لأن مراد بك بعد فراره من واقعة امبابه ، لم يعد الى القاهرة حين كان مارسيل بها ، وقد روى «سونينى» فى كتابه أنه قابل مراد بك مرات عديدة وقال عنه ما يأتى :

« وكنت فى بعض الأوقات أدخل قصر مراد بك بواسطة شاب فرنسى يتمتع بثقته . وقد قابلني البك برقة ولطف ، وأجلسني الى جانبه ، وجعلني أدخن من غليونه ، وهذا يعتبر شرفا ممتازا فى هذه البلاد ، غير انى لم أخدع به على الاطلاق . وقد طرح عليَّ ألفاً من الاسئلة ، كان السؤال الواحد منها اسخف من الآخر ، وظهر لى منها كلها أن الرجل على جانب من الجهل العظيم . وأخيراً قام مقدمى اليه بشرح أمرى ، فأظهر البك ارتياحا من الأجوبة التى أجبت بها على الأسئلة ، وكانت النتيجة أن أقترح عليَّ ادخالى فى خدمته بوظيفة مزدوجة كطبيب ومهندس ، وقدم لى داراً كبيرة فى القاهرة ، مع جميع أنواع الخدم والحراس ، وأقوات يومية وافرة للغاية التي ليس وراءها غاية ، كما خصص لي مرتباً كبيراً ، ومن المعقول أن يغتر بهذه الهبات أى واحد ، على غير معرفة بهؤلاء البكوات ، الذين لا مبادئ لهم ، وبتقلباتهم فيما يقدمون من هبات ويمنحونه من القاب الشرف ، أى هؤلاء الذين يثقلون كاهل الرجل بالمكارم

(١) سونينى (Ch. Micholas Sigisbert de Manocourt
ولد فى لونفيل سنة ١٧٥١ وتوفى سنة ١٨٢١ بباريس ، عالم طبيعى وضابط فى البحرية الفرنسية واحسن من كتب عن مصر قبل الحملة الفرنسية ، وكتابه مجموعة من وصف اخلاق وعادات المصريين فى ذلك العهد ، ووصف لآثار مصر وحيواناتها ونباتها . وقد طبع كتابه فى باريس والحملة موجودة فى مصر ، وترجم الى الانجليزية مرتين وطبع فى لندن سنة ١٨٨٠ والاصل والترجمة موجودان فى دار الكتب المصرية ، وكانت سياحته فى مصر لغرض سياسى كما سيأتى ذلك فى الفصل الآتى .

فى يوم، وفى اليوم التالى يفاجئونه بوضعه فى الأصفاد والاغلال الحديدية، أو قد يأمرون باعدامه .

ومراد ، الذى كان له من الشجاعة ما مكنه من مقاتلة الفرنسيين، رجل جميل جداً ، وذومظهر حربى ، وذقن مغطاة بلحية سوداء شعثاء ، وحاجبان كثيفان يرسمان قوسين فوق عينيه المملوءتين ذكاء وحماسة ونارا . وعلى أحد وجنتيه أثر لجرح زاد منظر سحنته حدة وعنفاً . وقد جمع الى الشجاعة العظيمة مظهراً فريداً فذاً ، وقوة خارقة للعادة ، بحيث أنه اذا ركب ومر بجانب ثور يستطيع أن يقطع رأسه بضربة واحدة من مهنده . وكان مقاتلا لا يفل له عزم ، بحيث كان يستطيع أن يتحمل أشد المشاق ، كما كان فارساً مغواراً قادراً ماهراً فى استعمال السيف ، وشجاعاً وقت المحنة والضيق ، وجسوراً يقدم على جلائل الاعمال والمشاريع، ورزيناً متئداً فى العمل ، ولكنه مرعب فى المبدأ والمنتهى ، بحيث لو تعلم مراد لكان قائداً عظيما . وكان له شكل يدل على الكبرياء ، وسلوك يشف عن الجود والسخاء ، فأكسبه هذان الأمران، ذلك المظهر الجليل الذى يبدو على ملك من الملوك . ولكن الحمق والجهل والقساوة كانت من الصفات التى صيرته ظالماً جباراً عتياً . اه

## • مراد بك وحكاية اصلاح جامع عمرو

من الاعمال الطيبة الباقية الأثر والمنسوبة الى مراد بك، انه أصلح جامع عمرو بن العاص ، بل وأوجده من العدم، ومن الناس ، من يعد له هذه المأثرة ويذكرها له بالمدح والثناء . وغريب أن يقوم رجل مثل مراد بك بهذا العمل الصالح الا أن يكون له من ورائه مآرب، كاكتساب قلوب الناس والجند، من المماليك بنوع خاص، ليستأثر بالامر دون شريكه ومنافسه ابراهيم بك. وهناك روايتان ، أو وجهتا نظر مختلفتان ، فى السبب الذى حمل مراد بك على ذلك العمل النافع . فالجبرتى ، وهو



مراد بك

( نقلا عن كتاب مارسيل )

شاهد عيان، وخبير بأحوال ذلك الزمان ، يصف ذلك الاصلاح الذى قام به مراد بك بأنه « خطرات من وساوسه » وفى هذا الصدد يقول : (١)

« ومما سولت به نفس المترجم (مراد بك) بارشاد بعض الفقهاء ، عمارة جامع عمرو بن العاص وذلك انه لما خرب هـذا الجامع ، بخراب مدينة الفسطاط وبقيت تلالا وكيماناً ، وخصوصا ماقرب من ذلك الجامع ، ولم يبق لها بعض العمار الا ما كان من الاماكن التي على ساحل النيل ، وخربت فى دولة القاصدغليه ، وأيام حسن باشا (قبودان) لما سكنتها عساكره (الاتراك) ولم يبق بساحل النيل الا بعض اماكن جهة دير النحاس (كتبها الجبرتى دار النحاس) وفم الخليج والجامع العتيق (جامع عمرو) لايصل اليـه أحد لبعـده وحصوله بين الاتربة والـكيمان ، وكان الناس فيما أدركنا ، يصلون فيه آخر جمعة فى رمضان فتجتمع به بعض الناس على سبيل التسلى من القاهرة ومصر وبولاق ، وبعض الامراء أيضاً ، والاعيان، ويجتمع بصحنه أرباب الملاهي من الحواة والقرادانية وأهـل الملاعيب والنساء الراقصات المعروفات «بالغوازى». فبطل ذلك أيضاً من نحو ثلاثين سنة (٢) لهدمه وخراب ما حوله، وسقوط سقفه وأعمدته ، وميل شقته اليمنى، بل وسقوطها بعد ذلك ، فحسن ببال المترجم هدمه وتجديده بارشاد بعض الفقهاء ، ليرقع به دينه الخلق ، كما قال شاعرهم

ومسجد فى فضاء ما عمارته | فوق الصيانة الا لهو مختلق
كأن عمراً دعا ياعاص هم به | ورمه رقعة فى دينك الخلق

ثم ذكر الجبرتى ان مراد بك قام بعمارة ذلك المسجد وصرف عليـه أموالا عظيمة « أخذها من غير حلها ، ووضعها فى غير محلها » وصلى الناس صلاة آخر جمعة من رمضان سنة ١٢١٢ (أى قبل وفاة مراد بك بثلاث سنوات فقط).

ثم قال الجبرتى « فلما حضرت الفرنساوية فى العام القابل (١٢١٣) جرى

---

(١) كتاب عجائب الآثار فى التراجم والأخبار لشيخ عبد الرحمن الجبرتى صحيفة ١٧٠ من الجزء الثالث (طبعة بولاق) (٢) هذه العبارات واردة فى وفيات سنة ١٢١٥

على الجامع ماجرى على غيره من الهدم والتخريب وأخذ أخشابه،حتى أصبح بلقعاً أشوه ممـا كان فياليتها لم تزن ولم تتصدق . » ثم انتهى بهذه العبارة الى وصف لتاريخ مراد بك فقال :

« وبالجملة فمناقب المترجم لاتحصى ، وأوصافه لاتستقصى ، وكان من أعظم الاسباب فى خراب الاقليم المصرى، بما تجدد منه ومن مماليكه وأتباعه من الجور، والتهور ، فلعل الهم يزول بزواله »

هذه رواية الجبرتى عن إصلاح جامع عمرو ، ولـكني اطلعت على الرواية الآتية فى كتاب ( مارسيل ) الذى سبقت الاشارة اليه ، فقد ذكر فى ترجمة مراد بك الحـكاية الآتيـة أعربها ليطلع عليها قراء اللغة العربية ، ولتسجل فى التاريخ، اظهاراً لصورة من أخلاق ذلك الرجل ، الذى وقف بجيشه أمام نابليون بونابارت فى واقعة امبابه الفاصلة . قال مارسل عن مراد،ماتعريبه : «وفرض ضريبة جديدة على تجار اليهود ، لا فى القاهرة وحدها ، بل فى مصر كلها ، وكانت هذه الضريبة سبباً لاجتماع كبار الاسرائيليين فى معابدهم ، وبعد المناقشة فيما بينهم ، أرتأوا أن يرسلوا كبيرى أحبارهم، الى مراد بك يسألاه أن يرفع مقته وغضبه عنهم . ولما وقف الحـبران امام مراد بك قالا له : « أيهـا الامير اننا فقراء ولو أردنا أن نبيـع أملاكنا ونساءنا وأولادنا، بل وأنفسنا،فاننالانستطيع أن نقدم لك عشرالضريبة التى ضربتها علينا ، ولـكن لو تـكرمت علينا باعفائنا ممـا لانستطيع دفعه ، كان ذلك شفقة منك ، واننا فى مقـابل ذلك ندلك على كنز عظـيم حفظنا سره ، خلفاً عن سلف ، ونوصي به أبناءنا حتى لايعرف مكانه أحد سوانا . »

فلما سمع مراد بك هذا القول أرهف أذنيه وقال « انني ألغى أمر الضريبة ، فأين الـكنز ؟ فأجابه الحبران : ان الـكنز مدفون فى جامع عمرو بن العاص ، فى مصر القديمة ، وكان قـد وضعه ذلك الفاتح العظيم فى صندوق حديدى وخبأه فى بطن الأرض ولا يعرف محله سوانا . »

أعطيت هذه المعلومات بدقة واتقان حتى كأنها حقيقية لامكذوبة، ومع ذلك فكانت توجد ضمانة أخرى وهى رأسا الحبرين المبلغين!!

لم يسرع مراد بك فى وضع يده على الكنز الذى أصبح يعده ملكا له ، خوفاً من ان يتهم بتخريب الجوامع . ولكي يضع يده على الكنز دون أن يثير سخط الشعب عليه ، رأى أن يتظاهر بخروجه الى الصيد ، وعند عودته مر بالجامع ودخل فيه متظاهراً بالصلاة ، فلما قابله فيه المشايخ ، قال لهم مراد بك ، : وقد رأى الجامع وأطلاله خربة — « مادام الله قد قادني الى هذا المكان المقدس ، فانه أراد بذلك من دون شك ، أن أكون أنا الشخص الذى يتولى اصلاحه وتجديده ، وان يقرن اسمى باسم مؤسسه عمرو بن العاص فى دعائكم » . وغداً سأرسل العمال والصناع للبدء فى اصلاحه . »

وفى اليوم التالى جاء العمال ولكن بدلا من أن يشتغلوا باصلاح الخرائب عمدوا الى هدم المباني ، وحفر الأرض فى المكان الذى رسمه لهم وكيل مراد بك وكاتم أسراره المخلص

وبعد بضع دقائق ظهرت أرض الجامع وأخطر مراد بك فجاء مسرعاً يشهد بنفسه اخراج الصندوق الحديديّ كما أخبره الحبران . فوجد الصندوق وكان نصفه أحمر من الصدأ واقفاله لا مفاتيح لها ، ولما كسر الصندوق وجد فيه بعض أوراق من الرق مكتوبة عليها آيات قرآنية بخط كوفي على الطراز الذى كان يكتب به فى عصر عمرو بن العاص .

وكان من حسن حظ الحبرين انهما تواريا بين الجمهور وهربا قبل أن يظفر بهما مراد بك الذى عندما عاد الى القاهرة انتقم من اليهود بفرض ضريبة مضاعفة عليهم وكان يجلد من تأخر فى دفع ما عليه »

هذه رواية مارسيل . ولا ندرى من أين جاء بها ، كما أننا لا نتصور كيف يستطيع اختلاقها ، ونستغرب أيضاً كيف لم يصل خبرها الى مسامع الجبرتي وهو عائش فى تلك الفترة من الزمن، مختلط بالعلماء والمشايخ والامراء والحكام ، واليهود

والنصارى على السواء . ولعلها من الاشاعات والحكايات التى كانت تروى للاجانب قبل الحملة الفرنسية وبعدها . ومن تلك الاقاصيص، التى رويت عن مراد بك فيما كتبه كتاب الافرنج ولم نجد لها أثراً فى كتاب الجبرتي، وهو العمدة الوحيد فى هذه الفترة — حكاية مراد بك وكيف وجده أبوه بعد أن اختطف من أحضانه طفلا، وبيع كغيره من المماليك، ثم ارتقى حتى صار شبه ملك فى مصر. وهى حكاية رواها « سافارى » فى خطاباته الموجهة الى شقيق ملك فرنسا ، قبل الثورة الفرنسية فى سنة ١٧٧٩ (١)

ولقد كان من الامور الطبيعية أن طفلا يخطف من بين أحضان أمه وأبيه ، ويباع بيع الرقيق، فيصير مملوكا لسيد من الاسياد، ثم ينهض به الجد الباهر، من فتى حقير ، الى زعيم ثم أمير ، وأخيراً يصل الى السيادة على مصر كأنه يوسف الصديق. وكان من الامور الطبيعية أيضاً أن يفكر هذا الولد فى أهله وامه وأبيه ، ويفكر كيف يبعث اليهم فيحضرهم ويبرهم، كما حدث ليوسف الصديق، حين دخل عليه اخوته وهم له منكرون

وأما رواية « سافارى » التي رواها عن مراد بك وأبيه، فهى كما جاء فى الخطاب الثالث والعشرين سنة ١٧٧٩ كما يأتي :

« واختم هذا الخطاب يا مولاى بالرواية الآتيـة التى تريك ان حوادث يعقوب وولده يوسف ( عليهما السلام) تتجدد فى هذه الديار . فى العام المـاضى حصل قحط عظيم أتى على الحرث والنسل فى الديار الشامية ، وكان ثمت رجل طاعن فى السن يقيم فى ضواحى دمشق ، وضاقت الحال بهذا الرجل وعز عليه اطعام أولاده الصغار، وبينا هو يبيع فى أسواق تلك البلدة شيئاً من بقايا متاعه ليبتاع بثمنه غذاء لاولاده ، سمع القوم، فى القافلة القادمة بالارز من دمياط ، يتحدثون عن

---

(1) Lettres Sur L' Egypte par M. Savary

هذا الكتاب مطبوع فى باريس سنة ١٧٨٥ ومقدم الى شقيق ملك فرنسا وترجم الى الانجليزية فى سنة ١٧٨٦ وموجود باللغتين فى دار الكتب المصرية .

مراد بك وقهره لاعدائه ، ودخوله القاهرة ظافراً . ثم سمع منهم وصفهم لذلك الامير ولاخلاقه ، وخلقه ، وطول قامته، ولون عينيه، وخيل لذلك الرجل الهرم انه يرى فى تلك الاوصاف ملامح ولده الذى أختطف منه وهو فى سن الثانية عشرة من عمره ، فصمم فى الحال على السفر الى مصر ، وفعلا سافر ووصل اليها ، وقابل ولده المفقود ، وتعرف به ، ولا تسل عما دار بين الولد وأبيه من ذكرى الماضى والحاضر ، فحن اليه مراد وأجلسه الى جانبه ، وطلب اليه أن يبعث فى طلب اخوته فى الحال، ودعا أباه الى اعتناق الدين الاسلامى ، فاعتذر الشيخ ، ثم بعد مدة رغب فى العودة الى بلده فأمده مراد بمبلغ طائل من المال ، وأرسله محفوفاً بالاكرام والاجلال ، الى دمشق . . اه

هذه رواية سافارى، وغريب أنها فاتت الجبرتي وهو معاصر لمراد بك !!! وقد تكون من نوع الاشاعات والروايات التى أشرنا اليها .

وسواء أصحت هذه الرواية أم لم تصح، فمن المؤكد ان هذا الحادث حصل مع على بك الكبير فى سنة ١٧٦٦

ولما كان على بك المشار اليه، رجلا استقل بملك مصر ، وصار ملكا عليها وعلى الحجاز ،وعلى جزء كبير من البلاد السورية، فان رواية كالتى سنذكرها عنه، جديرة بان تدون فى صحائف التاريخ ، خصوصاً وأنه لا أثر لهـا مطلقاً فى أى مصدر من المصادر العربية ، فقد روى ( ستافرو لاسنيان ) الرومى مؤلف كتاب ( ثورة على بك ) — ذلك الكتاب الذى سبقت الاشارة اليه فى صحيفة ١٩ (حاشية نمرة ٢) — الرواية الآتية بحروفها . قال (١)

«وفى سنة ١٧٦٦ بعث على بك باحد أمرائه الملقب طنطاوى بك — وهو أحد محاسيبه الذى تقدم ذكرهم ، وأحد الذين رقاهم الى رتبة البكوية — الى الاستانة مع «الخزنة» أى الجزية التى كانت تدفعها مصر للباب العالى سنويا ، وأمره أن يرسل

(1) The Revolt of Aly Bey — London 1784 Page 83
( ثورة على بك ) صحيفة ٨٣ تأليف ستافرو لاسنيان المحفوظ بدار الكتب المصرية

حين وصوله الى الاستانة ، رجلا موثوقا به الى أماسيا ( فى الاناضول ) ليبحث عما اذا كان أباه وأمه لا يزالان فى قيد الحياة ، حتى اذا وجدهما كذلك يدعوهما الى السفر الى الاستانة ليحضرا الى مصر مع طنطاوى بك عند عودته . وقد قام طنطاوى بك بتنفيذ أرادة مولاه فأوفد خازنداره الى بلدة أماسيا فوجد المدعو داوود ، والد على بك حياً (١) فافضى اليه الرسول بمهمته فسر الشيخ الهرم سروراً عظيما لعثوره على ولده المفقود ، وسرعان ما سوى مهامه وشؤونه المنزلية وسافر مع الخازندار ، ومعه أصغر بناته وحفيد له ، تاركا اكبر بناته فى المنزل مع زوجها .

ووصل الى الاستانة ، فى وقت انتهاء طنطاوى بك من مهمته ، وفعلا حضر هو وابنته الى القاهرة بعد رحلة دامت أربعين يوماً

ووصلت البشائر الى على بك بقدم والده ، فخرج من المدينة ومعه كثيرون من أتباعه لمقابلته ، وحين رآه جثا على ركبتيه وقبل يديه .

ووصف الكاتب الفرح الذى استولى على الوالد وولده ، ثم قال وبعد ذلك أم الجميع منزل على بك الكائن فى الازبكية (٢) وتولى المماليك والاتباع غسل أقدام القس داوود ، ثم دخلوا به الى الحريم ، وهناك قدم له بك على زوجته مريم (٣) قال المؤلف ، وأقيمت الافراح فى المدينة وتلقى على بك التهانى من

---

(١) جاء فى الفصل الاول من كتاب ثورة على بك ان داوود هذا كان قسيساً من قساوسة الروم الارثوذكس وان على بك لما ولد فى سنة ١٧٢٨ م. سمى يوسف . وانه خطف لما كان سنه ثلاث عشرة سنة .

(٢) كان لعلى بك دار واسعة فى شارع عبد الحق المطل على بركة الازبكية وهذه الدار احتلها بعده محمد بك ابو الذهب وتزوج فيها الست نفيسه المرادية . وتقع هذه الدار فى الطرف الغربى من العمارة التى كانت فيها الاوبرا بار والسنترال اليوم ولا يزال اسم الشارع المجاور لها شارع ( عبد الحق السنباطى )

(٣) كان على بك متزوجا من امرأة مسيحية يونانية الاصل اسمها مريم وكانت تتظاهر بانها اعتنقت الاسلام بناء على اتفاق بينها وبين زوجها

البكوات والأمراء ، وأرسل الباشا ،والى الدولة، تهانئه مع كتخدائه،وأبدى رغبته في مقابلة الوالد داوود

قال أيضاً: ثم أقام داوود سبعة أشهر فى القاهرة وصمم على العودة الى أماسيا ولم تنفع معه توسلات ولده بالبقاء ، فسافر من مصر محملا بالهدايا النفيسة ، وأقلته سفينة خاصة الى الاستانة . وصدرت الاوامر الى كبو كتخدا مصر فى الاستانة، ليقوم بما يلزم لترحيل داوود الى بلده

وأهم أنباء هذه الرواية هو ان على بك بذل مجهودات كبيرة لدى والده لحمله على تزويج أخته المسماة «يوهود» ( كذا فى الاصل ) الى محمد بك ابو الذهب ذلك الذى غدر به بعد ، وكان سبب نكبته وسقوطه من ذلك العرش الذى صعد اليه بهمته وكفاءته .

هذه الرواية موثوق بسندها اكثر كثيراً من رواية سافارى ،عن مرادبك ووالده ،وليس من البعيد أن يكون سافارى قد سمع هذه الحكاية من أفواه الناس ونسبها الى مراد بك ليفكه بها مولاه شقيق ملك فرنسا !! .

وكيفما كان الحال فان هذه الروايات تضع أمام القارئ صورة صادقة ، لنشأة أولئك المماليك الآفاقيين الذين قضى على مصر بان يتولوا حكمها،ويسيطروا على حياتها ووجودها ومستقبلها ، فى ذلك الزمن العصيب

ذكرنا أن مراد بك مات فى سنة ١٢١٥ هـ — ١٨٠١ م . وأما ابرهيم بك فانه بقى الى ما بعد مذبحة المماليك ، على يد محمد على باشا بالقلعة سنة ١٨١١ م. ، ومات فى بلاد النوبة . وهذه رواية الجبرتي عن وفاته قال فى الجزء الرابع (١) : فى وفيات سنة ١٢٣١ . هـ « ومات الامير الكبير الشهير ابراهيم بك المحمدى

---

(١) صحيفة ٢٦٣ طبعه ٥ بولاق

( نسبة الى مولاه محمد أبو الذهب ) ، مات بدنقله متغرباً عن مصر . وكان موصوفاً بالشجاعة والفروسية ، وباشر عدة حروب وكان ساكن الجأش صبوزاً ذا تؤدة وحلم ، قريباً للانقياد الى الحق ، متجنباً للهزل الا نادراً مع الكمال والحشمة لا يحب سفك الدماء . . »

ثم ذكر سيرته مع مماليكه وتساهله معهم حتى داخلهم الغرور، وغرتهم الغفلة عن عواقب الأمور ، واستضعفوا من عداهم ، وامتدت أيديهم لأخذ أموال التجار ، وبضائع الافرنج الفرنساويين وغيرهم بدون الثمن مع الحقارة لهم ولغيرهم فكان هذا من الأسباب التي عجلت بقدوم الحملة الفرنسية الى مصر ، أو كان من الاسباب التي توسلوا بها لغزو مصر .

وقد وصف «مارسيل» حالة مراد بك وابراهيم بك قبيل الحملة الفرنسية فقال فى كتابه الذى سبقت الاشارة اليه ما تعريبه :

« ساءت حالة مراد بك ولم يستطع مناوءة زميله ابراهيم بك وبقيت مراجل الغيظ والحقد تغلى فى نفس كل منهما، ولكن كان الاهالى يدفعون دائماً النفقات اللازمة لرجالهما بوسائل متنوعة ، وضرائب شتى تضرب من وقت لآخر على سكان القاهرة ، وسكان الاقاليم . لأن مراد بك ، وابراهيم بك لم يكونا ليتفقا الا على سلب الاهالى ، وسحق مصر ، سواء أكانا غالبين أو مغلوبين ، فى يديهما القاهرة ، أو مطرودين منها الى الصعيد

وكان الغرض الوحيد الذى يرميان اليه هو الاستيلاء على أموال المصريين. وبعد أن نضب معين تلك الاموال ، عمدا الى التجار الاجانب ، لا سيما الفرنسيين فى القاهرة ورشيد والاسكندرية ، فتحمل محل (فارسى) فى رشيد ومحلات نيدورف وكاف ، وهنريسى وبودوف[1] وبرى ريال ، فى القاهرة ، مالا تطيقه

---

(١) صار مسيو بوديف وكاف هذان ، فى وقت من الاوقات ، أثناء الاحتلال الفرنسى فى مصر ، عضوين فى الديوان وورد ذكرهما فى الجبرتى كما سيراه القارىء فى مكانه

نفس أحد ، ووضعت عليهم ضرائب ناءوا بحملها . ولم يجد تدخل الباشا شيئاً ولم تقابل الطلبات التى عرضت فى الاستانة على السلطان سليم الثالث الا بالصمت والاغضاء وكان ذلك سبباً فى استمرار الظالمين على مظالمهما اذ أدركا عجز الباب العالى عن ردعهما

ولما بلغت الامور حدها، وعيل صبر التجار الفرنسيين، أرسلوا عريضة الى حكومة الديركتوار فى الجمهورية سنة ١٧٩٥ فاحالتها على القنصل « ماجاون » . ولم يهتم مراد بك بالرد على عرائض القناصل الاوربيين الا بتشديد الحملة على التجار، بل أراد فوق ذلك أن يدمر محلاتهم فى القاهرة ويعطل تجارتهم »

.:.

تلك كانت حالة مصر كما وصفناها باسهاب قبيل الحملة الفرنسية . وهكذا كانت أخلاق الرجال الذين يحكمونها عند وقوع ذلك الحادث الجلل ،فى تاريخ السياسة والجنس البشرى ومصر بنوع خاص ، وأعنى به قدوم نابليون بونابرت لفتح مصر، بل لفتح أبوابها الى العالم الاوربى ، والسياسة الاستعمارية ، والمدنية الغربية أيضاً

وتلك كانت هى الاسباب السياسية والتاريخية التى جرت بسلسلتها الطبيعية الى الاحتلال الفرنسى

وسنأتى فى الجزء الثانى من هذا الكتاب على الاسباب التى ساقت فرنسا، والسياسة الاوربية، الى فتح باب المسألة المصرية، فى اللحظة الاخيرة من القرن الثامن عشر، وفى مستهل القرن التاسع عشر

# الفصل الثانى

## تاريخ فكرة الحملة الفرنسية

### على الديار المصرية

لا بد لنا قبل الكلام عل الحملة الفرنسية ؛ وما تم على يديها ، وما حصل لها فى هذه الديار المصرية ، أن نفرد فصلا خاصا للأسباب التى حملت حكومة الجمهورية الفرنسية ، على القيام بهذه الحملة ، فى الوقت الذى كانت فيه تلك الادارة الفرنسية ، مبغوضة ممقوتة من جميع دول أوربا المعتبرة فى ذلك الحين، حتى أنها كانت فى الحقيقة فى حرب مع النمسا وجمهوريات إيطاليا ، ( وإن يكن نابليون قد أخضع هاتين الأخيرتين) وعداوة مستحكمة مع الروسيا ، وحرب مستمرة مع انكلترا ، هذا فضلا عن أن الجمهورية الفرنسية ، لم يكن قد توطدت بعد أركانها ، أو ثبتت دعائمها.

قد يقال لنا إن هذا فصل من تاريخ فرنساء وعلاقاتها بالدول الأخرى ، وأن لا شأن له فى تاريخ مصر ، الذى هو الغرض من هذا الكتاب ، ولكن اعتراضاً كهذا لا يصدر إلا عن نظر سطحى ، لان الوقوف على حقيقة مركز مصر فى السياسة الأوربية ، وعلاقة هذا المركز بالحركة الاستعمارية ، التى قامت بها أوربا فى أواخر القرن الثامن عشر ، وأوائل التاسع عشر ، لا يكون الا بمعرفة المصريين الأسباب التى دفعت فرنسا الى فتح الديار المصرية . ثم ان إدراك العوامل التى حاربت فرنسا فى مصر ، وأجبرتها على الجلاء عن هذه الديار ، بل وفهم الحوادث التى سنأتى عليها فى هذا الجزء من كتابنا ، وفيما وقع من اتفاق الدولة العثمانية مع انكلترا، والقضاء على كل أحلام نابليون والفرنسيين كافة فى الشرق، — لا يكون الا بفهم الأسباب التى حملت فرنسا للغارة على وادى النيل

وانتا مع مانعلمه من صعوبة هذا البحث، والتحقيق التاريخي بشأنه ، لم نر بداً من الخوض فيه ، مع أنه قد كان في امكاننا التجاوز عنه . وصعوبة هذا البحث لا ترجع لقلة المواد أو لتشتتها ، أو لغموضها ، فهي هنا أكثر وضوحاً وجلاء من البحث السابق، عن مصر قبل الحملة في المقدمة. والمصادر التي يرجع إلى الأخذ عنها كثيرة ، وقد وضع فيه الكتاب الفرنسيون فصولا طويلة ، بل وضعت له كتب خاصة وأحسنها وأوفاها كتاب « أسباب الحملة الفرنسية على مصر (١) » تأليف (شارل رو ) ، وهو كاتب بحاثة كان موظفاً بوكالة فرنسا السياسية في القطر المصري، وكتابه هذا متوّج برضاء الاكاديمي الفرنسية . ولكن صعوبة هذا البحث ليست في قلة مواده ، ولكن في اختصاره ووضعه في الصيغة اللائقة المتناسبة، مع قيمة الحوادث في هذا الكتاب ، وصعوبته أيضاً ترجع الى أن قراء العربية في حاجة الى إيضاح أمور لم يدرسوها ، ووصف رجال كثيرين لم تسبق لهم معرفة بتاريخهم ، هذا فضلاً عن ضرورة إيقاف قراء العربية على مختصر من تاريخ نابليون ، وعلاقته بحكومة بلاده ورجال السياسة الذين كان لهم شأن في فكرة الحملة الفرنسية على مصر ،وهذا المطلب وحده كان جديراً بأن يلوى عنان الكاتب ويرد منه الطرف حسيراً .

ولكنا وقد وطدنا العزم على تأدية هذا الواجب ، فلن نرجع حتى نجول فيه جولة بقدر المستطاع ، فان وفيناه حقه فهو غاية المرام ، وإن قصرنا ، فيكون ما نضعه في هذا الباب أساساً يبنى عليه من يكتب بعدنا فيه، ممن هم أغزر مادة ، وأفصح بياناً . ولن يذهب باجتهاد المجتهد أنه لا يصيب

كانت مصر منذ القدم ، ولا تزال الى يومنا هذا ، عروس الشرق ، وخريدة عقد العالم المتوسط ، ولذا كانت دائماً مطمح أنظار الدول التي يقوى شأنها في هذه الدنيا . ولو كانت مصر هذه ، بنيلها وأرضها الخصبة ، وأهلها

---

(1) Les Origines de L' Expedition D' Egypte.
Par François Charle Roux

الذين سلس قيادهم ، وسهل حكمهم ، فى مكان غير مكانها الجغرافى الذى هى فيه ، كأن تكون فى آسيا أو فى أمريكا مثلا ، لما تطلعت اليها الأنظار ، ولما تسابق نحوها القواد العظام ، والدول العظيمة الشأن ، لأن ثروة مصر الطبيعية القاصرة على الأرض والزرع ، ليست فى حد ذاتها مما يبعث على الطمع والجشع ، فكل ما يخرج منها يكفى لأبنائها ، ولكن وجودها على مفرق الطرق ، وملتقى أشعة العالم ، وكونها « الطريق السلطانى » لمتاجر الشرق والغرب ، هو الذى جعل لها هذه الأهمية ، ووجه اليها المطامع منذ القدم وإلى اليوم.

فلذلك لم يكن غرض الاستيلاء على مصر ، فى كل الأوقات ، موجهاً لها بالذات ، بل كثيراً ما كان للقضاء على نفوذ دولة من الدول ، أو عرقلة لنمو أمة من الأمم ، ولا شأن لنا أن نضرب على هذه النظرية الأمثلة من التاريخ القديم ، اذ تكفينا حوادث القرن الماضى وما تقدمه ، للتدليل على ما نقول ، وخصوصاً فيما نحن بصدده من تاريخ الحملة الفرنسية على مصر ، فان تاريخ هذه الفكرة يرجع الى عهد أبعد ، حين لم يكن يحلم أحد فيه بالثورة الفرنسية ، أو جمهوريتها ، ولا نابليون وفتوحاته ، وأمبراطوريته .

فقد كان ليبنتز (١) Leibnitz أول من فكر فى ذلك اذ كان لويس

---

( ١ ) ليبنتز Gatterfreed Wilhelm Leibnitz فيلسوف كبير . ورياضى شهير . وسياسى ومؤرخ . ولد فى ليبزج من أعمال المانيا سنة ١٦٤٦ وتوفى سنة ١٧١٦ . كان المانيا ورأى من سياسة لويس الرابع عشر انه ينوى الغارة على المانيا فسافر الى باريس ليحمل لويس الرابع عشر على تغيير سياسته وليقنعه انه ليس من الصواب محاربة اوربا المسيحية لبعضها . وعرض عليه فكرة الحملة على مصر باسم المسيحية ظاهراً ، ولكن الحقيقة فى الباطن هى اسقاط الدولة الهولندية . وكتب مذكرة بل كتاباً مطولا باللغة اللاتينية وفى هذه المذكرة فذلكة من تاريخ الحروب الصليبية وحملة لويس التاسع على مصر ( اشرنا الى هذه الحملة فى صحيفة ٤ ) ثم تدرج الى علاقة فرنسا بتركيا ومصلحة فرنسا فى احتلال وادى النيل
وقد بقى أمر هذه المذكرة سراً مكتوماً من ذلك العهد حتى احتل نابوليون بلدة هانوفر سنة ١٨٠٣ وهناك وجدوا فى مكتبتها نسخة من المذكرة المشار اليها . ومنها عرف ان فكرة الحملة الفرنسية على مصر ليست حديثة العهد . وحصلت الحكومة الانجليزية على نسخة من هذه المذكرة اللاتينية . ونشرت فى لندن خلاصة لها باللغة الانجليزية فى أواخر سنة ١٨٠٣ لايقاف الشعب البريطانى على فكرة احتلال فرنسا مصر والغرض منه ، وفى طى ذلك تحريض للأمة الانجليزية على احتلال مصر . وقد عثرت على نسخة من هذه الخلاصة الانجليزية ( طبعة ثانية ) وهى موجودة فى دار الكتب المصرية نمرة ٤٥٧٢ تاريخ — وتاريخها سنة ١٨٠٣

الرابع عشر فى سنة ١٦٧٢ يحارب بلاد الفلمنك (هولانده) التى كان لها فى ذلك العصر نفوذ كبير ، ومستعمرات ومتاجر واسعة فى الشرق والغرب — تلك المستعمرات التى من بقاياها الآن صومترا وجاوه الاسلاميتان — فكتب ذلك الرجل الكبير الى لويس الرابع عشر يقول « اذا كان مولاى يريد القضاء على جمهورية هولاندة فأحسن وسيلة لذلك هى ضرب هذه الأمة فى مصر — هناك حيث يوجد طريق الهند ، وحيث يمكن تحويل التجارة الهولندية الى طريق مصر : »

ثم لما قويت سلطة روسيا ، وامتد رواق فتوحاتها على الممالك العثمانية ، فى أواخر القرن الثامن عشر ، أى فى الوقت الذى حاول على بك الكبير الاستقلال بملك مصر ، خافت فرنسا من استيلاء الروسيا على الاستانة ، وتمزيق شمل الدولة العثمانية ، فارتأت حكومة لويس السادس عشر ، قبل الثورة الفرنسية ببضع سنوات ، أن تحتل مصر غنيمة لها من ميراث الدولة العثمانية ، وفى هذا الصدد قال مسيو ده سارتين M. de. Sartine وزير البحرية ، اذ ذاك ، فى مجلس الوزراء :

« ان احتلال مصر هو الطريقة الوحيدة لحفظ تجارتنا فى البحر الأبيض ومتى توطدت قدمنا فى مصر ، صرنا اصحاب السيادة على البحر الاحمر وصرنا نستطيع أن نهاجم انكلترا فى الهند ، أو ننشئ فى تلك الاصقاع متاجر تنافس بها الانجليز ... الخ »

ووافق هذا الرأى حكومة لويس السادس عشر فأوفدت فى سنة ١٧٧٧ لمصر البارون ده توت (١) «Baron de Tott» بدعوى إنه قادم لعمل مباحث فلكية

(١) بارون دى توت François Baron de Tott ولد فى شامبنى سنة ١٧٣٣ وكان موظفاً فى سفارة فرنسا فى الاستانة وعين قنصلا لدولته فى القريم فى سنة ١٧٦٧ ثم وظفته الحكومة التركية فى عهد السلطان مصطفى الثالث، وقام بتحصين الدردنيل ضد هجمات الروس، وأنشأ فى تركيا معامل للاسلحة النارية، ثم استقال وعاد لباريس وله مؤلف فى ثلاثة أجزاء عن الترك والتتار... جاء فى رحلة «سونينى» ما يأتى بحروفه : عينت الحكومة الفرنسية مسيو «توت» مفتشاً لموانى البحر الابيض (شواطىء سوريا وأفريقيا) وأصدرت أمرها بأعداد فرقاطة

وعلمية « لاكاديمي العلوم » ، ولكنه كان مكلفاً بعمل خرائط لشواطئ مصر وسوريا وجزر اليونان وجزيرة كريد أيضاً ، وكلف بنوع خاص أن يدرس النقطة الواقعة من ساحل مصر، بين الاسكندرية وأبي قير، ومعرفة أي نقطة تصلح لانزال الجنود الى البر ، وكان معه ضابط من البحرية لقياس عمق النقط المجاورة للساحل ليعرف مايصلح منها لسير السفن، وكلف «سوتيني» الذي سبق ذكره، أو آخر بالسفر الى السويس لمثل تلك المباحث ولرسم خريطة عن مدينة القاهرة فى أثناء مروره بها، وقد فعل ذلك كله فى الوقت الذي كان فيه مراد بك وابراهيم بك يتطاحنان مع اسماعيل بك، أحد مماليك على بك الكبير، الذي ولى مشيخة البلد!

قال المؤرخون الفرنسيون : ومرت بضع سنوات لم توطد فيها حكومة لويس السادس عشر العزيمة على تنفيذ ما صممت عليه ، حتى كانت سنة ١٧٨١ كتب الكونت ده سان بريست Saint-Priest سفير فرنسا فى الاستانة يستحث حكومته على فتح مصر وقد ورد فى كتاب السفير المشار اليه قوله «إن الروسيا قد صارت على مقربة من القسطنطينية وربما استطاعت أن تقضى على تركيا فى أوربا (١) قبل أن تستطيع دولة ما مساعدتها ، فعلى فرنسا أن تسرع فى احتلال مصر التى لا تكلف فرنسا صعوبة ، لان مصر خالية من أي تحصين ما. ولأنه لا يوجد فيها من الجيوش أكثر من خمسة أو ستة آلاف مملوك ، لم يقفوا فى ميدان حرب منظمة، وليس لديهم مدفع واحد ،وفعلا صممت الحكومة على تنفيذ هذه السياسة، وأعدت ثمانية وعشرين ألف جندى لهذه الحملة، وجهزت السفن لنقل هذه القوة الى الاسكندرية وأبى قير ودمياط

---

لسفره من ميناء طولون وأمرت أن أسافر معه فى نفس الباخرة وأن أبقى فيها حتى تؤدى مأموريتها ولكن الاوامر صدرت بعد ذلك مناقضة للاولى فلذلك غادرت السفينة فى الاسكندرية لأواصل رحلتى فى الديار المصرية» . . وهذا يشعر بأن الاوامر صدرت له بارتياد الديار المصرية وأنه لم يكن سائحا بسيطا كما يدعى فى كتاب رحلته الذى سبقت الاشارة اليه فى ذيل صحيفة ٥٣ من هذا الكتاب

(١)...وانقضت مائة وثلاثة وأربعون سنة من ذلك التاريخ ولا تزال تركيا فى أوربا والروسيا الى اليوم مفككة العرى، ولله فى خلقه شؤون

وكانوا يعتمدون على مساعدة المسيحين المديدين المقيمين فى القاهرة وفى الوجه القبلى والذين يتولون ادارة الاعمال للبكوات (١) ولكن حوادث الحرب فى أمريكا عطلت سفر هذه الحملة ثم قامت الثورة الفرنسية على قدم وساق وسقطت الملكية وسالت الدماء أنهاراً فى باريز فأهمل شأن مصر وغير مصر .

ويظهر مما تقدم أن فكرة احتلال فرنسا لمصر قديمة وقد ظهر جلياً من المستندات المديدة أن سافارى وسونينى ، لم يكونا سائحين فقط ، بل كانا من رسل الحكومة الملكية فى باريس. وفى رسائل سافارى ما يثبت جليا انه كان يحرض حكومة فرنسا على احتلال مصر ، فقد ورد فى احدى رسائله قوله:

«لو أن فى مصر حكومة عادلة وتوجهت نيّة هذا الشعب المصرى الذكىّ الى خدمة أرض مصر الخصبة ، فأى جوخ ينسج من صوف أغنام مصر الجميل ، وأى قماش يعمل من كتانها الناعم ، وأى أقمشة تصنع من قطنها بنوعيه (٢) وأى حرير ينسج من نتاج دود القز الذى ينمو فى بلد كهذه ، صافية لا مطر فيها ولا غمام؟؟ وأى خير لا يجنى اذا حفرت الترع ، وأقيمت الجسور لجعل الارض صالحة للزراعة ؛ وهى التى دفنت ثلثها الرمال ؟ واى نجاح لا يناله الانسان اذا بحث عن مناجم الزمرد الذى يقال أنه يوجد فى تربة هذه البلاد ؟؟ . اهـ كلام سافارى

ثم قامت الثورة الفرنسية وتأجج لهيبها ، واكلت بعضها حتى بدأت نارها فى الخمود ، وعلا نجم نابليون بونابرت بعد انتصاراته فى شمال ايطاليا وقهره للنمسا ، ففكر فى الغارة على مصر للأسباب التى سنأتى عليها .

وهنا يلزمنا أن نأتى على خلاصة موجزة من تاريخ حياة نابليون لكي يقف القارىء العربىّ على قيمة الرجل الذى قدم لفتح مصر وكانت له فيها حوادث أشبه بالقصص الروائية ، منها بالحقائق التاريخية

ذلك الرجل الذى جالس علماء الأزهر وناقشهم فى الأديان ، وشرب معهم

---

(١) دانيس لاكروا Denis Lacroix فى كتابه Bonaparte En Egypte بونابارت فى مصر

(٢) هذه الاشارة تدل على أن القطن كان يزرع فى مصر قبل الحملة ، والمتداول بين الناس والمؤرخين أن محمد على هو الذى أدخل زراعة القطن فى مصر

القهوة جالساً القرفصاء مثلهم على الوسائد والحشايا ، ودخن التبغ مثلهم فى الشبكات ، حتى ارتدى اللباس العربى مثلهم ، وشهد مع المصريين حفلاتهم فى مولد النبى ، وفتح الخليج ، وتناول فى شهر رمضان الطعام على الموائد الشرقية ، فى منزل السيد البكرى ، والسيد السادات ، ولقبوه فى مصر بالسلطان الكبير ، وكان يذكره الجبرتى فى كتابه باسم « سارى عسكر الفرنسيس بونابارته »

***

إن مجرد ذكر « نابوليون بونابرت » يجلب امام مخيلة الذين وقفوا على شىء من التاريخ تصورات كثيرة ، وخيالات كبيرة . من ذا الذى لم يسمع باسم هذا الرجل العظيم الذى ملأ الدنيا بذكره حتى دوى صيته فى الخافقين ، ولا يزال يرن صدى هذا الدوىّ فى الآذان ، وسيبقى كذلك مادام على سطح هذه الكرة الارضية انسان ! نابليون بونابرت ، ذلك الفتى الذى صعد من التراب ، الى السحاب ، فارتقى من ضابط صغير فقير ، الى قمة أكبر عرش فى العالم .. نابوليون ذلك الرجل القائد الذى دوّخ أوربا بأمرها ، وركعت له القياصرة ، وسجدت له الملوك ! !

الكلام على هذا النمط لائق بالشعراء ، وذوى الخيال . وليس أفصح ، ولا أغلى قيمة فى البلاغة ، من مقال السيد توفيق البكرى ، ـ حفيد البكرى الذى جالس نابوليون فى منزله — عن نابوليون .. تلك الدرة اليتيمة التى كتبها السيد توفيق البكرى عند زيارته لمقبرة البانتيون ، وهى منشورة فى كتابه « صهاريج اللؤلؤ »

وانما يليق بنا فى مقام التاريخ أن ننزل من ذروة الشعر والخيال ، الى أرض الحقيقة الجامدة ، والحوادث البارزة الباردة ، فنقول:

ولد نابوليون فى ١٥ أغسطس سنة ١٧٦٩ ( وفى نفس هذا العام ولد محمد على مؤسس العائلة العلوية ) فى مدينة اجاكسيو من أعمال جزيرة كورسيكا ، من أب اشتهر بالاقدام والوطنية ، والميل الى الشعر والفصاحة ، ومن أم كانت مثال الكمال والاخلاص ، وحسن الاحدوثة وطيب الخلق . ولقد وصفها باولى Paoli (1) فى

(١) باولى هو باسكال باولى بطل كورسيكا وزعيم ثورتها وقائدها للحرية وكان اسمه يدوى فى جميع العواصم الاوربية

سنة ١٧٩٣ ، بأنها امرأة جديرة بأن تلد الأبطال ، وكان أهل هذه الجزيرة مشهورين بالشجاعة ، وحب الحرية . حتى طالبوا بها فى ثورات اشتركت فيها أم نابوليون ، وهى حامل فيه ، وفى أهل كورسيكا كثير من صفات العرب الغرباء من حيث الكرم والشجاعة والصبر على المكاره ، والتمسك بأهداب الحرية ، ومن هذا العنصر ولد نابوليون العظيم

لما بلغ نابليون التاسعة من عمره أرسله أبواه فى ١٥ ديسمبر سنة ١٧٧٨ الى «اوتون» Autun فى فرنسا لتلقى العلوم ودراسة اللغة الفرنسية وكانت أمه لاتحسن الكلام بهذه اللغة فبقى فى فرنسا نيفا وسبع سنوات متوالية لم تقع فيها عينه على وطنه ولما عاد الى مسقط رأسه فى سبتمبر سنة ١٧٨٦ — أى قبل قدومه لمصر قائداً عظيما بنحو اثنتى عشرة سنة — كان عمره سبعة عشر سنة وقد صار ملازما ثانيا فى الطوبجية . قال المؤرخون الذين لم يتركوا شاردة ولا واردة ، من حياة نابوليون ، سواء وهو طفل على مكتبه ، أو امبراطور على أريكته ، إن نابوليون لما كان تلميذاً بمدرسة بريين Brienne كان يشعر كأنه غريب بين أقرانه ، لانه لم يكن فرنسياً وكان التلامذة يحتقرونه للهجته الاجنبية ، ولعدم انتسابه الى الاسر العريقة فى النسب ، وفوق ذلك ، لضيق ذات يده أيضاً ، فكان ذلك من أدعى الاسباب الى تكوين نفس الفتى ، وعدم اشتغاله باللهو ، وانفراده بذاته ، فى غدواته وروحاته ، ونار المطامع تتأجج فى صدره ، وتسرى فى شرايين جسمه ، وتأكل فى خلايا قلبه . وكان ميالا الى العلوم الرياضية أكثر من سواها . وكانت رسائله التى يبعث بها الى أبويه ، وهو فى سن الثالثة عشرة ، والرابعة عشرة ، تدل على نمو عقل ، ورجاحة فكر ، حتى قال عنه أحد كتاب الانجليز المدققين (١) «ولقد يخيل لنا أن نابوليون لم يكن أبداً صغيراً»

ولقد أدرك هذا الفتى فى صغره أن الجندية كحرفة ، هى الوسيلة الوحيدة التى يمكن بها الوصول الى إدراك المعالى ، وأن القواد العظام الذين أحسنوا الاستفادة من

---

(١) هربرت فيشر مؤلف حياة نابوليون ، وصاحب المباحث العويصة البديعة فى كتابيه Bonapartism & Studies in Napoleonic Statesmanship.

ظروفهم، هم الذين استطاعوا قلب الممالك، وثل العروش، ولبس التيجان، فلذلك كان شغفه بالتاريخ والجغرافيا عظيما حتى لقد كان يخيل لنفسه بنفسه أنه واحد من أبطال بلوتاركه (١)

وكانت نيران الثورة الفرنساوية فى ذلك الحين تتأجج فى أتونها، ولم يكن ثمت قد اشتعل لهيبها، وعلا شرارها. ولا بأس من أن نقول هنا لفائدة القارىء العربى، ان تلك الثورة الهائلة التى فكت العالم من أغلال الاستبداد، وغيرت كثيراً فى أصول الاعتقادات القومية والدينية فى أوروبا، لم تكن بنت ساعتها، بل هى من نفثات أقلام الكتاب الفرنسيين من نهاية القرن السابع عشر، الى نهاية القرن الثامن عشر: أولئك الكتاب الذين فتقوا ذهن الامة، وفتحوا عيون الشعب الى أن النظام الذى كانوا يعيشون تحت سلطانه، نظام استبدادى، وإن معتقداتهم التى يرضخون تحت نفوذها، معتقدات قائمة على أسس واهية، وانها لا تحتمل التحليل والبحث فى ضوء العقل والقياس المنطقى. وقائد هذه الكتيبة فى ساحة الوغى، الكاتب الفرنسى العظيم «فولتير» بذلك القلم الساحر، والاسلوب الباهر، ومن هذه الآراء تغذى عقل نابوليون فى مطالعاته مدة سبع سنين قضاها فى الجيش، حتى نشأ جاحداً للأديان، متسع الفكر واسع الصدر

واندلع لهيب الثورة فى سنة ١٧٨٩، ففتحت لنابوليون أبواب الرقى، وأسباب النهضة لادراك ماصورته له مخيلته من أمانيه وآماله، فكان أول خاطر قام بنفسه قيادة الثورة فى جزيرته، لتحريرها من رق فرنسا، وفعلا سافر الى كورسيكا وتولى قيادة فرقة من الثائرين، الا أن الحكومة التى وجدت فى باريس، أعلنت من تلقاء نفسها فى (٣٠ نوفمبر سنة ١٧٨٩) استقلال الجزيرة وجعلها مملكة منضمة الى الجمهورية الفرنسية، فغير ذلك فى خطته وعاد الى باريس وهو شديد التحمس للثورة، ولكن لم تأت سنة ١٧٩٢ حتى بردت نار حماسته وميله لزعماء الثورة، وذلك لما رآه من ارتكابهم للفظائع، واهراقهم للدماء، فقد كان حاضراً صيف ذلك العام هجوم الثوار

(١) بلوتاركه الرومانى مؤلف كتاب عظماء الرجال

على قصر التويلرى فى ٢٠ يونيو ، وكذلك ذبحهم لجنود الحرس السويسرى فى ١٠ أغسطس. وكانت هذه المناظر تؤلم فيه فكرة النظام العسكرى، حتى قال «لبوريين» Bourienne صديقه ، وسكرتيره بعد ذلك ، « كيف تسمحون لهؤلاء الغوغاء بارتكاب هذه المساوىء ولماذا لا يكتسحون منهم أربعمائة أو خمسمائة بالمدافع فيفر الباقون الى بيوتهم ؟ » !

ثم عاد فى نهاية ذلك العام الى جزيرته برتبة كابتن (يوزباشى) وحصلت بين اسرته وبين « باولى » وأنصاره منازعات أدت الى مهاجرة اسرة نابليون الى قرية بجوار طولون فى فرنسا . وكانت انكلترا قد أعلنت العداء على الحكومة الجديدة فى فرنسا ، وجمعت حولها ممالك النمسا وروسيا وأيدتها بالمال ، واستردت بلجيكا حريتها من تحت سلطة فرنسا ، وطردت الجنود الفرنسية من « كونده» و« مينس» « وفلنسين »، وهددت قلب فرنسا ، وكذلك احتلت طولون على البحر الابيض المتوسط ، فكانت تلك الحوادث سبباً لان تحرك عوامل الغيظ فى قلب نابليون ضد خصوم بلاده فمال الى زعماء الثورة وانضم اليهم قلباً وقالبا واندمج فى جيش الجمهورية المحارب لطولون ( فى ١٦ سبتمبر ١٧٩٣ ) بوظيفته قومندان الطوبجية ، وهنا ظهرت مواهب نابليون الحربية اذ استطاع بنبوغه العسكرى ، وبما درسه فى فن الطوبجية وهندستها، وعلوم الحرب الحديثة ، من طرد الانكليز والاستيلاء على طولون فى (١٩ ديسمبر ١٧٩٢) فكافأته حكومة الجمهورية بترقيته الى رتبة جنرال . ولكن بعد سقوط حكومة روبسبير Robespiere الذى كان نصيراً لنابوليون، استدعى نابوليون الى باريز وألقى فى غياهب السجن ، ولكن ظهرت براءته من التهمة التى وجهها أعداؤه اليه . وبعد حوادث، وتقلبات لا دخل لها فى موضوعنا ، ضاق صدره من أعمال حكومة فرنسا وشطب اسمه من قائمة الجنرالات وعوّل على الذهاب الى الآستانة ليتولى تدريب الطوبجية العثمانية ، ولكن نجم سعده الآخذ فى الصعود خدمه ، كما خدمه سنين طويلة مقبلة .. ذلك أنه حدثت ثورة فى باريس قام فيها نحو ثلاثين ألف من الحرس الاهلى Guarde Nationale.

ضد حكومة الكونفنسيون ، التى لم يكن لها من القوة أكثر من خمسة آلاف، وكانت الحكومة قد اختارت براس Barras قومنداناً لجيش الحكومة فى باريس ، ولما لم يكن «باراس» من رجال العسكرية ، وكان صديقاً لنابوليون محباً له ، اختاره لقيادة الحامية ، والدفاع عن العاصمة، فتمكن هذه المرة بمهارته من قهر أعداء الحكومة وحماية العاصمة . قال المؤرخون الثقاة إنه لو لا مهارة نابليون فى وضع المدافع وتصويبها على النقط التى اجتمع فيها الثائرون، لسقطت الحكومة، ولوقعت فرنسا من جديد فى دور الفوضى والخراب ، وكافأت الحكومة نابليون بتوليته قيادة جيش الداخلية ، وبذلك دوى اسم نابليون من هذا التاريخ فى جوانب فرنسا ، وذاع صيته فى البلاد

فى هذا الوقت، وقت لمعان شهرته، وقع فى حبائل غرام سيدة على جانب عظيم من الجمال والرقة وهى «جوزفين بوهارنيه» وكانت أرملة للمركيز اسكندر بوهارنيه أحد الجنرالات الذين سقطوا ضحية لآلة القتل فى الايام الاولى من الثورة ، فاقترن بها ( ٩ مارس سنة ١٧٩٦ ) وكان قبل هذا التاريخ بيومين ، قد عين قائداً للجيش الذى جهز لفتح ايطاليا ومحاربة النمسا اللتين كانتا متحالفتين مع انكلترا ضد فرنسا ، فلما تولى نابوليون قيادة الجيش كان فيه من القواد من هم أكبر منه سنا ، ولكن لم يكونوا أعلم منه بفنون القتال ، فلما رأوه ، ولم يكونوا من قبل قد عرفوه الا اسما، ورأوا منه فتى فى الخامسة والعشرين من عمره ، ضئيل الجسم ، قصير القامة ، ناحل البدن ، ورأوه كذلك يحمل صورة عروسه ويكثر من النظر اليها، ويريها للضباط معه ، — ظنوا أن ترقيته لهذا المركز الكبير ، راجعة الى المحسوبية ولنفوذ النساء ؛ ولكن — كما قال الجنرال ماسينا Masséna » ما كاد يضع على رأسه قبعة الجنرال حتى خلناه قد طالت قامته شبرين ، وأخذ يسألنا عن مواقع فرقتنا ، ويستفسر عن القوى الفعالة فى كل فيلق من الفيالق ، ثم ألقى الينا الأوامر وأعلن أنه سيستعرض الجيش غدا ، ويهاجم العدو بعد غد ... فعرفنا ان هذا ليس بفتى، ووثقنا من أنه قائد عظيم »

وتوالت انتصارات نابوليون فى شمال ايطاليا والنمسا، وطبقت شهرته الخافقين فالتف به القواد العظام، وأعجب به الى درجة التقديس ناشئة الضباط، ورجال المستقبل، ولقبته أوروبا بهانيبال الثانى، لما أتى على يديه من المعجزات فى فنون الحرب، واستفاد نابليون من تجاربه فى هذه الحرب، ومن مناطحته لرجال السياسة وكبار دهاة الحرب فى النمسا، ما ساعده كثيراً فى مستقبل حياته الباهرة.

ولما تم له الفوز كما أراد، وأرادت فرنسا — عقد مع النمسا صلحاً فى ١٧ اكتوبر سنة ١٧١٧ سمى « صلح كامبو فورميو » نسبة الى البلد التى تم فيها، وأعادت فرنسا تحت رايتها بلجيكا وحدود الرين، ومحت جمهورية البندقية من صحيفة الوجود، بعد أن عاشت عصوراً طويلة محتكرة تجارة الشرق بسبب علاقتها بمصر، ولطالما حاربت الدولة العثمانية فى مواقع بحرية أشهرها واقعة « ليبانت » المشهورة فى اكتوبر سنة ١٥٧١ ... ولم يمض على عقد هذه المعاهدة عشرة شهور حتى كان نابوليون بجيشه فى أرض مصر

بقى علينا، قبل الانتقال بهذا القائد العظيم الى حملته على مصر، وبيان الاسباب التى دعت الى هذه الحملة، والاغراض التى قامت بنفسه هو، أن نقول كلمة وجزة فى تعليل فوز هذا الرجل تمهيداً لمعرفة القوة الحربية الجديدة، التى داهم بها المماليك فى مصر فنقول: أجمع الباحثون المدققون على أن فوز نابليون الباهر السريع فى شمال ايطاليا والنمسا، راجع الى أن الفن العسكرى كان قد دخل فى طور جديد فى خلال القرن الثامن عشر، بسبب الاختراعات العديدة التى ادخلت على البنادق والمدافع، ففى سنة ١٧٢٠ أدخل على البندقية تحسينات بحيث صار فى امكان الجندى أن يطلق منها عدة طلقات فى الدقيقة الواحدة، ثم اخترع للميدان مدافع أخف حركة وأسهل فى النقل وأخيراً فى سنة ١٧٦٥ اخترع جريبو فال Gribeauval. أحد ضباط جيش لويس السادس عشر بطارية ميدان تجمع بين أكثر مما يجمع من القوة مع أخف ما يمكن من صعوبة النقل. ثم قال الاستاذ فيشر فى كتابه عن نابليون وارتقاء الفن العسكرى ما تعريبه :

« ونتيجة هذا كله ، ليست فقط أن المدافع صارت لها أهمية جديدة فى الحرب ، واصبحت ، لأول مرة ، عاملا ضروريا فى القتال الذى تقوم به المشاة ، — بل كانت النتيجة ايضاً ، أن تغير الفن الحربى بحذافيره فاستطاعت الجيوش الآن ، أن تنقسم الى فرق . والفرقة ، اذا حلت فى مركز موافق لها ، تستطيع أن تدافع عن نفسها تلقاء قوة متفوقة عنها ، أو على الأقل تستطيع أن تقاتل حتى تحرز السلامة بواسطة قتال يقوم به القسم المعد لحمايتها فى المؤخرة . ولهذا صارت اهم مسألة متعلقة بالفن الحربى ، أن يبحث الباحثون عن الكيفية التى يستطاع بها الاستفادة كل الاستفادة ، من القوة الجديدة التى تكون لقسم مرن يستطيع التحول من جهة الى أخرى ، فى ساحة واسعة . وتعلم القواد كيف يقذفون بالفصائل والشراذم المؤلفة من الجنود المعدة للمناوشات ، وكيف يبعثون الى القتال بالفرق التى كانت مرابطة فى بقاع ثانية فى الخريطة الحربية ، والخلاصة ان نابليون بونابرت استفاد من الانقلابات فى الفن العسكرى ، وكان أول من استخدم هذا التطور بمهارة ونبوغ . فادهش العالم وساد عليه فترة من الزمن طويلة »

ونعود الآن الى فكرة الحملة الفرنسية على مصر فنقول :

لما تم لفرنسا بواسطة نابوليون الظفر على أعدائها لم يبق لها من الدول المنافسة المعادية سوى انجلترا العدوة اللدودة التى حركت الضغائن فى نفوس الأمم الاخرى ، وجمعت حول فرنسا ، بواسطة أموالها ودهاء رجالها نطاقاً حديدياً من الدول النافرة ، حتى بلغ عددها فى وقت واحد ست دول . فكان أول خاطر قام فى نفس نابليون هو محاربة انجلترا بقطع طريق متاجرها الهندية ، وذلك بالاستيلاء على مصر .

روى المؤرخون أن نابوليون فى أثناء مخابرات صلح كامبو فورميو ، كان يجمع قواده فى حديقة « باسيريانو » Passeriano. ، فى شمال ايطاليا ، ويصور لهم فتح مصر ، واتخاذ هذه الديار قاعدة حربية لارسال قوة كبيرة الى الهند ، للقضاء على سلطة انجلترا فيها ، وفى الوقت نفسه كتب الى حكومة فرنسا رسالة مطولة يشرح فيها أهمية الحملة على مصر ، من وجوهها السياسية والحربية والتجارية وقد نقل مسيو

ديزيه لا كروا Desiré Lacroi فى كتابه الذى وضعه عن بونابرت فى مصر، من محفوظات وزارة الخارجيـة بباريس خطاباً مطولا بعث به الى تاليران Talleyrandوزير الخارجيةفى١٣سبتمبر سنة ١٧٩٧ نقتطف منها العبارةالآتية :

« اذا قضى علينا الصلح مع انجلترا بالتنازل عن رأس الرجا الصالح،فلا بد لنامن أن نعتاض عنها بالديار المصرية ، التى لم تقع أبداً فى حيازة دولة أوروبية. نعم كان للفينسين(البندقيين) فيها نفوذ منذ بضع قرون ،ولـكنه كان نفوذاً مزعزعاً. وفى استطاعتنا ــ بارسال خمس وعشرين ألف جندى ــ للاستيلاء على تلك الديار. وعندى أن مصر ليست تابعة الآن للدولة العثمانية ، وأرجو من مواطنىّ الوزير(١) عمل التحريات اللازمة للوقوف على ما يحدثه احتلالنا لمصر من الأثر على حكومة جلالة سلطان تركيا . وأن جيشاً كجيشنا الذى يستوى عنده جميع الأديان ، يتساوى لديه المسلمون والاقباط والأعراب والوثنيون على السواء الخ . »

فأجابه « تاليران » بخطاب مؤرخ ٢٣ سبتمبر قال فيه انه موافق على فكرة الحملة على مصر التى يعوض احتلالها على فرنسا ، خسارتها فى جزائر الأنتيل(٢) وتفتح لنا طريق التجارة للهند الخ

ويظهر أن عقارب الحسد لنابوليون دبت فى نفوس أعضاء الحكومة الجمهورية فى ذلك الوقت،فخافوا من اتساع شهرته،ومن مكانته فى قلب الجيش الذي يقوده، ولا يبعد أنه يكون قد خيل لهم فى ذلك الوقت أن نابوليون، بما أصبح له من المحبة لدى الشعب الفرنسى، وما يلتف به من الجنود والقواد ، قادر على أن يضع يده على السلطنة فى باريس و يستبد بالملك( كما فعل فعلاً ) ولا يبعد أن تكون هذه الافكار قدمرت بمخيلة نابوليون،لما رأى من القابضين على زمام الحكومة الرغبة فى فصله عن جيشه، الذى أحبه وحارب تحت قيادته ، ولـكنه كان حكيما فنظر الى

---

(١) Citoyen Ministre ولفظ استوين استعمله الجبرتى بحاله فى عدة مواضع ولم يعربه

(٢) جزائر الأنتيل أو الهند الغربية واقعة فى بين أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية فى المحيط الاطلانطيق وفيها أكثر من ثلاثة ملايين من السكان ومنها جزائر كوباوهايتى وجاميكا وبورت ريكو وكلها جزائر خصبة التربة غنيـة بخيراتها وكانت أول الاراضى التى اكتشفها كولومبوس من أمريكا . وقد أصبحت كلها مستقلة مع الولايات المتحدة

فرنسا وقال ـ كما روى بوريين فى مذكراته ـ «إن الثمرة لم تنضج بعد»

رأت الحكومة فى باريز فصله من جيش ايطاليا، وأصدرت أمراً بتعيينه قائداً عاماً لجيش انكلترا ( أى الجيش الموجه لمحاربة انجلترا ) وبعد يومين من صدور هذا الأمر ، أصدرت الحكومة المركزية فى باريس أمراً آخراً بانتدابه سفيراً مفوضاً من قبل الجمهورية الفرنسية لمؤتمر راستاد Rastadt مع مندوبين آخرين

قال أحد المؤرخين :ولم يكن يخفى على ذكاء نابليون ،أن هذا الانتداب انما يراد به ابعاده عن جيشه ، وان حسد رجال الحكومة لشهرته هو الذى حملهم على ارساله فى مهمة وهمية،ولكن نابوليون مع هذا كان أحكم من أن يظهر لهم تذمره من هذا النفى السياسى ، وهو فى الوقت بعينه كان يفكر فى الجهة التى ينوى أن يسير اليها بالجيش الظافر الذى حارب تحت زعامته[1] وقبل أن يبرح مكانه استعرض الجيش فى ميلانو ( ١٤ نوفمبر ) وخاطب الجنود بكلمات تثير فى صدورهم الحماسة وتذكرهم به على الدوام، فقال فى خطابه لهم :

«أيها الجنود.سأذهب فى مساء غد الى راستاد، ولا أجد تعزية على فراقكم، الا فى أملى بأنى سأجتمع بكم عن قريب للدفاع ضد أخطار جديدة . أيها الجنود كيفما كانت الوظائف التى تسندها الحكومة الى رجال هذا الجيش ، فانهم سيكونون دائماً جديرين برفع رايات الحرية ،والمحافظين على مجد فرنسا وشرفها.أيها الجنود!! ان تحدثتم بالملوك والأمراء الذين قهرتاهم ،وبالأمم التى خلصتموها من ربقة الاستبداد، فى ميدانين (ايطاليا والنمسا) ، فاعلموا أنكم ستفعلون أكثر من ذلك فى ميدانين آخرين ! »

وفى الاشارة الأخيرة كان نابليون ينطق بما يكنّ فؤاده نحو مصر والشرق. لانتبع نابليون فى سيره الى راستاد ، ولا عودته الى باريس ، واحتفال الحكومة ، به ،ولا لزوم لنشر خطابه الذى أشعل به قلب الأمة الفرنسية، ولا رحلته لارتياد الشواطىء الفرنسية لفكرة غزو انكلترا ، فكل ذلك خارج عن موضوعنا ، مهما

---

(١) ديزيريه لاكروا

بلغت قيمته من الفائدة التاريخية، ولكننا ننقل عن لسان صديقه، وكاتب مذكراته، بورين، بعد عودته مع نابليون من سياحة الشواطىء التى أشرنا اليها، العبارة الآتية:

«وما رأى مولاى القائد فى رحلته» ؟ فهز نابليون رأسه وقال « اننى لا أرى أملاً فى غزو انكلترا. انى لا أجازف بمستقبل فرنسا الجميلة » وقال بورين فى مكان آخر من مذكراته. « وأخذت أفكار نابليون تتوجه الى مسألة غزو مصر، فصارت موضوع فكره ليل نهار : قال لى مرة : « ان أوروبا بأسرها ليست الا جحر فأر، وماصدرت الشهرة العالية، وما دوى من الصيت الخالد، الا من الشرق وفى الشرق ! » والخلاصة أن نابليون وحكومته فرنسا عدلوا عن غزو انكلترا لاستحالة نقل الجيش الفرنسى فى مضيق المانش، وفكروا فى أن أحسن وسيلة لقهر انكلترا، هى بالاستيلاء على مصر، فان كان المانش متعذراً، فان السير فى البحر الأبيض متيسر، ومتى امتلكت فرنسا مصر، عطلت تجارة انكلترا فى الشرق. وخيل لنابوليون أنه يستطيع، بالاتفاق مع راجات الهند، الذين احتلت انكلترا بلادهم، طرد الانكليز من تلك الديار، كما ان احتلال فرنسا لمصر يقضى عليها بتحويل معظم أساطيلها الى البحر الأبيض المتوسط، فتستطيع فرنسا أن تعبر المانش بجيش تغزو به تلك الدولة الرابضة على أمواج البحار

وكان لا بد لفرنسا من الارتكاز على حجة تبرر بها حملتها على مصر وهى من أملاك الدولة العثمانية، تلك الحكومة السلطانية الوحيدة التى لم تكن على عداء مع فرنسا، وكانت أول من اعترف بالجمهورية فكان من الأعذار التى قالت بها فرنسا، وما ورد فى خطاب نابوليون لتاليران وزير الخارجية، من أن مصر ليست فى حيازة تركيا، لأن المماليك استبدوا بالأمر فيها، ثم وجدت فرنسا من تقارير قنصلها فى مصر، مسيو ماجاللون Magallon ـ تلك التقارير التى أظهر فيها مر الشكوى من معاملة المماليك للتجار الفرنسيين سواء فى اسكندرية ورشيد ودمياط والقاهرة ـ حجة ترتكن عليها.

ويذهب بعض المؤرخين الى أنه قد كان من أكبر الأسباب التى حملت



نابوليون
بونابرت
حوالى العهد
الذى افتتح
فيه القطر
المصرى
( نقلا عن
صورة
للمصور
« أبيانى »)

الحكومة الفرنسية على تقرير الحملة على مصر ، رغبتها فى الخلاص من نابوليون بونابرت بابعاده عن باريس ، وأن نابوليون بعد تحمسه لمشروع الحملة على مصر ، بردت نار حماسته ، لما أدرك ماوراء هذا الابعاد ، من الرغبة فى القضاء على شهرته ، قبل أن تمتد يده لادارة الاحكام فى فرنسا . ولكنه كان قد تورط فى مشروع الحملة ، فلم يعد فى امكانه الانسحاب منه . وشهادة « بوريين » فى مذكراته تؤيد رأى هذا الفريق فقد قال مانصه : « ولقد يلوح لى من جميع مارأيته ووعيته ، أن الرغبة فى الخلاص من شاب طموح ، ولدت شهرته الحسد فى قلوب الزعماء ، هى التى تغلبت على خطر تجريد فرنسا ، لمدة غير معلومة ، من جيش عظيم ، مع ما كان كثير الاحتمال ، من تحطيم الاسطول الفرنسى . وأما نابوليون فلم يبق أمامه الا أن يختار

بين قيادة حملة غير مأمونة العواقب، أو القضاء على مستقبله. ولما كانت حملة مصر، هى الوسيلة الوحيدة لابقاء علم شهرته خافقاً ، لم يتردد فى قبول القيادة العامة التى صدر له بها الأمر فى ١٢ ابريل سنة ١٧٩٨» (١)

وأما الفريق الثانى من المؤرخين، فيقول: ان رجال الحكومة لم يريدوا ابعاد نابليون ، وفى مقدمتهم وأكثرهم عناداً كان لاريفاليير ليبو La Revalliere-Lépeaux. فانه عارض واحتج على تجريد فرنسا من ثلاثين أو أربعين ألفاً من خيرة الجنود الفرنسية، وتعريضهم، مع سفن الأسطول، الى معركة بحرية مع الاسطول الانكليزى فى البحر الأبيض المتوسط ، وابعاد القائد العظيم الذى تخافه النمسا وتخشاه ، هذا عدا حمل الباب العالى على محاربة فرنسا لتعديها على ولاية من ولاياته، فكان نابوليون، على رأى هذا المؤرخ، يرد هذه الاعتراضات بأنه لاخوف من الأساطيل الانكليزية، وان سحب ثلاثين أو أربعين ألف جندى من فرنسا ، ليس بالشيء الذى يذكر مادام جيشها أكثر من ثلثمائة الى اربعمائة الف جندى ، وأن الباب العالى قد فقد مصر لاستبداد المماليك بالأمر فيها . واشتد الجدال بين نابوليون ومعارضيه ، حتى هدد بالاستعفاء من منصبه ، فكان جواب لاريفاليير بشدة « اننى أبعد من أن أقبل استقالتك ولكنى أرى أنك اذا قدمتها ، فعليهم قبولها » فصمت نابوليون ولم ينطق بكلمة الاستقالة بعدها . والروايات فى هذه النقطة متناقضة ، اذ قال بعض المؤرخين إن الذى أجاب نابوليون ذلك الجواب هو روبيل ، وقال آخرون انه باراس، ورأى « تيير » المؤرخ العظيم Thiers ان هذا الفصل حدث مع لاريفاليير كما ذكرنا .

وكيفما كان الحال فان الحكومة الفرنسوية قد قررت الحملة ، وعينت نابوليون

---

(١) يظهر من التحقيقات التاريخية أن تاريخ تقرير الحملة واعطاء القيادة لنابوليون كان فى ٥ مارس لا فى ١٢ ابريل من تلك السنة كما ورد فى هذه العبارة التى عربناها من مذكرات بوريين والظاهر ان تقرير الحملة كان فى ٥ مارس وصدور الاوامر الرسمية فى ١٢ ابريل

قائداً عاماً على جيش البر والبحر لهذه الحملة ، وبلغ من أمر التكتم بشأنها أن القوادو كبار الضباط ، لم يكونوا يعلمون الى أين هم سائرون ، ولم يأمن رئيس الحكومة ( الديركتوار ) الى كاتب بكتابة أمر الحملة وقيادتها ، فكتبهما بخط يده

وليس من شأننا أن نأتى على بيان التحضيرات الحربية ، البرية والبحرية ، اذ يكفينا ان نقول أن الحملة كانت مؤلفة من اثنين وثلاثين ألف جندى من البرية والبحرية ، تحملها ١٣ قايقاً و ١٤ بارجة و ٤٠٠ سفينة لنقل العساكر والمهمات ، وتقرر أن تسير السفن من ثغور طولون ومارسيليا وجنوا فى فرنسا ، وسيفيتافكشيا ، فى إيطاليا

ولقد أظهر نابوليون ، باجماع الباحثين والمدققين ، مهارة عظيمة ، ونظراً ثاقباً ، وقريحة وقادة ، فى تجهيز هذه الحملة ، اذ رووا أنه فكر فى كل شىء من دقائق الامور ، فلم يترك صغيرة ولا كبيرة الا رتبها وبوّبها وأحصاها . فبدأ باختيار زهرة القواد ، وخلاصة الضباط ، ولم ينس أصناف الصناع ، وأرباب الحرف اللازمة للجيش ، وجلب من روما المطبعة العربية واليونانية ، وأحضر معها فئة من العارفين بصف الحروف وطبعها ، وجمع عدة آلات وأدوات علمية . ولم ينس انتقاء مكتبة جامعة للكتب عن مصر والشرق ، ليقرأها مع ضباط جيشه أثناء سفرهم

وانتهت كافة التجهيزات فى ١٢ ابريل سنة ١٧٩٨ وأمضى الامر بتكوين « جيش الشرق » وتعيين نابليون بونابرت قائداً عاماً ، وفوض له الاستيلاء على الديار المصرية ، وطرد الانكليز من جميع البلاد التى يمتلكونها فى الشرق ما استطاع لذلك سبيلا وعلى الأخص القضاء على تجارة الانجليز فى البحر الأحمر . وفوّض له أيضاً خرق برزخ السويس ، واتخاذ الوسائل اللازمة لضمان امتلاك البحر الأحمر واختصاص جمهورية فرنسا به ، . فما كان أحلاها أحلاماً ! ! وما كان أبعدها تحقيقاً ! والملك لله الواحد القهار .

وكادت حادثة الاعتداء على سفير فرنسا [1] فى فينا توقف سير هذه الحملة ، لأن

---

(١) كان السفير اذ ذاك هو برنادوت الذى صار بعد ملكا للسويد ... الخ

حكومة الجمهورية خافت من تحرك النمسا فأصدرت الأوامر لنابوليون ولكنه اكتفى بكتابة خطاب شديد الى الكونت « كوبنزل » ، فهدأت الأحوال وبرح باريز فى ٣ مايو ووصل طولون فى ٩ منه ونشر على الجيش فى اليوم التالى اعلاناً حماسياً ملأ عباراته الضخمة ، بألفاظ مختارة لتحريك الأشجان ، والتأثير فى النفس والوجدان ، وقال لهم فى طولون « إن اوروبا تنظر الى أعمالكم » كما قال لهم بعد ذلك ، تحت ظل الأهرام ، « إن أربعين قرناً من الزمان تراقبكم » ! ! وسنرى ماذا يقع تحت عيون اوروبا بأسرها ، وأربعين قرناً من الزمان بسرها وسحرها !

والجدول الآتى يبين مجموع القوة الفرنسية وطريقة نقلها على السفن من الموانئ المختلفة

| موانى السفر | بوارج | فرقاطات | سفن وطرادت | نقالات | جنود | خيول |
|---|---|---|---|---|---|---|
| طولون | ١٣ | ٧ | ٦ | ١٠٦ | ٢٠٫٠٠٠ | ٤٧٠ |
| مرسيليا | | | ٢ | ٣٠ | ٣٫٢٠٠ | ٦٠ |
| كورسيكا | | | ١ | ٢٠ | ١٫٢٠٠ | |
| جنوا | | ١ | ١ | ٣٥ | ٣٫١٠٠ | ٧٠ |
| سفاتافيتشيا | | ١ | ١ | ٤١ | ٤٫٣٠٠ | ٨٠ |
| المجموع | ١٣ | ٩ | ١١ | ٢٣٢ | ٣١٫٨٠٠ | ٦٨٠ |

وكان تكوين القوة (من حيث الاسلحة) من ٢٤٫٣٠٠ من المشاة ( البيادة ) و ٤٫٠٠٠ خياله ( سوارى ) وطوبجية ٣٫٠٠٠ ونحو ألف من الاتباع ، والمجموع بالضبط ٣٢٫٣٠٠ (لا أربعين ألفاً كما يتساهل المؤرخون) وكانت قيادة الاسطول تحت رئاسة الفيس أميرال برويز Brueys وتحت قيادة الكونت أميرالات Decrés, Blanquet-Duchyl, Villeneuve. ورياسة أركان حرب الاسطول لغانتوم Ganteaume وأما الجيش البرى فكان برتيه Berthier رئيس

أركان الحرب وكافاريللي على المهندسين ، ودومرتين Doumartin على الطوبجية وتحت رئاسته على الفرق القواد Songis و Faultrier و Desaix و Kleber و Dugua وعلى الأورط Lannes و Murat و Lunusse و Vial و Veaux و Rampon و Davout و Friant و Belliard و Dumas و Leclerc و Verdier و Andreossy ومن ياوران نابوليون الضباط Junot و Beauharnais ( ابن زوجته ) و Louis Bonaporte ( أخوه ) و Sulkowski و Jullien و Duroc و Croizier .

ولقد جئنا على ذكر أسماء أولئك القواد والضباط الذين صاحبوا نابوليون فى حملته لأن الكثير منهم بلغ بعد، من الشهرة فى تاريخ اوروبا مكاناً قصياً ، ولأن الكثيرين منهم كانت لهم فى الديار المصرية ، حوادث ووقائع مشهورة، ومنهم من قتل فى هذه الديار ،ولا بد من معرفة أسمائهم،وتتبع حركاتهم. وأهم ما فكر فيه نابوليون أنه ارتأى أن تكون معه بعثة علمية محضة لدراسة طبيعة البلاد المصرية،وبحث آثارها ونباتها وحيواناتها،ونيلها وأرضها، وسمائها وسكانها، وكانت هذه البعثة تتألف من نحو مائة عالم من مشهوري علماء فرنسا الذين امتازوا بدراسة خاصة فى كل فرع من فروع العلوم، وكانت هذه البعثة تحت رياسة الرياضى الشهير صديق نابوليون مونج Monge أحد أعضاء الأكاديمى وكان معه من رجال الاكاديمى Berthollet و Dolomieu و Denon ومن مهندسى الكبارى والقناطر Le Pére وجيرار ومن الرياضيين Corancez ، Costaz ، Fourier ومن علماء الفلك Nouet و Beauchamp و Méchin ومن علماء الطبيعة والنباتات Geoffroy Saint-Hilaire و Savigny ومن الكيماويين Descotils و Champy ومن الرسامين والموسيقيين والشعراء وعلماء فن المعمار عدد كثير .

ولا نزاع فى أن هذه أول بعثة علمية رافقت، مرافقة رسمية، حملة من الحملات العسكرية فى تاريخ العالم. والفضل فى ذلك بلا نزاع راجع لنابوليون دون سواه

ولنا كلام على الاعمال التى قامت بها هذه البعثة العلمية من حيث فائدتها لمصر وأهلها، ومن حيث فائدتها للعلم عامة فى أوروبا، ربما أتينا عليه فى مكان آخر .

وفى اليوم التاسع عشر من شهر مايو نشرت سفن أسطول هذه الحملة أعلامها وسارت تمخر عباب البحر الابيض المتوسط ، قاصدة جزيرة مالطة وكان نابوليون وبأورانه فى السفينة أوريان ـ Orient ـ « المشرق » التى يسميها الجبرتى « نصف الدنيا » ومعه قائد الاسطول برويس ، ومعه أيضاً بها من رجال البعثة العلمية مونج وبرتللو ، ومن القواد كفاريللى المهندس وغيرهم . وهنا نذكر أن الحكومة الانكليزية علمت بأمر هذه الحملة ولكنها لم تكن على بينة من معرفة الجهة التى تقصدها لما اتخذته الحكومة الفرنسية من وسائل التكتم الزائد . وكان الفكر الراجح لدى حكومة انكلترا ، أن هذه العمارة الفرنسية تنوى السفر من مياه البحر الابيض المتوسط الى جبل طارق قاصدة احتلال ايرلنده . ومع ذلك فقد أصدرت الحكومة الانكليزية للأميرال نلسون أمراً بمراقبة هذه الحملة، وأصدرت اليه الأوامر الصريحة بأن يفعل كل ما فى امكانه لأسر، أو اغراق، أو حرق، هذه العمارة الفرنسية مهما كلفه ذلك ، ما دام قادراً على تسيير سفنه ولديه من الزاد والمؤونة والذخيرة ما يكفيه ، وكان نلسون يخالف حكومته فى ظنها من حيث وجهة العمارة الفرنسية، وبعد أن أجبرته زوبعة كبيرة على الالتجاء بسفنه الى جزيرة سردينيا ، حيث رمم بعضها ، التى أضرت بها هذه الزوبعة ، ـ تمكنت العمارة الفرنسية من السفر دون أن يقف لها الاسطول الانجليزى على أثر . ثم قصد نلسون شواطىء ايطاليا وكتب فى ١٥ يونيو على مقربة من نابولى قائلا : « اذا كانت السفن قد مرت من سيسليا ( جزيرة صقلية ) فانها لا بد وأن تقصد تنفيذ مشروع الاستيلاء على الاسكندرية ، لكى ترسل من مصر حملة الى الهند بناء على اتفاق مع « تيبو صاحب » وليس تنفيذ هذه الخطة بالأمر العسير

أما العمارة الفرنسية فوصلت مالطة فى ٩ يونيو (١٧٩٨) وأنزلت قوة فى اليوم الثانى لاحتلال الجزيرة. وليس من موضوع عملنا أن نشرح حال مالطة وما جرى فى استيلاء نابليون عليها، انما يكفينا من قبيل الفائدة التاريخية، ولما له من علاقة بهذا الكتاب، أن نذكر أن استيلاء نابوليون على مالطة كان ضرورياً لحفظ مواصلاته مع فرنسا وكانت هذه الجزيرة مستقلة تحت ادارة حكومة تدعى « فرسان مالطة » وهم جماعة من المسيحيين من جميع ممالك أوروبا، أشبه بفرسان الحروب الصليبية، وقفوا أنفسهم للدفاع عن صوالح النصرانية، لما شبت الحروب بين الدول الاسلامية وممالك أوروبا المسيحية. وكان لقبهم فى الأول فرسان « رودس »، فلما فتح السلطان سليمان جزيرة رودس، منحهم الامبراطور شارلكان جزيرة مالطة ـ وكانوا يتقربون الى ممالك أوروبا، ويستدرون خيرات أبنائها، بدعوى انهم يحاربون قرصان أفريقيا، ويقون السفن المسيحية والمسافرين فيها، من المسلمين، ودام هذا حالهم حتى فاجأهم نابليون بخيله ورجله، وبعد مقاومة ضعيفة استولى على الجزيرة وترك فيها أحد قواده الجنرال فوبوا Vaubois ومعه ثلاثة آلاف جندى كحامية فى الجزيرة، وقبل أن يبرح الجزيرة، فكر فى أن يوطد العلاقات الودية فى المياه اليونانية فى ألبانيا وأبيروس. وكان فى حروبه مع البندقية قد استولى على جميع الجزر والسواحل والثغور التى كانت ملكا لتلك الجمهورية فى بحر الادرياتيك سنة ١٧٩٧، وحينذاك راسله على باشا والى « ينينا » المشهور، ولم يكن اذ ذاك قد خرج عن طاعة الدولة، مؤكداً له حسن ولائه. فكان أول خاطر لنابوليون قبل مبارحته مالطة، لتوطيد علاقاته الحسنة فى ألبانيا وأبيروس، هو أن بعث بخطاب الى على باشا والى ينينا وأوفد به أحد ضباطه

واستعاض نابليون، عن القوة الفرنسية التى تركها فى الجزيرة (٣٠٠٠ جندى) بقوة تعادلها من المالطيين والفرنسيين، الذين كانوا مع فرسان الجزيرة، وغنم من الجزيرة نحو ١٢٠٠ مدفع وكميات كبيرة من الذخائر، أخذت منها الطوبجية الفرنسية

ماراته لازماً فى حملتها على مصر . وكان فى الجزيرة نحو ثمانمائة من الاتراك الأسرى فأطلق نابليون سراحهم ، وأحضرهم لمصر فى السفن لارسالهم الى بلادهم . وقد عمل هذا ، كما يظهر من منشوراته فى مصر ، بقصد التودد للمسلمين وللحكومة الباب العالى . ثم ضم الى الحملة عدداً وافراً من المالطيين والأسرى المغاربة الذين يعرفون اللغة العربية والفرنسية بصفة تراجمة ، وكان لهم شأن فى حوادث مصر كما سيأتى ذكره فى مكانه ، وأرسل من مالطة فى سفينة عدة آثار غالية وغنائم بقصد إيصالها الى فرنسا ، فغنمها الانجليز قبل أن تصل الى فرنسا .

وفى ١٩ يونيو أقلعت العمارة الفرنسية من مالطة قاصدة جزيرة كريد . أما نلسون فانه تتبع العمارة الفرنسية باسطوله ، وقد روى كتاب الانجليز أن نلسون كان فى ٢٠ يونيه ماخراً باسطوله جنوب جزيرة صقلية ، وكانت العمارة الفرنسية قد خرجت فى اليوم السابق من مالطة ، بحيث كان الاسطولان على مقربة من بعضهما ، ولكن لم ير أحدهما الآخر . وكانت وجهة الاسطول الانجليزى ثغر الاسكندرية ليدرك العمارة الفرنسية ، كما قرر نلسون ذلك فى ذهنه . وقال كتاب الانجليز إن نلسون كان فى صباح يوم ٢٤ يونيو على مسافة بضع فراسخ من العمارة الفرنسية ، جنوبى جزيرة كريد ، ولكن لم يرها أيضاً واستمر قاصداً الاسكندرية فوصلها ، كما سيأتى بيانه ، بثلاثة أيام قبل العمارة التى يتعقبها .. فما أعجب حوادث التاريخ !! فلو أن نلسون أبصر العمارة الفرنسية فى مكان من المكانين المشار اليهما ، لتعقبها وربما مزقها إرباً ، قياساً على ما فعل معها فى أبى قير بعد ، وقياساً على انتصاراته على أساطيل فرنسا وحلفائها فى حروب تلك السنين ، ولو تم له ذلك لتغيرت صفحة كبيرة من صفحات التاريخ ، ولما ظهر لنابوليون من الشهرة والمجد ما ظهر ، ولما حاق بمصر ما حاق بها من المحن والمنافسات والمنازعات ، التى لم تكسب من ورائها فائدة مباشرة

فى يوم ٢٦ يونيو وصلت العمارة الفرنسية الى جزيرة كريد ، وهناك فى صبيحة اليوم التالى اجتمعت بها الفرقاطة التى كان قد بعثها للاستعلام فى جهات نابولى وأخبر نابوليون بان نلسون على رأس أسطول ضخم كان قريباً من مياه نابولى فى يوم ٢٠ ، وأنه سار قاصداً مالطة . فلما وصل هذا النبأ الى مسامع نابوليون أصدر أوامره فى الحال

بالسفر الى جهة أفريقية وعند ذلك كشف الغطاء للجنود والضباط عن الجهة التى تقصدها الحملة، بعد أن بقى سرها مكتوماً عن الجميع، اذ أصدر الجنرال بونابرت أمراً وزعه على جميع السفن لتتلوه الجنود. ولما كان هذا المنشور من الاهمية بمكان من وجهة تاريخ مصر، وبيان الخطة التى وضعها نابوليون لنفسه ولجيشه فى مبدإ الأمر، نأتى على تعريبه : —

## منشور الى الجيش البرى (١)

من المعسكر العام على ظهر الباخرة أوريان ٤ مسيدور سنة ٦ للثورة (٢٢ يونيه سنة ١٧٩٨

من بونابرت عضو الانستيتو ناسيونال، وقائد عام جيش مصر

أيها الجنود !

انكم ستخوضون غمار حرب سيكون لها تأثير عظيم على المدنية وتجارة العالم أجمع. وستضربون انكلترا ضربة حساسة فى صميم فؤادها، على أمل أن تتمكنوا بعد من إيصال هذه الضربة للقضاء على حياتها.

سنضطر الى قطع مسافات متعبة على الاقدام، وسنقاتل فى عدة مواقع، وسنفوز فى جميع المعارك، لأن العناية معنا

وبعد وضع أقدامنا فى أرض مصر ببضعة أيام سنمحى من صحيفة الوجود أولئك البكوات المماليك الذين يعضدون التجارة الانجليزية دون سواها، والذين أهانوا تجارنا، وعاملوا سكان وادى النيل بالظلم والاستبداد.

واعلموا أن الشعب الذى سنعيش معه يدين بدين الاسلام، وأول قواعدهم (أن لا إله الا الله وأن محمداً عبده ورسوله) فلا تعارضوهم فى معتقدهم، وعاملوهم كما عاملنا اليهود والايطاليين، واحترموا مشايخهم وعلماءهم، كما احترمنا الرهبان والقساوسة

---

(١) هذا المنشور كتب وطبع فى الباخرة أوريان فى ٢٢ يونيه ولكنه لم يوزع على الجيش الا فى يوم ٢٨ قبل مساء اليوم الذى أنزلت فيه الجنود.

وليكن فى نفوسكم من التسامح للتقاليد التى يقضى بها الشرع ، والمساجد ، مثلما كان لكم من التسامح مع الكنائس والصوامع والبيع ، ومع المتدينين بدين عيسى وموسى . ولقد كانت الجيوش الرومانية قبلكم تحمى الأديان وترعاها. وستجدون فى هذه الديار عادات تخالف العادات فى أوربا ، فلا بد من أن تألفوها وتعتادوها . واعلموا أن الناس الذين ستكونون بينهم ، يعاملون النساء على غير مألوفنا ، وقد أجمعت الأمم على أن من يتعدى على حرمة المرأة ، انما هو حيوان وبهيم .

وأما النهب والسلب ، فلا يغنى الا فئة قليلة من الأفراد ، ولكنه يحط من قدرنا ، وينقص من شرفنا ، ويبغض فينا قلوب الناس الذين من مصلحتنا أن نكون معهم على صفاء ووداد » اه

ولقد جئنا على نص هذا المنشور لأسباب كثيرة ، منها أنه غير موجود باللغة العربية ، بخلاف منشوراته الأخرى ، التى عربت تعريباً قبيحاً ، ونشرها الجبرتى وغيره ، ومنها أنه يعبر عن عواطف نابليون وميوله الأولى قبل أن يحطم نلسون أسطوله فى أبى قير ، ويقطع عليه آمالا كبيرة ، ومنها أنه لم يقصد بهذا المنشور الذى وزع على الجنود دون سواهم ، مراآة المصريين. ومن هذه الأسباب أيضاً ، رغبتنا فى تطبيق هذه النصائح والارشادات ، التى وجهها لجنوده ، على ما وقع منهم من الامور المغايرة لروح هذه القواعد ، أثناء وجود نابليون بمصر ، وبعد سفره منها .

# الفصل الثالث

## الحملة الفرنسية

### فى الاسكندرية

كان ظهور السفن الفرنسية ، بمن تقل من جنود وضباط وقواد علماء ، وذخائر وبنادق ومدافع ، فاتحة عصر جديد لمصر ، بدأ بالاحتلال الفرنسى ، تحت قيادة أعظم القواد الحربيين الذين أظهرهم هذا الوجود ، ثم عقب بالنزاع بين أوربا ، حول هذه البقعة المسماة وادى النيل ... ذلك النزاع الذى مابرح يظهر على جميع الاشكال ، وغريب الأحوال ، من مطاردة الفرنسيين وإخراجهم ، الى معاضدة المماليك بانزال قوة انكليزية على الشواطئ المصرية ، ثم بمقاومة محمد على ، وإيقافه عند حد لا يتعداه ، فى مشروعاته ومطامعه ، ثم بالمعارضة فى فتح قنال السويس ، الى التداخل فى أمور مصر المالية ، حتى كانت الثورة العرابية ، والاحتلال الانكليزى ، والحماية الظاهرة ، والمقنعة ... كل هذه الحوادث والمشاكل خلقها وضع فرنسا قدمها فى مصر ، فانه من ذلك الحين ، أوجست انكلترا خيفة من تعاظم نفوذ أية دولة أوربية فى وادى النيل ، أو تقوية أى سلطة محلية ، مما قد يكون عائقا فى تنفيذ سياستها القاضية بأن يكون طريقها الى الهند فى يدها — فكان لها القدح المعلى فى كل هاتيك الحوادث والمشاكل ، الى ان استقر قدمها فى مصر ، عقب الثورة العرابية .. ومع ذلك فستبقى مصر سبباً لمشاكل أوربا ومنازعاتها وحروبها ، حتى تنال استقلالهـا التام بطريقة تجعل الباب مفتوحا ، والثقة فى التساوى كاملة ، أو يحكم الله بأمر من عنده وهو خير الحاكمين

والآن وجب علينا أن ندخل فى تاريخ الحملة الفرنسية وحروبها وأعمالها فى مصر مدة الثلاث سنوات التى حكم فيها الفرنسيون هذه الديار ، وعاملوا أهلها بما عاملوهم به من عدل وظلم ، وإكبار واحتقار ، وتعمير وتدمير ، اذ قد جمع فى

تلك المدة من المتناقضات ما سيظهر للقارئ على صفحات هذا الجزء الخاص بهذه الفترة .

دمغ الشيخ عبد الرحمن الجبرتى هذه الفترة بقوله ، فى فاتحة الجزء الثالث من كتابه، (عجائب الآثار فى التراجم والأخبار )، ذلك الكتاب الذى سنذكره، ونأخذ عنه ونجادله كثيراً فيما سنكتبه — بالعبارة الآتية فقال :

«وهلت سنة ١٢١٣ هجرية وهى أول سنى الملاحم العظيمة ، والحوادث الجسيمة ، والوقائع النازلة ، والنوازل الهائلة ، . وتضاعف الشرور ، وترادف الأمور ، وتوالى المحن ، واختلال الزمن ، وانعكاس المطبوع، وانقلاب الموضوع، وتتابع الأهوال ، واختلال الأحوال ، وفساد التدبير ، وحصول التدمير ، وعموم الخراب ، وتواتر الأسباب ، وما كان ربك مهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون »

ولو وضعت حوادث الحملة الفرنسية فى مصر ، ونتائجها ومعاركها ،فى هيكل أو تابوت ، وأريد أن تنقش لها كلمة تذكار ، لما وجد الباحثون أفضل من عبارة هذا الشيخ الأزهرى ، عبد الرحمن بن حسن الجبرتى !!

كان الثغر الاسكندرى فى ذلك الوقت بلدة حقيرة لا يزيد عدد سكانه عن عشرة آلاف نسمة تقريبا ، وكانت تجارته قد اضمحلت ، وثروته قد نزفت وقلت ، وكان الرئيس اذ ذاك فيها «والمشار اليه بالابرام والنقض» ،هو السيد محمد كريم السكندرى ، وهو رجل لم أقف على حقيقة جنسيته ، والغالب على الظن أنه مغربى الأصل استوطنت أسرته الاسكندريه ،وكان كما رواه الجبرتى فى ترجمة حياته ، فى أول أمره قبانيا يزن البضائع فى حانوت بالثغر ، وعنده خفة فى الحركة وتودد فى المعاشرة ، فلم يزل يتقرب الى الناس ، بحسن التودد ، ويستجلب خواطر حواشى الدولة ،وغيرهم من تجار المسلمين والنصارى ، ومن له وجاهة وشهرة ، فى أبناء جنسه، حتى أحبه الناس، واشتهر ذكره فى الاسكندرية ورشيد ومصر ، واتصل بصالح بك حين كان وكيلا لدار السعادة ، وله الكلمة النافذة فى ثغر رشيد

ثم اتصل بواسطته الى مراد بك فتقرب اليــه ، ووافق الغرض منه ، وقلده أمر الديوان والجمارك بالثغر فعلت كلمته ، ونفذت أحكامه، و كان قبودان المينــاء التركى أدريس بك

وقد سبق أن قلنا فى ختام الفصل السابق إن الأميرال نلسون الانكليزى جاوز باسطوله العمارة الفرنسية جنوبى كريد ولم يرها ، فقصد الاسكندرية لــكي يدركها على ظنه، فوصلها قبــل العمارة الفرنسية بثلاثة أيام فقط ، لا بعشرة* كما رواه الجبرتى ، وتابعه المؤرخون الحديثون، بغير تمحيص ولا تحقيق. وللجبرتى العذر فى أغلاطه التاريخية ، فانه انما كان يكتب فى القاهرة ويقول « وردت مكاتبات على يد السعاة من الاسكندرية ، ومضمونها. أن فى ثامن (محرم) وصلت عمارة انكليزية » ، فلا معنى اذن لمتابعته ، والنقل عنــه ، بغير ترو، وأوقات وصول هاتيك الاساطيل ، وأولئك القواد العظام ، مضبوطة بالساعات،إن لم يكن بالدقائق فى كتب القوم ومذكراتهم . ومع ذلك فلو أنهم قرأوا الجبرتى حق قراءته ، أى أنهم درسوا كل كتابه ،ولم يكتفوا بالنقل ، لوجدوا إن الجبرتى فى وفيات سنة ١٢١٥ عند ترجمة حياة مراد بك ، يقول بعد ذكره وصول العمارة الانكليزية ومغادرتها المياه المصرية ،مانصه « فما هو الا أن غابوا فى البحر نحو الاربعة أيام الا والفرنسيس قد حضروا وكان ماكان » وهو قريب من الصواب أو هو الصواب بعينه . ومن أغلاطهم التى لا تغتفر تقريرهم ان القوة التى قدم بهـا نابليون كانت تبلغ اربعين ألفاً ، وأن عدد البوارج كان أربعمائة سفينة ، مع أن البيان الرسمى موجود فى كتب القوم، ومنها يظهر فى الحال أن القوة التى برح بها أوروبا كانت ٣٢ ألفاً فقط ، وأنه ترك منها فى مالطة ثلاثة آلاف اعتاض عنها بألفين من المـالطيين ، وأن عدد السفن لم يزد عن ٣٢٠ سفينة .

فلما ألقى الاميرال نلسون مراسيه فى الاسكندرية ولم يجد العمارة الفرنسية بعث بقارب وفيه (على رواية الجبرتى) عشرة أنفار ، فوصلوا الى البر ، واجتمعوا بالسيد محمــد كريم ، ومن معه من أعيان البلدة ، فكلموهم ، واستخبروهم عن

غرضهم فأخبروا أنهم انكليز حضروا للتفتيش على الفرنسيس لانهم خرجوا بعمارة عظيمة يريدون جهة من الجهات ، ولا ندرى أين قصدهم ، فربما دهموكم فلا تقدرون على دفعهم ، ولا تتمكنون من منعهم ، فلم يقبل السيد محمد كريم منهم هذا القول وظن أنها مكيدة منهم، وجاوبهم بكلام خشن ، فقالت رسل الانكليز « نحن نقف بمراكبنا فى البحر محافظين على الثغر ، لا نحتاج منكم الا الامداد بالماء والزاد بثمنه »، فلم يجيبوهم لذلك ، وقالوا هذه بلاد السلطان ، وليس للفرنسيس ،ولا لغيرهم ،عليها سبيل ، فعادت رسل الانكليز وأقلعوا فى البحر ليمتاروا من غير الاسكندرية ، وليقضى الله أمراً كان مفعولا

ولو كان السيد محمد كريم أو غيره فى الاسكندرية واقفاً على شىء من حوادث أوروبا، ومنازعات الانكليز مع الفرنسيس ،لامدّ أسطول نلسون بما أراد من ماء ومؤونة ، لا سيما وقد طلبوا شراء ذلك بالمال ، ولترك لهم حريتهم حتى يتخابر مع حكام البلدة البكوات ، ونائب السلطان ، ولو تم ذلك ، وبقيت العمارة الانكليزية ثلاثة أيام أخرى ، لكان لها ، مع نابوليون وحملته، حال الله بها أعلم

ويظهر أن رواية الجبرتى هى أصح الروايات ،لان الذى حمل نلسون على الاقلاع من مياه الاسكندرية ، هو حاجته الشديدة للزاد والماء ،بدليل أنه أقلع فى الحال الى شواطىء آسيا الصغرى بجزيرة سراقوزه ، حيث امتار وعاد الى الاسكندرية ثانية ،فوصلها فى أول أغسطس ،أى بعد نزول الفرنسيس أرض مصر بشهر كامل.

وفى اليوم الاول من شهر يوليو سنة ١٧٩٨ (١) وصلت العمارة الفرنسية الى مياه الاسكندرية عند مطلع الفجر، فبرزت أمام الجنود والقواد مآذن الثغر ومبانيه مجلببة بإزار الفجر ،وراء قاعدة من زرقة البحر ،وأدرك الجيش أنه وصل الى محط رحاله ، ونهاية أسفاره ، ولما ارتفع ذيل النهار ، وعلت الشمس فى الافق . أبصر أهل الثغر سفن العمارة الفرنسية ،فأدركوا حين ذلك أن الانكليز صدقوهم ،

---

(١) أول يوليو سنة ١٧٩٨ يوافق يوم الاحد ١٧ محرم سنة ١٢١٣ والجبرتى يقول أن الحملة الفرنسية نزلت فى الاسكندرية يوم الاثنين ١٨ محرم

ولم يخدعوهم ، وكان أول ماعمله نابوليون أن بعث بالفرقاطة La Junon الى البر للوقوف على حال البلدة، ولطلب قنصل فرنسا، وكان فى ذلك الوقت هو ابن أخ «ماجاللون» الذى سبقت الاشارة اليه ،فعارض السيد محمد كريم فى ذهاب القنصل ، ولكنه عاد فسمح به ، ويقول الجبرتى ، وتابعه المؤرخون الحديثون ، إنه ذهب مع القنصل بعض أهل البلد ، ولم يرد ذكر ذلك فى الكتب الفرنسية التى وقفنا عليها وهى أحق بالمعرفة ، فلما وصل القنصل الى بارجة الاميرال أخبر نابوليون أن العمارة الانكليزية ،تحت قيادة نلسون ، كانت هنا منذ ثلاثة أيام ( أى ٢٨ يونيه سنة ١٧٩٨ ) وروى له ما قاله الانكليز من تفتيشهم على العمارة الفرنسية ، وأن الترك قد داخلهم الفزع ، فأخذوا فى تحصين المدينة ، واقامة المتاريس ، وأن المسيحيين فى الثغر فى أشد درجات الخطر ، بحيث صار من اللازم الاسراع فى احتلال المدينة . ولم يكن نابوليون فى حاجة للتحريض على الاسراع ، فانه ما كاد يسمع بعفريته نلسون قريباً من الاسكندرية ، حتى داخله الفزع ، وأصدر أمره فى الحال بالتحول الى جهة العجمى . وبرج مرابوت ( قلعة قايتباى ) لانزال الجنود ليلا الى البر فعارضه الاميرال فى ذلك لان الجو قد تغير فى آخر النهار قائلا ، إن نلسون لا يمكن أن يعود قبل بضعة أيام

قال بوريين فى مذكراته عن ذلك اليوم ( وكان بوريين مرافقاً لنابوليون فى باخرته ) «فلما قال الاميرال إن نلسون لا يعود قبـل بضعة أيام، عارض نابوليون واحتد قائلا « يلزمنا أن لا نضيع دقيقة واحدة، فقد أعطانى الحظ ثلاثة أيام،فاذا لم أنتهزها خسرنا كل شىء »

فاضطر الاميرال الى أن يصدر أمره بانزال الجنود فى الحال فبدأ فى ذلك العمل على الرغم من هياج البحر وغرق بعض العساكر . قال بوريين فى مذكراته :

« كانت الساعة الثانية من صبيحة يوم ٢ يوليو حين وضعنا أقدامنا فى أرض مصر عند نقطة تبعد نحو ثلاثة فراسخ من الاسكندرية ( جهة المكس )وفى الساعة

الثالثة بدأ بالزحف على الاسكندرية ثلاث آلايات تحت قيادة كليبر و بون و مورات تحت رياسة القائد العام »

وغريب مع هذا التدقيق فى التاريخ ، وكون بوريين كان كاتب يد نابوليون فهو شاهد عيان ، أن يوجد بين المؤرخين من يقرر أن موعد نزول الجيوش الفرنسية كان فى يوم ٣ يوليو لا فى ٢ منه ، كما يقول به « بربيه » فى كتابه ( تاريخ مصر من سنة ١٧٩٨ الى ١٩٠٠ ) [1] هو من خيرة الكتاب المحققين . وصاحب التوفيقات الالهامية ، وهو ممن يعتمد على تدقيقهم فى التاريخ ، يقول أيضاً إن نزول الجنود الفرنسية فى أرض مصر كان فى يوم الثلاثاء ١٩ محرم ، الموافق ٣ يوليو ، مع أنه قرر وصول العمارة الى الاسكندرية يوم الاحد ١٧ محرم فكأنه يرى أن الجنود لم تنزل فى مساء ذلك اليوم ، ولا يتفق هذا مع إسراع نابوليون ، وخوفه من نلسون . والجبرتى يقول « وردت الاخبار بأنه فى يوم الاثنين ١٨ محرم وردت مراكب وعمارات للفرنسيس ، فأرسو فى البحر » . وهو فى هذا الخطأ التاريخى مخطىء ومعذور معاً .

ونقطة الخلاف هى هل كان دخول نابوليون مدينة الاسكندرية يوم الاثنين (٢ يوليو ١٨ محرم على رواية بوريين وهو شاهد عيان ، وعليه أكثر اعتماد كتاب الافرنج ) ، أو فى يوم الثلاثاء ( ٣ يوليو و ١٩ محرم )

ومما جاء فى مذكرات « بوريين » عند نزوله من السفينة أنه لما مد الأميرال يده لمساعدة نابوليون على النزول الى القارب ، رأى القارب قد ابتعد عن مكانه فصرخ قائلا « إن حظى بدأ يخوننى » ! ولكنه بعد صعوبة ومخاطرة وضع قدمه فى أرض مصر الساعة الاولى بعد منتصف الليل !

وتكون الجيش الزاحف على الاسكندرية فى الساعة الثالثة من صباح يوم الاحد ٢ يوليو ( ١٨ محرم سنة ١٢٢٣ ) من ثلاث فرق فقط ( منو ) على الجناح الايسر ( وكليبر ) فى القلب ، ( وبون ) فى الجناح الايمن ، وكان نابوليون بونابرت القائد العام ، يسير على قدميه لانه لم يكن قد أنزل من الخيول القادمة مع الحملة جواداً

---

(1) L'EGYPTE de 1798 —1900 par LOUIS Bréhier

واحداً ، ولم يكن ذلك بالشيء الكثير على قائد طبقت شهرته الخافقين، وهو لايزال في التاسعة والعشرين من عمره يوم وطئت قدمه أرض مصر :

أما أهل الاسكندرية فقد أزعجهم ظهور الاسطول في النهار، ولكنهم لم يكونوا ينتظرون أن يداهمهم العدوّ ليلاً ، إذ المألوف عندهم ان الجيوش التي تنزل ارض مصر تأتي من جهة أبي قير، وأنه يلزمها عدة أيام لافراغ شحن هذه السفن ، وتنظيم قوة لمهاجمة المدينة . ولكنهم لم يعرفوا نابوليون وسر نجاحه ، وهو الاقدام وعدم ضياع الوقت .

إلا أنه لما انزلت الجنود الفرنسية في البر ليلا في تلك الليلة المقمرة أسرع بدويّ على فرسه بالسير إلى الاسكندرية ، وأبلغ الخبر للسيد محمد كريم ... ومن يدري كيف كان ، وأين كان في تلك الساعة مع سراريه واخدانه ، على نحو ماألف أهل ذلك الزمن ، من الترف والنعيم واللهو ، فأخذ معه نحو عشرين من المماليك الانكشارية (على رواية الفرنسيين إذ ليست لدينا رواية من مصادر أخرى) فالتقت هذه القوة الصغيرة عند مطلع الفجر بطليعة من الجيش الفرنسي فظنوها كل القوة القادمة ، فهاجمها الانكشارية وقتلوا ضابطها وقطعوا رأسه وعادوا بها ظافرين الى شوارع الاسكندرية .

وأخذ بعض عربان قبيلة الهنادي وهم على خيولهم يناوشون تلك المقدمة ، ويقطعون حبل مواصلاتها مع القوى التي بقيت لا تزال بقية الجيش ، وكانت تحت قيادة الجنرال ديزيه Desaix . قال أحد المؤرخين : لو كانت القوة البدوية التي ناوشت الجيش الفرنسي ، مؤلفة من نحو خمسمائة من شجعان المماليك ، لاحدثت ضرراً كبيراً في مبدأ الحركة لان الجنود الفرنسيين ، لم يكونوا قد تنبهوا ، ولأنهم ما كانوا مستعدين لقبول أي مؤثرات جديدة

وما زال بونابرت سائراً برجاله حتى أشرفوا على مدينة الاسكندرية ، فكان أول ما لاح لهم في نور الفجر عمود السواري ثم المنائر والمباني ، وصعد نابوليون في الساعة الثامنة صباحاً ، على قاعدة عمود السواري لاستطلاع المدينة ، واعداد الحملة عليها .

وليس من غرضنا ، ولا من خطتنا فى كتابة هذا التاريخ ، أن نتوسع فى دقائق الحركات العسكرية ومواقع القتال ، لأن وجهتنا سياسية محضة ، وغايتنا هى بيان حالة البلاد والأمة ، وما تقلب عليها من الحوادث والأحوال ، وأما الحركات الحربية، وذكر أسماء القواد والضباط ، وتنقلات الأورط والألايات، وإيضاح نقل الذخائر والمهمات ، فهو من خصائص التاريخ الحربى . وقلّ أن يدعو إلى اهتمام القراء الذين وضع لهم هذا الكتاب .

ويكفينا أن نقول : إن الاسكندرية لم تكن محصنة ، ولم يكن لها جيش كاف للدفاع ، لا من جانب الدولة ، ولا من جانب المماليك . فلم يأت ظهر ذلك اليوم ، حتى كان نابوليون قد دخل المدينة ونزل فى دار القنصل الفرنسى . والتجأ السيد محمد كريم ، ومن بقى حوله من الملتفين به الى حصن فرعون — وأما الاهالى فسلموا . ودارت المخابرات مع السيد محمد كريم طول ليلة الاثنين . وانتهى الأمر بأن جاء هو ، ومن معه مستسلمين . وهكذا سقطت الاسكندرية ، التى أسسها القائد اليونانى الكبير ، أعظم قواد العصور الأولى ، فى يد نابوليون بونابرت ، أعظم قواد العصور الحديثة : ! وهكذا الدهر بالناس قُلّب .

قال الجبرتى « فنادى الفرنسيس بالأمان فى البلد، ورفع بنديراته عليها وطلب أعيان الثغر فحضروا لديه ، فأمرهم بجمع السلاح واحضاره اليه ، وان يضعوا « الجوكاد » فى صدورهم فوق ملبوسهم . والجوكاد ثلاث قطع من جوخ أو حرير أو غير ذلك ، مستديرة فى قدر الريال ، سوداء وحمراء وبيضاء ، توضع بعضها فوق بعض ، بحيث تكون كل دائرة أقل من التى تحتها حتى تظن أن الالوان الثلاثة كالدوائر المحيط بعضها ببعض »

قال كتاب الفرنسيس : أما السيد محمد كريم فانه قبل أعتاب نابوليون وقال له إنه أصبح عبده ومولاه، وخطب بين يديه، فرضى عنه نابوليون وطلب منه أن يكون خادماً للجمهورية الفرنساوية ، مساعداً لها على إبادة المماليك ، وتأييد سلطة خليفة المسلمين ، سلطان آل عثمان ! ! فأجابه السيد كريم إلى ماطلب، فعين قومندانا

للبوليس فى الثغر فقام بواجبه خير قيام إذ أعاد النظام فى المدينة وجمع السلاح وقدم للجيش الفاتح كل ما يحتاجه .

ويظهر من قول نابليون للسيد كريم « إنه يريد ابادة المماليك» وتأييد سلطة خليفة المسلمين سلطان آل عثمان» انه كان فى أول الامر مصمما على اتباع السياسة التى اتبعها الانكليز فيما بعد فى مصر ، وهى حفظ سيادة آل عثمان ، ودعوى المحافظة على حقوق الدولة، وأن الغرض الذى جاء من أجله بالحملة الفرنسية هو لإبادة المماليك، كما كانت دعوى الانكليز، اخضاع الثورة العرابية..!!

وأحسن ما وقفت عليه من بيان الخطة التى وضعها نابوليون نصب عينيه فى سياسة مصر ، هو ما كتبه ذلك المؤرخ الكبير ، والسياسى الخطير ، مسيو تيير Thiers [1] فى تاريخ فرنسا الحديث، قال:

« ان نابليون الذى جمع بين كفاءة القائد العسكرى ، ودربة الادارى ، ومهارة السياسى ، أدرك بثاقب فكره الخطة السياسية التى يجب اتباعها فى مصر بمجرد وضع قدمه فيها ، فكان عليه أن ينظف البلاد من الذين يحكمونها فعلا ، وهم المماليك الذين وجبت محاربتهم سواء بالسيف أو بالسياسة ، وكان ذلك من حقنا لانهم طالما أساءوا إلى الفرنسيين ، وطالما عاملوهم بالظلم والاستبداد ، واما فيما يختص بالباب العالى فكان من الواجب التظاهر بعدم الرغبة فى التعدى على حقوق سيادته،واظهار احترام تلك الحقوق ورعايتها،وكيفما كانت صفة تلك السيادة فانها لم تكن ذات تأثير مهم ، وفى الامكان الاتفاق مع الباب العالى إما على أن يتنازل عن مصر باعطائه تعويضات عنها فى مكان آخر ، وأما بتوزيع السلطة فيها توزيعاً لايسيؤنا ، لان سماحنا باقامة الباشا فى القاهرة ، كما كان من قبل مقيما ، مع تولينا السلطة التى كانت فى يد المماليك، هو غاية مطلبنا . أما فيما يختص بالاهالى . فكان أول واجب علينا لتأليف قلوبهم معنا هو أن نكسب الاغلبية ، وهم المصريون

---

(١) هو أودلف تيير ولد قبل الحملة الفرنسية على مصر بسنة واحدة أى سنة ١٧٩٧ وألف تاريخ الثورة الفرنسية الكبرى وتاريخ الديركتوار والقنصلية والامبراطورية . وكان وزيراً لملك فرنسا «لوى فيليب» ثم رئيساً للجمهورية منذ سنة ١٨٧١ — ١٨٧٣

المسلمون، وذلك يكون باحترام المشائخ وتمليق كبريائهم ، وتوسيع دائرة نفوذهم، وبالضرب على أوتار قلوبهم الحساسة بنغمة كالنغمة التى ضربنا عليها فى ايطاليا، والتى توجد دائماً فى كل زمان ومكان ــ تلك هى نغمة اعادة مجد الوطن القديم ، وذكرى الدول العربية الاسلامية ، وبذلك نتأكد من التسلط على البلاد وحكمها تماماً ، وزيادة على ذلك، فاننا باحترامنا للحق فى معاملة الناس وممتلكاتهم ، ــ عند شعب اعتاد أن يعتقد أن فتح البلاد يعطى للفاتحين الحق فى القتل والسلب والنهب ، ــ مما يبعث فيهم الدهشة ، ويرفع مكانة الجيش الفرنسى فى عيونهم، وفوق كل هذا وذاك ، فاننا بمحافظتنا على الاعراض ، واحترامنا لاسم النبى صلى الله عليه وسلم ، نستطيع أن نستولى على القلوب ، كما استولينا على البلاد »

ويؤيد الاعتقاد بأن نابوليون وضع لنفسه أساس هذه السياسة ، الخطاب الذى بعث به إلى أدريس بك قبودان السفن العثمانية فى الميناء ، وكانت ثلاث سفن فقط ، وكبراهن السفينة المسماة « عقاب بحرى » وهى سفينة القبودان، إذ كتب له فى اليوم الاول من وصول العمارة الفرنسية لميناء اسكندرية يقول ما نصه :

« ان البكوات أكثروا من سوء معاملتهم لتجارنا، وقد جئت للمطالبة بحقوقنا وسأكون غداً فى الاسكندرية ، فلا يكون ذلك داعياً لقلقك لأنك تابع صديقنا العظيم، ومولانا سلطان تركيا، ولتكن خطتك تبعاً لمقتضيات هذه السياسة . أما اذا بدر منك أقل معاملة عدائية للجيش الفرنسى ، فاننى أعاملك معاملة الأعداء وتكون أنت السبب فيه ، الامر الذى هو أبعد الاشياء عن مرادى وفؤادى » (1)

وقد روى سرهنك باشا فى كتابه « حقائق الاخبار عن دول البحار » رواية اخرى، لم يذكر فيها بالطبع هذا الخطاب ، ولكن قال فى باب البحرية بمصر فى عهد ولاة الدولة العثمانية ما يأتى « وفى عهد السلطان سليم خان الثالث ازدادت أهمية البحرية العثمانية بما أدخل فيها من الاصلاحات وكانت عنايته السلطانية موجهة لزيادة قوة « الدونانمة » ، فعززها بالسفن الجسيمة التى أمر بتشييدها ، كالـلايين والفراقيط

---

(١) مراسلات نابليون ــ نمرة ٢٧٢١ .

والشهدية ، وغير ذلك وخصص بعضها لحماية الثغور وأرسل بعضها للديار المصرية فكان فى ثغر الاسكندرية منها ثلاث سفن حربية تحت قيادة ادريس بك قبودان السفينة المسماة « عقاب بحرى » عند ما فاجأ بونابرت الديار المصرية بجيوشه وأساطيله ، ولما طلب بونابرت من ادريس بك أن يرفع العلم الفرنساوى بدلا من العثمانى ، توقف عن إجابة هذا الطلب وطلب الاقلاع عن الميناء فصرح له نابليون بذلك ، فاقلع الى الآستانة وأخبر بما حصل وكان أبو بكر باشا والى مصر وقتئذ قدهرب الى غزة » (١)

وهذه الرواية مضطربة ، لان طلب نابوليون لرفع الراية الفرنسية بدل العثمانية لايتفق مع روح خطابه ، ولا يسير مع خطته السياسية التى شرحناها . وها هو نابوليون فى منشوره الذى وزعه على أهالى مصر يسمح لهم برفع الرايات العثمانية إذ يقول فى المادة الثالثة « كل قرية تطيع العسكر الفرنساوية تنصب أيضاً صنجاق السلطان العثمانى محبنا دام بقاؤه » . . وقوله إن ابابكر باشا ، والى مصر وقتئذ هرب الى غزة إنما هو من باب التساهل أيضاً ، لان ابا بكر باشا ، لم يفر الى غزة إلا بعد انهزام المماليك فى واقعة امبابه وخذلانهم فى واقعة الصالحية فى مديرية الشرقية ، على انه لم يكن ثمت من داع لذكر هذه العبارة الاخيرة لان القبودان العثمانى لم تكن له صلة بوالى مصر ، وكانت علاقاته مع الباب العالى مباشرة (٢)

ومما يؤيد ان نابوليون وضع نصب عينيه إتباع سياسة «دعوى المحافظة على السيادة العثمانية » قوله فى المنشور الذى سبقت الاشارة اليه آنفاً ، وسنأتى على نصه بعد فى مكانه « ومع ذلك فان الفرنساويين فى كل وقت من الاوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثمانى ، وأعداء أعدائه أدام الله ملكه » وقوله أيضاً فى ختام ذلك المنشور « أدام الله اجلال السلطان العثمانى » .

ومن الوسائل التى تذرع بها نابوليون لنشر دعوته فى الشرق ، وللتقرب

---

(١) لم يشر جورجى زيدان ولاحنا شاروبيم الى هذه النقطة المهمة وذلك لاعتمادهما فى النقل على الجبرتى وحده

(٢) راجع النظام العثمانى بمصر صحيفة ٢٢ و ٢٣ من هذا الكتاب .

من المسلمين والدولة العثمانية ، أن أصدر أمره (١) باعادة السبعمائة أسير تركي ، الذين فك إسارهم من مالطة الى بلادهم بطريق البر وكان بعض اولئك الاسراء من أهالي طرابلس والجزائر وتونس ومراكش ودمشق وسوريا وازمير ومن الآستانة أيضاً . وأمر بان يصرف لهم الغذاء الحسن واللباس الجيد وأن يعاملوا معاملة خاصة ووزعت عليهم مبالغ كافية من النقود يستطيعون بها السفر وسلم اليهم بعض نسخ من المنشورات التي أعدت لتوزيعها على الشعب المصرى ، وقصد بذلك أن يذيعوا خبر انتصار الفرنسيين وقوتهم ونياتهم الحسنة نحو المسلمين . قال لاكروا « ولم يسكت اولئك الاسرى عن نشر مكارم نابليون فكانت أقوالهم هذه سبباً لاتفاق القلوب حوله وأثرت تأثيراً حسناً في الشرق كله »

ولم تقف رغبة الفرنسيين في التقرب من المسلمين ، ودعوى ابقاء السيادة العثمانية على مصر عند هذا الحد ، بل اتخذ أيضاً من الوسائل السياسية ما يلزم لذلك ، فكلف تاليران ، وزير الخارجية ، سفير الجمهورية الفرنسية في الآستانة أن يؤكد للباب العالى ، إن فرنسا لاتريد إلا أن تحل في مصر محل المماليك الذين استبدوا بالامر وخلعوا سلطة جلالة السلطان ، وأساءوا الى الجمهورية الفرنسية ، بسوء معاملتهم لابنائها الذين قضت عليهم أشغالهم بالوجود في الاسكندرية » ( من نص تعليمات وزير الخارجية ) وسيظهر للقارىء أن كل هذه المجهودات والمساعى ، لم تقف أمام مساعى انكلترا وسياستها ، وتحريضها الدولة على استرداد مصر .

. · .

لما استقر قدم نبوليون بالاسكندرية شرع أولا في وضع نظام لحكومتها فكان أول ما عمله ان أصدر أمراً الى القواد يقضى باحترام الدين ، وحقوق الاهالى وممتلكاتهم ، وقد جاء في هذا الامر .

« يريد القائد العام أن يترك للاتراك ( يريد الاهالى ) الحرية التامة في تأدية واجباتهم الدينية في المساجد كما كانوا يفعلون من قبل ، ويشدد كذلك في أن لا

---

(١) أمر نابليون تاريخ ٣ يوليو ١٧٩٨ عن محفوظات وزارة الحربية في باريس

يدخل أى فرنسى، جندى كان أو غير جندى، فى المساجد ولا أن يحتشدوا على ابوابها ، وعليكم أيها القواد أن تصدروا الاوامر لكل ضابط فرقة بتلاوة هذه الاوامر على الجنود وأن يقرأ عليهم أيضاً الامر الخاص بتجنب النهب والتعدى ولكم أن تعاقبوا كل مخالف لهذه الاوامر بالقتل رمياً بالرصاص، ومن المهم جداً أن يدفع الجنود ثمناً لكل مايبتاعونه فى المدينة ، وأن لا يسب الترك ولا يتعرض لهم إذ يجب علينا أن نكون معهم على صفاء وأن لانحارب الا المماليك »

وترك أمر الاحكام والفصل فى القضايا للقضاة المسلمين ثم شكل ديواناً أو مجلساً بلدياً ، مؤلفاً من المشايخ وأعيان البلدة . قال أحد المؤرخين : إن نابوليون اختار سبعة من كبار الاسكندرية ولم يذكر منهم الا اثنين هما السيد محمد كريم السابق ذكره والشيخ محمد المسيرى كبير علماء الاسكندرية[1] وفوض اليهم النظر فيما تحتاجه المدينة وأمرهم أن يجتمعوا كل يوم مرة لتقدم لهم الشكاوى ويتقاضى الناس أمامهم. وتوالى صدور أوامر نابوليون بتلك السرعة المدهشة والذكاء الباهر فكان من أوامره :[2]

أمر بتشكيل قومسيون لتحديد قيمة النقود المختلفة

أمر بابدال سبائك الذهب والفضة التى مع الحملة وصكها نقوداً من نقود البلاد

أمر بجمع الضرائب التى كانت مفروضة من قبل وجباية مبلغ قدره مائة وخمسون ألف فرنك ( ستة آلاف جنيه ) كغرامة حربية

---

(١) نعرب للقارىء حكم نابوليون على هذين الرجلين الذين كانا لهما شىء من النفوذ فى الاسكندرية عند قدوم نابوليون توطئة لما سيظهر من امرهما فيما بعد قال:

« كان الشيخ محمد المسيرى عالماً وشريفاً ومن كبار رجال الدين فى المدينة وكان رجلا حكيما واسع المعرفة متعمقاً فى اصول الدين معروفاً بالطهارة والذمة

ولما كان اوسع معرفة وأكثر خبرة من مواطنيه فقد كانت آراءه صائبة عادلة ، وادارته حسنة ، بخلاف الذين كانوا يحيطون به . وهكذا كان لكريم نفوذه بفضل جرأته وشجاعته وقوة أعوانه وعبيده وسعة ثروته أما الشيخ المسيرى فكان نفوذه مستمداً من علو نفسه وشفقته ورقة قلبه وفضائله وعدله الذى كان ظاهراً فى كل أعماله . » اه عن مذكرات نابوليون فى سانت هيلانة

(٢) نصوص هذه الاوامر المختلفة موجودة فى مكاتبات نابوليون وفى أوراق نظارة الحربية الفرنسية بنمر متعددة

أمر بانشاء كورنتينة

أمر بانشاء مطابع مختلفة للغات الفرنسية والعربية والتركية واليونانية

لاشك أن نابوليون قد أثبت بهذه النظامات والاوامر، شديد رغبته في إرضاء المصريين والتقرب اليهم بكل الوسائل، ولكن ضريبة مبلغ ماية وخمسون ألف فرنك على مدينة الاسكندرية، في حالها التي كانت عليها، تعد من باهظ المغارم التي تنوء تحت حملها البلاد وقت فتحها . وقد يقال وما هو مبلغ ستة آلاف جنيه على ثغر كالثغر الاسكندري، يتبرع أهله للصليب الاحمر في زمن الحرب الكبرى (عن طيب خاطر كما يقولون!!) بمبلغ اثنى عشر ألف جنيه ؟؟ ولكن يجب أن تقارن بين ثروة الاسكندرية وتعداد سكانها في ذلك الحين، وثروتها وتعداد أهلها في الوقت الحاضر، فقد كان سكان الاسكندرية ثمانية آلاف فقط على رواية الفرنسيين أنفسهم، فمعنى ضريبة ستة آلاف جنيه في ذلك الزمن هي كضريبة سبعمائة وخمسون ألف جنيه على مدينة الاسكندرية في الوقت الحاضر، هذا إذا كانت المقارنة بنسبة السكان فقط فكيف بالمقارنة مع الثروة ؟؟ . .

ولم يخسر الفرنسيون في فتح الاسكندرية أكثر من نحو أربعين قتيلا مع ثمانين إلى ماية من الجرحى . ولكي يبعث نابوليون الحماسة في قلب الجيش أمر أن يدفن جميع الذين قتلوا في الاستيلاء على الاسكندرية بجانب عمود السوارى، وأن تحفر أسماؤهم عليه ! وذكر المؤرخون أنه قتل من عساكر الانكشارية والاهالى نحو ماية نسمة

وكان أول ما فكر فيه نابوليون هو تحصين ثغر الاسكندرية اتقاء البوارج الانكليزية، فأصدر أمره للضابط كريتين Crétin أحد رؤساء الفرق الهندسية، فقام بذلك الامر خير قيام، وأظهر من المهارة والعلم، ما جعل نابوليون يطريه اطراء عالياً في مذكراته، التي كتبها بعد ذلك بسنين طوال

وأخذ يستعد نابوليون للسير بجيشه لفتح مصر، والقضاء على المماليك، فكان أول ما فكر فيه، طبع منشور باللغة العربية، كتبه هو بنفسه بالفرنسية، كما أيد ذلك الثقاة، وعربه، بلغة ركيكة غير مضبوطة، وليست منطبقة على الاصل الفرنسي تماماً،



( صورة من الطبيعة )

( نابليون قبل الهجوم على الاسكندرية من كتاب مذكرات الكابتن تورمان الذى كان فى فرقة المهندسين العسكرية مع الحملة )

بعض المستشرقين والتراجمة الذين أحضرهم معه ، وطبع هذا المنشور فى المطبعة العربية التى أحضرها وتاريخه ٢ يوليو سنة ١٧٩٨ ، الموافق ١٨ محرم سنة ١٢١٣ و ١٤ ميسودور سنة ٦ للجمهورية الفرنسية : ونحن مضطرون إلى أن نأتى على نص هذا المنشور بحروفه ، وتعبيراته الشاذة الركيكة ، كما نقله الجبرتى ، واعتمد عليه المؤرخون الحديثون ، ثم نعقب عليه ببيان الفوارق بين الاصل الفرنسى وترجمته : قال الشيخ الجبرتى :

« وقد كان الفرنسيس حين حلولهم بالاسكندرية كتبوا مرسوماً وطبعوه وأرسلوا منه نسخاً إلى البلاد التى يقدمون عليها ، تطميناً لهم ، ووصل هذا المكتوب مع جملة من الاسارى الذين وجدوهم بمالطة ، وحضروا صحبتهم ، وحضر منهم جملة الى بولاق ومعهم منه عدة نسخ ، ومنهم مغاربة ، ومنهم جواسيس ، وهم على شكلهم من كفار مالطة ، و يعرفون باللغات . وهذه صورة المكتوب :

« بسم الله الرحمن الرحيم . لا إله الا الله . لاولد له ولا شريك له فى ملكه

من طرف الفرنساوية المبنى على أساس الحرية والتسوية

والسر عسكر الكبير أمير الجيوش الفرنساوية بونابرته ... يعرف أهالى مصر جميعهم انه من زمن مديد ، الصناجق الذين يتسلطون فى البلاد المصرية يتعاملون بالذل والاحتقار فى حق الملة الفرنساوية ، ويظلمون تجارها بأنواع الايذاء والتعدى فحضر الآن ساعة عقوبتهم وأخرنا من مدة طويلة هذه الزمرة المماليك المجلوبين من بلاد الابازة والجراكسة يفسدون فى الاقليم الحسن الاحسن الذى لايوجد فى كرة الارض كلها ، فأما رب العالمين القادر على كل شىء ، فانه قد حكم على انقضاء دولتهم . ياأيها المصريون قد قيل لكم اننى ما نزلت بهذا القطر إلا بقصد إزالة دينكم ، فذلك كذب صريح فلا تصدقوه وقولوا للمفترين إننى ما قدمت إليكم الا لاخلص حقكم من يد الظالمين ، وانني اكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى ، واحترم نبيه والقرآن العظيم ، وقولوا أيضاً لهم أن جميع الناس متساوون عند الله وأن الشىء الذى يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط . وبين المماليك والعقل والفضائل تضارب . فماذا يميزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا ان يتملكوا مصر وحدهم ويختصوا بكل شىء أحسن فيها من الجوارى الحسان ، والخيل العتاق ، والمساكن المفرحة ! فان كانت الارض المصرية التزاماً للمماليك فليرونا الحجة التى كتبها الله لهم . ولكن رب العالمين رؤوف وعادل حكيم . ولكن بعونه تعالى من الآن فصاعداً لاييأس أحد من أهالى مصر عن الدخول فى المناصب السامية ، وعن اكتساب المراتب العالية . فالعلماء والفضلاء منهم سيديرون الامور وبذلك يصلح حال الامة كلها ، وسابقاً كان فى الاراضى المصرية المدن العظيمة ، والخلجان الواسعة والمتجر المتكاثر ، وما أزال ذلك كله الا الظلم والطمع من المماليك

أيها المشايخ والقضاة ، والائمة والجربجية ، وأعيان البلد ، قولوا لامتكم أن الفرنساوية هم أيضاً مسلمون مخلصون واثبات ذلك انهم قدنزلوا فى رومية الكبرى وخربوا كرسى البابا الذى كان دائماً يحث النصارى على محاربة الاسلام ، ثم قصدوا جزيرة مالطة وطردوا منها الكوالليرية[1] الذين كانوا يزعمون أن الله تعالى يطلب منهم

---

(١) الكوالليرى — الفرسان Çavalleries

مقاتلة المسلمين . ومع ذلك الفرنساوية فى كل وقت من الاوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثمانى وأعداء أعدائه، أدام الله ملكه . ومع ذلك ان المماليك امتنعوا عن إطاعة السلطان غير ممتثلين لأمره فما أطاعوا أصلا الا لطمع أنفسهم

طوبى ثم طوبى لاهالى مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير فيصلح حالهم، وتعلى مراتبهم ! طوبى أيضاً للذين يقعدون فى مساكنهم غير مائلين لاحد من الفريقين المتحاربين ، فاذا عرفونا بالأكثر تسارعوا إلينا بكل قلب . لكن الويل ثم الويل للذين يعتمدون على المماليك فى محاربتنا، فلا يجدون بعد ذلك طريقاً الى الخلاص ولا يبقى منهم أثر »

ثم اتبع هذا بخمس مواد للارهاب، ولتكون بمثابة تعليمات للمصريين ، نأتى على نصها :

المادة الاولى : — جميع القرى الواقعة فى دائرة قريبة بثلاث ساعات عن المواضع التى يمر بها عسكر الفرنساوية فواجب عليها أن تبعث للسر عسكر من عندها وكلاء لكيما يعرف المشار اليه أنهم أطاعوا وإنهم نصبوا علم الفرنساوية الذى هو أبيض وكحلى وأحمر

المادة الثانية : — كل قرية تقوم على العسكر الفرنساوية تحرق بالنار

المادة الثالثة : — كل قرية تطيع العسكر الفرنساوى أيضاً تنصب صنجاق السلطان العثمانى محبنا دام بقاؤه

المادة الرابعة : — المشايخ فى كل بلد يختمون حالا جميع الارزاق والبيوت والاملاك التى تتبع المماليك وعليهم الاجتهاد التام لئلا يضيع أدنى شيء منها.

المادة الخامسة : — الواجب على المشايخ والعلماء والقضاة والأئمة أنهم يلازمون وظائفهم، وعلى كل أحد من أهالى البلدان أن يبقى فى مسكنه مطمئناً وكذلك تكون الصلاة قائمة فى الجوامع على العادة، والمصريون بأجمعهم ينبغى أن يشكروا الله سبحانه وتعالى لانقضاء دولة المماليك قائلين بصوت عال :

أدام الله اجلال السلطان العثمانى !

أدام الله اجلال العسكر الفرنساوى !

لعن الله المماليك !

وأصلح حال الامة المصرية!

---

نقل هذا المنشور المرحومان جورجى بك زيدان وشاروبيم بك فى كتابيهما عن تاريخ مصر الحديث، وغيّر فيه الاول بضع كلمات بما يقابلها فكلمة « شرع » بدل (متساوون) فى قوله « متساوون عند الله » « والسكرج » بدل « الجركس »، ونسى الثانى كلمة « دينكم » فى قوله « انى جئت لازالة دينكم » فكتبها «لازالتكم»(وما أظن ذلك عن قصد) وكان الاولى بهما مقارنة الاصل بالترجمة. ونحن قبل أن نأتى على ما بين الاصل والتعريب من الموارق ، نقول إن نابوليون قد أتعب نفسه وتراجمته ومطبعته، بغير فائدة، لان هذا المنشور بما فيه من حقائق — من حيث صفة المماليك وتخريبهم أرض مصر ، وتمويهات كدعوى الاسلام وعبادة الله ، واحترام النبي والقرآن ، وبما فيه من ترغيب، وترهيب « لايساوى عند المصريين بصلة » كما يقول العوام فى تعبيراتهم . وذلك لاسباب كثيرة . منها أن المصريين مغلوبون على أمرهم، ولا حول لهم ولا قوة، فقد كانوا اذ ذاك كالأغنام والحمير ، لمن غاب وركب، ومنها أنهم مع ما أصيبوا به من الذل والهوان ، تحت نير المماليك والاتراك ، لايميلون لقبول سلطة مسيحية ، ولا يرضون بغير الاتراك المسلمين بديلا . والدليل على ذلك اضطرابهم عند قرب الفرنسيس وقيام الكثيرين منهم بمهاجرة الديار ، وما أظهروه من الجزع ليلة قدوم الفرنسيس فى الجهة الشرقية من النيل، واستعدادهم جميعاً لمقاتلة القادمين، ولو بالعصى والنبابيت . ومن أكبر الادلة أنهم على الرغم من حسن معاملة الفرنساويين لهم، وترتيب نظام ادارى عادل لاحوالهم، ثاروا ضد نابوليون وجنوده ورجاله وعلمائه مرتين فى مدة أقل من سنتين كما سيجىء تفصيل ذلك ، وهم لم يثوروا ضد مظالم الاتراك والمماليك طول هاتيك القرون مرة واحدة، اللهم الا أن تكون تلك «الهيصة» التى قام بها الشيخ .

الشرقاوى، لتعدى الالفى بك على ممتلكاته ، حيث جمع فيها بعض المشايخ، واتهمت كأنها لم تكن . ولكن نابوليون معذور فى تصوره أن فى مصر ، كما فى غيرها من البلاد، أمة تحكم العقل ، وتفهم قيمة صوالحها ، وأن لها شيئاً من المقدرة على رد مكروه ،وانها تعزز، أو تضعف، إن مالت الى جهة ،أو انحرفت عن اخرى ،فلذلك كتب ذلك المنشور البديع فى بابه معنى وسياسة ، من الوجهة السياسية الفرنسية ، ولا غضاضه عليه فى ذلك .

أما الخلاف بين الأصل والتعريب — مع التجاوز عن سوء الترجمة وأغلاطها — فهو أن الأصل فى خزائن وزارة الحربية الفرنسية، والموجود فى مكاتبات نابليون تحت نمرة ٢٧٢٣ ، ليس فيه ذكرى فى مقدمته « لاسم الله الرحمن الرحيم لا إله الا هو لاشريك له » وليس فيه عبارة « ومن طرف الفرنساوية المبنى على أساس الحرية والتسوية » بل جاء فى أوله : « من بونابرت عضو الانستيتوناسيونال ، والقائد العام ، وأوله « أنه من زمان مديد الخ »... وجاء فى الأصل : « وأننى أكثر من المماليك احتراما ولله ولنبيه وللقرآن » وفى التعريب « أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى أحترم نبيه والقرآن العظيم » وليس فى الأصل مطلقاً قوله « قولوا إن الفرنساويين هم أيضا مسلمون مخلصون » والذى فيه هو : « قولوا إننا أصدقاء للمسلمين الصادقين » وفرق بين العبارتين كبير . ولسنا ممن يظن أن هذا الخلاف قد جاء عفواً من سوء الترجمة، بل هو مقصود، لأن نابليون لايكتب بلغته عبارات يعرف أنها ستحفظ عليه فى التاريخ ، وتعرض من أعدائه، أمام قومه، لتشويه سمعته . وكان أحرص الناس وأنفذهم نظراً الى هذين الأمرين ، وإنما حوّر المترجمون عباراته ووافق هو على ذلك التحوير . وأعقب نابليون هذا المنشور بخطاب كان قد كتبه وأعده وهو على ظهر الباخرة « أوريان » فى ٣٠ يونيو ، أى قبل الاشراف على الاسكندرية بيوم واحد، وهذا الخطاب موجه للسيد أبى بكر باشا الذى كان والياً على مصر من قبل الدوله العثمانية ، وقد بعث الخطاب المذكور مع ضابط تركي من ضباط السفن التى كانت راسية بالميناء ،وهذا هو نص الخطاب:

« إن الادارة التنفيذية للجمهور الفرنساوى طالما طلبت من الباب العالى

معاقبة البكوات المماليك لسوء معاملتهم للتجار الفرنسيين ، فكان جواب الباب العالى دائماً أن أولئك المماليك أشخاص أدنياء طامعين، ولا يحترمون مبادئ العدل وأن الباب العالى لايكتفى فقط لعـدم السماح لأولئك المماليك باساءة أصدقائه الصادقين من الفرنسيس، بل يشملهم برعايته وعنايته كلما تيسر له ذلك.

فلذلك قررت الجمهورية الفرنسية إرسال جيش عظيم للقضاء على مظالم المماليك فى مصر ، كما اضطرت الى عمـل مثل ذلك مراراً فى خلال القرن الحالى مع بلى تونس ومع الجزائر ، فأنت الذى كان من الواجب أن تكون السيد المطاع على البكوات، وقد أصبحت بغير جاه ولا نفوذ، جدير بأن تتلقى نبأ قدومى بالسرور والانشراح.

وأنت بالطبع تعلم أننى لم آت للتعرض للدين والشرع، ولا للقيام بأمر ضد السلطان، وكذلك لابد أنك تعرف ان الامة الفرنسية هى الحليفة الوحيدة للسلطان فى اوربا . فهلم اذاً الى مقابلتنا والعن معنا المماليك وعنصرهم الخبيث (١)

« بونابرت »

. والظاهر ان هذا الخطاب لم يصل الى يد بكير باشا أو ان وصل اليه ولم يجب عليه

بعد هذه المنشورات التى وزعها ، والكتب التى بعث بها الى الباشا الوالى وقومندان السفينة التركي ، شرع نابوليون — كما سيراه القارئ مفصلا بعد — فى تفهم النفسية المصرية ، فأخذ يكثر من الاجتماع بالشيخ المسيرى ، ومحمد كريم ، ويدعو العربان الى المآدب ، ويشترى منهم الخيول ، ويعد العدة للسير بالحملة الى القاهرة، وامتلاك مافى القطر المصرى من قرى وبنادر ... فلنسر معه حتى نرى .!

---

(١) لم ينشر هذا الخطاب باللغة العربية. لا فى الجبرتى ولا فى كتب مؤرخينا الحديثين الا اننى عثرت على القطعة الاخيرة منه معربة تعريباً قبيحاً شاذاً فى كتاب تاريخ فرنسا الحديث الذى اجتزمنه أحد الكتبين قطعة تاريخ نابوليون فى مصر وطبعها فى كتيب على حدة وقال انه مأخوذ عن تاريخ فرنسا الحديث الذى كتبه الطبيب الذكر المرحوم سليم البستانى وذكر أن البستانى قال انه كتبه فى أيام حداثته، ونشره فى جريدته الجنان، على ماتقتضيه سرعة كتابة الجرائد» وهذا خطأ محض لان كتاب تاريخ فرنسا الحديث، وان يكن قد نشر فى مجلة الجنان النصف شهرية، التى كان ينشرها سليم البستانى فى سنة ١٨٧١ و١٨٧٢، الا انه لم يكن هو كاتبه بل كان معربه هو الشيخ خطار

# الفصل الرابع

## استعداد الحملة للسير فى فتح مصر

كانت إقامة نابوليون فى الاسكندرية سبعة أيام فقط ، وما كان ليقيم فيها هذه المدة على قصرها ، لما جعله أساساً لنجاحه من قيمة الزمن ، لولا حاجته الى امور كثيرة : منها تدبير مسألة الاسطول، وإنزال ما فيه من المدافع الثقيلة ، وآلات الحرب العديدة، ومنها حاجته الى الخيول للخيالة، لانه لم يحضر معه كما ورد فى الجدول السابق نشره ، سوى ٦٨٠ جواداً ، مع أن معه أربعة آلاف جندى من الخيالة ولم ينس أن يحضر معه السروج والأعنه والادوات اللازمة لكل جواد

ولم يكن فى الاسكندرية مايكفى لهذا القدر من الخيول، فالتزم أن يستعين بالسيد محمد كريم على شراء الخيول اللازمة من عرب البحيرة، وكان من اللازم له عدا شراء الخيول منهم ، أن يتوددالبهم لكيلايعاكسوه، ويقطعوا خطوط مواصلاته فى سيره، ولما كان للسيد محمد كريم، بصفته أكبر حاكم فى الاسكندرية، من النفوذ على الاعراب ولحاجتهم دائماً الى النقود ، لبوا الامر سراعاً فاجتمع منهم فى يوم ٤ يوليو ثلاثون شيخاً من شيوخ قبائل المنادى ، وأولاد على ، وبنى يونس ، فى ساحة المعسكر الفرنسى فاحسن نابوليون مقابلتهم وتودد اليهم ، وكتبوا معه عقداً تعهدوا فيه بأن يجعلوا الطريق من الاسكندرية الى دمنهور آمناً ، وأن يوردوا ثلاثمائة رأس من الخيل ، فى مقابل مائتين وأربعين جنيهاً [1] ذهباً ، وخمسمائة هجين فى مقابل مايه وعشرين جنيهاً وأن يقدموا ألف جمل مع قادتها لحمل الاثقال ، وأن يطلقوا سراح الاسرى الفرنسيين الذين قبضوا عليهم فى مناوشاتهم قرب الاسكندرية. وقبضوا مقدماً مبلغ ألف بنتو ذهباً فسر نابوليون بهذه النتيجة سروراً كبيراً

---

الاحداح كما هو وارد فى أعداد الجنان نفسها . وقول الكتبي « سرعة كتابة الجرائد ، عن مجلة فى ثلاث ملازم، تصدر كل خمسة عشر يوماً، من الاعتذارات « الظريفة » عن أركاكة عبارة الكتاب المذكور !!!

(١) هذه البيانات مأخوذة من مذكرات نابوليون

وشرب وأكل مع اولئك الاعراب وقد حضروا فى اليوم الثانى وقدموا ثمانين حصاناً ، ونحو ماية جمل، ووعدوا بالباقى فى الايام التالية ، وجاءوا باثنى عشر جندى افرنسى كانوا لديهم اسرى

وكانت رغبة نابوليون قائمة على الوصول الى القاهرة قبل فيضان النيل الذى يفيض فى شهر اغسطس ، ولذلك صمم على متابعة السير فى الحال الى عاصمة البلاد فبدأ أولا بوضع حامية مؤلفة من ثمانية الى تسعة آلاف جندى فى الاسكندرية تحت قيادة الجنرال « كليبر » الذى جرح فى محاولته دخول الاسكندرية ولم يكن قد شفى من جراحه وأصدر اليه عدة أوامر فى خطاب مطول [١] نكتفى باقتطاف ما يأتى منها :

« انك تتولى يامواطنى الجنرال قومو ندانية الاسكندرية وابى قير والصف المتحرك [٢] المخصص للبقاء فى ساقة الجيش لتسهيل المواصلات فيه . وعليك مراقبة انشاء الكورنتينة، وإعداد مستشفيين واحد للجرحى وآخر للمرضى . وأرجو أن تكون علاقاتك مع العربان، ووقوفك على حركاتهم، على غاية مايرام ، وأن تحافظ على احترام العلماء وأعيان البلد ، وسيذهب الاسطول ليرسو فى مياه ابى قير ويلزم أن يرسو فى جهة بحيث يكون فى مأمن من الطوارىء، تحت حماية الطوابى التى يلزم اقامتها هناك ، ولعلك تدرك من هذا أهمية الاسراع فى انشاء تلك الاستحكامات . ومن المهم جداً أن يسارع الصف المتحرك الذى تحت قيادة الجنرال دومى ( Dumay ) الى احتلال نقطة الكريون [٣] الواقعة بين الاسكندرية ودمنهور حيث توجد مياه كثيرة، وأن ينصح له بتنظيف الآبار الموجودة فى جهة « البيضة » ومن الضرورى جداً أن تبقى مواصلات الاسكندرية ورشيد على غاية مايرام بواسطة القوارب فى البحيرة وسيبعث لك ديوان اركان الحرب بالنظام الذى وضعه لادارة الاحكام فى البلاد ، فمن الواجب كثيراً تعويد القوم تدريجياً على أخلاقنا وتصرفاتنا ، وأن تترك فى أيديهم مجالا واسعاً من سلطة ادارة امورهم

---

(١) نص هذا الخطاب محفوظ فى دفترخانة ديوان الحربية بنمرة ٢٧٧٨

(٢) Colonne Mobile فرقة متنقلة

(٣) الكريون بلدة فى مركز كفر الدوار

الداخلية ، وبالاخص يلزم عدم التدخل فى شىء من المسائل التى لها مساس بالشرع والدين . وفوق ذلك كله أرجوك أن لا تفرط فى إجهاد نفسك بحيث تضر بصحتك ، التى هى أهم لدىّ وللجيش ، من كل شىء ، ولك السلام

« بونابرت »

وفى هذه الأوامر من دقائق الحكم ، وحسن الإدارة ، واجتذاب القلوب ، ما لا يخفى على المفكر فى تاريخ ذلك الرجل العظيم . وأهم مافى هذه الأوامر إشارته الى حماية الأسطول من غارة نلسون ، التى وقعت على الرغم من كل ذلك بعد شهر واحد من وصول الجيش الفرنسى الى الاسكندرية ، كما سنشرحه فى مكانه ، ولكن المهم ذكره هنا ، هو أن نابوليون كان على حذر من الاسطول الانكليزى ، وكان يعلم علم اليقين انه إن قضى على سفنه بالدمار ، فقد قضى على كل آماله ومشاريعه فى مصر خصوصا ، والشرق عموماً ، ولذلك كان همه منذ وصل الى الاسكندرية أن يبحث عن طريقة تقى الاسطول من الخطر ، فكتب الى الأميرال برويس يقول ( تاريخ ٣ يوليو )

« إن القائد العام يريد منك اتخاذ كل الوسائل لانزال كل ما يخص الجيش إلى البر . ويعتقد القائد العام أنك ولا بد قد جسست عمق البحر ولذلك يود أن يدنو الاسطول من الميناء لأن وجوده بعيداً غير موافق لمصلحة مواصلاتنا »[1]

وكان نابوليون يميل إلى دخول الاسطول فى ميناء الاسكندرية لحمايته بأسرع ما يمكن ، ولكن حصل خلاف بين رجال البحرية فيما يختص بسعة قاع الميناء لقبول سفن كبيرة كالتى مع الاسطول ، فقال القبودان باريه Barré بامكان ذلك ولم يوافق عليه الأميرال وبقية القبودانات الآخرين ، وكان من أمر رسوه فى مياه أبى قير ما كان .

وقد أوضحنا هذه النقطة لعظيم أهميتها فى مركز الفرنسيين بالقطر المصرى ، ولأن نابوليون طالما ندد بالأميرال برويس وشكا نتيجة تساهله وعدم الحيطة اللازمة . ولمؤرخى الفرنسيين مجادلات فى هذه المسألة يطول شرحها .

---

(١) من محفوظات ديوان الحربية

وكان آخر ما كتبه نابوليون بالاسكندرية الخطاب الآتى الذى بعث به الى السيد محمد كريم :

المعسكر العام — ٧ يوليو ١٧٩٨ — إلى السيد محمد كريم [١]

« لقد سر القائد سروراً كبيرا بحسن سلوككم منذ دخول الجيش الفرنسى فلذلك يمنحكم وظيفة محافظ دائرة الاسكندرية وسنبعث لكم أوامرنا على يد الجنرال كليبر، قومندان عموم الجهة. وذلك لايمنع السيد محمد كريم من أن يكتب للقائد العام فى جميع الأحوال متى أراد. وعليكم أن تقدموا للجنرال كليبر كل ما يطلبه من مستلزمات الجيش الفرنسى وبوليس دائرة العربان »

« بونابرت »

ولكن السيد محمد كريم هذا، على الرغم من هذه المعاملة الحسنة، وتلطف نابوليون فى مخاطبته وثقته به، لم يحفظ للفرنساويين حرمة؛ ولم يرع لهم عهداً. وكان كعادة أبناء جنسه وزمنه، وكعادة أبناء وطنه، إلى وقتنا هذا، لا يثبتون على رأى واحد، اذ بيناهم مع هؤلاء، إذ هم مع أولئك ..!! وعذرهم فى هذا قصر نظرهم من جهة، وخوفهم من التقلبات من جهة أخرى؛ زيادة عما ربوا عليه من أثر الذلة والمسكنة وضعف الارادة، فقد وجد الفرنسيون معه بعد ذلك، مكاتبات بعث بها وراء ظهورهم الى مراد بك، يحرضه على الغارة على الاسكندرية، فجاءوا به من الثغر ذليلا ومثلوا به تمثيلا، الى غير ذلك مما سيأتى فى مكانه مفصلا . .

ومن أسرار نجاح نابوليون فى حروبه، الاسراع والحيطة، فانه ما كاد يضع قدمه يوم ٢ يوليو فى الاسكندرية، حتى أصدر أمره مساء ذلك اليوم للجنرال ديزيه بالتقدم بفرقته للاستيلاء على قرية «البيضة»، وهى على بعد ثلاثة فراسخ من الاسكندرية لكي يكون ذلك بمثابة النقطة الامامية لقوى الجيش التى تتقدم دائما الى الامام، وتنذر بالخطر ان كان هناك هجوم من العدو. ومما يجب ذكره ما أوصى به نابوليون الجنرال ديزيه قبل تحركه لتلك النقطة الامامية، اذ قال له فى أوامره

(١) محفوظ فى ديوان الحربية ومكاتبات نابوليون بنمرة ٢٧٨٥

« ان لا تستعمل المدفعيــة ما استطعت ولا تسلط المدافع على المساكن ، وأهم شيء لدينا هو اخفاء ما عندنا من وسائل القوة الغربية ، فلا تستعملها الا حيث تضطر لمقاومة قوة كبيرة جداً »(١) ثم أصدر أمراً آخر بأن تكون فرقة الجنرال « بون » على بعد فرسخ واحد من الاسكندرية بحيث تكون واسطة المخابرات بينه وبين الجنرال ديزيه .

ومما يجب ذكره هنا انه كان أمام نابوليون طريقان لنقل جيشه الى شاطىء النيل ، أحدهما من رشيد والثانى من الاسكندرية الى دمنهور فالرحمانية ، والأول سهل لوجود الماء ، ولكن رشيد كانت لا تزال فى حوزة المماليك ، وربما خشى مقاومة منهم فيها ، وهو يريد الاسراع للاستيلاء على القاهرة ، فلذلك اختار الثانى ووضع نظامه على ذلك .

جاء فى المذكرات التى أملاها نابوليون فى سانت هيلانة ما يأتى :—

« وكنا فى شهر يوليه وقد قرب النيل أن يغمر الارض بمياهه ، فأراد بونابرت أن يصل الى القاهرة قبل الفيضان . ولم يكن بونابرت يجهل أن تحت ستار التقاليد القديمة تختفى الحقائق أحياناً ، وأنه يجب على الانسان أن يدرس الامور قبل أن ينشر نفوذه على البلاد التى يريد افتتاحها ، وأن يفهم أن القوة المسلحة وحدها ، ليست الضمان الوحيد . وكان يعرف ، طبقاً للتقاليد المألوفة ، ان احتلال القاهرة هو بمثابة احتلال مصر كلها ، فمن الواجب عليه أن يسرع فى وضع يده على المدينة المقدسة ليقضى بقوة الذعر والخوف ، على روح الخرافات والاوهام التى تسود الشعب ، فيحرك جيشه ليصل الى غرضه . وترك حامية مؤلفة من ثمانية أو تسعة آلاف رجل فى الاسكندرية وسلم قيادتها ، وكذلك قيادة الفرق التى كانت فى عهدة الجنرال « ديموى » الى « كليبر » الذى اضطرته جروحه للبقاء وعدم استطاعته السير »

وفى اليوم السادس من يوليو بدأت الحملة سيرها من الاسكندرية الى دمنهور مما سنفرد له فصلا خاصا بعد أن ننتقل بالقارىء الى القاهرة ، ونروى له ما حصل فيها ، وكيف كان وقع خبر احتلال الفرنسيس على أفئدة المماليك والأهالى .

---

(١) مكاتبات نابوليون بنمرة ٢٧٢٢

# فى القاهرة

لم يذكر لنا الجبرتى بالضبط متى وصل الى القاهرة ، خبر دخول البوارج الفرنساوية فى مياه الاسكندرية . وكل ما قاله بعد كلمات قلائل عن احتلال الاسكندرية العبارة الآتية :

« ولما وردت هذه الاخبار الى مصر ، حصل للناس انزعاج ، وعول اكثرهم على الفرار والهياج »... وكذلك لم يعتن المؤرخون الحديثون بضبط اليوم الذى وصلت فيه الأنباء الى القاهرة ، لأننا نعرف أن السيد محمد كريم بعث لمراد بيك بنبأ ظهور العمارة الفرنسية بمجرد ظهورها ، أو بعد رسو القارب ، الذى يقل القنصل الفرنسى للبارجة (أورويان) ، ويقع ذلك فى يوم الأحد ١٧ محرم سنة ١٢١٣ ، وأول يوليو سنة ١٧٩٨ ، فكم كان يلزم من الايام لوصول الأخبار الى القاهرة بأسرع ما يمكن ؟ كان لا بد من أربعة أيام على الأقل للفارس المجد ، فتكون الأخبار قد وصلت الى القاهرة ظهر يوم الخميس ٥ يوليو . والظاهر إن هذا هو الصواب ، لأن الجبرتى يقول « واخذوا فى الاستعداد وقضاء اللوازم والمهمات وارتحل مراد بك بعد صلاة الجمعة » وهو اليوم التالى لعقد المجلس وقرار ما اتفق عليه .

وكان السيد محمد كريم حين أبصر تلك العمارة الفرنسية ، وهاله أمرها ، كتب إلى مراد بك يقول « إن العمارة التى حضرت الى ميناء الاسكندرية تتألف من سفن كثيرة لا أولها يعرف ، ولا آخرها يوصف ، فبالله ورسوله أدركونا بالرجال » وتوالت رسائله بالاخبار المتقطعة ، حتى قيل - كما روى أحد المؤرخين - أنه بلغ عدد الرسل الذين بعث بها السيد محمد كريم ، ثلاثة عشر رسولا فى يوم واحد ، وهو يوم الأحد أول يوليو

جاء فى كتاب تاريخ فرنسا الحديث ، الذى سبقت لنا الاشارة اليه ، البيان الآتى :

« ولما قرأ مراد بك التحرير الذى بعث به السيد محمد كريم غضب غضباً شديداً ورمى به الى الارض ، وهاج وماج ، وسار الى منزل ابراهيم بك (كان مراد بك بقصره

فى الجيزه، وابراهيم بك فى سرايه بقصر العينى ) واجتمع به مدة وشاع الخبر فى كل القاهرة فهاج الأهلون وخافوا، واجتمع الامراء والاعيان فى قصر ابراهيم بك، وحضر أبو بكر باشا والى الدولة العلية من القلعة السلطانية ، واجتمع كل قواد المماليك والاعيان، وهم ابراهيم بك الكبير ، ومصطفى بك الكبير ، وأيوب بك الكبير ، وابراهيم بك الصغير ، ومراد بك الصغير ، وسليمان بك أبو دياب وعثمان بك الشرقاوى ، ومحمد بك الالفى ، ومحمد بك المنوفى ، وعثمان بك البرديسى ، وعثمان بك الطوبجى ، وقاسم بك أبو شنب ، وقاسم بك أبو البحر ، والأمير مرزوق بن ابراهيم بك الكبير ، وعثمان بك الطويل ، ومن العلماء الشيخ السادات، والشيخ عبدالله الشرقاوى ، والشيخ سليمان الفيومى ، والشيخ مصطفى الصاوى ، والشيخ محمد المهدى ، والشيخ خليل البكرى، والسيد عمر مكرم نقيب الاشراف ، والشيخ العربى ، والشيخ محمد الجوهرى ، وكثيرون غيرهم وأخذوا يبحثون فى مجىء الفرنساويين وفتحهم الاسكندرية ويستغربون ذلك الامر جداً . أما مراد بك فكان يعلم أن الدولة العلية مغتاظة منه ولذلك قال لوزيرها ( أى للوالى ) « إن الفرنساويين لم يدخلوا هذه الديار الا باذنها » ( اعتمد مراد بك فى قوله هذا ، على العبارة الواردة فى منشور نابوليون بأنه قادم للقضاء على المماليك ، وانه صديق الدولة والسلطان الخ ) ثم قال أيضاً :

«ولا ريب أن حضرة الوزير يقدر أن يخبر نا بشىء عن ذلك غير أنه لا بد أن تسعفنا العناية على الاثنين» . ( يعنى الفرنسيس والترك ) فأجابه الوزير قائلا : أيها الأمير انه لا يليق بك أن تتكلم بمثل هذا الكلام ، لانه لا يمكن أن تسلم الدولة العثمانية لدولة نصرانية أن تستولى على بلاد اسلامية ، فدعوا عنكم هذا المقال ، وانهضوا جميعاً كالابطال ، وصادموا الذين أتوا ليفتحوا بلادكم » . وبعد ذلك أجمعوا رأيهم على أن يسجنوا قنصل فرنسا وجميع التجار الفرنساويين المقيمين بالقاهرة ، خوفاً من الخيانة فسجنوهم فى قلعة الجبل »

نقلنا هذه العبارة من كتاب الشيخ الحداح ، بنصها حرفياً لأن الجبرتى لم

يأت على شيء من هذا التفصيل، وهو إذ ذاك يقيم بالقاهرة، وله اتصال تام بكثير من الامراء والشيوخ الذين حضروا ذلك المجلس، وكل ما قاله فى ذاك الصدد «إنه اجتمع بابراهيم بك ومراد بك باقى الامراء والعلماء والقاضي وتكلموا فى شأن هذا الأمر الحادث، فاتفق رأيهم على ارسال مكاتبة بخبر هذا الحادث إلى اسلامبول، وأن مراد بك يجهز العساكر لملاقاتهم وحربهم، وانتضى المجلس على ذلك. وكتبوا المكاتبة وأرسلها بكر باشا مع رسوله عن طريق البر «ليأتيه بالترياق من العراق» اه. والعبارة الأخيرة مَثَل معروف فى مصر، والمراد به استحالة وصول المعونة من جانب تركيا، ويروى عادة بالتعبير الآتى: «على ما يأتوا بالترياق من العراق يكون العليل مات!» وذلك يدلنا على أن الجبرتى وأمثاله من المشايخ والمصريين، لم يكونوا مخدوعين فى قوة الدولة وأمكانها إسعاف مصر!!

وفى رواية عن كتب الفرنسيين أنه لما وصلت الأخبار الى القاهرة، بأن جيشاً من الكفار (كذا) هبط ارض مصر، وأن عدده كثير، وكل جنوده من المشاة وليس فيهم خيالة، طرب المماليك وكشافهم، وأنيرت القاهرة زينة، وقال المماليك ما هؤلاء الجنود الكفار إلا كحب «الفستق» للكسر والأكل» ولو كانواماية ألف لافنيناهم عن آخرهم» وأخذ كل واحد منهم يعد بقطع مائة رأس من رءوسهم!!! اه

فأما دعاوى المماليك، وغرورهم بأنفسهم، فقد يكون صحيحاً، وأما إن القاهرة أنيرت للزينة فغير صحيح، إلا أن تكون الإنارة من الخوف والفزع!!

ورواية الجبرتى فى هذه النقطة أصدق الروايات، وهو القائل: «وفى أثناء خروج مراد بك والحركة، حركة الاستعداد، بدأت الوحشة فى الاسواق، وكثر الهرج بين الناس والارجاف، وانقطعت الطرق، وأخذت «الحرامية» فى كل ليلة تطرق أطراف البلد، وانقطع مشى الناس والمرور فى الطرق والاسواق، من المغرب. فنادى الاغا والوالى بفتح الاسواق والقهاوى ليلا، وتعليق القناديل على البيوت والدكاكين»

وأخذ مراد بك فى الاستعداد للسفر لمقاومة الفرنساويين. قال الجبرتى وهو

شاهد عيان « وأخذوا فى الاستعداد للثغر» (ربما كان الاصل للسفر) وقضاء اللوازم والمهمات فى مدة خمسة أيام، فصاروا يصادرون الناس، ويأخذون أغلب مايحتاجون اليه بدون ثمن. ثم ارتحل مراد بك بعد صلاة الجمعة وبرز خيامه ووطاقه الى الجسر الاسود، فمكث به يومين حتى تكامل العسكر وصناجقه، وعلى باشا الطرابلسى وناصف باشا، وأخذ معه عدة كثيرة من المدافع والبارود وسار من البر مع العساكر والخيالة. وأما الرجالة (الراجلون أى المشاة وهم الالداشات القليونجية والاروام والمغاربة)، فانهم ساروا فى البحر مع الغلايين الصغار التى أنشأها الامير المذكور »

فيؤخذ من رواية الجبرتى أن مراد بك تحرك بالجيش الذى جمعه من الخيالة براً، والمشاة بحراً فى النيل، فى يوم الاحد ١٤ محرم، ٨ يوليو، بدليل قوله بعد ذلك « وفى يوم الاثنين وردت الاخبار بأن الفرنسيس وصلوا الى دمنهور » وفعلا كان وصول نابوليون لدمنهور فى الساعة الثانية من صباح يوم ٩ يوليو. وكانت مقابلة الجيش الفرنسى لمراد بك وجنده وقواربه، عند شبراخيت فى يوم الجمعة ١٣ يوليو فكأن مراد بك قضى أربعة أيام فى السير من الجيزة الى شبراخيت

ولم يرد فى الجبرتى، ولا فيما كتب بعده، أدنى بيان لمقدار القوة التى سار بها مراد بك. ولا غرابة أن لايذكر الجبرتى عدداً معيناً فما نظن أن مراد بك نفسه كان يعرف عدد جنوده من خيالة ومشاة، وهكذا كان نظامهم!! الا أن الشيخ الدحداح، وهو كما قلنا ناقل عن المصادر الفرنسية يقول: إن مراد بك ركب فى جيش جرار يفوق العشرين ألف مقاتل وجمع غفير من فرسان الغز والبدو وسار بهم الى الرحمانية » وهذه مبالغة غير معقولة. وكذلك (لاكروا) وهو ناقل من المصادر الرسمية الفرنسية، يقول إن مراد بك برح القاهرة فى ٦ يوليو (يوم الجمعة الذى ذكره الجبرتى) ومعه ثلاثة آلاف من المماليك الخيالة وألفين من الانكشارية المشاة وعدد كبير من السفن يبلغ نحو الستين، منها خمسة وعشرون مسلحة، وقوة من المماليك قابلت الجنرال ديزيه ( Desaix ) عند دمنهور

فمجموع هذه القوة لا يزيد على ثمانية آلاف، كما اعترف بذلك نابوليون

فى مذكراته التى أملاها فى سانت هيلانة . فعبارة الشيخ الدحداح مبالغ فيها بلا نزاع . ويقدر المستر كامرون فى كتابه الذى سبقت الاشارة اليه ، فى مقدمة هذا الكتاب ، قوة المماليك فى ذلك الحين بعشرة آلاف خيال وثلاثين ألف باشبوزق (جندى غير نظامى ) ، وهذا التقدير غير مضمون الخطأ ، خصوصاً والمستر كامرون ليس من الموقنين فى صحة الارقام ، الا ما كان خاصاً بالقوى الانكليزية لوقوفه عليها فى المصادر الرسمية ، فقد قدر قوة الحملة الفرنسية بأربعين ألفاً من خيرة الجنود ، وهو كما عرف القراء مبالغ فى نحو الربع . وان صعب تحقيقه للقوة الفرنسية، فتحقيقه لقوة المماليك أصعب! وثابت فى أقوال كتاب الفرنسيين، وهم أحق بالمبالغة فى قوة المماليك ، ـ ليباهوا بما حازوه من فخار وانتصار ، ـ أن قوة المماليك لا تزيد على ثمانية آلاف وخمسمائة خيال من المماليك أخذ منها مراد بك نحو خمسة آلاف، وبقى الباقون فى القاهرة. وأما الباشبوزق، وهم الجنود غير النظاميين، من خدم المماليك وأتباعهم ( الالداشات ) ، فلا يسهل تعدادهم ، ولا تظنهم يزيدون عن العشرين ألفاً ، وهم لايساوون ألفاً من الجنود المنظمة

قال كامرون: إنه لما وصلت الاخبار القاهرة هزأ المماليك بفكرة الغارة الفرنسية على مصر ، وأرسل مراد بك للقنصل الفرنسى روستى[1] وأخذ يستفسره عن الغرض من غزوة الفرنسيين وأخذ يسب الفرنسيس ويشبههم بالمكارين (الحمارة) قائلا للقنصل « أعطهم قليلا من المال ودعهم يذهبون لأنى لاأريد أن أوذيهم » وعبثاً يحاول القنصل تفهيمه أن قائد الحملة الفرنسية ، هو نابوليون بونابرت بطل واقعة ( اركولا ) ، ذلك الذى دوخ النمسا فى سهول لومبورديا ! فلم تكن لمراد بك معرفة بالجغرافيا ولا بالممالك ..!!!

نترك مراد وجيشه، سائراً لملاقاة نابوليون وجنوده عن طريق الفرع الغربى من النيل، ونعود إلى متابعة الحملة الفرنسية فى سيرها ، بعد أن تركناها تستعد للحركة من الاسكندرية لدمنهور

---

(١) هو بعينه روستى الذى كان تابعا لعلى بك الكبير استخدمه الفرنسويون قنصلا لهم فى غيبة ماجلون الذى كان فى فرنسا وحضر مع نابوليون فى الباخرة (اوريان)

## « من الاسكندرية الى الرحمانية »

فى اليوم السادس من شهر يوليو برح الجنرال فيال Vial الاسكندرية متوجهاً إلى دمنهور على نفس الطريق التى سار فيها الجنرالات ديزية ، وبون ، ورينيه ، ماراً بالبيضة والكريش وبركة غطاس . وسار الجنرال مينو بحملة منظمة للاستيلاء على رشيد . ورتبت عمارة بحرية من السفن الخفيفة المسلحة تحمل الزاد والذخيرة والمدافع والمهمات للسفر من مصب النيل متجهة جنوباً ، لكيما تلتقى مع الجيش عند الرحمانية ، وعهدت رياسة هذه العمارة للكولونيل ( بريه ) وكان معه الجنرال اندرويسى Andreossy ، قومندان عموم المهمات ، مع ضباط آخرين من البحرية . وكان مجموع القوى التى تحركت من الاسكندرية ورشيد واحداً وعشرين ألفاً على رواية أصدق المصادر ، بين طوبجية وبيادة وسوارى وبحرية

وفى الساعة الخامسة تماماً من مساء يوم الاثنين ٩ يوليو الموافق ٢٥ محرم برح نابوليون بونابرت وهيئة أركان حربه ، مدينة الاسكندرية عن طريق الصحراء إلى دمنهور

وكانت مقدمة الجيش تحت قيادة الجنرال (ديزيه) ، أول من برح الاسكندرية كما قلنا ، مع قوة مؤلفة من أربعة آلاف وستمائة مقاتل . وقد قاسى هذا القائد وجنوده ، من شدة الحر وقلة الماء وصعوبة السير فى الرمال ، مر العذاب ، وكان العربان قد ردموا الآبار ، وألقوا فيها النطرون المالح حتى صار ماؤها مراً وحامضاً ، ولم تكن المنطقة الخصبة الواقعة الآن بين دمنهور واسكندرية ، كما هى اليوم بعد مد السكة الحديدية ، وتطهير المصارف ، وحفر الترع والمساقى ، بل كانت خراباً ينعق على أطلالها البوم ، ليس فيها الا بضعة أكواخ وعشش للعربان وقطاع الطريق ، فداخل قلوب الجنود الفرنسيين الكدر ، وشملتهم الكآبة ، ولم يجدوا فى تلك المهامه القفر ما كان يمنيهم به رؤساؤهم ، من أرض مثمرة ، وأنهار جارية ،

وأشجار معشوشبة، حتى أضطر (ديزيه) وهو القائد البطل الصبور، كما يدل على ذلك تاريخه ، أن يكتب لنابوليون قائلا : «اذا لم يجتز الجيش الصحراء بأسرع مايمكن فقدقضى عليه بالفناء»!!وعلى رواية بوريين، سكرتير نابوليون، أنه أى (ديزيه) كتب يقول: « اماأن تأمرنا بالعودة إلى الوراء أو المسارعة فى السير، فان البقاء فى هذه الصحارى مستحيل وقد بدأ الجنود يتذمرون ويتململون » . . . وشتان بين هذه الأرض الجرداء المحرقة ، خصوصاً فى شهر يوليو ، وبين سهول لومبارديا فى شمال ايطاليا، أو مناظر التيرول فى جنوب النمسا !! ( تلك المناطق التى كانت تحارب فيها هذه الجنود ). ولهذا يطعن كتاب الانجليز ـ( الذين ما كانوا يريدون لنابوليون نجاحاً)ـ على المماليك لعدم إسراعهم لمناكبة الحملة الفرنسية فى سيرها بين دمنهور والاسكندرية . أما نابوليون فإنه بعد أن برح الاسكندرية فى الساعة الخامسة مساء استمر مع هيئة أركان حربه سائراً طول ليله فى جو مقمر ، إلى أن اختفى القمر فى الساعة الثالثة صباحاً فسار فى الظلام ، وكاد يروح ومن معه ضحية لرصاص جنود فرقة من الفرق المعسكرة فى النقط الأمامية، إذ خيل للحراس أنهم هوجموا فنادوا بالتأهب ، وأطلقت البنادق من الفريقين مدة ما حتى سمعت الأصوات ، وتبودلت العبارات والإشارات ، وسار نابوليون فى طريقه إلى أن لاحت لانظاره بلدة دمنهور فى الساعة الثامنة صباحاً. فيكون قد قضى راكباً حوالى ستة عشر ساعة ، دون راحة!! وكانت دمنهور فى ذلك الزمن بلدة حقيرة تحيط بها أشجار نخيل وسنط كثيرة ، وفيها بعض المساجد ، وحولها بعض تلول عليها قبور وأضرحة للأولياء، وكان (ديزيه) قد احتل البلدة بلا مقاومة.وهناك استقبل نابوليون فى دار ، قال عنها المؤرخون الفرنسيون ، إنها أشبه بزريبة لا نوافذ ولا أبواب لها ، وهناك اجتمع شيخ البلد والكشاف والمشايخ وبعض أعيان البلدة ، فقدموا له جرعة من اللبن ، ولقمة من الفطير الذى يسميه الفلاحون «الدماسى» أى المسوى تحت رماد النار!!فما كان أوسع الفرق بين تلك الدار الحقيرة ، وقصور إيطاليا وزخارفها !!

وحكي بوريين فقال : « لما وصلنا دمنهور اتخذت هيئة أركان الحرب داراً كانت لأحد أعيان البلد مقراً لها ، وكان ظاهر هذه الدار حسناً ، لأنها مبيضة بالجير ، ولكن داخلها كان متهدماً ، ينم على فقر ومسكنة ، وكان نابوليون قد علم أن صاحب الدار ذو ثروة ، فلذلك سأله ، بعد أن طمأن خاطره بواسطة المترجم : لماذا يحرم نفسه من التمتع برفاهية العيش ما دام غنياً وقادراً على ذلك ؟ وأكد له المترجم أن صدقه يفيده ولا يضره ، فلما اطمأن خاطر الرجل قال « انظر إلى قدمي ! منذ بضع سنوات أصلحت داري ، وابتعت بعض الأثاث ، فوصل خبر ذلك إلى مسمع الحكام فى القاهرة ، فطلبونى وطالبونى بالمال ، لأنهم اعتقدوا أننى ذو ثروة ويسار ، فلم أعطهم ما أرادوا ، فعاقبونى بالضرب إلى أن أعطيتهم ما طلبوا ، ولكن بعد أن انكسرت رجلى كما ترون . ومن ذلك الحين هممت أن لا تكون لى دار غير هذه الدار الخربة ، والويل ثم الويل ، لمن يُعرف أنه غنى فى هذه البلاد ! ! وأضمن الأحوال للسلامة هو الفقر أو ادعاء الفقر »

واستمر الجيش فى طريقه قاصداً الرحمانية ، حتى وصلها فى نفس ذلك اليوم ١٠ يوليو ، ولما وقعت عيون الجنود على نهر النيل فرحوا وطربوا ، وخلع الكثيرون من الضباط والجنود ملابسهم ، ونزلوا للاستحمام بماء النيل . ووصل بونابرت وهيئة أركان حربه ، واستقر معظم الجيش فى جوار الرحمانية وعلى شاطىء النيل طلباً للراحة ، حتى تصل العمارة البحرية التى قامت من رشيد كما سبق لنا القول

وكان المماليك قد سارعوا بإرسال نحو خمسماية خيال على جناح السرعة لتعويق نابوليون عند دمنهور ، فوصلت هذه القوة بعد أن ارتحل معظم الجيش الفرنساوى ووصلت مقدمته الى الرحمانية ، ولم يبق إلا فرقة الجنرال ديزيه ، التى تركت فى المؤخرة ، فالتقى المماليك بالفرنسيين ، ودارت معركة غير مهمة بين دمنهور والرحمانية ، خسر فيها الفرنسيون أربعة من الجنود ، وخسرت تلك الفصيلة من المماليك نحو خمسين .

وقد خلط الشيخ الحداح ، فيما ترجمه فى كتابه تاريخ فرنسا الحديث ، فروى حكاية التمرد الذى وقع بين الجنود الفرنساوية ، وكاد يؤدى إلى مالا تحمد عقباه ،

كأنها وقعت فى المنطقة بين الاسكندرية ودمنهور ، وهذا غير صحيح . ورواية هذا التمرد ستأتى فى مكانها بعد انهزام المماليك فى واقعة شبراخيت ، وقبل وصول الجيش الفرنساوى لامبابة ، بنحو يومين ، كما رواه نابوليون نفسه تفصيلا ، فى مذكراته التى أملاها وهو أسير فى سانت هيلانة .

## موقعة شبراخيت

قال صاحبنا الجبرتى متهكما على مراد بك ( وما كان أكثر تهكمه عليه ) « ولما ارتحل من الجسر الأسود أرسل إلى مصر يأمر بعمل سلسلة من الحديد فى غاية التخن ( كذا ) والمتانة ، طولها مائة ذراع وثلاثون ذراعاً ، لتنصب على البوغاز عند برج مغيزل من البر الى البر ، لتمنع مراكب الفرنسيس من العبور لبحر النيل ، وذلك باشارة على باشا ، وأن يعمل عندها جسر من المراكب وينصب عليها متاريس ومدافع ظناً منهم أن الافرنج لا يقدرون على محاربتهم فى البر ، وأنهم يعبرون فى المراكب ، ويقاتلونهم وهم فى المراكب ، وأنهم يصابرونهم ويطاولونهم حتى تأتيهم النجدة ! »

وكيفما كان غرض الجبرتى من هذه العبارة فان مراد بك ، بعد أن ألقى تلك الأوامر ، سار بجيشه المؤلف من نحو ثلاثة آلاف فارس من المماليك ، والفين من الانكشارية ، ونحو ألف وخمسمائة أو ألفين من البحارة ، فى القوارب التى سبقت الاشارة اليها ، وتابع سيره ملازماً ضفة النيل حتى وصل الى قرية الطرانة وهناك وصلت اليه الاخبار بما تم للفرنسيين فى أرض مصر ، وعلم لأول مرة أن الجيش الفرنسى احتل رشيد وأن فرقة المماليك التى بعث بها الى دمنهور تفرقت شذر مذر ، بين تلك البلدة وبلدة الرحمانية ، وأن كتلة الجيش الفرنسى زاحفة على مصر

فسار الى شبراخيت وأخذ فى الاستعداد الحربى على قدر معرفته وكفاءته ، لملاقاة القوة الفرنسية ، فبدأ باقامة طابيتين فى بلدة شبراخيت ، ووضع فى كل طابية ٩ مدافع ، وأخذ كذلك فى حفر الخنادق حول تلك البلدة حيث وضع للدفاع عنها مشاته من الانكشارية ، ووقفت عمارته فى النيل منتظرة قدوم السفن الفرنسية

والآن نترك الكلام فى وصف هذه الواقعة المهمة، التى ذكرها الجبرتى فى بضعة سطور، وتابعه المؤرخون الحديثون — لنابوليون نفسه ، فيما أملاه من مذكراته وهو فى منفاه قال ما خلاصته

« كان الجيش فى يوم ١٢ يوليو عند الساعة السابعة مساء معسكراً عند قرية منية سلامه، على بعد فرسخ من الرحمانية ، وصدرت اليه الاوامر بأن يسير عند الساعة الواحدة صباحاً — لأنه كان من المهم كثيراً أن لا نعطى مراد بك الوقت الكافى للتحصن والتترس ، وجمع شتات جيشه ، فما كاد يظهر ضوء القمر حتى تحرك الجيش، ثم لم تأت الساعة الثامنة صباحاً حتى كان وجهاً لوجه مع جيش مراد بك المرتكز جناحه الأيمن، المؤلف من المماليك، على بلدة شبراخيت، وجناحه الأيسر يتألف من نحو ألفين من العربان ، ممتدين الى داخل الصحراء ، وكان مع كل مملوك ثلاثة أو أربعة من الرجال لخدمته وكذلك كان العربان فى حركة مستمرة منتقلين من مكان لآخر، بحيث يخيل للناظر أن هذا الخط مؤلف من خمسة عشر ألفاً الى ثمانية عشر ألفاً .

ولما التقى الجيشان أخذ كل فريق يرقب الآخر وكان الفرنساويون ينتظرون قدوم عمارتهم ، التى كانت لم تزل راسية بجوار الرحمانية ، ولا تستطيع السير قبل أن تهب رياح الشمال، وهى لا تهب قبل الثامنة صباحاً، وأخيراً سطعت الشمس بأشعتها الذهبية على خوذ المماليك وملابسهم ، فأظهرت تلك الجنود البديعة فى أجلى مظاهرها ، ودارت مناوشات بين الفرسان وبعضهم على الطريقة الشرقية أظهر فيها المماليك من البسالة والرشاقة، وخفة الحركات، ما ملأ صدورنا بالاعجاب والاجلال، فكان الفارس منهم، هو وجواده ، كأنه قطعة واحدة متماسكة ، وكأنما كان جواده يشاركه فى جميع عواطفه ومؤثراته وحركاته ، التى كان يقوم بها من إطلاق غدارته وسل سيفه، وإدارة جواده ، بمهارة ورشاقة تفوق الوصف »

ولا نستمر مع نابوليون فى أوصافه للحركات الحربية لهذه الواقعة ، مما هو فنى محض، ونكتفى بالقول بأن المعركة دارت على ثلاثة أدوار — الدور الأول هجمة قام بها المماليك ففتحوا بها ثلمة فى مربع فرقة الجنرال (رينيه)، وأخرى فى مربع الجنرال

( دوكا ) ولكن نيران المدافع ، وبنادق المشاة من الخلف ، ردتهم على أعقابهم بخسارة كبيرة . والدور الثانى المعركة البحرية فى النيل ، وذلك أن العمارة الفرنسية تحت قيادة الكولونيل بريه Perrée ، وصلت الساعة الأولى بعد الظهر فقابلتها السفن المصرية بنار حامية ، وكانت تلك السفن تحت قيادة على باشا الطرابلسى واحتدمت الحرب بين الفريقين فخسرت السفن الفرنسية خسارة كبيرة وكادت تدور الدائرة عليها . وهنا يقول نابوليون فى مذكراته « إن « بريه » أنقذ سفنه بحسن تصرفه ومهارته فى ادارتها . ويقول الجبرتى ومن تابعه ، نقلا عن أفواه المماليك طبعاً ، إن المصادفة هى التى قضت بفوز الفرنساويين ، ذلك لأن قنبلة من قنابلهم أصابت المركب التى تحمل ذخائر المماليك ، فاحرقتها وتطايرت اجزاؤها فى الفضاء ، فانذعر المماليك وخابت آمالهم . . .

وأما الدور الثالث فهو أن نابوليون لما أدرك الخطر المحدق بعمارته فى النيل أصدر أمره ، بتلك السرعة التى طالما أنقذته من مهالك شتى ، للبيادة بالهجوم على شبراخيت وقطع مواصلات الانكشارية الذين فيها عن المماليك ، فشعر أولئك بالخطر فولوا الأدبار بعد مقاومة قليلة ، واستمرت المعركة دائرة حتى الساعة السادسة مساء حيث انتهت بوصول الفرنسيين إلى بلدة « شابور » وتقهقر مرادبك ومن معه إلى القاهرة

وكانت خسارة الفرنسيين فى هذه الواقعة من ثلاثمائة إلى اربعماية ، بين قتيل وجريح ، وخسر المماليك مثل هذا القدر من الخيالة ، بين قتيل وجريح وأسير ، ونحو اربعمائة إلى خمسمائة من المشاة . ولقد كانت هذه الواقعة أول درس تلقاه المماليك عن الحرب مع الجيوش النظامية الأوروبية ، بعد أن كان يخيل لهم أنهم لا يغلبون ، وأن الحرب هى عبارة عن امتطاء صهوة الجواد ، وأطلاق القرابينه ، وإشهار السيف ... عرفوا عند ذلك أن العدو القادم عليهم لا يستخف به ، وأن شمس أيامهم قاربت الأفول

ومن الأدلة التى يجب أن تذكر للدلالة على كياسة نابوليون واجتذابه لقلوب قواده

وضباطه ، أنه لما علم بأن الـكولونيل بيريه البحرى جرح فى يده ، وفقد سيفه فى المعركة البحرية ، رقاه فى الحال الى رتبة « كونتر اميرال » وبعث له بالخطاب الآتى :

« أننى أبعث إليك يا مواطنى الجنرال بسيف عوضاً عن سيفك الذى فقدته فى واقعة شبراخيت ، فأرجوك أن تقبله منى برهاناً على اعترافى لك بفضل الخدم التى قمت بها للجيش فى فتحه مصر . » « بونابرت »

ولا شك أن خطاباً كهذا يفوح عبيره فى الجيش فيملأ قلوب القواد والضباط والجنود حبا لقائدهم ، ورغبة عظيمة فى التفانى فى خدمته وخدمة وطنهم..

قال نابوليون فى مذكراته عن هذه الواقعة .

« إن واقعة شبراخيت كانت مما يجلب الفخار للجيش الفرنسى . نعم إننا كنا عشرين ألف رجل ومعنا اثنان وأربعون مدفعاً فى ساحة الوغى ،ولم يكن أمامنا فى الحقيقة سوى ثمانية آلاف مقاتل ولـكن هذه كانت أول مرة وجد فيه الجيش الفرنسى نفسه امام أولئك الفرسان البواسل الأبطال »(1)

وغريب ان صاحب كتاب « حقائق الاخبار » يسمى هذه الموقعة الكبيرة واقعة الرحمانية ، ولم يقع فى الرحمانية منها شىء . وزيدان يخلط بين شبريس وشبراخيت ، والجبرتى لا يذكر اين مكانها ، بل يقول كعادته وردت الاخبار بحصول معركة . !

## من شبراخيت إلى امبابه

كان من السهل علينا أن ننتقل بالقارىء من واقعة شبراخيت إلى الواقعة التى يسمونها واقعة امبابه ، ويسميها آخرون واقعة الأهرام ، وغيرهم واقعة القاهرة ، وهى جديرة بأن تطلق عليها هذه الأسماء الثلاثة — لولا أن لنابوليون نفسه فى مذكراته ، عبارات فى غاية الأهمية عن الجيش الفرنساوى فى تلك المنطقة ، الواقعة بين شابور وامبابه ... تلك المنطقة التى قطعها الجيش المذكور فى ستة أيام أى من صباح ١٤ إلى صبيحة ٢٠ يوليو ( من السبت ٣٠ محرم إلى الجمعة ٦ صفر ) ، وليس لهذه المدة أثر

(1) " Çette belle et redoutable cavalerie "

فى الـكتب العربية ، لأن صاحبنا « الجبرتى » لاعلم له بها ، وكفاه ما كان فيه من هم وغم ، بعد وصول أخبار خذلان مراد بك فى واقعة شبراخيت ، أذ لم تعد تخفى الحقيقة عن سكان القاهرة ، على الرغم من دعوى المماليك عن تلك الواقعة الكبيرة « بأنه لم يقع فيها قتال صحيح وإنما هى مناوشة بين طلائع العسكرين بحيث لم يقتل إلا القليل من الفريقين » كما روى الجبرتى ، وذلك عن ألسنتهم ، وسجله فى كتابه ليكون للأعقاب مثلاً على مقدار مافى البلاغات الرسمية فى أيام الحروب من الصدق والكذب !!

بعد أن استراح الجيش الفرنسى فى شبراخيت وما جاورها على ضفة النيل يوم الجمعة ١٣ يوليو صدرت اليه الأوامر بالسير صباح اليوم التالى فوصلت مقدمته مساء ذلك اليوم إلى بلدة « كوم شريك » وفى تلك الجهـة يكثر البطيخ فى هذا الفصل من العام ، وأكثره منزرع فى الارض الرملية التى تقارب النيل فى تلك البقعة فأكل منه الجنود كميات كبيرة وطابت نفوسهم نوعاً ما

وفى الخامس عشر عسكر الجيش على النيل ثم سار نحو أربعة فراسخ ونصف حتى أدرك بلدة أبو نشابه وفى السابع عشر كان عنـد بلدة وردان وكان الجيش يسير ببطء زائد لاسباب كثيرة منها شدة الحر ، وصعوبة الحصول على المؤونة الكافية للجيش ، فى بلاد لحق أهلها الفقر المدقع ، وهاجر الكثيرون من سكانها ولم تبق فيها الا بقية لا تسمن ولا تغنى من جوع

وكان يتابع الجيش من بعيد بعض العربان الذين كانوا يتصيدون من يتطرف من الجنود الفرنسية ليقتلوه ، وليأخذوا سلاحه وما معـه من قليل أو كثير . فكانت كل هذه الامور وغيرها مما ينغص على الجنود حياتهم ، ويزيد فى ضيق أنفاسهم وكدرهم . وكما كان بنو اسرائيل حين جاوز بهم موسى البحر ، وأنقذهم من مظالم الفراعنة ، وأنزل عليهم المن والسلوى ، يتشوقون الى مصر ، ويحنون الى فولها وعدسها وقثائها وبصلها ، كذلك كانت الجنود الفرنسية ، كلما رأت الصحراء المحرقة ، والبلاد القاحلة ، حنت الى فرنسا ، وتذكرت ايطاليا ، وسهولها وجمالها

قال نابوليون فى مذكراته :

« ولقد غشت الكآبة نفوس الجنود فأخذوا يقارنون بين هذا الشعب البربرى الذى لا يحسنون التفاهم معه ، مساكن أولئك الفلاحين البؤساء الذين يشابهون ثيرانهم فى البلاهة والغباوة ، وهذه البلاد القاحلة العارية عن الظل والثمر ، وهذا النيل ، بل المجراة الحقيرة التى تحمل قليلا من الماء القذر الملوث بالطين ، وضموا إلى كل هذا أولئك العربان ، سكان الصحارى ذوى الأجسام الناحلة ، والقسوة المتناهية ، ونساءهم اللائى هن أكثر قبحاً وقذارة . . . . أخذ الجنود يقارنون بين كل هذا ، وبين سهول (لومبارديا) المزهرة المثمرة ، وأهالى فينيسيا الأرقاء الظرفاء وتزايدت شكوى الجنود من أنه جىء بهم إلى بلاد لا خبز فيها ولا نبيذ ، ولم يستمعوا إلى ما يقال لهم من أن هذه البلاد ، التى ترونها فقيرة ، قد كانت أغنى بلاد الدنيا ، وكانت خزانة الحبوب لروما والقسطنطينية ، وأنهم متى وصلوا إلى القاهرة وجدوا فيها ما يطلبون من مأكل وشراب ... فكان جوابهم على هذا :

« هكذا قلتم لنا فى الصحراء قبل دمنهور ، فغاية الأمر أن تكون القاهرة أكبر من دمنهور ثلاث مرات أو أربعاً ، أو مجموعة من العشش الحقيرة ، الفقيرة من كل ما يجعل الحياة مقبولة ومحتملة » .

وذكر أيضاً بونابرت أنه كان يدنو من الجنود ويخطب فيهم قائلا :

« إن النيل الآن فى آخر انخفاضه ، وانه بعد قليل من الزمن يفيض بالماء الكثير وسيدركون كل ما سمعوا عنه ، وبعد أيام قليلة ستكون لدى الجيش الطواحين والأفران لصنع الخبز ، وأن هذه الارض التى يرونها اليوم جرداء ، والتى يسيرون فوقها بصعوبة سيرونها عما قليل خضراء زاهية بالمزارع مما يذكرهم بخصوبة وادى النيل . وكانوا كلما استقر بهم المقام فى نقطة على النيل خلعوا ملابسهم ونزلوا للاستحمام ، ثم يأخذون بعد ذلك فى الجدل والسياسة والمناقشة واظهار الغيظ من تلك الحال فكانوا يقولون : « لأى شىء جئنا إلى هذه البلاد ؟ » لا شك أن حكومة (الديركتوار) قد أبعدتنا ونفتنا من بلادنا » وفى بعض الأحيان يلتفتون إلى الجهة التى فيها قائدهم (نابوليون) ، وكان دائماً يعسكر على ضفة النيل ،

ولا يتناول من الطعام أكثر مما يتناول أحقر جندى ، ويظهرون نحوه علائم الانعطاف والشفقة ، قائلين « لاشك أن رجال الحكومة أرادوا إبعاد قائدنا والتخلص منه ولكن كان يلزمه بدلا من أن يقودنا إلى هنا أن يأمرنا ونحن بأقل إشارة منه ، كنا نطرد أعداءه من تلك القصور التي يحكمون فيها كما سبق لنا طرد أعداء الجمهورية من مساكنهم ! »

وكان الجنود كلما رأوا العلماء قد ذهبوا إلى مكان أو جهة من الجهات للوقوف على بعض الآثار فى الطريق ، خيل لهم أن أولئك العلماء هم الذين حرضوا الحكومة على إرسال هذه الحملة ، فكانوا موضع سخطهم واحتقارهم ، وكانوا يلقبونهم « حمير العلماء »

وكان الجنرال كافاريلي رئيس فرقة المهندسين، له رجل مبتورة وضع مكانها رجلا من خشب ، يكثر من التنقل بين الجنود لتطمئن خواطرهم ، وليذكر لهم محاسن مصر وخيراتها فالتفت إليه أحد الجنود وقال له منكتاً متهكما : « أنت تقول كل هذا لتهزأ بنا، وأنت لك رجل فى فرنسا، قبل أن تكون لك رجل هنا » .!!

قال الراوى فانتقلت هذه النكتة من فرقة إلى فرقة حتى امتلأت بها أفواه الجنود ضحكاً وسخرية » اه

ولقد أطلنا فى نقل هذه العبارات من المصادر الفرنسوية لأهميتها من حيث هى من مذكرات ذلك القائد العظيم ، ولأنها توصف حالة كان عليها الجيش الفرنسى ، بحيث لو أتيح لقوة منظمة، ولو صغيرة، من المماليك أو غيرهم ، أن تلتقى بذلك الجيش ، وهو على ذلك الحال ، وفى تلك البقعة ، لكان من الممكن أن تتغير صفحة مهمة من صفحات التاريخ :

وفى التاسع عشر من شهر يوليو ( الخميس ٥ صفر ) وصل الجيش الفرنساوى الى أم دينار، على بعد خمسة فراسخ من القاهرة . وهنا لاحت له لأول مرة مناظر الاهرامات وبعض المآذن العالية من مساجد القاهرة

وفى اليوم التالى اصطف الجيش وصدرت له الاوامر بالاستعداد للمحاربة فى الواقعة الفاصلة ، التي سنفرد لها فصلا خاصاً .

# القاهرة قبل الواقعة

بين وصول مراد بك لامبابة، بعد هزيمته فى شبراخيت، وبين واقعة امبابة الفاصلة نحو خمسة أيام، نريد أن نأتى على وصف القاهرة فى خلالها، وعمدتنا فى هذه النقطة، هو صاحبنا الشيخ عبد الرحمن الجبرتى ، فان مايرويه فى هـذه النقطة صحيح الرواية ، لانه شاهد عيان، وأقوال مثله فى أوقات كهذه مما يحرص عليها المؤرخون، هذا فضلاً عن أن وصفه لحالة الشعب وحكامه فى ذلك الحين ، مما يعطينا صورة صادقة اللون للحالة الاجتماعية، والاخلاقية والنفسانية، للامة المصرية. وسنجتهد بقدر الامكان فى اختصار عباراته المطولة ، وفى الاقتصار منها على ما يساعدنا فى تكوين وتلوين الصورة التى نريد إبرازها فى هذه الصحائف

قال الجبرتى : إنه لما وصلت الأخبار بانهزام مراد بك ، اشتد انزعاج الناس وكان العلماء يجتمعون بالازهر كل يوم، ويقرأون البخارى وغيره من الدعوات ، وكذلك مشايخ فقراء الاحمدية والرفاعية والبراهمة ( لا يريد البراهمة الهنود، بل اتباع سيدى ابراهيم الدسوقى المعروف) والقادرية والسعدية، وغيرهم من الطوائف، وأرباب الاشاير ، ويعملون لهم مجالس بالازهر ، وكذلك أطفال المكاتب ، ويذكرون الاسم اللطيف وغيره من الاسماء ( يعنى بهذا تلاوة أسماء الله الحسنى )

قال عن يوم الاثنين ١٦ يوليو ( ٢ صفر ) ، وبعد ذكره خبر وصول مراد بك إلى امبابه، وشروعه مع بقية الامراء فى إقامة المتاريس ، وترتيب الجنود حتى صار البر الغربى والشرقى مملوئين بالمدافع والعساكر والمتاريس والخيالة والمشاة قال « ومع ذلك فلم تكن قلوب الامراء مطمئنة ، إذ شرعوا فى نقل امتعتهم من البيوت الكبار المشهورة، إلى البيوت الصغيرة التى لا يعرفها أحد، واستمروا طول الليالى ينقلون الامتعة ويوزعونها على معارفهم وثقاتهم ، وأرسلوا البعض منها إلى بلاد الارياف ، وأخذوا فى تشهيل الاحمال ، واستحضار دواب الشيل وأدوات الارتحال»

وهذا من الأدلة القاطعة على أن أمراء المماليك قد داخلهم الفزع والخوف ،

وأنهم لم يكونوا واثقين من أنفسهم ، ولا من قادتهم ، وأنهم ما كانوا يحرصون على ملك ، ولا يشعرون بعاطفة قومية أو دينية أو وطنية ، ولا فكروا فى قبور أسلافهم ، ولا فى معابد دينهم ، حتى ولا فى أعراضهم ، كما يشعر كل قوم يداهمهم عدو أجنبى عن جنسهم ودينهم وخلقهم ، وكان كل همهم محصوراً فى الحرص على مقتنياتهم وأموالهم التى سلبوها من المصريين المساكين!! وعندى أن مراد بك على الرغم من أنه أشجع الجميع ، وأحقهم بشىء من الثناء لمدافعته ومقاومته ، ما أسرع بالفرار الى القاهرة ، بعد واقعة شبراخيت ، الا ليجمع ما لديه من مال وخول ، ليهرب الى الصعيد !! فقد روى الجبرتى : أن مراد بك بعد واقعة امبابه الاخيرة فرّ إلى الجيزة ولم يقض فى قصره أكثر من ربع ساعة ، وأنه قد أعد غليونه الكبير وجمع فيه كل ما يريد الحرص عليه ، وأنه اضطر الى حرق ذلك الغليون لما عجز عن سيره لقلة الماء فى النيل ؛ ورووا عن ابراهيم بك أنه أعد فى السفن كثيراً من خيراته ومقتنياته

ومن الغريب فى أمر أولئك المماليك أنهم فى ذلك الظرف العصيب ، حرموا على غيرهم ما أحلوه لانفسهم ، فقد روى « الجبرتى » أنه لما رأى الاهالى منهم ذلك الخوف ، والسعى فى تخبئة أموالهم ومقتنياتهم ، أرادوا الاقتداء بهم ، فمنعهم الامراء ( المماليك ) وهددوهم بالقتل ، ولولا ذلك لما بقى بمصر من أغنيائها أحد .

وإلى القارىء صفحة من صورة القوم فى ذلك الحين ، كما وسمها الجبرتى بريشة قلمه الساذج ، قال : « وفى يوم الثلاثاء ( ١٧ يوليو ) نادوا بالنفير العام لخروج الناس للمتاريس ، فأغلق الناس الدكاكين والاسواق ، وخرج الجميع لبرّ بولاق ، فكانت كل طائفة من طوائف أهل الصناعات ، يجمعون الدراهم من بعضهم ، وينصبون لهم خياماً ويجلسون فى مكان خرب ، أو مسجد ، ويرتبون لهم قيماً ليصرف عليهم مايحتاجون له من الدراهم التى جمعوها من بعضهم ، وبعض الناس كان يتطوع بالانفاق على البعض الآخر ، ومنهم من يجهز جماعة من المغاربة أو الشوام بالسلاح والأكل وغير ذلك بحيث أن جميع الناس بذلوا مافى وسعهم ،

وفعلوا ما فى قوتهم وطاقتهم ، وسمحت نفوسهم بانفاق أموالهم ، فلم يشح فى ذلك الوقت أحد بشىء يملكه ، ولكن لم يسعفهم الدهر » ..!!

ولعمرى إن هذا لدليل ناصع على وطنية كامنة فى نفوس المصريين لا تحتاج إلا الى التهذيب والارشاد وحسن القيادة، اذ لم ينقصهم التضامن فى تكوين فئات ، وجمع شتات، وتسليح القادرين، وانفاق المال عن طيب خاطر ... ولكن ماذا تنفع هذه الفوضى والجهل ، أمام النظام والعلم ؟ !

والى القارىء صورة أخرى.. قال صاحبنا الجبرتى: «وخرجت الفقراء وأرباب الأشاير بالطبول والزمور ، والاعلام والكاسات ، وهم يضجون ويصيحون ، ويذكرون بأذكار مختلفة ، وصعد السيد عمر أفندى ( مكرم ) نقيب الاشراف الى القلعة، فأنزل منها بيرقاً كبيراً ، سمته العامة « البيرق النبوى »، فنشره بين يديه من القلعة الى بولاق . وحوله ألوف من العامة بالنبابيت والعصى يهللون ويكبرون ، ويكثرون من الصياح . . . . وجلس مشايخ العلماء بزاوية على بك ببولاق يدعون ويبتهلون إلى الله بالنصر »

قال : «وانقطعت الطرق، وتعدى الناس بعضهم على بعض، وأما بلاد الارياف فانها قامت على قدم وساق يقتل بعضهم بعضاً ، وينهب بعضهم بعضاً ، وكذلك العرب غارت على الاطراف والنواحى، وصار قطر مصر ، من أوله الى آخره ، فى قتل ونهب ، وإخافة طريق ، وقيام شر ، واغارة على الاموال . . . . وحاول العامة التعدى على النصارى واليهود فمنعهم الحكام ، ولولا ذلك المنع لقتلهم العامة وقت الفتنة »

ولم يغب عن الجبرتى أن ينتقد نظام المماليك الحربى ، ويهزأ بهم ، وبسوء تصرفهم ، وعدم قيامهم بما يلزم لحماية البلاد ، فقال : « فى كل يوم تكثر الاشاعة بقرب الفرنسيس إلى مصر ، فمنهم من يقول إنهم واصلون من البر الغربى ، ومنهم من يقول بل يأتون من الشرقى ، ومنهم من يقول بل يأتون من الجهتين ، وهذا وليس لاحد من أمراء العساكر همة تحمله على أن يبعث جاسوساً ، أو طليعة تناوشهم

القتال قبل دخولهم ، وقربهم ووصولهم الى فناء مصر ، بل كل من ابراهيم بك ومراد بك جمع عسكره ، ومكث مكانه لا ينتقل عنه ، ينتظرون ما يفعل بهم ، وليس ثم قلعة ولا حصن ، ولا معقل ، وهذا من سوء التدبير ، وإهمال أمر العدو » ! ! فالشيخ الجبرتى الازهرى ، يقول فى ذلك الزمن ، بما يقول به كتاب الانكليز الخبيرون عن اهمال المماليك أمر مناوشة نابوليون وجيشه ، خصوصاً فى جهات الصحراء ، وفى النقط التى ضاقت فيها صدور الجنود ، وكرهوا مصر وفتحها ! ! ولو أن قوة هاجمت الفرنساويين من ورائهم عند (وردان) مثلا ـ فان مواصلاتهم مع شبراخيت والرحمانية لم تكن على ما يرام ـ لاضرت بهم ضرراً بليغاً ، ولربما ألحقت بهم الفشل والانهزام

قال المستر كامرون فى كتابه : « ولقد أضاع المماليك الفرص الثمينة فان نابوليون ترك حراً فى تسيير جنوده ، وهم منهوكو القوى فى الصحراء حتى دمنهور ، ثم كذلك فى الوصول الى النيل دون أن يضطر الى مقاومة فى الحصول على الماء ، ولما انهزم مراد بك فى شبراخيت عاد الى القاهرة وجمع معظم قوته عند امبابه ، ولم يتخذ أقل الوسائل لمناوشة عدوه وحرمانه من النوم والراحة ، ولا عمل شيئاً يؤدى الى تجريد السكة التى سار فيها جيش العدو من الزرع ، ثم لم يكن ثمت من داع لمحاربة عدوه فى الجهة الغربية من النيل ، بل ما كان على مراد بك الا أن يتحول بجيشه الى الجهة الشرقية تحت أسوار العاصمة ، وأن يجبر نابوليون على عبور نهر النيل فى نقطة واسعة شديدة التيار بين امبابه وبولاق ، أو الجيزة ومصر ، فى ظروف غير ملائمة لمصلحة الفرنساويين . كل هذه الفرص أضاعها مراد بك كبرياء وجهلا ، وألقى نفسه غنيمة باردة فى يد المغير على بلاده »

وكذلك لم يخل الجبرتى المماليك أصحابه من قاذع اللفظ ، ومر القول ، إذ وصفهم بعد ذلك فقال : « وفى يوم السبت ٢١ يوليو وصل الفرنسيس الى أم دينار ، فعندها اجتمع العالم العظيم من الجنود والرعايا والفلاحين المجاورة بلادهم لمصر ، ولكن الاجناد متنافرة قلوبهم ، منحلة عزائمهم ، مختلفة آراؤهم ، حريصون

على حياتهم ، وتنعمهم ورفاهيتهم ، مختالون فى ريشهم ، مغترون بجمعهم ، محتقرون شأن عدوهم ، مرتبكون فى رؤيتهم ، مغمورون فى غفلتهم ، وهذا كله من أسباب ما وقع من خذلانهم وهزيمتهم »

والذى يؤيد عندك صدق عبارة الجبرتى فى قوله « حريصون على تنعمهم ورفاهيتهم » ان الجنود الفرنساويين وجدوا فى خيام المماليك ، وفى عامة معسكرهم الذى أقاموه فى جهة امبابه ، بعد الفشل والهزيمة ، من فاخر الرياش ، وأصناف السجاجيد الفارسية ، والاوانى الغالية الفضية والصينية ، ما دل على أن أولئك القوم ما فارقوا نعيمهم ، ولا ملذاتهم ، الى اللحظة الاخيرة التى يدافعون فيها عن ذلك النعيم ، والخير العميم ، بل عن أرواحهم وأعراضهم ، وسيأتى ذلك فى مكانه بعد وصف الواقعة التى قضت على تلك العصبة فلم تقم لهم بعدها قائمة تذكر .

ولننتقل الى الجانب الآخر قبل الواقعة ... جاء فيما أملاه نابوليون فى سانت هيلانه ما يأتى : —

« فى ١٩ يوليو وصل الجيش الى قرية أمدينار تجاه ملتقى فرعى الدلتا ، وعلى بعد خمسة فراسخ من القاهرة فشاهد الجيش لاول مرة الاهرامات وصوبت النظارات لرؤية هذه الآثار القديمة

استراح الجيش فى اليوم العشرين من شهر يوليه ثم صدرت له الاوامر بالتأهب لخوض المعركة

وكان العدو قد عسكر على الضفة اليسرى لنهر النيل تجاه القاهرة بين امبابه والاهرامات بجيش عرمرم من المشاة والفرسان ، تحرسه عمارة بحرية ، وبين سفنها فرقاطة تحمى معسكره . أما العمارة البحرية الفرنسية فقد بقيت فى المؤخرة لان النيل كان منخفضاً ولابد من الاستغناء عن الامدادات التى يجب أن تنقل بواسطته .

اعتز المماليك والاغوات والبحارة بكثرة عددهم وحسن موقعهم ، وملأت الحماسة قلوبهم ، وشجعتهم نظرات امهاتهم وأولادهم وزوجاتهم ، فبات الرجاء يملأ أفئدتهم . وكانوا يقولون إن تحت الاهرامات التى بناها أجدادهم سيلقى الفرنسيون حتفهم ، وسيحفرون قبورهم ، ويحل القضاء بهم !! »

# الواقعة

## واقعة امبابه

على الرغم من رغبتنا الشديدة في تحاشي الخوض في تفصيل الحركات العسكرية، كما سبقت لنا الاشارة إلى ذلك، فاننا لم نر مناصاً من وصف معركة امبابه ، وصفاً يليق بمنزلتها من التاريخ

حقيقة إن واقعة امبابه ، على عظيم أهميتها ، لا تعد من الوقائع الفاصلة في تاريخ الجنس البشرى ، لان المعركة التي يسمونها « الفاصلة » هي معركة يترتب على نتيجتها تغيير كبير في الامم والدول ، وأنه لو تمت على خلاف ما تمت ، لكان الفرق هائلا ، وربما غير سطح البسيطة بسبب ذلك

وللمؤرخين اهتمام بالمواقع الفاصلة في التاريخ، ولهم فيها كتب خاصة. ولا بأس أن نذكر على سبيل الاستئناس أن من الوقائع الفاصلة في تاريخ الجنس البشرى واقعة اليرموك، وواقعة القادسية ... الاولى قضت على السلطة الرومانية المسيحية ، في آسيا الصغرى، والثانية قضت على الدولة الفارسية، والديانية الزردشتية. ومن هذه الوقائع الفاصلة في التاريخ القديم ، واقعة ترموبلى ، بين الفرس واليونان . وفي تاريخ القرون الوسطى، واقعة فتح القسطنطينية، وواقعة ارتداد السيل التركى حول فيناء ومن هذه الوقائع أيضاً في تاريخ الاسلام، واقعة عبد الرحمن الثالث مع « شارل مارتيل » في سهول « طورس » ، ومنها في تاريخ اوربا واترلو، وسيدان ، والمارن

ولا تعد واقعة امبابه من الوقائع الفاصلة ، لانه لو تغير « الطابق » وقهر نابوليون فيها ، لامكنه الرجوع الى الوراء ريثما ينظم نفسه ، ويعيد الكرة ، وكان في إمكانه على فرض فشله نهائياً ، أن يعود الى سفنه في الاسكندرية بعد أن يخسر ربع أو نصف جيشه ، ولم يكن نلسون قد حطم العمارة في ابى قير وقتئذ ، اللهم الا اذا كان انتصار المماليك في امبابة حاسما بالقضاء المبرم على نابوليون وجيشه ، ولم يك ذلك من الامور التي تدخل في حيز الممكنات ، ويضعها المؤرخون المدققون

موضع الاهتمام ، لما كان ثمت من الفرق العظيم بين كفاءة القواد ونظام الجنود ، والفرق بين الاسلحة . ولكن لو حدث ذلك على فرض المستحيل ، كما يقولون ، اذاً كانت تعد واقعة امبابه من الوقائع الفاصلة الهائلة ، واذاً لما كانت الامبراطورية الفرنسوية الاولى ، ولا الثانية ، ولما كانت مواقع أوسترليتز ، وجنا ، ومارنجو ، وواترلو ، ولما كان ثمت من ضرورة للاتيان بجيش عثمانى ، ولا انتقل محمد على من بلدته قوله ، ولعاش ومات لا يعرفه الا « أهل بلده » كما يقال فى الامثال

***

لم تصل أخبار معركة امبابه للمؤرخ الجبرتى ، وهو صحفى تلك الايام ، الا متقطعة من أفواه الناجين من الجند والكشاف والمماليك ، ولذلك كانت روايته عنها مضطربة ، فبينا يقول « ان الحرب والقتال استمر ثلاثة أرباع الساعة » تراه يناقض نفسه فيقول ، إن الحرب بدأت من وقت القائلة ( حوالى الساعة عشرة أو أحد عشرة صباحاً ) ، ثم يذكر أن الحرب استمرت إلى المساء تقريباً . فنحن أمام هذا التناقض فى المصادر العربية ، نعتمد على الروايات الفرنسية ، وعلى مذكرات نابوليون ، ومذكرات بوريين وأشباهه ، وخلاصة أقوالهم تظهر فيما يأتى : —

كانت قوة المماليك من مشاة وخيالة ، ممتدة بين امبابه ونقطة الاهرام ، بحيث كان جناح هذا الجيش الايمن مؤلفاً من نحو عشرين ألفاً من الانكشارية والجندرمة ، والالداشات والرجالة والعربان ، وهذا الجناح قائم وراء خنادق أو متاريس أقاموها بسرعة كبيرة فى خلال الايام الاربع منذ عودة مراد بك إلى امبابه . وكان مع هذا الجناح من المشاة نحو أربعين مدفعاً من طراز قديم ، مثبتة على أرصفة أعدت لذلك ، بحيث لا يستطاع نقلها من جهة إلى أخرى ، ولا تحويل طلقاتها الى اتجاه مخصوص غير ما أعدت له ، بخلاف مدافع الفرنساويين ، التى هى من نظام حديث ، وتجرها الخيول ، وتحملها الجنود ، من مكان الى آخر حيث تقضى به مصلحة الموقعة . وهذا الجناح الأيمن مرتكز على شاطىء النيل شمالى قرية امبابه ، ثم يتألف قلب الجيش من نحو عشرة آلاف مملوك ، ونحو ألفين من

الأغوات ، والشوربجية ، وبعض الخيالة من المصريين ، ومع كل طائفة أتباع وخدم ، وكان على الجناح الأيسر بضع آلاف من العربان الخيالة منتشرين الى نقطة الاهرام

وكانت السفن المصرية التي كانت فى واقعة شبراخيت ، وما انضم إليها من الغلايين ممتدة فى النيل من امبابة إلى بولاق، ووراءها سفن وقوارب عديدة رافعة شراعها ، حتى كان المنظر فى البقعة، الواقعة من امبابة إلى الجيزة من جهة الغرب، ومن بولاق إلى مصر العتيقة من جهة الشرق ، فى نهر النيل ذلك اليوم، مما يأخذ بالأبصار حتى وصفه أحد الكتاب الفرنسيين فقال أن تلك المنطقة بهاتيك الأشرعة كانت كأنها غابة باسقة الاشجار ..!! وعلى الضفة المقابلة لامبابة ، أى على شاطىء بولاق وما وراءه من جهة قصر النيل والقصر العينى إلى مصر العتيقة ، خرج سكان القاهرة رجالا ونساء، وأرباب الطرق والأشاير، بالطبول والزمور كأنهم فى مولد من الموالد المشهورة فى مصر

ولم نقف على بيان واف للنظام الذى وضعه ابراهيم بك للجنود التى بقيت لحماية القاهرة ، ذلك لأن هذه الجنود لم تفد فائدة ، ولان ما وضع من النظام من الجهة الشرقية لم يؤد إلى نتيجة ، وكل ما نعرفه فى هذا الصدد إن ابراهيم بك أرسل إلى العربان المجاورين لمصر ورسم لهم أن يكونوا فى المقدمة بنواحى شبرا وما ولاها

وعلى هذا النظام فى البرين، الغربى والشرقى، كان الجيش المصرى — إن صح أن يسمى بالمصرى — معسكراً انتظاراً لقدوم الجيش الفرنساوى .

قلنا فى آخر الفصل الخاص بالحملة الفرنساوية من اسكندرية إلى القاهرة ، إن جيش نابوليون وصل ام دينار يوم ١٩ يوليو .

وفى اليوم التالى تقدم إلى الأمام قليلا فوقع بصر قواده على الجيش الرابض فكان منظره مؤثراً عليهم، لأن كثرة الذاهبين والآتين فيه، وكثرة الأتباع والخدم، أكبرت فى عيونهم قوة الجيش المصرى وخيل لهم ، على روايات بعضهم، أن هذه القوة لا تقل عن خمسين ألف مقاتل، وهم (الفرنسويون) لايزيدون على عشرين

ألفاً ، فلذلك اخذ نابوليون يركض بجواده متنقلا أمام واجهة جيشه ، وهو يقول لهم بصوته الرنان ، مشيراً بأصبعه إلى قمم الاهرام :

« إن أربعين قرناً من الزمان تنظر اليكم »

وأخذ الجيش الفرنساوى فى التأهب للقتال، وصدرت الأوامر من القائد العام بأن يسير الجنرال (ديزيه) بفرقته فى الميمنة، ويجاوره الجنرال (رينيه) بفرقته، وتتوسط فرقة الجنرال (دوكا) ومعها القائد العام، عند قلب الجيش، ويرتكز الجنرال (بون) على النيل ويجاوره الجنرال (فيال) مكملا للجناح الأيسر

فلما أشرق النهار بضوئه التقى الجيش الفرنساوى بفصيلة من المماليك فبددها ببضع طلقات من المدافع وفى الساعة الثامنة صباحاً التقى الجمعان

فكان أول مالاحظه بونابرت أن الجناح الايمن للجيش المصرى لا يعبأ به، لانه لايستطيع الخروج من وراء الحواجز التى أقامها، والتى لا تصد، أو تعطل، الا الخيالة. ثم ان مدافعه لثبوتها وعدم المقدرة على تحريكها، لا تفيده الا اذا وقف الجناح الايسر من الجيش الفرنساوى أمامها ، فلذلك أصدر بونابرت أمره بالانحراف عن مواجهة هذه المدافع، وبتوجيه فرقة الجنرال (ديزية) للفصل بين قلب الجيش المصرى، حيث توجد حقيقة القوة الفعالة، وهى العشرة آلاف مملوك، وبين جناحه الايمن، فسار (ديزيه) وتبعته فرقة (رينيه)

وسارت الجنود الفرنساوية على هذا الطراز نحو نصف ساعة بسرعة كبيرة وبسكون وهدوء ، إلا أن مراد بك، وان لم يكن بالقائد المدرب، الا أنه قد وهب بصراً ثاقباً وإلهاماً حربياً، أدرك الغرض من هذه الحركة، وعرف أنه اذا وصلت القوى الفرنساوية الى غرضها فقد قضت عليه فى الحال ، فلذلك أصدر أمره للخيالة التى معه بالهجوم على المشاة الفرنسيين فى خلال سيرهم لتعطيلهم فى مفاخطة فصل قلب الجيش المصرى عن ميمنته

وانقض مراد بك بنحو سبعة آلاف فارس، من أمهر الفرسان الذين امتطوا صهوة جواد فى التاريخ القديم والحديث، وبسرعة كالبرق الخاطف، فدخلوا بين فرقتى (ديزيه) و (رينيه) ، كالمرود بين الجفن والجفن، وقد عملت هذه الحركة

بخفة عجيبة حتى خيل لبونابرت أن (ديزيه) أصبح فى خطر، وأنه ليس لديه الوقت الـكافى للاصطفاف للقتال، ولـكن لحسن حظه كانت الفئة الاولى من المماليك الذين هاجموه قليلة، قتل نصفها بطلقات المدافع فتمكن فى وقت سقوطها، وارتداد الباقى منها، من تكوين مربعه، ورتبت المدافع وطلقات البنادق على الجهات الاربع، ورأى الجنرال (رينيه) الخطر كما رآه (ديزيه) فشكل جنوده فى مربع أيضاً، وتلقى الخيالة المماليك من الجهات الاربع، وقامت فرقة الجنرال « دوجا »، التى يقودها بونابرت فعلا، بحركة دوران حول ميمنة المصريين، فحالت بينها وبين النيل، واستطاعت أن تطلق المدافع من وراء الخيالة المماليك المواجهين لمربع «ديزيه»، ومربع «رينيه»، فوقع بذلك المماليك بين نارين من أمام ومن خلف، فصاروا يتساقطون جثثاً هامدة على الارض، واختل نظام الجيش المصرى: ووقع زعماؤه فى حيص بيص.

فلم يبق أمام مراد بك إلا الانسحاب للوراء مع ثلاثة آلاف من الخيالة قاصدين الجيزة، وكانت فرقة الجنرال ( رامبون ) الاحتياطية، قد وجهت الى الامام وراء الميمنة المصرية للاستيلاء على نقطة لـكي تستطيع قطع المواصلات بين امبابه والجيزة، وحين رأى من بقى من فرسان المماليك انسحاب مراد بك الى الجيزة، أرادوا اللحاق به فلقيهم (رامبون) بفرقته التى أشرنا اليها، وأطبقت عليهم فرقة «دوجا»، «وبون» فلم يبق أمام أولئك الفرسان الا ان يلقوا بأنفسهم فى نهر النيل على أمل العبور الى البر الثانى، وفى ذلك الاضطراب قل من استطاع الوصول منهم سالماً. قالوا ولهذا السبب غرق منهم بضعة آلاف

اما جيش المشاة من الإنكشارية وغيرهم، وكانوا نحو عشرين ألفاً متترسين وراء الخنادق، بما معهم من المدافع، فانهم لما أبصروا هزيمة الخيالة تركوا ميدان القتال فارين لايلوون على شىء، فمنهم من لقى حتفه، ومنهم من نزل إلى القوارب ووصل الى البر الشرقى .... ولو كانت هذه القوة الـكبيرة تحت قيادة حسنة لاستطاعت أن تدور حول الجنود الفرنسية وتحصرها بين امبابة والجيزة، حيث الخيالة، ولـكن هذه القوة البيادة لم تكن على شىء من النظام، وكلهم من الباشبوزق والخدم والأتباع، ولم يكن فى الحقيقة فى مصر قوة للقتال غير قوة الخيالة المماليك،

التى كانت تحسن القتال مع جنود من نوعها ، لا أمام بطاريات من مدافع متحركة ، ولا أمام بنادق سريعة الطلقات ، ولا أمام حركات عسكرية فنية ، كالتى امتاز بها جيش نابوليون بونابرت ، وقهر بها جيوش إيطاليا والنمسا .

وحاول مراد بك القيام بهجمات جديدة ليفتح طريق المواصلات بينه وبين ماتبقى من جيشه ليسهل لهذا الأخير انسحابه، فلم ينجح فى هجماته ، ودخل الليل بظلمته، فلجأ الى الجيزة وذهب إلى قصره ليأخذ منه مالم يستعد لاخذه من قبل .

وبلغت خسارة الفرنساويين فى هذه الموقعة ، على روايتهم، ثلاثمائة، بين قتيل وجريح ، أما خسارة المماليك فقد رووا أن لم يبق من مجموع قوة المماليك إلا ثلاثة آلاف ، انسحب بهم مراد بك إلى الجيزة ، ونحو ألف بقيت مع ابراهيم بك فى القاهرة ، وقتل وغرق فى النيل نحو سبعة آلاف من كبار المماليك وأتباعهم ، وقتل نحو ثلاثة آلاف أخرى من العربان والفلاحين وأمثالهم .

ثم ماذا جرى على السفن الفرنساوية والسفن المصرية ؟ أما السفن الفرنساوية فأنها لقلة الماء فى النيل ، لم تقدر على السير فى محاذاة الجيش ، وليس من البعيد أنها تأخرت خوفاً من السفن المصرية ، وقد لاقت من قتالها الأمرين قرب شبراخيت ، فكيف وهى الآن أكثر عدداً وعدة ؟

كان « بوريين » سكرتير نابوليون ممن سار مع العمارة الفرنسية من الرحمانية إلى القاهرة كما سبق لنا القول، وهو يروى لنا، فى مذكراته، «أن تلك العمارة، يوم واقعة امبابة ، كانت راسية على مسافة عشرة فراسخ من القاهرة، (قريباً من نقطة القناطر الخيرية) ، وأن ريح الشمال كانت تهب شديدة ، فكانت أصوات المدافع لا تصل إلى من هم فى السفن ، ولكن لما أقبل المساء ، وهدأت الريح ، سمعت طلقات المدافع ، وأبصرنا جثث القتلى والغرقى من المماليك يسير بها تيار النيل إلى رشيد ودمياط ، فعرفنا أن الدائرة دارت عليهم »

وأما السفن المصرية فإنها لم تستطع القيام بعمل ، وخاف مراد بك وقوعها فى أيدى الغزاة فأمر بإحراقها ، وسنأتى على ذكر هذا الإحراق ، وما أحدثه من الجزع فى القاهرة ، فى الفصل الآتى

والآن نقف عند هذا البيان الذى حاولنا فيه بقدر الأمكان ، وصف معركة امبابة التى دامت من الصباح إلى المساء ، وإن تكن ساعات القتال الحقيقية قليلة ومتقطعة ، ولكننا قبل أن ننتقل إلى وصف حال القاهرة فى ذلك اليوم العصيب ، وماجرى عليها فى الليلة التالية نصف حال الجيش الفرنسى بعد انتصاره. قال كاتبهم :

« وصل نابوليون وأركان حربه إلى الجيزة عند الساعة التاسعة مساء فاحتلوا قصر مراد بك الذى لم يبق فيه أنسان » ثم وصفوا ما فى ذلك البيت من فراش وثير ، ودمقس وحرير ، وأقمشة من فاخر صناعة كشمير ، ونمارق مزركشة من صنع امهر الصانعين ، وما فى بستانه من اشجار وأثمار نادرة المثال . وغنمت الفرقة التى عسكرت فى امبابة كميات كثيرة من المؤن والمآكل اللذيذة والحلوى الفاخرة ، وجميع أدوات وفراش البكوات والكشاف ، من أبسطة فاخرة ، وفضيات وصينى ، فدب الفرح والسرور فى قلوب الجنود ، خصوصاً بعدماوجدوا فى ملابس البكوات والمماليك القتلى أموالا طائلة ، فقد رووا انهم كانوا يجدون فى ملابس الواحد منهم بين مائتين ومائتين وخمسين قطعة من الذهب ، وهذا غير ملابسهم الموشاة بالذهب والفضة ، وسلاحهم المفضض والمذهب ، فكان ذلك حاملا للجنود الفرنساوية على انتشال جثث الغرقى من النيل طلباً للغنيمة ، وأكل الجنود وشربوا وطربوا ، وأقيم فى وسط المعسكر سوق للبيع والشراء ، فى السروج والخيول والملابس والسلاح ! كل ذلك بين جثث الموتى وأنين الجرحى ! والخلاصة أن الجنود الفرنسية سكرت بخمرة الظفر ، ورقصت على نغمة الغنائم !

وكانت النيران قد شبت فى السفن المصرية وماجاورها من القوارب الصغيرة فعلا دخانها وتأججت نارها ، فكانت القاهرة تلوح بمآذنها ، وقباب مساجدها ، ودورها وقصورها ، وراء ذلك الدخان واللهيب ، فى حين كانت الجنود الفرنسية فى البر المقابل طروبة لاهية ، كأنما تبصر وراء الافق زينة بحرية ، أوألعابا نارية ! !

هكذا كان حال الفاتحين الغزاة فى البر الغربى من النيل ، فانظر الى حال المساكين أهل مصر فى الضفة المقابلة !

# القاهرة

## يوم الواقعة

تركنا فى ذهن القارىء صورة لما كان عليه الجيش الفرنساوى فى الضفة الغربية، والآن نعود إلى صاحبنا «الجبرتى» فى وصف ما حاق بالقاهرة يوم الواقعة ومساؤه فنقول : بلغ ما كتبه الجبرتى عن واقعة أمبابة بضعة سطور لا قيمة لها ، إلا فيما ذكره من أسماء بعض البكوات الذين أبلوا بلاء حسناً ، فذكر منهم أيوب بك الدفترادار ، وكان من كبار المماليك ، وعبد الله كاشف الجرف وعدة كثيرة من كشاف محمد بك الألفى ، وغرق ابراهيم بك الصغير ، وهو صهر ابراهيم بك الكبير . ثم قال « ولما عاين وسمع عسكر البر الشرقى القتال ضج العامة والغوغاء من الرعية ، واختلاط الناس بالصياح ، ورفع الاصوات بقولهم «يارب ويالطيف» « ويا رجال الله » ، ونحو ذلك وكأنهم يقاتلون ويحاربون بصياحهم وجلبتهم ، فكان العقلاء من الناس يصرخون عليهم ويأمرونهم بترك ذلك ، ويقولون لهم إن الرسول والصحابة والمجاهدين إنما كانوا يقاتلون بالسيف والحراب ، وضرب الرقاب، لا برفع الأصوات، والصراخ والنباح، فلا يسمعون ولا يرجعون عما هم فيه ، ومن يقرأ ومن يسمع ! »

وليس بصحيح ما كتبه « الجبرتى » من أنه لما انهزم المماليك فى البر الغربى حول الفرنسيس المدافع والبنادق على البر الشرقى ، إذ لم يرد ذكر ذلك فى المصادر الموثوق بها ، كما أنه لا ينطبق على العقل أن يشتغل الفرنساويون بإطلاق قنابلهم إلى الجهة الشرقية، وهى لا تصل إلى تلك الجهة ولا تأتى بفائدة ، كما انهم لم يكونوا يخشون من عبور سكان القاهرة اليهم، وقد يمكن أن بعض الطلقات التى كانت موجهة لفئات من المماليك سقطت فى النيل، فخيل لهم أن الضرب كان بذلك القصد

وفر ابراهيم بك وأبو بكر باشا، وعولا على الفرار الى سوريا. وهذه كانت نية ابراهيم

بك من أول الأمر ، كما يظهر من أخذه أهبته ، وجمعه مقتنياته ... قال الشيخ الجبرتى ، وهو فى هذا الوصف الحجة الثقة ...

« فلما استقر ابراهيم بك بالعادلية ( الوايلية الآن ) أرسل يأخذ حريمه وكذلك من كان معه من الامراء ... واستمر معظم الناس طول الليل خارجين من مصر ، البعض بحريمه ، والبعض ينجو بنفسه ولا يسأل أحد عن أحد ، بل كل واحد مشغول بنفسه عن أبيه وابنه ، والناس يضجون بالعويل والنحيب ، ويبتهلون الى الله من شر ذلك اليوم العصيب ، والنساء يصرخن بأعلا أصواتهن من البيوت ، فخرج تلك الليلة معظم أهل مصر ، البعض لبلاد الصعيد ، والبعض لجهة الشرق ، وهم الاكثر ، وأقام بمصر كل مخاطر بنفسه ، ومن لا يقدر على الحركة ممتثلا للقضاء ، متوقعا للمكروه ، وذلك لعدم مقدرته أو لقلة ذات يده ، وما ينفقه على حمل عياله وأطفاله »

وأى مصرى ، بل أى انسان ذى عاطفة ، يقف على ذكرى هذه الحال ، ويتصور ما كان يجيش فى صدور القوم من الآلام والاحزان ، فى تلك الليلة السوداء ، التى زادت القوم مصائب على مصائبهم السابقة واللاحقة ، ثم لا ينقطع نياط قلبه ، أو تنحدر الدموع من عينه ؟؟

وقال الشيخ الجبرتى « والذى أزعج قلوب الناس بالاكثر أن فى عشاء تلك الليلة شاع فى الناس أن الافرنج عدوا إلى بولاق وأحرقوها ، وكذلك الجيزة ، وأن أولهم وصل إلى باب الحديد يحرقون ويقتلون ويفجرون بالنساء !! وكان السبب فى هذه الاشاعة أن بعض القلينجية (البحارة) من عسكر مراد بك ، لما تحقق الكسرة أضرم النار فى الغليون الذى هو فيه ( وهذا لا شك بأمر مراد بك وإن لم يعلم به الشيخ الجبرتى ) وكذلك مراد بك ، لما وصل من الجيزة أمر بانجرار الغليون الكبير من قبالة قصره ليصحبه معه الى جهة قبلى ، فمشوا به قليلا ووقف لقلة الماء فى الطين ، وكان به عدة وافرة من آلات حربية والجبخانة ، فأمر بحرقه أيضاً فصعد اللهيب من جهة الجيزة وبولاق ، فظن الناس ، بل أيقنوا

أنهم أحرقوا البلدين ، فماجوا واضطربوا زيادة عماهم فيه من الجزع والفزع والروع».

ولو كان ابراهيم بك ، أو كان أبو بكر باشا ، ذا حكمة وإخلاص، وشفقة على الرعايا، لشكل حكومة وقتية من الكبراء والامراء ، وهدأ خواطر الناس، وحافظ على السكينة والسلام حتى الصباح ، وكان له أن يفر مع ذلك بمماليكه ونسائه وأمواله، اذا شاء . ولكن هكذا كان المماليك لا يعرفون من الواجبات الا المحافظة على أرواحهم ، واعتبارهم بقية الناس حشرات لا قيمة لهم .

وقال الشيخ الجبرتي : «وأخذ الناس يتلاحقون ويتسابقون ، وخرجوا من كل صوب ينسلون ... وخرج أكثرهم ماشياً ، أو حاملا متاعه على رأسه ، وزوجته حاملة طفلها ، ومن قدر على مركوب أركب زوجته وابنته ، ومشى هو على أقدامه ، وخرج غالب النساء ماشيات حاسرات ، وأطفالهن على أكتافهن يبكين فى ظلمة الليل » ... والعياذ بالله .

ثم أتبع هذه الصورة المؤلمة بما هو أشد منها إيلاماً . قال عفى الله عنه :

« واستمر الناس على ذلك الحال طول ليلة الأحد وصبحها ، وأخذ كل انسان ماقدر على حمله من مال ومتاع ، فلما خرجوا من أبواب البلد ، وتوسطوا الفلاة تلقتهم العربان والفلاحون ، فأخذوا متاعهم ولباسهم وأحمالهم ، بحيث لم يتركوا لمن صادفوه ما يستر به عورته ، أو يسد جوعته ، وربما قتلوا من قدروا عليه، أو دافع عن نفسه ومتاعه ، وسلبوا ثياب النساء وفضحوهن وفتكوا بهن ، وفيهن المخدرات ونسوة الاعيان ، وكانت ليلة وصباحها فى غاية الشناعة ، جرى فيها مالم يتفق مثله فى مصر، ولا سمعنا بما شابه بعضه فى تواريخ المتقدمين ، فما راء كمن سمعا »

ولما أصبح الصباح كان ابراهيم بك قد فر بحريمه وأمواله ومعه من تبعه من مماليك وغيرهم من البكوات ، ويبلغ عددهم نحو ألف مقاتل ، واصطحب معه أبو بكر باشا الوالى، وفروا جميعاً قاصدين بلدة (بلبيس) وتركوا القاهرة بلاحاكم ولا وازع . ولا ندرى ان كان الخطاب الذى بعث به نابوليون قد وصل الى يد نائب

الدولة العلية ، وممثل جلالة السلطان بمصر ، وخليفة المسلمين ، أو لم يصل ، إذ الرواة مختلفون فى ذلك، فالجبرتى لم يشر الى هذا الخطاب ولا علم له به، وكتاب الفرنسيين يقولون إن ذلك الخطاب وقع فى أيدى المماليك ، ولم يعلم به أبو بكر باشا ، اذ من المحتمل أنه لو وصل إلى يديه ، ورأى أن قائد الحملة الفرنسية يقول إن فرنسا صديقة السلطان، وإنه يريد أن يخلص البلاد من المماليك ،ويحفظ سيادة الدولة العثمانية ، لاختار البقاء فى القاهرة ، ليرى إن كان ما يقوله نابوليون صحيحاً أو غير صحيح ! !

ومن الغريب أن نابليون كتب خطابا آخر للباشا الوالى فى يوم ٢٣ يوليو، أى بعد يومين من الواقعة ، وبعد مقابلته فى الجيزة لكثير من العلماء والاعيان، الذين لا بد أنهم قد أخبروه بسفر الباشا الوالى مع ابراهيم بك الى بلبيس . والظاهر أنه كتب ذلك الخطاب الثانى ليبعث به للباشا فى بلبيس ، على اعتقاد أو ظن ، بأن الخطاب الاول لم يصله . وهذه ترجمة الخطاب الثانى الذى لم يظهر فى كتاب من الكتب العربية ، حتى ولا فى كتاب الدحداح ، الذى هو أوسع الكتب تفصيلاً ، لنقله عن المصادر الفرنسية .

« إن نية الجمهورية الفرنسوية فى احتلالها لمصر هى بقصد طرد المماليك الذين طالما شقوا عصا الطاعة على الباب العالى وعاملوا الحكومة الفرنسية بالعداء. والآن وقد تمكنت الجمهورية الفرنسية، بانتصار جيوشها، من وضع يدها على مصر، فان من أقصى رغبات الجمهورية أن تحافظ على نفوذ ممثل جلالة السلطان ، وعلى استحقاقه ووجوده . فلذلك أرجوك أن تؤكد للباب العالى أنه لم يخسر بوجودنا فى مصر شيئا ، واننى سأحرص على أن تتلقى حكومة جلالة السلطان الجزية التى كانت ترسل لها من مصر»[1] « بونابرت »

وعلى كل حال فلم يأت هذا الخطاب بالنتيجة التى كان يريدها نابوليون إذ لم يعد الوالى ، ولم تثق الدولة فى شىء من صحة هذه التصريحات

---

(١) من مكاتبات نابوليون تاريخ ٢٣ يوليو ١٧٩٨

قال الشيخ الجبرتي : ولما أصبح يوم الأحد ( ٨صفر، ٢٢ يوليو ) والمقيمون لا يدرون ما يفعل بهم، ومتوقعون حلول الفرنسيس ، ووقوع المكروه . ورجع الكثيرون من الفارين وهم فى أسوأ حال من العرى والفزع ، فتبين أن الافرنج لم يعبروا النيل الى البر الشرقى، وأن الحريق كان فى المراكب المتقدم ذكرها، فاجتمع فى الأزهر بعض العلماء والمشايخ وتشاوروا! فاتفق رأيهم على أن يرسلوا مراسلة الى الأفرنج ، وينتظروا ما يكون من جوابهم ، ففعلوا ذلك وأرسلوها صحبة شخص مغربى يعرف لغتهم وآخر صحبته »

وفى كتب الفرنسيين أن الذين فكروا فى فتح باب المخابرة هم جماعة من تجار الأفرنج فى القاهرة وذكروا أنهم اجتمعوا بكخيا الوالى — نائبه — وأقنعوه بضرورة ذلك، فسمح لهم بالذهاب الى البر الغربى لمقابلة القائد العام، وفعلا ذهبوا اليه، فقال لهم :الأولى أن يحضر الىّ العلماء والمشائخ والأعيان، لأطمئنهم بنفسى

وعندى أن رواية الجبرتى أقرب الى التصديق ، اذ لا يعقل أن أهل البلد لا يفكرون فى حالهم ، فى ذلك الوقت العصيب ، ويتركون لتجار من الأجانب النظر فى هذا الأمر، وليس من البعيد أن يكون السعى قد حصل من الجانبين

والشيخ الدحداح يقول فى كتابه « وفى الصباح اجتمع القاضى والأعيان وقالوا لا سبيل لنا الا التسليم لمن فتح البلاد عنوة فاتفقوا على هذا الرأى وأتوا بقنصل فرنسا والتجار الذين كانوا قد سجنوهم فى القلعة وطلبوا اليهم أن يسيروا معهم الى بولاق ( والصحيح الجيزة ) ، ليطلبوا الى بونابرت أن يقبل تسليمهم ويؤمنهم، فأشار عليهم القنصل بأن يرسلوا اثنين من الفرنسيين ومعهم محمد الكاتب الأول لابراهيم بك ، الى الجنرال بونابرت فلما أتوه قابلهم الباشا وأمنهم على أموالهم وأنفسهم ، وطلب اليهم أن يرسلوا اليه بعض القوارب لينقل بها فرقة من جيوشه لتدخل المدينة ، وتمنع تعدى رعاع القوم على المنازل ، فرضوا وأخبروا العلماء والأعيان بما كان، فبعثوا حالا بالقوارب الى برامبابه فركبتها فرقة الجنرال

ديبوى Dupey وكان العلماء والأعيان فيها فاجتمعوا بالجنرال فأمنهم ... فنزل الجنرال ليلا فى منزل ابراهيم بك الصغير وأرسل بعض الجنود الى القلعة فاستولوا عليها .

ورواية المعلم « نقولا الترك »[1] وهو من المعاصرين للحملة ، ومن أنصار الفرنسيين تقول :

وكان أبو بكر باشا وابراهيم بك حين انهزموا من بولاق وقلوبهم مفترمات بالحسرات ، وهم يتأسفون على ما فات ، ثم أخذوا عيالهم ورجالهم ، وخرجوا من المدينة من باب النصر ، قاصدين البرية ، والديار الشامية . وبقت بقية أهل القاهرة، تلك الليلة بمخاوف وافرة . . . وعند الصباح ، اجتمع القاضى والأعيان ، وقالوا ان الحكام ولت ، وأحوالهم اضمحلت ، فالتسليم لنا أصلح ، وحقن دماء الاسلام أوفق وأربح . وقد ذكرنا أن القنصل والتجار الفرنساوية ، « تحت اليسق » فى قلعة الجبل ، فأحضروهم وطلبوا منهم أن يسيروا معهم الى بولاق ، ويأخذوا لهم الأمان ، فأشار عليهم القنصل أن يتوجه اثنان من التجار، ومحمد كتخدا ابراهيم بك ، وساروا الى برامبابه، وفى وصولهم تقدموا الى الجنرال ديبوى، وترحب بهم وسألهم عن أحوال المدينة، وما مراد أهلها. فقالوا ان الحكام ولت، والرعية ذلت، وقد أتينا من قبل علماء البلد والأعيان ، تطلب لهم الأمان ، فأجابهم الجنرال ديبوى : من ألقى سلاحه حرم قتاله ، فلهم منى الأمان، ومن أمير الجيوش، ومن كل من فى هذا المكان ، وانما يلزمكم أن ترسلوا المعادى والقوارب ... الخ »

وظاهرٌ من هذه الرواية المعاصرة أن الذين اجتمعوا هم القاضى وأعيان القاهرة ، وأنهم قرروا فى مداولاتهم الافراج عن القنصل الفرنسى والتجار الذين

---

(١) المعلم نقولا الترك من أدباء سوريا فى ذلك العهد وستتكلم عن حياته وتاريخه عند البحث فى مصادر هذا الكتاب ونكتفى الآن بالقول بأنه وضع رسالة مسجعة باللغة العربية عنوانها : ( ذكر تملك جمهور الفرنساوية الاقطار المصرية والبلاد الشامية ) وقد طبعت هذه الرسالة بالعربية وترجمتها الفرنسية فى باريس سنة ١٨٣٩ بواسطة مسيو ديجرانج،

كانوا مسجونين فى قلعة الجبل ، أو « تحت اليسق » ، كما كانوا يعبرون عن لاعتقال فى ذلك الزمان

وكيفما تكن الحقيقة بين هذا أو ذاك، فان مالا نزاع فيه هو أن الجنرال ديبوى عبر نهر النيل على قوارب ومعديات قدمها له المصريون فى اليوم الثانى والعشرين من شهر يوليو سنة ١٧٩٨، ودخل القاهرة مساء، « وساروا قدامه بالمشاعيل الى أن دخلوا المدينة ، والمنادية تنادى أمامه بالأمان، على الرعية والأعيان . وجلس الجنرال ديبوى فى منزل ابراهيم بك الصغير وأرسل بعض الصلدات تسلمت قلعة السلطان » كما يقول المعلم « نقولا الترك » بلهجته، فى رسالته .

وفى الصباح وجد أهالى القاهرة المنشور الآتى ملصقاً على الحيطان، ولم نقف على نص هذا المنشور باللغة العربية ، فلذلك نعربه نحن نقلا عن المصادر الرسمية الفرنسية وتاريخه ٤ ترميدور سنة ٦ ( ٢٢ يوليو ) وهذا هو :

« يا أهل القاهرة: اننى مسرور من سلوككم وقد أحسنتم صنعاً بعدم اشتراككم فى العمل لمقاومتى

لقد أتيت هنا لاقضى على جنس المماليك وأبيده ولاحمى التجارة وحقوق البلاد الطبيعية

فليهدأ بال من دخل الخوف قلبه ، ونال الرعب منه ، وليعد الذين تركوا بيوتهم اليها ، ولتقم الصلوات اليوم فى المساجد كما كانت تقام من قبل، وكما أريد أن تبقى دائما . لا تخافوا شيئاً على عيالكم وبيوتكم وأملاككم ولا سيما دينكم، دين النبى الذى أحبه وأقدسه

ولقد أسرعت بتعيين رجال الشرطة حتى يعود الامن الى نصابه ولا يعبث به عابث ، وسيكون لكم ديوان مؤلف من سبعة أشخاص يجتمعون فى جامع « الدود » ( كذا ) ويكون اثنان منهم دائما متصلين بالقائد ويبقى أربعة منهم للاهتمام بحفظ الامن ومراقبة الشرطة » اهـ حرفياً

ومدهش أن الجبرتى لم يأت على نص هذا المنشور، مع حرصه على نصوص تلك المنشورات وغاية ما ورد فى كتابه قوله : إن الفرنساويين أعطوا الوفد الاول الذى قابل نابوليون (سواء أكان الرجل المغربى وصاحبه ، أم بعض التجار وقنصل فرنساء وكاتب ابراهيم بك) ورقة لتطمين أهل مصر ، وعبارتها مغايرة للاصل الذى نقلنا تعريبه من المصادر الرسمية . وجاء الشيخ الدحداح بتعريب ذلك المنشور بعبارة مغلوطة ركيكة، تخالف كثيراً فى نقطها الاساسية، الاصل الرسمى . ولم يذكره ولم يشر اليه المعلم نقولا الترك

ورواية «الجبرتى» بعد ذلك أصح من غيرها قال « ولما رجع الجواب بذلك (وبعد ذلك المنشور) اطمأن الناس ، وركب الشيخ الصاوى والشيخ سليمان الفيومى وآخرون الى الجيزة فتلقاهم نابوليون وضحك لهم ، وقال لهم أنتم المشايخ الكبار ؟ فأعلموه أن المشايخ الكبار خافوا وهربوا ، فقال لأى شيء يهربون ؟ اكتبوا لهم بالحضور ونحن نعمل لكم ديواناً لاجل راحتكم وراحة الرعية واجراء الشريعة، فكتبوا منه عدة مكاتبات بالحضور والامان ، ثم انفصلوا من معسكره بعد العشاء، وحضروا الى مصر واطمأن برجوعهم الناس وكانوا فى وجل وخوف على غيابهم . وأصبحوا فأرسلوا الامان الى المشايخ فحضر الشيخ السادات والشيخ الشرقاوى والمشايخ، ومن انضم اليهم من الناس الفارين من ناحية المطرية . أما السيد عمر مكرم نقيب الاشراف فانه لم يطمئن ولم يحضر »

وكانت العامة من الاهالى لما علموا بفرار البكوات وكبار المماليك ، انقضت على دورهم كالذئاب الخاطفة فنهبتها وأشعلت النار فى بعضها، وبيع ما كان فى تلك القصور والدور ، من فرش ونحاس وأمتعة ، بأبخس الاثمان ، وهكذا الغوغاء تفعل فى كل مكان وزمان، حيث لا راع ولا وازع

قال (لاكروا) واستمرت المخاطبات دائرة بين أهالى المدينة من جهة، والقائد العام، من جهة أخرى، فيما بين الثالث والعشرين الى الخامس والعشرين من شهر

يوليوفلم يبق أحد ممن له حيثية فى القاهرة لم يعبر النيل لملاقاة «السلطان الكبير» كما لقب الناس بونابرت اذ ذاك (ولم نر فى الجبرتى ذكراً لهذا اللقب) وتقديم واجبات الطاعة والخضوع له فكان نابوليون يقابلهم جميعاً بالبشاشة والاستئناس ليبعث الطمأنينة فى نفوسهم»

وكان يساعد بونابرت فى تطييب خواطر القوم المترجم بينه وبينهم، وكان من ذوى الحصافة والعلم، وهو المستشرق المعروف مسيو فانتير[1] M. Venture

ولما عزم نابوليون على الانتقال من الجيزة للقاهرة، شرع أولا فى أخذ الحيطة اللازمة للجيش وله، فأصدر أمره للجنرال «ديزيه» باحتلال الجهة الواقعة على بعد فرسخين جنوبى الجيزة، واقامة الطوابى والمتاريس، ووضع المدافع اللازمة توقياً من هجوم مراد بك، وكذلك أمر الجنرال «دوجا» باقامة خط دفاع عند نقطة الهرم توقياً من هجوم العربان، وبعث بونابرت بكميات وافرة من الغلال والارز والمؤونة الى رشيد فى القوارب لتموين الجيش والاسطول

وفى يوم الاربعاء (٢٥ يوليه ١١ صفر[2]) عبر نابوليون بونابرت النيل ودخل القاهرة دخول الظافر الفاتح، ونزل فى دار الألفى بك المطلة على بركة الازبكية. وكان ذلك المنزل كما روى الجبرتى، فى خط الساكت وقد أنشأه محمد بك الالفى فى السنة السابقة لدخول الفرنساويين وزخرفه وصرف عليه أموالا عظيمة، وفرشه بالرياش الفاخرة.

---

(١) Jean Michel Venture de Paradis كان فى زمانه أعظم وأشهر مستشرق فى أوروبا وولد فى مرسيليا سنة ١٧٤٢ وكان أستاذ اللغة التركية فى جامعة باريس حين استدعاه بونابرت للسفر معه فى حملته. وكان عمره اذ ذاك ٥٦ سنة وكان قد ساح فى البلاد العثمانية والعربية سنين ومرات عديدة، وفى حصار عكا أصيب بالدوسنطاريا ومات، وكان موته خسارة للعلم اذ ذاك ولو عاد لكتب أفخر الكتب عن وجوده بالشرق مع نابليون

(٢) مما يثبت أن الشيخ الجبرتى لم يجمع مذكراته وما كتبه عن وقائع تلك الايام الا بعد عدة سنين، كما سبق لنا ذكر ذلك فى المقدمة، تقريره أن بونابرت وصل القاهرة يوم الثلاثاء مع أنه يوم الأربعاء، وقول الجبرتى بعد ذلك « وفى يوم الخميس ثالث عشر صفر» يدل ذلك على خلط فى التاريخ، لأن يوم الخميس يوافق ١٢ صفر لا ١٣ منه، فولا الترك يقول أيضاً ان نابليون دخل القاهرة يوم الثلاثاء وهو خطأ أيضاً.

فكأنه انما كان يبنيه لاميرالفرنسيس . قال الشيخ الجبرتى « ولما عدى كبيرهم ، وسكن بالازبكية ،لم يدخل المدينة الا القليل منهم ، فمشوا فى الاسواق بغير سلاح ولا تعد بل صاروا يضاحكون الناس، ويشترون ما يحتاجون اليه بأغلى ثمن فيأخذ أحدهم الدجاجة ويعطى صاحبها فى ثمنها ريال فرانسه، ويأخذ البيضة بنصف فضة، قياساً على أسعار بلادهم وأثمان بضائعهم » وفات شيخنا الجبرتى أن أولئك الجنود قد امتلأت جيوبهم من ذهب المماليك وفضتهم ، وأن الأموال التى يبتاعون بها البضائع ليست أموالهم ! ثم قال : فلما رأى منهم العامة ذلك أنسوا بهم واطمأنوا اليهم، وخرجوا لهم بالكعك والفطير والخبز والبيض والدجاج، وأنواع المأكولات وغير ذلك مثل السكر والصابون، والدخان والبن ، وصاروا يبيعون لهم بما أحبوا من الأسعار، وفتح غالب السوقة الحوانيت والقهاوى »

ولنأت هنا على وصف كاتب فرنسى للأيام الأولى التى أعقبت دخول نابوليون مدينة القاهرة وما أسرع فى اصداره من الاوامر وتنفيذه من الاعمال ما ليس له أثر فى المصادر العربية قال : —

« فى ٢٥ يوليه دخل القائد العام القاهرة ونزل فى بيت الالفى بك الكائن بميدان الأزبكية والواقع طرف المدينة وكان لهذا البيت حديقة جميلة تتصل من الجهة الخلاء ببولاق ومصر القديمة

ولم يكد يستقر فى هذا البيت ، هو وأركان حربه حتى وجه عنايته للاعتناء بالمرضى والجرحى والنظر فيما يعود على الجند بالراحة والرفاهية . فأمر بأن ينشأ فى أقل من ثمانية أيام مستشفى فى بولاق لمائتى جريح، وآخر فى مصر القديمة لمائتى مريض، وثالث فى الجيزة لمائة من المرضى، ورابع فى القاهرة لمائة آخرين . وأن يبنى فى الجيزة فرن ومخبز لكل قسم من ادارة الجيش وفى بولاق ستة أفران ومخبز وفى القاهرة ثلاثة أفران ومخبز . وأصدر أمراً خاصاً بأن يكون الخبز الذى يقدم للجند من الدقيق النقى الذى لا يشوبه شىء غير دقيق الحنطة

ولكي يحمى الاهالى ويؤمن المغلوبين على أمرهم صرح للقوافل بالمجيء بدون خوف إلى مصر ، ورفع الحصار البحرى عن الاسكندرية ليدع السفن التركية تدخل اليها ، وليجعل التجارة حرة كالعادة

وأصدر منشوراً حث فيه العرب على الاخلاد إلى السكينة وأن لا يحرجوا صدور الفرنسيس بقتالهم إياهم ، وجعل العرب تحت حمايته ورعايته كأهل مصر . ونظم جيشاً من الجنود الاتراك مؤلفاً من خمس فصائل يبلغ عدد رجال كل منها ٦٥ رجلا ووضعهم تحت قيادة الجنرال دبوى

وصرح لنساء البكوات والمماليك ، اللواتى كن يهمن على وجوههن فى ضواحى القاهرة ، بالعودة الى منازلهن وان يضعن ايديهن على املاكهن ، وقال فى هذا الشأن :

« لما رأى القائد العام ان نســاء البكوات والمماليك اللواتى يهمن على وجوههن فى ضواحى القاهرة قد يقعن فرائس لرجال العرب ، اخذته الشفقة التى يتحلى بها الرجل فأذن لكل نساء البكوات والمماليك بالعودة الى المدينــة والاقامة فى منازلهن التى هى ملك لهن واعداً اياهن بالامان . » اهـ

وطلب من كبار المشايخ ان يصدروا منشوراً فاطاعوا واصدروا منشوراً نصحوا فيه المصريين بالخضوع لمن ارسله الله سبحانه وتعالى لانقاذهم ، هذا الرجل الذى يحترم النبي صلى الله عليه وسلم ، والذى جاء لينتقم للمؤمنين من ظلم المماليك .

وثبت كبار المشايخ فى مراكزهم وقراهم واعاد لهم كل الامتيازات التى كانوا يتمتعون بها واحاطهم برعاية لم يروها من قبل ومن هؤلاء المشايخ الفديوانا لحكم البلاد كما فعل فى الاسكندرية » اهـ من المصادر الفرنسية

* * *

وهكذا فتح الفرنسيون مصر واحتلوا عاصمتها ، واستقروا فى دور أمرائها وأسيادها ، وتم لهم ما أرادوا ، وطارت كآبتهم التى لحقتهم فى الطريق ، وأخذوا يقتربون من الأهالى ويتوددون اليهم ، كما رأى القارىء من عبارات الجبرتى واقوال الكتاب الفرنسويين وبشر نابوليون المصريين بعهد سلام ورفاهية ورقى واصلاح وأكثر من الوعود والأمانى ... فماذا تم على يد الفرنساويين ؟ ؟ وهل كان عهدهم بمصر عهد اصلاح وسلام ، أو كانت كل هاتيك الوعود والاحلام ، كلاماً فى كلام !

## النظام الذى وضعه نابوليون
## لحكومة مصر

كنت أظن قبل أن أجوس خلال هذه المباحث التاريخية ، وأشغل نفسى بتحقيق نقطها وضبط موادها ، كما يليق بالمؤرخ الصادق ، أن كاتبا عربيا قد حام حول الحمى ، ووفى هذه الفترة القريبة مناشيئا من حقها التاريخى ، ولكنى لم أر واحداً ممن وضعوا المجلدات الضخام ، قد أتعب نفسه وكلفها مؤونة البحث الصحيح ، الدال على اخلاص فى خدمة التاريخ أو خدمة الوطنية . رأيتهم كلهم قد اعتمدوا على الشيخ الجبرتى ، ونقلوا عنه حرفا بحرف دون تقدير لظروف الرجل وكفاءته ، ومن غير نظر الى انه كتب تاريخه لا نقلا عن المصادر ، ولا من أوراق ثابتة ذات قيمة أثرية ، بل كان اعتماده على ما يصل اليه من أفواه الناس ورواة الاخبار ، وغلطهم أكثر من صوابهم . هذا فضلا عن أن الشيخ الجبرتى يعترف فى كتابه ، انه ابتدأ فى جمعه وتنسيقه فى السنة السادسة والعشرين بعد المايتين والالف ، أى بعد ثلاثة عشر عاماً من خروج الفرنساويين وستة عشر من دخولهم ، فلا بد من وقوعه فى أغلاط كبيرة وكثيرة . وكان من أقل الواجبات على اخواننا المؤرخين أن يلجأوا إلى المصادر الفرنسية ، ويكملوا ما نقص منها ، أو يقارنوا بينها وبين ماخالف منها أقوال الجبرتى . أفليس من المدهش والمحزن أن مؤرخاً مشهور الاسم يلخص عن الجبرتى حرفاً بحرف ويقع فى أغلاطه ؟ بيد أن الكتب الفرنسية موجودة مفصلة تصحح له الصواب ، وتهديه إلى ساحل الحق ؛ وإن غفرنا له ذلك ، لاسراعه فى وضع ذلك السفر فى مبدأ حياته العملية ، فهل نغتفر لمثل حنا بك شاروبيم المصرى الصميم صاحب الكتاب الكافى فى أربع مجلدات ضخام ؟ وهو ممن درسوا اللغة الفرنسية وتولى القضاء فى المحاكم المختلطة ، ومادونه فى هذه النقط التاريخية المهمة ، أضعف من صاحبه وقد تابع الجبرتى فى جميع أغلاطه

وتحريفاته !! فالجبرتى مثلا يقول : دخل نابوليون القاهرة فى يوم الثلاثاء ١٠ صفر فينقلون عنه ذلك!! ويقول الجبرتى بعد « وفى يوم الخميس ١٣ صفر أرسلوا يطلبون المشايخ » وكيف يكون الثلاثاء ١٠ فى الشهر والخميس ١٣ ؟ وكيف تابع أولئك المؤرخون المحققون الجبرتى فى أغلاطه ؟ وكيف يعقل أن نابوليون وأوامره ولوائحه ومنشوراته لترتيب شؤون البلاد — كانت تنهال كالسيل عشرات فى اليوم الواحد — يبقى بين الثلاثاء والخميس لا يشكل الديوان ! ثم ان هنالك اختلافاً فى أسماء اعضاء الديوان الأول ، بين صورة الأمر الرسمى الذى أصدره نابليون ، وهو محفوظ بنظارة الحربية الفرنسوية ، وبين ماجاء فى كتاب الجبرتى الذى جمعه بعد ست عشرة سنة !! فعلى من نعتمد ؟ بالطبع لا نردد فى الاعتماد على الأمر الرسمى . ولم يذكر الجبرتى شيئا عن النظام الذى وضعه نابوليون للمديريات ، وتشكيل دواوين فيها للنظر فى شؤون الرعية ، وكذلك لم يفعل مؤرخونا الحديثون ! وبين نابليون اختصاصات ديوان القاهرة ، ولم يذكر الجبرتى عن هذه الاختصاصات شيئا . وكذلك فعل أخواننا المؤرخون !! وللجبرتى ألف عذر وعذر ، ولكن بماذا نعتذر عن المؤرخين الحديثين ؟؟

ويسوءنى أيضاً أنه لم يقم شخص واحد من رجال البعثات المصرية ، الذين أوفدهم محمد على وخلفاؤه الى فرنسا ، بجمع أو تعريب شىء من مئات الكتب والمذكرات المستفيضة ، عن الحملة الفرنساوية بمصر ، حتى بقى تاريخها مجهولا فى هذه الديار ، وحتى وجدنا فى العشرة التاسعة من القرن التاسع عشر من يقصر اعتماده على الشيخ عبد الرحمن الجبرتى الحبشى الازهرى ، ولا يعرف سواه من المصادر الصحيحة والموادالكثيرة التى تحيِّر المؤلف لكثرتها ، وسعة مواردها ، والحق يقال إن مؤلف تاريخ فرنسا الحديث ، سواء أكان هو البستانى أوالدحداح ، قد ألم بكثير من المعلومات والبيانات ، مع أنه بعيد عن مصر ، والكتاب خاص فى نظره بتاريخ فرنسا ، ولم يك كاتبه أو معربه مصريا ، أو قاصداً وضع تاريخ لمصر . ولو كانت عبارة ذلك الكتاب فصيحة ، ووجه كاتبه همته إلى تحقيق أسماء

الاشخاص ، والاماكن فى أصلها العربى ، لكان ما جاء منه فى تاريخ فرنسا بمصر ، يستحق الثناء والاعجاب

لا أكتب هذه الكلمة من باب التبجح والتعالى على من كتبوا قبلى فى هذه الفترة ، ولكنى أكتبها من قبيل التذكرة من جهة ، والاسف من أخرى .. للتذكرة لمن يكتب التاريخ بعدنا ، وللأسف لأنى كنت أحب أن أجد الطريق أمامى ممهداً لكيما أجد من وقتى متسعاً لزيدة التعمق والتحقق والاستنتاج ، ولكيلا أقع فيما لا بد أن أكون قد وقعت فيه من الاغلاط ، لتشعب المسالك وقلة المادة فى المصادر العربية المصرية .



قبل ان نذكر النظامات العديدة التى وضعها نابوليون لادارة البلاد المصرية ، والتى لم تؤد إلى نتيجة فعلية ، حتى فى مدة وجود الفرنساويين هنا ، بل ولم يبق لها أدنى أثر بعد خروجهم ، نرى من الضرورى خدمة للحق والتاريخ أن نعترف أن نابوليون كان مخلصاً فى نية الإصلاح وان كان لم يوفق ، واذا كانت نتيجة حملته ، قد جاءت بعكس ما اراد ولم تحدث غير الخراب والدمار ، وفقدان الانفس والأموال ، والأخلال بالآداب ، والافساد للاخلاق ، فما ذلك إلا للظروف التى أحاطت بنابوليون وحملته ، والمقتضيات التى جاءت فوق طاقته ، وسنعود إلى هذا ببيان أوسع ، وإيضاح أكمل ، فى الحكم النهائى على نتيجة الحملة الفرنساوية فى مصر ، بعد أن يكون القارىء قد وقف على أصول القضية وفروعها

وما ذكرنا هذه الكلمة الموجزة إلا تمهيداً لبيان أن خطة نابوليون فى مصر مدة وجوده فيها وبعد سفره منها قد تطورت فى أطوار مختلفة ، باختلاف المؤثرات السياسية الخارجية عنها ، الفعالة فيها

ولكي يستنير القارئ ويسير معنا على هدى ، نقسم له هاتيك التطورات إلى أدوارها ، مع بيان الأسباب الطبيعية التى قضت بها . والتقسيم الذى سنأتى عليه

هو من مبتكراتنا ، إذ لم نر أحداً من الكتاب الأجانب أو غيرهم ، قد فصله هذا التفصيل ، كما أننا ماجئنا به إلا ليتمكن القارىء المصرى الذى لم يدرس تاريخ أوروبا دراسة وافية ، من الوقوف على أمهات النقط السياسية فى تاريخ هذه الفترة

تنقسم التطورات التى أشرنا إليها إلى خمسة أدوار

الدور الأول ـ من وصول الحملة الى الأسكندرية إلى وصول نبأ واقعة أبى قير البحرية ( من أول يوليو ـ ١٣ اغسطس )

الدور الثانى ـ من وصول الخبر بالواقعة البحرية (١٣ اغسطس ) إلى ثورة مصر الأولى ٢١ اكتوبر سنة ١٧٩٨

الدور الثالث ـ من تاريخ الثورة المذكورة إلى مغادرة نابوليون مصر ٢٤ اغسطس سنة ١٧٩٩

الدور الرابع ـ مدة زعامة كليبر إلى قتله (٢٢ اغسطس سنة ١٧٩٩ ـ ١٤ يونيو سنة ١٨٠٠)

الدور الخامس ـ مدة زعامة ميتو إلى خروج الفرنسيس نهائياً من مصر فى ٢ نوفمبر سنة ١٨٠١

---

# (١) الدور الاول

## من ١ يوليو — ١٣ اغسطس

### ( من احتلال الاسكندرية الى واقعة أبى قير )

لما احتل نابوليون الاسكندرية،وسار بجيشه حتى وصل إلى قصبة الديار المصرية ، لم يكن يقوم بذهنه طول البقاء بمصر بالنسبة لذاته شخصياً ، إذ المعروف أنه كان منذ سطعت شمس حياته ، وتألق سنا مجده ، ولاح كوكب شهرته فى أوروبا ، متطلعا إلى السيادة على فرنسا ، وبواسطتها على أوروبا ، كما أدرك ذلك فعلاً بعد _ ولذلك قالوا أنه لما أدرك أن حكومة الديركتوار تريدابعاده عن فرنساخوفا من شهرته التى نالها ، ومحبته التى تمكنت فى قلب الشعب الفرنسى ، بردت نار حماسته التى اشتعلت بفكرة فتح مصر ، ولكنه كان قد تورط فى الامر من جهة ، ومن جهةأخرى التفت يمنة ويسرة عله يجد طريقة لاخذ السلطة من يد أولئك الحكام ، فرأى ، كما صرح بذلك «لبورين» ، « ان الثمرة لم تنضج بعد »(١) فقدم الى مصر بحملته وكان من أمره ما كان

ونحن نريد أن نستنتج من هذا أنه لم يكن مصمماً على البقاء فى مصر وكانت عينه متطلعة دائما الى فرنسا فكان همه موجها إلى وضع نظام حكومة راقية فى هذه الديار ليكتسب بهامودة الشعب المصرى وثقته ، ويسعى فى التودد إلى حكومة الباب العالى ، فيوفق بين احتلال فرنسا لمصر ، وسيادة جلالة سلطان آل عثمان ، كما سبق لنا بيان ذلك . وعلى هذه الفكرة سار فى الخطة التى وضعها

---

(١) وفى مذكرات ( ميو ) أن نابليون قد عدل نهائياً عن حملة مصر
Memoires pour servir a l'histoire des Expédition en Egypte et en Syrie. Par J. Miot
وميو هذا كان مرافقاً للحملة فى مصر بوظيفة مايسمونه الان « مأمور التعيينات » المنوط به اعداد ما يلزم الجيش من لوازمه

لنظام حكومة هذه الديار ، إلى أن علم أن نلسون الانكليزى قد دمر أسطوله فى واقعة أبى قير ( وكان علمه بذلك بالضبط يوم ١٣ أغسطس ، وهو قادم من مطاردة ابراهيم بك فى مديرية الشرقية ) فعرف أنه قد حيل بينه وبين العودة إلى فرنسا ، وأن مواصلاته بوطنه ، ومصدر الامدادات ، بل قل الحياة له ولجيشه ، قد انقطعت ، فلجأ الى اتخاذ خطة أخرى ، والاصح أن يقال ، إلى توسيع خطته الاولى مع المصريين . كما سنشرح ذلك فى حينه

قلنا أن خطته فى الدور الاول كانت قائمة على وضع نظام راق وحكومة عادلة لمصر مع التشديد على جيشه وضباطه بالمحافظة على العادات والآداب الشرقية ، والتقاليد الاسلامية . فلذلك أصدر أمره يوم وصوله الى القاهرة بتشكيل ديوان من علماء مصر وشيوخها . وهذه صورة لأمره الرسمى بتشكيل الديوان واختصاصاته .

معسكر القاهرة ( ٧ ترميدور سنة ٦ ) ـ ٢٦ يوليو سنة ١٧٩٨

« بونابرت عضو المجتمع العلمى الاهلى وقائد عموم الجيش يأمر بما يأتى

( أولا ) تحكم مدينة القاهرة بواسطة ديوان مشكل من تسعة أشخاص

( ثانياً ) يتألف هذا الديوان من المشايخ ، السادات ، والشرقاوى ، والصاوى والبكرى ، والفيومى ، والعريشى ، وموسى السرسى ، ونقيب الاشراف سيد عمر ، ومحمد الامير وعليهم أن يجتمعوا فى الساعة الخامسة مساء اليوم بمنزل ( كخيا الشواهد ) وعليهم أن ينتخبوا من بينهم رئيساً لهم وينتخبوا سكرتيراً ( كاتم سر ) من الخارج ( أى من غير دائرتهم ) ويختاروا لهم كتبة تراجمة يعرفون الفرنساوية والعربية ولهذا الديوان حق تعيين اثنين من خيار الناس ( أغات ) لادارة البوليس وعليه أن ينتخب قومسيوناً مؤلفاً من ثلاثة آخرين يكلفون بمهمة دفن الموتى الموجودين فى القاهرة وضواحيها

( ثالثاً ) يجتمع أعضاء هذا الديوان كل يوم من الظهر ويبقى منهم ثلاثة أعضاء على الدوام فى دار المجلس

(رابعاً) يقام على باب الديوان حرس فرنساوى وآخر تركى

(خامساً) على الجنرال برتيه وقومندان المدينـة أن يكونا عند الساعة الخامسة مساء اليوم بدار الديوان لاجراء ما يلزم لاعضـائه ولكى يفهموهم أن لا يعملوا شيئاً ضد مصلحة الجيش » اه

* * *

هذا نص أمر تشكيل واختصاصات الديوان الاول كما نشره «لا كروا»، نقلا عن النص المحفوظ بديوان الحربية فى فرنسا تحت نمرة ٢٨٣٧ ،وهو يخالف فى بعض الوجوه —وربما كان فى شكله فقط — ما كتبه الجبرتى فى هذا الصدد. فقد ذكر الشيخ الجبرتى « انهم (الفرنسيس) أرسلوا يطلبون المشايخ والوجاقلية عند قائمقام صارى عسكر ، فلما استقر بهم الجلوس خاطبوهم وتشاوروا معهم فى تعيين عشرة أنفار من المشايخ للديوان وفصل الحكومات ، فوقع الاتفاق على الشرقاوى والبكرى والصاوى والفيومى والسرسى والعريشى والدمنهورى والمهدى والشبراخيتى والدواخلى »

فالستة أعضاء الأول،هم كما ورد فى أمر نابليون الرسمى،وأما الاربعة الآخرون فقد ذكر مكانهم ثلاثة فقط — عمر مكرم نقيب الاشراف ، والشيخ محمد الامير ، والسادات

فأما السيد عمر مكرم فقد كان غائبا لانه خرج مع ابراهيم بك وأبى بكر باشا هاربا من وجه الفرنسيس ، ولم يعد إلى مصر الا بعد خروجهم ، فمن المحتمل أن يكون نابليون قد ذكره ليبلغه ذلك، وهو لا يزال فى بلبيس، فيرتاح خاطره فيحضر ، وانه انتخب واحداً من العلماء الثلاثة الدمنهورى والشبراخيتى والدواخلى. وأما الشيخ محمد المهدى فمن المؤكد أنه انتخب ليكون « كاتم سر وباشكاتب الديوان الخصوصى » وأما شيخ السادات فقد ذكره نابليون فى أول أمره المشار اليه،ولكن لم يرد ذكره كعضو من أعضاء الديوان،فى كتاب الجبرتى،وأما العلم تقولا الترك،فقد خلط وخبط فقال : « ابتدأ نابليون فى النظامات لمدينة مصر فأحضر

أولا خمسة من الاسماء الكبار وهم الشيخ عبد الله الشرقاوى والشيخ خليل البكرى والشيخ مصطفى الصاوى والشيخ محمد المهدى والشيخ سليمان الفيومى وأحضر معهم اثنين من الوجاقات وواحد من التجار وهم على كتخدا باشى ويوسف شاويش باشى والسيد احمد المحروقى، وأفرز الى هؤلاء محلا معينا، وعين لهم علائف (مرتبات) شهرية وأقامهم رؤساء في ديوان خصوصى » اه

ونحن لا نعرف شيئا عن أولئك الاثنين من الوجاقاية ، إذ لم نعثر على اسمهما فى أى كتاب، ولكنا نعرف أن السيد أحمد المحروق لم يكن فى القاهرة فى ذلك الحين ، لأنه فر مع ابراهيم بك و بكير باشا ولم يعد للقاهرة الا بعد واقعة الصالحية فى ١٢ أغسطس، أى بعد نحو عشرين يوما من هذا التاريخ . ومن الغريب أن يرد بعد هذا فى رسالة تقولا الترك ذكر اسماء أعضاء الديوان الذين أمضوا على المنشور الذي وزعه نابليون تحت أسمائهم رداً على المنشورات والاوراق التى كان يبعث بها ابراهيم بك ورجال الدولة لتحريض الاهالى على الفرنساويين (كما سيأتى ذلك فى موضعه) وعددهم عشرة رجال وهم البكري والشرقاوى والصاوى والمهدى ومحمد الامير والعريشى والفيومى والدواخلى والسرسى والدمنهورى، فلم يذكر من بينهم السادات ، ولا الشيخ محمد الامير مفتى المالكية ، ولا الشيخ الدواخلى

ولم يذكر الجبرتى الاختصاصات التى أعطاها نابليون للديوان ، ولكن ذكر أولا أنه حضر مع المشايخ فى جلسة الديوان مصطفى كتخدا الباشا (وكيل الباشا الوالى) والقاضى (التركى) وهذا من الادلة الكبيرة على رغبة نابليون فى اتباع السياسة التى شرحناها من حيث اتفاقه مع الدولة ومحافظته على حقوق السيادة العثمانية . ثم قال الجبرتى « وقلدوا محمد أغا المسلمانى أغات مستحفظان (محافظ) وعلى أغا السوارى والى الشرطة وحسن أغا محرم أمين احتساب وذلك باشارة أرباب الديوان فانهم أى (الفرنسيس) كانوا ممتنعين عن تقليد المناصب لجنس المماليك فعرفوهم أن السوقة فى مصر لا يخافون الا من الاتراك ولا يحكمهم سواهم » وذكر الجبرتى أيضاً أنهم قلدوا محمد بك كتخدا لبونابارته ومن أرباب الشورة الخواجة موسى

كافوا وكلاء الفرنساوى...(وصوابهما موسى كافوا وكلوى الفرنساوى )وعينوا مسيو جان بنوا وكيلا للديوان

هذا فيما يختص بنظام ادارة حكومة القاهرة . أما فيما يختص بداخلية البلاد فلم يذكر الجبرتى شيئاً وكذلك لم نجد فى كتاب المعلم نقولا الترك ، ولا فى كتاب البستانى الناقل عن كتب الفرنسيس ، ولكن رأينا فى المصادر الفرنسية ، أن نابوليون ألقى عدة أسئلة على المشايخ أعضاء الديوان للاستفسار منهم عن أحسن الطرق لادارة أحكام المديريات ، فأجابوه على أسئلته بجوابات أعجبته وسر بها ولذلك وضع النظام الآتى فى أمر له بتاريخ ٢٧ يوليو ،ومحفوظ أصله فى مخابرات نابوليون بنمرة ٢٨٥٨ وهذا تعريبه :

« المادة الأولى — يشكل في كل مديرية من مديريات القطر المصرى ديوان مؤلف من سبعة أعضاء للنظر في شؤون الأهالى ،وليعرضوا علىّ كل شكوى تقدم لهم ،وليمنعوا التعديات التي تقع من الاهالى على بعضهم ، وليراقبوا المشبوهين وليعاقبوهم اذا اقتضى الحال بطلب قوة من قومندان الجهة الفرنساوى وعلى هذا الديوان ارشاد الاهالى الى ما يراه موافقا لمصلحتهم

المادة الثانية — يقيم في كل مديرية أغا من الانكشارية تكون علاقاته متواصلة مع القومندان الفرنساوى ،وتكون تحت أمرته قوة مؤلفة من سبعين رجلا من أهالى البلاد مسلحين لكى يسيروا فى البلاد لتوطيد دعائم الامن وإدخال الناس فى دائرة الطاعة والطمأنينة

المادة الثالثة — — يقيم في كل مديرية مدير لجباية أموال الميرى وتحصيل جميع ضرائب الاطيان وجمع ايرادات أملاك المماليك التى أصبحت الآن ملكا للجمهورية الفرنسية ،ويكون تحت إدارته العدد الكافي من العمال اللازمين لذلك.

المادة الرابعة — يعين مع المدير المشار اليه آنفا وكيل فرنساوي للمخابرة مع ادارة ديوان المالية وانفيذ الاوامر التى تصدر له من هذه الجهة ويكون تابعا لها » اه

« بونابرت »

ووضع نابوليون عدا ذلك مذكرة تقضي بتثبيت جميع الملاك فى أملاكهم

وبالمحافظة على الاوقاف التابعة للمساجد والمعاهد الدينية وأن تستمر المعاملات التجارية والمدنية على ما كانت عليه وأن يبقى السير فى الاعمال القضائية على ما كان عليه

* * *

فأنت ترى من هـذا النظام أن نابوليون قد وضع المهم من سلطة إدارة أمور البلاد فى أيدى أبنائها، مكتفياً بالرقابة العامة، ولـكن البلاد كانت خالية من الرجال المصريين الذين يصلحون لتولى مهام هذه الشؤون، بدليل اختيار أعضاء الديوان فى القاهرة بعض رجال المماليك لتولى إدارة الاحكام، وقد ذكر المعلم نقولا الترك ان محمد اغا المسلمانى الذى عين محافظاً لمدينة القاهرة أرمني اعتنق الاسلام ــ وتعيين أغا من الانكشارية بقوة مسلحة تحت يده معناه بقاء السلطة الفعلية فى أيدى أولئك العتاة الظالمين .

ومع وضع هـذا النظام الشبيه بالدستورى فى شكله، ومع عظيم تودد الفرنساويين للمشايخ والاعيان والعلماء والمسلمين عامة، فان ذلك لم يمنعهم من فرض ضريبة فادحة على مدينة القاهرة، فقد روى الجبرتى، أنهم فى يوم السبت ( ٢٨ يونيو ) اجتمعوا بالديوان وطلبوا دراهم سلفة وهى مقدار خمسمائة ألف ريال ( مائة ألف جنيه ) من التجار والمسلمين والنصارى والقبط والشوام وتجار الافرنج أيضاً وأما المعلم نقولا الترك فيقول فى رسالته « وكان أمير الجيوش بونابرته بعد دخوله الى أرض مصر أحضر تجار ديوان البهار المعروف بديوان البن الوارد من الاقطار وطلب منهم ألف وستمائة كيس، وطلب من الأقباط المباشرين الدواوين ألف وستمائة كيس، أخرى ومن تجار النصارى ثمانمائة كيس . وتسلم تلك الاربعة آلاف كيس ستة أيام ووعدهم بوفائها عند مابروق الحال ويتسع المجال » اهـ فاذا كانت قيمة الكيس كما ذكرها « بيريه » ستين جنيهاً، تكون الضريبة التى فرضها نابوليون على القاهرة ٢٤٠٫٠٠٠ جنيه .

ثم أخذوا أيضاً يجمعون الأموال بطرق شتى، ويحصلون على الغنائم ومقتنيات المماليك بأساليب عديدة، فمن ذلك أنهم نادوا على نساء أمراء المماليك بالأمان وأنهن يسكن بيوتهن، وإن كان عندهن شىء من متاع أزواجهن يظهرنه، فان لم يكن

عندهن شيء يصالحن على أنفسهن ، ويأمن في دورهن ! قال الجبرتي « فظهرت الست نفيسه زوجة مراد بك وصالحت عن نفسها وأتباعها من نساء الامراء والكشاف بمبلغ قدره مائة وعشرون ألف ريال فرنساوى ( ٢٤٫٠٠٠ جنيه ) !

ثم قال أيضاً إنهم جمعوا أموالا طائلة من بقية نساء الامراء وصاروا يعملون عليهن إرهاصات وتخويفات وكذلك مصالحات على الغز والاجناد المختلفين والغائبين والفارين فجمعوا بذلك أموالا كثيرة »

ولم يكتفوا بكل هذا بل طلبوا الخيول والجمال والسلاح والابقار فحصلت عليها مصالحات ( أي دفع الناس بدلها أموالا )

وصاروا يفتشون الدور ويستخرجون الخبايا والودائع ويستعينون بالخدم للاستدلال على مستودعات أسيادهم، وفرضوا ضريبة أخرى غير السابقة على أهل الحرف من التجار في الاسواق.. فلأى سبب كانوا يجمعون هذه الاموال وبأى حق كانوا يصادرون الناس وفي أي شريعة يدفع النساء اتاوة للاقامة في دورهن ؟ إن من حقوق الفاتح أن يغنم مايقع في يده من الغنائم التي يتركها العدو في ميدان الحرب، وله حق مصادرة أملاك أعدائه الذين حاربوه وماتوا في ساحة الوغى وله أن يجمع السلاح ويتقى شر الثورات والقلاقل ، ولكن جمع هاتيك الأموال على ذلك الشكل مما يسيء إلى سمعة نابوليون وقواده وضباطه الذين جمعوا تلك الاموال وهاتيك المقتنيات ، للانفاق على أنفسهم ،وللاحتفاظ بها لتنقل معهم الى ديارهم . وقد روى بور يين عن نابوليون أنه عاد من حروبه في ايطاليا بمبلغ ثلاثة ملايين من الفرنكات . فلا شك أنه عاد من مصر بمثلها أو اكثر منها ، وقل مثل ذلك عن القواد والضباط

ولو أن هاتيك المصادرات وقعت على المماليك لقلنا تسلط الظالم على الظالم ولكنها تعدت الى أرباب الحرف من المصريين المساكين !

وفي الوقت الذى يتبجح كتاب الفرنساويين بأن بونابارت ما كاد يضع قدمه في مصر حتى أصدر أمره بالعفو عن الفارين والسماح لنساء المماليك بالعودة الى دورهن مطمئنين نجد أنهم ما سمحوا لهن بالعودة إلا ليضربن عليهن هاتيك

الضرائب الفادحة . ولقد روى الجبرتي في أوقات مختلفة روايات عن تعرض الفرنساويين لنساء المماليك ومصادرتهن، وخلق الاسباب لدعوتهن الى منازل الحكام مما يخجل القلم من ذكرها . وحكاية عن زوجة رضوان كاشف ، التي صالحت عن نفسها بألف وثلثمائة ريال، ثم نهبوا بعد ذلك بيتها، بحجة التفتيش على السلاح، وأخذوا كل ما فيه، وقرروا عليها بعد اهانتها و إقامتها ثلاثة أيام عندهم أربعة آلاف ريال أخرى، ليست الوحيدة في بابها .

ولا غرابة في ذلك فما خرج الكثير من أولئك الضباط والقطونيين من موظفي الجيش الا بقصد الحصول على الثروة ، وما نقول هذا من عندنا . فقد جاء في كتاب ( ميو ) الذى سبقت الاشارة اليه قوله في الصحيفة الثالثة من مذكراته ما يأتي تعريبه :

« أي ميدان واسع فتح أمام أصحاب النفوس الثائرة التى نفذ منها الصبر . وكان أصحاب المطامع يرقبون المستقبل لكي يزيدوا ثروتهم .

وكان كل منهم يأمل خيراً في هذه الحملة العظيمة وكان القائد العام يمنيهم غالباً بالاقوال الخادعة و يدفع فيهم حب العظمة والثراء . وكان جنودنا قد اعتادوا في ايطاليا الثراء والغنى عن نفقات البلاد التى فتحت وكانت مصر أمام أعينهم منجماً مهملا ، و بلاداً عذراء لم تستغل بعد . ولم تمسها الايدي العاملة » الخ الخ

فعل الفرنساويون ما فعلوه لاغتصاب الاموال ، وهم ثملون بخمرة الفوز في الوقت الذى كان فيه أسطول نلسون يغرق ويحرق أسطولهم في أبى قير في موقعة بحرية قضت على آمالهم في هذه الديار قضاء مبرماً ، فما كان أصدق قول الشاعر عليهم في تلك الآونة

يا نائم الليل مسروراً بأوله ... إن الحوادث قد يطرقن أسحارا

في الوقت الذى كانت فيه العمارة الفرنسوية تلاقى البلاء من مواقع الانكليز كان نابوليون في القاهرة يستعد لتجهيز حملة لمطاردة ابراهيم بك ومن معه من المماليك النازلين في بلبيس

# فى الدور الاول أيضا

## بعد الواقعة

يخطىء من يظن أن الفرنساويين بمجرد قهرهم للماليك فى واقعة امبابه واستيلائهم على مدينة القاهرة عاصمة الديار المصرية ، قد تملكوا هذه البلاد وخضع لهم فيها البعيد والقريب . قلت هذا لان ما كتبه اخواننا المؤرخون الحديثون يترك لأول وهلة فى نفس القارىء ذلك الأثر . والحقيقة أن الفرنساويين لم يستقر لهم فى مصر قرار بغير حرب وقتال منذ وضعوا قدمهم فيها الى يوم خروجهم منها وانهم وإن كانوا قد ملكوا عاصمة الديار ، وأصدروا الأوامر وأنشأوا الدواوين ، فان سلطتهم لم تكن قد توطدت إلا فى الجهات التى مروا فيها ، وفي الثغور التى احتلوها كالاسكندرية ورشيد ، وأما مادون ذلك فقد كان ابراهيم بك لايزال بقوة كبيرة من المماليك في الشرقية وكان مراد بك بقوة أخرى قابضاً مسيطراً على الوجه القبلى وكانت مديريات الدقهلية والغربية غير خاضعة للسلطة الفرنسية . وقد كتب مسيو « ميو » من الذين رافقوا الحملة فى كتابه الذى سبقت الاشارة اليه كلمة نرى من عظيم الفائدة تعريبها بايجاز ، قال :

« إننا وإن نكن قد احتللنا القاهرة ، وصرنا سادة فيها ، إلا أننا كنا أشبه بالمحصورين منا بالفاتحين ، إذ كنا لا نستطيع الخروج من دائرة المدينة ومن ابتعد من الجنود لاقى حتفه . وكثيراً ماخسر الجيش من رجاله بهذه الصورة . وحتى الطريق من القاهرة لبولاق لم تكن مأمونة ، وكانت مواصلاتنا محفوفة بالخطر بسبب العربان الذين كانو يجرأون على الدنو من أبواب القاهرة فكأننا فى حرب مستمرة . ولطالما ذكرتني الحرب بموقفنا فى مصر وهكذا كل حرب أهلية لأن احتلال جيش لبلد لايريد أهلها إلا الحرية ، يجعل ذلك الجيش معرضاً للخطر فاما محو تلك الأمة ، وإما ترك البلاد لاهلها . ومع أن الشعب المصرى لم يقم من نفسه للتعدى علينا الا أنه كان يميل ويعضد أعمال كل معاد لنا ، ولو أن المصريين لم

يكونوا على جانب عظيم من الضعف وخور العزيمة أو كانوا متحمسين بفكرة الوطنية، لما بقى لفرنسى فى أرض مصر أثر، خصوصاً وقد امتنع عنا المدد وانقطع حبل الاتصال ببلادنا » (١)

كانت هذه الظروف قاضية على نابوليون بارسال الحملات المتوالية لجهات القطر المختلفة للاستيلاء عليها وتوطيد قدم الفرنساويين فيها، فبدأ أولا بايفاد حملة تحت قيادة الجنرال ديزيه الى الصعيد لاقتفاء آثار مراد بك، وأرسل حملة أخرى تحت قيادة الجنرال فيال الى دمياط وكلف كليبر قومندان نقطة الاسكندرية أن يرسل قوة كبيرة تحت رياسة الجنرال ديموى لاحتلال مديرية البحيرة وبين الجنرال زانشكوك لمديرية المنوفية وبين مورت للقليوبية وفوجيير للغربية ومع كل واحد منهم قوة عسكرية لفتح البلاد ووضع النظام الذي خصص لها وكانت التعليمات الصادرة لجميع هؤلاء القواد محصورة فى المسائل الآتية (١) تجريد الاهالى من السلاح (٢) جمع الخيول اللازمة للخيالة الفرنسية (٣) انشاء أفران للخبز (٤) إنشاء المستشفيات اللازمة (٥) الاستيلاء على ممتلكات ومخلفات المماليك من أرض ودور وماشية (٦) دراسة أحوال الاهالى وأخذهم بالشدة اذا اقتضى الحال فان الطاعة عند هؤلاء القوم معناها الخوف »

ونحن لا ننوى ان نتتبع هذه الغزوات بتفصيلاتها الوافية الا فيما نجد منه فائدة فى اظهار الروح المصرية أو بيان حال من الاحوال الاستثنائية فلطالما وقعت بين الفرنساويين والفلاحين المصريين معارك كثيرة فى جهات مختلفة من جهات القطر لم أر لها ذكراً فى الكتب العربية على الاطلاق، على انه يحسن بابناء كثيرين من اعيان القرى والبلدان أن يعرفوا اليوم أن آباءهم أو اجدادهم قد قاتلوا الفرنسويين حول بيوتهم وفى حقولهم

— ١ —

ولنبدأ الآن باهم المعارك التى دارت فى أرض مصر بعد واقعة امبابه. وقد سبق

---

(١) ميو صحيفة ٦٧ طبعة ١٨١٤ باريس

لنا القول فى ختام الفصل السابق ، انه فى الوقت الذى كان فيه نلسون يغرق ويحرق السفن الفرنسية ، كان نابوليون يعد حملة قوية لمطاردة ابراهيم بك والقضاء على القوة الباقية معه فى بلبيس ، لان وجود ابراهيم بك على مقربة من القاهرة ، وفى طريق القوافل الذاهبة الى السويس والقادمة من الحجاز ، كتم لا تقاس القوة الفرنسية فى القاهرة. وقد صادف ان المحمل المصرى قدم من الحجاز بعد بضعة أيام من احتلال الفرنسويين القاهرة ، وتصحب المحمل عادة قوة من الجند ، وقد روى الجبرتى انه فى ٢٠ صفر ١٢١٣ (٣ أغسطس) وردت مكاتيب الحجاج من العقبة ، فذهب أرباب الديوان الى باشا العسكر (يعنى نابوليون) وأعلموه بذلك ، وطلبوا منه أماناً لامير الحج ، فامتنع وقال لا أعطيه ذلك الا بشرط أن يأتى فى قلة ، ولا يدخل معه مماليك كثيرة ولا عسكر ، فقالوا له ومن يوصل الحجاج فقال أنا أرسل لهم أربعة آلاف من العسكرية يوصلونهم الى مصر. فكتبوا الامير الحج[1] بذلك ، ولكن ابراهيم بك كان قد سبقهم لذلك وطلب من أمير الحج أن يقدم بمن معه الى بلبيس وفعلا انضموا اليه ، ولكنهم لاقوا بذلك عناء شديداً من تعدي العربان وايذائهم . فكان ما حصل دافعاً لنابوليون على الاسراع فى مطاردة ابراهيم بك ، لانه اتصل به ان ابراهيم بك ، بعد أن تقوى جانبه بالمدد الذى جاءه مع الحجاج ، سيهاجم القاهرة من الشمال ، وكذلك سيهاجمها مراد بك من الجنوب ، فخاف نابوليون العاقبة فأخذ فى الاستعداد لمحاربة ابراهيم بك. فكان أول عمله أن أصدر أمره للجنرال لكلرك Leclerc بالزحف الى جهة الخانكة وكان «ميو» صاحب المذكرات[2] فى الفرقة التى سارت تحت قيادة هذا الجنرال ويظهر من روايته انه كان تابعاً لقسم المهمات ، لانه روى عن نفسه فقال « كانت الساعة الخامسة من صباح ٢ أغسطس حين برحنا القاهرة مارين بالقرافة حتي وصلنا القبة حيث كان

(١) كان أمير الحج فى ذلك العام الامير صالح بك وهو من مماليك محمد بك ابو الذهب ومن المقربين الى مراد بك ، وهو الذى ارتقى بواسطته السيد محمد كريم السكندرى كما سبقت الاشارة اليه قال عنه الجبرتى « كان فصيح اللسان ، مهذب الطبع يفهم بالاشارة يظن من يراه انه من ابناء العرب لطلاقة اللسان » . . . فتأمل . وفر مع ابرهيم بك الى الشام ومات تلك السنة فيها ولكن زوجته احضرت جثته بعد مدة ودفن فى قرافة المجاورين (٢) راجع ذيل صحيفة ١٥٩ من هذا الكتاب

الجنرال « دينيه » معسكراً ووصلنا يوم ٣ أغسطس بلدة الخانكة دون ان نصادف مقاومة. ولما كنا قد صممنا على الاقامة طويلا فى هذه النقطة أخذت في اعداد ما يضمن للجنود غذاءهم بان شرعت فى بناء عدة افران للخبز » وروى أيضا انه فى صبيحة يوم ٥ أغسطس هاجمتهم قوة كبيرة مؤلفة من المماليك والفلاحين وبينما هم يشتغلون بمقاومتهم ثار أهل القرية ( الخانكة ) فصاروا يقتلون كل من يقع فى يدهم من الفرنساويين، ودمروا الافران التى بناها صاحبنا « ميو »، وانتشب القتال بين الطرفين من صباح ذلك اليوم الى مسائه، وكادت تدور الدائرة على الفرنساويين لولا ان قائدهم انسحب بمن معه من الجنود تحت جنح الظلام عائداً ادراجه الى القاهرة. وكانت أخبار هذه الفرقة قد وصلت نابوليون فاصدر أوامره للقوات المختلفة بالسير الى جهة الخانكة فاستردوها وخرج نابوليون بنفسه يوم ٧ أغسطس من القاهرة وسارت تلك القوة حتى وصلت بلبيس فى يوم ٩ منه .

أما أبراهيم بك فانه لما علم بذلك انسحب بمن معه الى الصالحية والجبرتى يقول انه انسحب المنصورة[1] أولا ، وأرسل الحريم الى القرين. ولم يذكر الجبرتى بالطبع شيئاً عن واقعة الخانكة ولكنه قال « فلما كانت ليلة الاربعاء (يوافق ٨ أغسطس) خرج كبيرهم بونابارته وكانت أوائلهم وصلت الى الخانكة وابى زعبل وطلبوا كلفة من ابى زعبل فامتنعوا ( أي اهلها ) فقاتلوهم وضربوهم وكسروهم ونهبوا البلدة وأحرقوها » . ثم قال وفى ثامن عشر منه (من صفر — يوافق يوم السبت ١١ اغسطس) ملك الفرنسويون بلبيس من غير قتال ومن بقى فيها من الحجاج فلم يشوشوا عليهم وأرسلوهم الى مصر ومعهم طائفة من العسكر »

وهذه الرواية عن الحجاج ذكرها نابوليون فى تقريره الرسمى الذى بعث به لحكومة فرنسا ( الديركتوار ) بتاريخ ١٩ اغسطس وقد نشر نصه ( لاكروا ) وفيه ذكر نابوليون ان العربان فتكوا بالحجاج وسلبوهم ، وان تاجراً من المصريين

---

(١) لا نظن أبداً ان رواية الجبرتى عن انتقال المماليك الى المنصورة صحيحة لأن الطريق الطبيعى لهم هو من بلبيس الى القرين الى الصالحية ، التى هى طريق القوافل الى قطية فالشام ولم يرد فى كتب الفرنسيين ذكر لانتقال ابراهيم بك الى المنصورة ابداً

أكد له أنه خسر من البضائع الهندية ـ من كشامير وغير ذلك ـ ماتقدر قيمته بمائتى الف ريال » والتاجر المشار اليه هو السيد أحمد المحروقى كان حاجاً فى ذلك العام المشؤوم وروايته فى الجبرتى هى ان « ابراهيم بك ومن معه من المماليك لما علموا بقرب الفرنساويين منهم، ركبوا فى الليل وترفعوا الى جهة القرين، وتركوا التجار واصحاب الاثقال من الحجاج، فلما طلع النهار حضر اليهم جماعة من العربان واتفقوا معهم على ان يحملوهم الى القرين وعاهدوهم، فلما توسطوا الطريق نقضوا عهدهم وخانوهم ونهبوا حمولهم وتقاسموا متاعهم، وعروهم من ثيابهم، وفيهم كبير التجار السيد احمد المحروقى، وكان مايخصه نحو ثلثمائة الف ريال فرنسى نقوداً ومتجراً من جميع الاصناف الحجازية الخ »: قال الجبرتى إن الحجاج عادوا الى القاهرة تحرسهم شرذمة من الجند الفرنساوى فدخلوها، وهم في اسوأ حال وصحبتهم أيضا جماعة من النساء اللاتى كن خرجن ليلة الحادثة وهن أيضا فى أسوأ حالة تسكب عند مشاهدتهن العبرات . »

ونحن نقول ان من الغريب في ذلك الزمن العصيب، ان تاجراً مصريا يكون من بعض ثروته تجارة يقدم بها من الحجاز تحت الخطر تقدر، على رواية نابوليون، عن صاحبها، بمائتى الف ريال، وعن الجبرتى بثلاثمائة الف. والريال الفرنسى يقدر بخمسة فرنكات فتكون قيمة تلك البضائع التى خسرها السيد احمد المحروقى ستين الف جنيه على الرواية الثانية، ـ( وقد استعمل نابوليون فى تقريره الرسمى كلمة « écus » عن الريال، والمعروف انه بخمسة فرنكات )ـ وأربعين الفاً على الرواية الاولى !!

وفي يوم الجمعة (١٧ صفر — ١٠ أغسطس) وصلت مقدمة الجيش الفرنساوى الى الصالحية، وكانت تلك المقدمة مؤلفة من نحو ثلاثمائة من الخيالة وكان فيها نابوليون فالتقت بهذه القوة، قوة كبيرة من مماليك ابراهيم بك، ودارت معركة ظهرت فيها بسالة المماليك ومهارة فرسانهم على الخيالة الفرنساوية، وكادت تدور الدائرة على نابوليون ومن معه، لولا أن ادركته البيادة والطوبجية فلم يستطع فرسان المماليك الوقوف أمامها، وقتل وجرح من الفرنساويين عدد كبير ومن بينهم كثيرون من

الضباط الكبار ، وترى وصف هذه للمركة فى مذكرات «ميو» الذى شهد الواقعة بعينه وأطرى مهارة فرسان المماليك إطراء عظيما

وفى أثناء اشتباك المعركة كان ابراهيم بك قد أعد عدته للرحيل الى الديار الشامية فتمكن من نقل كل ما أخذه معه من المقتنيات الثمينة والاموال الكثيرة وسار فى جمع كبير من رجاله ونسائه وسراريه ومعه أيضاً السيد أبوبكر باشا والي الدولة العثمانية في الديار المصرية . واليك ما يقوله « ميو » فى مذكراته وهو يؤيد رأينا السابق [1] قال :

ولقد بقي نابوليون لغاية اللحظة الاخيرة يمنى نفسه بامكان التأثير على والي الدولة بالبقاء فى مصر، كما كان فى زمن المماليك ، وقد سبق لنا ان ذكرنا نصوص الخطابات التى بعث بها نابوليون من الاسكندرية ومن الجيزة لابى بكر باشا والآن نذكر أيضاً انه بعد استيلاء الفرنساويين على الصالحية، وفرار ابراهيم بك وأبي بكر باشا ، كتب نابوليون خطابا أعطاه لاعرابى على هجين سريع ليلحق ابراهيم بك فى طريقه الى غزة، على أمل أن يتفق معه ومع والي الدولة ، وهذا هو تعريب ذلك الخطاب

المعسكر العام بالصالحية ١٢ اغسطس ١٧٩٨

الى ابراهيم بك

لم يعد عندك شك فى تفوق الجيوش التى أقودها وها أنت خارج أرض مصر وامامك صحراء واسعة . وانك لتجد فى واسع حلمى كل ما تريده من نعمة وسعادة واطمئنان . فهل لك أن تبلغنى فى الحال رغباتك ؟ وانى أعلم ان باشا ( نائب ) جلالة السلطان موجود معك، فليكن هو واسطة و رسولا للمخابرة بينى و بينك [2].

« بونابارت »

وليس لدينا أدنى دليل على وصول هذا الخطاب الى يد ابراهيم بك ، ولكن مما لا نزاع فيه هو أن نابليون لم يتلق رداً ولا رسولا ، حتى ولم يعد اليه الاعرابى الذى

---

(١) صحيفة ٥٩ ــ طبعة باريس سنة ١٨١٤ (٢) هذا الخطاب من محفوظات مكاتبات نابوليون نمرة ٣٠٠٥

بعث الخطاب معه . ولو جاز لنا أن نتخيل وصول ذلك الخطاب فعلا فهل كان من الممكن أن يؤدى إلى اتفاق ابراهيم بك مع نابليون ، كما اتفق مراد بك بعد مع الفرنساويين .. ؟؟

الجواب على هذا ، أن كل الدلائل تفيد أن ابراهيم بك ما كان ليقبل مطلقاً لانه قد أعد من قبل عدته للسفر ، ولان جميع المماليك كانت لهم ثقة فى مقدرة الدولة على اخراج الفرنساويين من مصر . وما اتفق مراد بك معهم الا بعد أن انتصر نابليون على الجيش العثمانى فى واقعة أبى قير البرية ، بعد هذا التاريخ بنحو سنة كاملة (٢٥ يوليو ١٧٩٩)، وما كان يعقل أن يكون والي الدولة العثمانية ، رسول الاتفاق بين ابراهيم بك ونابليون !! كما أنه لا يبعد أن تكون قد وصلت الي ابراهيم بك وأبى بكر باشا أخبار من جهة العريش عن رغبة الدولة العثمانية فى محاربة الفرنساويين ومطاردتهم من أرض مصر .

بقى علينا أن نأتى على الصورة التي كتب بها الجبرتى نبأ انهزام ابراهيم بك وفراره الى الشام ، فان روايته فى هذه النقطة غريبة . ويلاحظ القراء اننا بعد أن نشرح حادثة من الحوادث، نعود الى رواية الجبرتى، واننا نفعل ذلك بقصد المقارنة بين المصادر المختلفة، من جهة ، وبقصد بيان ما كان يصل من الاخبار الى القاهرة من جهة أخري، مع اظهار الحالة العقلية التى كانت لطبقة المتعلمين من المصريين فى ذلك الوقت، وهي التى يمثلها الجبرتى فى أجلى مظاهرها ، قال :

« وفى يوم الثلاثاء ٢ ربيع الاول[١] وصل الفرنساوية الى نواحى القرين وكان ابراهيم بك ومن معه وصلوا الى الصالحية وأودعوا مالهم وحريمهم هناك ، وضمنوا عليها العربان وبعض الجند ، فاخبر بعض العرب الفرنساوية بمكان الحـملة فركب صارى عسكر ( بونابارت ) وأخذ معه الخيالة وقصد الاغارة على الحملة وعلم ابراهيم بك بذلك أيضاً فركب هو وصالح بك ( الذى كان أميراً للحج ) وعدة من الامراء والمماليك، وتحاربوا معهم نحو ساعة أشرف فيها الفرنسيس على الهزيمة لكونهم على الخيول، واذا بالخبر وصل الى ابراهيم بك بان العرب مالوا على الحملة يقصدون نهبها

(١) كانت هذه الموقعة يوم السبت ٢٨ صفر — ١١ اغسطس وفى يوم الثلاثاء كان نابوليون فى القاهرة وقد وصلت اليه أنباء تحطيم عمارته البحرية

فعند ذلك فر من معه على أثره وتركوا قتال الفرنسيس ولحقوا بالعرب وجلوهم عن متاعهم وقتلوا منهم عدة وارتحلوا الى قطيا » اه

فان صحت رواية الجبرتى، فكأن نابوليون لم يسرع بالقوة الخيالة، التى قدرها كتاب الفرنساويين بنحو ثلاثمائة، الا لينقض على مقتنيات ابراهيم بك وأمواله وعرض نفسه ومن معه بذلك للخطر الذى لم ينقذه منه الا قوة للشاة التى اجبرت بنيرانها الماليك على الفرار على رواية الكتاب الفرنساويين — وأما غدر العربان بالماليك فى تعديهم على متاعهم، كما رواه الجبرتى، فأمر معروف مشهور

والظاهر أن نابوليون كان يعلق أهمية كبرى على ما أخذه ابراهيم بك معه من المقتنيات والاموال، واذا كان العربان قد نهبوا من واحد من الحجاج ما تقدر قيمته بنحو ستين أو أربعين الف جنيه، فكم يكون مع ابراهيم بك، وأبى بكر باشا والسيد عمر مكرم، ومئات من امراء الماليك الذين لم يتركوا فى القاهرة ليلة الواقعة (فى امبابه) شيئاً ثميناً لم يأخذوه معهم ؟؟ ولا ينسى القراء أن الكثير من ضباط نابوليون وقواده ورجاله، وهو فى مقدمتهم قدموا مصر برغبة الاثراء، وجمع الاموال، ولا نقول هذا جزافاً فقد رواه بوريين عن نابوليون، وكتب عنه ميو فى مذكراته[1] فهل يا ترى كانت رغبة الحصول على ثروة ابراهيم بك، هى التى دعت نابوليون لكتابة ذلك الخطاب الاخير ؟ ؟

بعد خروج ابراهيم بك ومن معه، من أرض مصر وتوجههم الى غزة، لم يبق أمام نابليون فى تلك المنطقة الا أن يعمل على تحصينها فأصدر أمره للجنرال « كافريللى » بانشاء القلاع والطوابى والقشلاقات اللازمة فى الصالحية وحواليها، وعين الجنرال رينيه قومنداناً لحامية الصالحية ومديراً لمديرية الشرقية . وفى الوقت نفسه عين الجنرال دوجا لمديرية الدقهلية وكان اسمها مديرية المنصورة ، وبعد ان أصدر لهم الاوامر كالتى أصدرها للمديرين السابق تعيينهم، برح الصالحية قاصداً القاهرة، ولم يكد يبتعد عن تلك النقطة بنحو فرسخين، حتى التقى برسول « كليبر » قادماً من الاسكندرية يحمل اليه أشأم الانباء، وهو تدمير الاسطول الفرنساوى فى أبى قير !!

---

(١) ص ٣ طبعة ١٨١٤ باريس

# المحاربات الفرعية

## فى صعيد مصر والجهات الاخرى

أما وقد خصصنا هذا المبحث بالحروب التى قام بها الجيش الفرنساوي فى أنحاء القطر المصرى لنشر نفوذه فى كافة الجهات، فعلينا أن نترك نابليون عائداً للقاهرة بذلك السهم المسموم فى احشائه (نبأ تدمير السفن الفرنسية) وننتقل الى الجهات التى وقعت فيها المعارك، حتى اذا فرغنا منها، لم يبق أمامنا الا شرح الحوادث السياسية التى كانت نتيجة لازمة لمعركة أبى قير، واعلان الدولة العثمانية الحرب على فرنسا، واتفاقها مع انكلترا وروسيا أيضاً .

وليس لدينا فى المصادر العربية، لا فى كتاب الجبرتى، ولا فى رسالة المعلم نقولا الترك المعاصرين للحملة، ولا فى كتب المؤرخين الحديثين، كلمة عن تلك الحروب، كما أنها ليست موجودة فى المصادر الانكليزية مطلقاً، فاعتمادنا فيها انما يكون على ما كتبه الفرنساويون أنفسهم وتبعة الصدق والكذب فى الرواية تقع عدلاً عليهم

وانبدأ الآن أولا بأهم هذه الحروب، وليس بالطبع بعد ابراهيم بك الا مراد بك، فنقول إن مراد بك بعد واقعة امبابه وفراره من الجيزه، اجتمع عليه بقية من بقى من المماليك فى الفيوم وانضم اليه كذلك خصومه الذين كانوا فى الصعيد وكذلك التف حوله عدد عديد من العربان، وبهذا الجيش المكون من المماليك والعربان، اتخذ مراد بك مقره عند ناحية البهنسا فى مديرية الفيوم، وكانت معه بقية من بعض السفن الحربية التى سلمت من الحريق فى واقعة امبابه، وهذه سارت فى النيل الى بلدة المنيا واستقرت امامها، والقت القوارب والمراكب الصغيرة التى تحمل المؤونة والادوات وبعض مستلزمات المماليك مراسيها فى بحر يوسف بالقرب من (أبوجرج)

فى ٢٣ اغسطس أصدر نابوليون أمره للجنرال ديزيه بالسير لمقاتلة مراد بك بقوة مؤلفة من أربعة آلاف جندى، فشرع الجنرال «ديزيه» فى مغادرة الجيزة حيث أقام منذ واقعة الاهرام، فأمر قوة من جيشه أن تنزل الى النيل لتركب فى السفن التى هيئت لنقلها . ورغماً عن الفيضان الذى كان يغمر البلاد، نزلت فرقة

من الجيش وسارت بها السفن مخترقة النيل حتى وصلت بنى سويف فى ٢٦ اغسطس وتقدمت حتى وصلت بعد عناء شديد الى بحر يوسف . وبعد أن قطعت ثمانى ترع أخرى ، وبحيرة كان الماء فيها قليلا وصلت السفن الى البهنسا . فبغت مراد بك واسقط فى يده، لأنه لم يكن ينتظر أن يصل الفرنسيون الى هذه المدينة وأمر رجاله أن يمروا على الضفة الاخرى من البحر اليوسفى ويذهبوا الى الفيوم الواقعة غرب بنى سويف ، ولم يستطع الفرنسيون ادراكهم الا بعد ان اجتاز آخر جمل لهم البحر

ولما علم الجنرال ديزيه من الاهالي انه توجد اثنتا عشرة سفينة محملة بالمؤونة والذخيرة على مقربة منه أمر رجاله فاستولوا عليها رغم النار الحامية التى كان يصبها المماليك عليهم .

وكان فى هذه المراكب بعض المماليك فلما رأوا انهم واقعون فى أيدى الفرنسيين ألقوا بانفسهم الى الماء وتمكن الكابتن راب ياور الجنرال ديزيه أن يجرد اثنين منهم من السلاح بعد مقاومة شديدة ، لانهما رفضا التسليم ووجد فى مركب من هذه المراكب الاثنى عشرة ستة مدافع وذخائرها .

ولما جاء الليل لم يستطع الفرنسيون اقتفاء أثر العدو الهارب فأمر ديزيه جنوده بالراحة .

وعلم الجنرال ديزيه، وهو فى البهنسا،أن مراد بك بعد أن أقام فى هذه المدينة شهراً غادرها منذ ثمانية أيام وذهب الى اللاهون بقرب الفيوم حيث يقيم محمد بك الالفى وبعض المماليك،ولا تزال المواصلات بين اللاهون والبهنسا سليمة وأن البكوات عثمان رضوان وعمر ومماليك ابراهيم بك الصغير قد كلفوا بالمحافظة على البهنسا بجيش مؤلف من ار بعمائة رجل من المماليك وقبيلتين من العرب . وقد أحضر اولئك العرب منذ ثلاثة أيام من أسيوط وأمروا بحماية الامدادات التى تأتى من البلاد الى البهنسا بطريق البحر اليوسفى . أما الجنرال ديزية فلم يكن معه فى هذه الحملة الا الاورطة الاولى من الفرقة الواحدة والعشرين أما بقية الفرقة فقد ظلت فى المؤخرة

وقد زحفت العمارة البحرية التى كانت للمماليك فى أبى جرج الى الامام لتحمى

حركات مراد بك وتقدم الجنرال ديزيه الى ديروط الشريف ليقطع على هذه العمارة خط الرجعة . وتمكن الفرنسيون من إيقاف سبعة وعشرين مركبا محملة حبوباً وخضروات . فلما علم حسن بك قبودان السفن المصرية أن الفرنسيين طردوا المماليك من البهنسا ، واستولوا على مقدار وافر من المؤن والذخائر ، صعد بمراكبه فى النيل قاصداً أسيوط ونزل فيها لينضم الى مراد بك . أما العمارة الفرنسية فقد وجدت انه يتعذر عليها السفر لأن القنال كان معوجا والريح شديدة حتى اضطر الجنود أن يجروا المراكب بالحبال فى مياه لا يزيد ارتفاعها عن منطقة الرجل . واعياهم التعب فلم يستطيعوا السير بعد وصولهم الى ملوى . وحينئذ أرسل الجنرال ديزيه عشرة من قواربه تحمل بعض المرضى من رجاله الى بنى سويف ليعالجوا هناك وظل هو وجنوده يترقبون وصول المماليك . ولكنه لم ير منهم احداً »

وليس من السهل علينا أن نستمر في وصف تلك المعارك الثانوية المتقطعة وليس لنا سوى المصادر الفرنسية ، فهي بالطبع وجهة النظر الفرنسية ، دون سواها كما أنه ليس في مقدورنا أن نقارنها بغيرها ، وكم كنا نود أن نضرب صفحاً عن هذه المحاربات ، ولكن ضرورة ذكرها ، لأول مرة في اللغة العربية أجبرتنا على أن نقتصر على ملخص لهاتيك الحوادث قطعة فقطعة . فاذا وجدها القارئ جافة فليعلم أنها رواية حوادث ، وسلسلة محاربات متقطعة ، وليس فى الامكان صياغتها بشكل آخر .

واعتمادنا فى أخبار هذه الحوادث المتقطعة على كتاب « دنيس لا كروا » — المعنون « بونابارته فى مصر » . قال بعد رواية ما تقدم :

« فى ١٤ اكتوبر شوهدت أول فصيلة من فصائل مراد بك مؤلفة من ١٥٠ مملوكا و بعض الاعراب فى قرية بنى قره ، فقابلتها فصيلة فرنسية مؤلفة من اربعمائة رجل واكرهتها على الابتعاد عن ضفة النهر ليتيسر للجيش الفرنسى السير

« وفى ١٥ اكتوبر رأى الفرنسيون قوة اخرى من المماليك عددها ستمائة مملوك يسيرون بنظام على الضفة اليمنى لبحر يوسف فأمر الجنرال ديزيه عمارته بالتقهقر

نحو نصف فرسخ لكي ينزل منها الجنود ، ولم تكد العمارة تنفذ الامر حتى أرسل العدو فصيلة لتمنع هذه الحركة . ولكن حملة «القرابينات» من الفرقة الحادية والعشرين لم تدع هذه الفصيلة تقرب من الشاطىء . ونزلت الفرقة ونظمت صفوفها بدون أن تلقى مانعاً . وأمر الجنرال ديزيه في الحال بوضع مدفعين وبزحف الجيش لمقابلة العدو . فتقهقر المماليك ببطء أمام الفرنسيين الذين كانوا يصلونهم ناراً حامية مدة اربع ساعات . وفقد فرسان المماليك الذين كانوا تحت قيادة محمد بك الالفي بعض خيولهم . وحينئذ أمر الجنرال ديزيه جنوده بالراحة

«وفى ٦ أكتوبر واصل الفرنسيون زحفهم وكانت العمارة تتبعهم رغما من شدة هبوب الريح ، فرأوا جيش مراد بك قد احتل المرتفعات التى تشرف على النيل . وقد صف مراد بك جنوده وراء المرتفعات على خط طويل . فصف الجنرال ديزيه فرقته على هيئة مربعات يؤلف كل منها من مائتى رجل وأمر بالزحف حتى صار الفرنسيون على مقربة من مركز العدو ، فأمرهم بالوقوف وحينذاك استطاع أن يرى مراد بك واقفاً امام خيمته يحيط به مماليكه وكشافه وكبار ضباطه فاصدر الجنرال ديزيه أمره باطلاق النار ففتحت البنادق افواهها واصلت العدو ناراً حامية حتى اختل نظامه، وفر رجاله ، لا يلوون على شيء ، واقتفى الفرنسيون أثرهم يعملون السيف في رقابهم فقتلوا عددا عظيما من الرجال والخيل .

وكان مراد بك ينوى ان يجر الفرنسيين الي الصحراء ليتمكن من اهلاكهم ، ولكن الجنرال ديزيه لم يخدع بهذه الحيلة وامر رجاله ان لا يبتعدوا عن ضفة البحر اليوسفى ليستولوا على قوارب المماليك

وفى ٧ أكتوبر واصل الجنرال ديزيه الزحف حتى وصل الى بلدة سدمنت حيث جمع مراد بك المماليك والاعراب من اعوانه وخيوله التى يبلغ عددها أربعة أو خمسة الاف جواد فصمم على الاستيلاء على هذه المدينة مهما كلفه الامر .

ومع أن مراد بك هزم فى موقعة سدمنت شر هزيمة فانه لم يستسلم لليأس ولم يكف عن محاربة الجنرال ديزيه فى بلاد الصعيد ، ولذلك رأى هذا الجنرال

أن الحاجة تدعوه للقضاء على قوات مراد بك وطرده الى الصحراء ، فاتخذ ديزيه مدينة بنى سويف مركزاً مؤقتاً لقواته وجعلها قاعدته الحربية ، وطلب من القائد العام للقوات الفرنسية فى القاهرة إرسال الامدادات اللازمة لاخضاع الصعيد ، ولم ير بونابرت إجابة طلبات الجنرال كلها ، ولم يقبل أن يمده بكل القوات التى سأله إياها ، ولـكن الجنرال « ديفو » الذى كان فى ذلك الوقت في القاهرة ، سافر منها بقوة مؤلفة من ١٢٠٠ من الفرسان و ٣٠٠ رجل من المشاة ومعه ستة مدافع، وستة قوارب حربية ، مجهزة بالسلاح والتاريس، وهذه القوة مكنت الجنرال ديزيه من امتلاك ناصية الصعيد، والبحث عن قوات المماليك والجيوش التى كانت تعاون مراد بك ، والقضاء عليها قضاء مبرماً

« وفى ٣ يناير سنة ١٧٩٩ التقى الجنرال ديزيه بفرقة من جيش مراد بك بقرب قرية السواقى ، وسرعان ما وقع الانظار عليها ، حتى تهيأ الجنرال « ديفو » لمحاربتها فصف رجاله وأمرهم بالهجوم فلم يستطع جيش مراد بك الوقوف طويلا، بل اختلت صفوفه ، وولى الادبار ، والقوة الفرنسية مجدة فى أثره ، بعد ان ترك ٨٠٠ قتيلا

وواصل الجنرال « ديفو » الزحف بجيشه ، حتى وصل طهطا فى ٨ يناير ، واضطر جيش مراد الى انتقهقر منها ، بعد أن قذف الرجال الذين كانوا يدافعون عن المدينة بأنفسهم في النهر فغرق منهم عدد عظيم

« ولما رأى الجنرال « ديفو » أن العدو كر عليه ثانية بفصيلة من العرب والمماليك أمر باطلاق النار فاستطاع أن يخضع كل مدن الاقليم ، وأن يعيد المواصلات بينه وبين العمارة البحرية الصغيرة التى انتهزت فرصة قيام الريح ، وواصلت السير فوصلت جرجا فى اليوم السابع عشر من شهر يناير ، وألقت مراسيها على الضفة اليسرى للنيـل ، واستطاع الجنرال ديزيه بفضل ذلك الاتصال أن يواصل فتوحاته ولـكن بعد أن أضاع ثمانية عشر يوماً فى حروب متواصلة مع العدو

«علم مراد بك بهزيمة جيشه فى طهطا ، ولكن فى الوقت ذاته جاءته الانباء مبشرة بصلحه مع حسن بك الجداوي وبوصول شرفاء ينبع وانضمام حسن بك إلى مراد بك ومعه ثلاثة آلاف مقاتل ومائتين وخمسين من المماليك

« وكان لحسن بك نفوذ عظيم فى مصر العليا ، فأثرت أخبار صلحه مع مراد بك تأثيراً عظيماً ووصل الى الصعيد ألفا شريف من أشراف ينبع الذين كان يقودهم حسن بك بنفسه

« كان مراد بك ينسب هزيمته السابقة إلى عدم وجود جيش له من المشاة يحمى ذمارهم ويرد عادية الاعداء عنهم ، وظن الآن أن القدر جاءه بما كان ينقصه إذ علم أن الفين آخرين من الاشراف قد تجمعوا فى ينبع ، ينتظرون وصول السفن لتحملهم وتجتاز بهم البحر الاحمر ، ورأى مراد بك أنه أصبح لديه جيش يبلغ عدده اثني عشر إلى أربعة عشر ألف مقاتل ، فصمم على وضع مشروع جديد للقضاء على جيش العدو وإهلاكه

« أراد مراد بك أن يذهب الى جرجا عند ما يغادرها الجنرال ديزيه ليقوم على تحصينها ويؤيد العصاة فيها ، وبذلك يكون وراء الجنرال ديزيه ويضطره الى العودة للقتال بين المنازل حيث تكون النتيجة انتصار مراد بك ، ولذلك بقى فى الصحراء على الضفة اليسرى لقناة الصعيد الكبرى

وفى ٢٠ يناير سافر الجنرال ديزيه مخترقاً الطريق بين النيل والقناة ، وفى ٢٢ يناير التقى الجيشان فى آخر النهار فى بلدة سمهود ، وكانت القناة تفصل بينهما ولكن القناة كانت جافة لا ماء فيها

« أما الجيش الفرنسى فكان مؤلفاً من خمسة آلاف من المشاة والفرسان وأربعة عشر مدفعاً وعمارة بحرية صغيرة فى النيل ، وجيش العدو كان مؤلفاً من ١٨٠٠ من المماليك و٧ آلاف من فرسان العرب والفين من المشاة من أشراف ينبع وثلاثة آلاف من العرب ولا مدافع عندهم فكان مجموع جيش العدو نحو ثلاثة عشر الفاً أو أربعة عشر الفاً من المقاتلين

« وفى يوم ٢٢ تقابلت فصيلة الهوسار السابعة تحت قيادة القومندان دوبلسى بجيش العدو قريباً من أسوار قرية سمهود وبعد قليل وصل الجنرال ديزيه فأمر مشاته أن يؤلفوا مربعين متساويين ، وضع أحدهما على اليمين والآخر على

اليسار ، وجعل الفرسان فى الوسط يؤلفون مربعاً آخر وليكونوا فى حمى المشاة ، ومع ذلك تقدم العدو على المربعات كلها بدون خوف وأحاط فرسانهم وهم كثيرو العدد بالقوة الفرنسية وألقت جماعة من المشاة مؤلفة من عرب ينبع بأنفسها فى القناة وبدأت تطلق النار بشدة ، فكبدت ميسرة الفرنسيين خسائر فادحة ، وحينذاك اضطر الجنرال ديزيه أن يأمر ضابطى أركان حربه وهما راب وسافارى بالهجوم على العرب ومعهما كوكبة من فرقة الفرسان السابعة من الهوسار بينما أمر فرقة حملة القرابينات الحادية والعشرين أن تتقدم تحت قيادة الكابتين كليمانت على شكل طابور الى القناة لتحصر قوة العدو ، فنفذ ذلك الامر بشجاعة نادرة واضطر العرب الى الفرار من وجه القوة الفرنسية تاركين خمسة عشر قتيلا وعدداً كبيراً من الجرحى ، ولم يفقد من فرقة حملة القرابينات غير رجل واحد أصيب بطعنة خنجر عند ما أراد أن ينزع علماً من أيدى الاعراب وسقطت سمهود فى قبضة الفرنسيين ، ومع ذلك بقيت عصابات عديدة من المماليك تتقدم صائحة صياحا مزعجاً يعاونها عرب ينبع ، وهى تريد استرداد سمهود من أيدى الفرنسيين ، ولكن فرقة حملة القرابينات الحادية والعشرين تصدت لهم وأصلتهم ناراً حامية واضطرتهم الى التقهقر بعد أن كبدتهم خسائر فادحة ، وفى ذلك الوقت انقض المماليك على المربع الذى كان تحت قيادة الجنرال فرانيت بينما كانت فرقة من مشاتهم تضايق الفرقة التى كان يقودها الجنرال بليارد ، غير أن نيران المدفعية الفرنسية الحامية قضت على تلك الجهود التى كان يبذلها العدو حتى اضطر بعد هجوم لم ير فائدة منه أن يولي الادبار تاركا عدداً كبيراً من القتلى والجرحى

« ثم صدر الامر للجنرال ديفو أن يحمل على المماليك الذين كانوا تحت قيادة مراد بك وحسن بك فصدع الجنرال بالامر وحمل على جيش مراد بك حملة صادقة ، حتى اضطره للتقهقر فكان تقهقر مراد بك علامة التقهقر العام

« وهرب العدو والفرنسيون يعملون السيف فى أقفيته مدة أربع ساعات ، ولم يقف الفرنسيون الا فى فرشوط حيث وجدوا عدداً عظيماً من رجال العدو قد

قضوا نحبهم ، وهم متأثرون من جراحهم ، ولم يفقد من الفرنسيين فى تلك المعركة غير أربعة رجال ، أما المماليك فقد قتل منهم اكثر من مائتين وخمسين رجلا بخلاف الجرحى الذين لا يحصى لهم عدد

« وأراد الجنرال ديزيه أن يقتفى أثر مراد بك فى اليوم الثانى ولكن العدو كان يحارب فى بلاده وهو يعرف مسالكها جبالها ووهادها ، أما المشاة والفرسان الفرنسيون فقد كان أنهكهم التعب ولا يستطيعون جر مدافعهم الثقيلة فاضطر الجنرال ديزيه أن يأمر جيشه بالمبيت فى فاو يوم ٢٢ وفى يوم ٢٣ واصل الزحف حتى وصل دندره وعسكر بجيشه فى خرائبها

« وفى يوم ٢٤ زحف وسط سلسلة جبال ليبيا مخترقا وادى النيل فشاهد على بعد آثار طيبة وهيا كلها ذات المائة باب وفى ٢٥ يناير بات الجيش الفرنسى بين الجبلين ووصل في يوم ٢٦ الى اسنا وكان المماليك يفرون أمام الجيش المنتصر ، وهم يحرقون في طريقهم كل ما كان معهم من الخيام والمعدات بعد أن تفرقت جموعهم أيدى سبا

«أما مراد بك وحسن بك ففرا الى بلاد البرابرة والتجأ فيها الالفى بك فاحتل الجنرال ديزيه اسناء وأنشأ فيها استحكامات وبنى المخازن والافران لصنع الخبز اللازم للجنود ومستشفى لتمريض الجرحى والاعتناء بالمرضى وبقى الجنرال فرانيت مع فرقته فى اسنا لمراقبة الالفى بك وحسن بك قائد اشراف ينبع ، واجتاز الجيش ادفو وهى مدينة كبيرة على بعد عشرة فراسخ من اسنا وكان ديزيه مجداً في مقابلة العدو يروم الاسراع في التنكيل به والقضاء على قوآته ، فاجتاز الجبال التى يجرى بينها النيل وكانت الجنود تسير بصعوبة وقد أنهكها التعب حتى وصلوا الى قرية بنبان وباتوا فيها ، وفي ١٢ فبراير عسكر الجيش الفرنسى فى قرية اسوان وهى على الضفة الشرقية، وفى ٣ فبراير تركها عابراً النهر وعسكر قبالتها وهناك يبلغ عرض النيل ٥٠٠ توان ( مقياس طوله ستة أقدام أو ٩٤٩ ر ١ متر ) وعندما ترك ديزيه الضفة اليسرى للنيل فى المرة الاولى ، بقى المماليك عليها لان الوادى

هناك عريض بينما كانت المناورات الحربية مستمرة على الضفة اليمنى ومنها يستطيعون الوصول الي سواحل البحر الاحمر

«وفى اليوم ذاته تمكنت فصيلة من الوصول الى جزيرة أنس الوجود ، وهى آخر حدود المملكة الرومانية القديمة ، فوجدت بقرب شلالات النيل نحو خمسين قاربا محملا بأمتعة المماليك اضطروا لتركها أثناء فرارهم ، ورفعت راية مثلثة الالوان على صخرة عالية هناك ، حياها الجنود بين أصوات الابواق ودق الطبول ، وتناول الخطباء الكلام فشبهوا الفرنسيين بالرومانيين الذين امتلكوا مصر من أقصاها الى أقصاها . وكان الجنرال ديزيه ينوي أن يقيم معسكرات للجنود فى البلاد من قرية اسوان الى جرجا حتى يضمن اخلاد البلاد الى السكينة ، فترك فى قرية اسوان الجنرال بليارد مع فصيلة من المشاة وعاد ديزيه سائراً بفرسانه ، وقد قسمهم قسمين ، أحدهما على ضفة النيل اليسرى ، والآخر على ضفته اليمنى حتى وصل الى اسنا فى اليوم التاسع من شهر فبراير

واضطر الجوع حسن بك أن يترك بلاد البرابرة ويغادرها مع أفراد أسرته ونسائه وأمتعته وكنوزه وثروته ولكي يخلى محلا لمراد بك فانه ذهب الى ضفة النهر اليمنى حيث كان له أعوان ويملك هناك قرى ، ولما علم الجنرال ديفو أن حسن بك اقترب من طيبة رأى أن يعبر النيل مع فرقة الرماة الثانية والعشرين وفصيلة الدراجون الخامسة عشر وفاجأه فى يوم ١٢ فبراير

ولما رأى حسن بك أنه لم يعد فى استطاعته أن يعسكر فى الوادى اضطر أن يفر الى الصحراء ونزل هناك بجنوده

واحتل الجنرال ديزيه اسنا ونشر أعلام الأمن والسكينة وعمل على تنظيم الأقاليم ورفع لواء العدالة ولما علم من الرسل الذين أتوه من جهات مختلفة ، أن مراد بك غادر مكانه وابتعد عنه قاصداً إسنا وأسيوط ، وأن الألفى بك ترك الواحات ، وأن الاشراف وحسن بك خرجوا من الصحراء ونزلوا على ضفة النيل اليمنى ، اسرع بالقضاء

على مشروعات أعدائه فأمر الجنرال بليار أن يغادر اسوان ويذهب الى إسنا مع كل جيوشه، ليقطع على الأعداء خط الرجعة ويحتل ناصية الصعيد، وأمر الجنرال فريانت أن يجمع جنوده ويسير بهم إلى أسيوط ، وأمر العمارة البحرية أن تسير في النيل متبعة أثر الجنرال فريانت الذى سافر بنفسه فى ٢ مارس ليضع يده على أسيوط قبل أن يصلها مراد بك وقبل أن تتصل قواته بقوات الالفى ، فوصل الجنرال فريانت إلى الصوامعة فى يوم ٥ مارس وكان هو فى مقدمة الجيش وقد أمر أن يهيأ مسكن لجنوده ودخل الى هذه المدينة فقوبل بأطلاق النار من البنادق إذ كان يحتل هذه البلدة نحو ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف مقاتل من الفلاحين العصاة ، فهجم عليهم الجنرال فريانت من ثلاث جهات حتى اضطر كثير منهم أن يرموا بأنفسهم فى النيل وفى الغداة واصل الجنرال السير الى جرجا فأسيوط حيث انضم الى الجنرال ديزيه .

ورغما من ذلك فان مراد بك استطاع أن يتصل بالالفى بك ويضم قواته إليه فى اسيوط ، وهناك علما أن الجنرال بونابرت استولى على العريش ، ودخل سوريا ولكن بقى فى القاهرة من الفرنسيين أكثر مما معه في الصعيد وأنه اخلى القلعة وان أهالي القاهرة قدموا له فروض الطاعة وصرح علماء الأزهر بأنه لو اقترب المماليك من العاصمة فان الاهالي والمشائخ ينضمون الى الفرنسيين لأنهم سئموا الحرب ويريدون الجنوح الى السكينة والهدوء .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فان الجنرال ديزيه كان مقتفيا أثر المماليك وهو لا يبعد عنهم أكثر من يومين ، فاضطر مراد بك أن يفر الى الواحة الكبرى والالفى بك الى الواحة الصغرى، وتفرق المماليك فى البلاد متنكرين بثياب الفلاحين.

ومع ذلك بقى حسن بك والشرفاء على ضفة النيل اليمنى ، وما كادوا يجمعون جموعهم فى قنا حتى علموا أن العمارة الفرنسية عاكستها الرياح بقرب بلدة البارود فأسرعوا لمهاجمتها ، وكانت العمارة مؤلفة من اثنتى عشرة سفينة مسلحة بالمدافع الضخمة ومحملة بالمؤن ، والذخائر ، والامتعة ، وخزينة الحرب ، وآلات الموسيقى وتقل نحو ثلاثمائة رجل، فقسم حسن بك جنوده الى قسمين وجعل كل قسم منهما على كل ضفة

من ضفتى النيل ، وانضم اليه نحو ١٠ الاف من الاهالي الذين دفعهم الطمع الى السلب والنهب ، وكانت المعركة شديدة ، واحتل الاعداء الجزر النيلية والمآذن . ولما لم يكن عندهم شيء من المدافع ، هجموا على العمارة البحرية باطلاق نار بنادقهم فتمكنت السفينة « إيطاليا » من أن تبدد شمل العرب وتوقع الاختلال فى صفوفهم ، ولكن هذه الخسارة التى أصابت العرب لم تفت فى عضدهم ولم تثن عزيمتهم ، فأسرعوا إلى النزول في النهر واستولوا عنوة على كل السفن تقريباً ونهبوا الذخائر وحاولوا الصعود إلى السفينة إيطاليا ، والاستيلاء عليها . ولكن قبودان تلك السفينة وهو الكبتن « سورانذي » ضاعف جهوده وأمر باطلاق نيران المدافع فحصدت صفوف المهاجمين ، غير أنه عند اقتراب ساعة الفوز ، كان الملاحون قد أصيبوا بجروح منعتهم من القيام بالمناورة بالسرعة اللازمة ، فدفعت الرياح السفينة الى تل من الرمال حيث سقطت وأحاط بها العرب من كل جهة ، فلما رأى الربان سورانذى أن لا أمل له فى انقاذها أشعل فيها النار بنفسه ، ونسف ما فيها من الذخائر ، وقضى نحبه فيها بعد أن قضى على المحيطين بها انتقاماً لنفسه وللملاحيه وذخائره !! ووقعت السفن الاخرى فى قبضة العدو فاستولوا على ما فيها ، وقتلوا الملاحين وغنم العرب الخزينة وما فيها من المال ، وكانت خسارة الجيش الفرنسى فى تلك المعركة مائتى ملاح ، وثلثمائة جندى ، والمجموع خمسمائة فرنسي وهذه كانت اكبر خسارة تعرض لها الجيش الفرنسي في مصر . وكانت تلك الكارثة التى بقى ذكرها زمناً طويلا سببا دفع الجنود أن يتهموا قائدهم أنه أساء عملا فى وضع العمارة تحت حماية قوة من جيشه ، وانه ارتكب غلطة كبرى لانه ظن أن العمارة تستطيع أن تقتفى أثر الجيش في وقت انخفاض مياه النيل .

ولما علم الجنرال بليار نزل فى النيل ، وسافر فى الحال إلى اسنا وسار على ضفة النهر اليمنى حتى وصل الى قنا ، فعلم أن معركة شديدة دارت رحاها هناك وأن الفرنسيين انهزموا شر هزيمة وفقدوا عدداً عظيماً من جنودهم وأموالهم وأمتعتهم

وفى ٨ مارس التقى الجنرال بليار بجيش العدو عند بلدة « قفط »

وقد رفع رجاله رءوس الفرنسيين على أسنة حرابهم وتبعهم عدد كبير من الفلاحين يرتدون ملابس الفرنسيين التى سلبوها ، و بأيديهم بعض الآلات الوسيقية التى غنموها ، وقد ثمل الاعداء بخمرة النصر ، ونادى حسن الجداوى بأعلى صوته مصرحا على رءوس الاشهاد ، ومتنبئاً أن ساعة الفرنسيين قد دنت وحان يوم هلاكهم وأنهم من اليوم فصاعداً ، لايلقون غير الهزيمة بعد الاخرى ، وأن المؤمنين سيكون نصيبهم النصر والفوز الاكبر

ولما وقعت عينا الجنرال بليار على العدو ، صف جيشه الصغير على شكل مربع ، ووقف لمواجهة خصمه الذي أطلق عليه نيران البنادق ، وحينئذ هجم الجنرال ومعه فصيلتان من الرماة الفرنسيين على حسن بك وجيشه ودارت رحى معركة حامية وانقض فرسان «الدراجون» على العدو والسيوف بأيديهم ،فذبحوا ثلثى العرب وقتل الماجور لابارو اثنين منهم بيده ،وغنم منهم ثلاثة أعلام . و بينما كانت المعركة دائرة ، أطلقت المدافع نارها ، فمنعت الشرفاء من التقدم لنجدة اخوانهم ، ولكن المماليك انقضوا على الفرنسيين من الوراء ، فقطعوا خط الرجعة على نحو ٢٥ رجلا من الرماة الفرنسيين ، وكانت معركة شديدة اذ اضطر الفرنسيون أن يقاتل الواحد منهم ستة من رجال العدو ، وكان ذلك اليوم يوم مجد وفخار للجنرال بليار الذى أمكنه أن ينقذ جيشه ويطهر الصعيد من حسن بك ورجاله ، ولما كانت المواصلات قد قطعت بين الجنرال بليار ونفدت ذخائره ، أسرع بليار فى العودة إلى قنا ، فوصلها في ١٢ مارس ومنها كتب إلى الجنرال ديزيه في اسيوط يشرح له الموقف الذى كان فيه وأنبأه أن المماليك ورجال حسن بك وعثمان بك واعراب ينبع ذهبوا الى جهة بئر البحر ، فجمع الجنرال ديزيه فى الحال سفنه التى بقيت له وسار فى النيل يوم ١٨ مارس ، وفى الغداة نزل البر ، وسار بجيشه لينجد الجنرال بليار ، وفر المماليك بعد هذه المعركة عائدين الى السفينة بعد أن تركوا عدداً عظيماً من الجرحى والخيول فى الصحراء ، فأمر ديزيه الجنرال بليار أن يقتفى أثرهم ويبحث عنهم أين ذهبوا وعاد ديزيه الى قنا ورتب قوة مؤلفة من فصيلة من

الفرقة الواحدة والستين وكوكبة من فرقة الموسار السابعة ، وجعلها تحت أمرة الجنرال ديفو ، وفي الوقت ذاته أمر القائد موراند قومندان جرجا أن يذهب الى الضفة اليمنى للنيل ، ويبقى أمام جرجا حتى يقف فى وجه العدو اذا تقهقر ، ولما شعر العرب بحرج موقفهم لم ينتظروا حتى يسد الجنرال ديفو عليهم الطريق ، ومروا على شاطئ النيل بقرب برديس ، فلما علم قومندان جرجا بوصولهم ، قام فى يوم ٥ ابريل عائداً الى جرجا وأخذ معه ٢٥٠ رجلا ، وذهب لقتالهم فى برديس التى استولى عليها ولما شاهده اعراب ينبع والفلاحون والمماليك خرجوا منها وهم يصيحون صياحا عاليا وأرادوا أن يصدوه عن برديس فلم يستطيعوا واضطروا إلى الفرار ليلا بعد أن تركوا عدداً عظيماً من القتلى ، وحينئذ عاد القائد موراند الى جرجا

وفى اليوم التالى دارت رحى معركة جديدة لان اعراب ينبع ساروا الى جرجا وهم ينهبون فى طريقهم الاسواق ، فترك موراندقوة في المدينة وسار لقتالهم خارجها ففرق جموعهم وقتل من استطاع منهم أن يدخل المدينة ، أما الباقون فهاموا على وجوههم فى الصحراء ، وقد فقد اعراب ينبع فى هاتين المعركتين مائتى قتيل . أما الفرنسيون فجرح منهم عدد قليل

ولما انهزم العرب فى جرجا ساروا الى طهطا لتدميرها وتحريض أهلها على الثورة ، ولما علم القائد لاسال بخبرهم ، أسرع فى الحال بالفرقة الثانية والعشرين من الموسار ، والثامنة والثمانين ، ومعه مدفع ، فوصل إلى جهينة في الساعة الأولى بعد الظهر من يوم ١٠ ابريل ، وكان اعراب ينبع فيها ، فحاصرها بجزء من جيشه ، وسار لمقابلة العدو بالجزء الآخر ، ولما رأى الاعراب ذلك ، انقضوا على الجيش الفرنسى وثبتوا أمامه بضع ساعات رغم نيران المدافع التى كانت تلتهم صفوفهم فقتل منهم عدد عظيم ، ومن بقى حياً فر هارباً ، وتمكن نحو مائتين منهم بفضل الاشجار أن يسيروا الى الصحراء ، وكان بين القتلى الشريف الذى يلى حسن بك في الزعامة ، وقد هلك أعراب ينبع كلهم تقريباً ، ومع ذلك فان الجنرال ديفو لم يكف عن مطاردتهم ، ولم يكد ديفو يصل أسيوط حتى علم أن الثورة قامت فى بنى عدى

بقرب أسيوط ، إذ قام أهلوها وهم أشجع سكان مصر بالانضمام إلى المماليك والعرب وأهالي دارفور الذين جاءوا مع القوافل من قلب أفريقية وشاع أن مراد بك غادر الواحات ليكون على رأس أولئك العصاة ، وانه ارسل بقواته وكشافه لينظموا تلك القوة وليثيروا حمية العصاة

وبينما كان الجنرال ديفو يحارب فى بنى عدى تلك الجموع ويعمل لاهلاكها والقضاء عليها ، كان عرب الجيمات والبقوشية يهددون المنيا ، وقد ثارت أيضاً القرى المجاورة لبني عدى ، ولم يكن مع الجنرال « ديستريه » محافظ المنيا غير عدد قليل من الجنود وأمل أن يصله الامداد حتى يتغير موقفه الحرج وسار اليه الجنرال ديفو لينجده ، ولكنه وصل متأخراً ولم يستطع الجنرال « ديستريه » مقاومة العدو وطرده الا بعد جهد عنيف ، ومع ذلك ذاعت اشاعة أن عرب ينبع واصلوا الزحف الى بني سويف التى هبت فيها نيران الثورة ، وفى القرى المجاورة فأسرع اليها الجنرال ديفو.

ولم يبق فى الصعيد الاعلى غير حسن بك الذى انسحب منذ زمن طويل الى القصير ، وبقى فيها مطمئناً وأصبحت اسوان فى قبضة يده ، فأرسل الجنرال ايبلر قومندان اسنا الكابتن رينو ومعه ٢٠٠ رجل من المشاة للاستيلاء على اسوان وهو إما يجهل عدد القوة التي مع حسن بك أو يظن انها سارت مع القوافل ، ولما علم حسن بك بوصول تلك القوة القليلة العدد تولاه الطرب لأن الفرصة مكنته من الانتقام للمؤمنين ، وأسرع بلقائها ومعه ١٨٠ مملوكا و ٢٠٠ من الاعراب و ٣٠٠ من البيادة ، وعندما رأى الكابتن رينو تلك القوة العظيمة ، لم تأخذه الدهشة ولم يتولاه اليأس ، بل أمر رجاله أن يقفوا على هيئة مربع ، ونادى فيهم بأعلى صوته « أيها الرفاق! ان ابطال ايطاليا[1] لا يعبأون بكثرة عدد اعدائهم فليقاتل كل واحد منكم خصمه وأنا اقضى على الباقى منهم » .. فعلت هذه الكلمة فعلها فى الجند وأثارت حميتهم ، فلم يكادوا يطلقون بنادقهم أول طلقة حتى سقط من المماليك ١٠٠

(١) اشارة الى انتصاراتهم فى ايطاليا .

على الارض يمجون علقما وتجيما . وبعد بضع ساعات تمكن الكابتن رينو من دخول اسوان ووضع يده على الامتعة والجرحى ، وجرح أيضاً حسن بك وعثمان بك جروحا خطرة قضت على حياتيهما بعد بضعة أيام ، أما الكابتن رينو فلم يفقد من رجاله غير أربعة قتلى و١٥ جريحاً ، وكانت هذه المعركة أجمل معركة للفرنسيين في مصر . أما مراد بك فعند ما علم بخبر تلك الكارثة فر الى الصحراء وهلك حسن بك والماليك ، ولم يبق منهم غير شريف واحد من أشراف ينبع .

ولم يبق على الفرنسيين الا أن يحتلوا ميناء القصير والواحة الكبرى والواحة الصغرى ولكن شدة القيظ ووعورة الارض اضطرتا الفرنسيين أن يؤجلوا ارسال الحملة الى الواحات حتى شهر نوفمبر ، ولكنهم رأوا أن يحتلوا القصير في الحال لأن السفن الآتية من بلاد العرب وجدة وينبع كانت تأتي لتحمل الارز والحنطة وبعض الحبوب الأخرى الى بحيث الجزيرة ولا سيما مكة والمدينة ، فرأى الجنرال بليار أنه لا بد من امتلاك القصير في الحال وتحصينها .

وقد عد الصعيد منذ ذلك الوقت أنه قد تم فتحه ولم يبق على الجنرال ديزيه إلا أن يسير حملة لى الصحراء الكبرى للقضاء على قوة مراد بك ، فرأى أن يعهد بها الى الجنرال فراينت ، ذلك القائد الذى اشتهر بالشجاعة والاقدام والمقدرة في الفنون العسكرية ، وكان مراد بك في موقف يرثى له وليس معه غير بعض المماليك والعرب ، فهو لا يستطيع عملا ولا يخشى منه ، ولذلك رأى الجنرال ديزيه أن يتفرغ لتنظيم البلاد فقسم الصعيد الى قسمين وجعل عاصمة الاول اسيوط والثاني قنا واختار لنفسه القسم الاول وبقى في اسيوط وعهد بقنا الى الجنرال بليار .

ولما خضع الصعيد واستتب الامن أظهر الجنرالان قدرة فائقة في الاعمال الادارية لم تكن أقل من قدرتهما في الاعمال العسكرية ، وذهبا الى القرى ليدبرا مع المشايخ والاهالي أمر حفر الترع وتطهيرها ، وإقامة الجسور ووضعا مع رجال البلاد القادرين القواعد التى تضمن تحسين حالة البلاد ، وعملا على اتفاق الحكومة مع الاهالي ، وتركا الناس يهتمون بفلح أراضيهم ، وكان أغنياء البلاد يتمتعون

بثروتهم بدون خوف ، وتغلب العقل والحكمة على الطباع فلم يهب الأهالى للانتقام، ولم يقصر الفرنسيون في محاكمة الجند الذين يعتدون على الأهالي حتى لقب بونابرت بلقب السلطان المظيم ولقب ديزيه بالسلطان العادل ، وأرسل بونابرت الى ديزيه كتابا يثنى عليه قال فيه :

أرسل اليك يامواطني الجنرال سيفاً جميلاً نقشت عليه هذه الكلمة ـ افتتاح الصعيد ـ وهو لم يفتح إلا بفضل مقدرتك وجهودك ، وإننى أرى فى تلك الهدية دليلا على احترامى لك ، وإخلاصى لشخصك . ( بونابرت )

وأرسل أيضا الى كل من الجنرال بليار والجنرال فرايانت سيفاً مزينة قبضته بالماس .

* * *

والى القارىء كل ما جاء في الجبرتى متقطعاً عن المحاربات فى الصعيد قال :

« انه في يوم الاربعاء أول ربيع الثانى سنة ١٢١٣ وردت الاخبار بأن مرادبك ومن معه لما بلغهم وزود الفرنسيس عليهم رجعوا الى جهة الفيوم وان عثمان بك الاشقر عدا الى البر الشرقى وذهب من خلف الى استاذه ابراهيم بك بغزه وخرج جماعة من الفرنسيس الى جهة الشرق ومعهم عدة جمال وأحمال فخرج عليهم النز والعرب الذين يصحبونهم واخذوا منهم عدة جمال باحمالها ولم يلحقوهم . وفى ليلة الأحد ١٢ منه ركب كبير الفرنسيس الى بر الجيزة وسفر عساكر الى الجهة التى بها مراد بك وكذلك الى الجهة الشرقية ومعهم مدافع على عجل . وعينت عساكر الى مراد بك وذهبوا اليه ببحر يوسف جهة الفيوم . وفى يوم الثلاثاء سافر أيضاً جماعة من الفرنسيس الى جهة مراد بك ومن معه والتقوا معهم وتراموا ساعة ثم انهزموا عنهم واطمعوهم فى أنفسهم فتبعوهم الى أسفل جبل اللاهون ثم خرجوا عليهم على مثل حالهم رجالا وتراموا معهم وكمنوا لهم وثبتوا معهم وظهر عليهم المصريون وقتل من الفرنسيس مقتلة كبيرة

وجاء فى حوادث شهر جمادى الاولى قوله « وفى يوم الخميس أول جمادى الاولى

قدمت مراكب من جهة الصعيد وفيها عدة من العسكر جرحى . وفى أول شعبان جاءت الاخبار أن مراد بك ومن معه سافروا الى قبلى ووصلوا الى عقبة الهواء وكلما قرب منهم عساكر الفرنسيس انتقلوا الى قبلى وقد داخلهم خوف شديد ولم تقع بينهم ملاقاة ولا قتال . وجاء فى حوادث شهر رجب تواترت الأخبار من ابتداء شهر رجب بأن رجلا مغربياً يقال له الشيخ الكيلانى كان مجاوراً بمكة والمدينة والطائف فلما وردت اخبار الفرنسيس الى الحجاز وانهم ملكوا الديار المصرية انزعج أهل الحجاز وضجوا بالحرم وجردوا الكعبة وصار هذا الشيخ يعظ الناس ويدعوهم الي الجهاد ويحرضهم على نصرة الحق والدين وقرأ بالحرم كتابا مؤلفاً فى معنى ذلك فاتعظ جملة من الناس وبذلوا أموالهم وأنفسهم واجتمع نحو السمائة من المجاهدين وركبوا البحر الى القصير مع من انضم اليهم من أهل ينبع وخلافهم وورد الخبر فى أواخر رجب انه انضم اليهم جملة من أهل الصعيد وبعض الاتراك والمغاربة ممن كان خرج معهم مع غز مصر عند واقعة انبابه وركب الغز معهم أيضاً وحاربوا الفرنسيس فلم يثبت الغز كعادتهم وانهزموا وتبعهم هوارة الصعيد والمتجمعون من القرى وثبت الحجازيون ثم انكفوا نقلتهم وذلك بناحية جرجا وهرب الغز والمماليك الى ناحية إسنا وصحبتهم حسن بك الجداوى وعثمان بك حسن تابعه ووقع بين أهل الحجاز والفرنسيس بعض حروب غير هذه المرة فى عدة مواضع وانفصل الفريقان بدون طائل » اه

* * *

هاتان هما الروايتان الموجودتان فى كتب التاريخ الفرنسى والعربى اثبتناهما تعريباً ونقلا . وظاهر أن الجبرتى لم يكن يعلم شيئاً عن أخبار فتح الفرنسيس لبلاد الصعيد الا ما يسمعه من أفواه الناس وما يصل من الاخبار المتقطعة الي القاهرة ، وظاهر أيضاً أن هذه المحاربات فى الصعيد بين المماليك والاهالي والعرب من جانب ، والفرنسيين من جانب آخر ، وقعت خلال الحوادث التي افردنا لها الفصول الآتيه . والآن ننتقل الى نابليون فى القاهرة ونتبعه فى غزوته للشام حتى نصل الى نهاية أمره فى أرض مصر .

# الدور الثانى

## من معركة أبى قير الى ثورة القاهرة الأولى

### أغسطس ـ ٢٢ اكتوبر ـ ١٠ جمادى الأولى



— ١ —

## معركة أبى قير البحرية

كانت معركة أبى قير البحرية التى أبصرها « دينون »[1] من برج « أبى مندور » بين الاسطول الانكليزى الذى يقوده الأميرال نلسون ، والاسطول الفرنساوى الذى نقل جيوش الحملة الفرنسية لمصر تحت قيادة الأميرال (برويز) ، من المعارك الفاصلة فى تاريخ الجنس البشرى ، لأن النتائج التى ترتبت على تلك الواقعة كانت على جانب عظيم من الأهمية ، بحيث لو أتيح النصر للفرنساويين ، أولو بقيت لهم من أسطولهم قوة تعادل ما لانكلترا فى البحر الأبيض المتوسط من القوة

---

(١) راجع هامش صحيفة ٢٧ من هذا الكتاب . وكان « فيفيان دينون » كاتباً مصوراً رافق ديزيه فى حملته على الصعيد ، وهى الحملة التى عرضنا حوادثها بايجاز فى الفصل المتقدم ، وقد وضع دينون كتابه المشار اليه باللغة الفرنسية طبعاً . وقد اطلعت على ترجمة له بالانجليزية للمستر فرانسيس بلاجدين مطبوعة فى سنة ١٨٠٢ ( Francis Blagden Esq. ) وتوجد منه نسخة فى دار الكتب المصرية بالقاهرة كما توجد النسخة الفرنسية ، تقول كان هذا العالم دينون فى جهة رشيد مع حملة الجنرال « مينو » التى فتح بها ذلك الثغر وصادف أنه ذهب فى ٣١ أغسطس الى دير فى جهة أبى مندور وكان يوجد قريباً من ذلك الدير برج قديم صعد عليه دينون مصادفة وأبصر على بعد سفن الفرنساويين تحترق ، ومما يقوله بعد أن تأكد أن الدائرة دارت على الأسطول الفرنسى أنه بتلك المعركة قضى على الآمال الفرنسية فى البحر المتوسط وانتقلت السيادة منه الى بريطانيا من ذلك اليوم ، وهذا كلام أيده التاريخ . ولقد رثى دينون الذين سقطوا فى تلك الموقعة من الضباط والملاحين الفرنسيين بكلمات يتقطع لها نياط قلب كل فرنسى مصوغة فى أبلغ ما يكتب الكاتبون ( صحيفة ٩٤ — ٩٥ ) من الطبعة الانكليزية جزء أول

البحرية ، لما كانت خاتمة الحملة الفرنسية فى مصر كما تمت بعد ذلك ، بل لما كانت خاتمة نابوليون فى الشرق كله كما حصلت ! !

ولو شاء الكاتب أن يضرب بالسهم الأوفر فى ميدان التخيلات ، وتصور المحتملات ، لوجد الباب واسعاً لمثل هذه التأملات ! فقد كان من الممكن أن تبقى مصر مستعمرة فرنسية منذ ذلك الحين الى الآن ! ولقد كان من الممكن أن ينجح نابوليون فى الاستيلاء على عكه والتوسع فى مطامعه وأمانيه وآماله فى الشرق ، كما صرح بذلك «لبورين» فى حديث سنأتى عليه . وكان من الممكن — نتيجة لازمة لذلك — أن لا يعود بالسرعة الى فرنسا ليقبض على صولجان ملكها ، ويدوخ الممالك ، ويثل العروش ، ثم يهوى كما يهوى الشهاب النازك !

ولقد أكد الثقاة أن الدولة العثمانية ما كانت لتنضم الى انكلترا فى محاربتها فرنسا ، وتتفق مع الروسيا، عدوتها التاريخية ،لذلك الغرض،الا بعد أن وثقت أن قوة فرنسا فى البحر الأبيض المتوسط قد تلاشت بعد وقعة أبى قير البحرية التى يقول عنها الانكليز في كتاباتهم: «انها لم تكن انتصاراً فحسب ، بل كانت فتحاً » !

وليس مما يهم المؤرخ المصري أن يتوسع فى تفصيل الحركات الحربية لتلك الواقعة ، اذ سواء أأخطأ الأميرال « بروبز » فى أنه لم يعمل بنصيحة نابوليون ، ويذهب بالأسطول الى جزيرة كورفو... وسواء أأخطأ فى أنه حين أبصر الاسطول الانكليزى لم يقابله فى عرض البحر بدلا من البقاء راسياً فى مياه أبى قير ، وسواء أظن أن نلسون لا يهاجمه ليلا أم لم يظن .... فتلك مباحث تهم كتاب الانكليز والفرنسويين والاختصاصيين من رجال الحروب البحرية . وأما نحن فلنا النظر الى النتائج وأثرها فى وطننا المصرى وأمتنا المصرية . ويكفينا فى هذا المقام، من قبيل ما تقضى به الضرورة التاريخية ، أن نذكر أن الاميرال نلسون بعد أن رفض السيد محمد كريم السكندرى السماح بتموينه[1] ، اضطر الى مغادرة الاسكندرية قبل قدوم العمارة الفرنسوية بثلاثة أيام ثم قصد سواحل الشام لأخذ

---

(١) راجع صحيفة ٩٤ من هذا الكتاب

ما يلزمه من الماء والمؤونة ، ثم عاد أدراجه الى المياه المصرية بعد شهرين تقريباً ، فأبصر السفن الفرنسية فى خليج أبى قير فلم ينتظر منها أن تلم شعثها ، بحضور بحارتها الذين كان الكثير منهم فى الاسكندرية ورشيد . وكان من صفات نلسون المعروفة ، الاقدام والجرأة والمجازفة ، وبذلك استطاع فى ليلة واحدة أن يحطم السفن الفرنسوية ، وأن يحرق ويغرق الكثير منها ، بحيث لم يبق من تلك العمارة الكبيرة ، الا بضع سفن صغيرة بقيت فى مياه أبى قير استعملها نابوليون بعد لنقل المدافع الى يافا في حملته على الشام ، واستطاع الكونتر أميرال فيلنوف[1] الهروب ببضع سفن فرنسوية الى جزيرة صقلية ومنها الى فرنسا

ولقد بلغ من انهاك قوة الأسطول الانكليزى بعد هذه الواقعة الهائلة ، أنه لم يستطع القضاء على البقية الباقية من السفن الفرنسية ، وان كانت قد وقعت هذه السفن الباقية ، عند الحملة الشامية ، غنيمة لسفن الأسطول الانكليزى تحت قيادة السر سدنى سميث .

ولنابوليون أقوال كثيرة في الانتقاد على الأميرال (بروبز) الفرنساوى وعلى الكونترامبرال فيلنوف الذى كان في إمكانه — على رأى نابوليون — أن يعود بالسفن التى فر بها ليقضى على الأسطول الانكليزى فى نهاية الواقعة فى منتصف الليل أو فى الصباح . ولكتاب الفرنساويين مناقشات كثيرة فى هذا الموضوع ، بين مخطىء ومصوب ، ومنتقد على برويز ، ومعارض لنابوليون ، نضرب عنها صفحاً ، لانها كما ذكرنا خاصة بهم ، غير أنه لا يفوتنا أن نذكر أن الفريقين من المتحاربين فى واقعة أبى قير — فرنساويين وانجليز — رجالاً وضباطاً وقادة ، قد أظهروا في ذلك الموقف العصيب من صفات الشهامة والبسالة والتفانى في خدمة

---

(1) Contr-Amiral Villeneuve

(فيلنوف) اميرال فرنسى ولد فى سنة ١٧٦٣ ورقى فى سنة ١٨٠٤ الى الاميرالية . وكان فيلنوف سىء الطالع وشؤما على الاسطول الفرنسى . ففى موقعة الطرف الاغر اضطر لنسف سفينته حتى لا تقع فى يد الانكليز وهلك فى هذه الموقعة سبعة آلاف فرنسى وغرقت ١٧ سفينة واسر الانكليز فيلنوف ولما عاد الى فرنسا سنة ١٨٠٦ انتحر فى غرفة بأحد الفنادق لاسباب لم تنشر الا بعد اثنين وعشرين سنة من وفاته .

الوطن ، ما يجب أن يبقى درساً للأجيال الخالفة ، وأن تتعظ به الامم ، وتتفاخر به الدول ، فقد أصيب الأميرال (برويز) بقنبلة ألقته صريعاً على ظهر باخرته لاوريان — (الشرق) وأرادوا نقله الى سفينة أخرى فقال « أتركونى أموت هاهنا »! وأصيب نلسون الأميرال الانكليزى باصابات قطعت لحم جبهته فانهدل على عينيه وظن أنه مائت ، ومع ذلك رفع اللحم بيديه الى جبينه وعصبه ، وبقى يصدر الأوامر لمتابعة القتال ! . . وحكاية ذلك الفتى « كاسبلانكا » ابن الضابط كاسبلانكا الذى بقى والنار تحرق الباخرة أوريان ، لا ينتقل من مكانه لان أباه أمره بالبقاء فيه حتى احترق !! الى غير ذلك من الروايات التى تهز الاوتار الحساسة، وتولد عواطف الحماسة، وتخلد فى أعقاب الأمم الراقية شعور الوطنية والعواطف القومية !

ولقد سبق لنا أن ذكرنا أن نابوليون علم بنكبة أسطوله ، وهو قادم من الصالحية ، ثمل بنشوة الفرح والظفر على ابراهيم بك ومن معه ، وان يكن قد ساءه عدم استطاعته الحصول على ما كان مع ابراهيم بك وبقية الأمراء والمصريين من الثروة والخيرات ، وقد روى « بوريين » فى مذكراته أن كليبر قومندان الاسكندرية إذ ذاك ، لما علم بنتيجة واقعة أبى قير ، أوفد للقاهرة ضابطاً من أركان حربه ببيان مفصل فلما وصل الي القاهرة لم يجد نابوليون بها والتقى ببوريين كاتم أسراره ، فعلم منه بتفاصيل الواقعة وكلفه بالسفر الى الصالحية لملاقاة القائد العام ، وهناك التقى به على بعد فرسخين من الصالحية .

روى كتاب الفرنساويين أن نابوليون لما تلقى نبأ تلك الفاجعة أظهر التجلد ، وأسرع بالعودة الى القاهرة ، فدخلها فى يوم ١٥ اغسطس . وكانت الأخبار قد أشيعت فى القاهرة، وشملت الكآبة من علم بذلك من الضباط والقواد . وقد روى الشيخ الجبرتى الحكاية الآتية . بمناسبة شيوع أخبار معركة أبى قير قال :

« تحدث الناس بتلك الأخبار فصعب على الفرنساويين واتفق أن بعض النصارى الشوام نقل عن رجل شريف يسمى السيد احمد الزور من أعيان التجار بوكالة الصابون أنه تحدث بذلك فأمروا باحضاره وذكروا لذلك ( كذا في الأصل) فقال

أنا حكيت ما سمعته من فلان النصرانى فأحضروه أيضاً ، وأمروا بقطع لسانيهما أو يدفع كل واحد منهما مائة ريال فرنسية نكالا بهما ، وزجرا عن الفضول فيما لا يعنيهما ، فتشفع المشايخ فلم يقبلوا فقال بعضهم أطلقوهما ونحن نأتيكم بالدراهم فلم يرضوا فأرسل الشيخ مصطفى الصاوى فأحضر مائتى ريال ودفعها فى الحضرة »

فتأمل فى هذه المعاملة الغريبة التى يظهر منها تغيظ الفرنساويين وشديد رغبتهم فى أن لا يذاع نبأ تحطيم عمارتهم ، ويظهر أن الفرنساويين الذين فعلوا ذلك لما أحضر الشيخ الصاوى النقود خجلوا من أنفسهم ، ووبختهم ضمائرهم ، اذ يقول الشيخ الجبرتى « فلما قبضها الوكيل ردها ثانية اليه وقال فرقها على الفقراء فأظهر أنه فرقها كما أشار وردها الى صاحبها ، فانكف الناس عن التكلم فى شأن ذلك »

وكان وقع الخبر بطبيعة الحال على الفرنساويين شديداً ، والذى يقوله « ميو » فى مذكراته ، يعبر عن شعور الفرنساويين ، لان « ميو » كما سبق أن ذكرنا ، كان مع نابوليون فى محاربة ابراهيم بك ، وعلم بالخبر عند قدوم رسول كليبر بالقرب من الصالحية ، وقد أكثر « ميو » من الندب والعويل قائلا : « يا رب كيف تنتهى هذه الحملة فى مصر ؟ وكيف نؤمل المساعدة وقد حيل بيننا وبين بلادنا ؟ أنعيش فى مصر بقية حياتنا ، بعيدين عن أولادنا وآبائنا وأزواجنا وخليلاتنا ....؟ فقدنا كل هذا وأصبحنا فى ديار مقفرة ، وبين قوم لا نألفهم ولا يألفونا الخ !! » . وقال بورين : « بالرغم من تجلد نابوليون وتدرعه بالصبر ليبعث الطمأنينة فى قلوب القواد والضباط والجنود ، فانه كان كلما صار على انفراد معى يبدى الجزع ، ويظهر الغيظ والحنق ، قائلا : « إن حكومة الديركتوار مؤلفة من رجال سفلة أدنياء فهم يحسدوننى ويبغضوننى ، وأحب ما يحبون أن أفنى أنا ومن معى في هذه البلاد ، وفضلا عن كل هذا أفلا ترى أن جميع الجنود يتذمرون ولا يود واحد منهم الاقامة هنا » . وقال بورين أيضاً « وعبثاً كنت أهدىء خاطره وأعزيه بقولى : حقيقة إن الخطب جلل ، ولكنه كان يكون أشد وأنكى لو أن نلسون عثر بالحملة وهى قادمة لمصر وحطم عمارتنا وأغرقنا مع جنودنا ، أو لو بقى نلسون فى الاسكندرية أربعا وعشرين

ساعة لكانت القاضية علينا . أما الآن فنحن حكام هذه البلاد ، ولدينا الجنود والذخائر ، والخيرات والاموال »

* * *

— ٢ —

## سياسته بعد المعركة

كان نابوليون رجلا فى مقتبل عمره ممتلىء الصدر بالآمال الكبار ، حديد العزيمة ، قوى الارادة ، فلذلك وطد همته على النظر الى مركزه الجديد بعين الحكمة فجمع لديه نخبة قواده وأركان حربه وألقى عليهم خطاباً حماسياً يحرك الأشجان إذ قال لهم « إن كانت الظروف قضت علينا أن نبقى ها هنا وأن نقوم بأعمال عظيمة لنتم بها ! وإن قضت علينا أن ننشىء مملكة واسعة فلننشئها ! وان كانت البحار فالتى ليست لنا فيها سيادة، قد فصلت بيننا و بين وطننا فانه، لا توجد بحار تفصلنا عن أفريقيا وآسيا ! وها نحن كثير و العدد والعدة ، وان لزمنا جنود أخرى فاننا نجند من هذه الديار وغيرها، وان لزمتنا ذخائر فعلى شامبي و كونتيه[1] أن يقوما بصنعها لنا.. فلنكن عظاما ولنفعل العظائم !»[2] ثم أخذ يشرح لهم مركز القطر المصرى ، وموارده الطبيعية التى تحتاج الى حسن تدبير و نظام كى يعود الى ما كان عليه من الثروة فى الأزمان الماضية ، واذا ساعدت تلك الموارد الطبيعية الصناعة الحديثة ، والعلوم العصرية ، أمكن أن توجد على شواطىء النيل دولة عظيمة الشأن . ثم ذكرهم بأن مركزهم فى مصر حصين ، تحده من الشرق الصحراء ومن الشمال البحر ، وأن أول واجباتهم أن ينشطوا الجنود ، وليذكروا دائما أن الصفات الكريمة فى الانسان إنما تظهر فى أوقات الشدائد ، وختم خطابه قائلا « يجب علينا أن نرفع رؤوسنا ، و نصعد على الموجة ، ونهزأ بالعواصف والزعازع ، فربما قد قدر لنا أن نغير صحيفة الشرق وأن نضع أسماءنا بجانب أسماء أولئك الرجال العظام الذين خلد التاريخ أسماءهم[3] »

كان نابوليون فى « الدور الاول » يريد أن يجعل مصر مستعمرة فرنساوية

---

(١) من علماء الحملة (٢) عن لاكروا نقلا عن املاء نابوليون فى سانت هيلانة
(٣) عن هربرت فيشر

تتصل بفرنسا ، وأما فى هذا الدور ـ بعد أن حيل بينــه و بين وطنه ـ فقد صمم على أن يجعلها دار إقامة ، وقصبة ملك كان يحلم به فى الشرق ، كما هو ظاهر من كلماته التى القاها على ضباطه ، ولذلك كانت خطته السياسية فى هذه المدة ، التوسع فى استجلاب رضاء المصريين والتقرب منهم ، والامتزاج بهم ، فكأنما يقول : أما وقد قضى علينا بالبقــاء مع هؤلاء القوم فلنجتهد فى إدراك تصوراتهم وفهم معتقداتهم ، والاشتراك معهم فى أخلاقهم وعاداتهم . ولطالما قيل أن نابوليون أسلم أو ادعى الاسلام ، وللمؤرخين مناقشات في هذا الصدد سنأتى على شيء منها بعد، والمؤكد في الامر أن فكرة إسلام نابوليون ترجع الى هذه الفترة .

يجوز لنا أن نتصور بحق أن نابوليون ، وقد أدرك واعتقد أو تصور ( لانه لم يكن قط يحلم بأنه يستطيع العودة إلى فرنسا و يؤسس فيها ما أسسه من الملك والصولة والامبراطورية العظيمة ) أنه وقد حيل بينه وبين بلاده ، فانه سيبقى فى هــذا الديار ويقيم فيها سلطة تضارع سلطة المماليك، مثل السلطان حسن أو الغورى أو بيبرس أو صلاح الدين ( ولم يكن الكثيرون من المماليك مسلمين أصلا ) .. ولا يبعد أن نابوليون، مع ما أوتى من سعة القريحة ومضاء العزيمة ، و بعد الخيال ، قد صور لنفسه وفي نفسه مملكة مصرية يملكها « بونابارت » تتسلط على البحر الاحمر و بلاد العرب والشام أيضاً ، ويتم له فى مصر ما تم لمحمد على ، زهوا كفأمنه سياسة وا كثر علما ، ومعه رجال من الدرجة الاولى فى الكفاءة العلمية .. فلماذا لا تكون فكرة الاسلام قد توطدت فى نفسه واعتمدها ، وكان من الممكن ـ اذا لم يستطع مبارحة القطر المصرى ـ أن يقوم بتنفيذها ! وأى خيال يستطيع أن يصور لنا ماذا كان مستقبل مصر ، لو أن نابوليون أسلم حقيقة، وصاغ مصر والشرق على درجة ما استطاع أن يفعل بعد فى فرنسا !!

وكانت الصفحة الثانية من سياسته الداخلية تقضى عليــه بان يهيء لضباطه وجنوده أسباب الراحة والاطمئنان ووسائل التسلية ، ليخفف عنهم ألم الحنين الى الوطن وليوطد عزيمتهم على البقاء فى هذه الديار واتخاذها وطنا ثانياً .

وأما خطته السياسية الخارجية ، تبعا لمقتضى ظروف هذا المركز ، فكانت ترمى

الى التودد الي الدولة العثمانية، وامراء المسلمين فى الشام والحجاز

وسنأخـذ الآن فى بسط الاعمال التى قام بها نابوليون لتنفيذ هـذه الخطة فى وجوهها المختلفة . أما مع المصريين فانه ما كادت تستقر قدمه فى القاهرة حتى أخذ يزور علماء الازهر وكبار المسلمين في دورهم ، ويدعوهم إليه ويحادثهم. ومنهم علم أن موعد الاحتفال بوفاء النيل قد حان، فانتهز هذه الفرصة لاقامة شعائر ذلك الاحتفال بمزيد الابهـة ومظاهر الافراح التى يألفها المصريون ، ويتخذها رجال السياسة آلة لالهاء الشعوب، وصرفها عن أمور كثيرة ، بما فى ذلك من إدخال السرور على الجنود ، وصرفهم عن التفكير فى حقيقة موقفهم

***

## — ٣ —

## حفلات ومظاهر

كان وصول نابوليون للقاهرة مساء يوم الاربعاء (٣ ربيع الاول ـ ١٥ اغسطس) قال الجبرتى « فى يوم الجمعة خاصة أمر صارى عسكر بالاستعداد وتزيين العقبة كالعادة ، وكذلك زينوا عدة مراكب وغلايين ، ونادوا على الناس بالخروج الى النزهة فى النيل والمقياس والروضة على عاداتهم وارسل صاري عسكر أوراقا لكتخدا الباشا (وكيل الوالي الذى بقى بعد خروجه وكان اسمه مصطفى بك)، والقاضى التركي ( الذى ابقوه فى وظيفـة القضاء الشرعى لافهام المصريين أن صفة السيادة العثمانية محفوظة ، ) وارباب الديوان وأصحاب المشورة والمتولين للمناصب وغيرهم بالحضور فى صبيحة (يوم السبت ٦ ربيع الاول و١٨ اغسطس)، وركب (نابوليون) بموكبه وزينته، وعساكره وطبوله وزموره، الى قصر قنطرة السد وكسروا الجسر بحضرتهم وعملوا شنك مدافع ونفوطاً ( أى اطلقوا المدافع والصواريخ ) حتى جرى المـاء فى الخليج وركب وهم صحبته حتى رجع داره»

وكتاب الفرنساويين يصفون ذلك الاحتفال بالتطويل ويقولون إن المصريين على بكرة أبيهم فرحوا وطربوا ، وطبلوا وزمروا ، وأن المشايخ جمعوا بين الدعاء لله

سبحانه وتعالى، والصلوات على نبيه الكريم، و بين الدعاء لنابوليون و باركوه وبجلوه !!
هذا وصاحبنا الجبرتي يقول «وأما أهل البلد فلم يخرج أحد منهم تلك الليلة للتنزه في المراكب على العادة سوى النصارى الشوام والقبط والاروام والافرنج البلديين ونسائهم وقليل من الناس البطالين » ! !

والعلم نقولا الترك يقول في هذا الصدد « وكان موكبا عظيما ومحفلا جسيما يذكر جيلا فجيلا ، وعم الامان كل الناس، وخرج الرجال والنساء من دون بأس ، وصنع امير الجيوش وليمة عظيمة لسائر العلماء والاعيان ، وأهل الديوان والجنرالية والقسالية (لعله يعني أوفسية ـ الضباط ) وحكام الخطوط المصرية ، وقد أعجبت أهل مصر القاهرة ، تلك الاحوال الباهرة »

والفرق بين جلال الجبرتي وتحفظه ، والعلم نقولا الترك ومغالاته، غير خاف سببه

و يظهر أن نابوليون سرته نتيجة ذلك الاحتفال فأخذ يسأل عن الموالد والاعياد ، فعلم أن المولد النبوي يقع في العاشر من شهر ربيع الاول ، فاستدعى اليه السيد خليل البكري وقلده نقابة الاشراف ، بدلا من السيد عمر مكرم الذي سافر مع ابراهيم بك واستقر بغزه ، قال الشيخ الجبرتي ـ وروايته في هذه الامور أصدق الروايات ـ « ثم سأل صارى عسكر الشيخ خليل البكري عن المولد النبوي ولماذا لم يعملوه كعادتهم ، فاعتذر بتعطيل الامور وتوقف الاحوال ، فلم يقبل (نابوليون) وقال لا بد من ذلك ، وأعطى له ثلثمائة ريال فرنسية معاونة ، وأمر بتعليق تعاليق ( كذا ) واحبال وقناديل واجتمع الفرنساوية يوم المولد ولعبوا ميادينهم وضربوا طبولهم ودبادبهم ، وأرسل الطبلخانة الكبيرة ( الجوقة الموسيقية العسكرية ) الى بيت الشيخ البكري ، واستمروا يضربونها بطول النهار والليل بالبركة تحت داره وهي عبارة عن طبلات كبار مثل طبلات النوبة التركية ، وعدة آلات ومزامير مختلفة الاصوات مطربة ، وعملوا حراقة نفوط مختلفة وصواريخ تصعد في الهواء »

وفي رواية كتاب الفرنساويين أن نابوليون أعطى السيد البكري الفاً وثمانمائة فرنك ( فاما أن يكون الريال الفرنسي ستة فرنكات، والمعروف أنه خمسة، أو أن رواية

الشيخ الجبرتى أقل تسعين ريالا ) وأن نابوليون ذهب الى منزل السيد البكرى حيث جلس بجوار المنشدين الذين أخذوا في تلاوة القصة النبوية وكان يهتز معهم كأنما هو مشارك لهم فى التلاوة والنغمات ، ثم مدت الموائد ، كاد عددها يربو على عشرين مائدة نصبت على الطريقة الشرقية فى بهو كبير ، وكانوا يجلسون على وسائد لا على كراسى وحول كل مائدة خمسة أو ستة أنفار ، وقد جلس نابوليون حول واحدة من هذه الموائد وبجواره السيد البكرى ، وتفرق كبار قواده حول الموائد الاخرى يأكلون مع القوم بأيديهم

وكان منزل السيد خليل البكرى إذ ذاك بالقرب من بركة الازبكية فى الجهة الجنوبية من ميدان الاوبرا الحالى،حيث العمارة المطلة على الميدان الآن ، وكان السيد خليل البكري من الذين توددوا للفرنساويين كثيراً ، ولقى بسبب ميله اليهم متاعب كثيرة فى أثناء التقلبات والثورات التى سيجىء ذكرها ، ولم يكن السيد خليل البكرى المشار إليه من ذوى الاخلاق الفاضلة ، بل كان ـ كما يؤخذ من ترجمته فى وفيات الجبرتى ومن أخباره الواردة عنه ـ ،متساهلا في أمور دينه على شاكلة أبناء الاسر العريقة في الحسب الذين أخذوا بأسباب النعيم والترف . وللجبرتى كلام طويل عن خروج ابنة البكرى « عن حدود الحشمة مع الفرنساويين »، وعن السيد البكرى ومملوكه ، نضرب عنه صفحا ، وإنما أشرنا إليه من قبيل وصف الحالة الاخلاقية لبعض دعاة الامة فى ذلك الحين . والمعلم نقولا الترك يذكر السيد البكري ، بعد حكاية مولد النبي فيقول عنه « وقد كان السيد خليل البكرى محبا لجمهور الفرنساوية، فلأجل ذلك بغضه الاسلام ( أى المسلمون ) المصرية »

وما كاد يفرغ نابوليون من هذا الاحتفال حتى فكر فى تقليد إمارة الحج : قال الشيخ الجبرتى « وفى عشرين ( ربيع الاول ـ أول سبتمبر ) قلدوا مصطفى بك كتخدا الباشا على إمارة الحج فحضر إلى المحكمة عند القاضى ولبس هناك الخلعة بحضرة مشايخ الديوان، والتزم بونابرته بتشهيل مهمات الحج » وقد نشر لاكروا خطابا كتبه نابوليون فى ذلك الوقت ليبعث به الى الشريف غالب بن مسعود أمير مكة

ولم يرد لهذا الخطاب ذكر فى الكتب العربية ، ولذلك رأينا أن نأتى على نصه :

الى الشريف غالب بن مسعود

« فى الوقت الذى انبئوك فيه بدخول الجيش الفرنسى الى مصر ، أرى من الواجب علىَّ أن اؤكد لك بان نيتى ترمى إلى تأمين طريق الحج الى مكة بكل الوسائل الممكنة وستبقى المساجد والاملاك التى للحرمين الشريفين فى مصر كما كانت فى الماضى لا ينازعها فيها منازع

أننا أصدقاء لنبى المسلمين ولدينهم وسنعمل كلما نستطيعه لارضائكم وللتودد الى الدين الاسلامى

أريد منك أن تعلن الناس فى كل مكان أن قوافل الحج لا تلقى فى طريقها مقاومة بل ستكون محمية بطريقة تجعلها فى مأمن من اعتداء البدو عليها

( بونابرت )

فانظر الى هذه الدعاوى وتفهم منها ما كان يرمى اليه نابوليون فى سياسته

وهكذا أخـذ نابوليون يتودد بجميع الوسائل للمصريين وعلمائهم وكبرائهم فكانت أوامره للقواد الذين عينهم فى جهات القطر المصرى مشددة بضرورة المحافظة على عادات المصريين وتقاليدهم ، وعدم التعرض لدينهم وأموالهم وأعراضهم ، وكان يوصى بذلك جميع الضباط والجنود المقيمين فى القاهرة وضواحيها ، ثم كان لا يفتر لحظة عن استرضاء المشايخ والسؤال عن خاطرهم ، والاجتماع بهم ، والتحدث معهم فى المسائل العمومية وفى الاديان ، مظهراً عظيم ميله الى الدين الاسلامى الي غـير ذلك من وسائل التلطف وحسن السياسة ونهاية الدهاء

وكان مما التفت اليه ، للتأثير على جيشه وحمله على الرضى بحالته ، أن شرع فى الاستعداد لاقامـة احتفال كبير يوم تذكار تأسيس الجمهورية الفرنساوية ، وكان ذلك اليوم يقع فى ٢٢ سبتمبر ، ولكن نابوليون شرع فى الاستعداد للاحتفال به فى الاسبوع الاخير من شهر اغسطس ، عقب الاحتفال بالمولد النبوى مباشرة ، ونص الامر الذى أصدره ، لبيان برنامج ذلك الاحتفال ، مؤرخ في ٢٦ اغسطس . وهذا

الامر يقضى بأن تحتفل الجنود الفرنساوية الموجودة فى القاهرة حول بركة الازبكية، والتى فى الاسكندرية عند عمود السوارى ، والتى فى الصعيد على أطلال طيبة (مع أنه فى ذلك التاريخ لم يكن «ديزيه» قد برح بجيشه الفاتح للصعيد بلدة بني سويف) وقد وصف الجبرتى الزينات التى أقامها الفرنساويون للاحتفال بعيدهم هذا ، فقال « إنهم أقامو فى وسط بركة الازبكية صاريا عظيما ( مسلة ) نقشوا عليها تصاوير سواد فى بياض ووضعوا قبالة باب الهواء بالبركة شبه بوابة كبيرة عالية (قوس النصر ) من خشب مقفص وكسوها بالقماش المدهون مثل لون الصارى ونقشوا عليها تصاوير حرب المماليك المصرية معهم وهم فى شبه المنهزمين بعضهم واقع على بعض، و بعضهم ملتفت الى خلف ، وعلى موازاة ذلك من الجهة الاخرى بناحية قنطرة الدكه التى يدخل منها الماء الى البركه مثال بوابة أخرى ، وأقاموا أخشابا كثيرة منتصبة مصطفة منها الى البوابة الاخرى شبه الدائرة متسعة محيطة بمعظم فضاء البركة ، بحيث صار عمود السوارى ( المسلة ) الكبير المنتصف المذكور فى المركز ، وربطوا بين تلك الاخشاب حبالا ممتدة وعلقوا بها صفين من القناديل، وبين ذلك تماثيل لحراقة البارود وأقاموا فى عمل ذلك عدة أيام ... » ولا ينقص وصف الشيخ الجبرتى شيء، سوى أن تلك الاخشاب المنتصبة كانت مائة عمود وتسعة أعمدة عداً رفع على كل عمود منها راية وكتب عليها أسماء مديريات فرنسا، وأن تلك التماثيل التى ذكرها كانت بشكل هيا كل نقش عليها أسماء الذين قتلوا فى معارك المماليك بمصر

وفى الساعة السابعة من صباح يوم السبت ( ١١ ربيع الثانى ـ ٢٢ سبتمبر ) اصطفت الجنود على النظام الذى اعد لها وتقدم نابوليون يحف به قواده وأركان حربه ورؤساء المصالح وأعضاء المجمع العلمى ( سيأتى الكلام عليه ) وأعضاء الديوان وكتخدا الباشا ... ولنترك للشيخ الجبرتى الكلام على طريقته اللذيذة قال :

« وفى حادى عشرة كان يوم عيدهم الموعود به فضربوا فى صبيحته مدافع كثيرة ووضعوا على كل قائم من الخشب بنديرة من بنديراتهم الملونة، وضربوا طبولهم، واجتمعت عساكرهم بالبركة الخيالة والرجالة، واصطفوا صفوفا على طرائقهم المعروفة بينهم،

ودعوا المشايخ وأعيان المسلمين والقبطة والشوام، فاجتمعوا ببيت صارى عسكر وجلسوا حصة من النهار، ولبسوا في ذلك اليوم ملابس الافتخار ولبس المعلم «جرجس الجوهرى» كركه بطرز قصب على أكتافها الى أكمامها، وعلى صدرها شمسات قصب بأزرار (مترة تشريفة فرنساوية) وكذا «فلتيوس» وتعمموا بالعمائم الكشميرى، وركبوا البغال الفارهة، واظهروا البشر والسرور فى ذلك اليوم الى الغاية. ثم نزل عظماؤهم (الفرنساوية) وصحبتهم المشايخ والقاضى وكتخدا الباشا وركبوا وذهبوا عند الصارى الكبير الموضوع بوسط البركة، وقد كانوا فرشوا فى أسفله بسطا كثيرة ثم أن العساكر لعبوا ميدانهم، وعملوا هيئة حربهم (مناورة) وضربوا المدافع والبنادق، فلما انقضى ذلك اصطفت العساكر صفوفا حول الصارى، وقرأ عليهم كبير قسوسهم ورقة بلغتهم، لا يدرى معناها الا هم وكأنها كالوصية أو النصيحة أو الوعظ »

وليت شعرى: هل كان الشيخ عبد الرحمن الجبرتى أحد المدعوين فى ذلك الاحتفال، حتى أنه شهده من قرب واشترك فيه؟ أو أنه كان من المتفرجين من بعيد؟؟

كل الدلائل تشير الى أنه كان من المدعوين، لانه كان من كبار العلماء الذين يشار اليهم، وكان قبل من المقربين الى المماليك، فلا يعقل أن تترك دعوته، وإن ساءه من المعلم جرجس الجوهرى والمعلم فلتيوس لبسهما تلك الملابس المقصبة، إلا أن النقطة التى يصعب علينا تحقيقها، هى قوله أن كبير قسوسهم (الفرنساويه) قرأ عليهم ورقة بلغتهم، ولم يك مع الفرنساويين قساوسة، فقد كانوا خرجوا من جميع الاديان فى الثورة، وكتاب الفرنساويين يقولون أن الذى تلا ذلك الخطاب على الجنود، هو نابوليون نفسه! فكيف أخطأ الجبرتى فى تمييزه بين «صارى عسكر بونابرته»، وبين «كبير قسوسهم»؟؟ وإن يكن من المحتمل كثيرا، أن يكون نابوليون قد كتب ذلك الخطاب وعهد إلى أحد كبار العلماء بتلاوته، إلا أن «ميو» وهو أيضاً شاهد عيان، يقول أن الذي خطب فى الجنود هو نابوليون بصوته الرنان، والمعلم نقولا الترك وهو شاهد عيان آخر، لم يذكر شيئا عن خطاب ما، وأحسن ماورد فى عبارته عن هذا الاحتفال قوله عن الصارى الكبير الموضوع فى وسط الازبكية

« إن الفرنساويين كانوا يسمونه شجرة الحرية ، وأما أهالي مصر فكانوا يقولون إن هذه إشارة الى الخازوق الذى أدخلوه فينا باستيلائهم على مملكتنا » !

وإنى لا أشك فى أن عبارة العلم تقولا هذه صحيحة، فهى وإن تكون من نكات العامة فى مصر، ومع أنها سخافة من سخافاتهم ، إلا أنها تعبر عن شعور القوم فى ذلك الحين ! وغريب تصورهم أنه كانت لهم مملكة وضاعت ، مع أنهم كانوا دائما عبيداً للحكام المماليك ،وهم لا يقلون فى الاجنبية عن أولئك الفرنساويين ، سوى أن أولئك كانوا مسلمين ( وإن كان إسلامهم ضعيفا ) ، وهؤلاء كفار ، لا يعرف لهم دين ولا عقيدة

فهذه قوة اليقين عند المسلمين، وهذه عقيدتهم الدينية التى جعلت مصطفى كامل بعد هذا التاريخ بمائة عام ، — تغيرت فيها المذاهب ، وتبدلت فيها العقائد ، — لما حاجه بعضهم في تعلقه بالدولة العثمانية مع ظلم الاتراك ، واستبداد السلطان عبد الحميد ، وهو ( أى مصطفى كامل ) من طلاب الحرية والدستور !! ، يصرح فى إحدى خطبه بقوله « إننا نقول وسيف السلطان على رقابنا : ليحى جلالة السلطان » وفى هذا قد عبر مصطفى كامل عن شعور المسلمين في جميع بقاع الارض . وعلى كل حال فنحن نأتى على نص خطاب نابوليون من المصادر الفرنساوية لاهميته التاريخية :

* * *

« أيها الجنود

اننا نحتفل بتذكار اليوم الأول من السنة السابعة لاقامة الجمهورية الفرنساوية . فمنذ خمس سنوات كان استقلال الشعب الفرنساوى مهدداً ولكنكم أنتم باستيلائكم على طولون قد قضيتم على مقاصد أعدائكم . ولم تمض سنة على ذلك حتى كنتم قد قهرتم النمساويين فى موقعة ديجو ( Dego ) وفى السنة التالية كنتم تشرفون من قمم جبال الألب ( على الممالك النمسوية ) ، ومنذ سنتين فقط كنتم تهاجمون أسوار مانتوا ( Mantuoua ) ، وحزتم ذلك النصر الباهر عند قرية سان جورج . وفى السنة الماضية كنتم عند منابع نهرى درافا والاسونزو ، عائدين من انتصاراتكم فى ألمانيا ! فمن كان يظن أنكم فى هذا اليوم تكونون كما أنتم الآن على ضفاف نهر النيل ،

في وسط هذه القارة العتيقة؟ ! فاعلموا أن أمم العالم — من الانكليزى المتمدين الراقى إلى البدوىّ المتوحش — تنظر اليكم محدقة .

أيها الجنود — إن مستقبلكم باهر لأنكم جديرون بما قمتم به من جلائل الأعمال، وجديرون بالحكم الذى يحكمون به عليكم ، فاما أن تموتوا موت الأبطال الذين نقشت أسماؤهم على هذا الهرم ، وإما أن تعودوا لوطنكم مكللين بغار الفخر والفخار ، ومصحوبين باعجاب العالم من صغار وكبار ! واعلموا أننا منذ برحنا وطننا ونحن موضوع رعاية وعناية أبنائه . وفى هذا اليوم يحتفل مثلكم أربعون مليوناً من الفرنساويين بخلع نير الاستبداد وباقامة الحكم الدستورى، وهم فى أفراحهم يذكرون انهم مدينون لأعمالكم ولدمائكم فى حفظ السلم ونمو الثروة والتمتع بالحرية المدنية ! »

فلما فرغ من تلاوة هذا الخطاب الذى قصد به مع كل هذا الاحتفال ، تمليق مشاعر الجنود وتطييب خواطرهم ، هتفوا فلتحيي الجمهورية ! وليحيي الجنرال بونابرت ! وذهبت شرذمة من الجنود تحمل الراية المثلثة الألوان الى الجيزة لتقيم تلك الراية على أعلى نقطة في الاهرام وعاد نابليون الى داره . قال الجبرتى :

« ثم رجع صارى عسكر إلى داره فمد سماطاً عظيما للحاضرين فلما كان عند الغروب أوقدوا جميع القناديل وعملوا حراقة وسواريخ ».. إلى آخره .

* * *

— ٤ —

## المسلمون والأقباط

إن يكن الشيخ الجبرتى قد ساءه من المعلم جرجس الجوهرى، كبير الأقباط فى ذلك العهد، توشحه بتلك الملابس المذهبة فى الاحتفال ، وخروجه مع أمثاله عما اعتاده من الملابس التى ألفها المصريون ، إلا أنه مع ذلك قد كان من المحبين للمعلم جرجس، ومن المعجبين به، وحقيقة يظهر من غالب ما كتبه الجبرتى عنه، أو من بقية الأخبار التى وردت عن ذلك الرجل ، أنه كان من أكابر القوم، جامعاً لكثير من الصفات الطيبة ، فهو لم يفعل مثل المعلم « يعقوب » الذى خرج عن حدوده وجمع له جنداً من بعض فقراء الأقباط ، وكاشف المسلمين بالعداوة ، كما سيأتى فى مكانه .

وقد ذكر الجبرتي في وفيات سنة ١٢٢٥ ـ ، بعد الحوادث التي نحن بصددها باثنتي عشرة سنة ـ ، ترجمة المعلم جرجس الجوهري وأطراه .. قال: «مات المعلم جرجس الجوهري القبطي كبير المباشرين ، وهو أخ المعلم ابراهيم الجوهري ، ولما مات أخوه في زمن رياسة الامراء المماليك تعين مكانه في الرياسة على المباشرين والكتبة ، وبيده حل الأمور وربطها في جميع الأقاليم المصرية ، نافذ الكلمة ، وافر الحرمة ، وتقدم في أيام الفرنسيين فكان رئيس الرؤساء ، وكذلك كان مع العثمانيين لما كان يسديه إليهم من الهدايا والرغائب ، ورأيته يجلس بجانب محمد خسرو باشا ( سيأتي ذكره في تاريخ محمد على ) وبجانب شريف افندى الدفتردار ، ويشرب بحضرتهم الدخان ، وكان عظيم النفس ويعطى العطايا ويفرق على جميع الأعيان عند قدوم شهر رمضان من الشموع العسلية والسكر والارز والكساوى والبن ، ويعطى ويهب ، وأنشأ داراً كبيرة عند قنطرة الدكة »

وبهذه المناسبة لانجد مناصاً — خصوصاً وقد ذكرنا تقرب نابليون من المسلمين وعلمائهم وتودده لهم ولدينهم ومعتقداتهم ـ أن نقول كلمة في هذا المكان عن سلوك الفرنساويين مع النصارى عموماً ، والأقباط خصوصاً في ذلك العهد ، ولقد كنت أظن أن حنا بك شاروبيم يخصص في كتابه ( الكافى ) فصلا لهذا الموضوع فلم أجده أعاره أدنى نظرة ، ولعل له في ذلك حكمة

ليس لدينا تعداد موثوق به عن سكان القطر في زمن الفرنسيس ، ولكن يؤخذ من المصادر الفرنسية أن عدد الأقباط كان في ذلك الحين من تسعين الى مائة ألف على رواية ( لاكروا ) ، أى نحو ثمن عددهم اليوم ، فاذا لاحظنا أن عدد المسلمين ، منذ ذلك الحين قد تضاعف خمس مرات ( أى من مليونين ونصف مليون ) تقريباً الى ثلاثة عشر مليوناً في الوقت الحاضر فيكون الأقباط قد تضاعفوا ثمانية مرات وهي نتيجة غريبة مع وجود تعدد الزوجات عند المسلمين ، ومع التساوى في حالة الرخاء والطمأنينة في القرن التاسع عشر ، وربما كان عددهم أكثر مما ورد في رواية ( لاكروا )

وليس بضائر الأقباط اذ ذاك أن يلجأوا الى الفاتحين ويتوددوا اليهم ، ويفرحوا بقدومهم للخلاص من مظالم المماليك وسوء معاملتهم وبقائهم محتقرين فى بلد ، يعتقدون أنها في الأصل بلدهم ، وان كان الاقباط على ما اعتقد قد كانوا أحسن حالا من مواطنيهم المسلمين : لان الاقباط كانوا آلات المماليك فى تحصيل الضرائب ، وكانوا كتاب أيديهم والمباشرين لاعمالهم الحسابية ، وأمورهم الداخلية ، ومن ذا الذى كان من المصريين المسلمين فى زمن المماليك « فى يده حل الامور وربطها فى جميع الاقاليم المصرية ، نافذ الكلمة موفور الحرية » مثل المعلم جرجس الجوهرى ، كما قال عنه الجبرتى ؟

كان ظلم المماليك فى الحقيقة واقعاً فى الأكثر على الفلاحين المسلمين ولم يكن الأقباط فى ذلك الوقت ممن يشتغلون بحراثة الأرض وزرعها ، كما انه قد كان فى دهاء الاقباط وحسن حيلتهم وصفاتهم الكثيرة التى أوجدها أثر الاستبداد فى نفوسهم ، خير واسطة للتخلص من المظالم والتقرب من الحكام ، بما لا يتيسر فى كثير من الاحوال لمواطنيهم المسلمين ، وزد على هذا أنهم لكونهم فئة قليلة مستضعفة ، كانوا أكثر اتحاداً ، وأحسن معاونة لبعضهم البعض من المسلمين ، بحيث اذا لحق واحد منهم ظلم وجدت كبراءهم فى ذلك الزمن يذهبون الى الحكام ويتوسلون اليهم فى منع الظلم عن ابن طائفتهم

ومع هذا نقول لا غضاضة عليهم اذا فرحوا بقدوم الفاتح الاجنبى تخلصا من احتمال الظلم على كل حال . ولم يكن عند الاقباط ، ولا عند المسلمين فى ذلك الزمن ، عاطفة وطنية ، اذا لم يكن الوطن لهؤلاء ولا لهؤلاء : واما اذا كان المسلمون بعكس ذلك من حيث عدم الرضى عن الفاتح الاجنبى ، وميلهم للاتراك والمماليك ، فذلك لاسباب كثيرة أهمها الرابطة الدينية بينهم وبين دولة الخلافة الاسلامية ، التى لم يكونوا يعتبرونها دولة أجنبية عنهم ، وبسبب هذا الشعور تمكن الاتراك من المصريين فى مصر ، وكذلك من العرب فى آسيا ، وأبقوهم تحت سلطانهم الى عهد قريب جداً

والآن نبحث فى : هل كان من وراء تودد الاقباط للفرنساويين فائدة للاقباط ؟

وترقية أحوالهم ؟ الجواب على هذا صريح واضح ، وهو أنه إن لحق المسلمين ظلم واحد من الغاصبين ، فانه قد لحق الاقباط ضعف ذلك ، والقضية فى هذا الشأن بديهية لا تخفى الا على عمى البصيرة الذين تغرهم الزخارف ، والذين تخدعهم أقوال الفاتحين الاجانب وتوقعهم فى حبائل مكرهم . إذ لا نزاع مطلقا فى أن الفاتح الاجنبى إنما يعمل جهده لارضاء الاغلبية بالتودد لها والتقرب منها ولا يهمه أن يستضعف جانب الاقلية أو تهضم حقوقها . وتبقى دائما هذه خطته مهما تظاهر بعكس ذلك أمام الاقلية بقصد غرس أسباب النفرة ليسود بالحكم من جراء التفرقة

ولو كان نابوليون يثق بأنه اذا أباد الاقباط على بكرة أبيهم ينال ثقة المسلمين ويحل فى قلوبهم محل العثمانيين ، لما تأخر عن ذلك طرفة عين !! ثم هل ادعى نابوليون المسيحية الأورثذكسية كما ادعى الاسلام وتظاهر بمدح الدين الاسلامى ؟ وقد كان أقرب للتصديق فى الاولى من الثانية !

خذ المثال الآتى : قال الجبرتى فى حوادث شهر رمضان من تلك السنة « نبهوا الفرنساوية بالمناداة فى أول رمضان بأن نصارى البلد يمشون على عاداتهم مع المسلمين أولاً ، ولا يتجاهرون بالاكل والشرب فى الاسواق ، ولا يشربون الدخان ولا شيئا من ذلك بمرأى منهم .. كل ذلك لاستجلاب خواطر الرعية حتى أن بعض الرعية من الفقهاء مر على بعض النصارى وهو يشرب الدخان ، فانتهره فرد عليه رداً شنيعا ، فنزل ذلك المتعمم وضرب النصرانى واجتمع عليه الناس وحضر حاكم الخطة ، فرفعهما الى قائمقام ، فسأل من النصارى الحاضرين عن عادتهم فى ذلك فأخبروه عن عادتهم القديمة أنه اذا استهل شهر رمضان لا يأكلون ولا يشربون في الاسواق ولا بمرأى من المسلمين أبداً . فضرب النصرانى وترك المتعمم لسبيله »!

وذكر الجبرتى في حوادث يوم ٨ جمادى الآخرة قال « وفيه قتلوا (الفرنساوية) أربعة أنفار من القبط قيل إنهم سكروا فى الخمارة وعربدوا فاغتاظ لذلك القبطة » وقس على هذا كثيراً

ولكن الاقلية مع الاسف تنسى دائما هذه الحقيقة البديهية ، ونعني بها سعى القائم الاجنبى فى إرضاء الاكثرية ، فاذا حدثت قلاقل ومشا كل يحرض ذوو الاغراض من الطرفين الطبقة لواطئة فتتسع الهوة ، ثم متى تأكد الحاكم الاجنبى أن الاكثرية غير راضية عنه وغير ممكن استجلاب خواطرها ، كما تأكد ذلك الفرنسيون بعد ، فانه يأخذ فى إيغار صدور الفئة القليلة ويظهر نحوها انعطافه وحمايته فيحدث مثل ما حدث من المعلم يعقوب ، وتأليفه فرقة من فقراء الاقباط لمقاومة المسلمين ومحاربتهم ، وكانت عاقبة ذلك وبالا على شخصه هو ، حتى اضطر أن يهجر وطنه ويسافر مع الفرنسيين عند خروجهم ، كما سيجيء ذلك مفصلا فى مكانه

إلا أنه من مصلحة الاغلبية ، أكثر مما هو فى مصلحة الاقلية ، أخذ الاغلبية للأقلية تحت جناحها بما تظهره نحوها من واجب الانعطاف ، وما تبديه من حسن الصلات ، لأن الاقلية فى كل زمان ومكان مستضعفة ميالة إلى المودة والرعاية ، فاذا قابلتها الاكثرية فى ربع الطريق قطعت لها الأقلية ثلاثة أرباعه الباقية ، وباجتماع الكلمة تسهل للاكثرية مقاومة الاجنبى ، ومصادمة الحوادث ، ومقارعة الدسائس ، دون أن تشعر بثغرة فى حصنها ، أو ثلمة فى درعها ، أو فلول فى سيوفها . وبهذا تقضى السياسة والمصلحة ، وبهذا يقضى العدل ، وبهذا تقضى الوطنية ، بل بهذا يقضى الدين نفسه الذى يتخذه الفريقان آلة للتفريق .

والخلاصة أن أبناء الوطن الواحد متكافلون متضامنون ، إن أصاب فريقا منهم خير أصاب الآخر ، فان أصلح الحاكم ، أجنبيا كان أو غير أجنبى ، عم الاصلاح ، وإن أفسد عم الخراب ولحق الواحد ما يلحق الاخر ، واليوم الذى يكون رائد المسلمين والاقباط الوطنية ومصلحة الوطن ، مع انصراف كل فريق لاصلاح شؤونه الخاصة به ، هو اليوم الذى يقال فيه إن مصر قد تكونت فيها قومية متماسكة جديرة بأن تحل المحل اللائق بها بين الامم الراقية .(١)

---

(١) كتبت هذه الكلمة فى سنة ١٩١٦ — خلال الحرب قبل اتحاد المسلمين والاقباط فى نهضة مصر الاخيرة ، ويسرنى انى اصبت كبد الحقيقة ، واستمجلت الحوادث ، ادام الله اتحاد الامة المصرية

— ٥ —

# سياسة الانشاء للبقاء

كان من مقتضى سياسة نابوليون فى هذا الدور أن يدرس طبيعة البلاد و يقف على جميع مواردها ويجمع الوسائل التى يستطيع بها طول البقاء فيها ، وبالجملة يوطن نفسه ومن معه على الرضاء بمصر والاستفادة منها ، وإن أمكن فليجعلها النقطة المركزية لفتوحاته وآماله فى الشرق . ولكي يصل الى هذه الغاية فكر فى انشاء المجمع العلمى المصرى (انسيتو ديجيت) الذى لا يزال موجودا بالاسم الى الآن ، يجمع بين أعضائه فى الوقت الحاضر زمرة من اهل العلم والفضل من الاجانب و بعض المصريين وكان صدور أمره بذلك فى ٢٢ اغسطس سنة ١٧٩٨ ولا حاجة بنا الى تعريب نص ذلك الامر، بما فيه من بيان اختصاصات ذلك المجمع وجلساته وأعضائه وأعماله، ولكننا نكتفى لفائدة التاريخ بالبيان الآتى :

يتألف أمر نابوليون بانشاء المجمع العلمى المصرى من ستة وعشرين مادة أهم ما فيها أن الغرض من المجمع (١) تقدم ونشر العلوم والمعارف فى الديار المصرية (٢) بحث ودراسة وطبع المباحث الطبيعية والصناعية والتاريخية لمصر (٣) استشارته فى المسائل المختلفة التى ترى الحكومة عرضها عليه . ومن هذا يرى أن المجمع انشىء ليؤدى وظيفتين، علمية بحتة وادارية حكومية، لتسهيل مهمة القائمين بادارة الاحكام . وجاء في المادة الثالثة من هذا الامر أن المجمع يؤلف من اربع دوائر . وقال فى المادة الرابعة إن هذه الدوائر الاربع هى للرياضيات ، والطبيعيات ، والاقتصاد السياسى ، والآداب والفنون . والمادة الخامسة قررت أن تتألف كل دائرة من اثنى عشر عضواً وينتخب للجميع رئيس ووكيل وسكرتير ومدير أعمال ، وقرر أن تطبع اعمال المجمع كل ثلاثة شهور ، وعين أول رئيس للمجمع العالم الكبير مسيو مونج Monge وخص نابوليون بوكالة الرئيس ، ومسيو فوريه Fourier سكرتيرا ومسيو كوستاز Costaz لادارة الاعمال

قال لا كروا : إن إنشاء المجمع لفت نظر الاهالى فان المكتبة وجميع الآلات والادوات الخاصة بدراسة العلوم الطبيعية والرياضية والنباتات المختلفة والاحجار المتنوعة التي جمعها العلماء لتحقيق مباحثهم ، وما اشبه ذلك من الامور ، استدعى اهتمام الاهالى فصاروا يفكرون فى الاسباب الداعية لهذه المساعى ، حتى لقد خيل لهم أن الغرض منها صناعة الكيمياء أو صناعة الذهب ! ولكن لما أدركوا الغرض الحقيقى من ذلك تحببوا الى العلماء وتقربوا اليهم ومال اليهم المتعلمون من المصريين وكثير من الطبقة الواطية من أصناف العمال والصناع الذين كان العلماء يسألونهم عن صناعاتهم وأعمالهم .

ولنرجع الى شيخنا الجبرتى فهو من اهل العلم الذين يقدرون القائمين به حق قدرهم . ولقد كتب فى هذه النقطة مطولا معجبا مثنيا على الفرنساويين وعلومهم ومباحثهم ، مما يدل على سعة صدر وشغف بالعلم . ولا بأس هنا أن ننقل مثالا من أقواله فى هذا الصدد لانها مقياس لدرجة الرقى العقلى فى الامة المصرية في ذلك الزمن . قال

« وافردوا للمديرين والفلكيين وأهل المعرفة والعلوم الرياضية ، كالهندسة والهيئة والنقوشات والرسومات والمصورين والكتبة والحساب والمنشئين ، حارة الناصرية حيث الدرب الجديد وما به من البيوت ، مثل بيت قاسم بك وأمير الحج المعروف بأبى يوسف ، وبيت حسن الكاشف جركس القديم والجديد الذى انشأه وشيده وزخرفه وصرف عليه أموالا عظيمة من مظالم العباد » ! وقال عن المكتبة:

« وفيه جملة كبيرة من كتبهم وعليها خزان ومباشرون يحفظونها ويحضرونها للطلبة ومن يريد المراجعة . فيطلب من يريد المراجعة ما يشاء من الكتب فيحضرها الخازن فيتصفحون ويراجعون ويكتبون حتى أسافلهم من العساكر »

وقال عن تلطفهم مع المصريين « واذا حضر اليهم بعض من المسلمين ممن يريد الفرجة لا يمنعونه من الدخول الى أعز أماكنهم ويتلقونه بالبشاشة والضحك واظهار السرور بمجيئه ، وخصوصاً اذا رأوا فيه قابلية أو معرفة أو تطلعا للنظر فى المعارف بذلوا له مودتهم ومحبتهم ، ويحضرون له أنواع الكتب المطبوع بها أنواع

التصاوير وكرات البلاد والاقاليم والحيوانات والطيور والنباتات ، وتواريخ القدماء وسير الامم وقصص الانبياء ، ولقد ذهبت اليهم مراراً . . . . ورأيت عندهم كثيراً من الكتب الاسلامية مترجما بلغتهم ، فمن ذلك كتاب الشفاء للقاضي عياض ، والبردة للبوصيرى ترجموها بلغتهم ورأيت بعضهم يحفظ سورا من القرآن ولهم تطلع زائد للعلوم (١) » وقال :

« وافردوا لجماعة منهم بيت ابراهيم كتخدا السنارى وهم المصورون لكل شيء ومنهم اريجو المصور وهو يصور صورة الآدميين بشكل يظن من يراه أنه بارز فى الفراغ ، مجسم يكاد ينطق ، حتى أنه صور صورة المشايخ كل واحد منهم على حدته فى دائرة وكذلك غيرهم من الاعيان (٢) وآخر فى مكان يصور الحيوانات والحشرات وآخر يصور الاسماك والحيتان بأنواعها واسمائها ، ويأخذون الحيوان أو الحوت الغريب الذى لا يوجد ببلادهم فيضعون جسمه بذاته فى ماء مصنوع حافظ للجسم فيبقى على حالته وهيئته لا يتغير ولا يبلى ، ولو بقى زمناً طويلا . . وسكن الحكيم (رويا) (٣) ببيت ذى الفقار كتخدا ووضع آلاته ومساحته وأهوانه فى ناحية ، وركب له كوانين وتنانير لتقطير المياه والأدهان واستخراج الاملاح . . . . وافردوا مكانا فى بيت حسن كاشف جركس لصناعة الحكمة والطب الكيماوى »

وذكر الجبرتى بعض عمليات كيماوية وطبيعية عرضت عليه مما لا يخفى أمره اليوم على تلامذة المدارس في المعامل الكيماوية والطبيعية ! ولكنه يقول عنها « ولهم فى ذلك أمور كثيرة واحوال وتراكيب غريبة ، ينتج منها نتائج لا تسعها عقول امثالنا »

رحمك الله يا شيخ جبرتى وبرد ثراك! لوعشت لرأيت أن عقول أولاد أحفادك وسعت أكثر من ذلك! وما هو الا جهل الحكام ، واستبداد الظلمة الذى جعلك

(١) كان مع نابليون من المستشرقين فانتورا الذى سبقت الاشارة اليه وكان معه أيضا الاساتذة ريج وبلليه وشيزى ولابورت وجوبير Jaubert, Laporte, Chezy Bellest, Raige. (٢) هذه الصور محفوظة فى متحف فرساى وقد رأيتها هناك وهى صور بالزيت للمشايخ الشرقاوى والمهدى والبكرى والسادات (٣) أظنه الدكتور Larrey الجراح الشهير فى حملة نابليون .

تتصور استحالة ادراك تلك المبادىء من العلوم ـ علوم أولئك الذين كانوا همجا وبرابرة ، فى الوقت الذى كانت مدارس بغداد وقرطبة وسمرقند والقاهرة نفسها ، تفيض بالعلم وبالنور !! وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون

وهنا يجب أن نقول إن الحملة الفرنسية إن كانت قد فشلت من حيث هى ، ولم تخلف وراءها لدى المصريين سوى الآثار المحزنة ، والتذكارات المؤلمة ، إلا أن العمل العلمى الذى قام به رجال البعثة العلمية من بحث وفحص وتأليف وتصوير مما سنأتى على خلاصة وافية له فى المكان اللائق به ، قد غطى على تلك العيوب وأبقى الى اليوم أثراً علمياً فاخراً باهراً ، إن لم يكن قد أفادنا من وجهة مباشرة فائدة مادية عملية ، وحتى وإن لم تستفد منه فرنسا ما أملته ، إلا أن ذلك لا يمنع من الاعتراف بأنه عمل تطاطىء أمامه الرؤوس اجلالا وإكبارا

— ٦ —

# الاستعداد الحربى

لم يكن ليخفى على نابليون انه في مصر محاط بالأعداء من الجنوب والشمال والشرق والغرب، ففى الجنوب مراد بك ومعه قوة كبيرة من المماليك تعضده العربان الهوارة وعرب الحجاز أيضاً، وقد وقف القراء على مطاردتهم لمراد بك فى الفصل السابق ، ـ ومن الشمال الأساطيل الانكليزية تمر ذاهبة وآتية تقطع عليه السبيل ، بل وتحصره ومن معه حصراً تجارياً وعسكرياً ، ولا يزال ابراهيم بك ومن معه من المماليك على حدوده الشرقيـة ، فى أول بلاد الشام ، وكذلك عرب درنة وقبائل البدو من أولاد على والهنادى يناوشونه ورجاله من آن لآخر . فلذلك وجه نابليون همته إلى تحصين البلاد وإقامة الطوابى والحصون حول القاهرة

وقد ابتدأ الانكليز يدسون له الدسائس ويحرضون عليه الأتراك . قال الجبرتى في حوادث شهر ربيع الثاني « وفى ثالثه ( الجمعة ١٤ سبتمبر ) حضرت مكاتبة من

ابراهيم بك خطاباً للمشايخ وغيرهم مضمونها : إنكم تكونون مطمئنين ومحافظين على أنفسكم والرعية وإن حضرة مولانا السلطان وجه لنا عساكر وإن شاء الله عن قريب سنحضر عندكم . فلما وردت تلك المكاتبة وقد كان سأل عنها بونابرت فأرسلوها له وقرئت عليه فقال : المماليك كذابون » . ثم لم يكن ليخفى على بونابرت أيضاً أنه على الرغم من كل ماعمله من أسباب التودد والتقرب الى المصريين ، فان التوفيق بين الفريقين لا يزال بعيداً . . وكيف يتصور عكس ذلك ولديه فى كل وقت شاهد على ميل المصريين للعثمانيين ؟ ؟ فمن الحوادث التى لا يخفى معناها على مثله أن أحد الأغوات الأتراك حضر من الاسكندرية فى ذلك التاريخ بقصد زيارة المشهد الحسيني قال الجبرتى « فشاهده الناس واستغربوا هيئته ، وفرحوا برؤيته ، وقالوا هذا رسول الحق ! ( تأمل هذا التعبير ) حضر من عند السلطان بجواب للفرنسيس يأمرهم بالخروج من مصر ( وتأمل هذا أيضاً ) ، فاختلفت روايات الناس وآراؤهم وأخبارهم وتجمعوا بالمشهد الحسيني وتبع بعضهم بعضاً وصادف أن بونابرت فى ذلك الوقت بلغه مما نقل وتناقل بين الناس من أنه ورد مكتوب إلى المشايخ أيضاً وأخفوه فركب من فوره وحضر الى بيت الشيخ السادات بالمشهد الحسيني ، ثم جلس مقدار ساعة وركب ومر بعسكره من باب المشهد والناس قد كثر ازدحامهم بالجامع والخطة ( بسبب ذلك الأغا ) وهم يلغطون ويخلطون . فلما نظروه وشاهد هو جمعيتهم داخله أمر من ذلك فصاحوا بأجمعهم وقالوا بصوت عال « الفاتحة » ، فشخص اليهم وصار يسأل من معه عن ازدحامهم فلطفوا له القول وقالوا له إنهم يدعون لك ! وذهب الى داره وكادت تنشأ من ذلك فتنة »

فلا غرابة إذا رأينا نابوليون يعمل جهده لتحصين القاهرة ، وحث رجاله واهل العلم منهم ، على الاسراع فى تحضير الادوات الحربية ، وصناعة البارود والقنابل وأصدر أمره بإخراج سكان القلعة من منازلهم والسكنى بالمدينة . قال الجبرتى فى حوادث شهر ربيع الثانى :

« وأصعدوا الى القلعة مدافع ركزوها بعدة مواضيع وهدموا أبنية كثيرة وشرعوا فى بناء حيطان وكرانك وأسوار وهدموا قصر صلاح الدين ، ومحاسن الملوك والسلاطين ، ذوات الاركان الشاهقة ، والاعمدة الباسقة »

وكان من مقتضى الحيطة العسكرية أزاء تحريضات ابراهيم بك أن يتخذ نابوليون خطة التشديد فى مراقبة القادمين من الأعراب ، منعاً لنقل الاخبار. قال الجبرتى فى حوادث هذا الشهر أيضاً « إنهم نبهوا على الاعراب من المغاربة وغيرهم والخدامين الباطلين ليسافروا الى بلادهم . فذهب جماعة منهم الى بونابرت ، وقالوا له إن السفر غير ممكن لأن طريق البر غير مأمون وسفن الانكليز فى البحر تقطع عليهم الطريق. » ويظهر أن العبارة الاخيرة حركت أشجان نابوليون من جهة والحمته من أخرى ، فتركهم وشأنهم واكتفى بأن أصدر أمره أن لا يخرج أحد من البلد إلا بجواز من محافظ المدينة ، ولا يسمح لغريب بالدخول إليها إلا بعد التحقق من أمره. ومما رواه الجبرتى فى حوادث ربيع الثانى « أنهم قتلوا شخصين وطافوا برأسيهما ينادون ويقولون « هذا جزاء من يأتى بمكاتيب من عند المماليك أو يذهب إليهم بمكاتيب »

واشتد نابوليون فى معاملة كل من يعلم عنه أنه يكتب للمماليك ، أو يتلقى منهم الرسائل ، أو يبعث لهم بالمعونة المالية. وأخذ الناس بالشبهة وسعى بعض المفسدين فى إيذاء الرجال والنساء أيضاً بهذه الوسيلة ، مثل ما حدث لزوجة عثمان بيك الطنبرجى أو (الطنبورجى) الذى كان من كبار المماليك وفر مع مراد بك الى الصعيد. فانه اتصل بالجنرال « دبوى » أنها ستبعث مع خادم لها خمسمائة محبوب لايصالها إلى زوجها. فبعث « دبوى » إليها فاستغاثت بالشيخ المهدى والشيخ السرسى فذهبا معها . ومع ذلك ، ومع عدم ثبوت شىء ضدها ، : ومع الحاح المشائخ في الافراج عنها والمبيت بدار الحاكم الفرنسى بدلا عنها ، فان الجنرال « دبوى » قال « نونو » — (كما رواها الجبرتى حرفيا) فباتت عندهم وتلطف الجبرتى فقال « وصحبتها جماعة من النساء المسلمات والنساء الافرنجيات !! » ومع ذلك فانهم ، بعد رجاء القاضى الكبير وكتخدا الباشا

والمشايخ لدى نابوليون قسمه ، أطلقوا سراحها في مقابل دفع ثلاثة آلاف ريال فرنسية (ستمائة جنيه)

ولقد كان الجنرال « ديبوى » هذا أول من سقط قتيلا فى ثورة الاهالى ضد الفرنساويين ! ! ولاحت للفرنساويين فرصة يلقون بها على المصريين مثلا قاسيا ، ودرسا ثقيلا ، فقد علم القارىء أن السيد محمد كريم السكندري ، الذى كان محافظا للاسكندرية أومديراً للجمارك عند قدوم الفرنساويين ، وسلم إليهم وصافاهم ، وخدمهم ولكنه ، كما سبق لنا القول ، غدر بهم وبعث بالكتب من وراء ظهورهم الى مراد بك . ولا شك في أن الذى حمل السيد كريم على ذلك هو حبه فى أخذ الحيطة لنفسه ، ولأن الفرنساويين قد غلوا يده عن المكاسب والمظالم فى اسكندرية ، ولا عبرة بما يقال غير ذلك . ولم يذكر مؤرخو الفرنسيين كيف وقعت رسائل السيد محمد كريم فى يد نابوليون ، وكل ما ذكروه أن نابوليون أمر بالقاء القبض عليه وإحضاره الى القاهرة ... والى القارىء نص الامر الذى كتبه بونابارت لمحاكمته ( محفوظات نابوليون ورقة نمرة ٣٢٤٧ )

« إلى الجنرال ديبوى ( ٢٥ اغسطس ١٧٩٨ )

عليك أيها السيتوين جنرال اتخاذ الاحتياطات الكافية لعدم فرار « كريم » وبعد فليتقدم للتحقيق معه وليطلب منه الجواب الصريح على الاسئلة الآتية . —

(١) هل كتب لمراد بك بعد أن حلف لنا يمين الطاعة ؟

(٢) لمن من المماليك قد كتب بعد مصادقته لنا ؟

(٣) أى نوع من المكاتبات كان بينه وبين عربان البحيرة ؟ »

واستمرت المحاكمة والتحقيق الى يوم ٥ سبتمبر فاتضح لهم أن السيد محمد كريم خانهم وكاتب المماليك ومالأهم وتجسس لهم ، فلذلك أصدر نابليون أمره[1] بالحكم على السيد كريم بالاعدام رمياً بالرصاص فى ميدان القلعة . هذه رواية المصادر الفرنسية . والى القارىء ما ذكره الشيخ الجبرتى رحمه الله فى وفيات سنة ١٢١٣

(١) محفوظات وزارة الحربية الفرنسية نمرة ٣٢٤٨

قال: «ومات الوجيه الأمثل السيد محمد كريم السكندرى مقتولا بيد الفرنسيس» (وبعد أن ذكر شطراً من ماضيه الذى سبق لنا الكلام عنه) قال: «فلما حضر الفرنسيس ونزلوا الاسكندرية قبضوا على السيد محمد المذكور وطالبوه بالمال وحبسوه في مركب (وهذا غير صحيح. ولكن الجبرتي يريد أن يبرئه أولا من ممالأته للفرنسيس وخدمته لهم، مع انه وصفه فى ماضيه بالظلم والاستبداد)، ولما حضروا الى مصر وطلعوا قصر مراد بك، وفيه مطالعة بأخبارهم،[1] وبالحث والاجتهاد على حربهم وتهوين أمرهم وتنقيصهم، فاشتد غيظهم عليه فأرسلوا وأحضروه وحبسوه فتشفع فيه أرباب الديوان عدة مرار فلم يمكن، وجاءه «مجالون» (كان قنصل فرنسا مع كريم فى اسكندرية) وقال له المطلوب منك كذا وكذا من المال وذكر له قدراً يعجز عنه. وأجله اثنتى عشرة ساعة وإن لم يحضر ذلك القدر والا يقتل بعد مضيها، فلما أصبح أرسل الى المشائخ والى السيد احمد المحروقى فحضر اليه بعضهم فترجاهم. وصار يقول اشترونى يامسلمين، وليس بيدهم ما يفتدونه به، وكل انسان مشغول بنفسه، ومتوقع لشىء يصيبه (لاحظ اضطراب الخواطر فى هذه العبارة) وذلك فى مبادىء أمرهم، فلما كان قريب الظهر، وقد انقضى الأجل، أركبوه حماراً واحتاط به عدة من العسكر إلى أن ذهبوا إلى الرميلة وكتفوه وربطوه مشبوحاً وضربوا عليه بالبنادق، ثم قطعوا رأسه، وطافوا بها فى جهات الرميلة، وهم ينادون: «هذا جزاء من يخالف الفرنسيس»

ولصاحبنا المرحوم الحاج عبد الله براون الانكليزى المستشرق فى كتابه (بونابرته فى مصر) أعجاب بالسيد محمد كريم وقال عنه إنه أبى دفع الفدية ومات شهما مقداما !! وما أدري على من اعتمد فى هذه الروايه ومصدره الوحيد فى هذا الجبرتى، وهو يقول إنه تذلل وقال اشترونى يامسلمين ؟

---

(١) اى انهم حين احتلوا قصر مراد بك وجدوا بين اوراقه رسائل من السيد محمد كريم وفيها ما ذكره.

ولكن الذي يلفت النظر ولا يفوت المؤرخ هو ملاحظة أن الفرنسيين كانوا على استعداد للعفو عن السيد محمد كريم عفواً تاماً لو أنه دفع لهم ما ارادوه من المال فداء عن نفسه . واذن فلم يكن العدل أو القصاص هو المقصود بالذات ، وانما كانت الغاية اغتصاب المال ممن يظنون انه كان رجلا غنياً ، أو أن أغنياء البلد سيشفقون عليه ويجمعون المال لخلاص حياته . وفى ذلك من العار والشنار ما فيه

وسواء استحق السيد محمد كريم تلك العقوبة لخيانته عهداً قطعه على نفسه ، ـ وهو عهد أعطى لعدو البلاد تحت سيف القهر والقوة ، ـ أم أنه نال ذلك العقاب جزاء وفاقا لمظالم سابقة ارتكبها ، ونفوس بريئة ازهقها ، والعدل الالهي جرى مجراه !! ـ فان ذلك شيء ، وتصور المصريين أن الفرنساويين قد ظلموا رجلا من كبار رجالهم ، شيء آخر . خصوصا اذا كان السيد محمد كريم ينتسب حقيقة الى الاشراف بلقب السيادة ، وإن كان لقب « السيد » يطلق فى مصر على أبناء البلد فيقولون « سي السيد » فلان ، لكل معمم وتاجر ومن لا صفة له من العلم أو الوظيفه . ولاشك أن نابوليون أراد أن يلقى على المصريين درساً ثقيلا ولكنه ككل الاوروبيين لا يصلون الى فهم الروح الشرقية ، ولذلك فانه بدلا من أن تستفيد سياسته من قتل السيد محمد كريم والتمثيل به ، قد خسر أضعاف ذلك من تغير القلوب ، وإعطاء أعدائه سلاحا ماضياً لمحاربته وتنغيص سلطته .

وأصدر أوامره للجنرال كليبر بالاسكندرية بأن يقطع دابر الاعراب في مديرية البحيرة ، وأن يحفظ مواصلاته ببحيرة أدكو ورشيد . وكذلك أصدر أمراً طويلا إلى الجنرال اندريوسى ( Andreossy ) بدراسة وفحص بحيرة المنزلة حتى يأمن على البلاد من السفن المعادية

ولتحصين بحيرة المنزلة وفحصها حدثت محاربات ووقائع عسكرية بين الفرنسيين وبين أهالى الجهات الواقعة بالقرب من دمياط وفى مديرية الدقهلية

ولما كانت المصادر العربية خالية كل الخلو من الاشارة الى تلك الوقائع

والملاحم رأيت من الواجب أن أعتمد على المصادر الفرنسية فألخص من «لاكروا» الروايات الآتية في مكانها، قبل أن ننتقل الى مخابرات نابوليون مع والي عكا، وقبل أن ندخل في أسباب وتاريخ ثورة القاهرة، ليرى القارىء المصري أن الفرنسيين لم يكونوا مطمئنين لا في الداخل ولا في الخارج، ولا في القاهرة ولا في الأقاليم، وفي ذلك من الموعظة السياسية والتاريخية ما فيه.

والى القارىء ملخص لتلك الملاحم والحوادث التي جرت في شمال القطر المصري ملخصة عن «لاكروا» قال ما خلاصة تعريبه:

«عين الجنرال مينو (الذي أسلم بعد وسمي عبد الله مينو) محافظا لرشيد وبعد أن وجه عنايته لنشر أعلام الامن في ربوع هذه الارجاء واعادة الطمأنينة اليها قرر أن يتفقد الاحوال بنفسه فيها، واستصحب معه الجنرال «مارمون» الذي أرسله القائد العام بمهمة خاصة، وقاما للطواف في البلاد ومعهما بعض أعضاء المجمع العلمي في مصر الذين انتهزوا هذه الفرصة للبحث والتنقيب خدمة للعلم.

وفي اليوم العاشر من شهر سبتمبر سافرت هذه البعثة من رشيد سائرة على ضفاف النيل ولم يكن رجالها يخافون أهل البلاد أو يرتابون في اخلاصهم بعد أن رأوا احتفاء أهالي برمبال ومطوبس وفوه بهم.

وأراد الجنرالان أن يعبرا الى الضفة اليمنى، ولكن فيضان النيل حال بينهما وبين أمنيتهما إذ كان لا بد لهما من اجتياز جسور لا تزيد عرضها عن قدمين وهي مهددة بالسقوط من وقت لآخر

ولما وصلت البعثة الى كفر شباس عامر في اليوم الخامس عشر من شهر سبتمبر ووثقت باخلاص الاهالي لم يأخذ الجنرالان معهما للحراسة غير ستة أو ثمانية من الفرسان. ولكن لم تكد البعثة تدخل هذه القرية حتى أحاط برجالها عدد كبير من الاهالي بأيديهم البنادق والحراب. فلما رأى العلماء ذلك فروا هاربين وتقدمت جموع المصريين واستولوا على الجسر ليمنعوا الفرنسيين من اجتيازه. ولما رأى الجنرالان أنهما وقعا في الفخ تبعا الهاربين. ووقع مصور اسمه «جولي» من فوق

جواده خوفا ورعباً . وأراد الجنرال مارمون أن يعيده على الجواد ولكن الزنجل ملكه الهلع فلم يستطع أن يحرك قدميه أو يعتدل على جواده ، وسقط ثانية فاضطر الفرنسيون لتركه وذبحه الاهالي أمام أبناء جلدته الذين لم يستطيعوا انقاذه

وكان الجنرالان قد تركا كتيبة من الجند لحفظ الامتعة فوصلا اليها وعادا مستصحبين مائة وأربعين رجلا ولكنهما وجدا أن الجسر قد قطع في عدة مواضع واضطرا أن يخوضا الماء برجالهما ولم تستطع هذه القوة الصغيرة أن تحاصر القرية إلا بمشقة كبيرة

ولم يثبت الاهالي إلا قليلا وانسحبوا الى المنازل والابراج في كفر شباس عامر وقاد الجنرال مارمون فصيلة من حملة القرابينات وزحف حتى وصل الى باب البرج الكبير، ولكن علو ذلك البرج ومتانة بابه لم تمكنه من اقتحامه إذ كان من فيه يطلقون عليه نيران البنادق ويرمون رجاله بالاحجار الثقيلة بحيث لم يستطع الجنود القرب منه

وبعد قليل دخل الجنرال مينو الى القرية فقتل جواده برصاصة ووقع الجنرال في حفرة عمقها ثلاثة أقدام ولما رأى الجنرال مارمون حرج الموقف أراد أن لا يعرض رجاله للقتل وصمم على احتلال البلدة ، فأمر رجاله أن يشعلوا النار في المنازل وأن يدمروا جزءاً من البرج . وفي الساعة الحادية عشرة مساء حينما اندلعت ألسنة النيران في البيوت هرع عدد عظيم من أهالي القرى المجاورة لاغاثة القرية التي تأججت فيها النار ، ولكن تمكن ثلاثون من الجنود الفرنسيين كانوا على الجسر من أن يصدوا هؤلاء القادمين ويمزقوا شملهم ثم أكرهوهم على الفرار واستطاع الفرنسيون أن يدمروا القرية ويهدموا البرج ولم يفقد منهم غير ثلاثة من القتلى وتسعة عشر من الجرحى

ولما رأى الجنرالان مينو ومارمون ان الفرصة غير ملائمة لاستئناف الطواف في الدلتا ارجأا هذه المهمة حتى ينتهي وقت الفيضان وعادا الى رشيد برجالهما .

وقد حدث مثل هذه الحوادث في الوقت ذاته في اقاليم المنصورة ودمياط والمنزلة وجاءت قوة من العرب في مديرية الشرقية يعاونها عرب درنة وأهالي

المنزلة تحت قيادة زعيم قادر اسمه حسن طوبار[1] صديق للمماليك وحليف لهم فهجمت في ليلة ١٥ سبتمبر على حامية دمياط ولكن هذه استطاعت ان تقف في وجه هؤلاء المغيرين وتصدهم .

وفي ١٦ سبتمبر ثارت قرية الشعراء الكائنة على رمية قوس من دمياط واجتمع فيها العرب واتخذوها محلا لقيادتهم العامة ، وفي ١٧ و ١٨ وصلهم امداد كبير وكذلك وصلت لحامية دمياط امدادات أيضاً

وفي ٢٨ سبتمبر صمم الجنرال «فيال» ان يهاجم قرية الشعراء وتولى الجنرال اندريوسي قيادة العمارة البحرية التي ألقت مراسيها بقرب القرية . وصف العدو (أي المصريين) رجاله صفاً واحداً واحتل المنطقة الواقعة بين النيل وبحيرة المنزلة وكان عدد رجاله نحو ١٠ الاف (كذا!). فارسل الجنرال «فيال» كتيبة من الفرقة الخامسة والعشرين لتهجم على ميمنة العدو وتقطع عليه الطريق الى بحيرة المنزلة، وفي الوقت ذاته هجم على المقدمة ففرق شمل العدو الذي غرق كثير من رجاله في النيل وبحيرة المنزلة . واشعل النار في قرية الشعراء فمات نحو ١٥٠٠ من العرب بين غريق وقتيل وغنم منهم مدفعين جبليين من البرونز وثلاثة اعلام، اما الفرنسيون فلم يفقدوا الا قتيلا واحداً واربعة من الجرحى، وهكذا استطاع جيش صغير من الفرنسيين قوامه ٥٠٠ رجل ان يقهر جيشاً عرمرماً للعدو عدده ١٠ الاف!! وامتاز في هذه الموقعة بالبسالة الكابتين ساباتيه وارسل القائد العام الى الجنرال فيال رسالة يهنئه فيها بالفوز جاء فيها « ان الموقعة التي قمت بها ايها الجنرال المواطن في قرية الشعراء رفعت مكانتك ومكانة جنودك »

وكلف الجنرال فيرديه بالزحف على قرية سنباط بمديرية المنصورة فسار ومعه قوة مؤلفة من ٦٠٠ رجل وقام بمهمته خير قيام رغم ما لاقاه من ثبات العرب الذين قتل منهم نحو خمسين رجلا دون ان يفقد الفرنسيون غير جندي واحد !!

وارسلت عدة حملات صغيرة قليلة الاهمية الى بلاد الوجه البحري وظلت الثورات من أواخر اغسطس حتى نهاية سبتمبر ولكن قضي عليها ووزعت الفرق الفرنسية في اقاليم الدلتا.

---

(١) لم يرد ذكر لهذا الرجل في أي مصدر عربي والذي أعلمه أنه توجد أسرة طوبار في بلدة المنزلة الى هذا اليوم .

وبقي عرب «دزنه» محتلين قرية «دنديط» فارسل نابوليون امراً الى الجنرال «مورات» قائد القوة باقليم القليوبية والجنرال « لانوس » بالزحف واستخلاص هذه القرية فوصلا اليها فى ٢٨ سبتمبر وفرقا شمل الثائرين بعد ان هلك منهم نحو مائتى رجل بين غريق وقتيل وتركوا قطعانهم وجمالهم وحميرهم ولم يصب من الفرنسيين غير بعض الجرحى .

وقدم الجنرال مورات تقريراً اثنى فيه ثناء عاطراً على الجنود واختص بالمدح الضابط نيثرودو ، وكان هذا الضابط سويدى الاصل امتاز بالبسالة والاقدام ورقى الى رتبة قائد فرقة وجرح بعد ذلك جرحاً مميتاً فى سنة ١٨٠٣ اذ اعتدى عليه في مدينة « بنى جواف »

وكان بونابرت يعلق اهمية كبرى على امتلاك بحيرة المنزلة ويظهر ذلك من تعليماته التى أصدرها الى الجنرال اندريوسى اذ جاء فيها :

« يا مواطنى الجنرال علمت مسروراً خبر وصولك الى دمياط ويظهر لي انك وصلتها في الوقت الملائم لتساعد الجنرال «فيال» وتمده بنصائحك وآرائك الثاقبة ولتقدم للجيش مرة اخرى خدمة كبيرة

يجب أن يكون معك عدد كبير من الجنود وقد أصدرت الاوامر الى الجنرال دوجا بالاستيلاء على المنزلة وأن يدخل الى البحيرة أكبر عدد يستطيعه من القوارب والسفن المسلحة بالمدافع الصغيرة ، وأمرته أن يطوف بالجزر الموجودة في هذه البحيرة وأن يأخذ رهائن من كل القرى التى تظهر العداء وأن يقوم بكل مايلزم ، وقلت له يجب عليك :

(١) أن تسيطر على بحيرة المنزلة (٢) ولكي تستطيع الوصول الى « بيلوس »[(١)] يجب أن تذكر كلماتى وتعمل بها وهى : اجتهد أن تدخل فى البحيرة كل الفرقة التى معك ويجب أن يصل الجنرال اندريوسى الي بيلوس

انى أعتقد ان مصر لا يمكن أن تهاجم الامن بحيرة المنزلة وان الدفاع والهجوم يتوقف على ماتقوم به ، واذن يجب عليك السير بحذر وبطء ولا تتقدم الى الامام

(١) إسم قديم لمصب النيل هناك

الا اذا كنت متحققاً منه لانه ربما كانت حفرة صغيرة سبباً فى خطأ حسابنا ولتعرف :
(١) كم عدد المراكب الموجودة فى بحيرة المنزلة (٢) وكم تستطيع كل منها أن تحمل من الناس (٣) وما هو عمق البحيرة (٤) وهل يمكن لكل قارب أو مركب أو سفينة أن تمخر فى البحيرة (٥) وما هو عمق كل من المصبات الثلاثة (٦) وهل يمكن لسفينة مدفعية أن تمخر فيها (٧) وكم عدد سكان الجزائر الموجودة فى البحيرة (٨) وما السبيل الى اتصال دمياط بالبحيرة (٩) وهل ماء البحيرة حلو أو مالح (١٠) وكيف يستطيع الجنود الذين يعسكرون بين البحيرة والبحر أن يتصلوا ببعضهم ؟

لا تذهب الى «بيلوس» الا بقوات كبيرة وليكن معك على الاقل ست كتيبات مسلحة كل منها بمدفع . ولا تغادر دمياط اذا لم يكن معك على الاقل ٥٠٠ رجل وستة مراكب مسلحة بالمدافع وخذ معك من الماء ما يكفيك للاقامة فى بيلوس خمسة أو ستة أيام لا بل عشرة أيام :

وارسل لي مذكرات عن كل ما تجده فى دمياط والمنزلة والصالحية وكل ما يتعلق بدمياط والنيل والدفاع عن المرسى . «بونابرت»

وبعد أن عاد الجنرال اندريوسي الى دمياط عقب واقعة الشعراء قام بالمهمة التى عهدت اليه خير قيام وكانت عمارته البحرية مؤلفة من ستة عشر مركباً منها ثلاثة مسلحة ، وسافر من دمياط فى ٣ اكتوبر ونزل الى النيل واجتاز البوغاز وسار ومعه ١٠٠ رجل فى الطريق الفاصلة بين بحيرة المنزلة والبحر ، وترك بقية الجيش فى السفن . وفي اليوم الرابع من اكتوبر سبر عمق البوغاز فى «دييه» وخرج من البوغاز قاصداً المطرية ، فرأى عمارة العدو البحرية تمخر مختفية وراء الجزر وقد ظهرت أشرعتها فأطلق عليها نارا حامية مدة ساعتين لكي يدمرها من جهة وليعلن الجنرال «فيال» من جهة أخرى أن المعركة قد بدأت . وكان هذا الجنرال متأهباً فلما احتل الجنرال اندريوسي منطقة قرية المنية (غرب دمياط) أرسل له الجنرال «فيال» بعض الجنود لتعزيز قوته . ولما جاءوه أمرهم أن يطفئوا عطشهم قبل الدخول فى المعركة فأجابوه لسنا عطاشى ولا حاجة لنا بالطعام بل نريد الحرب . وهبوا للقتال ونشبت معركة شديدة

قتل فيها من العرب والفلاحين خلق كثير ولم يقتل ولم يجرح جندي فرنسي واحد، وكان قائد قوة العدو حسن طوبار فأرسل اليه الجنرال « دوجوا » كتابا يدعوه الى الاتفاق مع الفرنسيين، فرد عليه الشيخ حسين طوبار بما يلي: « انني لا أريد أن أرى الفرنسيين لا عن قرب ولا عن بعد، واذا أ كانوا لي انهم يبقون مسالمين هادئين في ضواحي المنزلة، فانني أدفع لهم الضرائب التي كنت ادفعها للماليك، ولكنني، لا أريد أن يكون بيني وبين الكافرين أقل اتصال »

وبعد ثلاثة أيام أرسل الجنرال اندريوسي الضابط « تيرليه » رئيس فرقة عمال الجسور، والكابتن ساباتيه من فرقة المهندسين للقيام بالاعمال المتعلقة بسبر غور البحيرة ومعرفة ما أراده بونابرت

وقد أكرهت هذه الموقعة مراكب العدو على الابتعاد حتى المصب القديم في « بيلوس » ومكنت الفرنسيين من اقامة حاميات عسكرية في المطرية والمنزلة لحماية العمارة البحرية الفرنسية التي خصصت للجولان في البحيرة »

والى هنا ينتهي التلخيص من الفرنسية عن بحيرة المنزلة وما جرى من المناوشات الفرعية في شمال الدلتا

— ٧ —

## مخابرات سياسية

وبدأ يكاتب حكومة الباب العالي، واحمد باشا الجزار والى عكة، ليتودد اليهما، وليأمن جانب اعتدائهما، وليتوصل من ذلك إلى اقناع المصريين بأن جلالة السلطان وخليفة المسلمين راض عن احتلال الفرنساويين لمصر تنفيذاً للسياسة التي وضع خطتها عند قدومه. وقد وقفنا في المصادر الفرنسية على نص الخطابين اللذين بعث بهما الى احمد باشا الجزار، ثم الخطاب الذي أرسله الى الصدر الاعظم: أما أول خطاب بعث به للاول فقد أوفده اليــه مع مسيو بوفوازين Beauvoisin وكانت وظيفته في القاهرة قومسير لدى الديوان المخصوص (أشبه بالمستشار المالي في مجلس الوزراء سابقاً)

وقد التقى غلياالتعليمات الآتية في خطاب محفوظ فى أوراق نابوليون بنمرة ٣٠٨٧ وهذا نصه :

المعسكر العام بالقاهرة فى ٢٢ اغسطس ١٧٩٨ ( يوافق ١٠ ربيع أول سنة ١٢١٣ )

« على الستوين بوفوازين أن يذهب الى دمياط ومنها يبحر على سفينة تركية أويونانية قاصداً يافا ليحمل إليها الخطاب المرفق بهذا إلى احمد باشا الجزار ، وليطلب مقابلته لكي يصرح له بصوت عال أن المسلمين ليس لهم أصدقاء صادقون فى أوروبا مثلنا ، وأنني قد علمت مع الاسف أنهم يعتقدون فى سوريا أنني انوى الاستيلاء على أورشليم ( بيت المقدس ) والقضاء على الدين الاسلامى . ليقل له إن مثل هذا الظن بعيد عن رغبتي وميولي . فليكن مطمئن الخاطر مستريح البال ، وإننى أعرفه بالسماع لما اتصل بي من أنه رجل ذو فضل وكفاءة ، وليؤكد له أنه إذا احسن التصرف معنا ولم يتعرض لمن لانعرض له فاننا نصادقه . وبدلا من أن يكون وجودنا فى أرض مصر منقصاً لسطوته ، فانه يزيدها قوة وتمكينا . وانني اعلم أن المماليك الذين بددت شملهم قد كانوا أعداءه ، ويجب عليه أن لا يخلط بيننا وبين عامة الاوروبيين ، ذلك لاننا بدلا من أن نستعبد المسلمين فاننا بالعكس نفسح لهم طريق الحرية . والخلاصة إن على رسولنا أن يشرح لاحمد باشا ما وقع فى مصر ، ويحسن أيضاً أن يزيل من رأسه فكرة الاستعداد للحرب ، ويبعده عن التدخل فى المشاغبات . واذا لم يكن احمد باشا فى يافا فعلى الستوين « بوفوازين » التوجه الى عكة . ولكن يحسن به أن ينتهز فرصة وجوده فى يافا لزيارة الأسر الاوروبية ، وخصوصا ليقابل وكيل القنصل الفرنساوى ، ولكي يقف على أخبار الاستانة وما يجري من الامور فى سورية »

« بونابرت »

وهذا نص الخطاب الموجه الى احمد باشا الجزار ( محفوظ بنمرة ٣٠٧٨ )

« الى احمد باشا حاكم صيدا وعكا .

معسكر القاهرة ( فى ٢٢ اغسطس ١٧٩٧ )

إنني لم آت مصر محاربا للمسلمين بل جئتها لمحاربة البكوات . واعتقد انى

بالقضاء عليهم قد عملت عملا عادلا وموافقا لصالحك . لانهم كانوا أعداءك ولا بد أنك تعلم أنني لما وضعت قدمي في مالطة كان أول عمل عملته أن اطلقت سراح الفين من أسرى الأتراك الذين قضوا عدة سنين في ذل الاسر والعبودية . وما وصلت الى مصر حتى طمأنت خواطر الاهالي وبالغت في احترام العلماء ورجال الدين ومساجد المسلمين ، ولم يلق حجاج بيت الله مثل ما لاقوا من العناية والرعاية معي ، ولم يحتفل بمولد النبي بمثل ما احتفلت به بالابهة الكاملة والاحترام العظيم

وقد بعثت اليك بهذا الخطاب مع ضابط يستطيع أن يوقفك على ميولي ورغبتي في أن أكون معك على صفاء وسلام لتساعد معنا على ترقية الوسائل التي تؤدى لنمو التجارة وخير البلدين ، وأؤكد انه لا يوجد للمسلمين أخلص أصدقاء من الفرنساويين . اه « بونابرت »

وظاهر من عبارة هـذا الخطاب ، ومن التعليمات التي وضعها نابليون للسبتوين ( بوفوازين ) ، أن نابليون قد أتصل به أن أحمد باشا الجزار والى عكا ، أو أميرها فعلا ، قد شرع في الاستعداد للغارة على مصر بناء على تعليمات وردت له من الاستانة ، أو بناء على اتفاق بينه وبين الانكليز ، لأن أحمد باشا الجزار قد كان رجلا مدرباً عرك الدهر وحلب أشطره ، فهو لا يخفى عليـه أن نابوليون قد قضى على سلطة المماليك في مصر ، وهو ليس بأكثر منهم عدداً وعدة ، فلولا أن يكون معضداً بقوة تعادل قوة الفرنساويين ، لما تأخر عن الاتفاق مع نابوليون . ولم يك أحمد باشا الجزار بالرجل الذي تهمه الفكرة الاسلامية ، ولا الارتباط بالخلافة العثمانية ، إذ من المؤكد أن الجزار لم يكن تابعاً للدولة العليـة إلا بالاسم ، ولطالما حاول رجال الدولة القضاء على سلطته فلم يفلحوا ، واستبد بالملك في عكا وصيدا ويافا ، وامتد رواق سلطانه على الدروز في جبل لبنان ، وبلغ من الاستبداد مبلغاً عظيما حتى هابه الناس ، وتفرت منه القلوب . فلما وصل اليـه رسول نابليون أبى مقابلته ، ومع بعد الشيخ الجبرتي عن معرفة هذه الأمور ، لتكتم الفرنساويين اياها ، فانه علم بها فقال : « وفي حوادث أواخر شهر ربيع الأول حضر القاصد الذي كان

أرسله كبير الفرنساوية بمكاتبات وهدية الى أحمد باشا الجزار بعكا ، وصحبته أنفار من النصارى الشوام فى صفة تجار ، فلما وصلوا الى عكا وعلم بهم أحمد باشا أمر بذلك الفرنساوى فنقلوه الى بعض النقاير[1] ولم يواجهه ولم يأخذ منه شيئاً ، وأمره بالرجوع من حيث أتى وعوق عنده نصارى الشوام الذين كانوا بصحبته » .. وفى رواية المعلم نقولا أن مندوب نابوليون ، ويسميه « بالطان » ( بوفوازين ) ، قد ركب سفينة من سفن أحمد باشا الجزار ، كان الفرنساويون قد قبضوا عليها وأسروها فى دمياط ، فلما وصلت السفينة الى عكا نزل قبطانها وهو الذى أرسل الخطاب الى الجزار ، فلما قرأه — على رواية المعلم نقولا — « قال للقبطان وجه هذا الكافر ودعه يسافر ، وإن لم يرجع فى الحال ، من هذه الديار ، أحرقته بالنار » ! !

وذكر ( لاكروا ) ان نابوليون بعث برسول ثان الى عكا فكان حظه أشأم من الاول إذ أمر الجزار بقتله والتمثيل به ، ولكن ( لاكروا ) على سعة اطلاعه ، ووجود المحفوظات الرسمية تحت أمره لتأليف كتابه ، لم يذكر نص الخطاب الثانى الذى بعث به نابوليون الى احمد باشا الجزار ، فقد كان بونابارت فى خطابه الثانى أقل صلفاً وأخف دعوى . وقد عثرت على نص هذا الخطاب الثانى فى مذكرات « ميو » وهذا تعريبه[2]

« لا أريد أن أدخل معك فى حرب . نعم انك لست عدواً لى ولكن حان الوقت لتعلم انك اذا بقيت جاعلا حدود مصر ملجأ لابراهيم بك ، فانى أعد ذلك علامة للعداء وأذهب الى عكا

واذا كنت تريد أن تبقى فى سلام معى فابعد ابراهيم بك على مسافة أربعين فرسخاً من حدود مصر ، ودع التجارة حرة بين دمياط وسوريا

وحينئذ أعدك باحترام البلاد التى تحت امارتك وأترك للتجارة الحرية التامة بين مصر وسوريا فى البر وفى البحر » « بونابارت »

***

(١) سنفن سيأتى الكلام عليها فى حملة الشام

(٢) مذكرات ميو صحيفة ١٤٢ بتاريخ ١٩ برومير السنة الرابعة للثورة أى ١٩ نوفمبر سنة ١٧٩٨

وقد أكدت المصادر الموثوق بها أن الجزار كان قد عقد مع الانكليز اتفاقاً على أنهم يحمون عكا بمدافع أساطيلهم . ولولا ذلك لما عجز نابليون، في حملته على الشام عن فتح عكا وعن ادراك ما أراده وكانت تطمح اليه آماله فى الشرق .

ونرى من الواجب هنا ذكر شيء عن تاريخ نشأة أحمد باشا الجزار ليكون لدى القارىء صورة فى ذهنه عن هذا الرجل الغريب، ونوفق بينها و بين حكمنا السابق عليه

ذكر الشيخ الجبرتى أحمد باشا الجزار فى وفيات سنة ١٢١٩ هجرية ووصفه . «بالجناب المكرم، والمشير المفخم ، والوزير الكبير، والدستور الشهير» وأثنى عليه على الرغم مما ذكره من مظالمه التى قال فيها :« وأخاف النواحى وناقب على الذنب الصغير بالقتل والحبس والتمثيل ، وقطع الآناف ، والآذان والأطراف، ولم يغفر ذلة عالم لعلمه ، أو ذى جاه لوجاهته ، وسلب النعم عن كثير جداً من ذوي النعم واستأصل أموالهم ، ومات فى محبسه ما لا يحصى من الأعيان والعلماء وغيرهم ، إلى غير ذلك من الفظائع »ثم قال :« ولقب بالجزار لما قتل من شيوخ عربان البحيرة نيفاً وسبعين كبيراً وجاء برؤوسهم للقاهرة » . وهنا يسأل القارىء وما كان شأن احمد باشا الجزار والى عكا بالبحيرة والقاهرة ؟ فنقول : ان أصل هذا الرجل من بلاد البوسنة. قال عنه المرحوم جودت باشا فى تاريخه « إن الجزار لم يكن من المماليك بل هو بوسنوى الأصل من طائفة البوشناق الذين هم أشجع وأقوى طوائف الروم أيلى » وقال عنه « إنه قدم الى دار السعادة وعمره ثمان عشرة سنة واشتغل حلاقاً ثم صار يتردد الى دائرة على باشا حكيم أوغلى، الذى عين والياً على مصر سنة ١١٦٩ هجرية ( ١٧٥٥ ) م . فسافر معه الى مصر كواحد من الاتباع ثم أخذ يلتصق بالبكوات المماليك ، وقلده على بك الكبير كشوفية البحيرة وقتل من الاعراب من قتل أخذاً بثار سيده عبد الله ، أحد أتباع على بك ، ثم فر من مصر فى حوادث يطول شرحها فسافر الى الاستانة ثم عاد لمصر متنكراً وآواه عربان البحيرة الذين فتك من قبل برجالهم »: ومما قاله الجبرتى: «وأقام بعرب المنادى وتزوج هناك فلما أرسل على بك ( الكبير ) التجاريد الى ابن حبيب والمنادى حارب الجزار معهم ثم سافر

الى بلاد الشام ». وتقلبت به الأحوال من بؤس ورخاء . ولم يذكر الجبرتى أنه عاد لمصر مرة ثالثة ولكن جودت باشا يقول « إنه بعد إقامته بدمشق خاوى الوفاض مرتكباً لانواع السفالة والدناءة ، توجه إلى مصر فى زى أرمني وبعد أن بات فى بيته ثلاث ليال أخذ المال الذى فى داره وجاء مرة أخرى إلى الشام » .

وكانت فى سوريا (سنة ١١٨٥) منافسة بين أولاد الظاهر عمر والدروز فدخل بينهم وصدرت إرادة الدولة باستخلاص صيداء من اولاد الظاهر وعين خليل باشا متصرف القدس قائداً للجند فكان الجزار معه وأخيراً توصل الجزار إلى أن صار محافظاً على قلعة بيروت ثم والياً لعكا

هذا مختصر موجز لحياة رجل يقول عنه الجبرتى « وبالجملة فكان من غرائب الدهر ، وأخباره لا يفى القلم بتسطيرها ، ولو جمع بعضها لكانت مجلدات ولو لم يكن له من المناقب الا استظهاره على الفرنساوية لكفاه »[١]

ولكن شيخنا الجبرتى لم يكن يعلم أن الذى صد الفرنساويين عن عكا لم يكن احمد باشا الجزار بل كانت سفن السير سدنى سميث[١] فى البحر وتدبيرات فليبو[٢] المهندس الفرنسازى فى البر ، ولا يفل الحديد إلا الحديد

وفشل نابوليون أيضاً فيما حاوله من الاتفاق مع الدولة العثمانية ولما كان الخطاب الذى بعث به للصدر الاعظم فى غاية من الاهمية التاريخية رأينا أن نأتى على تعريبه من المصادر الفرنسية وهذا تعريبه .

القيادة العامة الفرنسية بالقاهرة في ٥ فريكتدور العام الرابع للثورة ، الموافق ٢٢ اغسطس سنة ١٧٩٨

« الى الصدر الاعظم

يادولة السيد العظيم : إن الجيش الفرنسى الذى أتشرف بقيادته قد دخل مصر ليعاقب البكوات المماليك على الاهانات التى لم يكفوا عن توجيهها للتجار الفرنسيين .

وقد عين المواطن « تاليران بيريجور » وزير الشؤون الخارجية فى باريس

---

(١) يشير الى عجز نابوليون عن فتح عكا

(٢) و(٣) Sir Sydney Smith - Phélipeaux وسيأتى الكلام عنهما فى حملة الشام

سفيراً من قبل فرنسا في الاستانة بدلا من المواطن « ادبرت دوبابيت » وزود بالسلطة والتعليمات اللازمة من لدن « الديركتوار » للمفاوضة ، وعقد معاهدة وتذليل ما عساه يقف من الصعوبات بشأن احتلال الجيش الفرنسى لمصر ، ولتوطيد دعائم المحبة القديمة التى لا بد من بقائها بين الدولتين .

ولما كان يحتمل أن السفير لم يصل حتى الآن الى الاستانة ، فقد بادرت لاطلاع دولتكم على نية الجمهورية الفرنسية فهى لا تريد فقط اعادة العلاقات الحسنة القديمة بل تروم أيضاً الحصول على تأييد الباب العالى وهى فى حاجة شديدة الى تأييده للقضاء على اعدائها الطبيعيين الذين يعملون ضدها

ولا بد أن يكون السفير « تاليران بريجور » قد وصل الآن واذا كان قد تأخر بسبب بعض الطوارىء فارجوكم أن ترسلوا الى القاهرة من يكون موضع ثقتكم ، وتزودوه بالتعليمات والسلطة اللازمة ، أو أن ترسلوا الي فرمانا حتى استطيع أن أرسل لكم وكيلا ، ليحدد معكم مصير هذه البلاد ، ويدبر الامور التى تكون فى مصلحة عظمة السلطان والجمهورية الفرنسية حليفته الاكثر أمانة ، وتوقع فى الارتباك والحيرة البكوات والماليك اعداءنا المشتركين

وأرجو دولتكم قبول الاحترامات م ؟

« بونابرت »

ولم يصل هـذا الخطاب لحكومة جلالة السلطان حتى كانت الدولة العثمانية قد أعلنت الحرب رسمياً على فرنسا فى ٢١ ربيع الاول الموافق ٢ سبتمبر من تلك السنة وأخذت فى جمع الجيوش بمدينة دمشق وبجزيرة رودس لارسالها لمصر وأتت الدونانمة الروسية من البحر الاسود الى بوغاز الاستانة ثم خرجت الى البحر الابيض مع الدونانمة العثمانية ، وذلك بمقتضى معاهدة ابرمت بين انكلترا والدولة العثمانية والروسيا لمحاربة فرنسا ، وإخراج جيوشها من أرض مصر ، فكان ذلك من أعظم الاسباب التى حملت نابوليون على حرب الشأم ومفاجأة الدولة قبل استعدادها كما سيأتى ذلك فى مكانه

وحاول نابوليون التأثير على العالم الاسلامى ورجال الدولة العثمانية بواسطة علماء مصر فاستكتبهم رسالة مطولة للتنويه بذكر الفرنساويين وحسن معاملتهم واحترامهم للدين الأسلامى ولم نقف على نص هذه الرسالة لان الشيخ الجبرتى ضن بنشرها بالنص كأن نفسه لم تكن راضية عنها فيما ، مع انهم طبعوها ونشروها فى القاهرة ، ومع ذلك فهو نفسه عمدتنا الوحيد فيما كتبه عنها قال « وفى السبت ثامن عشر ربيع الثانى كتبوا من المشائخ ( تأمل هذا التركيب ) كتابا يرسلوه الى السلطان وآخر الى شريف مكة ثم انهم بصموا منه عدة نسخ والصقوها بالطرق والمفارق وصورته بعد الصدور ، ذكر ورودهم (الفرنسيس) وقتالهم مع المماليك وهروبهم ، وان جماعة من العلماء ذهبت اليهم بالبر الغربى فأمنوهم ، وكذلك الرعية دون المماليك . وذكروا فيه انهم من أحصاء السلطان العثمانى وأعداء أعدائه ، وان السكة ( النقود ) والخطبة باسمه ، وشعائر الاسلام مقامة على ماهى عليه . وباقى المنشور بمعنى الكلام السابق من قولهم انهم مسلمون وانهم محترمون للقرآن والنبى ، وانهم أوصلوا الحجاج المتشتتين وأكرموهم ، وأركبوا الماشى وأطعموا الجيعان وسقوا العطشان ، واعتنوا بيوم الزينة يوم جبر البحر ، وعملوا له شأناً ورونقاً استجلابا لسرور المؤمنين ، وأنفقوا أموالا برسم الصدقة على الفقراء ، وكذلك اعتنوا بالمولد النبوى وأنفقوا أموالا فى شأن انتظامه واتفق رأينا ورأيهم على لبس حضرة الجناب المحترم مصطفى أغا كتخدا بكر باشا والى مصر حالا فاستحسنا ذلك لبقاء علاقة الدولة العلية وهم ايضاً مجتهدون فى اتمام مهمات الحرمين وأمرونا أن نعلمكم بذلك والسلام » اه

وغريب أن يطلب نابوليون من المشائخ كتابة هذا المنشور فى ١٨ ربيع الثانى بعد أن كانت الدولة العلية قد أعلنت الحرب على فرنسا وجمعت جيوشها لاخراج الفرنساويين من مصر منذ شهر تقريباً ، ويبعد أن لا يكون نابوليون ورسله وجواسيسه منتشرة فى مصر وسوريا — على بينة من ذلك ، ومن الغريب أيضاً أن يذكر فى هذا المنشور ان أبا بكر باشا لا يزال والياً على مصر ! !

— ٨ —

# تلبد الجو بالغيوم

## أسباب الثورة الكبيرة

لا نزاع في أن نابوليون قد تأكد في ذلك الوقت ان مركزه قد أصبح محفوفاً بالمخاطر، فالطريق الى فرنسا قد سدت فى وجهه ولم يعد له أدنى أمل فى العودة الى بلاده، وكيف يكون ذلك وانجلترا مسيطرة على البحر الابيض المتوسط، ولم يبق من سفن فرنسا ما يصلح لنقل شرذمة من الجنود من موانىء فرنسا إلى مصر، وحكومة «الديركتوار» فى باريز قد اختلت واعتلت وناوأها الخصوم والاعداء من كل جانب، والكثير من أعضائها يخشى سطوة نابوليون وشهرته؟؟ كل هذه أمور لم تكن لتخفى على ثاقب فكر ذلك الرجل العظيم الذى برهن فى حياته على ذكاء نادر المثال. ولقد ذكر «بوريين» فى مذكراته أنه كان يجد نابوليون فى القاهرة أثناء هذه الفترة شديد التفكر، كثير الصمت، بادي القلق والاضطراب. ولا غرابة فى ذلك فهذه حاله من جهة وطنه. فهو لا شك قد علم أن ثلاث دول كبار، تركيا وروسيا وانكلترا، قد أشهرت الحرب عليه وصممت على الفتك به ومن معه فى أرض مصر، فلا بد له من مقاومتها بكل الوسائل التى يستطيعها، والوسيلة الوحيدة أمامه هى مهاجمة تركيا فى سوريا، والاستيلاء على تلك الديار، إذ كان يعلم أن جيشه أحسن نظاماً وأكمل عدة من جيش الاتراك فى ذلك الزمن، ولكن يلزمه للقيام بهذه المهمة المال الوفير، فمن أين يأتى به؟ لم يكن لديه مصدر غير مصر! وما أتعس حظ مصر!

ولقد سبق لنا أن شرحنا فى هذا الكتاب أن موارد مصر قد نضبت وزد على ذلك أن تجارتها القليلة من طريق البحر الابيض أو من البحر الاحمر قد عطلت بمحاصرة الانكليز لشواطئها. ولم يكن من مصلحة نابوليون وسياسته القاضية باستجلاب محبة المصريين ومودتهم، أن يلجأ إلى ما كان يلجأ اليه المماليك، من مصادرة أموال

الناس وامتصاص دمائهم . نعم إن الفرنساويين فعلوا شيئا من هذا على طرق شتى ، ودعاوى مختلفة ، ولكنهم فعلوه على شكل معقول ، كدعوى مصادرة أملاك المماليك وتفتيش بيوتهم ، ومطالبة الذين ينتسبون اليهم أو يخابرونهم بشيء من المال على قدر طاقتهم ، ولو زاد الامر عن ذلك الحد لما اتفق مع دعوى الفرنساويين بأنهم قدموا لينقذوا البلاد من ظلم المماليك ، وليحافظوا على الحقوق ، وليحترموا الواجبات !

فكيف يحصل نابوليون على المال اللازم للانفاق على جيشه ورجاله ، وكلهم راغب فى المكسب ، آلف لمعيشة الرفاهية ؟ ثم كيف يحصل على المال اللازم لتجهيز الحملة على الشام ومقاومة الدولة العثمانية والاساطيل الانكليزية والروسية ؟ لم يبق أمامه إلا أن يفرض ضرائب جديدة على أهالى القاهرة ومدن مصر وقراها على طريقة جديدة . وكان معه من رجال الاقتصاد الادارى مسيو بوسيلج Poussielgue الذى عينه مديراً للامور المالية ، وكان الجبرتى يسميه « بوسليك الروزنامجى » . ويقول العلم تقولا إن المصريين كانوا يسمونه « وزير المشيخة الفرنساوية »[1] فوضع له مشروعاً يقضى بتسجيل عقود المتملكات وحجج العقارات للتصديق عليها فى مقابل ضريبة مخصوصة ، فطالبوا أصحاب الاملاك بأحضار حججهم ومستنداتهم التى تثبت ملكيتهم .

---

(١) « كان من ضباط بونابرت الضابط بوسيلج الذى يجب أن يعد فى أوائلهم .. اذ امتاز منذ بداية الحملة بالمقدرة الفائقة فى الادارة حتى لم يخف بونابرت أن يعهد اليه بالادارة العامة فى هذه الديار المصرية . وكان بوسليج يبذل جهده ويضاعف كل ما فى وسعه للقيام بكل التدبيرات التى رسمت معتمدا على عقله وبعد نظره فى الامور المدنية والمالية

وقد ظهرت خبرته فى كل المسائل ووقوفه على دقائقها فى المخابرات التى كانت تدور بينه وبين القائد العام . وكان له نفوذ كبير على مشايخ القرى بفضل جدارته وهيبة منظره

ونال بوسليج ذلك النفوذ العظيم بسبب اتصاله بكبار المصريين واختلاطه بهم لأنه تعلم لغة البلاد بسرعة مدهشة ولم يترفع عن مجالسة الاهالى الذين كانوا يحيطون به ويلقبونه « بالوزير » بل كان بالعكس يعمل للتقرب من قلوبهم ويهتم بعاداتهم ويسأل المشائخ والموظفين عن شرائعهم ويظهر السرور للاختلاط بهم والاجتماع معهم ويقبل دعوة كل من يدعوه لزيارته

وكان لا يأنف من الجلوس معهم على الحصير يدخن التبغ الذى يقدمونه اليه ويشرب من قهوتهم ويسمع أحاديثهم ويسأل ما يريده من الاسئلة ولا ينفك عن النظر حول الملتفين حوله ليسبر ما يضمرونه فى قلوبهم حتى عده الناس قوة عظيمة ورضوا به حكما فى كثير من أمورهم . — عن كتاب (بونابرت ومصر) تأليف « جيهان ديفرى » وهى سيدة فرنسية أقامت فى مصر زمنا طويلا

- Bonaparte et L'Egypte - par Jehan D'Ivray

قال الشيخ الجبرتى فى هذا الصدد « إن الغرض من ذلك التحيل على أخذ الاموال إذ طلبوا من الناس إثبات ملكيتهم فاذا احضروا حججهم وأثبتوا وجه تملكهم لها، إما بالبيع أو بالانتقال لهم بالارث، لا يكتفى بذلك بل يأمر بالكشف عليها فى السجلات، ويدفع على ذلك دراهم بقدر عينوه. فان وجدوا تمسكه مقيداً بالسجل طلب منه بعد ذلك الثبوت، و يدفع على ذلك الاشهاد وثبوته قدراً آخر، ثم ينظر بعد ذلك فى قيمة العقار ويدفع على كل مائة اثنين فان لم تكن له حجة، أو كانت ولم تكن مقيدة بالسجل، أو مقيدة ولم يثبت ذلك التقييد، فانها تضبط لديوان الجمهور وتصير من حقوقهم »

ووضع له بوسيلج مشروعاً آخر للضرائب يقضى بتحصيل أموال عن المواريث والتركات. وفى هذا يقول الجبرتى، وهو أدرى بشعور قومه: « ومن جملة الشروط مقررات على المواريث والموتى ومقاديرها متنوعة فى القلة والكثرة كقولهم اذا مات الميت يشاورون عليه و يدفعون معلوماً لذلك ويفتحون تركته بعد أربع وعشرين ساعة، فاذا بقيت أكثر من ذلك ضبطت للديوان أيضاً ولا حق فيها للورثة وإن فتحت على الرسم باذن الديوان يدفع على ذلك الاذن مقرراً وكذلك على ثبوت الورثة ثم عليهم بعد قبض ما يخصهم مقرر. وكذلك من يدعى ديناً على الميت يثبته بديوان الحشريات و يدفع على إثباته مقرراً ويأخذ له ورقة يستلم بها دينه فاذا استلمه دفع مقرراً أيضاً ! ومثل ذلك فى الرزق جمع (رزقة) والاطيان بشروط وأنواع وكيفية أخرى غير ذلك والهبات والمبايعات والدعاوى والمنازعات والمشاجرات والاشهادات الجزئيات والكليات، والمسافر كذلك لا يسافر إلا بورقة ويدفع عليها قدراً، وكذلك المولود إذ ولد ويقال له إثبات الحياة، وكذلك الزاجرات وقبض أجر الاملاك وغير ذلك » اهـ

خلص المصريون من ظلم فوضى، فوقعوا فى ظلم منظم ! ولكي يعطيه صفة النظام، ويلبسه ثوب العدل، أصدر نابوليون أمره بعقد مجلس عام مؤلف من كبار الامة وأعيانها من جميع أطراف القطر المصرى، للموافقة والتصديق على هذا المشروع المالى (كتصديق الجمعية العمومية على الضرائب) فحضر من الاسكندرية ورشيد

ودمياط وبقية بنادر القطر المصرى بعض علمائها وأعيانها واجتمع هذا الجمع فى بيت قائد أغا بالأزبكية. قال الجبرتى: «فتوجه المشايخ المصرية والذين حضروا من الثغور والبلاد وكذلك أعيان التجار ونصارى القبط والشوام ومديرو الديوان من الفرنسيس وغيرهم جمعاً موفوراً »

ثم افتتحت الجلسة بخطاب مطول عن مصر وتاريخها وكونها بلاداً خصبة أضرّ بها الظلم وسوء الادارة ، وأن الفرنساويين بعثهم الله لينقذوها من الخراب والدمار، وانهم يريدون اصلاحها وتنظيم أمورها، وانهم استدعوا كبار المصريين فى هذه الجمعية للاستفادة من خبرتهم.. إلى غير ذلك. وبعد أن أتم المترجم قراءة هذا الخطاب الذى يظهر من لهجته أنه من إنشاء نابوليون نفسه،طلب من الحاضرين انتخاب رئيس لهم

وكان نابوليون قد حنق على الشيخ الشرقاوى لانه أبى أن يضع على كتفه طيلسان الجمهورية الفرنسوية ذا الثلاثة ألوان،وزجر نابوليون وخرج مغضباً من عنده. وعبارة الشيخ الجبرتى فى هذه النقطة ظريفة قال « ثم قال الترجمان نريد منكم يامشايخ أن تختاروا شخصاً منكم يكون رئيساً عليكم فقال بعض الحاضرين : الشيخ الشرقاوى: فقال « نونو » وانما يكون ذلك بالقرعة بأوراق فطلع الاكثر على الشيخ الشرقاوى فقال حينئذ يكون الشيخ الشرقاوى هو الرئيس». وانقضى الاجتماع الاول وكان ذلك يوم السبت ٢٥ ربيع الثانى وفى يوم الاثنين اجتمع المجلس وكلف المعلم ملطى القبطى الذى شارك « بوسيلج » في وضع مشروع الضرائب،بتلاوته ولم يقرروا فى ذلك اليوم شيئاً. وفي يوم الخميس اجتمعوا ثانية وأظهر المشائخ معارضة شديدة فى تسجيل حجج المتلكات وقالوا الأولى أن تفرض على العقارات ضرائب ليسهل تحصيلها ويكون ترتيبها بنسبة قيم الممتلكات ، كعوائد الاملاك فى الزمن الحاضر، ثم اجتمعوا مرة ثالثة وقرر المشائخ كيفية قسمة الورثة فى الشريعة الاسلامية.فلم يرض بها الفرنساويون ، وكانوا يريدون أن يورثوا الابن كالبنت بدعوى أن الولد أقدر على الكسب من البنت ! فاحتدم الجدال بين الطرفين ولكن يظهر من الاخبار القليلة

التى وصلت الينا عن هذا الاجتماع أن الاقباط والسوريين (ذكر منهم الجبرتى الخواجه ميخائيل كحيل من اعضاء هذه الجمعية) قالوا اننا اعتدنا أن تقسم مواريثنا على شريعة الاسلام وتقرر القرار على أن يضع المشائخ بياناً بكيفية المواريث فى الشريعة المحمدية وكان آخر اجتماع لهذا المجلس الغريب يوم السبت ١٠ جمادى الاولى إذ تقررت فيه عوائد الاملاك والعقار فجعلوها ثلاث درجات يدفع الاعلى ثمانية ريالات فرنسية ، والاوسط ستة والاولى ثلاثة، وما كانت أجرته اقل من ريال فى الشهر فلا يدفع عنه شيء . قال الجبرتى « واما الوكائل والحمامات والمعاصر والسيارج والحوانيت فمنها ماجعلوا عليه ثلاثين واربعين بحسب الخسة والرواج والاتساع ، وكتبوا بذلك مناشير على عادتهم والصقوها بالمفارق والطرقات وأرسلوا منها نسخا للاعيان وعينوا المهندسين ومعهم أشخاص لتمييز الاعلى من الادنى وشرعوا فى الضبط والاحصاء وطافوا فى الجهات لتحرير القوائم وضبط الاسماء وأربابها الخ »

ولا شك فى أن هذه الاجتماعات ، وما نشر من قبل من مشروع الضرائب الجديدة قد شغل بال أهالى القاهرة ، فكان ذلك حديثهم فى مجتمعاتهم وكثر لغطهم ، وتضاربت آراؤهم . وغير خاف أن ثروة مصر فى ذلك الزمن تجمعت فى مدينة القاهرة وتنوعت طبقات أهلها ، من الملاك وأصحاب الدور الكبيرة والوكائل العديدة والحوانيت الكثيرة ، إلى أرباب الحرف الصغيرة ، وهذه الضريبة تمسهم جميعاً من الكبير إلى الصغير ، وكانوا قد ألفوا عدم دفع ضريبة ما اكتفاء بما كان المماليك يتحصلون عليه من أثمان محصولات البلاد وما كانوا يفرضونه من الضرائب والمغارم على الاغنياء من التجار المصريين والاجانب على حد سواء :

فلا غرابة إن أظهر أهل القاهرة التململ من هذه الضرائب الجديدة الفادحة التى لم تخل منهم كبيراً ولا صغيراً ، ولا غنياً ولا فقيراً ، فكان ذلك سبباً لثورتهم وهياجهم تلك الثورة التى عادت عليهم بالوبال والنكال كما سنفصل ذلك فى مكانه

ومن رأى (لاكروا) عن أسباب الثورة ، أن الاغنياء وأصحاب المصالح من المصريين مالؤا الفرنساويين وامتنعوا عن مقاومتهم ، لان صوالحهم تقضى عليهم

بتجنب أسباب القلاقل ، ولكن فرض هاتيك الضرائب على دورهم وعقارهم ، وتركاتهم وديونهم ومؤاجراتهم، ودخلهم وخرجهم ، قد نفر قلوبهم من الفرنساويين ا فساعدوا على تحريض العامة والغوغاء

ومن رأى ( بيريه ) أن بعض علماء الازهر وغيرهم من المشائخ الذين لم ينتخبوا لعضوية الديوان ، ولم يشاركوا الفرنساويين فى الأحكام وإدارة الامور ، حقدوا على الآخرين الذين خصوا بذلك وصارت لهم كلمة مسموعة فى شؤون البلاد ، فانتهز أولئك الحاسدون فرصة تذمر الناس من الضرائب الجديدة ، فحرضوهم على الهياج والثورة تحت ستار الدين

ومن المؤرخين من ينسب ثورة أهالي القاهرة لتحريضات المماليك وما ورد من ابراهيم بك من المنشورات ، ومن رجال الدولة العثمانية من المراسلات والمكاتبات . ومن هؤلاء المعلم نقولا الترك ، وهاك ما يقوله فى هذا الصدد ننقله بحرفه لما فيه من الفائدة التاريخية، وليقف القراء على أسلوبه ونظريته : قال « إنه من بعد أن مكثت الفرنساويه ، فى المملكه المصرية مقدار ثلاثة أشهر فكان المسلمون يظنون أن سترد لهم الاوامر من الدولة العثمانيـة بتقريرهم على المملـكة حسبما كانوا يشيعون ، أنهم حضروا إلى مصر بإرادة السلطان سليم ، وكان يخبر أمير الجيوش بقدوم عبد الله باشا العظم من الشام إلى مصر وأعد له منزلا ينزل فيه وأمر بتدبيره وفرشه ومضت المدة المعينة ولم يحضر أحد فتسبب من قبل ذلك أسباب كثيرة للنفور ، وإبداع الفتن والشرور ، من قتل السيد محمد كريم لانه كان أحد الاشراف ، ومن ورود المكاتيب من الامراء المصريين ، وكتابات احمد باشا الجزار إلى البلاد المصرية، واستنهاضهم على الفرنساوية ، وإنه قادم عليهم بالعساكر العثمانية . وقد كان الفرنساوية يخرجون البنات والنساء المسلمات، مكشوفات الوجوه فى الطرقات ، . ثم اشتهار شرب الخمر وبيعه الى العسكر، ثم هدم جامع ومنارات فى بركة الازبكية لاجل توسيع الطرقات، لمشى العربات، وكان المسلمون يتنفسون الصعداء من صميم القلوب، ويستعظمون هذه الخطوب وصاحوا لقد آن أوان القيام ، على هؤلاء اللئام ، فهذا وقت الانتصار إلى الاسلام ،

ونحن لا نجادل فى أن الامور التى عددها المعلم نقولا قد آلمت المسلمين وجرحتهم فى أدق مشاعرهم ، ولكنها لم تكن هى السبب الاصلى فى الثورة ، لان منشور الجزار ومكاتيب المماليك لم تصل القاهرة إلا بعد الثورة بنحو اسبوعين ، كما هو وارد فى الجبرتى ، وما نظن الجزار فى عكا قد طبع منه المئات والالوف ، بل غاية ما كتب منه بضع نسخ وقعت فى أيدى الفرنساويين فأبادوها ، حتى أن الجبرتى نفسه لم يحصل على نسخة منها ، وكذلك المعلم نقولا نفسه بدليل خلو كتابيهما منه . ثم أن المصريين كانوا قد ألفوا خروج النسوة العاهرات مكشوفات الوجوه مع الفرنساويين ، والكثير من أولئك النسوة كن من السرارى والجوارى البيض والحبشان اللاتى وجدهن الفرنساويون فى دور المماليك ، وأولئك النسوة لا دين لهن ولا عرض ، وليسوا مصريات ، وما كان المصريون يعدونهن من الحرائر إلا إذا اعتقن وتزوجن بعقد نكاح . وهذا الجبرتى ، وهو من أقدم البيوتات العريقة فى الحسب والنسب ، ومن أهل التقوى والشدة فى الدين ، يذكر خروج أولئك النسوة مع الفرنساويين بغير تغيظ ولا انتقاد ، كقوله عند سفر الفرنساويين للشام « وكان معهم عدة مواهى ومحفات للنسوة والجوارى البيض والسود والحبوش اللاتى أخذوها من بيوت الامراء وتزيا أكثرهن بزى نسائهم الافرنجيات » . وكتب الجبرتى عن حضور القومندان الفرنسى لخط المشهد الحسينى وجلوسه فى القهاوى مع الأهالى فقال : « ويحضر معهم ذلك الضابط ومعه زوجته وهى من أولاد البلد المخلوعين » ( كذا ) ، وغير خاف أن أولئك النسوة الرقيقات ، من الارمنيات والروميات والجركسيات ، كن حلا لمن يبتاعهن من النصارى واليهود ، وكان أغنياء الاقباط يتخذون منهن السرارى كعادة المسلمين فى ذلك الزمن ، فما كان خروجهن مع الفرنساويين داعياً للثورة ، وإن كان فيه من تغيير القلوب ، واستنكار كشف وجوههن ، بعد أن كن نسوة للمماليك وغيرهم ، ما فيه . ثم إن شرب الجنود الفرنسية للخمر وبيعه لهم بواسطة نصارى الشوام أو الاروام لا ينغص عيش المسلمين ويدفعهم الى الثورة . ومن الغريب أن المعلم نقولا الترك يعدد كل هاتيك الاسباب وينسى السبب المباشر للثورة كما اعترف به الفرنساويون وشهد به المعاصرون

وقد كتب الشيخ عبد الله الشرقاوى في رسالته « تحفة الناظرين » قال « فلما قامت عليهم أهل مصر بسبب طلبهم تفريد غرامة (كذا) على البيوت ، قتلوا منهم ما يقرب من الالف وهتكوا بعض الاعراض فى مصر وقتلوا من علماء مصر نحو ثلاثة عشر عالماً ودخلوا بخيولهم الجامع الازهر ». فالشيخ الشرقاوى ، كبير علماء المسلمين فى ذلك الزمن ، قد كان أولى من المعلم نقولا الترك بان يذكر أن خروج النساء حاسرات الوجوه ، وبيع الخمور ، وهدم المآذن والمساجد ، كل ذلك كان سبباً للثورة ، بدلا من تخصيصه السبب بذكر الضرائب على البيوت

والخلاصة أن الباحث المدقق والمؤرخ المنصف يحكم لاول وهلة أن السبب الاصلى في تلك الثورة هو مشروع هاتيك الضرائب الفادحة ولا نزاع مطلقاً في أنه متى وجد السبب ، ودبت عقارب العدوان ، وغلت مراجل القلوب ، تكونت الاسباب الاخرى المرشحة للسبب الاول فتعطيه صفة تطير حولها قلوب العامة والغوغاء ، ومن يقبل فيعرض منهم حياته للموت الزؤام تحت مخدر المؤثرات الدينية ، والعوامل الملية والنعرات القومية .. فالتعصب الدينى الذى ينسبه الكتاب المسيحيون من أمثال نقولا الترك ومن جاراه من المؤلفين الحديثين ، كالشيخ الدحداح ومن على شاكلته ، لم يكن هو سبب الثورة بحال من الاحوال . وإن تكن الثورة قد لبست ثوب الدين فى شكل من أشكالها ، فما ذلك الا لمقتضيات الظروف التى لا بد منها والتى تصحب هياج العامة فى كل زمان ومكان

وليست هذه أول مرة ثار أهالى القاهرة (أو كانوا على أبواب الثورة) بسبب الضرائب والمغارم فقد حدث فى سنة ١٢٠٢ أى قبل هذا التاريخ بإحدى عشر عاماً أن اسماعيل بك فرض ضريبة على سكان القاهرة فذهب رؤساء الحرف والطوائف إلى الشيخ العروسى ، شيخ الجامع الازهر ، كما ذهب القوم فى هذه المرة إلى دار القاضى ، وركب الشيخ العروسى معهم وقبل اسماعيل بك شفاعته خوف الفتنة ، وإن يكن قد جمع ما أراد بعد بطرق أخرى (١)

---

(١) راجع الجبرتى جزء ثالث ص ١٥٢

# ثورة القاهرة

ذكرنا فى الجزء الاخير من الفصل السابق العوامل التى كونت أسباب ثورة أهالي القاهرة التى حدثت فى يوم الاحد ٢١ جمادى الاولى سنة ١٢١٣ـ ٢١ أكتوبر سنة ١٧٩٨ . وقد اطلعنا على نص التقرير الذى بعث به نابوليون لحكومة الديركتوار في باريس عن هذه الثورة . وهذا التقرير مؤرخ فى ٢٧ أكتوبر ومحفوظ فى مكاتبات نابوليون بنمرة ٣٥٣٨ ، فلم نر فيها أثراً لذكر السبب الذى حمل الاهالي على الثورة والهياج ، وكل ما فيه بيان للخطة الحربية التى اتخذها لاخماد تلك الثورة . وكنت أود أن أنقل عن الجبرتى وصفه لهذه الثورة الداخلية ، كعادتى فى الاعتماد عليه فى المواقف الاهلية التى تصور للقارىء الذكي حالة الشعب المصرى العقلية والنفسية فى ذلك الزمن . ولكن مولانا الجبرتى خرج عن أسلوبه الطبيعي البسيط الذى يدون الحقائق عارية عن ثوب الخيالات، واختار لوصف تلك الثورة الفريدة فى بابها ، بل ربما كانت الأولى والأخيرة من نوعها . لانها قد كانت فى الحقيقة ثورة أهلية ضد مظلمة عمومية ، وأما الثورة الثانية فى زمن كليبر ، فقد كانت حربا بين جنود الترك والماليك الذين دخلوا القاهرة بعد انهزام جيش الصدر الاعظم فى المطرية وبين الجنود الفرنساوية — نقول أن الشيخ الجبرتى اختار لوصف هذه الثورة أسلوب المقامات السجعية ، ليظهر كفاءته الكتابية فى ذلك الاسلوب الذى كان يعجب به أهل زمانه إعجاباً كبيراً ، ومع ذلك فلابد لنا من الاعتراف بان اعتمادنا واعتماد كل مؤرخ فى وصف هذه الثورة من وجهة النظر المصرية عليه دون سواه ، لانه « شاهد عيان » وإن يكن — كما يخيل لى — قد أنشأ هذه المقامة التاريخية بعد مضى الحوادث بزمن طويل لانه لو دونها فى وقتها لكان أسلوبه فيها بسيطاً دقيقاً كعادته

انقضى المجلس العمومى ، أو الجمعية العمومية على اصطلاح زماننا ، يوم السبت بعد تقرير تلك الضرائب الجديدة الفادحة فكثر لغط الناس وتناجوا فيما بينهم ، وانفس فيهم من ذوى الاغراض وآلات الفساد من أوغر صدورهم . ومن هؤلاء

بعض آلات الانكليز وجواسيسهم ، كما يذهب اليه كتاب الفرنساويين [1] ، وإن لم يكن لدينا دليل تحقيق ـ وقلما يوجد دليل يجزم فى مثل هذه الامور ـ فلم يكد يلوح فجر يوم الاحد حتى امتلأت الطرقات بالغوغاء، وليس لهم زعيم عاقل ولا مرشد مفكر . قال الجبرتى « ووافقهم على ذلك بعض المتعممين الذي لم ينظر فى عاقبة الامور ، ولم يتفكر أنه فى القبضة مأسور » [2] مما يؤيد أن حزبا من المشائخ قد كان حاقداً وحاسداً للعلماء الذين خصهم الفرنساويون بالعناية والرياسة وكان فى القاهرة فى ذلك الوقت رجل اسمه ـ السيد بدر وهو رجل سورى الاصل من بيت المقدس ـ تقول إن ذلك السيد بدر جمع حوله جماً غفيراً من « حشرات الحسينية ، وزعر الحارات البرانية »، وانضم اليهم خلق كثيرون حتى بلغوا نحو الالف عداً وقصد هذا الجمع الفوضى بيت القاضى الكبير بقصد أن يطلبوا منه التوسط لهم لدي الفرنساويين فى محو تلك الضرائب أو تخفيفها . وكان القاضى المشار اليه ، هو القاضى التركي الذى بقى فى مصر ولم يفر مع ابراهيم بك وبكير باشا ، وكان حقاً عليه ذلك ، لانه ولى من قبل السلطان بفرمان . ولما كان نابوليون ميالا لحفظ الصفة الدينيـة ، ومظهر السيادة العثمانية ، أبقى ذلك القاضى فى وظيفته وتحبب اليه كثيراً ومنحه المنح الكثيرة والعطايا الوافرة ، حتى لقد ذكره فى تقريره عن هذه الثورة فقال عنه « إنه رجل محترم لعلمه وفضله » ، وكان اسمه ابراهيم أدهم افندى، كما ورد فى التقرير المشار اليه واسمه فى كتاب الجبرتى « بجمقشى زاده »

وكان من عادة المصريين أن يلجأوا الى علماء الدين وقضاة الشرع فى شكاويهم من ظلم المماليك وأتباعهم، ولذلك كان الغرض من التوجه الى بيت القاضى ، هو حمله على الذهاب إلي نابوليون . وفى رواية الجبرتى ، أن القاضى لما رأى تجمعهم خاف العاقبة « وأغلق أبوابه ، وأوقف حجابه! » ولكن رواية نابوليون فى تقريره تقول إنه دخل على القاضى فى أول الامر نحو عشرين رجلا من الثائرين ، فركب فعلا جواده

---

(١) دنيس لاكروا صحيفة ٢٠٨ بونابرت بمصر

(٢) ما كان بين هاتين العلامتين « » فهو من تعبيرات الجبرتى

وخرج ، ولكنه ما كاد يسير قليلا حتى ألفت واحد من اتباعه نظره الى كثرة المجتمعين وهياجهم ، فرأى أن تلك الملاحظة صحيحة ، ونزل فى الحال عن جواده ورجع إلى بيته ، فحنق عليه القوم واجتمعوا حول داره يرجمونها بالحجارة .... ولو أن القاضى حذرهم سوء العاقبة ولم يداخله الخوف من كثرة تجمعهم ، وسار أمامهم إلى دار نابوليون، أو من ينوب مَنابه ، لكان من الممكن أن تهدأ ثائرة القوم أثناء المناقشة ، سواء بالوعد أو بالوعيد . ولكنه لم يفعل ، فزاد بذلك هياج القوم وغيظهم واندلع لهيب الثورة فى أحياء القاهرة .

ولا نظن أن مولانا القاضى قد اتخذ تلك السياسة لكي يزيد الخرق اتساعا ! فقد يخطر ببال المفكر أن القاضى رجل تركى حاقد على الفرنساويين ، وقد قضت عليه الظروف، التى فوق طاقته، بالبقاء في مصر فصانع الفرنساويين ولاطفهم ، حتى إذا رأى أهل القاهرة فى ثورة صحيحة ضد أولئك المغيرين لم يشأ أن يقف عقبة في سبيلها ، وفضل أن يزيد فى إشعال نارها بالامتناع عن الشفاعة للقوم ، ولو رموه بالخيانة ، ورجموه بالطوب والحجارة ! والاتراك مشهورون بالدهاء وسعة الحيلة !!..

قد يكون هذا الظن معقولا لو كانت لدينا الادلة على أن ابراهيم افندى هذا كان من ذوى الاخلاق القوية. إلا أن تاريخه فى حوادث مصر يشير الى عكس ذلك ويدل على أنه كان رجلا ضعيف الارادة، جبان القلب ، كما يؤيد ذلك بقاؤه فى القاهرة مع استطاعته الفرار مع ابراهيم بك ومماليكه ورجال الدولة ، وكان هو أولى بذلك من السيد احمد المحروقى والسيد عمر مكرم ، ثم حدث فى أثناء غزو نابوليون لسوريا أن مصطفى افندى ، كتخدا بكر باشا ، الذى عينه الفرنساويون أمير الحج وقربوه ورفعوه خدع القاضى «وأخرجه معه على الفرنساوية» على غير إرادة منه كما سيأتى ذلك مفصلا فى بابه

وكيفما كانت الحال فان الثورة اندلع لهيبها، واشتد أوارها، وأخذ الغوغاء يكثرون من الجلبة والصياح قائلين « نصر الله السلطان » ! وهكذا من خزعبلاتهم المعروفة، فى تلك الاحوال المألوفة. ونادى بعض المعممين الضالين المضلين بالجهاد وقتل الكفار !!

وليت شعرى أين كان هؤلاء وأين كانت هذه الوطنية والنعرة الدينيـة والفرنسيون لا يزالون في البر الغربي وبينهم وبين القاهرة نهر واسع عريض ! ومعهم من المماليك عدد عديد ، ومن الآلات والأسلحة شيء كثير ! ولكنه الجهل يقوم حيث يجب أن يقعد ، ويقعد حيث يجب أن يقوم !

كان نابليون فى تلك الآونة خارج القاهرة لأنه برحها مبكراً مع بعض أركان حربه قاصداً مصر العتيقة وجزيرة الروضة . وكان الجنرال جونو Juno مقيما فى الأزبكية حيث يقطن الجزء الاكبر من الفرنساويين وكان الجنرال « ديبوى » المكلف بادارة قومندانية القاهرة ( أى حاكمها ) فى منزل ابراهيم بك الوالى المطل على بركة الفيل ، فلما وصلت الى هذا الاخير أخبار تجمهر القوم وهياجهم خرج من داره قاصداً خط الغورية ليقابل الشيخ عبدالله الشرقاوى، كبير العلماء ورئيس الديوان، للاستفسار منه عن هذه الحركة الفجائية ، فلم يجده فى منزله ، وربما كان فى ذلك الوقت فى الجامع الازهر حيث احتشدت الخلائق وتكاثرت الجموع وكثر الصياح واللغط . وكان الجنرال ديبوى رجلا فى سن الثامنة والثلاثين من عمره، نشأ جنديا فى ارتوا Artois ورقى ببسالته واقدامه فى درجات الجندية حتى صار فى رتبة الجنرال التى منحه اياها نابوليون فى مصر فى هذه السن الفتية . ونريد بهذا الوصف أن نقول انه كان جندياً جسوراً مجازفاً فلذلك اندفع فى وسط الجموع ، وليس معه الا شرذمة من الفرسان ، وفصيلة من البيادة للتوجه الى بيت القاضى ، فمر من شارع الصنادقية ، فوجد الزحام شديداً ، قال الجبرتى « فخاف وخرج من بين القصرين وباب الزهومة ، وتلك الأخطاط بالخلائق مزحومة » . وروى نابوليون فى تقريره المشار إليه أن أحد رجال الانكشارية الذين عينوا في بوليس القاهرة لما رأى ازدحام الناس ووقوفهم فى وجه الجنرال (ديبوى) أطلق طبنجته الكبيرة فكان ذلك سبباً فى إشعال نار الثورة ، وخروج القوم عن حد الصواب . وغريب أن نابوليون لم يرض أن يذكر فى تقريره، أن الذى اطلق طبنجته ، فكانت سبباً فى إلهاب نار الثورة، هو ذلك اللعين برطلمين الرومى صنيعتهم وسنأتى على طرف من سيرته . فلما رأى

ذلك الجنرال ديبوى حمل على القوم المتجمعين بمن معه من الجنود واندفع هو شاهراً سيفه أمامه فرشقه واحد،لا يعرف من هو ، بسهم أو نوع من انواع الحراب فقطعت له شرياناً وسقط قتيلا يتدرج فى دمائه . وفى رواية المعلم نيقولا الترك إن الذى قتل الجنرال ديبوي،رجل من الاتراك ضربه بخشبة على خاصرته فى سوق النحاسين . ومما جاء فى كتاب الحملة الفرنساوية [١] أن «مسيو بودوف كاف»،من تجار الفرنسيين فى مصر، وأحد أعضاء الديوان ركب مع ديبوى فى ركبته المشؤومة فلما أحس ديبوي بالسهم التفت لبودوف وقال له : « لقد قضى عليّ »

جرى الدم في شوارع القاهرة بين الفريقين فكان فاتحة الحرب وخاتمة الدمار اذ دار القتال بين الجنود والاهالي : قال الجبرتى « فعند ذلك أخذ المسلمون حذرهم وأبرزوا ما كانوا أخفوه من السلاح ، وآلات الحرب والكفاح ، ومسكوا الاطراف الدائرة ، بمعظم اخطاط القاهرة ، كباب الفتوح وباب النصر والبرقية ، إلى باب زويلة وباب الشعريه ، وهدموا مساطب الحوانيت ، وجعلوا أحجارها متاريس، ووقف دون كل متراس، جم عظيم من الناس » وبعبارة موجزة إن الاهالى تحصنوا فى الدور والطرقات الضيقة وعلى أبواب المدينة التى ذكرها الجبرتى كأنهم في حصار وأى حصار !

فلما شاعت الاخبار أسرع الجنرال (جونو) فبعث رسولا لنابوليون فحضر

---

(١) كتاب تاريخ الحملة الفرنسية الذى نشير اليه هو كتاب يقع فى عشر مجلدات اطلعت على نسخة منه فى مكتبة المجلس البلدى بالاسكندرية وليس له نظير فى دار الكتب المصرية بالقاهرة، وهو مطبوع فى باريس سنة ١٨٣٢ ألفه جماعة من الرجال الذين اشترك بعضهم فى الحملة على مصر وجمعت فيه الاوراق والرسائل والكتب والمذكرات التى لم تكن طبعت من قبل تحت اشراف الاساتذة سانتين ومارسيل وريبو.Saintine, Marcel, Reybaud ومارسيل هذا هو أيضاً واضع الكتاب الذى سبقت الاشارة اليه، واسم الكتاب ( Histoire Scientifique etMilitaire de L'Expedition Francaise enEgypte) ومن الذين كتبوا فى هذا السفر مسيو « بيروس » Peyrusse سكرتير خصوصى للجنرال كليبر . ولهذا الرجل رسالة عن اقامته بمصر ، ونسخة من ترجمة الجزء الخاص بالحمله الفرنسية من الجبرتى . والكتاب ليس قاصرا على الحملة بل فيه جزآن عن مصر من التاريخ القديم لحين الحملة وستة أجزاء عن الحملة وجزآن عن مدة محمد على

مسرعاً بمن معه من جهة مصر العتيقة ، فوقف القوم فى طريقه ولم يكن نابوليون مشهوراً مثل «ديبوى» ولذلك رضى أن يقصد جهة بولاق ويدخل من جهة الازبكية وفى الحال أصدر أوامره بالسرعة التى امتاز بها فى أدوار حياته العسكرية ، فعين الجنرال « بون » لقومندانية القاهرة بدلا من «ديبوى» وأخذ فى إعداد المدافع فى الجهات المناسبة ووجه بالجنود إلى أحياء المدينة المتطرفة فأطلقت البنادق على الأهالى بلا تمييز ولا تدقيق

وكان فى القاهرة ، كما يوجد فيها الآن عدد وافر من المغاربة ، وهم عادة من اجلاف القوم وأهل الشرور الذين يودون مثل هاتيك الظروف السيئة ليعيثوا فى البلاد سلباً ونهباً ، فاولئك القوم كانوا أول من تظاهر بالحمية القومية والغيرة الدينية ووقفوا، كما يقول الشيخ الجبرتى، عندجهة الناخلية، فقصدهم الفرنساويون وأجلوهم عن تلك البقعة فارتدوا عنها منذعرين وانسابوا فى المدينة مع من انضم إليهم من أسافل القوم، وامتدت أيديهم لنهب الدور وهتك النساء، والتعرض للنصارى واليهود بالأذى . ومن الغريب أن أولئك المغاربة قد كانوا أول من انضم إلى الفرنساويين بعد إخماد هذه الفتنة ، واتخذوا منهم جنوداً بعثوا بهم إلى المنوفية لمقاتلة أهلها وخصوصاً آل شعير فى كفر عشما ، وسنذكر ذلك فى حينه . قال الجبرتى عن أولئك المغاربة وأسافل العامة « وسبوا النساء والبنات ، ونهبوا خان الملايات ، وما به من الامتعة والموجودات ، وأكثروا من المعائب ، ولم يفكروا فى العواقب »

وبقى الحال على هذا المنوال حتى أقبل الليل وأرخى سدوله على المدينة . وكم كان فى تلك الساعة من امرأة تندب حظها ، وبنات يصرخن ، وأمهات يولولن ، وشيوخ عاجزين عن صد تيار الفتنة ! ! وانتهز نابوليون فرصة دخول الليل . قال فى تقريره « وفى منتصف الليل سار الجنرال دومرتين Dummartin ببطارية من المدافع فوضعها على مرتفع واقع بين القبة والقلعة وذلك المرتفع يتسلط بمسافة نحو خمسمائة قدم على حى الجامع الازهر » وفى هذا يقول الجبرتى « وأما الافرنج فانهم أصبحوا مستعدين ، وعلى تلال البرقية والقلعة واقفين، ولأمر كبيرهم منتظرين»

والحق يقال إن نابوليون لم يرد أن يأمر بأطلاق القنابل على المدينة لما في ذلك من تخريب الدور وازهاق الأنفس قبل أن يبعث للقوم برسل السلام، وكلمات النصح والتحذير

قال الجبرتي « وكان كبير الفرنسيس أرسل الى المشايخ مراسلة فلم يجيبوه عنها وملّ من المطاولة ». وكانت الطلقات النارية ومن البنادق تتجاوب في كل مكان وحي، بين الاهالي من جانب، والنصارى المختفين في دورهم، وبعض الفرنسيين والاجانب الذين استوطنوا في بعض أحياء القاهرة، من آخر. قال (ميو) في مذكراته « وكان كثير من الفرنساويين الذين أنشأوا المطاعم والقهاوي متشتتين في أطراف المدينة فاولئك فتك بهم الثائرون ونهبوا دورهم. وكذلك حاصر القوم دار العلماء فاضطر هؤلاء أن يدافعوا عن أنفسهم » وذهب جماعة من الثائرين الى الدار التي يسكنها الجنرال (كفريللي) المهندس الكبير وهي دار مصطفى كاشف بالدرب الاحمر ونهبوا أدواته وكسروها، وقتلوا بعض الفرنساويين ومن بينهم اثنان من المهندسين وهما (تيفنو) و (دوفال) Duval و Trevenon فاضطر الباقون الى الفرار القلعة وجاءوا بالمدد من جهة المحجر، وأحاطوا بمن في الدار من المسلمين وقتلوهم عن آخرهم، وكان منهم أحد المشايخ المسمى الشيخ محمد الزهار. ولكن بعد أن كسر الثائرون أكثر الآلات الهندسية والنظارات الفلكية مما يعز وجوده بعد ذلك خصوصاً في ذلك الزمان والمكان. وممن قتلهم الثائرون من العلماء والفضلاء مسيو (تستفويد) Testiviude وهو شيخ يبلغ من العمر فوق الستين وكان في ذلك الوقت يشتغل برسم خريطة القطر المصري وقتل أيضاً دوبريه الرسام Dupres وخلص « جومار » العالم الكبير لحسن حظه وحظ العلم. وقد كتب (دينون) فصلاً مطولاً في كتابه عن مركز رجال العلم في دارهم وكيف كافحوا وقاوموا حتى اخمدت الثورة، وله كلمات حلوة جميلة عن الجنرال (ديبوى)، وخصوصاً عن الضابط البولوني (سولبسكي) الذي قتل بعد ذلك

وروى نابوليون في تقريره أن المشايخ من أعضاء الديوان وعلماء الأزهر

قصدوا الجهات التى تترس فيها الثائرون ونصحوهم بالكف عن القتال ، وبينما يذهبون الى كبير الفرنساويين ويمهدون أسباب الصلح . فلم يستمعوا لهم وسبوهم وهددوهم بالقتل إن تعرضوا لهم . عنـد ذلك يئس نابوليون من إنابة القوم الى رشدهم فأصدر أمره عند الساعة الرابعة بعـد ظهر يوم الاثنين باطلاق القنابل على الجامع الازهر وما حوله من الجهات حيث يوجد الثائرون . قال الجبرتى « وتعمدوا بالخصوص الجامع الازهر ، وحرروا عليه المدافع والقنبر ، وكذلك ما جاوره من أماكن المجاورين ، كسوق الغورية والفحامين ، فلما سقط عليهم ذلك ورأوه ، ولم يكن في عمرهم عاينوه ، نادوا ياسلام ، من هذه الآلام ، ياخفى الالطاف ، نجنا مما نخاف ، وهربوا من كل سوق ، ودخلوا فى الشقوق »

ولا يكاد الانسان يتلو عبارة الجبرتى ، التى نقلناها ، حتى يشعر بشىء من الاستهزاء أو الضحك ، الذى هو أشبه بالبكاء لسخافة أولئك القوم ، وتصورهم إمكان مقاومة الفرنساويين ، وهم عزل من السلاح، محصورون من جميع الجهات ، ومع خصمهم المدافع الـكبيرة ، والقنابل الـكثيرة ! قال الجبرتى بعد كلام طويل على ذلك النسق الغريب « وتتابع الرمى من القلعة والكيمان ، حتى تزعزعت الأركان، وهدمت فى مرورها حيطان الدور ، وسقطت فى بعض القصور ، ونزلت فى البيوت والوكائل ، وأصمت الآذان بصوتها الهائل . فلما عظم الخطب ، وزاد الحال والكرب ، ركب المشايخ الى كبير الفرنسيس ليرفع عنهم هذا النازل ، ويمنع عسكره من الرمى المتراسل . . . فلما ذهبوا اليه عاتبهم فى التأخير ، واتهمهم بالتقصير ، فاعتذروا اليه فقبل عذرهم ، وأمر برفع الرمى عنهم ، فقاموا من عنده وهم ينادون بالامان في المسالك ، وتسامع الناس بذلك ، فردت فيهم الحرارة ، وتسابقوا لبعضهم بالبشارة ، واطمأنت القلوب ، وكان الوقت قبل الغروب ، وانقضى النهار وأقبل الليل . . »

* * *

وأول ما يتبادر لذهن القارىء من تقرير نابوليون لحكومة الديكتوار انه أراد تلطيف ذكر هذه الثورة وتخفيض شأنها لكي يفهمهم فى باريز أن مركزه فى مصر

محفوف بالاخطار ، وأنه مقيم بجيشه وسط شعب يتحين الفرص للانقضاض عليه، أو للانفضاض عنه ، فلذلك اكتفى نابوليون بالقول إنه ما كاد يطلق قنابل المدافع على الثائرين مدة عشرين دقيقة ، حتى تبدد شملهم ، واحتل الجنود الجامع الازهر وزهقت روح الفتنة ! ! فى حين أن الحرب بقيت سجالا فى جزء كبير من الليل كما يشهد بذلك الجبرتى، إذ يقول إن أهل الحسينية ، والعطوف البرانية ، استمروا على القتال الى أن مضى من الليل نحو ثلاث ساعات، وما منعهم عن الاستمرار إلا لأن البارود قد فرغ منهم ، فعجزوا عن المقاومة ، ولم يدخل الفرنساويون المدينة — على رواية الشيخ — إلا « بعد هجعة الليل ، دخل الافرنج المدينة كالسيل، ومروا فى الازقة والشوارع، لايجدون لهم من ممانع، كأنهم الشياطين، أو جند أبليس اللعين، وهدموا ما وجدوا من المتاريس ، وكروا ورجعوا ، وترددوا وما هجعوا ، ثم دخلوا الى الجامع الازهر وهم راكبون الخيول ، وبينهم المشاة كالوعول»

وحكاية الشيخ الجبرتى الازهرى عما عمله الفرنساويون فى الجامع الازهر من أنواع الاساءة وخرق حرمة ذلك المكان المبجل ، من العبارات التى تملأ الفؤاد حسرة ، والنفس كآبة ، ولولا خوف التطويل لنقلناها عنه فليراجعها من يشاء . وإنما نذكر هنا أن الجنود الفرنساوية وخيولها بقيت فى الجامع الازهر من مساء يوم الاثنين إلى يوم الاربعاء . إذ يقول الجبرتى إن المشايخ ذهبوا فى ذلك اليوم الى نابوليون ورجوه فى إخراج العسكر من الجامع الأزهر « فأجابهم لذلك السؤال ، وأمر باخراجهم فى الحال » . . ولكن المعلم نقولا الترك يقول إن نابليون لم يجب المشايخ إلى طلبهم ثم قال « فانصرفوا من أمامه باكين (كذا) وعلى أحوالهم نائحين، وتأسفوا على جامع الكنانة ، وخراب الديانة ، ثم فى ذلك النهار أرسلوا له الشيخ محمد الجوهرى وكان فى كل حياته ما كان يقابل أحداً من الحكام ، ولايتعرض إلى أمور العوام ، وفى دخوله قال له ما قابلت حاكما عادلا أو ظالما ، والآن وقد أتيت متوسلا إليك أن تأمر باخراج العسكر من الجامع الازهر ، وتغفر ذنب هؤلاء القوم الفجر ، وتتخذنى مدى العمر داعياً لك ناشراً فضلك ، فأنشرح أمير

الجيوش من ذلك الخطاب ، وانعطف قائلا أننى عفوت وصفحت عن أحبابك ، لأجل خطابك »

وقدجاري جورجي زيدان المعلم تقولا فى روايته عن شفاعة الشيخ محمد الجوهرى ونحن لانتعرض لنفيها أو إثباتها، ولكننا نستغرب اهمال الجبرتى لها، مع انه أولى بمعرفتها لصداقته وثقته بالشيخ الجوهرى ، ثم تقول إن ما ذكره المعلم تقولا عن الشيخ الجوهرى ، من حيث اعتكافه وعدم زيارته للامراء والحكام ، صحيح إذ كان ذلك الرجل من أهل الفضل والمكانة السامية لأنه من أهل العلم ومن بيوت الحسب والجاه ، ذكره الجبرتى فى وفيات سنة ١٢١٥ وقال عنه إنه كان من الذين حضروا على والده الشيخ حسن الجبرتى، وكان آية فى الفهم والذكاء وألقى الدروس بالأشرفية وأظهر التعفف والامتناع عن خلطة الناس ، والذهاب والترداد الى بيوت الاعيان ، وساعده على ذلك الغنى والثروة وشهرة والده ، وتردد الامراء على داره وسعوا لزيارته . وكانت شفاعته لاترد عندهم ، وطار صيته فى الآفاق ووفدت الوفود عليه من الحجاز والهند والشام والروم ، وطلب لمشيخة الجامع الازهر فأبى ولكنه نقض ما أبرمه العلماء والامراء ورد المشيخة للشافعية بعد أن كانوا قد عينوا فيها الشيخ عبد الرحمن العريشى الحنفى ، وعين الشيخ الشرقاوى بعد العروسى باشارته . ولم يذكر الجبرتى فى ترجمة الشيخ الجوهرى المطولة أنه زار نابليون أو رجاه وكل ماذكره من علاقته بالفرنساويين قوله « ولم يزل وافر الحرمة معتمدا عند الخاص والعام حتى حضر الفرنساوية واختلت الامور وشارك الناس فى تلقى البلاء وذهب ما كان له بأيدى التجار ونهب بيته وكتبه التى جمعها وتراكمت عليه الهموم والامراض ، وحصل له اختلاط ولم يزل حتى توفى يوم الأحد حادي عشرين شهر القعدة بحارة « برجوان » وله عدة مؤلفات في العلوم والمباحث الشرعية ذكرها الجبرتى وهى تربو على الثلاثين مؤلفا ورسالة

ولم يقتصر أمر الثورة على سكان القاهرة اذ كان من الطبيعى أن تنتشر الاخبار فى البلاد المجاورة فيسارع الفلاحون والعربان لنصرة اخوانهم ، وفعلا قدم الى

القاهرة من جهة القليوبية عدد كبير من الفلاحين والبدو فاضطر نابوليون أن يبعث بفرقة من الخيالة تحت قيادة الجنرال دوماس Dumas لمقاومة الفلاحين بالقرب من بلدة القبة وعزبة الزيتون لحال بينهم وبين القاهرة

وكان زعيم العرب والفلاحين القادمين من القليوبية لنصرة الثائرين فى القاهرة المرحوم شيخ العرب سليمان الشواربى جد آل الشواربى[1] المعروفين فى القليوبية وقد روى المعلم نقولا التركي انه لما صمم أهل القاهرة على الثورة كتبوا الي الشيخ الشواربى يستنجدونه « وعينوا له زماناً يحضر بعشائر العربان وقد أتى فى الميعاد اذ كانت الفرنساوية محيطة بالقاهرة فضربهم الفرنساويون بالمدافع والرصاص فولوا منهزمين »

وليس فى الجبرتى أثر لهذه الرواية. والقرائن كلها تدل على صحتها، ولعل السبب فى ذلك هو أن الشيخ الجبرتى كان فى حى الازهر مع المحصورين المضروبين ، بينما كان المعلم نقولا الترك مع الفرنساويين المحاصرين للمدينة ولذلك استطاع أن يعرف أن الفرنساويين صدوا القادمين للنجدة وضربوهم بالمدافع والرصاص فولوا منهزمين. والدليل على صحة الرواية هو ماورد بعد ذلك فى حوادث أوائل شهر رجب فى الجبرتى قوله إن كبير الفرنسيس الذى بناحية قليوب حضر ومعه سليمان الشواربى شيخ الناحية وكبيرها فلما حضر حبسوه بالقلعة وقيل أنهم عثروا على مكتوب ارسله وقت الفتنة السابقة الي سرياقوس ليحرضهم على قتال الفرنسيس . وقال في حوادث آخر شهر رجب هذا ، انهم قتلوا الشيخ سليمان الشواربى ومعه ثلاثة من عرب الشرقية قطعوا رؤوسهم بالرميلة ونقلت جثة الشواربى الي قليوب ودفن هناك مع أسلافه ، رحمه الله

وكان حاكم القليوبية الذى قبض على الشواربى هو الجنرال مورات Murat صهر نابوليون وملك ايطاليا فيما بعد ، وصاحب الشهرة الواسعة فى تاريخ اوربا وحروبها

---

(١) يتناقل آل الشواربى رواية عن مقتل جدهم سليمان الشواربى ، وهى أنه لما احتل الفرنساويون القاهرة اعتصم فى الجبل الغربى ولم يسلم لهم واستمر يناوئهم ويناوشهم ويعتدى هو وقبيلته على جنودهم كلما سنحت له الفرصة ، ولما هدأت الثورة أرسل نابليون الشيخ الشرقاوى الى سليمان الشواربى للصلح معه فرفض ثم عاد الشيخ الشرقاوى بخطاب من نابليون يقول فيه انه يريد أن ينصبه والياً على مصر فصدق الشواربى وسار مطمئناً مع الشيخ الشرقاوى الى القاهرة فنكث نابليون عهده وأمر بقتله

النابوليونية وتاريخ حياته أشبه برواية من الروايات الخيالية ويكفي أنه ارتقى من جندى بسيط الى ملك عظيم

وحاول المصريون أيضاً من أهل القرى المجاورة كالجيزة وما وليها الهجوم على القوى الفرنسية واجتمع منهم على رواية نابوليون فى تقريره نحو أربعة أو خمسة آلاف فحملت عليهم فرقتان تحت قيادة الجنرالين لان (Lannes) وفو (Veaux) فبددتا شملهم وكذلك اقبل جماعة من البدو الي جهة باب النصر فأوفد نابوليون الكولونل «سولكوسكي» البولونى أحد اركان حربه فقتل هو ومن معه الا نفراً واحداً

وليس من الغريب أن يتبع الفرنساويين إخمادهم الفتنة بالانتقام من المصريين عمن قتل من أبناء جنسهم، سواء من الملكيين أو من الحربيين ، كيف لا وقد قتل منهم من القواد الجنرال ديبوى وكان محبوبا لبسالته وجرأته ، وكذلك قتل العربان كما ذكرنا الكولونيل سولكوسكي وكان ضابطا بولونى الأصل من ذوى الفضائل والمكارم ، وأى فضيلة أشرف من فضيلة الوطنية لدى رجل أبت نفسه أن يبقى في بلاده بعد أن هدمت المطامع الأوروبية سور استقلالها فارتحل عنها المجد والحرية ، فجاء مصر يفعل فيها مثل مافُعل فى بلاده!! حتى لقى حتفه فى ارض ماعرفت الحرية ، ولا ذاقت طعم الاستقلال. ولقد أحبه نابليون حبا جما حتى لقد سالت الدموع من عينيه حين علم بمقتله . وكثيرا ما ذكره وأثني عليه ، ولقد رثا « دينون » مقتل سولكوسكي بكلمات هي السحر الحلال وقال : كان ذلك الضابط الجيل الرشيق صديقاً حميماً ، طموح النفس ، عالي الهمة الي آخر ما أسبغ عليه من الثناء والاطراء

ويقدر نابليون فى تقريره عدد من قتل من المصريين فى هذه الثورة السخيفة بنحو الفين إلي الفين وخمسمائة . وقدر خسارة الفرنساويين بنحو ستين نسمة من الجنود الملكيين

واما المعلم نقولا الترك فيقدر الخسارة باكثر من ذلك أضعافا مضاعفة فقال « وقد كان مات بهذه الواقعة الفا صلدات ( استعمل المعلم نقولا هذه الكلمة عن الجنود وهى فرنسيه Soldat عسكرى )ومن أهالى المدينة ماينيف عن خمسة آلاف»

وهي مبالغة لاشك فيها خصوصا فيما يتعلق بخسارة الفرنسيين

والي القارىء سلسلة انتقامات الفرنسيين من المصريين نسردها واحدة فواحدة ، فنبدأ بما رواه الجبرتى ، ثم نأتى على أقوال الفرنسيين انفسهم .

تقتطف من الجبرتى فى الجزء الأخير من مقامته الثورية العبارات الآتية قال : « ثم تردد الفرنسيس في الاسواق ووقفوا صفوفا ، مئين وألوفا ، فان مر بهم أحد فتشوه ، وأخذوا ما معه وربما قتلوه ، وتحزبت نصارى الشوام ، وجماعة أيضا من الأروام ، واغتنموا الفرصة فى المسلمين ، وأظهروا ما هو بقلوبهم كمين .. وانتدب برطلمين للعسس ، على من حمل السلاح واختلس ، وبعث أعوانه فى الجهات ، يتجسسون فى الطرقات ، فيقبضون على الناس بحسب أغراضهم ، وماينهيه النصارى من أبغاضهم ، فيحكم فيهم بمراده ، و يعمل برأيه واجتهاده ، ويأخذ منهم الكثير ، ويركب فى موكبه ويسير ، وهم موثوقون بين يديه فى الحبال ، و يسحبهم الأعوان بالقهر والنكال ، فيودعونهم السجونات ، و يطالبونهم بالمنهوبات ، ويقررونهم بالعقاب والضرب ، ويسألونهم عن السلاح وآلات الحرب . . . وكثير من الناس ذبحوهم ، وفى بحر النيل قذفوهم . . . ومات فى هذين اليومين وما بعدهما أمم كثيرة لايحصى عددها إلا الله ! »

وليت شعرى هل أحصى نابليون تلك الخلائق الذين فتكوا بهم بعد إخماد الثورة وخلود الناس الي السكينة ، فيما قدره من خسارة الثائرين فى تقريره الآنف الذكر ؟ أو كان الألفان أو الألفان ونصف ألف خارج هذا العدد « الذى لايحصيه إلا الله » ، على رأى الجبرتى ، طيب الله ثراه ؟

• ( ثانيا ) ألقوا القبض على عدد كبير من كبار القوم المتهمين باشعال جذوة الثورة ومن هؤلاء ذكر الجبرتى الشيخ سليمان الجوسقى شيخ طائفة العميان ، والشيخ احمد الشرقاوى ، والشيخ عبدالوهاب الشبراوى ، والشيخ يوسف المصيلحى ، والشيخ اسماعيل البرواى ، وفى اليوم التالى ( ٢٣ اكتوبر ) أصدر نابوليون أمراً (محفوظاً فى مخاطباته بنمرة ٣٤٢٧) إلي الجنرال ( بون ) قومندان القاهرة « بأن

يقتل أولئك المشايخ، ومن قبض عليهم من زعماء الثوار وذلك بأن يؤخذوا ليلا إلى شاطىء النيل بين مصر العتيقة و بولاق ثم يقتلوا وتلقى بجثثهم فى مياه النهر »

وقد بقى اهل القاهرة عـدة أيام لا يعرفون ماذا جرى لأولئك المشايخ والفرنساويون يخفون عليهم الأمر ، والشيخ الجبرتى يقول : « أخذ الفرنساويون المشايخ من بيت البكرى وعروهم عن ثيابهم وصعدوابهم إلى القلعة فسجنوهم إلى الصباح ثم أخرجوهم وقتلوهم بالبنادق وألقوهم من السور خلف القلعة وتغيب حالهم عن أكثر الناس أياما »

وكان ذلك ليلة الأحد ٢٥ جمادى الأول ، مع انهم كانوا قتلوا قبل ذلك بعـدة أيام وطرحت جثثهم بالنيل ويظهر أنهم حقيقـة عروهم عن ثيابهم وأخفوا رؤوسهم والا لوطرحت فى النهر لطفت رممهم وتعرفهم الناس فى أماكن مختلفة . ولا ندرى من أين جاء المعلم نقولا الترکي بأن الفرنساويين عقدوا مجلساً وحاكموا الذين ألقى القبض عليهم محاكمة قانونية ، مع ان الفرنساويين ، وهم أولي بالدفاع عن أنفسهم ، لم يذكروا شيئا من هذا ! أفنكون ملكيين أكثر من الملك ؟

ويقول المعلم نقولا الترك أيضا « إن نابوليون وجد من بين أولئك المقبوض عليهم أثنان من أعضاء المجلس العالى ، فبعد قتلهما أمر بألغاء المجلس »، ولا ندرى من كان من أولئك المشايخ فى المجلس العالى الذى يشير اليه وكلهم ماعدا الشيخ الجوسقى من متوسطى المدرسين الذين يقرأون الدروس فى الازهر وفى غيره من المساجد مثل المشهد الحسيني وزاوية الجوهرية وجامع الكردي ، ويظهر من تراجمهم أنهم كانوا من أهل التقوى والصلاح والابتعاد عن المشاكل . أما الشيخ سليمان الجوسقى فكان من ذوى المطامع واهل المشاغبات، وتاريخه من الامور العجيبة ولذا رأيت أن أذكره بشىء من التفصيل لانه يرسم لنا صورة من حياة ذلك العصر .

الجوسقى نسبة الى الجوسق وهى على الاغلب بلدة فى مديرية الشرقية [1]

(١) جاء فى معجم البلدان لياقوت الحموى أن « الجوسق » من قرى النهروان من أعمال بغداد ينسب اليها ابن على بن ابراهيم الجوسقى الضرير المتوفى سنة ٥٢٣ ه قال والجوسق

قال عنه الجبرتى أنه ولى شيخا على العميان بزاويتهم المعروفة الآن بالشنوانى فسار فيهم بصرامة وجبروت ، وجمع بجاههم أموالا عظيمة وعقارات ، فكان يشترى غلال المستحقين المعطلة بالابعاد ( كأن يكون لاحد الناس استحقاق فى وقف ما في جهة من جهات القطر البعيدة يستولى عليها الملتزمون من المماليك ولا يدفعون للمستحقين شيئا فيأتى الشيخ الجوسقى ويبتاع من المستحقين غلتهم ) بدون الطفيف ويخرج كشوفاتها وتحاويلها على الملتزمين ، ويطالبهم بها كيلا وعينا ، ومن عصى منهم بعث اليه بالجيوش الجرارة من العميان فلا يجد بداً من الدفع : ! وله أعوان يرسلهم الى الملتزمين بالجهة القبلية ، يأتون اليه بالسفن المشحونة بالغلال والمعاونات ( بدل الغلة ) من السمن والعسل والسكر والزيت وغير ذلك ، ويبيعها فى سني الغلاء بالسواحل والرقع [1] باقصى القيمة ويطحن منها على طواحينه دقيقاً ويبيع خلاصته فى البطط [2] بحارة اليهود ويعجن نخالته خبزاً لفقراء العميان يقتاتون به مع ما يجمعون من الشحاذة فى طوافهم بالليل وأطراف النهار بالاسواق والازقة ، وتغنيهم بالمدائح والخرافات ، وقراءة القرآن فى البيوت ومساطب الشوارع وغير ذلك ومن مات منهم ورثه الشيخ الجوسقى . وكثير من أولئك العميان الشحاذين من ترك ثروة طيبة فصار الشيخ بذلك من ذوى اليسار والنفوذ تخشى سطوته ، وتسمع كلمته يركب البغال واتباعه محدقون به » وعلى رواية الجبرتى أنه « تزوج الفتيات الجميلات واشترى السرارى البيض والحبش والسود ، وكان يقرض الأكابر المقادير الوافرة

---

قرية كبيرة عامرة بالحوف الشرقى من أعمال بلبيس من نواحى مصر والجوسق ناحية بالرى قال شاعر عطمش الضبى

| | |
|---|---|
| لعمرى لجو من جواء سويقة | أسافله ميت وأعلاه أجـرع |
| أحب الينا ان نجاور أهلهـا | ويصبح منا وهو مرأى ومسمع |
| من « الجوسق » الملعون بالرى كلما | رأيت به داعى المنية يلمع » اه |

وقد لجأنا الى هذا البيان فقد يكون الشيخ سليمان الجوسقى الذى قتله الفرنسيون من النازحين الى مصر فى طلب العلم بالجامع الازهر والاغلب كما قلت ان انتسابه هو لبلدة الجوسق فى مديرية الشرقية وينطقونها « الجوسأ » بالهمزة

(١) جمع رقعة وكان هذا اللفظ يستعمل بمعنى السوق فكان يقال « رقعة القمح » أى سوق القمح (٢) لا أعرف معنى هذا ولعله معناها الافران أو المطاحن أو طابونه.

من المال ، ليكون له عليهم الفضل والمنة ، ولم يزل حتى حمله التفاخر فى زمن الفرنسيس على إثارة الفتنة التى أصابته وغيره وقتل فيمن قتل بالقلعة ولا يعلم له قبر » . ومن غريب أمر الشيخ الجبرتى أنه لما ذكر وفاة المشايخ الآخرين كان يختم ترجمة كل واحد منهم بقوله « أنهم فى إثارة الفتنة وقتل شهيداً » أما عن الشيخ الجوستى فلم يرض أن يقول عنه « مات شهيداً » ! !

والثالث من سلسلة انتقامات الفرنساويين ما رواه كتاب الفرنساويين فى كتبهم ومذكراتهم من أن نابوليون أصدر أمره للضابطين كروازييه Croizier وأوجين بوهارنيه (هو ابن زوجته جوزفين) وكلاهما من أركان حربه بمطاردة العربان الذين اعتدوا على الجرحى القادمين من جهة الشرقية وفتكوا بهم أثناء ثورة القاهرة فأحاطا بمن معهما من الجنود بكثير من مضارب البدو النازلين فى الجهات الواقعة شرقى مديرية القليوبية فاحرقوا خيامهم وخربوا بوادورهم وفتكوا بنسائهم وأولادهم ، وقبضوا على مائتين من رجالهم . وكان أمر نابوليون قاضياً بذبح اولئك العربان ذبحاً وجز رؤوسهم من حلوقهم ، وجمع هاتيك الرؤوس المفصولة فى اكياس ليتفرج عليها أهل القاهرة!

لا مبالغة فى هذا القول فقد روى «بورين» كاتب يد نابوليون في مذكراته ما نصه حرفياً :

« بعد اخماد الثورة ببضعة أيام قضت ضرورة المحافظة على سلامتنا أن نعمل عملا قاسياً فظيعاً وذلك أن نابوليون بعث بالضابط كروازيه أحد أركان حربه وأمره أن يهاجم قبيلة من البدو كانت اعتدت على شرذمة من جنودنا ، وأن يحيط بتلك القبيلة ويحرق مساكنها ، ويذبح رجالها ، وكان الامر يقضى بأن يجمع رؤوس القتلى فى اكياس ليعرضها على سكان القاهرة وكان ( بوهارنيه ) مع كروازيه فى تلك المهمة القاسية فعادا فى اليوم التالى ومعهما عدد عديد من الحمير محملة باكياس ملأى بالرؤوس البشرية ! وفتحت هاتيك الاكياس ، وافرغ ما فيها أمام أعين الناس المجتمعين ! وانى لا أستطيع أن أصف بشاعة ذلك المنظر ، ولا القشعريرة التى أحسست بها عند رؤيته . . ! » وغريب أن الجبرتى لم يذكر شيئاً عن هذه

الحادثة وما أظنها خفيت عليه ولكن ربما نسي تقييدها أو سقطت من أوراقه قبل تنسيقها وتدوينها

( والرابع ) من ذلك إرسال برطلمين الرومى وكيل محافظة القاهرة بفئة من الجند الي جهة سرياقوس لمطاردة الفارين من أهل القاهرة الذين خافوا العقاب فلم يدرك أحداً منهم ، ولكنه عوض عن فشله ، لارضاء أسياده الفرنساويين ، بنهب البلاد وإحراق القرى وفرض المغارم حتى ضج العباد واستغاثوا من مظالمه

وقد سبق لنا ذكر هذا الرجل الرومى الذى عينه الفرنساويون عند احتلالهم القاهرة كتخدا مستحفظان ( وكيل محافضة )ولا أدرى لماذا اختاروه لتلك الوظيفة فى الوقت الذي كانوا يتحببون فيه إلى المسلمين ، ولكن الذنب في ذلك واقع على المشايخ الذين افتوا لهم بأن سوقة مصر لا يخافون إلا من المماليك وأشباههم ، فلذلك عينوا محمد أغا المسلماني ، وهو أرمني حديث عهد بالاسلام ، أغات مستحفظان أى محافظا للقاهرة ، وعينوا برطلمين هذا وكيلا له ، فبئس الاصيل وبئس الوكيل !

واسم برطلمين الحقيقي «برتلمي »وكان العامة فى مصر — على رواية الجبرتى — يسمونه « فرط الرمان » وقال عنه إنه من أسافل نصارى الاروام العسكرية القاطنين بمصر وكان من الطبلجية عند محمد بك الالفي وله حانوت بخط الموسكي يبيع فيه القوارير الزجاج « فلما دخل الفرنساويون عينوه في تلك الوظيفة فسكن فى بيت يحى كاشف الكبير بحارة عابدين فأخذه بما فيه من فرش ومتاع وجوارى وغير ذلك »(١)

وأما أولئك المغاربة الذين كانت لهم اليد الطولى فى الفتنة والشاغبة فان الفرنساويين أطلقوا سراح الذين قبضوا عليهم بوساطة كبير من بنى جنسهم اسمه عمر القلقجي وقد جمع هذا أولئك « الفتوات » من أوباش المغاربة فانتقى نابوليون فئة كبيرة ألف منها فرقة عسكرية تحت زعامة عمر المذكور . قال الشيخ الجبرتى فى حوادث يوم ١٨ جمادى الاولي ( يوافق ٢٨ اكتوبر ) « أن أولئك المغاربة بعثوا بهم الى

---

(١) جاء فى كتاب الحملة الفرنسية الذى سبقت الاشارة اليه أن برتلمى هذا كان بواباً عند محمد بك الالفى وكان رجلا ضخم الجثة يلبس ملابس غريبة نصفها شرقى ونصفها أوروبى ويلقى على كتفه طيلسانا واسعا

نجهة بحرى فضربوا كفر عشما وقتلوا كبيرها المسمى بابن شعير ونهبوا داره ومتاعه وبهائمه وكان شيئا كثيراً جداً وأحضروا اخوته وأولاده وقتلوهم ولم يتركوا منهم سوى ولد صغير جعلوه شيخاً عوضاً عن أبيهم »

ورواية الجبرتى في هذه الحكاية مضطربة ، شأنه في كل الحوادث التى تبعد عن القاهرة فان مهاجمة كفر عشما وقعت فى ٢٠ اكتوبر وهو يوافق ١٠ جمادى الأولى أى قبل الثورة بيوم واحد. والفرنساويون يقولون أن ابن شعير أو أبو شعير كان من كبار اللصوص وقطاع الطريق أو من يسمونه « شيخ منصر » ، ولقى منه الفرنساويون فى مديرية المنوفية الأمرّين فكان يهاجمهم ويفتك بجنودهم ويسلب ذخائرهم وأسلحتهم ويختفى بمن معه، فطاردهم وطاردوه ، وقاتلهم وقاتلوه ، حتى كانت ليلة السبت ٢٠ اكتوبر اتصل بالجنرال لانوس Lanusse أن أبا شعير يبيت في كفر عشما[1] فى داره فاسرع بقوة عظيمة وأحاط بالقرية وحاصر الرجل فى داره وقتلوه ومن معه. قال « لاكروا » إن أباشعير هذا كان رجلا ظالما عاتيا وكان له النفوذ الأول فى جميع مديرية المنوفية وماجاورها ، وكان تحت أمرته من الرجال أكثر من ألف ومائتين فلما حاصروه وقاتلوه، وفرّ من استطاع الفرار من رجاله، استولوا على منزله فوجدوا فيه -على رواية ذلك المؤلف- مقادير كثيرة من النقود والفضة الخالصة، وكميات وافرة من الذخائر والأسلحة المتنوعة ، وأخذوا من داره ثلاثين جواداً من أنفر الجياد المطهمة ، ثم طافوا برأسه فى جميع قرى المنوفية ليقتنع الناس بموته . وفي مكاتبات نابليون خطاب بعث به للجنرال لانوس يقول فيه « أقدم لك مزيد التهانى يامواطنى الجنرال على ظفرك بابى شعير فقد كان فوزك على ذلك السلابه Brigand انتصاراً كبيراً لنا »

وسواء كان ابن شعير أو أبو شعير لصا وقاطع طريق ، أو كبير عزوة ورئيس عشيرة، فقد قتلوه ومثلوا به وغنموا أمواله! ومن يدرينا ماذا فعلوا في بلدته من الشرور وهتك الأعراض وسلب العباد ؟

ومع هذا يقول الكتاب الفرنسيون إن نابوليون عامل المصريين بعد الثورة

(١) كفر عشما فى المنوفية بلدة آل شعير وهى قريبة من دنشواى !!

بالرفق وأبدى لهم من التسامح والتساهل شيئاً كثيراً، فماذا كانوا يطلبون بعد قتل من ظنوهم زعماء الثورة والقاء جثث أولئك العلماء في النهر كأحط المجرمين بلا محاكمة؟ وبعد إزهاق أرواح أكثر من ثلاثة آلاف نسمة بشهادة نابوليون نفسه ثم تخريب القرى وإحراقها؟! ثم ما هو أكبر من ذلك من خرق حرمة المعهد الاسلامي المقدسة وجعله اسطبلا للخيول ومرحاضا للجنود! ماذا كنتم تريدون أن يفعل بالمصريين أكثر من هذا يادعاة المدنية وأنصار العدل والانسانية! وحملة راية «الحرية والمساواة الاخاء»...؟

أما أن المصريين قد أخطأوا بتلك الثورة السخيفة، فذلك ما لا شك فيه. ورحم الله الشعبي الخارجي لما قال للخليفة هارون الرشيد «لقد قمنا بفتنة لم نكن فيها بررة أتقياء، ولا فجرة أقوياء» وهكذا كان المصريون، ولكنهم من جهة أخرى قد حركتهم عوامل الاغراض المتباينة وحرضتهم آلات أعداء الفرنساويين من رسل الانكليز والروس والاتراك، وبقايا المماليك في القاهرة، والويل للامم التي تقع ألعوبة في مهاب السياسة التي لا قلب لها ولا ضمير...

تسفك دماء المصريين فلتسفك! تخرب ديارهم فلتخرب! ولكن لا يبقى الفرنساويون في أرض مصر ما دامت طريق انكلترا الي الهند!

ليس للمصريين في أي وقت من الأوقات، ولا في أي زمان من الازمان، مصلحة ما في الثورات والاضطرابات لأنهم في حال خاصة لا يفيدهم فيه غليان العواطف، واضطرابات المشاعر القومية، في القلاقل التي لا يستفيد منها غير الأجنبي.. وتاريخ القرن التاسع عشر، الذي كانت هذه الحوادث التاريخية فاتحته في مصر، يشهد بذلك. وإن صحت أو لزمت الثورات لتطهير جسم أمة من الأمم في أوروبا مثلا، أو لقلب حكومة من حكوماتها، أو نظام من نظاماتها فلأنها أمم مستقلة بذاتها، فدورانها حول نفسها، وشرها لها، وخيرها لها، وأما في مصر، فكل اضطراب في جسم الامة يعود عليها بالنكال. وعلى المصريين أن يضعوا هذه الحقيقة دائما نصب أعينهم ولا تخدعهم الظواهر، فقد كفاهم من التاريخ موعظة، وليستفيدوا من

سكونهم ، وليتركوا المتنافسين وشأنهم، فذلك أسلم لهم ، اللهم إلا إذا اشتد ساعدهم وقوى بأسهم — وبينهم وبين ذلك أمد بعيد ، وسفر طويل — فلهم أن يسيروا على السنن الطبيعية للامم ... ليحرص المصريون وليبتعدوا عن الوقوع فى حبائل المحركين لعواطفهم ، وليلازموا السكينة ولا يمكنوا اعداءهم من صدهم وتعويقهم عن السير المضمون فى طريق الحضارة الصحيحة والعلم النافع ، والاستفادة من ظروف الزمان والمكان ، فان لم نكن فجرة أقوياء ، فلنكن بررة أتقياء ، حتى يحكم الله بأمر من عنده وهو خير الحاكمين

يقول الكتاب الفرنساويون إنهم قهروا المماليك فى واقعة امبابة وقهروا المصريين فى ثورة القاهرة ! ذلك أن المصريين بعد أن رأوا من قوة الفرنساويين ما رأوا أظهروا الذلة والمسكنة وحاموا حول الفاتحين يتطلبون منهم العفو والمغفرة ، وأكثر الكثيرون منهم التزلف والتملق والصغار كعادتهم ، التى أورثهم إياها الاستعباد والاستبداد .. وهذا المعلم نقولا الترك يقول « وقد خسرت الاسلام ، ولم تربح بهذا القيام ، سوى الذل والاهانة ، وافتضاح جامع الديانة »

فلا غرابة بعد ذلك اذا شمخ الفرنساويون بأنوفهم واستباحوا ما استباحوا من حمى المسلمين وأعراضهم ، ونفذوا ما أرادوا من ضرائبهم

قال الجبرتى « وفى السابع والعشرين من الشهر ( جمادي الاولي ) شرعوا فى إحصاء الأملاك والمطالبة بالمقرر (من الضرائب) فلم يعارض فى ذلك معارض ولم يتفوه أحد بكلمة ، والذى لم يرض بالتوت يرضى بحطبه »

وكان من نتائج تلك الثورة ومقتضياتها أن يغير نابليون خطته وسلوكه نحو المصريين ويعاملهم معاملة الشدة ويشك فى إمكان إخلاصهم ، ولولا أنه قد كان عالما بأن الدولة العثمانيه قد اتفقت مع انجلترا وروسيا على محاربته وإخراجه من أرض مصر ، فكان ذلك قاضياً عليه بأن يتودد للمصريين بعض التودد ، ويكثر من نشر المنشورات ، ويلقى عليهم النصائح والارشادات ، ويذكرهم بعدله وحلمه وعفوه ، ويقارن ذلك بظلم المماليك وغطرستهم — نقول لولا ذلك لكان أشد وطأة على المصريين مما كان بعد الثورة وفي الدور الثالث .

بقى علينا أن نسأل أين ذهب السيد بدر المقدسى السورى زعيم القوم وقائد « أولاد الحسنية والحارات البرانية » ومسبب كل هاتيك الشرور والفضائح فى بيوت النصارى والمسلمين على السواء ؟ أين ذهب ذلك البطل المغوار ؟ كان أول من فر إلى بلاده محملا بالغنائم مما خف ثقلا وغلا ثمنا. فقد روى الجبرتى بعد ذكره القبض على أولئك المشايخ الازهريين الذين قتلوهم أو ذبحوهم فى القلعة أو على ضفة النيل « أما السيد بدر المقدسى فانه تغيب وسافر إلى جهة الشام » وهكذا يفعل دائماً الدخلاء الذين لاناقة لهم فى البلاد ولا جمل، لأنهم آفاقيون لادين لهم ولا وطنية عندهم ، وليس لهم فى البلد ذمار، ولا عرض يصان، ولامال يحرص عليه، ولا قبور آباء وأجداد ترعى كرامتها وتخفر ذمتها

وهنا صفحة أخرى بيضاء للمصريين فى خلال تلك الفتنة الا وهى معاملة كثير من أهالى القاهرة لكثير من الفرنسيين والافرنج الذين التجأوا اليهم واستظلوا بحمايتهم من العامة والغوغاء . ولا أنقلها عن الجبرتى ، ولا المعلم نقولا اللذين شهدا حوادث تلك الايام وتركا الناس مذكراتهما عنها، فانهما لم يكتبا عن هذه الامور والحوادث، التى اشتهر فى ذلك الوقت بالطبع أمرها ، ولكني أنقل تلك الصحيفة البيضاء عن ذلك الكاتب البليغ والمصور الماهر « فيفان دينون » وهو شاهد عيان أيضاً قال :

« مع أن عامة الاهالى والغيورين على الدين مع بعض كبار الناس ، كانوا متعصبين قساة فى الثورة التى قامت فى القاهرة ، إلا أن الطبقة المتوسطة ، وهى فى جميع البلدان اكثر الناس عملا باحكام العقل والفضيلة ، كانت تعاملنا بتمام الاكرام والانسانية على الرغم مما بيننا وبينها من الفارق الكبير فى الاخلاق والدين واللغة . وهذا بينما كان التحريض على القتل يجرى من شرفات المآذن بغيرة دينية ، وبينما كانت الشوارع ملأى بالجرحى وبأكداس القتلى

وجميع الذين كانوا يأوون فى ديارهم أى رجال من الفرنسيين ، كانوا يتوقون الي اخفائهم وانقاذهم، والي امدادهم بكل حاجاتهم فى الحال وبمجرد الطلب . وقد افهمتنا عجوز كانت فى الحى الذى أقمنا فيه ، أنه لايسعنا إلا الالتجاء الي مقر الحريم فى

دارها ، لان جدارنا اضعف من أن يقينا اذا هوجمنا

وحينما لم يكن من المستطاع الحصول على طعام من البلد ، وحينما كان كل شيء ينبل بجلاء على قرب حدوث مجاعة ، عمد جار لنا الى امدادنا بقوت مما خزنه لديه دون أن نطلب منه شيئاً ، بل أنه جرد دارنا من كل شيء يجعلها ظاهرة للعدو ، ثم جلس أمام بابنا يدخن غليونه مخادعة للمعتدين حتى يظنوا أن هذه الدار ما هي الا داره

وحدث أن شابين كان يقتفى أثرهما فى الشوارع ، فأمسك بهما أناس مجهولون فتوقعا أن سيسقطا فريسة لقسوة مفزعة ، وبينما كانا يجاهدان بعنف فى سبيل التخلص ، رأى الممسكون بهما انهم لا يستطيعون اقناعهما بحسن مقاصدهم ، فاودعوا لديهما اطفالهم كبرهان على اخلاصهم

ومن المستطاع ايراد كثير من اشباه هذه الحكاية الدالة على رقة الشعور التى اعادت الروابط بين الطبائع البشرية فى ساعة غليان واضطراب » اه

ولا اختم هذا الفصل عن ثورة القاهرة دون أن أسجل على صفحات التاريخ بالعربية الحادثة التى نقلتها السيدة « جيهان ديفرى » من بعض المذكرات عن مسيو مارسيل المستشرق ، وشغفه العظيم بالآثار العربية . قالت :

« وسمع الضباط الفرنسيون فجاءة صرخة مزعجة فاخذوا مجاهرهم ووقفوا فى البيت البعيد الذى كانوا يرقبون منه شبوب النار فشاهدوا شبحاً ينسل بين المحاصرين وقد شد بيديه على كومة له قد سودها الدخان والبارود ، وهى كأنها كرة هوائية منفوخة ، اما الأهالى فلم يروه لشدة ما اصابهم من البلايا وتولاهم من الذعر!

وقال أحد الضباط الفرنسيين « انني أراهن بأن ذلك الشبح هو مارسيل »

وكان هو بعينه لانه لم يكن احد غيره يهتم بانقاذ المخطوطات النفيسة والدفاع عنها — تلك المخطوطات التى كانت مودعة فى الجامع ونجت من شرور الحرب

وقد ذهب مارسيل لانقاذها وهو بملابس النوم ملتفاً بعباءة ومحتذيا بحذاء البيت ، واندفع بين الثائرين وحمل ذلك الكنز الي مركز القيادة العامة وكان من حسن التوفيق انه استطاع إنقاذ نسخة خطية من القرآن كتبت فى القرن الثالث عشر ( الميلادى ) على رق وزينت صفحاته بنقوش بديعة ذات قيمة فنية » .

# الدور الثالث

## من ثورة القاهرة إلى مغادرة نابوليون مصر

### من أول نوفمبر سنة ١٧٨٨ إلى آخر أغسطس سنة ١٧٩٩

ندخل الآن فى الدور الثالث من أحوال الحملة الفرنساوية فى مصر ، وهو الدور الذى أدرك فيه نابوليون بعد ثورة القاهرة أنه لايزال غريبا عن المصريين و بعيداعن قلوبهم ، فاختار لنفسه السياسة التى يقضى بها ذلك التغيّر ، وهى سياسة الشدة عليهم ، والحذر منهم ، وعدم الاكتراث بهم ، ولذلك كان أول بادرة من أعماله الغاء الديوان وعدم الاهتمام بالمشايخ ، ثم إدارة الاحكام بواسطة رجاله وأعوانه

إلا أن إعلان تركيا للحرب على فرنسا واستعدادها بالجيوش الجرارة براً وبحراً لمحاربته ، وتحريضها المصريين والمسلمين عامة على مقاومة الفرنساويين ، وتنغيص حياتهم فى وادى النيل كل ذلك قضى عليه بالرجوع الى خطة المداهنة والتودد الى المصريين مع بقائه على حذر منهم ، ولما كان هذا الدور طويل المدة وتخللته الحملة الفرنساوية على سوريا، وكان لتلك الحملة ، وفشل الفرنساويين فيها ، تأثير على سياستهم وخطتهم فى هذا الدور رأينا أن نقسم هذه الفترة الى ثلاث مدد

المدة الاولى — من الثورة الى بدء الحملة السورية ( من أول نوفمبر سنة ١٧٩٨ الى أول فبراير ١٧٩٩ )

المدة الثانية — الحملة السورية ( من فبراير الى يونيو ١٧٩٩ )

المدة الثالثة — من عودة نابوليون من سوريا الى مغادرته أرض مصر ( من يونيو لغاية أغسطس ١٧٩٩ ) وغير خاف أن سياسة الفرنساويين مع المصريين كانت تأخذ في هذا الدور أشكالا متنوعة متقاربة ومتباعدة بنسبة هاتيك المدد الثلاث وما يحيط بها من المؤثرات السياسية فعلى القارىء أن يلاحظ تلك الظلال المختلفة الالوان فى خلال تلك المدد لكى يدرك منها الظروف الخارجية التى قضت بها

# المدة الاولى

## — ١ —

كان هم الفرنساويين في المدة الأولي موجها الى تحصين البلاد اتقاء لغارات المغيرين من البر والبحر . قال الجبرتي بعد الثورة باسبوعين « وفي مدة هذه الأيام بطل الاجتماع بالديوان المعتاد وأخذوا في الاهتمام في تحصين النواحي والجهات وبنوا ابنية على التلول المحيطة بالبلد ووضعوا فيها عدة مدافع وقنابر ، وهدموا اماكن بالجيزة ، وحصنوها تحصينا زائداً وكذلك مصر العتيقة ونواحي شبرا ، وهدموا عدة مساجد منها المساجد المجاورة لقنطرة امبابة ومسجد المقس ( المعروف الآن بأولاد عنان ) على الخليج الناصرى بباب البحر » . ولا شك ان التفاصيل الواردة في كتب الفرنسيين في هذه النقطة أدق إيضاحا ، وخلاصة ما كتب في هذا الصدد إن نابوليون أصدر أمره للجنرال المهندس « كفريللي » بأن يضع مشروعا لتحصين مدينة القاهرة بحيث يجعلها واقعة تحت رحمة القلاع والطوابي فبنوا على التل الذى اطلقت منه المدافع على حى الأزهر خلال الثورة حصنا منيعا يتسلط على جميع تلك الأخطاط وحولوا جامع المقس الذى كان ذكره الجبرتي إلى قلعة سموها قلعة سلوكوسكي ، تذكاراً لذلك الضابط البولوني الذى قتل عند باب النصر ، ثم أقاموا برجا عالياً على مرتفع فى الطريق الموصل من الأزبكية إلي بولاق ووضعوا فيه الكميات الوافرة من المدافع والذخائر وأطلقوا عليه اسم « برج كامين » (١)

وأقاموا أيضا على التل المعروف بتل العقارب بالناصرية ، قرب الدار التى اختاروها للمجمع العلمى طوابي وعدة أبراج وثكنات للجنود وجعلوا جامع الظاهر بيبرس المعروف بالقرب من الحسينية قلعة ، وحولوا منارته برجا ووضعوا على اسواره المدافع واتخذوا باقيه معسكراً وبنوا فى داخله عدة مساكن للجنود . وكانت الشعائر

---

(١) كامين هذا ضابط فرنسى قتله العربان بجهة مريوط وكان قادما من فرنسا على باخرة فى شهر أغسطس سنة ١٧٩٨ بمراسلات من فرنسا فاقتفى الانجليز أثره بالقرب من شواطيء مصر فتمكن من النزول فى جهة مريوط عند برج العرب فقتله ومن معه العربان

الدينية فى هذا المسجد قد عطلت منذ زمن طويل وجاء فى الامر الذي أصدره نابوليون بتاريخ ٢٧ اكتوبر ، ومحفوظ نصه بنظارة الحربية فى باريس، أنهم هدموا المقياس بالروضة وبنوه بشكل طابية وضعت فيها المدافع وحولوا قناطر السباع التى بناها السلطان صلاح الدين لنقل المياه الى القلعة ، ولا تزال آثارها باقية للآن ، إلى طابية أخرى. والخلاصة أنهم اتخذوا كل الاحتياطات الحربية الفنية لاخضاع أى حركة فى القاهرة أو ضواحيها ، ولمقاومة الجيش المهاجم للمدينة .

وفى الايام الاولى من شهر جمادى الثانية ، أى فى خلال إنشاء تلك الحصون ، واقامة هاتيك الاستحكامات ، لم ينس نابوليون أن يمتن على أهالى القاهرة بأنه قد صفح عنهم ، وعفا عن زلتهم ، وعاملهم — بعد كل الذى جرى عليهم — بالتساهل والتسامح وأصدر هذه الافكار فى منشور كتبه عن لسان المشايخ ووزعه ملصوقا بالشوارع والاسواق ، والى القارىء نصه :

« نصيحة من كافة علماء الاسلام بمصر المحروسة :

نعوذ بالله من الفتن ، ما ظهر منها وما بطن ، ونبرأ إلى الله من الطاغين فى الارض بالفساد ، ونعرف أهل مصر المحروسة أن طرفاً من الجعيدية وأشرار الناس حركوا الشرور بين الرعية ، وبين العساكر الفرنساوية ، بعد ما كانوا أصحابا واحبابا بالسوية ، وترتب على ذلك قتل جملة من المسلمين ، ونهبت بعض البيوت ولكن حصلت الطاف الله الخفية وسكنت الفتنة بسبب شفاعتنا عند أمير الجيوش بونابرته ، وارتفعت هذه البلية ، لأنه رجل كامل العقل عنده شفقة ورحمة على المسلمين ، ومحبة إلى الفقراء والمساكين ، ولولاه لكانت العساكر أحرقت جميع المدينة ونهبت جميع الاموال وقتلوا كامل أهل مصر . فعليكم أن لاتحركوا الفتن ولاتطيعوا أمر المفسدين ، ولا تسمعوا كلام المنافقين ، ولا تتبعوا الأشرار ، ولا تكونوا من الخاسرين سفهاء العقول ، الذين لايقرؤون العواقب لأجل أن تحفظوا أوطانكم ، وتطمئنوا على عيالكم وأديانكم ، فإن الله سبحانه وتعالى يعطى ملكه من يشاء ويحكم ما يريد . ونخبركم أن كل من تسبب فى تحريك هذه الفتنة قتلوا عن آخرهم

وأراح الله منهم العباد والبلاد ونصيحتنا لكم أن لا تلقوا بأيديكم الى التهلكة واشتغلوا بأسباب معايشكم وأمور دينكم وادفعوا الخراج الذى عليكم والدين النصيحة والسلام » اهـ

ثم التفت نابوليون الي إتمام ما شرع فيه، وأشرنا اليه فى الدور الاول من تحسين مدينة القاهرة وتجميلها ليجعل الاقامة فيها للفرنساويين مقبولة محبوبة، فمدّ الشوارع الواسعة من الازبكية الى بولاق، ومن الازبكية الى قبة النصر ، وردموا الجهات الواقعة حول بركة الازبكية وجددوا قنطرة المغربى ومدوا شارعاً آخر بين باب الحديد وباب العدوى عند المكان المعروف بالشيخ شعيب ، ومهدوا جسراً اخر ممتداً من هناك الي خارج الحسينية... الي غير ذلك من أسباب تسهيل المواصلات

وفكروا فى إقامة أماكن للهو والنزهة فوضع مسيو دارجيفال Dargeaval مشروع إنشاء « كازينو » أطلق عليه لقب تيفولي Tivoli تشبها بنظيره فى باريس واختير لاقامة ذلك المكان احدى دور الامراء المماليك وعهد الى مسيو دارجيفال المذكور تنفيذ مشروعه فى تلك الدار وحديقتها ، فحولها الي ملهى يجمع بين دفتيه أسباب التسلية المعروفة فى أمثال هذه الاماكن، فجعل فى جزء منها بهواً للعب البليارد، وقاعة للعب الورق، وأخرى للمطالعة ، وفي مكان آخر أعد محلا أشبه بالمسرح للرقص والغناء ومطعما ومحالّ للشراب وما أشبه ذلك. واليك مايقوله شيخنا الجبرتى فى هذا الصدد قال فى أواخر حوادث شهر جمادى الثانية « وانقضى هذا الشهر وما حصل فيه من الحوادث الكلية والجزئية ، التي لا يمكن ضبطها لكثرتها ، منها أنهم أحدثوا بغيط النوبى المجاور للازبكية أبنية على هيئة مخصوصة منتزهة يجتمع بها النساء والرجال للهو والخلاعة في أوقات مخصوصة وجعلوا على كل من يدخل اليها قدرا مخصوصا يدفعه، أو يكون مأذونا وبيده ورقة » ... رحم الله الشيخ الجبرتى ! لم تفته صغيرة ولا كبيرة !

وشكل التجار الاوروبيون الموجودون فى القاهرة شركة تجارية رأس مالها ٣٠٠٠٠٠ فرنك وجعل ثمن السهم فيها ثلاثة آلاف فرنك ومدتها ثلاث سنوات واشترك الجيش الفرنساوى فى عشرة أسهم منها بناء على أمر أصدره نابوليون

الى بوسيلج مدير الامور المالية . وهذا الامر محفوظ في أوراق نابوليون بباريس نمرة ٣٦١٩ وتاريخه ١٤ نوفمبر سنة ١٧٩٨

وفي هذه الفترة ظهرت للمجمع العلمي جريدتان فرنساويتان وهما « الديكاداجبسيان » Le Decade Egyptien « والكوريه دى اجبيت » Le Courier d'Egypte وابتدأ الباحثون من الفرنساويين في إقامة وإنشاء الاعمال النافعة التي تقضى بها ضرورة الاقامة في هذه الديار. وكان من الرجال الذين أحضرهم نابوليون معه رجل اسمه كونتيه Conté كانت وظيفته رئيس فرقة الطيران الذى لم يكن فى المنزلة التي هو فيها الآن ، ولكنهم كانوا قد بدأوا فى خلال الثورة الفرنساوية فى اختراع المناطيد « البالونات » وجعلوا لها عملا خاصاً فى الادارة الحربية. فكان مسيو كونتيه هذا من أكثر الناس نفعاً للحملة الفرنسية لانه كان نادرة الذكاء والقدرة على الاختراع والتفنن ، فأنشأ لهم معامل لصناعة الاقمشة والقبعات والورق ، وأخذ يدرس الصناعات الوطنية ويجتمع كثيراً بالصناع المصريين ويستفسر منهم عن الآلات التي يستعملونها فى صناعاتهم المحلية . ولا تنس أن مراد بك كان قد انشأ فى الجيزه دار صناعة للآلات الحربية والقنابل والبارود ، وان مثل هذه الصناعات كانت معروفة فى مصر ولكن الفرنساويين تحت إدارة كونتيه دشامبي وولده Champy أدخلوا محسنات الصناعة الاوروبية فصنعوا البارود ، وسبكوا المدافع والبنادق وجميع ما يلزم من أدوات الحرب . كل ذلك لعلمهم أنه قد قضى عليهم بالبقاء فى وادى النيل ، وأن طريق البحر الى وطنهم قد سد فى وجوههم . والحاجة أم الاختراع

— ٢ —

وفي هذه المدة بدأت الدولة العثمانية بتحريض من انجلترا في مقاومة الفرنساويين بايغار صدور المصريين عليهم فأرسلت عدة منشورات ووالت إرسال الرسل بالرسائل والكتب لاعيان البلاد وكبار القوم. ومن هذه المنشورات منشور طويل لم يذكره الجبرتي لان الفرنساويين صادروه وأحرقوه وقد وقفنا على صورة باللغة الفرنسية

لنص ذلك المنشور فرأينا من باب الفائدة التاريخية أن نأتى على أهم ماجاء فيه من عبارات الطعن على الفرنساويين، وتسفيه أحلامهم، والاستهزاء بمعتقداتهم . ويقول (لاكرو) إن المطلع على هذا المنشور ، ومافيه من الطعن على مبادىء الثورة الفرنسية، يرى من خلاله أنه كتب بقلم أوروبية، يشير بذلك إلى انه كتب بإرشاد الانكليز وبتعليماتهم. والمنشور مستفتح بالبسملة والصلاة على النبي محمد خاتم المرسلين وعلى آله واصحابه والتابعين الى يوم الدين . ثم يقول : —

«إن الفرنساويين أباد الله ملكهم، ونكس اعلامهم، قوم كفار ملاعين، لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ولا يعتقدون فى رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ويسخرون من جميع الاديان، وينكرون البعث والنشور، وما كتب لعباده تعالى من الثواب والعقاب فى الدار الآخرة ، ويعتقدون أن المصادفة العمياء هى التي أوجدت هذا الكون وهى المتسلطة فى الحياة والموت ، وإن الانسان متى وضع فى التراب انحل جسمه ولا يعود إلى حياة ثانية يعاقب فيها ، أو يثاب على عمله فى الحياة الدنيا . ولهذا السبب هدموا كنائسهم ، وخربوا معابدهم ، وكسروا صلبانهم ، وطردوا قساوسهم ورهبانهم ، وعندهم أن كتب الانبياء والمرسلين ليست إلا أكاذيب وخرافات ملفقة ، وأن القرآن والتوراة والانجيل ، ليست إلا أساطير الاولين ، ويعتقدون أن الانبياء كموسى وعيسى ومحمد ليسوا إلا أفراداً امتازوا عن غيرهم قليلا ما ، بمعنى إن الله سبحانه وتعالي لم يبعثهم برسالة ، ولم يختصهم بنبوة ، ولا يعتقد فيهم غير ذلك سوى الاغبياء والمفتونين . ومن رأيهم أن الناس قد خلقوا سواء ولهذا يجب أن يكونوا متساوين فى الحرية، يعتقد الواحد منهم ما يشاء فيما يشاء

وعلى أساس هذه المعتقدات الفاسدة ، وضعوا لهم نظاما جديداً وشرائع شيطانية بها هدموا أساس المعتقدات الدينية وأحلوا ماحرم الله وفتحوا للشهوات البشرية أبواب الفساد ، فصاروا بذلك أمة همجية بعيدة عن الانسانية لاتعرف غير الدعارة والشرور

ومن مبادىء اولئك القوم الضالين، إيقاع النفرة ، وغرس بذور الخلاف بين

الملوك والامم، وخلق الاسباب للمشاكل والقلاقل بين العباد، و يوهمون الناس بأنهم أنصار الحرية، و يفهونهم أنهم إخوان وأنهم يعتقدون مثل مايعتقدون، و يدخلون بذلك فى صدور عباد الله أوهاماً باطلة، ومطامع سافلة، و بذلك سقطوا في بحر لا ساحل له من الفضائح والقبائح، ولم تعد لهم ضمائر رادعة، ولا نفوس زاجرة، فالحيلة عندهم مهارة، والسلب شطارة، وسفك الدماء مهارة وجسارة، والكذب فصاحة ونباهة، ولقد ذبحوا وقتلوا وأهلكوا من قومهم من لايدين بدينهم

ولقد اهتزت جوانب اورو با لهذه الطغمة الشريرة التى انتشرت كالذئاب الجائعة، تهاجم الامم المطمئنة لهدم قواعد الحكومات؛ وإبادة الاديان، واختطاف النساء والاطفال، فسالت من جراء ذلك الدماء انهاراً، وفازوا فى إخضاع الامم التى رضخت لشرهم وخنعت لأمرهم!

فماأنتم فاعلون ياحماة الاسلام وأنصار الدين الحنيف؟ يامن تؤمنون برسالة محمد بن عبدالله! إن أولئك القوم الضالين قد ساء فألهم فظنوا المسلمين كأولئك الكفار المنافقين الذين صدقوهم واتبعوا مبادئهم الفاسدة، وغاب عنهم أن الاسلام محفور على صفحات قلوبنا، وانه يجرى مجرى الدم فى عروقنا. فهل يمكن أن نترك ديننا الطاهر الحنيف، بعد أن أنار الله قلوبنا بنوره وهدانا إلى الصراط المستقيم؟ كلا ثم كلا! أن الله سبحانه وتعالى لايرضى لعباده المؤمنين أن يزعزع إيمانهم وقد قال سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز «إن ينصركم الله فلا غالب لكم»

فكونوا ياعباد الله على حذر منهم ولا تقعوا فى أشراكهم وحبائلهم ولا ترهبنكم كثرتهم ولا تدهشنكم هيئتهم، فالاسد لايرهب الثعالب مهما كثر عددها، والنسر لا يخاف البغاث مهما استنسر، وستصلكم الجيوش الجرارة على الصافنات من الجياد لتقضى على عدو الله وعدوكم، وتقذف به الى النار و بئس القرار، فلا تيأسوا من روح الله فانه تعالى حارسكم ومؤيدكم وناصركم، فبعونه تعالى وحول رسوله الكريم ستمحق جيوشنا أولئك الكفرة الضالين، والساعة آتية لاريب فيها. نصر الله جيوش الموحدين وأعز سلطان المسلمين! اهـ

* * *

ليس فى المصادر الفرنسية إشارة إلى التاريخ الذى وصل فيه هذا المنشور الى القاهرة ، ولكن ورد فى الجبرتى ، كما سبقت لنا الاشارة ، أنه فى ليلة السبت ٢٤ جمادى الأولى حضر هجان من ناحية الشام وعلى يده مكاتبات وهى صورة فرمان وعليه طرة ومكتوب من أحمد باشا الجزار وآخر من بكر باشا إلى كتخدائية مصطفى بك ومكتوب من ابراهيم بك خطاباً للمشايخ . أما خطابا بكر باشا وابراهيم بك فلا نظن انهما نشرا أبداً ، وأما فرمان أحمد باشا الجزار فهو لا شك هذا المنشور ، وفيه بلا مرية روح السر سدنى سميث فى طعنه على مبادىء الثورة الفرنسية إذ هى نفس المطاعن التي كان يوجهها الانكليز للفرنسويين فى ذلك الزمن ، مثل كارليل الكاتب المشهور والمستر برايتون الخطيب البرلمانى الكبير ، وكان السر سدنى سميث فى ذلك الوقت كثير التردد على عكا ، وله من هذا النوع منشور بعث به فى حرب الشام لنصارى سوريا ويحذرهم ، كما فى هذا المنشور ، من أن الفرنساويين مسيحيون ، بل هم كما وصفهم فى هذا المنشور قوم لا دين لهم ولا عقيدة وأنهم هدموا أركان الدين المسيحى

ومن التاريخ المذكور لوصول هذا المنشور يتضح جلياً أن لا صحة لدعوى المعلم نقولا الترك ، ومن نقل عنه من أمثال الشيخ الدحداح ، إن العلماء وزعوا ذلك المنشور على أهالي القاهرة ليحضوهم على الثورة السالفة الذكر . ونقول إن عبارة هذا المنشور ، من حيث معتقدات الفرنساويين ، تطابق ما وصفهم به الشيخ عبد الله الشرقاوي في رسالته التى وضعها للصدر الاعظم يوسف باشا بعد الاتفاق على خروج الفرنساويين من مصر وسماها ( تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلاطين ) إذ قال فيها « وحقيقة رجال الفرنساوية انهم فرقة من الفلاسفة إباحية طبائعية يقال لهم نصارى قاتوليقية ، يتبعون عيسى عليه السلام ظاهراً وينكرون البعث والدار الآخرة وبعثة الانبياء والمرسلين ، ويقولون ان الله واحد ، ولكن بطريق التعليل ويحكمون العقل ويجعلون منهم مديرون يدبرون الاحكام يضعونها بعقولهم ويسمونها شرائع ويزعمون أن الرسل محمداً وعيسى وموسى كانوا جماعة

عقلاء وأن الشرائع المنسوبة إليهم كناية عن قوانين وضعوها بعقولهم تناسب أهل زمانهم »

ولنعد الي منشور الجزار فنقول إن من السهل كثيراً تصنيف مثل هاتيك المنشورات، والدعوة الى الجهاد ضد الكفار مألوفة، وطريقة من الطرق التي يلجأ اليها، ولكن مافائدتها فى ذلك الزمن وفى أى زمن سواه ؟ هل يمكن أنها حركت أمة أو حررت شعباً أو أدت الى نتيجة مرضية حيث يكون القابض على نواصى الامة قوياً قادراً على قمع أية ثورة فى إبانها، وإخماد أى فتنة فى مكانها ؟ اللهم لافائدة لهذه الاعمال الا ايقاع النفرة وغرس بذور الاحقاد، وتحريك الضغائن والاضرار بالذين يراد الخير لهم. والاولى بالذين يريدون امتلاك البلاد أو نصرة أهلها - إن كان هذا صحيحا - أن يستعيضوا عن الأقوال بالافعال. ورحم الله من قال « السيف أصدق أنباء من الكتب » !

ولا شك فى أن هذا المنشور قد أزعج نابوليون ورجاله لأنه دب على المواضع الحساسة في نفوسهم ووجه اليهم من المطاعن ماهو مؤلم، ولأنه نقض أساس دعواهم للمصريين بانهم مسلمون، أو أنهم يحترمون الدين الاسلامى، أو أنهم أصدقاء أمير المؤمنين وخليفة المسلمين

قال الجبرتى « إنه لما وصلت هذه الاوراق - يعني فرمان الجزار هذا وكتب بكر باشا وابراهيم بك أخذها مصطفى بك وكيل بكر باشا وذهب بها الي صارى عسكر ( بونابرت ) فلما اطلع عليها قال هذا تزوير من ابراهيم بك ليوقع بيننا وبينكم العداوة والشاحنة، وأما أحمد باشا الجزار فهو رجل فضولي وسيأتى بعد أيام وال من الدولة يقيم معنا ونقيم معه كما كان الحال مع المماليك »..وإن صحت هذه الرواية، فيكون ماقوله نابوليون انما هو جواب على خلاصة ترجمها له المترجمون من تلك الكتب الكثيرة، فلما اطلع على ترجمتها بالنص رأى من مقتضى السياسة أن يحمل علماء الازهر على كتابة منشور ضد منشور الجزار فكتب له بعضهم ما أراد وطبعوا من صورة ما كتب عدة نسخ وزعوها فى البلاد، والصقوا منها كثيراً بالاسواق والحارات...وهذا نصها عن الجبرتى

نصيحة من علماء الاسلام بمصر المحروسه

نخبركم ياأهل المدائن والأمصار من المؤمنين ، ياسكان الأرياف من العربان والفلاحين ، أن ابراهيم بك ومراد بك وبقية دولة المماليك أرسلوا عدة مكاتبات ومخاطبات إلي سائر الاقاليم المصرية لأجل تحريك الفتنة بين المخلوقات ، وادعوا أنها من حضرة مولانا السلطان ، ومن بعض وزرائه بالكذب والبهتان ، وبسبب ذلك حصل لهم شدة الغم والكرب الزائد واغتاظوا غيظاً شديداً من علماء مصر ورعاياها حيث لم يوافقوهم على الخروج معهم ويتركوا عيالهم وأوطانهم فارادوا أن يوقعوا الفتنة والشر بين الرعية والعسكر الفرنساوية ، لأجل خراب البلاد وهلاك كامل الرعية.وذلك لشدة ما حصل لهم من الكرب الزائد بذهاب دولتهم وحرمانهم من مملكة مصر المحمية . ولو كانوا فى هذه الاوراق صادقين ، بأنها من حضرة سلطان السلاطين ، لارسلوها جهاراً مع أغوات معينين . ونخبركم أن الطائفة الفرنساوية بالخصوص عن بقية الطوائف الافرنجية دائما يحبون المسلمين وملتهم ، ويبغضون المشركين وطبيعتهم . احباب لمولانا السلطان وقائمون بنصرته ، وأصدقاء له ملازمون لمودته وعشرته ومعونته ، يحبون من والاه ، ويبغضون من عاداه ، ولذلك بين الفرنساوية والموسكوف غاية العداوة الشديدة ، من أجل عداوة المسكوف القبيحة الرديئة ، والطائفة الفرنساوية ، يعاونون حضرة السلطان على أخذ بلادهم إن شاء الله تعالى ولا يبقون منهم بقية ، فننصحكم ياأهل الاقاليم المصرية ، أنكم لاتحركوا الفتن والشرور بين البرية ، ولا تعارضوا العساكر الفرنساوية ، بشىء من أنواع الأذية ، فيحصل لكم الضرر والهلاك ، ولا تسمعوا كلام المفسدين ، ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون ، فتصبحوا على مافعلتم نادمين.وإنما عليكم دفع الخراج المطلوب منكم لكامل الملتزمين ، لتكونوا بأوطانكم سالمين ، وعلى أموالكم وعيالكم آمنين مطمئنين ، لأن حضرة صارى عسكر الكبير أمير الجيوش بونابرته اتفق معنا على أن لاينازع أحداً فى دين الأسلام ، ولا يعارضنا فيما شرعه الله من الأحكام ، ويرفع عن الرعية سائر المظالم ويقتصر على أخذ الخراج ويزيل ما أحدثه

الظالمة من المغارم فلا تعلقوا آمالكم بابرهيم ومراد ، وارجعوا إلى مولاكم مالك الملك وخالق العباد ، فقد قال نبيه ورسوله الأكرم ، « الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها بين الأمم » — عليه أفضل الصلاة والسلام »

— ٣ —

ولا شك ان نابوليون قد أدرك من منشور الدولة العثمانية لأهل مصر أن الحرب مع الاتراك آتية لا ريب فيها ، وأن من مقتضى السياسة أن يزيد في التودد الى المصريين ، ويعيد انشاء الديوان الذي ألغاه بعد ثورة القاهرة ، ولكن على طريقة جديدة بعد الذى اكتسبه من الخبرة ، وعرفه من مكانة الأفراد ومنزلتهم عند الشعب ، و بعد ما عرف من عرف من الموالين له من المصريين والسوريين والاجانب فى مصر . لذلك ارتأى أن يشكل الديوان على نظام مختلط من المشايخ والتجار والاجانب فأصدر أمره في ١٦ رجب ( ٢٥ ديسمبر ) بانشاء ديوان مؤلف من ستين عضواً ، وسماه الديوان العمومي ، وقرر أن ينتخب من هؤلاء أربعة عشر عضواً يتألف منهم ديوان سماه ( الديوان الخصوصى ) . كأنى باللورد دوفرين ، بعد أربعة وثمانين سنة من هذا التاريخ ، استعار هذا النظام « البونابارتى » ، مع بعض التحوير ، عند وضعه نظام مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية عقب الاحتلال البريطانى سنة ١٨٨٢

وقرر أن الديوان العمومي لا يجتمع الا عند الضرورة . أما الخصوصى فيجتمع كل يوم للنظر في الأمور المختلفة ولوضع امضاآت أعضائه ( ! ) على منشورات نابوليون و بلاغاته المطولة عن حرب الشام كما سيرى القراء ذلك .

أما أعضاء الديوان الخصوصى فلم يذكر الجبرتى الا ثلاثة عشر منهم حتى أن مصححي المطبعة الاميرية ، الذين أحسنوا تصحيح الطبعة الأولى من كتاب الجبرتى ، وهي التي طبعت فى زمن الخديو توفيق باشا سنة ١٢٩٧ هجرية — أى بعد موت الجبرتى بالحدى وستين سنة ، — لاحظوا فى هامش الكتاب انه لم يذكر الا ثلاثة عشر عضواً . والعلم تقولا الترك لم يشر الى تأسيس هذا الديوان ، ولم يأت على المنشور

الخاص به ، ولكنه عند ذكره سفر نابوليون من مصر جاء بمنشور نائبه على لسان أعضاء الديوان وعليه ستة عشر امضاءة وهي تخالف الأسماء الواردة فى الجبرتى ، وكلاهما — على أى حال — متفق على الأسماء الآتية

الشيخ عبد الله الشرقاوى . الشيخ محمد المهدى . الشيخ مصطفى الصاوي . السيد خليل البكرى . الشيخ سليمان الفيومي . السيد احمد المحروقى . لطف الله المصرى . يوسف فرحات .

والخلاف في الخمسة الآتية أسماؤهم :

فالجبرتى ذكرها كالآتى :

حسن بن محرم . كحيل . رواحه الانكليزى . بودنى . موسى كافر الفرنساوى

ونقولا الترك ذكرها هكذا :

على كتخدا مجرلي . يوسف باش جاويش . جبران سكروج . لومار . بودوف . ذو الفقار كتخدا . وأسقط حسن بن محرم

وجارى زيدان الجبرتى حرفاً بحرف مكتفياً بثلاثة عشر ولم يذكر رواحه الانكليزى بل قال « وواحد انكليزى وآخر يدعى أباديف »

فلما رجعت للمصادر الفرنسية المطولة وجدت فى كتاب ( الحملة الفرنسية ) الذي سبقت الاشارة اليه[1] وهو أحق بالثقة من سواه ، الترتيب الآتى من نص نص الأمر النابوليونى المحفوظ فى أوراقه الرسمية ، اذ صدر أمر نابوليون كما يأتى : يؤلف الديوان الخصوصى كالآتى : —

من العلماء — المشايخ عبدالله الشرقاوى . محمد المهدى . مصطفى الصاوى . السيد خليل البكري . سليمان الفيومي

من التجار — السيد احمد المحروقى . حسن بن محرم

من الاقباط — المعلم لطف الله المصرى . المعلم ابراهيم جرّ العايط

---

(١) انظر هامش صحيفة ٢٤٥ من هذا الكتاب

من السوريين — يوسف فرحات . مخائيل كحيل

من الاجانب — ولمار ( وهو طبيب سويدي من السويد ) وفرنسوا بودوف ، وكاف[1] ( Caffe & Beaudeuf ) وهما تاجران فرنسيان من أهالى مرسيليا

فالذي سقط من الجبرتي هو المعلم ابراهيم جرّ العايط القبطى ، وخلط بين ولمار السويدي ، وسماه رواحه الانكليزي ، ولا يبعد انه كان يتسمي باسم « رواحة » قبل مجيء الفرنسيين ، إذ كان الاجانب قبل مجيئهم يرتدون الملابس الشرقية ويتخذون القاباً مصرية . وكيف يعين نابوليون في الديوان الخصوصى انكليزيا وهو في حرب معهم في البر والبحر؟ .. ثم « بودنى » الذى ذكره الجبرتى هو لا شك « بودوف » الفرنسي ، وكاف هو الذى سماه موسى كافر ! وأما الاسماء التي جاءت في رسالة المعلم نقولا الترك فلا يصح الاعتماد عليها لان تاريخ المنشور الذى وضعت عليه تلك الامضاآت يقع فى ٢٠ ربيع الاول سنة ١٢١٤ ، وتشكيل الديوان العمومي الذي نحن بصدده كان فى رجب سنة ١٢١٣ ، فمن المحتمل حدوث تغيير في الاعضاء في خلال تلك المدة خصوصاً وان من الثابت لدينا أن مخايل كحيل السورى مات فى ٢٩ محرم سنة ١٢١٤[2]

أما أعضاء الديوان ( عدا أعضاء الخصوصى ) فلم نقف على اسمائهم في الكتب العربية وكل ما ذكره الجبرتى عنهم قوله « وأما العمومى فاكثره مشائخ حرف » وكنت ، قبل أن أعثر على الاسم الساقط فى الجبرتى من أعضاء الديوان الخصوصى ، أميل الى الظن بانه قد يكون الشيخ عبد الرحمن الجبرتى نفسه ، هو ذلك العضو

---

(١) كان كاف — لوى كاف Louis Caffe de Saint-Menehould. هذا تاجراً فرنسياً حين حضر نابوليون لمصر وهو الذى ساعد الفيكونت شاتوبريان الكاتب الفرنسى العظيم فى رحلته فى ارض مصر حين قدم اليها بعد زيارته لفلسطين بعد هذا التاريخ بمدة . وقد ولد لكاف هذا فتاه بارعة الجمال اسمها مارى اديلايد Marie Adelaide اقترن بها مسيو فيلكس مانجين Felix Mangin الذى استقدمه محمد على من فرنسا وهو مؤلف ( تاريخ محمد على ) فى جزئين كبيرين ولا يزال قبرها موجود الاثر فى مدفن مصر العتيقة

(٢) جاء فى الجبرتى وفى تاسع عشرينه (محرم) هلك ميخائيل كحيل النصرانى الشامى وهو من رجال الديوان الخصوصى وذلك لقهره وغمه وسبب ذلك انهم قرروا عليه فى السالفة الاخيرة ستة آلاف ريال وأن الجزار قتل شريكه وأخذ ماله

بأنه لم يرد ذكر اسمه تواضعاً منه أو ترفعاً عنه، خصوصاً بعد خروج الفرنسيين وقدوم الاتراك، وهو لم يجمع كتابه الا بعد هذه الفترة بزمن طويل، كما سبق لنا تحقيق ذلك. وسبب هذا الظن أن (كاردين) وغيره من الذين ترجموا هذه الفترة من تاريخ الجبرتي، قالوا عنه إنه كان عضواً في الديوان الخصوصي مدة وجود الفرنسيين في مصر، ولكن هذا الظن زال أثره بعد أن تحققت من أن الشيخ عبد الرحمن الجبرتي كان عضواً في الديوان الذي انشيء في زمن الجنرال مينو (١)

ومما جاء في مرسوم نابوليون بتشكيل هذا المجلس أن يكون في المجلس مندوب فرنسي وهو مسيو جلوتيه Gloutier وأن الذي يأمر باجتماع المجلس هو قومندان

---

(١) بعد جهد كبير عثرت على بيان واف لجميع أعضاء الديوان العمومي في مجلة الكوريه ديجبت التي كانوا يصدرونها بالقاهرة . وهاهي اسماؤهم نثبتها خدمة للتاريخ ولأن كثيراً من المصريين اليوم من سلالة أولئك الرجال

مشايخ وعلماء — السيد البكرى . الدمرداش . السيد حسين الرفاعى . عبد الله الشرقاوى محمد المهدى . مصطفى الصاوى . موسى السرسى . محمد الامير . سليمان الفيومى . احمد العريشي ابراهيم بن المفتى . صالح الحنبلى . محمد الدولخنى . مصطفى الدمنهورى

وجاقلية — من رجال العسكرية أو بقايا المماليك — محمد أغا شوربجى . على كيخيا الجدلى خليل أغا شوربجى . أحمد ذو الفقار . يوسف شوربجى . باش شاويش توزكيخيان . يوسف شوربجى باش شاويش جليان . مصطفى أفندى شراكسه . ابراهيم شرابى

عرب — مصطفى أفندى المالى . مصطفى كيخيا باش اختيار . حسن شوربجى بركاوى

تجار الغورية — الحاج محمد الاشرفى شيخ الغورية . الحاج محمد أبو النصر . الحاج سيد شيخ المغاربه

تجار البهار — الحاج أحمد محرم . الحاج أحمد المحروقى . ابراهيم أفندى كاتب البهار . الحاج حسين جاد ابراهيم . المعلم ميخائيل : المعلم يوسف فرحات : الحاج احمد حسين

تجار البضائع التركية — سيد احمد العقاد المحروقى : الحاج مصطفى شيخ العقادين : الحاج احمد القازانى

تجار العطورات — السيد مصطفى الصباغ . الحاج حسين النحاس . ومن صياغ وجواهرجية الحاج سالم الجواهرجى : محمد البغدادى . ومن تجار الورق — على بن الحاج خليل الوراق . ومن تجار الاقمشة الحاج ابراهيم المصرى وعلى الصلاحى ، ومن تجار الصابون سيد احمد الرزو وسيد يوسف فخر الدين ومن تجار الدخان احمد نظام ومن مشايخ الاقسام شيخ جزارين الحسينية وشيخ العطوف

قبط — المعلم لطف الله المصرى . المعلم ابراهيم بحر الخايط . شيخ ابراهيم مقار . شيخ ابراهيم كاتب الهرة

الاجانب — ولمار ، وكاف ، ويودوف ،

(حاكم) المدينة ويجب أن تنتهى جلسات الديوان العمومى بعد ثلاثة أيام ، ولا ينعقد ثانية الا بدعوة فوق العادة وأن أعضاء الديوان الخصوصي يجتمعون يومياً للعمل «على مايؤيد العدل ويؤدى الى اسعاد الاهالي وخدمة صوالح الجمهورية الفرنسية». وجعل مرتب رئيس الديوان الخصوصى فى كل شهر مائة ريال ولكل عضو ثمانون

وأعقب نابوليون الامر بانشاء الديوان على الطريقة المتقدم بيانها بمنشور طويل قصد به اكتساب مودة المصريين، مع الارهاب والانذار! وإن كان الجبرتى قد نشره مع طوله « للاطلاع على مافيه من التمويهات على العقول والتسلق على دعوى الخواص من البشر بفاسد التخيلات ، التى تنادى على بطلانها بديهة العقل فضلا عن النظر » ـ فنحن كذلك ننشره لسبب آخر وهو مقارنته بالاصل الفرنساوى ، لاظهار مافى ذلك من تصورات نابوليون في نفسه ، واظهار ما كان يعانيه المشايخ فى تنقيح وتحوير عباراته ، بالفاظ تقرب من مراده ، ولاتجرح المسلمين فى عواطفهم ، ولا تؤلمهم في معتقداتهم. وهذا هو النص العربى كما ورد فى الجبرتى وفي غيره ممن نقل عنه ، ولم يأت به المعلم نقولا الترك .

(بسم الله الرحمن الرحيم) — من أمير الجيوش الفرنساوية الى كافة أهل مصر الخاص والعام ! نعلمكم ان بعض الناس الضالين العقول ، الخالين من المعرفة وادراك العواقب ، سابقاً أوقعوا الفتنة والشرور بين القاطنين بمصر فأهلكهم الله بسبب فعلهم ونيتهم القبيحة ، والبارى سبحانه وتعالى أمرنى بالشفقة والرحمة على العباد فامتثلت أمره وصرت رحيما بكم شفوقا عليكم . ولكن حصل عندى غيظ وهم شديد بسبب تحريك تلك الفتنة بينكم ولأجل ذلك أبطلت الديوان الذى كنت رتبته لنظام البلد واصلاح أحوالكم من مدة شهرين . والآن توجه خاطرنا الى ترتيب الديوان كما كان، لأن حسن معاملتكم وأحوالكم فى المدة المذكورة انسانا ذنوب الاشرار وأهل الفتنة التى وقعت سابقاً . أيها العلماء والاشراف أعلموا امتكم ومعاشر رعيتكم بان الذى يعادينى ويخاصمني إنما خصامه من ضلال عقله وفساد فكره فلا يجد ملجأ ولا مخلصاً ينجيه منى فى هذا العالم ولا ينجو من بين يد الله

لمعارضته لمقادير الله سبحانه وتعالى . والعاقل يعرف أن مافعلناه بتقدير الله تعالى وارادته وقضائه ومن يشك فى ذلك فهو أحمق وأعمى البصيرة . واعلموا أيضاً امتكم ان الله قدر في الازل هلاك أعداء الاسلام وتكسير الصلبان على يدي، وقدر فى الازل انى أجيء من الغرب الى ارض مصر لهلاك الذين ظلموا فيها واجراء الامر الذي أمرت به . ولا يشك العاقل ان هذا كله بتقدير الله وارادته وقضائه واعلموا أيضاً أمتكم أن القرآن العزيز صرح في آيات كثيرة بوقوع الذى حصل وأشار في آيات أخرى الى امور تقع فى المستقبل وكلام الله في كتابه صدق وحق لا يتخلف

اذا تقرر هذا وثبتت هذه المقالات فى آذانكم فلترجع امتكم جميعاً الى صفاء النية، واخلاص الطوية، فان منهم من يمتنع عن الغي واظهار عداوتي خوفا من سلاحي وشدة سطوتي، ولم يعلموا أن الله مطلع على السرائر يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور. والذى يفعل ذلك يكون معارضاً لاحكام الله ومنافق، وعليه اللعنة والنقمة من الله علام الغيوب . واعلموا ايضاً اني اقدر على اظهار ما فى انفس كل واحد منكم لانني اعرف أحوال الشخص وما انطوى عليه بمجرد ما أراه وان كنت لا اتكلم ولا انطق بالذي عنده، ولكن يأتي وقت ويوم يظهر لكم بالمعاينة ان كل مافعلته وحكمت به فهو حكم ألهى لا يرد، وأن اجتهاد الانسان غاية جهده لا يمنعه عن قضاء الله الذى قدره وأجراه علي يدي ! فطوبى للذين يسارعون فى اتحادهم وهمتهم مع صفاء النية واخلاص السريرة والسلام . » اه

كتب نابوليون هذا المنشور الغريب في ٢١ ديسمبر وهو يوافق يوم الجمعة ١٣ رجب ولكنه لم ينشر في القاهرة الا يوم ١٦ رجب اي بعد ثلاثة أيام قضاها المترجمون فى تعريب وتحوير عبارة نابوليون الاصلية التى ادعى فيها لنفسه منزلة النبوة ان لم نقل الالوهية . وهذا مايقصده الشيخ الجبرتي بقوله « التسلق على دعوى الخواص من البشر » كالانبياء المرسلين واولياء الله الصالحين مثلا، ولو عرف الشيخ الجبرتي أن نابوليون يقول فى الاصل الفرنسي « ان الذين يبلغ بهم الاستخفاف الى معاداتي لا يجدون ملجأ لانفسهم لا فى هذا العالم ولا في عالم الآخرة » لما اكتفى

يوصف نابوليون بالتسلق على دعوي الخواص من البشر ، بل لرماه بالاغراق والتسلق على مقام الله سبحانه وتعالى

وغريب أن نابوليون الذى ما صح له اعتقاد بوجود الخالق كما اثبت ذلك كل المحققين من كتّاب تاريخه ، يدعى ان الله عز وجل أمره أو أوحى اليه بالشفقة والرحمة على العباد !! ومن رأى الاير «روز برى» في كتابه الجليل عن نابوليون في سانت هيلانه — ذلك الكتاب الذي حلل فيه اخلاق نابوليون ومعتقداته تحليلاً فلسفياً علمياً ، معتمداً فيه على أقوال نابوليون وشهادة الذين عاشروه ونقلوا عنه، أن نابوليون كان من الوجهة الدينية، رجلا مادياً لا يعتقد بوجود الخالق ولا يصدق بالانبياء ولا بالبعث والنشور . ولنا فى هذا الموضوع كلمة سنأتى عليها بشىء من البيان والتحقيق في فصل سنعقده لما كان يقال، ولا يزال يعتقد لدي بعضهم، من أن نابوليون اعتنق الاسلام أو ادعاه

وكيفما كان معتقد نابوليون وهو يكتب ذلك النشور ، فلا نزاع فى أنه أراد به التمويه على العقول وإرهاب المسلمين وتحذيرهم من الا نقلاب عليه وعلى جنوده اذا اقبل العثمانيون لخلاص مصر من أيدى الفرنساويين. وفاته أن للمسلمين اعتقادات ثابته، ودينًا قائمًا على أسس راسخة رسوخ الجبال، قد فصل فيه كل أمر تفصيلا ، فهم لا يؤخذون بمثل هذه التمويهات ، وهم لا يثقون بالمسلم الا اذا حسن اسلامه واتبع أوامر الدين الحنيف واجتنب نواهيه. وفاته أيضا أن فكرة الخلافة الاسلامية متأصلة فى نفوس المسلمين، وانهم ماداموا يعتقدون ان الخلافة في بني عثمان، فمهما جاءهم نابوليون بالمعجزات، ومهما صور لهم من أمثال تلك العبارات، فانهم يعتقدون أن نصرة آل عثمان على المسلمين فرض مقدس عليهم — اخطأ المسلمون المصريون وغير المصريين في ذلك ام أصابوا ، فان ذلك لا يغير الحقيقة التى شرحناها في هذا المقام، والمعنا اليها في كثير من مواطن الكلام .

— ٤ —

ورأى نابليون ضرورة تحصين القطر المصري من الجهات المختلفة اتقاء الطوارىء فبعث الجنرال مارمون Marmont بفرقة من الجنود ليساعدوا في تحصين الشواطىء المصرية الواقعة بين برج العرب ( مارابوط ) ورشيد . وكان الاسطول الانكليزي ومعه بضع سفن روسية وعثمانية يظهر من آن لآخر أمام الشواطىء المصرية فيضطر الفرنساويون إلى مضاعفة قواهم في الجهات الواقعة على السواحل والثغور، وانشئت القلاع والطوابي حول ثغر دمياط وعلى مصاب نهر النيل وكانت في ذلك الوقت أكثر من اثنين وانتقل الجنرال كليبر من قومندانية الاسكندرية إلى القاهرة وعين مكانه الجنرال مارمون المشار إليه

والآن وقد ظن نابليون أنه قد أطمأن بالاً بعد أن حصن القاهرة أو جعلها تحت رحمة طوابيه وقلاعه ومدافعه ، وبعد أن حصن الشواطىء من الاسكندرية إلى العريش وأقام في الصالحية القوى الكافية والحصون اللازمة ، وبعد أن ضعضع الجنرال ( ديزيه ) قوي مراد بك في الوجه القبلي ولم يبق في نظر نابليون معارض ولا مقاوم ، انصرف إلى التفكير في المشروع العظيم الذى لم يتم على يديه، ولكن بقي فخاره لفرنساوي آخر. ونعني به مشروع قنال السويس — أي اتصال البحر الابيض بالبحر الأحمر — ولم يكن الفرنساويون لهذا الوقت ( أوائل شهر ديسمبر سنة ١٧٩٨ ) قد امتلكوا السويس لانقطاع المواصلات بينها وبين القاهرة ، ولسطوة العربان في الصحراء الواقعة بين البلدين ، وقد كانوا حاولوا احتلال ذلك الثغر بواسطة نفر من المماليك وبضع نفر من الفرنساويين فلم ينجحوا ، فقد روي الجبرتي في حوادث ١٥ ربيع الأول انهم عينوا ابراهيم العمار اغات التفرقة قبطانا للسويس وسافر معه أنفار « بيوت » فرنساوي فخرج عليهم العربان فنهبوهم وقتلوا ابراهيم أغا المذكور ومن معه »(١)

(١) هذه الرواية لم اعثر عليها في كتاب من الكتب الفرنسية العديدة التي اطلعت عليها ، واظنهم لم يذكروها اما لعدم اهميتها واما لانها لم يدونوا نبأ فشل كهذا ولم استطع ضبط الاسم الفرنسي الذى ذكره الجبرتي لعدم امكان العثور عليه وقد يكون اسما لجندى بدرجة شاويش او امباشي مثلا

فكان احتلال السويس ضروريا لوصول التجارة القادمة من البحر الأحمر، ولتأمين الحجاج، ولقطع المواصلات مع ابراهيم بك ومن معه فى سوريا، فلذلك انتخب نابليون فئة من العلماء وأوفد الجنرال (بون) بفرقته ليكون فى مقدمة الحملة على السويس وأصدر له أمراً مطولا بالتعليمات التى يتبعها، وهى محفوظة فى مكاتبات نابليون نمرة ٣٦٩٧ وكلها تعليمات عسكرية لانرى ضرورة لتعريبها. وفى يوم ٢٤ ديسمبر عسكر نابليون ومن معه من الجنود والقواد والعلماء فى بركة الحج ثم وصل بلده (اجرود) بعد ظهر اليوم التالى وسار منها إلى السويس فوصلها فى الليل وبات فى خيمة.

وكانت السويس فى ذلك الزمن فرضة صغيرة يقيم فيها بضع مئات من الناس فى غير موسم الحج، وكان الماء ينقل اليها على ظهور الجمال من عيون موسى وليس فيها من الصهاريج التى تحفظ فيها المياه إلا عدداً قليلاً قد تخرب أكثره وكان يصل عدد سكانها الى نحو الألفين أو ثلاثة آلاف فى أيام موسم الحج وحركة التجارة. ولما وصلها نابوليون فى ٢٧ ديسمبر أصدر أمره بأقامة المعاقل والحصون وعزم على زيارة عيون موسى. وهذا البيان ملخص من بيان طويل أملاه نابوليون وطبع فى كتاب (حروب مصر وسوريا للجنرال براتران)

والجبرتى يقول فى حوادث ١٦ رجب، إن سارى عسكر بونابرته سافر الى السويس وأخذ صحبته السيد احمد المحروقى وابراهيم افندى كاتب البهار (ديوان البن والبضائع التى ترد من البحر الأحمر) وأخذ معه بعض المدبرين والمهندسين والمصورين وجرجس الجوهرى وانطون ابو طاقية وغيرهم وعدة كثيرة من عساكر الخيالة والمشاة وبعض مدافع وعربات وتختروان وعدة جمال لحمل الذخيرة والماء والقومانية (المأكولات)

وروى أيضا أنه لما عاد السيد احمد المحروقى ومن معه من السويس حكوا أن أهل السويس لما بلغهم مجيء الفرنساوية (أى الفرقة التى ذهبت مع الجنرال بون لاحتلال الثغر قبل وصول نابوليون) هربوا واخلوا البلدة فذهب بعضهم الى الطور وبعضهم الي عرب البادية فنهب الفرنساويون ما وجدوه فى البندر من البن والمتاجر

والامتعة وهدموا الدور وكسروا الاخشاب وخوابي المياه » ثم قال « فلما حضر كبيرهم وكان متأخراً عنهم كلمه التجار الذاهبون معه ، وأعلموه أن هذا الفعل غير صالح فاسترد من العسكر بعض الذي أخذوه ووعدهم باسترجاع الباقي أو دفع ثمنه بمصر » وقال الجبرتي أيضا « إن نابوليون في مدة إقامته بالسويس صار يركب ويتأمل النواحي وجهات ساحل البحر ليلا ونهارا »

ولا شك أن نابوليون كان ينظر الى أمواج البحر الأحمر وهو يحرق الارم لعدم وجود السفن التي تقله وتحمل جيوشه الي البلاد الهندية ليأخذ بثأره من الانكليز: فكأنما كانت هاتيك الأمواج تجيبه بتلاطمها على الصخور ، وحفيفها بالرمال « إن أولئك الذين تحقد عليهم سيحاربونك وتحاربهم ، ويخذلونك وتخذلهم ، ثم يكون ، بمالهم من السيطرة على هذه المياه ، القول الفصل في شأنك ، فيأخذونك الى سانت هيلانة ، وتعيش فيها كئيباً لا مؤنس لك غير مثل هذه الاصوات ، من مثل هذه الامواج والمستقبل لله ! والملك لله ! » ولو كشف له قناع المستقبل وهو ينظر ويتأمل شواطىء البحر الاحمر ، لرأى كما يرى النائم في حلمه ، خيالات السفن مارة من البحر الابيض المتوسط الي البحر الاحمر ، حاملة رايات الزينة المصرية والفرنساوية ، وفي وسط أحدى هاتيك السفن رجل من بني جنسه يشير بأصبعه قائلا : « إنني أفتح الطرق للامم »[1] ثم يرى بعد ذلك خيال المدرعات الانكليزية والمدافع البريطانية مع سفن بلاده وأبناء قومه وعشيرته يقفون كتفا لكتف مع أولئك الذين صدوه وقبروه ليحفظوا لهم هذه الديار[2] بعد أن أخرجوهم منها منذ قرن من الزمان »! فيفيق من سباته مذعورا ، وهو يقول في سرّه مباكتا نفسه : كلاّ لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً! انما هي أضغاث أحلام ، وخيالات من خيالات هذه البلاد المشهورة بالطلاسم والسحر في غابر الايام ! أو لم يضرب موسى بعصاه البحر في هذا المكان فانفلق وعبر هو وبنو اسرائيل ، وغرق فرعون فكان من الهالكين . . . ؟

(١) اشارة الى دليسبس وكلمته المنقوشة على تمثاله في مدخل القنال .

(٢) اشارة الى تحالف الفرنسيين مع الانجليز في الحرب الكبرى واشتراكهم معهم في صد الترك عن أرض مصر

كأنى بنابوليون وقد أفاق من غيبوبة كهذه فقال لمن معه من العلماء والمفكرين: « هلموا نعبر البحر حيث عبره موسى وبنو إسرائيل » !

وليس هذا من قبيل الخيال فان نابوليونّ صمم حقيقة على قطع البحر الأحمر عند النقطة التى عبر منها موسى وقومه ولذلك أصدر أمره إلى الجنرال ( برتييه ) فى يوم ٢٧ ديسمبر بأن ينبه على الكونترأميرال «غانتوم» أن يذهب مع نحو ستين رجلاً من الأدلاء إلى جهة عيون موسى وأعلنه بأنه سيركب مع الخيالة فى الساعة الثالثة من صباح اليوم التالى وليكن مع المشاة والأدلاء مايلزمهم من المؤنة لمدة ثلاثة أيام

وفعلا ركب نابوليون ومعه الجنرالان كفريللى رئيس المهندسين والجنرال دومرتين قومندان الطوبجية مع عدد من الفرسان وعبر البحر عند نقطة المعدية، فى الوقت الذى تنسحب فيه المياه بالجزر وكان ذلك فى الساعة الثالثة من صباح يوم ٢٩ ديسمبر والمسافة بين السويس وعيون موسى تبلغ نحو ثلاثة فراسخ وكان الكونترأميرال غانتوم قد سافر بسفينة مسلحة مع عدد كبير من البحارة والمهندسين وكثير من العلماء عن طريق البحر . وقد روي نابوليون فيما أملاه على (برتران) أنهم وجدوا عند عيون موسى آثار مبان كان أقامها الفينيسيون ( البندقيون ) في القرن الخامس عشر حينما أرادوا مقاومة البرتغاليين فى طريقهم إلي الهند [1]

ونلخص القطعة الآتية من كلام مطول من كتاب برتران المشار اليه قال «وفى المساء امتطى نابوليون صهوة جواده ليعود إلى السويس والذين جاءوا عن طريق البحر ركبوا السفينة . و فى الساعة التاسعة مساء نادى الجنود الذين فى المقدمة أنهم ضلوا الطريق وطلبوا الأدلاء وكان الجنود فى النهار قد تسلوا بسقى أولئك الأدلاء الخمور حتى سكروا وغابوا عن الصواب وضل الركب الطريق، وكانت الليلة مظلمة وخيل للجند فى مقدمة الركب أنهم يبصرون نارا في السويس فاتجهوا إليها ولكن تلك النار كانت عبارة عن مصباح السفينة التى تقل الجماعة الآخرين فازداد الركب ضلالا وكانت الساعة قد صارت عشرة وأخذ المد يعلو، والمياه تدنو ، والخيل تسير فى تلك الرمال الى أن وصلت المياه إليها وأخذت تزداد شيئاً فشيئا حتى وصلت

---

(١) راجع صحيفة (١٣) من هذا الكتاب

الى بطون الخيل والقوم حيارى لا يدرون ماذا يصنعون حتى قال نابوليون منذعراً (أجئنا هنا لنغرق كما غرق فرعون من قبل ؟ فما يكون أحسن من هذا موضوعاً للوعظ في كنائس رومه !) (١) ولكن الحامية كانت مؤلفة من جنود أقوياء من الذين خدموا الجيش من ثمان الى عشر سنوات وهم على جانب من النباهة والدراية فمن هؤلاء اثنان أحدهما اسمه لويس وكربونيل فالأول اكتشف الطريق الاصلي في الحال وعاد بسرعة لارشاد الجماعة وكانت المياه قد وصلت الى سروج الخيل وكاد يغرق الجنرال كفريللي بسبب رجله المصنوعة من الخشب ولكنهم بعد جهد جهيد وصلوا الى الشاطيء .

وقال صاحب هذه الرواية إن الذين بقوا في السويس أدركوا أن الجماعة قد ضلوا فخطر لهم أن يقيموا ناراً لهدايتهم فلم يجدوا الخشب اللازم لذلك فهدموا داراً من الدور ولم يكادوا يشعلون النار حتى كان الجماعة قد وصلوا الى البر . ولم ينس نابوليون أن يكافئ الجندي لويس الذي دلهم على الطريق وانقذ الجنرال كفريللي من الغرق فرقى درجته وأهداه سيفاً نقش على أحدى صفحتيه (من الجنرال بونابرته للفارس لويس) وعلى الصفحة الثانية (عبور البحر الاحمر) (٢)

---

(١) ترجم الدحداح عبارة نابوليون وهي بالفرنسية هكذا

Serions-nous venus ici pour périr comme Pharaon ? Ca sera un beau texte pour les prédicateurs de Rome !

«لو هلكت غرقاً كفرعون لجعل الواعظون المسيحيون غرقي موضعاً حسناً للوعظ ضدي» .

والعبارة اشارة الى الحاد الفرنسيين عقب الثورة وتغيظ البابوية في روما من ذلك

(٢) من الذين رافقوا نابوليون في هذا الحادث الغريب الذي لم يرد له ذكر في الكتب العربية اللهم الا في الجزء الذي عربه الشيخ الدحداح من تاريخ فرنسا - الضابط «جان بيير دوجرو» Jean-Pierre Doguereau ارتقى فيما بعد لرتبة جنرال في الطوبجية وله مذكرات كان يكتبها عن مصر وسوريا اثناء وجوده في مصر وفي حملة الشام وقد حصل على هذه المذكرات الضابط جونكير G. de la Jonquière الذي وضع « تحت اشراف وزارة الحربية الفرنسية » كتاباً مطولاً عن الحملة الفرنسية في مصر عن الوجهة الحربية وهو مطبوع في ستة اجزاء كبيرة

وقد قرأت في مذكرات « دوجرو » وصفاً شيقاً لما حصل لنابوليون في تلك الرحلة وكان « دوجرو » من الذين أشرفوا على الغرق فترك جواده وسبح في الماء حتى وصل الى البر صحيفة ١٠٨ Journal de l'Expédition d'Egypte

وفى أثناء وجود نابوليون جهة الطور حضر اليه رهبان دير طورسيناء وطلبوا منه أن يشملهم برعايته كما أعطاهم النبى محمد عهد الأمان وكما فعل صلاح الدين والسلطان سليم فأعطاهم عهداً بأن لا يعتدى عليهم أحد من الفرنساويين وصورة عهد نابوليون لهم محفوظة بنمرة ٣٧٨٢ فى مجموعة مكاتباته

كان نابوليون موفقا فى جميع أموره ولطالما عرض بنفسه للأخطار، ففى (أركولا) بأيطاليا كاد يصعق تحت سنابك الخيل ، وانقذ بمعجزة من معجزات الزمان ، وهاهو يخلص من سيل البحر ومدّه ويعلو على الامواج وارتفاعها ، وكأني به وهو يقول « أجئنا لنغرق كما غرق فرعون ؟ » يسمع هاتفا يهتف فى تلك الليلة الليلاء ، وفى ذلك المكان المملوء بالتذكرات الرهيبة :

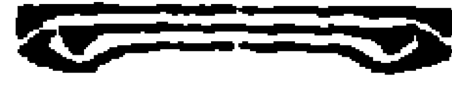
« لاتخف ! إن الله حارسك وحافظك ، فان المهمة التى خلقت لأجلها لم تتم بعد! جئت إلي هذه الديار فقطعت دابر فئة ظلمت العباد وسفكت الدماء ، وخرجت عن حدود الانسانية حتى ضجت منها الارض والسماء ، فجاء الله بك جلاداً لتنفيذ عدله الألهىّ ، وسنذهب بك إلى الشام فتعمل فيها فى الضالين الظالمين مثلما فعلت فى أولئك المماليك فى مصر ، والنمساويين فى إيطاليـا ، ثم تعود الى فرنسا فتشعل نار الحرب فى أوروبا ، وتتسنم ذروة المجد الشاهقه ،وتأخذ فى غزو الامم وإذلال العباد، وأهراق الدماء ، وتبقى كالسيف المعلق على الرقاب ، تنظف أوروبا كما ينظف الخادم دار مولاه ! حتى إذا انقضت مهمتك سقطت من ذلك المكان العالي، سقوط الشهاب الثاقب ، لتعيش بعد ذلك ستة أعوام متوالية يتقطع فيها نياط قلبك ، كما تقطع أوتار الآلة الموسيقية، فيسمع لها رنين غريب ، قد بقي دويّه الى اليوم، يرن فى آذاننا، وآذان من يأتى بعدنا، إلي يوم الساعة ! وما كنت فى الأولى، ولا في الثانية ، إلا آلة في كف القضاء ، وألعوبة فى يد الأقدار ، وكل ميسر لما خلق له » !

ولنعد إلى ما كنا فيه من رحلة نابوليون إلى السويس فنقول إنه في اليوم التالى لخلاصه من ذلك المأزق الحرج ، ركب فى جماعة من العلماء وفيهم مونج وبرتللو وبعض قواده وضباطه أركان حربه وسار بهم شمالا بقصد استطلاع طريق مواصلة البحر

الأبيض بالأحمر وكان قبل قد أصدر أمره إلى القوة المرابطة بالسويس بالسير عائدة للقاهرة عن طريق أجرود وبلبيس أما هو فعثر على آثار تلك الترعة التي كانت تنقل مياه النيل في الوادي من بو بسط على فرع النيل القديم الذي كان يسمى „ بيليز ” Peluse

وفي الثالث من شهر يناير سار نابليون ومعه بعض القواد والجنود في اتجاه وادي الطميلات وهناك أبصر برجل يسير على هجين يحمل رسالة ولما رأى الرجل الجنود الفرنسية حاول الاختفاء والابتعاد وكانت الرسائل التي معه من ابراهيم بك والجزار باشا الى مصر معلنة بابتداء المعارك على حدود سوريا وبأن جيش الجزار دخل الاراضي المصرية ، وأن مقدمة هذا الجيش احتلت قلعة العريش وهي تعمل في تحصين القلعة لتكون قادرة على الدفاع

وفي هذه الاثناء وصلت مراكب من جدة الي السويس حاملة مقداراً عظيما من البن وبضائع الهند فاجتاز بونابرت الصحراء وعاد الى السويس . وكانت حمولة هذه المراكب تبلغ نحو اربعمائة او خمسمائة طن . وجاءت أيضاً قافلة من القاهرة واصبحت مدينة السويس كمدينة هندية وقابل بونابرت التجار الذين عادوا من الهند وبعد ذلك سار من السويس الى الصالحية واخذ في اقامة الاستحكامات فيها استعداداً للحملة على سوريا .



# المدة الثانية

## الحملة الفرنساوية على الشام

— ١ —

ندخل الآن فى المدة الثانية من الدور الثالث وهى عبارة عن الزمن الذى قضاه نابوليون فى غارته على الديار الشامية — إلى أن عاد الي القاهرة يائساً من تحقيق أحلامه فى بلاد الشرق . وقد سبق لنا القول إن الدولة العلية اتحدت مع انكلترا وروسيا على محاربة فرنسا وإخراج جنودها من أرض مصر فأعلن الباب العالى الحرب على فرنسا رسميا في ٢١ ربيع الاول سنة ١٢١٣ الموافق ٢ سبتمبر سنة ١٧٩٨ . والحق يقال إن نابوليون كان أبعد نظراً من جميع رجال السياسة في فرنسا لانه فكر فى امكان قيام الدولة العلية عليه ، فحسب لذلك ماحسب من سوء العواقب قبل أن يبرح فرنسا بحملته، بدليل أنه كتب من إيطاليا إلى مسيو تالليران (Talleyrand) وزير الامور الخارجية بتاريخ ١٣ سبتمبر سنة ١٧٩٧ ( أى قبل اعلان الدولة العثمانية الحرب على فرنسا بسنة كاملة ) خطابا محفوظا الآن بوزارة الخارجية يطلب منه اتخاذ الوسائل اللازمة لارضاء الباب العالى وحمله على قبول الاحتلال الفرنساوى لمصر ، بل وزاد نابوليون فى ذلك إذ طلب من تالليران أن يذهب بنفسه الي الآستانة ليبذل ما أوتى من حكمة ودهاء للتأثير على رجال الدولة العلية

إلا أن تالليران لم يكن في الحقيقة صافى النية نحو نابوليون ، كما يشهد بذلك تاريخه معه حتى بعد ارتقاء نابوليون إلي عرش فرنسا ، وطالما أظهر نابوليون الحقد عليه وطعن فى ذمته وإخلاصه في مذكراته وأحاديثه فى سانت هيلانه ، ولذلك لم يذهب تالليران الى الآستانة . قال (ميو) فى مقدمة كتابه « ولما كان نابوليون يحب دائما أن يشرك الرجال معه فيما يذهب اليه من الاخطار (١) طلب من تالليران أن يذهب

(١) أخذ نابوليون معه ميرلين Merlin ابن رئيس الديركتوار

الى الآستانة . وبرح نابوليون فرنسا وهو معتقد بصدق وعود تالليران ولكن الأول لم يدرك أن الثانى كان أكثر منه دهاء وخبثاً لأنه تركه يرحل لمصر وهو عارف بما ستؤدى اليه نتائج تلك الحملة ، وبقى فى باريس وخدع بذلك أحد أعضاء الديركتوار الذى كان يتطلع الى منصب وزارة الخارجية »

ومع ذلك فان تالليران لم ينس أن يكلف سفير الجمهورية الفرنسية فى الاستانة أن يبذل نفوذه للتأثير على الباب العالى لاجل منعه عن الانضمام الى انكلترا وروسيا . فقد رأيت في كتاب المرحوم سرهنك باشا (حقائق الأخبار فى دول البحار) وهو فى هذا ناقل عن المصادر التركية قوله « إن الدولة العلية أخذت تسعي فى استرجاع مصر وإخراج نابوليون منها بالقوة رغماً عن المساعى التي أجراها مسيو روفن Ruffin سفير فرنسا لدي الباب العالى لاقناع الدولة وجعلها تعتبر حركات بونابرت حبية لا عدائية لأن الدولة وقتئذ عدت ذلك بمثابة إعلان حرب من فرنسا عليها وسجنت السفير روفن المذكور فى ( يدى قلله ) مع باقى الفرنساويين المقيمين في القسطنطينية كالعادة ثم أخذت تجهز جيوشها وأساطيلها وعقدت لذلك معاهدات دفاعية مع دولتى الروسيا وانكلترا على يد مندوبها المسمى عصمت بك أحد الصدور العظام وعاطف افندى رئيس الكتاب »

ونحن لا نحتاج إلى تذكير القارىء بأن انكلترا لما اتفقت مع الدولة العثمانية على محاربة فرنسا فى مصر ، إنما كانت تنفذ خطتها السياسية ، وتقاليدها الأساسية ، وهى أن لا توجد على ضفاف النيل دولة قوية — تلك السياسة التى ظهرت واضحة جلية فى جميع حوادث القرن التاسع عشر الميلادى بمصر ، من إخراجها الفرنسيين من هذه الديار ، و بمقاومتها محمد على باشا و إضعاف دولته وخضد شوكته ، وفى مقاومة انشاء قناة السويس ، وفى مساعدتها اسماعيل باشا على الاسراف ، و باتخاذ ديون مصر وسيلة للتدخل في شؤون البلاد ، وإطفائها شرارة الثورة العرابية توسلا لاحتلال مصر

وأما روسيا التى لم تكن فى ذلك الحين قد رسمت سياستها الاسيوية — تلك السياسة التى حولت بها وجهها شطر التوسع فى آسيا والتطلع الي الهند فانها لعداوتها

للجمهورية الفرنساوية ، وخشيتها من انتشار أفكار الثورة الفرنسية فى البلاد الروسية ، رضيت أن تدخل فى اتفاق مع عدوتها تركيا وانكلترا ، لاخراج فرنسا من أرض مصر . وهكذا السياسة دائماً تعادى وتصافى للمصلحة قبل كل شيء .

بدأت تركيا حربها ضد فرنسا باحتلال الجزر اليونانية الواقعة فى بحر الادرياتيك وكان نابوليون ، لما قهر جمهورية فينيسيا (البندقية) ، احتل تلك الجزر وضمها الى الجمهورية الفرنساوية . قال سرهنك باشا فى كتابه المشار اليه « وصلت الدونتما الروسية من البحر الاسود إلي الآستانة وانضمت اليها الدونتما العثمانية ثم أقلع الاسطولان سوية من البوغاز وقصدا بحر الادرياتيك واستوليا على البلاد التى كانت فرنسا واضعة يدها عليها هناك بمساعدة دلتلى على باشا ، وبعد أن تم لهما ذلك شكلت الدولة الروسية هناك جمهورية مكونة من عدة جزائر يونانية عرفت بجمهورية الجزائر السبع وكلفت الدولة وقتئذ احمد باشا الجزار والى عكا أن يبعث جيشاً لاحتلال العريش »

ويرى القارىء من الشذرات التى نقلناها واعتمدنا عليها من كتاب سرهنك باشا ، الفرق بين ما يكتبه فى التاريخ أهل المعرفة والاطلاع وذوو الالمام بلغة أو لغتين من اللغات الاجنبية ، وبين ما يكتبه فى هذا الفن من لا يكلف نفسه مشقة الفحص والتمحيص ، وينقل من الكتب العربية أغلاطها ، ويقع فيما وقع عليه فيه كتابها عن جهل قهرى . فالجبرتى مثلا إنما يعتمد عليه فى الامور المحلية والحوادث الوقتية اليومية ، ولكن معرفة الامور الخارجية والمسائل السياسية تحتاج للرجوع الى الكتب التركية أو الاوروبية إجمالا . ولقد وقع سرهنك باشا فى كتابته عن هذه الفترة فى أغلاط جمة ربما أشرنا اليها فى سياق الكلام .

ولنعد إلى تاريخ حملة نابوليون على سورية فنقول : ذكر نابوليون فى مذكراته التى أملاها على الجنرال برتران فى سانت هيلانة أنه لو بقى الفرنساويون فى مصر ينتظرون الغارة عليها من البحر والبر لعرضوا أنفسهم لأخطار كبيرة لاقبل لهم بها ولذلك صمم نابوليون على مهاجمة أعدائه قبل أن يهاجموه وبدأ فى تجهيز الحملة على سورية .

وكان نابوليون يؤمل أن ينضم اليه مسيحيو سوريا ودروز جبل لبنان لما يقاسيه أولئك من ظلم الجزار وقبائحه ، وكان من جهة أخرى يصور لنفسه إمكان تأليف جيش كبير من اهالى سوريا ليسير بهم إما شمالا الى الاستانة وإما جنوبا بشرق إلى بلاد فارس والاقطار الهندية ليعيد ذكرى الاسكندر المقدوني ويتوج قيصراً على كل هاتيك الممالك والاصقاع : فقد جاء فى مذكرات «بوريين» أن نابوليون التفت اليه وهما سائران بالقرب من الشاطىء أمام عكا وقال :

« بوريين ! إذا نجحت فى فتح هـذه المدينة ، كما أعتقد أننى سأنجح ، فأننى سأجد فيها كنوز الجزار ، وأجد أسلحة تـكفى لثلاثمائة الف جندى ، وعند ذلك أهيج أهالى سورية الذين يبغضون الجزار لظلمه ، ويسألون الله صباح مساء أن أنجح فى دخول عكا ، ثم أسلح منهم جيشاً عرمرما وأقصد دمشق وحلب فينضم الي القوم كمخلص لهم من الظالم ، ثم أسير بجيوش لفتح الآستانة وانشىء فى الشرق امبراطورية عظيمة الشأن تنقش اسمى على أحجار الابدية : وربما عدت إلى باريس من طريق أدرنه وفينا بعد أن امحي من صحيفة الوجود بيت هابسبورج »[١]

إيه أيتها الاحلام ! ما أحلاك ساعة التصوّر وأمرّك عند صحو التحقيق :

تقفون والفلك المحرك دائر     وتقدرون فتضحك الاقدار !

## — ٢ —

عاد نابوليون من رحلته إلى السويس في السابع من شهر يناير سنة ١٧٩٩ . قال الجبرتى « وفي ليلة الاثنين غاية شهر رجب حضر سارى عسكر بونابرت من ناحية بلبيس إلى مصر ليلا واحضر معه عدة عربان وعبد الرحمن أباظه أخو سليمان اباظه شيخ العبايدة وخلافه رهائن وضربوا أبو زعبل والنير وأخذوا مواشيهم وحضروا بهم للقاهرة ، وخلفهم أصحابهم رجالا ونساء وصغاراً »

(١) لقب الاسرة المالكة فى النمسا والمجر . ويريد انه ان تلك الاسرة كانت ممن ساعدوا على هدم نابوليون ، بعد أن خضعت له وزوجته بأمرأته الثانية ( مارى لويز ) ، وقضت على ولده «النسر الصغير» فمات كمداً فى فينا . ويريد انه ان اسرة هابسبورج تبقى أكثر من مائة سنة أخرى حتى قضت عليها الحرب الكبرى الأخيرة والملك لله ، والبقاء لله !

ومما فعل ذلك نابوليون بعرب الشرقية وأخذ زعماءهم رهائن إلا ليأمن جانبهم فى حملته على الشـام ، أو ليتقى شرهم فى حال هجوم الجنود التركية التى كانت فى ذلك الوقت قد احتلت العريش وأخذت فى الزحف على مصر . وأول ما بدأ الشيخ الجبرتى ينوه بحملة الشام قوله فى حوادث يوم ١٢ رجب « وقد ذهب عدة من العسكر الفرنساوية الى قطية وشرعوا فى بناء أبنيـة هناك واشيع سفر سارى عسكر الى الشام والاغارة عليها » . وذكر فى حوادث ١٩ رجب أيضا أنه كثر الاهتمام والحركة لسفر الفرنسيس الى جهة الشام ، وأخذوا جمال عرب الترابين ليحملوا عليها الذخيرة والدقيق والعليق والبقسماط ثم رسموا على الاهالى عدة كبيرة من الحمير والبغال فخاف الناس على حميرهم وامتنع خروج السقايين والبراسمية وحصل للناس ضيق بسبب ذلك »

نقلنا هذه العبارة من الجبرتى ليرى القراء أسلوب الفرنساويين في الاعتداء على المساكين وأخذهم دوابهم التى يتعيشون منها وكأنهم استحلوا كل مافى أيدى المصريين واعتبروه ملكا لهم يأخذونه انى شاءوا وكيفما شاءوا

وقبل أن يعلن نابوليون المصريين بعزمه على غزوة الشام كتب منشوراً على لسان أعضاء الديوان الخصوصى تزلف فيه الى المصريين وبالغ فى التلطف معهم الى حد بعيد ، وهذا المنشور مكتوب بعبارة عربية مسجعة تشابه أسلوب المعلم نقولا فى رسالته . ولعل نابوليون كلفه بتحرير ذلك المنشور بعد أن مدحه بقيصدته المعلومة التي جعلها مسيو مارسل المستشرق موضوع محاضرة له فى دار المجمع العلمى . وقد وزع المنشور فى يوم ٢١ من شهر شعبان سنة ١٢١٣ — ٢٨ يناير سنة ١٧٩٩ وهذا هو :

« الحمد لله وحده. هذا خطاب الى جميع أهل مصر من خاص وعام ، من محفل الديوان الخصوصى من عقلاء الانام ، علماء الاسلام ، والوجاقات والتجار الفخام . نعلمكم معاشر أهل مصر أن حضرة سارى عسكر الكبير بونابرته أمير الجيوش الفرنساوية صفح الصفح الكلى عن كامل الناس والرعية ، بسبب ما حصل من أراذل أهل البلد والجعيدية ، من الفتنة والشر مع العساكر الفرنساوية . وعفا عفوا شاملا وأعاد الديوان

الخصوصى فى بيت قائد أغا بالأزبكية. ورتبه من أربعة عشر شخصا أصحاب معرفة وإتقان، خرجوا بالقرعة من ستين رجلا كان انتخبهم بموجب فرمان . وذلك لأجل قضايا حوائج الرعايا وحصول الراحة لأهل مصر من خاص وعام، وتنظيمها على أكمل نظام وإحكام، كل ذلك من كمال عقله وحسن تدبيره، ومزيد حبه لمصر وشفقته على سكانها من صغير القوم قبل كبيره، رتبهم بالمنزل المذكور كل يوم لاجل خلاص المظلوم من الظالم . وقد اقتص من عسكره الذين أساءوا بمنزل الشيخ محمد الجوهرى، وقتل اثنين بقراميدان وانزل طائفة منهم عن مقامهم العالي الى أدنى مقام، لأن الخيانة ليست من عادة الفرنسيس، خصوصا مع النساء الأرامل فان ذلك قبيح عندهم لا يفعله الا كل خسيس، ووضع القبض بالقلعة على رجل نصرانى مكاس، لانه بلغه أنه زاد المظالم فى الجرك بمصر القديمة على الناس . ففعل ذلك بحسن تدبيره ليمتنع غيره من الظلم، ومراده يرفع الظلم عن كامل الخلق، ويفتح الخليج الموصل من بحر النيل الى بحر السويس لتخف أجرة الحمل من مصر الي قطر الحجاز الافخم، وتحفظ البضائع من اللصوص وقطاع الطريق، وتكثر عليهم أسباب التجارة من الهند واليمن وكل فج عميق، فاشتغلوا بأمر دينكم وأسباب دنياكم، واتركوا الفتنة والشرور، ولا تطيعوا شيطانكم وهواكم، وعليكم بالرضا بقضاء الله وحسن الاستقامة، لاجل خلاصكم من العطب والوقوع في الندامة . رزقنا الله وإياكم التوفيق والتسليم، ومن كانت له حاجة فليأت إلى الديوان بقلب سليم، إلا من كانت له دعوة شرعية، فليتوجه إلي قاضي العسكر المتولي بمصر المحمية، بخط السكرية، والسلام على أفضل الرسل على الدوام » اه

وأما حكاية اقتصاص نابوليون من جنوده الذين « أساءوا بمنزل الشيخ محمد الجوهرى » — ذلك القصاص الذي يتدلل به على المصريين ويوهم به أن الاعتداء على النساء ليس من عادة الفرنسيس — فهي إن الشيخ محمد الجوهري الذي سبق الكلام عنه لما رأى تزاحم الفرنساويين على السكنى بحي الازبكية، هجر داره التي كانت له مطلة على البركة بالقرب من باب الهواء وترك فيها بعض الخدم من رجال ونسوة تخيل لبعض الفرنسيين في ليلة السابع والعشرين من شهر رجب — وذلك قبل

عودة نابوليون من السويس بثلاثة أيام — التعدى على تلك الدار لامر ما ، فاستيقظ النسوة الخادمات وصرخن فضربوهن وقتلوا منهن امرأة وحاولوا هتك عرض بنت خادمة، نفرت منهن الى مكان خفىّ فى قعر الدار . قال الجبرتى «وعاثوا فى الدار وأخذوا متاعاً ومصاغاً ونزلوا فاستيقظ البواب واختفى منهم » وقال « فلما قدم سارى عسكر من سفره ركب مشايخ الديوان وأخبروه بأمر ذلك الاعتداء على منزل الشيخ الجوهرى فاغتم لذلك وأظهر الغيظ »

ولولا أن الشيخ الجوهرى له تلك المنزلة العالية التى يركب لأجلها مشايخ الديوان ، لما اغتم ولا اهتم نابوليون بأمر ذلك الاعتداء القبيح على داره وخدمه ! ولو كان فيه نساؤه وبناته للحقهن ما لحق خادماتهن ! ولكن ألم يكن يقع مثل ذلك مع أسر كثيرة فى جميع أحياء القاهرة ؟ وهل كنا ننتظر من الشيخ الجبرتى أن يدوّن لنا كل ما حصل من ذلك فى دور محمد واسماعيل وابراهيم وسيد احمد مثلا ...؟

ولولا أن نابوليون فى ذلك الوقت كان قادماً فيــه على حرب عوان مع جميع المسلمين شرقاً وغرباً ، وشمالا وجنوبا ، لما تزلف الى المصريين، ولا همه منزل الجوهري وخادماته ، مهما عظم مقامه وجل شأنه ، اذ لا نزاع فى أن نابوليون كان أحوج الى جندى فرنسى من أن يريق دمه فداء لمصرية أو لمصرىّ ! ولكنه رضى مكرها أن يقتص من اثنين أو ثلاثة من الجنود ليبرهن للمصريين على عدله وليقربهم اليه زلفى . ومع ذلك فنحن لا نعرف كيف اقتص من الجنود، وغاية ما نعرفه هو أن الجبرتى ذكر فى حوادث أول شعبان العبارة الآتية « أنهم قتلوا ثلاثة أنفار من الفرنسيس وبندقوا عليهم بالرصاص بالميدان تحت القلعة قيل إنهم من المتسلقين على الدور » ! ومن يدرينا ، أو يدرى الجبرتى ، ان أولئك الثلاثة ليسوا من المجرمين الذين ارتكبوا إجراما فاحشة ضد القواد أو الضباط أو الجيش مثلا ....؟

ولنعد الى الحملة الشامية فنقول ان نابوليون شرع فى الاستعدادت لتلك الحملة وبدأ في تسييرها من القاهرة فى الايام الاولي من شهر رمضان من تلك السنة الموافق شهر فبراير سنة ١٧٩٩ ولم يجد مناصاً أمام ما ظهر للناس من حركة الجنود ، وما

أذيع فى طول البلاد وعرضها من قرب هجوم الاتراك على مصر ، أن يعلن للمصريين بصفة رسمية عزمه على غزو الشام ، فجمع لديه أعضاء الديوان وقال لهم كلاماً طويلا خلاصته انه قد قضى على المماليك فى الوجهين والقبلي البحري من أرض مصر وأنه قد عزم على أن يذهب ليبيد البقية الباقية منهم ، أى أولئك الذين فروا مع ابراهيم بك الى سوريا ، وصاروا يهددون الاقطار المصرية ويبعثون بالمكاتبات والمنشورات المهيجة للأمة ، ليقضى عليهم ، ويريح العباد من شرورهم ، وألقى على المشايخ كلاماً ثقيلا وهددهم وألهم بالفناء والعدم إذا حصل فى البلاد أثناء غيبته شغب أوفتنة . قال الجبرتى « وكتبوا أوراقاً مطبوعة فى هـذا المعنى وألصقوها بالطرق » ولا ندرى لماذا لم ينشر الجبرتى نص هذا المنشور كأثر من الآثار التاريخية لتقف منها الاجيال الخالفة على تمويهات السياسة في ذلك الزمن ، ولهـذا يحق لنا أن نذكر المعلم نقولا الترك بالخير لوضعه نص ذلك المنشور في رسالته . وقبل أن نأتى على نصه نقول إن نابوليون قد تحاشى ، سواء فى خطابه الذى ألقاه على أعضاء الديوان ، وسواء فى هذا المنشور ، ذكر انه يحارب الدولة العثمانية أو الاتراك ، وقصده بذلك ظاهر ، اذ انه لايزال يوهم المصريين بأن الدولة العلية غير غاضبة على احتلاله مصر ، وانه انما جاء لمحق سلطة المماليك الظالمين

الا إنه مع هـذا الحرص مهّد أذهان القوم لقبول فكرة الانفصال عن تركيا بإعطاء نفسه لقب « السلطان أمير الجيوش » ولعل الجبرتى لم ينشر ذلك المنشور بنوع خاص لوجود ذلك اللقب فيه . نعم ان كتاب الفرنسيين قالوا وكرروا وأكدوا أن المصريون كانوا يلقبون بونابرت « بالسلطان الكبير » من أول يوم وطئت فيه قدماه أرض القاهرة ، ولكننا لانزال نؤكد أن ذلك لم يكن الا من أفواه المداجين والمنافقين ، سواء من بعض المسلمين أو النصارى السوريين أو بعض الاقباط ، والجبرتى لم يذكر هذا اللقب قط ، وضن أن يكون فى مصر لقب سلطان مع وجود سلطان آل عثمان خليفة المسلمين ، وكذلك لم يرد فى كل منشورات نابوليون ، سواء المقولة عن لسانه ، وسواء المنسوبة الى المشايخ وأعضاء الديوان ، ذكر لذلك اللقب الا فى

هذا المنشور الذى رفض الجبرتى تسطيره ودونه المعلم نقولا الترك ، ولم يكن لنابليون مصلحة فى انتحال هذا اللقب لنفسه ، اذ كانت تقضى عليه السياسة والحكمة بعكس ذلك ، فهو ابن الثورة الفرنساوية التي ثلت عروش الملوك ، والتى تنادى بالحرية والاخاء والمساواة ، ولا يخاطب الوزير أو الحقير الا بلفظ ستواين « مواطن » وهذا نص المنشور نقلا عن رسالة المعلم نقولا ننقله بنصه وفصه :

« من محفل الديوان الخصوصى إلى جميع الاقاليم المصرية نخبركم أن أمس تاريخه خامس شهر رمضان المعظم ، توجه حضرة الدستور المكرم سرعسكر الكبير بونابرته ، أمير الجيوش الفرنساوية مسافراً يغيب ثلاثين يوماً لاجل محاربة ابراهيم بك الكبير وبقية المماليك المصرية حتى تحصل الراحة الكاملة للاقاليم المصرية ، من هؤلاء الاعداء الظالمين ، الذين لا راحة فيهم ، ولا رحمة في دولتهم على أحد من رعيتهم ، وقد وصلت الآن مقدمة الجيوش الفرنساوية الي العريش ، وعن قريب يأتيكم خبر «قطيعة» ابراهيم بك ومن معه من المماليك نظير ما وقع فى «قطيعة» اخيه مراد بك ومن معه فى أقليم الصعيد . فيقطع دابرهم من بر الشام كما انقطع دابرهم من أقليم الصعيد بالتمام ، ويبطل القيل والقال ، وتذهب الكاذبة التي تسمعونها من أوباش الرجال ، ونخبركم أن حضرة الساري عسكر المشار اليه ، يتجدد له كل يوم نية الخير والرحمة ، ويحدث فى تصميم الشفقة والرأفة . هذه هى نيته لكم فى كل الاقطار المصرية ، ويحصل لهم النجاح والصلاح ، ويكمل فى سائر أقطارها السرور والإصلاح ، وتفرح أقاليمها على يد سلطانها بونابارته بمشيئة الله الذى مكنه فيها ، ونصره على من ظلم فيها من المماليك المفسدين ، ولا يتم خلاصها بالكلية وتتطهر من دولة المماليك الردية ، إلا ببذل همته ورأيه السديد ، فى تكميل نظامها بخضوعهم لسيوفه الباترة ، وتكمل زروعها الفاخرة ، وأنواع تجارتها الباهرة ، ويحدث فيها برأيه وحسن تدبيره التحف من أنواع الحرف والصنايع النفيسة ، ويجدد فيها ما اندثر من صنائع الحكماء والأولين ، ويرتاح فى دولته كل الفقراء والمساكين ، فالتزموا يا أهل سكان الارياف والفلاحين بحسن المعاملة والأدب ، واجتنبوا فى غيبته أنواع

الكذب والقبائح حتي براكم حين يعود بعد هذا الشهر قد احسنتم المعاملة ، ومشيتم على الاستقامة ، وينشرح صدره منكم ، ويرضى عليكم وإن حصل منكم فى غيابه أدنى خلل ومخالفة حلّ بكم الوبال والدمار ، ولا ينفعكم الندم ، ولا يقر لكم قرار ! واعلموا أن ذهاب دولة المماليك بقضاء الله وقدرته ، ونصرة سلطانكم أمير الجيوش عليهم بتقدير الله وأمره ، والعاقل يمتثل الى احكام الله ، ويرضى بمن ولاه والله يؤتى ملكه من يشاء والسلام عليكم ورحمة الله »

— ٣ —

واتبع المعلم تقولا هذا المنشور بامضاءتين فقط وهما على الشكل الآتى: « الداعى لكم الفقير عبد الله الشرقاوى رئيس الديوان الخصوصى عفى الله عنه ، والداعى لكم الفقير السيد محمد المهدى الحفناوى كاتم السر ، وباشكاتب الديوان عفى الله عنه » وقد كان هذان الشيخان يمضيان دائما على منشورات الفرنساويين وبلاغاتهم عن الحرب في الشام . وكان قد اختار نابوليون جماعة من العلماء لمرافقته لتلك الاقطار ليوهم العالم الاسلامى بأن رجال الدين يسيرون فى ركابه ويشهدون بعدله وإحسانه ، ولا شك فى أن اختيار هذين الشيخين لامضاء المنشورات راجع فى الاكثر الي الصفة التى لكل واحد منهما فى الديوان الخصوصى ؛ لأن الشيخ عبدالله الشرقاوي كان رئيس الديوان والشيخ محمد المهدى كاتب سره . ولكن وجودهما في هذه المنزلة له أيضا سبب آخر ، وهو انهما كانا من صنف المشايخ الذين نعرفهم ويعرفهم كل من له خبرة بأحوال هذه الديار وطبقات أهلها . كانا من ذلك النوع الذى كان أولى به الزهد فى الدنيا وزخارفها ، من أن يكون شرها فى حب المال والتعلق بمظاهر الحياة الفانية .

كان الشيخ عبد الله بن حجازى بن ابراهيم الشافعى من بلده الطويلة بمديرية الشرقية ، لذلك سمى « الشرقاوى » وكان فى مبدأ أمره من الفقراء المعوزين يعيش من فضلات الناس الذين يلتصق بهم فى أيام طلبه للعلم . ثم أخذ في التردد

على الشيخ محمود الكردى من مشايخ الطرق الصوفية فلما توفي هذا أخذ فى القاء الدروس بالازهر ، وكان يجمع الطلبة والمجاورين للذكر فى حلقات فى دور الناس ليأخذوا بذلك الدراهم ، وليأكلوا من قصع الثريد ، ثم ارتقى به الحال حتى عدّ فى طبقة العلماء وتوصل إلى مشيخة الجامع الازهر . قال الجبرتى الذى لخصنا منه ما تقدم عن الشيخ الشرقاوى، فى وفيات سنة ١٢٢٧ (أى بعد المدة التي نحن بصددها بأربعة عشر عاما) ، « فلما حضرت الفرنساوية جعلوا المترجم رئيس الديوان ، فانتفع فى أيامهم بما يتحصل اليه من المعلوم والمرتب له عن ذلك، وقضايا وشفاعات ببعض الاجناد المصرية، وجعالات واستيلاء على تركات وودائع خرجت أربابها فى زمن الفرنسيس وهلكوا، واتسعت عليه الدنيا وزاد طمعه فيها وكبر عمامته. وزوجته بنت الزعفرانى هى التي تدبر أمره ، وتحرز كل ما يأتيه ويجمعه ولا يروح ولا يغدو إلا عن مشورتها ، واشترت العقارات والحمامات والحوانيت » اه .

وكان هذا الشيخ الشرقاوى أول من استقبل الاتراك وألف كتيباً بناء على طلبهم سماه «تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الولاة والسلاطين »وقد سبق لنا نقل شذرة من هذه الرسالة ، وهي الكلمة الوحيدة التي توجد فى ذلك الكتيب ، وجاء فى مقدمته « إنه لما حل ركاب الصدر الاعظم، والوزير الافخم، والدستور الاكرم، حضرة مولانا الوزير يوسف باشا ، بلغه الله من المرادات ما شاء ، بمدينة بلبيس فى شهر رمضان سنة ١٢١٤ بعد حصول الصلح بينه وبين طائفة الفرنساوية في قلعة العريش وذهبت مع بعض علماء مصر لملاقاته ، طلب منى بعض الاخوان من أتباع ذلك الصدر الاعظم أن اجمع كتابا متضمنا لواقعة الحال المذكور »

«فأين هذه الالقاب للوزير الاعظم، والدستور الاكرم، من «سلطاننا بونابرته أمير الجيوش ذي العدل والاحسان والاصلاح والخير للرعية والملة المحمدية » ؟

وكان ينتظر من أكبر علماء زمانه أن يكتب للاعقاب الخالفة تاريخاً ذا قيمة عن الحملة الفرنساوية فى مصر، كما طلب منه ذلك من طلب من أتباع الصدر الاعظم، ولكن رسالته المذكورة ليس فيها عن الحملة الفرنساوية الانحو ثلاث صفحات لا قيمة

لنا . قال الجبرتي في ترجمة الشيخ الشرقاوي « وللمترجم طبقات جمعها في تراجم الفقهاء الشافعية المتقدمين والمتأخرين من أهل عصره ومن قبلهم من أهل القرن الثاني عشر نقل تراجم المتقدمين منهم من طبقات السبكي والاسنوي، وأما المتأخرين فنقلهم من تاريخنا هذا بالحرف الواحد »

وهذه العبارة تدلنا على أن بعض أجزاء تاريخ الجبرتي هذا كان مكتوبا ومتداولاً بين الايدى . والغالب على الظن ان بعض أجزائه الخطية كانت توضع فى مثل مكاتب الازهر . ثم قال الجبرتي « وعمل تاريخا مختصراً في أربعة كراريس وأهداه للوزير يوسف باشا عدّد فيه ملوك مصر وذكر فى آخره خروج الفرنسيس ودخول العثمانية في نحو ورقتين ، وهو في غاية البرود وغلط فيها غلطات.. » ! وكانت وفاة الشيخ الشرقاوي في أول حكم محمد على باشا

وأما الشيخ محمد المهدى فتوفي بعد الشرقاوى بثلاث سنوات أي سنة ١٢٣٠ هجرية . قال عنه الجبرتي إن والده كان من الاقباط وأسلم الشيخ وهو صغير دون البلوغ على يد الشيخ الحفني الذى احتضنه ورباه ثم دخل الازهر وقصد للتدريس فى سنة ١١٩٠ وتقرب من اسماعيل بك كتخدا وكيل حسن باشا الجزايرلى وصاهر الشيخ محمد الحريرى الحنفى وأقبلت عليه الدنيا وزادت ثروته ورغبته وسعيه في أسباب تحصيل الدنيا ، واشتغل بالشركات والتجارة فى الكتان والقطن والارز وغير ذلك ، والتزم بعدة حصص فى البحيرة والمنوفية والجيزة والغربية ، وابتني داراً بالأزبكية ناحية الرويعى . ولما حضرت الفرنساوية وخافهم الناس لم ينقبض الشيخ المهدى عن المداخلة فيهم ، بل اجتمع بهم وواصلهم وانضم اليهم ، وسايرهم ولاطفهم وجاراهم فى أغراضهم ، وأحبوه وأكرموه وقبلوا شفاعاته ووثقوا بقوله . فكان هو المشار اليه فى دولتهم مدة إقامتهم بمصر والواسطة بينهم وبين الناس فى قضاياهم وحوائجهم ، وأوراقه وأوامره نافذة عند ولاة أعمالهم ، وراج أمره في أيامهم وزاد إيراده وجمعه ، وأقاموه وكيلا عنهم في أشياء كثيرة وبلاد وقرى يجيء خراجها اليه، ويأتيه الفلاحون بالهدايا فيفعل بهم ما كان يفعله أرباب الالتزامات

من الحبس والضرب وأخذ المصالح ، وصار له أعوان وخدم وتبع من وجهاء الناس .
ثم قال الشيخ الجبرتى الذي لخصنا ما تقدم عنه ما نصه : « و بالجملة فكان لوجوده وتصدره فى تلك الأيام النفع العام . سد بعقله ثقوباً واسعة وخروقاً ، وداوى برأيه جروحاً وفتوقاً ، لاسيما أيام الهيازع ، والخصومات والتنازع ، وما يكدر الفرنساويه ، من مخارق الرعية ، فيتلافاه بمراهم كلماته ، ويسكن حدتهم بملاطفاته ، ولما مضت أيامهم ، وتنكست أعلامهم ، وارتحلوا عن الأقطار المصرية ، ووردت الدولة العثمانية ، كان المترجم أعظم المتصدرين فى مقابلاتهم ، وأوجه الوجهاء فى مخاطباتهم ومكالماتهم ، وبهرهم بتحيله واحتياله ، واسترهبهم بسحره وخياله » . . وبعد كلام طويل عنه وعن أولاده : قال ، إنه اشترى داراً كبيرة بناحية الموسكي ( وهى المعروفة الآن بدار الشيخ المهدى ) وكانت لبعض عتقى بقايا الامراء الأقدمين ، وتنتهي حدودها من الموسكي الى حارة الناصرة أو الي كوم الشيخ سلامه ولم يدفع من ثمنها الا العربون وكتب الحجة وسكنها ، وماطل فى دفع ثمنها كعادته في دفع الحقوق وغاب خمس سنوات متنقلا فى البلاد حتى مات فى غيبته بعض أصحاب الدار التى اشتراها منهم واستمر الحال بالشيخ المهدى حتى زمن محمد على باشا فكان ممن أوقع النفرة بين الباشا وبين السيد عمر مكرم ، ونال بذلك أغراضه ، ومنح النظر على أوقاف كان السيد عمر يحصل منها على أموال جمة ، وأكثر المهدى من التردد على محمد على باشا وأكابر دولته مثلما كان يفعل فى زمن الفرنساويين وعين شيخاً للجامع الازهر أياماً قلائل ، وكان كلما وجد امرأة من نساء البكوات المماليك ذات اليسار بغير زوج يقترن بها ويسقط مالها ونوالها فى بئر عميق ( هكذا تعبير الشيخ الجبرتى ) . وترك المال الكثير والعقارات الواسعة والأطيان الشاسعة لأولاده وأولاد أولاده المعروفين الآن فى القاهرة

هذه خلاصة موجزة اقتطفناها من عدة صحائف من وفيات الجبرتى الطويلة لكي يكون القارىء لنفسه صورة عن زعماء العلماء في ذلك العصر ، وما ذكرناها الا لاختصاص الشيخين الشرقاوى والمهدى بأمضاء منشورات نابوليون وبلاغاته وتمويهاته على المصريين خاصة والمسلمين في جميع بقاع الارض عامة ، حتى إذا وضعت

تراجم أولئك العلماء، بجانب ما في تلك المنشورات من العبارات، وجد القارىء معيار يزن به الحقائق التاريخية ولهذا يهتم المؤرخون المحققون بالبحث عن صفات وأخلاق وظروف الأشخاص الذين يمثلون دوراً من الادوار في حوادث عصر من العصور

— ٤ —

ليس من غايتنا أن نتبع الحملة الفرنساوية في غارتها على الديار السورية لأن ذلك يعتبر صفحة من تاريخ تلك البلاد، ونحن انما نكتب تاريخ مصر في هذه الفترة ولكن ذلك لايمنعنا من أن نلم إلماما تاما بحركات تلك الحملة في سوريا ونتائجها التي لها بلا شك ارتباط بتاريخ مصر، خصوصا اذا لاحظنا في ذلك تاريخ محمد على باشا وحملته على سورية واستيلاء الجيوش المصرية على الجزء الاكبر من سورية والاناضول، وانتصارات جنود مصرية نجحت حيث فشلت الجنود الفرنساوية تحت قيادة أعظم قائد عسكرى أوجده الزمان، — فنقول إن الحملة الفرنساوية تألفت من نحو ثلاثة عشر ألف جندي تحت قيادة الجنرالات كليبر ورينيه ولان وبون ومورات ودومرتين وكفريللي وسارت هذه الحملة من جهات مختلفة من دمياط والصالحية وبلبيس والقاهرة، وكان خروج نابوليون من العاصمة في يوم الاحد ٥ رمضان سنة ١٢١٣ — ١٠ فبراير ١٧٩٩ وأخذ معه من المشايخ سليمان الفيومى ومصطفى الصاوى وعبد الرحمن العريشى ومحمد الدواخلي واستصحب معه أيضا قاضى عسكر ابراهيم أدهم افندى (بجمقجى زاده) ومصطفى بك (الذى كان كتخدا الوالى والذى ولاه أمير الحج) واستصحب أيضا جماعة من التجار والوجاقلية والاقباط والشوام

وكان غرض نابوليون من استصحاب أولئك المشايخ والقاضى وأمير الحج التأثير بهم على المسلمين في سوريا لكي يفهمهم أنه على اتفاق تام مع المسلمين فى مصر وإنه انما قدم سورية ليخلصها من مظالم الجزار، ولكنه لم يوفق فى النهاية إلى وجود أولئك المعممين معه لانهم تخلفوا عنه في الطريق ولهم حكاية طويلة كادت تحدث منها ثورة كبيرة سنأتى عليها فى مكانها

وقبل أن نتبع نابوليون فى غزوته للديار الشامية ونعدد انتصاراته المتوالية — إذ لم

يمض على خروجه من القاهرة أكثر من شهر من الزمان حتى كان قد استولى على العريش وغزة وخان يونس والرملة ويافا وحيفا، وابتدأ في حصار عكا. — نقول قبل هذا نسأل: ماذا أعدت الدولة العثمانية لذلك المغير على بلادها، بعد أن حالفت انكلترا واتفقت مع الروسيا على محاربته وإخراجه من ارض مصر منذ ٢ سبتمبر سنة ١٧٩٨: أى قبل تحرك نابوليون للشام بنحو أربعة أشهر ونصف؟

كل مانعلمه هو أن الدولة أعدت جيشا في جزيرة رودس لإرساله لمصر، وعهدت الى احمد باشا الجزار والى عكا بإرسال الجيوش الى الديار المصرية عن طريق الصحراء، ولكن الجزار كان رجلا داهية لايخفى عليه أن تجريد ولايته، التى استقل بها عن الدولة من جيوشه، يعرضه للوقوع في شراك الدولة، فلذلك لم يحفل بفرمانات الدولة وأوامرها كما يؤخذ ذلك من خطاب بعث به يوسف باشا ضياء حين عين لقيادة الجيش الزاحف على مصر، وهذا الخطاب موجود بنصه في الجزء الثانى من (تاريخ الامير حيدر احمد الشهابى) وا كتفى الجزار بارسال أربعة آلاف خليطا من المماليك المصرية والمغاربة والارنؤط الى قلعة العريش لتكون هذه القوة على مقربة منه، حتى اذا رأى من العثمانيين عين الغدر، استدعى تلك القوة اليه ثانية. وكانت هذه السياسة الخرقاء من اسباب ضعف الدولة في ذلك الحين وبعده الى آخر عهد الامبراطورية العثمانية

ولنعد الى نابوليون فنقول إن فرقة الجنرال «رينيه» وصلت الى العريش في ٢٠ فبراير وحصلت بينه وبين القوة المرابطة فيها بعض وقائع حتى اضطرت تلك القوة الى الالتجاء الى القلعة، ولم يكن فيها من المدافع غير ثلاث قطع. فكيف تفعل أمام تلك الحملة المنظمة والمدافع الكثيرة والجنود العديدة؟ وقدم عبدالله اغا[1] من قبل الجزار من جهة غزة بقوة تزيد عن ستة آلاف مقاتل فتلقاها الجنرالان كليبر ورينيه وهجمت عليها الجنود الفرنسية ليلا فبددت شملها قبل أن تتمكن من الوصول الى نجدة العريش. وامتنعت القوة المرابطة في قلعة العريش وأبت التسليم الى النهاية إلا

(١) ذكر الجبرتى وتابعه جورجى زيدان وشارو بيم بك ان القوة التى كانت في العريش لم تزد على ثمانمائة رجل وأن المدد الذى كان آتيا للعريش من جهة الجزار كان تحت قيادة قاسم بك المسكوبى والرواية في العدد خطأ لانزاع فيه. أما اسم قاسم بك فلا أثر له في المصادر المعتبرة وربما نقل عبدالله أغا اسمه عبد الله بك قاسم مثلا

على شريطة أن يسمح لها بالخروج بكامل سلاحها ، ولم يرد نابوليون أن يفقد في هجومه على تلك القلعة نحو خمسمائة جندى من رجاله ، وهو فى أشد الحاجة اليهم بعد أن دام الحصار ثمانية أيام ، ولذلك قبل شروط الحامية فسلمت وخرجت بسلاحها ، بعد أن عاهد رجالها نابوليون وأقسموا بالشرف العسكرى أن لا يرفعوا فى وجهه سلاحا ، مادام يحارب سورية (وعلى رواية اخرى لمدة عام) ولكن هذه القوة بعد أن خرجت قاصدة دمشق تحولت ثانية إلى يافا وانضمت الى المحاربين فكان عملها هذا مسوغا لنابوليون أمام نفسه وضميره لقتل من قتل فى تلك المجزرة البشرية التى بقيت وصمة فى تاريخه على الرغم من الاسباب الوجيهة التى دافع بها عن نفسه وعمله فى مذكراته فى سنت هيلانة

ولما استولى الفرنساويون على العريش أرسلوا إلى القاهرة بخبر انتصارهم فاقيمت الزينات وأطلقت المدافع . قال الجبرتى فى حوادث ٢٥ رمضان « وبعد الظهر عملوا الشنك الموعود به وضربوا عدة مدافع بالقلعة والازبكية وأظهر النصارى الفرح والسرور ، بالاسواق والدور ، وأولموا فى بيوتهم الولائم ، وغيروا الملابس والعمائم ، وتجمعوا للهو والخلاعة ، وزادوا فى القبح والشناعة »

ولما استولى نابوليون على العريش أصدر منشوراً لاهالى سوريا كما فعل فى الاسكندرية لاهالى مصر وقد رأينا من باب المقارنة والفائدة التاريخية أن نأتى على بعض شذرات منه فيما يأتى :

« بسم الله الرحمن الرحيم . . . وبه نستعين

من طرف بونابرته أمير الجيوش الفرنساوية إلى كافة المفتيين والعلماء وكافة أهالى نواحى غزه والرمله ويافا حفظهم الله تعالى ! بعد السلام نعرفكم اننا حررنا لكم هذه السطور نعلمكم اننا حضرنا إلى هذا الطرف بقصد طرد المماليك وعسكر الجزار عنكم . وإلى أي سبب حضور عسكر الجزار وتعديه على بلاد يافا وغزة التى ما كانت من حكمه ، والى أى سبب أرسل عساكره الى قلعة العريش . بذلك هجم على أرض مصر فلا شك كان مراده اجراء الحروب معنا ونحن حضرنا لنحاربه »

ومن هذا يرى القارىء أن نابوليون مع أنه يحارب الدولة العثمانية في بلادها ،

ومع أنها أعلنت الحرب عليه وعلى فرنسا فإنه لا يزال متمسكا بأنه لا يحارب تركيا ولا يقصد التعدى إلا على المماليك واحمد باشا الجزار الذي باداًه العدوان! ثم جاء في هذا المنشور:

« وقصدنا أن القضاة يلازمون وظائفهم وأن دين الاسلام لا يزال معتزاً ومعتبراً والجوامع عامرة بالصلاة وزيارة المؤمنين . . . والذى يتظاهر لنا بالحب يفلح والذي يتظاهر بالغدر يهلك . الخ »

وليلاحظ أن اسلوب هذا المنشور الموجود نصه في الجبرتي يخالف لهجة المنشورات الاخيرة التى طبعت فى القاهرة بعبارة مسجعة فصيحة نوعاما ، ويظهر أن هذا التركيب الركيك من انشاء « فنتور » المستشرق الذى صحب نابوليون فى حملة سورية ومات أمام عكا بالطاعون ، أومن إنشاء بعض كتبة الدواوين الذين أخذهم معه . وكان من الذين سلموافى العريش عدد كبير من المماليك المصريين الذين تبعوا ابراهيم بك، وأولئك اختاروا أن يعودوا لمصر فأرسلهم نابوليون مع بعض جنده إلى مصر وانضم ثلاثمائة من المغاربة الى الجيش الفرنسى فسلحوا ، وانقلبوا من محاربة افرنساويين ، الى محاربة الذين كانوا يحاربون معهم غيرة على الدين والملة ! !

ولما احتل الفرنساويون العريش كلفوا مشايخ الديوان بنشر بلاغ وضعوه ثم وأمضاه السيد البكرى بصفته نقيب الاشراف، والشيخ الشرقاوى بصفته رئيس الديوان، والشيخ المهدى بصفته كاتبه . وعجيب أن الجبرتي لم يكتب نص هذا المنشور أو البلاغ ولكن المعلم نقولا الترك نشره في رسالته ، فرأينا أن نأتى على نصه لعدم وجوده فى الكتب المتداولة ولأنه يشرح كيفية الاستيلاء على العريش . وهذا نصه :[1]

« لا إله إلا الله الحق المبين ، ومحمد رسول الله الصادق الوعد واليقين . نعرف آل مصر وسائر الاقاليم إن توجهت الفرنساوية الى الديار الشامية وحاصروا قلعة العريش من عشرة رمضان الى سبعة عشر منه ووقعت مقاتلة عظيمة خارج القلعة وكان فى القلعة نحو الف وخمسمائة نفر غير من قتل خارجها فلما طال عليهم الحصار

---

(١) نقلا عن طبعة باريس التى ترجها ديجرانج وطبعها سنة ١٨٣٩ بالعنوان الآتى

**Histoire de l'Expédition des Français en Egypte. Par Nakoula El-Turk. Publié et Tradiute Par M. Desgranges Ainé. Secrétaire Interprétre du Roi — 1839**

وتهدمت أسوار القلعة من ضرب الفرنساوية بالمدافع عليها وتيقنوا بالهلاك، وهكذا أصحاب المروآت وهؤلاء اعتقهم وأطلق فى سبيلهم . وبعض الكشاف والمماليك الذين كانوا فى القلعة نحو ستة وثلاثين جنديا طلبوا من حضرة السر عسكر أن ينعم عليهم برجوعهم الى مصر الى عيالهم وبيوتهم فأحسن اليهم وأرسلهم اليناوالى وكيله ودخلوا اليه يوم الاحد فى ٢٦ رمضان معزوزين مكرومين (١) وأرسل السر عسكر أن يؤتى باكرامهم ( لعله يوالى اكرامهم ) ان داموا على عهدهم الذين حلفوا به فى العريش وان خانوا وهانوا فيحصل لهم من يده الانتقام؛ وأمرفى الفرمان أن الجنرال دوكا يأمر التجار بالسفر فى القوافل الى بر الشام لينتفعوا بالمكاسب أصحاب التجارة ويتنفعوا سكان بر الشام ببضائع مصر حسب العادة السابقة ليحصل الامان بحلوله فى تلك

---

(١) هكذا فى الأصل وكنت أتصور ان هذا اللحن فى منشورات العلماء مصدره تحريف الناقل أو الفرنسي الذى باشر طبع رسالة المعلم نقولا ، ولكن وقد رأيت نص عبارة خطية عليها أمضاءة الشيخ الشرقاوى وبها اللحن الفاضح لم أستغرب ذلك : والعبارة المشار اليها وردت فى ورقة نقلت بالفوتوغراف فى كتاب « شرفيس » المعنون « بونابرت والاسلام » وفيها كما يرى الناظر فى الصحيفة المقابلة لهذه العبارة الآتية :

كتامه وقزاره والفيشة ١ وديى وقف عبد الرحمن كتخداى يقبض مالها ليصرف منه الميرى المطلوب للسلطنة والباقى يصرف على الازهر وعلى ثمانية واربعين مسجد وعلى ضعفاء وفقراء واولاد ايتام وعلى جهة المرتبات وعلى نسوان ارامل مقاطيع وليس عليها كشوفية فالمقصود من حضرتكم الافراج عنها لاجل عمار المساجد ومصروف الفقراء ودعاهم لكم فانه يلزم على تعطيل ذلك الخراب وموت الفقراء وانتم لا تحبوا ذلك

من عند

الشيخ عبد الله الشرقاوى وباقى العلماء

ويرى الناظر فى تلك الورقة ان عبارة الشيخ ترجمت الى الفرنسية وعرضت على بونابارت فأشر عليها بعرضها على بوسيلج وفيها امضاءة بونابارت بخط يده وعرضت على بوسيلج « الروزنامجى » وامضى عليها فكتب الشيخ ورقة أخرى يراها القارىء فى الصفحة التالية للاولى وفيها بخطه ما يأتى :

« اعرضناه على الروزنامجى فأمرنا بالتوجه الى ديوان القضاة نصالح على بلاد وقف عبد الرحمن كتخدا فاخبرناه بان صارى عسكر رشيد من حين مادخلتم يأخذ منها كلف وفرد نحو اربعة مرات مقدار الفيض ريال واذا دفعوا الفلاحين مقدار المصالحة زاد القدر ولم يبق من المال الاقدر يسير قليل لا يكفى المساجد والخيرات نرجو من فضلكم تجعلوه من احسانكم للفقراء المستحقين من جملة دفتر الانعام والمستحقين ناس نحو الفين نفس فقراء مقيمين بالمساجد ولو كان لها اصحاب مين كان يدفع المصالحة دام خيركم وعزكم »

والنبي

كتابه وقرار التفتيش وقف عبد الرحمن كتخدا لتفتيش

ما لا يصرف عنه المبري المطلوب للسلطنة ولها في الصرف

على الازهر وعلى ثمانية واربعين مسجد وعلى ضعفا وفقرا

واولاد الايتام وعلى جهة المرستان وعلى نسوان ارامل مقاطيع

وليس عليها كشوفية فالمقصود من حضرتكم الانعام عليها

لاجل عمار المساجد ومصروف الفقراء [illegible] فانه يلزم

على تعطيل ذلك الخراب وموت الفقراء وانما نحبوا ذلك [illegible]

كتبه عبد الله الشيخ عبد الله الشرقاوي رئيس العلما

Le cheikh Abdallah el-Cherqaoui au général en chef.

De Garbié   Dibij [illegible]

Les villages de Netamé, de Fezzara et d'[illegible] situés dans la province de Mansoura et de Garbié, sont des fondations d'Abd-el-Rahman Kiaya.

Ces villages sont tenus à payer le miri seulement et le reste de leurs revenus est appliqué à l'entretien de la grande mosquée, de quarante-quatre petites mosquées, des gens estropiés incapables de gagner leur vie, des enfants orphelins, de l'hôpital dit Maristan, des veuves et femmes infirmes. Ces villages ne doivent point payer les droits des Kiachefs. Je vous supplie de vouloir bien les protéger spécialement et défendre qu'on ne retire d'eux que ce qu'ils ont coutume de payer, puisque leurs revenus sont le bien des pauvres qui souffriraient de leur diminution.

يحرر من ذلك الى حضرة الروزنامجي

Renvoyé au C. Poussielgue

[illegible]

Bonaparte

Renvoyé aux administrateurs de l'enregistrement et des Domaines pour examiner les titres et enregistrer s'il y a lieu. Kaire le 20 frimaire an 7.

L'adm. g. des finances

Poussielgue

اعرضنا ه على الرمهي فامرنا بالتوجه الى ديوان القضاة لنصالح على بلاد
وقف عبد الرحمن كتخدا فاخبرناه بان صار عسكر رشيد من حين دخوله
ياخذ منها كلف وغرد نحو اربع مرات مقدار الفين ريال واذا دفعنا الفلوس
مقدار المصالحة زاد الضرر ولم يبق من المال الا قدر يسير قليل لا يكفي الا خدمة
والخيرات نرجو من فضلكم تجعلوه من احسانكم للفقرا المستحقين من جملة
الانعام والمستحقين ناس نحو الفين نفس فقرا معتمدين بالناحيه
ولو كان لها صاحب معين كان يدفع المصالحة دام خيركم وعزكم

Les Cheikhs se sont présentés au Citoyen Poussielgue qui les a renvoyés au bureau de l'enregistrement pour y payer les droits des fondations d'Abd-el Rahman Kaïa; nous lui avons répondu que depuis l'entrée de l'armée française en Egypte, le [illegible] de Rosette avait fait ses réquisitions à ces villages [illegible] quatre fois différentes pour une somme de 2000 pataques, et que si les villageois sont encore obligés de payer les droits de l'enregistrement, il ne restera qu'une très modique somme pour l'entretien des mosquées et des bonnes œuvres. Nous vous supplions donc de vouloir bien affranchir ces villages du droit d'enregistrement afin que les pauvres qu'on a coutume de soulager des revenus de cette fondation, et qui sont au nombre de deux mille environ, puissent recevoir quelque chose. Nous vous prions aussi d'observer que ces villages n'ayant jamais d'autres propriétaires que les pauvres, ceux qui se présentent pour eux n'ont pas le moyen de faire des avances.

Je prie le Cen Poussielgue de me faire un rapport sur cette nouvelle demande [illegible] Si on accordait [illegible] [illegible] il y a des villages [illegible]

Caire ce [illegible]

Le g[énér]al en chef

Bonaparte

الاراضى ، وكتب حضرة وزيره الجنرال اسكندر برتيه فرمانا يخبرنا ويخبر حضرة الوكيل بالحالة التى وقعت إلي عساكر ابراهيم بك وبعض من عساكر الجزار والمساعدين له وأن الفرنساوية وجدوا فى قلعة العريش مخازن ارز وبقساط وشعير وثلثمائة رأس من الخيل الجياد وحمير كثيرة وجمال غزيرة اكتسبته جميعه الفرنساويه ومع ذلك عندهم الصفح عند قدرتهم عليه، وهذا من صفات أصحاب المروءة من الرجال الابطال، فيا أخواننا لا تعارضوا الملك المتعال ، واتركوا اتفسكم من القيل والقال ، واشتغلوا فى اصلاح دينكم والسعى فى معاش دنياكم وارجعوا إلي الله الذي خلقكم وسواكم والسلام عليكم . اه

وبعد احتلال العريش تقدمت القوة الفرنساوية نحو خان يونس ثم الي غزة ودارت فى الجهة الواقعة بين هاتين البلدتين موقعة كبيرة بين الفرنساويين والجنود التى يقودها عبد الله باشا انكسر فيها هذا الاخير وانسحب بمن بقى معه من القوة الي يافا وسلمت غزة وتقدم الجيش الفرنساوى فى سيره فاحتل الرملة وسار منها قاصداً يافا، وهو أول ميناء بحرى فى الديار السورية من جهة القطر المصرى . وكان نابوليون قد أصدر امره للكابتين «بريه» بأن يحمل فى بعض سفن بقيت للفرنساويين، المدافع الكبيرة والآلات المديدة التى كان يريد استعمالها فى حصار عكا ، ولذلك أسرع في الاستيلاء على يافا ليتلقى تلك الآلات ويسير بها الى مكانها غير حاسب للاسطول الانكليزى الذى يقوده السر سدنى سميث حسابا

وكانت يافا محصنة تحصيناً حسناً وفيها قوة كبيرة من عساكر الجزار والمماليك وجميع من بقى من القوة التى يقودها عبد الله باشا، وفيها عدد كبير من المدافع وتقدر القوة التى كانت فى يافا بنحو اثنى عشر ألفاً . ولم تكن القوة الفرنسية كلها أكثر من ذلك . وقد حاول نابوليون أن يؤثر على تلك القوة ويحملها على التسليم فبعث بضابط ودليل من عنده يحمل راية السلام بقصد المفاوضة فكان جوابها على ذلك ، قتل الضابط ومن معه ووضعت رأساهما على المزاريق فوق الاسوار وطرحت جثتاهما وراءها ، فاغتاظ الفرنساويون وسلطوا على المدينة المدافع الكبيرة وهجموا

على الاسوار حتى سقطت المدينة واستباح الجند الفرنساوى حماها يقتل وينهب ويسلب ويهتك الاعراض ويفعل ما يشاء

وقد نشر الجبرتى صورة الخطاب الذى بعث به نابوليون لحاكم يافا وصورة البلاغ الذى نشر فى مصر بالاستيلاء عليها وكان السيد عمر مكرم نقيب الاشراف الذى فرّ مع ابراهيم بك، وكان له شان عظيم فى تاريخ مصر فى أيام محمد على باشا، ممن حوصروا فى يافا فبعد سقوطها ذهب ومن معه من المصريين إلى نابوليون فأكرمهم وأرسلهم إلى مصر فى السفن إلى دمياط

وقد وردت الفقرة الآتيـة فى البلاغ الذى نشر في مصر على لسان المشايخ نأتى عليها لاهميتها فى البحث التالى قال : « وفى يوم الجمعة غرة شوال وقع الصفح الجميل من حضرة سارى عسكر الكبير، ورق قلبه على أهل مصر من غني وفقير الذين كانوا فى يافا وأعطاهم الامان ورجعوا الى بلادهم مكرمين . وكذلك أمر أهل دمشق وحلب برجوعهم الى أوطانهم سالمين، لأجل أن يعرفوا مقـدار شفقته، ومزيد رأفته ورحمته، يعفو عند المقدرة، ويصفح وقت المعذرة، مع تمـكينه ومزيد اتقانه وتحصينه . وفى هذا الوقت قتل أكثر من أربعة آلاف من عسكر الجزار بالسيف والبندق لما وقع منهم من الانحراف . . . الخ » وعلق الجبرتى رحمه الله على هذا المنشور الطويل بقوله « فلما تحقق الناس هذا الخبر تعجبوا وكانوا يظنون استحالة ذلك خصوصا فى المدة القليلة . ولكن المقضى كائن »

ولم يعلم الجبرتى، ولم يفهم الشيخ المهدى الذى حرَّر ذلك البلاغ المسجع، الغرض من العبارة التى روى فيها المنشور قتل أكثر من اربعة آلاف من عسكر الجزار بالسيف وبالبندق، وإلا لو علم الـكاتب أو الناقل كيف كان ذلك أو على أية حالة، ولاى سبب قتلوا ، لارتجف القلم فى يد الاول والاستعاذ بالله، ولما تركها الثانى تمرُّ دون أن يعلق عليها بكلمة استهجان واستنكار ! ويسأل كيف يتفق ذلك العمل الوحشيُّ مع وصفه نابوليون ومقدار شفقته ومزيد رأفته ورحمته !!

— ٥ —

ونحن وان كنا وعدنا أن لا نطيل الكلام فى أخبار الحملة السورية لاعتبارها صفحة من تاريخ قطر غير قطرنا ، الا أنه لا يمكن المرور بها دون الوقوف أمام ذلك الحادث العظيم التى امتلأت به صفحات الكتب الاوروبية، وكان موضوع مناقشة ومناظرة واضطر نابوليون أن يبرر عمله فيه فى الايام الاخيرة من حياته

وحكاية هذه المسألة أن نابليون لما فتح يافا أباح لجنده تلك المدينة مدة يومين كاملين يفعلون بها وبأهلها ما يشاؤون ، وما أدرى لماذا فعل ذلك نابوليون ، وهو يريد استجلاب الخواطر واكتساب ميول أهل الشام من مسلمين ونصارى؟ ولعله قد غاظه ما فعل حاكمها برسوله ، أو لعله خسر فى الواقعة بعضا من جند جيشه ، وهو حريص عليه لقلة عدده ، أو لعله أراد أن يعوض على الجنود ما قاسوه من المشقة فى قطع فيافى الصحراء والاحتراق بشواظها ، لكيلا يدب دبيب التذمر والشكوى من جرّاء ما يلاقونه من النصب والعناء . ولقد فعل جنده فى تلك البلدة البائسة من الشرور والفضائح ما تقشعر له الأبدان حتى أن نابوليون نفسه كتب فى تقريره الذى بعث به لحكومة الديركتوار: «إنه لم تتصور له فظائع الحرب مثلما ظهرت له فى يافا» ! وقد كتب الشيخ الدحداح، فيما عربه عن تاريخ فرنسا ، وهو من المحبين للفرنساويين المادحين لهم فقال « فان شدة الحر وعناد المحصورين أضرّا بالفرنسيين وحملاهما أثقالا شديدة، ولذلك لما دخلوا المدينة حدث فيها ما تقشعر الابدان من ذكره ، فان القتال الذى جرى فى أسواق يافا كان قتالا لا يسوغ أن نسميه بشريا فان الشياطين لا تقدر أن تقوم بشرّ أعظم منه »

فلما رأي نابوليون الشرور التى تجرى فى البلدة وخزه ضميره وأرسل ضابطين من ضباطه لمنع الجنود عما يفعلون فوجدوا أن طائفة كبيرة من جند الجزار ومن غيرهم قد تحصنوا فى بعض المنازل والخانات وصاروا يدافعون عن انفسهم دفاع المستميت فطلب اليهم أولئك الضباط الفرنسيون أن يسلموا فأبوا الا أن يؤمنوا على حياتهم ، فأمنوهم فسلموا اسلاحهم وقبض عليهم كأسرى . وهنا اختلفت الروايات

فى عدد أولئك الاسرى ، فى رواية انهم كانوا أربعة آلاف، وفى رواية أخرى انهم كانوا ألفين فقط ، والرواية الاولى أقرب الى الصحيح بدليل ذكر هذا العدد فى بلاغ نابوليون للمصريين[1]

والى القارىء حكاية ماجرى نقلا عن مذكرات بوريين : قال :

« كنت أتمشى مع الجنرال بونابرته امام خيمته وإذ به قد أبصر ذلك الجمع المحتشد من الاسرى يسوقه الجند قبل أن يقع نظره على الضابطين اللذين بعث بهما من أركان حربه التفت اليّ بصوت يتهدج من الحزن قائلا : « ماذا يريدون منى أن أفعل بهؤلاء الرجال ؟ هل عندى من الزاد مايكفيهم ؟ ألدىّ من السفن مايلزم لنقلهم الى مصر أو الى فرنسا ؟ لماذا أوقعونى فى هذا المشكل » وبعد أن أصاخ بونابرته سمعا لما قاله الضابطان وهما بوهارنيه وكروازيه وبخهما توبيخاً شديداً على سلوكهما، ولكن لاينفع اللوم إذا لواقع أنه أصبح أمامنا أربعة آلاف أسير ويجب البت فى امرهم . ودافع الضابطان عن نفسهما بأنه أمرهما أن يوقفا تيار القتال، فكان جواب بونابرت « انما أردت أن تمنعوا التعدى على النسوة والاطفال والعجزة والمستسلمين من الاهالى ، ولكن لم أرد بذلك الجنود المسلحة فلقد كان الاولى بكما أن تقتلاهم بدلا من أن تأتيانى بهذا القدر من الاسرى المنكودى الحظ ! فماذا تريدون أن أصنع بهم ؟ »

قال كتاب الفرنساويين انه عقد مجلس حربىّ للبت فى أمر أولئك الاسرى وانقض على انه لم يقرر رأيا حاسماً ، وانعقد مجلس آخر ولم يوفق لقرار ، وطال الجدال والاخذ والرد، وانتهى الامر بأن تقرر إعدامهم جميعاً رمياً بالرصاص وهم عزل من السلاح !!

ووصف « ميو » فى تنفيذ ذلك القرار فى أولئك البؤساء، مما تقشعر له الابدان

---

(١) قدر الكولونيل روبرت ويلسون، من ضباط الحملة الانجليزية التى قدمت لمصر لاخراج الفرنسيين فى آخر مدتهم، عدد أولئك الاسرى بثلاثة آلاف وثمانمائة و«ميو» وهو شاهد عيان يقول ان هذا العدد مبالغ فيه نوعا ما واما بوريين وهو شاهد عيان ايضا فيؤكد انهم كانوا اربعة آلاف

ويفتت الاكباد ، ويندى له جبين الانسانية خجلا ، ويبقى ذكره فى التاريخ وصمة عار للذين قاموا بذلك الجرم الفظيع والعمل الوحشى . حقاً إن دفاع نابليون عن نفسه فى سانت هيلانه وجيه ومنطقى ، وربما كان فيه شىء من العذر اذا لوحظ مركز الفرنساويين فى ذلك الظرف ، واذا لوحظ أيضا أن بعض أولئك الاسرى كانوا من الذين اقسموا بشرفهم العسكرى أن لايحاربوا الفرنساويين مدة عام بعد أن سمح لهم بونابارت بالخروج سالمين بسلاحهم من قلعة العريش ، وسيَّرهم الى داخلية البلاد ، وانه اذا أخلى سبيلهم — لانه لم يكن فى استطاعته أن يبعث بهم الى مصر ، ولا إلى غيرها ، ولا أن يعطيهم الغذاء اللازم لهم — فانهم لا يعودون لقتال جيشه وتقوية عدوه . وفى دفاع نابوليون أو تبريره لذلك العمل قوله : « وانى مستعد أن أعيد ذلك العمل اذا وجدت فى نفس الظروف التى كنت فيها ، وكذلك كان يفعل الدوق ولنجتون الانكليزى وغيره من القواد الذين يوجدون فى مثل ماوجدت فيه من الظروف » . ولكن على الرغم من كل دفاع وظروف حربية اضطرارية ، فان ذلك العمل انما ينظر اليه ، ويحكم عليه ، من الوجهة الانسانية ، وحكمها فى ذلك واحد لا يتغير ، وهو ان قتل الاسرى العزل من السلاح الذين أمنوا على حياتهم ، على لسان ضباط من الجيش ، جريمة لاتغتفر وعار لايمحى ! وغريب دفاع بعض الكتاب الفرنساويين الذين كانوا مع الحملة مثل فيجو روسويون Vigo - Rousillon فى دعواه « إننا لما كنا فى الشرق اتبعنا عادات الشرقيين » ! فلو سلمنا جدلا أن الشرقيين كانوا يفعلون بالاسرى مثل ذلك الفعل ، فأين الفرق ، على دعواكم ، بين المدنية والهمجية ، يا أبناء الثورة الفرنسية ، ورافعى راية الاخاء والمساواة والحرية ؟

إن يكن العدل الالهى قد قضى ، ولا راد لقضائه ، أن يسلط الفرنساويين على أولئك الجند من رجال الجزار الظالم وغيرهم من الارنؤوط والمماليك الظالمين ، لما ارتكبوه من الشرور وهتك الاعراض ، وقتل البريئين من عباد الله ، سواء في سورية أو فى مصر ، فان ذلك العدل الالهى قد قضى أيضاً أن يتفشى الطاعون فى يافا ويفتك بالجنود الفرنساويين فتكا ذريعاً حتى مات بسببه ، فى أيام قلائل ، مئات

من الجنود ، وكاد يفضي الامر الى انتقاض الجيش وثورته على ضباطه ؛ وحتي امتنع الاطباء عن العناية بالمرضى خوفا من العدوى ، ولولا جرأة نابوليون ( أو اعتقاده في طالع سعده ) على الدنو من المطعونين ومحادثتهم، مما شجع قلوب الجند والضباط والاطباء ، لقضى على تلك القوة الفرنسية فى يافا وضواحيها قضاء مبرماً .

— ٦ —

بقيت الصفحة الاخيرة من تاريخ الحملة الفرنسية فى سورية وهي حصار عكا وفشل نابوليون بونابرت وعوده من آسيا بخفى حنين !

تفصيل الحصار وما أظهر الطرفان من آيات البسالة والاقدام ليس من موضوع كتابنا كما سبق لنا ذكر ذلك، ولكن أموراً كثيرة لها علاقة بتاريخ مصر، وتاريخ النزاع بين فرنسا وانكلترا على وادى النيل، بدأت فى حصار عكا وكان لها شأن يذكر فى حوادث القرن التاسع عشر الميلادى ، وهناك رجال كانت لهم اليد الطولى فى التأثير على مركز الفرنساويين فى مصر، بل وجلائهم عنها، لانجد بداً من النظر في أمرهم ، والحديث بشأنهم ، فنقول :

كان من أغراض نابوليون فى حملته على الشام كما ذكر ذلك هو في تقريره لحكومة الدركتوار، بتاريخ ١٠ فبراير سنة ١٧٩٩، «منع تموين الاسطول الانكليزى من الموانى السورية » فكان من مقتضى ذلك أن تبذل انكلترا غاية جهدها فى وقف تيار التقدم الفرنساوى فى سورية، وكان ذلك من دواعى اتحادها مع الدولة العثمانية ولذلك كلف السرسدنى سميث قائد الاسطول الانكليزي في الشرق أن يذهب الي عكا ليساعد في الدفاع عنها ، وليبذل كل الوسائل للقضاء على نابوليون وحملته . وكان للسرسدنى سميث هذا الفضل الاول في فشل الحملة الفرنسية فى الشرق باعتراف نابوليون نفسه

وجدت فى كتاب تاريخ الامير حيدر الشهابى صورة فرمان بعث به سلطان تركيا الي أهالى طرابلس الشام وفيه ذكر للاتفاق مع الدولة البريطانية وللمهمة التى عهدت الي السرسدنى سميث هذا، والفرمان مكتوب بعبارة عربية مسجعة، وغريب

في بابه، حتى لم أجد بداً من الإتيان على نصه، مثلاً للمكاتبات الرسمية في ذلك الزمن. وها هو نصه :

«أقضى قضاة المسلمين نائب افندى بطرابلس الشام وأعيانها عموماً زيد قدرهم

فليكن معلوماً كما لا يخفى أن الفرنساويين الأوغاد، قد هجموا على أخذ مصر القاهرة وما يليها من البلاد. والآن قد اختلسوا يافا وغزة والرملة وملحقاتها. وعلى زعمهم الفاسد يريدون تدمير أمة الاسلام، وهدم كعبتها وجوامعها فاقتضت صداقة المحب الصادق، والخل الموافق، أجل الأحباب، وكريم الانساب، سعادة أخينا المحترم سلطان الانكليز المفخم، المتحد معنا بإخلاص الطوية، على تدمير الأمة الفرنساوية. إنه لغزير مكارمه، ووافر مراحمه، سيّر مع عمارتنا الهمايونية، عمارة انكليزية، وأقام عليها سارى عسكر افتخار الأمراء الكرام في الطائفة المسيحية، وعظيم الكبراء الفخام في الملة العيسوية، جناب محبنا المحترم السير بلمام[1] سدنى سميث الأكرم فوجهناه من لدنا بالتفويض الخاقانى، والتوقيع السلطانى، مشيراً مطلقاً في تلك الديار، كما يراه بعين الاعتبار، فعليكم أن تحبوه، ومهما مرّ عليكم من مراكبه وحاشيته، فقدموا لهم الاكرام، وحفظ الحرية والمقام، وليعلم الخاص والعام، حسن صداقته مع الاسلام، والاعانة لنا على الدوام. اعلموا ذلك واعتمدوه غاية الاعتماد والسلام» اهـ بحروفه

* * *

بعد أن احتل الجيش الفرنساوى ثغر حيفا استمر في طريقه حتى وصل عكا في ١٩ مارس سنة ١٧٩٩ وكان الجزار قد تحصن فيها وقد دام الحصار الفرنساوى حولها ستين يوما كاملة عجزت فيها الفنون العسكرية، والحيل الحربية، والتدبيرات الهندسية، والشجاعة الفردية والعمومية، عن تدويخ ذلك الحصن وإسقاطه حتى ضرب بذلك الحصار المثل في الشرق والغرب، ولا زال المصريون لهذه الساعة يقولون لمن يباهي بنفسه : « هل فتحت عكا » ؟

والسبب في فشل نابوليون وقواده وجيشه الباسل راجع الى البسالة التي حاربت

---

(١) اسمه الصحيح ويليام لا بلمام وربما كانت في الاصل التركى فليام

بها جنود الجزار، وإلى أن الدولة العثمانية بإرشاد انكلترا وتحريضاتها، لم تتأخر عن إمداد حامية عكا بالقوات الكافية في الوقت المناسب، وفوق كل هذا إن قيادة وادارة الدفاع عن المدينة كانت في أيد أوربية لا تقل كفاءة وخبرة وعلما عن مثل ما يوجد من هذه الصفات في القوة المحاصرة، بل لقد كان تهور نابوليون، وثقته بنفسه، واعتقاده في طالع سعده، من الأسباب المهمة لفشله في اخضاع ذلك الحصن المنيع. فقد روى الكتاب الفرنساويون الذين لم تبهرهم أقوال نابوليون أن «كليبر» انتقد خطة الهجوم واسلوب الحصار حتى لقد رووا عنه أنه قال «اننا هاجمنا عكا على الطريقة التركية، بينما كان الدفاع عنها على الطريقة الفرنساويه»، والمراد بهذا ان خطة الهجوم كانت عن جهل وطيش، في حين أن الدفاع عن الحصن كان مرتبا منظما على القواعد العلمية

فمن أين كان للجزار وجنوده ذلك النظام العلمي الذي صد نابوليون وأذاقه طعم أول فشل في حياته العسكرية؟ الجواب على هذا يقتضي التصريح بان الدفاع عن عكا كان في يد الانجليز تحت إرشاد السر سدني سميث، ذلك الرجل الذي قضى على نابوليون وأحلامه في الشرق. إذ لو تيسر لنابوليون فتح عكا، لما وقف في تيار فتوحاته في آسيا عائق، ولأدى به الحال الى الاضرار الصحيح بمركز الدولة العلية، فقد كانت ولايات الشام والعراق والاناضول تابعة لها بالاسم وكثيرون من أمراء سوريا كانوا ينتظرون سقوط عكا لينضموا الى نابوليون كما اعترف بذلك فيما بعد الامير بشير الشهابي كبير أمراء جبل لبنان (١)

ومن غريب الحوادث في تصاريف الارادة الالهية أن السر سدني سميث هذا كان مسجونا في باريس في الوقت الذي برح فيه نابوليون بحملته فرنسا قاصداً مصر. قال بوريين في مذكراته: «برحت باريس برفقة نابوليون في ٣ مايو سنة ١٧٩٨ (قاصدين طولون للسفر الى مصر) وقبل هذا الموعد بعشرة أيام فقط فرّ أحد المسجونين في سجن التامبل Temple وكان ذلك الرجل هو السر سدني سميث

---

(١) راجع رحلة الشاعر لامرتين في الشرق سنة ١٨٣٣
Voyage en Orient par Lamartine.

الذي قدر أن تكون له اليد الطولى فى إحباط مشروع تلك الحملة ، وكان فراره بواسطة أمر مزور باسم مدير البوليس — ورقة مزورة منعت الانقلاب في الشرق!! »

وكان السرسدنى سميث هذا رجلاً غريبَ الاطوار ، جمع بين البسالة والاقدام والجرأة والصراحة والتهور والغرور والطيش ! ولما كان الانكليز محتلين طولون فى سنة ١٧٩٣ أحرق الاسطول الفرنساوى ، وصادف فى سنة ١٧٩٦ وقوعه فى يد الفرنساويين فحبسوه في ذلك السجن ، وبقى سجيناً فيه نحو سنتين حتى ساقت له المقادير رجلا فرنساويا اسمه فيليبو Philippeaux ساعده على الفرار بواسطة ذلك الجواز المزور . وكان فيليبو هذا مهندسا حربيا من كبار المهندسين الذين نقموا على الثورة الفرنساوية وهجر بلاده ثم عاد اليها فى الوقت الذى ساعد فيها السرسدنى سميث على الفرار فتوطدت بين الرجلين صداقة جمعت بينهما فى الخير والشر حتى انه جاء معه الى عكا وكان له الفضل الاول في تدبير الدفاع عن المدينة واحباط كل الخطط الحربية والهندسية التى كان يديرها نابوليون وكفريللى ، ولم يكن فيليبو أقل من كفريللى خصمه كفاءة . ومن غريب المقادير أن الاثنين ماتا فى ذلك الحصار ، الاول خارج الاسوار ، والثانى داخلها ! ولم يكن فيليبو غريباً عن نابوليون ايضاً ، فقد كان قرينه فى المدرسة الحربية فى باريس وتلقى الاثنـان دروسهما الرياضية على « مونج » أحد علماء البعثة العلمية في مصر ، وأمضيا الامتحان معا تحت رياسة لابلاس Laplace واندمج فى نفس السنة التى اندمج فيها نابوليون فى الطوبجية . والآن جمعت الظروف الغريبة ، حول أسوار عكا داخلا وخارجا ، جميع اولئك الرجال !!

وكان السرسدنى سميث نوادر ومشاغبات مع نابوليون تظهر منها أخلاق الرجلين اللذين وقف الشرق بينهما حائراً فى تلك الايام العصيبة ، فمن ذلك أن السرسدنى سميث علم أن أمراء جبل لبنان المسيحيين يظهرون الميل للفرنساويين ، على فكرة أنهم مسيحيون مثلهم ، وانهم سيخلصونهم من مظالم الجزار وولاة الدولة العثمانية . وكان نابوليون فى سوريا أمام المسيحيين يظهر السيحية ، كما كان شأنه مع المسلمين فى مصر ، فقد روى المؤرخون الثقات أن نابوليون بعد معركة « طابور » التى قهر فيها بأقل من ستة

آلاف جندى ، جيشاً مؤلفاً من ثلاثين ألفاً من المماليك والانكشارية والترك ، سار الى الناصرة ونزل فى دير الرهبان الفرنسيسكان وطلب من رئيس الدير أن يقيم الصلاة بصفة رسمية شكراً لله على ذلك الانتصار العظيم ودخل نابوليون الكنيسة وجثا على ركبتيه وقت الصلاة

فلما علم السرسدنى سميث بمساعدة المسيحيين للفرنساويين واغترارهم بهم بعث لهم بمجموعة من منشورات نابوليون التى وزعها على المصريين وخصوصا منشوره الاول الذى يقول فيه إنه هدم أركان الدين المسيحى وثل عرش البابوية، فاندهش السوريون المسيحيون، وامتنع اللبنانيون عن توريد الخمر والبارود وعن تقديم المساعدات للفرنساويين .

ولم يكتف السرسدنى سميث بذلك بل كتب أوراقاً باللغة الفرنساوية ونثرها بين جنود نابوليون . وقد نشر «ميو» فى مذكراته نص تلك المنشورات التى يقول لهم فيها إنه قد سدت عليهم السبل ، ولم تبق لديهم سفينة تعيدهم الى بلادهم وإن من أراد منهم أن يعود الى وطنه فانه مستعد لنقله فى السفن الانكليزية وإن حكومة فرنسا نفتهم الى هذه الديار النائية لتقضى عليهم وعلى قوادهم ، الى غير ذلك من الاقوال التى يقصد بها التحريض على شق عصا الطاعة . فلما وقعت تلك الاوراق في يد نابوليون حنق على السرسدنى سميث ونشر منشوراً على الجند قال فيه « لاشك أن الكومودور الانكليزى قد أصيب بداء الجنون » فعد السرسدنى هذا القول طعناً فى شخصه وكتب الى نابوليون يطلبه الى المبارزة !

فأجابه نابوليون جواب استهزاء واستصغار !

وللسرسدنى سميث حكايات غريبة عن بسالته وإخلاصه وجرأته فى حوادث هذه الحرب وهو الذى يقال إنه انقذ ( محمد على ) من الغرق بعد واقعة ابى قير البرية، كما سنذكر ذلك فى مكانه ، وله رسائل موجودة باللغة العربية فى تاريخ الامير حيدر الشهابى مع الأمير بشير الشهابى يظهر منها أن احمد باشا الجزار لم يقم للسرسدنى بحق الولاء مع أنه لولاه لقضى نابوليون على سلطة الجزار فى عكا وسورية ، كما قضى على سلطة

أخوانه وأسياده مراد وابراهيم فى مصر . ولاغرابة فان من أظهر أخلاق المماليك عدم الوفاء وقلة الاخلاص

ولنعد الى حصار عكا وحوادثه الغريبة فنقول إنه اذا ضم الى علم «فيليبو» وحسن إدارته فى الدفاع ، أن الانكليز بعثوا بجنود وضباط كثيرين لتحصين المدينة، كما يظهر ذلك من أسماء الضباط الانكليز الذين قتلوا فى ذلك الحصار ، واذا ضم الى ذلك أيضاً أن المدافع التى بعث بها نابوليون من مصر فى السفن وقعت فى أيدي الانكليز ، واستعملت فى الدفاع عن عكا، وأن نابوليون ارتكب غلطات كثيرة بشهادة الفرنساويين، وأن الدولة العثمانية في آخر وقت بعثت بالإمدادات الكثيرة ، وأن الطاعون كان يفتك بالجيش الفرنساوي فتكا ذريعا ، وان الذخائر اللازمــة لموالاة الحصار قد نفدت إلا قليلا — اذا ضم كل هذا الى بعضه عرفنا كيف فشل نابوليون أمام حصن صغير كحصن عكا، فتحه بعد ثلاثة وثلاثين سنة ، ابراهيم باشا بجيش من الفلاحين المصريين !

— ٧ —

وعلى الرغم من الانتصار الباهر الذى ناله الفرنساويون على جيش الدولة عند جبل طابور وعلى الرغم من تعضيدات بعض أمراء سوريا وبعض المسيحين والدروز لنابوليون وجيشه، فقد رأى نابوليون، للاسباب التى ذكرناها فى الفقرة السابقة، ضرورة الانسحاب من حصار عكا والعودة الى مصر. ولم يذكر التاريخ انسحابا مقرونا بالفشل والخسائر والمشاق، مثل انسحاب نابوليون من موسكو فى الروسيا فى عام ١٨١٢، ولا يزال يضرب به المثل فى عظم الفشل الحربي. وكانت عودة نابوليون من سورية صورة مصغرة لذلك الانسحاب من الروسيا .. ناب فى هذا العطش والقيظ والشمس المحرقة فى الصحراء الفاصلة بين آسيا وافريقا ، مناب الثلج والبرد القارس والزمهرير فى روسيا ! وناب الطاعون في فتكه بالجند الفرنساوى، مناب القوزاق فى مطاردتهم للمنقطعين من ذلك الجيش الذى دوخ أوروبا في عدة وقائع فاخرة باهرة !

وكان نابوليون مع شديد عزمه، وبلغ صبره وجلده، أسفاً كثيباً يحرّق الأرم على الانكليز الذين قضوا على آماله، وسدوا الطريق على أحلامه، وقطعوا بينه وبين الوصول الى بلاده، وكان الجيش لتغيظه وانحطاط قواه المعنوية كلما وصل الى بلدة أو قرية من قرى الشام يمعن فيها قتلاً ونهباً وسلباً، ثم يشعل فيها النار خوفاً من انقضاض القوم على الجند بدعوى أن ذلك خير وسيلة حربية مشروعة لتعطيل العدوّ عن تعقبه ومطاردته..!

وروى المؤرخون من فرنساويين وانكليز أن نابوليون وجد في يافا عدداً كبيراً من جنوده المصابين بالطاعون وأمراض أخرى فتحير في امرهم ولم يرد أن يتركهم فريسة في يد اعدائهم، اعتقاداً منه بان جنود الجزار لا يبقون عليهم ولا يرحمون ضعفهم ومرضهم، ولا غرابة أن يعتقد نابوليون ذلك الاعتقاد إذ أنه هو لم يرحم الأسرى العزل من السلاح، ولم تسلم النسوة ولا الشيوخ ولا الاطفال من اعتداء جنوده، وكذلك لم تكن لديه وسائل لنقل اولئك المرضى الى مصر فاقترح نابوليون على الاطباء أن يجرعوهم السم ليموتوا موتة هينة بدلاً من تعريضهم، على ظنه، لقساوة أعدائهم والتمثيل بهم! فكان جواب الاطباء: «إن صناعتنا تقضي علينا أن نبرئ لا أن نميت»!

وهناك اختلاف كبير في هذه الرواية فكثير من الكتاب يؤكدها، وكثير منهم ينفيها وينكرها، ونابوليون نفسه في سانت هيلانه ينكر أشد الانكار أنه أصدر أمره بتسميم المرضى، ولكنه من جهة أخرى يقول إنه لو وجد نفسه في مثل ذلك الحال، أي لو كان كواحد من اولئك المرضى، لفضل أن يتجرع السم ليموت موتة هادئة سريعة، وانه لو أصدر أمره للتعجيل على حياة المرضى الذين قضي عليهم بالموت، لما وبخه ضميره ولكان في عمله محقاً

والظاهر من اختلاف الروايات ومن أقوال بعض قواد نابوليون، ومن دفاعه هو عن نفسه في مذكرات سانت هيلانه، أن نابوليون اقترح على الاطباء تجريع المرضى نوعاً من السم أو الافيون، وانه لما رأى شدة معارضتهم له، ترك مع المرضى

بعض الجند لحراستهم ، وتقل من أمل فيه الشفاء معه . بدليل أنه ورد فى أخبار الانسحاب أن نابوليون كان يمشى على قدميه فى الصحراء واقتدى به الضباط والخيالة تاركين للمرضى الخيول والدواب .

والخلاصة أن حملة الشام قد فشلت فشلا ذريعا ولم يعد من القوة التي سار بها نابوليون ، وهى كما ذكرنا ثلاثة عشر الفاً ، غير سبعة آلاف على تقدير الكتاب الانكليز قد انحلت عزائمهم ، وانحطت قواهم . ولكن بعض الكتاب الفرنساويين يؤكدون أن الجيش الفرنساوى عاد من سورية وكان عدده فى الصالحية ١١ر١٣٣ فيكون النقص ألفين فقط، قتل منهم خمسماية فى ساحات القتال ومات فى المستشفيات ٧٠٠ وترك فى معسكرات العريش وقطيه نحو ستماية ونحو مايتين تقدموا الجيش الى مصر ، فتكون الخسارة الحقيقية للجيش لا تزيد عن الف ومائتين الى الف وخمسمائة على تقدير أولئك الكتاب ،وفرق كبير بين هذا العدد وسبعة آلاف كما يقول الانكليز . وفى رأى « بيريه » أن الحملة الفرنسية في سورية فقدت ثلث رجالها أى نحو أربعة آلاف بين قتيل وجريح ومطعون وربما كان هذا التقدير أقرب الى الصواب ، وهذا يوافق ما قاله المعلم نقولا الترك فى رسالته إذ ذكر أن الفرنساويين « خسروا ثلاثة آلاف وخمسماية « صلدات » على أسوار عكا ومات بالطاعون نحو الف وزيادة » أى أن الخسارة كانت حوالي اربعة آلاف وكسور .

وكيفما كانت الخسارة فنابوليون مع هـذا لم يرد أن يفهم جيشه انه عاد من سورية بالخيبة والفشل، ولذلك نشر بينهم منشوراً طويلا قال فيه : أيها الجنود. إنكم قد قطعتم القفار الواقعة بين آسيا وأفريقيا بسرعة تحاكي سرعة مسير جيش من العرب على خيولهم و بددتم الجيش الذى كان ذاهباً ليهاجم مصر ، والزمتم الجيش الثانى الذى كان يقصد به الاغارة على وادى النيل ، أن يأتى الى عكا لامدادها ، وقد فتحتم العريش وغزة ويافا ، وهدمتم قلعة عكا : فالآن سنذهب الى مصر لان العدو مصمم على مهاجمتها .. الى غير ذلك من الاقوال التى قصد بها طبعاً تقوية عزائم الجند على اجتياز تلك الصحارى المحرقة مرة ثانية

وكذلك لم يرد نابوليون أن يدرك المصريون أنه قد باء بالخيبة والخسران فى حملته السورية ، فبعث قبل مقدمه الى مصر بمنشور للديوان الخصوصى قال فيه :

« الى محفل ديوان مصر . نخبركم عن سفرى من بر الشام الى مصر فانى بغاية العجلة بحضورى لطرفكم نسافر بعد ثلاثة أيام تمضى من تاريخه ونصل عندكم بعد خمسة عشر يوما وجايب معى جملة محابيس بكثرة ومحقت سراية الجزار وسور عكا، وبالقنبر هدمت البلد، ما ابقيت فيها حجراً على حجر ، وجميع سكانها انهزموا من البلد الى طريق البحر والجزار مجروح ودخل بجماعته داخل برج من ناحية البحر وجرحه يبلغ لخطر الموت . ومن جملة ثلاثين مركبا موسوقة عساكر الذين حضروا يساعدون الجزار ثلاثة غرقت من كثرة مدافع مراكبنا . . » اه بحروفه

ومما تجب ملاحظته على هذا الكذب والتضليل انه لاتوجد صورة لهذا المنشور بأية لغة أوروبية وليس له أصل فرنسى لأنه — مع هذا التضليل — أعقل من أن ينشر هذه السخافات في لغة أوروبية يحاسب عليها من قوم يفهمون و يعلمون !

وختم خطابه هذا بالعبارة الآتية ( نقلا عن الجبرتى ) « وانى مشتاق الى مشاهدتكم لأنكم عملتم غاية جهدكم من كل قلبكم لكن جملة « فلاتية » ( كذا ) دائرون بالفتنة لأجل ما يحركون الشر فى وقت دخولي . كل هذا يزول مثل ما يزول الغيم عند شروق الشمس وفنتورة [1] مات من التشويش وهذا الرجل صعب علينا جداً والسلام »

ولكن على الرغم من هذا الخطاب، وعلى الرغم من الاحتفال الفخيم العظيم الذى أعده الفرنساويون ، ونظمه نابوليون على طريقة التهويل والارهاب ، فان المصريين لم يخف عليهم أن نابوليون وجيشه قد فشلا فى الشام وعادا منها بخفى حنين . وهذا الشيخ الجبرتى يقول «وأقاموا على حصار عكا أربعة وستين يوما حربا مستقيماً ليلا ونهاراً وأبلى احمد باشا الجزار وعسكره بلاء حسناً شهد له الخصم »وكتب الشعراء فى سوريا ومصر قصائد الابتهاج بخلاص عكا وفشل الجند الفرنساوى فى تدويخها .

---

(١) فنتور المستشرق سبق لنا ذكره فى هامش صحيفة ١٥١ ونزيد على ما كتبناه هناك أن الجبرتى ذكره فقال « وفنتورة هذا كان ترجمان سارى عسكر وكان لبيباً متبحراً ويعرف اللغات العربية والتركية والطليانى والرومى والفرنساوى »

# العودة لمصر

## من سورية

فى اليوم الثانى من شهر يونيه سنة ١٧٩٩ وصل الجيش الفرنساوى الى العريش واتخذت الاحتياطات الكافية لتحصين تلك البقعة وفي يوم ٤ يونيه عسكر الجيش فى قطية ، وفى يوم ٧ وصل الجيش الى بلدة الصالحية وهي أول حدود مصر من جهة الصحراء الشرقية ، وهناك استراح الجيش ، وأصدر نابوليون أمره للجنرال كليبر بالسفر مع فرقته الى دمياط للاقامة بها ، وكان غرض نابوليون من ذلك ابعاد كليبر عن القاهرة ، ليتيسر له الاستعداد للسفر الى فرنسا ، قبل أن يعلم به كليبر وذلك لاسباب كثيرة سنأتى عليها في مكانها .

قال الجبرتى فى حوادث شهر محرم سنة ١٢١٤ « وفى يوم الثلاثاء ( يوافق ١١ يونيه ) حضر جماعة من العسكر بأثقالهم وحضرت مكاتبة من كبير الفرنساوية أنه وصل الى الصالحيــة وأرسل دوجا الوكيل (Dugua) ونبه على الناس بالخروج لملاقاته بموجب ورقة حضرت من عنده يأمر بذلك »

ومن لنا بالوقوف على التعليمات الخاصة التى بعث بهـا نابوليون الي الجنرال « درجا » مع أولئك الرسل بقصد الاستعداد العظيم للاحتفال بقدومه احتفال القائد الظافر ، ليوهم المصريين أنه قد ملك سورية ودوخ أهلها ، وقضى علي الجيوش التى أشيع فى طول البلاد وعرضها أنها قادمة لخلاص مصر من أيدى الفرنساويين؟؟ ولـكننا وإن لم نعرف تلك التعليمات فاننا نعرف أن فى صبيحة يوم الجمعة ١٠ محرم ( ١٤ يونيه ) جمع الفرنساويون فى القاهرة أهل المدينة من شيوخ واعيان وموظفين وعامة وسوقة ، وأقيمت الزينات ودقت الطبول وعزفت الجوقات الموسيقية عربية وافرنكية ، وتوشح كل ذى حيثية بالملابس المزخرفة ، وتألف من الجنود والاهالى موكب عظيم ، خرج من الازبكية فى صباح ذلك اليوم ، يستقبل نابوليون بونابارت خارج المدينة ، وكان هو قد عسكر بجيشه في المنطقة الواقعة بين سراي القبة والعباسية وكانت تسمى هذه الجهة بالعادلية واليوم يقال لها الوايلية التى هى فى الحقيقة جزء منها

وقد وصف كثيرون من كتاب الفرنساويين، ذلك الموكب المنظم والاحتفال الفخم الذي قوبل به نابوليون بعد عودته من سورية لمصر وبالفوافيه وكان هو أول المبالغين في وصفه لحكومة الديركتوار! وليس لدينا في اللغة العربية غير أقوال الشيخ الجبرتي والمعلم نقولا، والاول لايزيد في الوصف على كلمات موجزة والثاني لم يذكر شيئا عن الهدايا الفاخرة التي قدمها التجار بالقاهرة وأعيانها وأشرافها لنابوليون وذلك بالطبع، كما نعرف أمور بلادنا، بناء على تحريضات وأوامر من الحكام الفرنساويين، وكان أكثر الناس تملقا وتزلفا لنابوليون الشيخ خليل بكرى الذي لم يزل نقيب الأشراف، مع حضور السيد عمر مكرم من يافا . فقد قدم الشيخ خليل من أنواع الهدايا جواداً عربيا كريما يقود زمامه « رستم » ذلك المملوك الذى اشتهر في أوروبا وبقي ذكره في التاريخ خالداً بجوار اسم نابوليون، لانه سافر معه الى فرنسا وبقي معه مرافقا له في غدواته وروحاته، وغزواته وانتصاراته، حتى كان يلقب « مملوك الامبراطور »، وكانت له في قصر التويلرى مكانة معروفة . ولم يكن رستم هذا هو ذلك المملوك الذى كان له مع الشيخ البكرى حكايات مرّ بها الجبرتي مرور النسيم! بل كان واحداً من مماليك كثيرين للشيخ البكرى الذى قدم لنابوليون عدا الجوارى والمملوك هدايا كثيرة فاخرة ثمينة فكان سرج الجواد مطرزاً بالذهب واللآلى واليواقيت، وأهداه أيضاً عدداً من الهجن السريع الخطا، وقدم له أيضاً الجوارى الحسان، من الجركس والحبشان، والشيلان الكشميرية والاسلحة ذات القبضات المحلاة بالذهب والجواهر الكريمة، الى غير ذلك من العطر والعود والصندل والاقمشة الحريرية من صنع الهند والصين

والخلاصة إن الشيخ خليل البكرى، غفر الله له وتجاوز عن سيئاته، لم يدخر وسعاً في إرضاء الفرنساويين، فجاد بخير ما عنده وتجاوز الامر حتى قالوا أنه جاد بعرضه!: فقد روى ثقاة المؤرخين أن ابنة الشيخ خرجت عن حدود الحشمة وسلكت مع الفرنساويين مسلكا شائناً فوصمت بيت البكرى بوصمة عار لا تمحى، وقد روى الشيخ الجبرتي، وهو عفيف القلم، تلك الرواية وهو يتململ غيظاً، وقال

إن اعداء الشيخ أتهموه بان خروج ابنته مع الفرنساويين كان بعلمه ورضاه ، والعياذ بالله . وروى بعضهم أنها كانت تسق أباها وضيوفه من كبار القواد الفرنساويين الشراب فكان ما كان . ولكن هذا على ما أعتقد غير صحيح . وأغرب ما في حكاية هذه الفتاة وقصتها الغريبة التاريخية ما روته الكاتبة « جيهان ديفرى » فى كتابها عن نابوليون فى مصر ، فقد أكدت أن ابنة البكرى ( وذكرت أن اسمها زينب البكرية ) كانت معشوقة نابوليون بونابرت نفسه . ونحن ننقل روايتها هذه بكل تحفظ لاننا لانعرف على أى المصادر اعتمدت هذه الكاتبة الباحثة ، إذ من الجائز إنها اعتمدت على مذكرات أو مصادر لم نوفق الى العثور عليها

ورواية جيهان ديفرى هى أنه كان لنابوليون بونابرت فى مصر معشوقة اسمها بولين فوريس Pauline Fourès وكانت من قبل خائطة من بلدة كاركاسون Carcassone في فرنسا وتزوجت من الضابط فوريس ، وكان رجال الجيش يعلمون بعلاقة القائد العام بها ، وكذلك كان يعرف المصريون وكانوا يسمونها « ست السلطان الكبير » ، فحدث في زيارة ابنة البكرى وأمها لتلك السيدة الفرنسية أن وقع نظر نابوليون على الفتاة العذراء ابنة سليل بيت الصديق فاعجب بظرفها وشكلها الشرقيّ . وكانت الاخبار قد وردت اليه من فرنسا بسوء سلوك زوجه جوزيفين وأخبار علاقتها ببعض الضباط فى باريس ومهدت له بولين الاجتماع بزينب واتخذها خليلة أخرى له وكان الفرنسيون يسمونها ( La petite Egyptienne du Général ) . كما كانوا يسمون بولين فوريس ( Notre Dame de l'orient ) وروت كاتبة هذه الرواية أن حب نابوليون لزينب لم يدم طويلا لأن بولين مكرت بالفتاة وغيرت ملابسها الشرقية بملابس باريسية وقامت لها بالتطرية الغربية ، ففقدت ميزتها وغرابتها لدى نابوليون ومال قلبه أكثر الى بولين

واتخذ كاتب انجليزى من كتاب الروايات الخيالية الممزوجة بالحوادث التاريخية حادثة ابنة البكرى جزءاً من موضوع رواية اسمها « المملوك المفقود [1] » تتداولها

(1) The lost Mamluke, by David M. Beddoe.

الأيدى فى كل مكان وزمان. ولكن مؤلف هذه الرواية وصف الشيخ البكرى بأنه كان متألما وأنه كان يسير فى شوارع القاهرة ليلا نادماً صاخباً على ما أصاب ابنته وذكر مؤلف الرواية اسم تلك الفاجرة وقال أنها هامت بحب كولونيل افرنسى وكيفما كان الحال فقد لاقت جزاءها بعد خروج الفرنسيس وعودة المماليك والاتراك إذ قطعوا رقبتها أمام والديها

ومن أغرب الامور ان ذلك يحصل ونابوليون بونابرت وهو شبه ملك لفرنسا (القنصل الاول) لايستطيع ان يخلص الفتاة التي عبث بعفافها من القتل !!

وان قال قائل أما كان الأولى التجاوز فى هذا الكتاب عن ذكر هذا ! كان جوابنا ان لنا غرضاً فى وصف أخلاق القوم فى ذلك الزمن والاشارة إلى من لايكرمون أنفسهم ولا أمتهم ولادينهم ، أمام الغاصب الاجنبى « ومن لا يكرم نفسه لايكرم »

وقال المعلم نقولا الترك عن ساعة الاستقبال والسلام « واقبلوا عليه وهنوه بقدومه وبعد الجلوس قال لهم لقد بلغنى أن بعض المفسدين والأعداء الكاذبين قد أشاعوا عنى الأخبار ، انى مت فى تلك الديار ، فأمعنوا بى النظر ، لتتحققوا الخبر ، وانظروا هل أن بونابارته مات ، أم لايزال بعد في الحياة ، وقولوا للمفسدين لايتأملوا بهذا الأمل وبونابارته قد جاء سالما غانماً وبأذن المالك العزيز لا يموت بونابارته حتي يدوس جميع الممالك » فأجابوه « لا بأس على أمير الجيوش لقد كذب كل من قال أطال الله لنا بقاك ، ولاشمت بك أعداك ، وجعلنا من الدنيا فداك »

وهكذا يقول الناس لكل ذى قوة وسلطان ! وما نظن الا أن نابوليون وهو يقول لهم هاتيك الاقوال الطنانة كان يتصور أمام مخيلته السير سدنى سميث فى بارجته وهو يشير اليهم بأصبع الاستهزاء ، يذكره بالفشل أمام عكا ، وعودته من سوريا منكوبا مهزوماً ، فيقول نابوليون فى نفسه :

وتجلدى للشامتين أريهمو ... انى لريب الدهر لا أتضعضع

ثم تحرك الموكب على نظام رتبوه وعلى شكل يقصد به القاء الرعب واظهار الابهة وجلال الملك وعظمة السيادة فى نفوس المصريين ، حتى لقد استمر ذلك

الموكب ـ على رواية الجبرتي ـ خمس ساعات متوالية في شوارع القاهرة الى أن وصل الى داره بالازبكية. وقد ذكر لنا «ميو» في مذكراته الصريحة أن نابوليون سير الجند في موكب دخوله القاهرة صفوفا منفردة حتى يوهم القوم بانه لم يخسر كثيراً من جيشه كما أشاعوا عنه في مصر » ... ولهذا استمر الموكب خمس ساعات !

ومع ذلك لم يخف عن المصريين ، كما روى الجبرتي ، أن العساكر قد تغيرت ألوانهم واصفرت وجوههم ، وقاسوا مشقات عظيمة من الحرّ والسغب

ولم يكتف نابوليون بذلك الموكب العظيم بل أراد أن يجعل دخوله في القاهرة عيداً كبيراً أو مولداً من الموالد ، استمر ثلاثة أيام متوالية. وفي هذا يقول الجبرتي « فلما وصل ساري عسكر الفرنساوية الى داره بالازبكية تجمع هناك أرباب الملاهي والبهالوين ، وطوائف اللاعبين ، والحواة والقرادين، والنساء الراقصات والخلابيص ، ونصبوا أراجيح مثل أيام الأعياد والمواسم،واستمروا على ذلك ثلاثة أيام ، وفي كل يوم من تلك الايام يعملون شنكاً وحراقات ومدافع وسواريخ ، ثم انقضى الجمع بعد ما أعطاهم ساري عسكر دراهم وبقاشيش »

من للتاريخ بمن يشرح للأجيال الخالفة ما كان يجول بخاطر نابوليون وهو ينظر من نافذة بيت الألفي ، في ليلة من تلك الليالي القمرة ، إلى اولئك المهاويس من الحواة وملاعبي القردة والنسوة الراقصات ؟ وهو يعلم أنه في أحرج المراكز ، وان جيشه قد قلّ عدداً ، وان مراكبه قد حطمت ، وأن دول أوربا العظيمة قد تجمعت لمحاربته ، وان الجيش العثماني ، تعضده الأساطيل الانكليزية والروسية والعثمانية ، قادم لمحاربته من طريق البر والبحر ، وأن الحكومة في باريس قد خذلته ، وأنه لا بد له من الهرب من هذه الديار المصرية ليصل الى فرنسا لينال فيها ما تطمح اليه نفسه من المجد والفخار ، ويفكر كيف يهرب وسفن الانكليز في البحر الابيض المتوسط ذاهبة وآتية !!

لا نزاع في أن كل هاتيك الافكار القلقة كانت تجول في رأس نابوليون فتتعاقب فيها الآمال بالآلام ، وتمتزج الاوهام بالاحلام ، فكان لا شك يبتسم

تبسمة صفراء لاولئك اللاعبين الصاخبين ، ويقول لهم « العبوا العبوا يا عبيد الاوهام ، وآلات الحكام » ! ولو أجابه واحد من اولئك البهاليل الراقصين ، اللاعبين ، لقال له على لسان الفلسفة الشرقية « نحن أحسن منك حالا ، وأنعم منك بالا ، وأفضل فى النتيجة مآلا ! ما لنا ولأمواج سانت هيلانه ، تدوى فى آذاننا ، وتذيب من أرواحنا ، وتفتت فى أكبادنا ، بعد الهيل والهيلمان ، والتاج والصولجان؟؟ ومن لم يقامر بالدنيا أبداً ، كان كمن قامر بها ، فكسبها فى يوم ، وخسرها فى آخر !! وملك كسرى تغنى عنه كسرة» !

يقول هذا ويرقص !

يقول «بوريين» فى مذكراته إن نابليون ما كاد يستقر فى القاهرة حتى أصدر منشوراً من تلك المنشورات التى سداها الكذب ولحمتها التلفيق ولا ينخدع بها الا ذوو البلاهة والجنون. وعن هذا المنشور أو البلاغ يقول الشيخ الجبرتى «إنهم فى تاسع عشر من الشهر ( محرم ) كتبوا أوراقا وطبعوها والصقوها بالاسواق ، وهى من ترصيف وتنميق أحد الفصحاء» ، فاذا لاحظنا أن نابليون دخل القاهرة فى ١٠ من الشهر رأينا أنهم قضوا نحو أسبوع في تعريب وترصيف وطبع ذلك البلاغ الذى يدل انشاؤه على قلم مصرى ولعله من ترصيف وتنميق الشيخ المهدى الذى يقول عنه المؤرخون فى كتاب الحملة إنه كان ينظم منشورات القائد العام شعراً ، مما يدل على أن نابليون أو من معه من المستشرقين ينزلون النثر المسجع منزلة الشعر الموزون المقفى والمنشور المشار اليه مكتوب على لسان أعضاء الديوان

وقد كنا عزمنا على الاكتفاء من هذا المنشور المطوّل بشذرات تدل على اسلوبه وتركيبه ، ولكن عثرنا فى الوقت الاخير على صورة مأخوذة بالفوتوغرافية من أصل لذلك المنشور ، فرأينا اتماما للفائدة أن ننقل تلك الصورة وأن نأتى على نص المنشور نقلا عنها ليسهل على القارئ مطالعته . ومقارنته بنصه فى الجبرتى :

## الجمهور الفرنساوى

من محفل الديوان الخصوصي بمحروسة مصر

خطاباً لأقاليم مصر الشرقية والغربية والمنوفية والقليوبية والجيزة والبحيرة

## النصيحة من الايمان

قال الله تعالى فى محكم القرآن « ولا تتبعوا خطوات الشيطان » وقال تعالى « ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون فى الارض ولا يصلحون » فعلى العاقل أن يتدبر فى الامور قبل أن يقع في المحذور

نخبركم معاشر المؤمنين أنكم لا تسمعوا كلام الكذابين فتصبحوا على ما فعلتم نادمين

وقد حضر الى محروسة مصر المحمية أمير الجيوش الفرنساوية ، حضرة بونابرته محب الملة المحمدية ، ونزل بعسكره فى العادلية ، سليما من العطب والاسقام ، شاكراً الله موحداً للملك العلام ، ودخل الى مصر من باب النصر ، يوم الجمعة عاشر شهر محرم الحرام سنة الف ومايتين واربعة عشر من هجرته عليه السلام ، فى موكب كبير عظيم ، وشنك جليل فخيم ، وعسكر كثير جسيم ، وصحبته العلماء الازهرية ، والسادات والبكرية ، والعنانية والدمرداشية ، والحسينية والاحمدية والرفاعية والقادرية ، والوجاقات السبعة السلطانية ، وأرباب الاقلام الديوانية ، وأعيان التجار المصرية ، وكان ذلك اليوم يوماً مشهوداً عظيما لم يقع نظيره فى المواكب السابقة قديماً ، وخرجت سكان مصر جميعاً لملاقته ( كذا ) فوجدوه هو الأمير الاول بونابرته بذاته وصفاته ، وظهر لهم أن الناس يكذبون عليه . شرح الله صدره للاسلام ، ونظر بعين لطفه اليه . والذى أشاع عنه الاخبار الكاذبة ، العربان الفاجرة ، والغز الهاربة ، ومرادهم بهذه الاشاعة هلاك الرعية ، وتدمير أهل الملة الاسلامية ، وتعطيل الاموال الديوانية ، لا يحبون راحة العبيد ، وقد أزال الله دولتهم من شدة ظلمهم ، إن بطش ربك لشديد ، وقد بلغنا أن الالفى توجه إلى الشرقية مع بعض

المجرمين من عربان « بلى » والعبايدة الفجرة المفسدين، يسعون فى الارض بالفساد وينهبون أموال المسلمين ، ان ر بك لبالمرصاد ، ويزورون على الفلاحين المكاتيب الكاذبة الفاجرة ، ويدعون أن عساكر السلطان حاضرة، والحال انها ليست بحاضرة ، فلا أصل لهذا الخبر ، ولا صحة لهذا الأمر ، وانما مرادهم وقوع الناس فى الهلاك والضرر ، مثل ما كان يفعل ابراهيم بك فى غزه حين كان ، ويرسل فرمانات بالكذب والبهتان ، ويدعى أنها من طرف السلطان ، ويصدقوه أهل الارياف خسفاء العقول، ولا يقرؤن العواقب ، فيقعون فى المصائب ، وأهل الصعيد طردوا الغز من بلادهم ، خوفاً على أنفسهم وهلاك عيالهم وأولادهم ، فان المجرم يؤخذ مع الجيران ، وقد غضب الله على الظلمة ، ونعوذ بالله من غضب الديان . فكانوا أهل الصعيد أحسن عقولا من أهل بحرى بسبب هذا الرأى السديد، ونخبركم أن احمد باشا الجزار ، سموه بهذا الاسم لكثرة قتله الانفس ولا يفرق بين الاخيار والاشرار ، وقد جمع الطموش الكثيرة ، من عسكر العثملى ومن الغز والعرب وأسافل العشيرة ، وكان مراده الاستيلاء على مصر وأقاليمها ، وأحبوا اجتماعهم عليه لأخذ أموالها وهتك حريمها ، ولكن لم تساعده الاقدار، والله يفعل مايشاء ويختار.

ألطافه خفية ، والكلام على صفو النية ، وقد كان أرسل بعض هذه العساكر الى قلعة العريش ، ومراده يصل الى قطيه . فتوجه حضرة سارى عسكر أمير الجيوش الفرنساوية وكسر عسكر الجزار الذين كانوا فى العريش ، ونادوا الفرار الفرار ، بعد ما حل بأكثرهم القتل والدمار ، وكانوا نحو ثلاثة آلاف ، وملك قلعة العريش وأخذ ما فيها من ذخائر الجزار بلا خلاف ، ثم توجه سارى عسكر الى غزة فهرب من كان فيها من عسكر الجزار ، وفروا منها كما يفر من الهرة العصفور الفار ، ولما دخل قلعة غزة نادى فى رعيتها بالأمان ، وأمر باقامة الشعائر الاسلامية وأكرم العلماء والتجار والاعيان ، ثم انتقل الى الرملة وأخذ ما فيها من ذخائر الجزار ، من بقسماط وأرز وشعير ، وخرب أكثر من ألفين قربة عظام كبار ، كان جهزها الجزار ، لذهابه الى مصر ولكن لم تساعده الاقدار ، ثم توجه الى يافا

وحاصرها ثلاثة أيام ثم أخذها وأخذ ما فيها من ذخائر الجزار بالتمام ، ومن نحوسات أهلها أنهم لم يرضوا بأمانه ، ولم يدخلوا تحت طاعته واحسانه ، فدوّر فيهم السيف من شدة غيظه وقوة سلطانه ، وقتل منهم نحو أربعة آلاف أو يزيدون بعد ما هدم سورها . فعل الله الذي يقول للشئ كوز (كذا) فيكون، وأكرم من كان فيها من أهل مصر وأطعمهم وكساهم وأنزلهم فى المراكب الى مصر وغفرهم بعسكر خوفاً من العربان، وأجزل عطاياهم . وكان فى يافا نحو خمسة آلاف من عسكر الجزار ، هلكوا جميعاً وبعضهم ما نجاه إلا الفرار ، ثم توجه من يافا الى جبل نابلس فكسر من كان فيها من العساكر بمكان يقال له فاقوم وحرق خمسة بلاد من بلادهم وما قدر كان . سبحان مالك الملك الحى القيوم ، ثم أخرب سوق عكا ، وهدم قلعة الجزار التى كانت حصينة لم يبق فيها حجر على حجر حتى أنه يقال كان هناك مدينة ، وقد كان بنى حصارها وشيد بنيانها فى نحو عشرين من السنين ، وظلم فى بنيانها عباد الله ، وهكذا عاقبة بغيان الظالمين

ولما توجه اليه أهل بلاد الجزار من كل ناحية كسرهم كسرة شنيعة ، فهل ترى لهم من باقية ، نزل عليهم كصاعقة من السماء فان قال أهل الشام لما قلنا كما (كذا) ثم توجه راجعاً الى مصر المحروسة لأجل سببين (الأول) أنه وعدنا برجوعه الينا بعد أربعة أشهر ، والوعد عند الحر دين (والسبب الثانى) أنه بلغه أن بعض المفسدين من الغز والعربان يحركون فى غيابه الفتن والشرور في بعض الاقاليم والبلدان، فلما حضر سكنت الفتنة ، وزالت الاشرار مثل زوال الغيم عند شروق الشمس وسط النهار . فان همته العلية ، وأخلاقه المرضية ، متوجهة فى البكرة والعشية ، لازالة الاشرار والفجرة من الرعية ، وحبه لمصر وأقليمها شئ عجيب ، ورغبته فى الخير لأهلها ونيلها وزرعها بفكره وتدبيره المصيب ، يحب الخير لأهل الخير والطاعة ، ويرغب أن يجعل فيها أحسن التحف والصناعة ، ولما حضر من الشام ، أحضر معه جملة اسارى من خاص وعام ، وجملة مدافع وبيارق اغتنمها فى الحروب من الاعداء والاخصام . فالويل كل الويل لمن عاداه ، والخير كل الخير

لمن والاه ، فسلموا يا عباد الله لقضاء الله ، وارضوا بتقدير الله فان الارض لله ، وامتثلوا الاحكام الله . فان الملك لله يؤتيه من يشاء من عباده . هذا هو الايمان بالله ولا تسعوا فى سفك دمائكم ، وهتك عيالكم ، ولا تتسببوا فى قتل أولادكم ونهب أموالكم ، ولا تسمعوا كلام الغز الهار بين الكاذبين ، ولا تقولوا إن فى الفتنة أعلاء كلمة الدين ، حاشا لله لم يكن فيها إلا الخذلان التام ، وقتل الانفس وذل أمة النبى عليه الصلاة والسلام . والغز والعربان يطمعوكم ويغروكم لأجل أن يضروكم فينهبوكم ، واذا كانوا فى بلد وقدمت عليهم الفرنسيس فروا هاربين منهم كأنهم جنود أبليس . ولما حضر سارى عسكر الى مصر أخبر أهل الديوان من خاص ومن عام ، أنه يحب دين الاسلام ، ويعظم النبى عليه السلام ، ويحترم القرآن ، ويقرأ فيه كل يوم باتقان ، وأمر باقامت (كذا) شعائر المساجد الاسلامية ، واجراء خيرات الاوقاف السلطانية ، وسلم عوائد الوجاقلية ، وسعى في حصول أقوات الرعية ، فانظروا هذه الالطاف والمزية ، ببركة نبينا أشرف البرية ، وعرفنا أن مراده يبنى لنا مسجداً عظيما بمصر لا نظير له فى الاقطار ، وانه يدخل فى دين النبى المختار ، عليه أفضل الصلاة وأتم السلام »

ويرى القراء فى الصورة الفوتوغرافية أسماء أعضاء الديوان الخصوصى كالآتى :

السيد خليل البكرى نقيب السادة الاشراف . الفقير عبد الله الشرقاوى رئيس الديوان . الفقير محمد المهدى كاتب سر الديوان . الفقير مصطفى الصاوى خادم العلم . الفقير سليمان الفيومى خادم العلم . على كتخدى باش اختيار مستحفظان . يوسف باش جاوش تفكجيان . السيد احمد المحروقى (١)

---

(١) قارنا بين هذا النص وبين ما ورد فى كتاب الجبرتى وفى رسالة المعلم نقولا الترك فوجدنا اختلافاً كبيراً بين الاصل وبين ما تركه لنا ذانك المؤرخان فدل هذا جلياً على وقوع التحريف فى روايتهما وأثبت ايضاً أن الاعتماد عليهما بغير تحقيق ولا تدقيق اساءة للتاريخ

# الجمهور الفرانساوي

نصيحة من الاحباء

قال الله تعالى في محكم الترتيل ولا تتبعوا خطوات الشيطان وقال تعالى ولا تطيعوا امر المسرفين الذين يفسدون في الارض ولا يصلحون

[illegible]

«نص المنشور العربى»

LIBERTÉ — ÉGALITÉ

# PROCLAMATION
## DU DIVAN DE LA VILLE DU KAIRE, LA BIEN GARDÉE,

*Aux Provinces de l'Egypte, Chargyeh, Gharbyeh, Menoufyeh, Qelyoubyeh, Gyzeh et Béhhyreh.*

AU KAIRE, DE L'IMPRIMERIE NATIONALE.

« نص المنشور الفرنسى »

١٠

يلاحظ القارىء أن جميع أعضاء الديوان الخصوصي الذى شكل فى (١٦ رجب سنة ١٢١٣ - ٢٥ ديسمبر سنة ١٧٩٩) أى قبل هذا الموعد بنحو ستة شهور، وسبق لنا الـكلام بشأنهم، لم يوقعوا كلهم على هذا المنشور، واكتفى بوضع امضاءات العلماء والسيد احمد المحروقى من تجار القاهرة، واثنين من الضباط الأتراك ضباط الوجاقات. ولم يكن قد ورد اسمهما فى الاسماء التى ذكرها الجبرتى عند تشكيل الديوان ولا فى كتاب الحملة كما هو موضح في كتابنا هذا فلا بد إذن من أنه حصل تغيير أو زيادة عضوين من ضبـاط الوجاقات بقصد إرهاب المصريين لانهم، كما قال عنهم المشائخ للفرنساويين عند دخولهم، لا يخافون الا من الحـكام المماليك، ثم يظهر أن نابوليون ارتأى إخلاء هذا المنشور من اسماء الاعضاء غير المسلمين، لان اسماء مثل بودوف وكاف ولطف الله وكحيل وملـار لاتتفق مع دعاوى « قراءة القرآن باتقان، واحترام النبي عليه الصلاة والسلام، والعزيمة على الدخول فى دين الاسلام » !!

وقد خصص مسيو كرستيان شرفيس فى كتـابه الحديث المسمى « بونابرت والاسلام » بحثاً خاصاً عن هذا المنشور ومتى كتب ومن كتبه، وهو الذى نقلنـا عنه الصورة الفوتوغرافية التى حصل على صورتها الاصلية من وزارة الحربية، وظاهر من التحقيقات التى عملها على الاصل الخطى أن نابوليون هو الذى أملى عبارة المنشور على كاتب يده بوريين، وإنه بعد ذلك أخذ ما كتبوه وأدخل عليها بخطه تصليحات وزيادات ثم أمر به فنسخ، وإن كل ذلك حصل بين ١٥ و١٦ يونيه، اى ثانى يوم لدخوله القاهرة. والجبرتى يقول لنا إنه فى التاسع عشر من محرم كتبوا أوراقاً وألصقوها (١٩ محرم الموافق ٢٣ يوليو) ولم يك من السهل ترصيف وتسجيع عبارة المنشور لموافقتها للأصل الفرنساوى في مدة قصيرة بسبب ما يدور من المناقشات والأخذ والرد بين المترجمين والمصححين

بقى علينا أن نذكر أن العبارة العربية قريبة جداً من الاصل الفرنساوى،

ومن الغريب إنه لم يرد فى النص المطبوع فى الصورة الفرنسية ذكر لقب «السلطان الكبير» وكذلك لا يوجد لهذا اللقب أثر فى النص العربى الموجود فى الجبرتى ولا في المعلم نقولا ، ولا فى الأصل الصحيح المنقول بالفوتوغراف ، ولكن ورد فى كتب الفرنساويين، وورد فى الصورة الخطية الفرنسية المنقولة بالفوتوغراف فى كتاب شرفيس ، فيظهر من ذلك جلياً أن نابوليون أراد لنفسه ذلك اللقب ، وأملاه على كاتب يده ، ولكن معارضة المشايخ مثلا ، أوعدم قبولهم وضع امضاآتهم على منشور يلقب فيه نابوليون بالسلطان الكبير ، أو غير ذلك من أغراض لبعض المستشرقين أو القواد الآخرين، أدى إلى رفع ذلك اللقب من المنشور العربى والفرنسى . ومع وجود الصورة الأصلية ، فى اللغتين كما يراه القارىء فى الصورتين المأخوذتين بالفوتوغراف ، فلا يزال بعض كتاب الفرنسيين يؤكد أن نابوليون كان يلقب فى مصر بالسلطان الكبير ! !

وأما ما ورد فى هذا المنشور من دعوى اعتناق الدين الاسلامى وتلاوة القرآن وإنشاء مسجد كبير إلى غير ذلك من موضوع الفكرة الاسلامية لدى نابوليون . فسنفرد له فصلا خاصاً لإماطة النقاب ، عن كل ما قيل فى هذا الباب

وكنا نود أن نقف بالقلم عند هذا الحد فيما يختص بالحملة السورية لولا أننا عثرنا على رسالتين ، بعث بهما على لسان أعضاء الديوان الخصوصى ، إلى نابوليون وهو فى سوريا . وهاتان الرسالتان نقلهما مسيو كرستيان شرفيس فى كتابه الذى سبقت الاشارة اليه ليتخذهما دليلا على ثقة المسلمين بنابوليون وحبهم له ومدحهم إياه، مع أن أولئك المشايخ كانوا يمضون ما يكتب لهم وذلك باعتراف مسيو شرفيس نفسه ، فقد قال فى خلال تحقيقاته عن المنشور الآنف الذكر أن نابوليون كان لا يكتب فقط ما سيوقع عليه باسمه ، بل كان يكتب أيضاً ما سيمضيه سواه ، ولذلك أملى وكتب ذلك المنشور الذى أمضاه بعض العلماء بعد تحوير وتلطيف . ونريد بهذا أن نقول أن وجود تلكما الرسالتين اللتين بعث بهما الى نابوليون فى سوريا بل والثالثة التي بعث بها إليه وهو الحاكم الأول في فرنسا ، لا يثبت أبداً أن المسلمين اعتقدوا فى نابوليون بونابرت مثلما تصور هو أنهم يعتقدونه فيه

والرسالتان المشار اليهما لهما أهمية عظيمة في نظرنا لان أصلهما غيرموجود باللغة العربية، لا فى الجبرتى ولا فى المعلم نقولا، ومع أن ثالثتهما بعث بها بعد هذا التاريخ بنحو سنة ونصف، أى فى مدة رياسة الجنرال «منو» وكان الشيخ عبد الرحمن الجبرتى قد صار عضواً فى الديوان وامضاآته موجودة بين الذين أمضوا تلك الرسالة الثالثة، فانه لم ينشر لنا نصها العربى، بل ولم يشر اليها إشارة صغيرة مما يثبت دون أقل شك أن المشايخ لم يكونوا يعترفون بان تلك الرسائل صادرة منهم عن اعتقاد ويقين، وإن كانت إمضاآتهم عليها واسماؤهم واردة فيها

ومع اعتقادنا هذا الذى نقرره مع الأسف لما فيه من نسبة الضعف الاخلاقى لأكبر مشايخ المسلمين وعلمائهم في ذلك الزمن، نرى من الضرورى للفائدة التاريخية أن نأتى على تعريب تلك الرسائل من المصادر الفرنسية، ونكتفى هنا بالرسالتين اللتين بعث بهما إلى نابوليون فى سوريا ونترك الثالثة إلى حوادث المدة الاخيرة من تاريخ الفرنساويين بمصر

وقبل أن نأتى على تعريب الرسالتين المذكورتين نقول إن مسيو كرستيان شرفيس قد نقلها وغيرهما من الرسائل التى لا أصل لها فى العربية، من مجموعة رسمية ولم يذكر لنا عن أصلها العربى شيئاً بخلاف الثلاثة التى روى عنها أن سلفستر ده ساسى، العالم المستشرق الكبير هو الذي ترجمها من العربية الى الفرنسية

وقد يخطر بالبال أن الرسالتين المشار اليهما لم تكتبا بالعربية قط وأنهما وضعتا بالفرنسية في القاهرة وأفهم المشايخ ما فيهما ووضعت امضاءاتهم عليهما ولكن أسلوب عبارتهما فى الفرنسية يدل على أنهما مترجمتان من العربية . ونحن مع فقد النص العربى لا نجد، كما قلنا، مناصاً من تعريبهما ثانية وان كنا لا نطمع فى أن نعيدهما الى ما يقرب من نص الفاظهما، مجتهدين فى تقليد أسلوب ذلك العصر

وليس فى احدى الرسالتين تاريخ زمن وضعهما ولكن يظهر أن الاولى كتبت لنابوليون في أول زمن الحملة الشامية وهذا نصها :

كتاب من ديوان القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

من أعضاء الديوان الخصوصى بالقاهرة المعزية ، الى نصير الضعفاء والمساكين ، وحامى العلوم والمتعلمين ، وصديق الدين الاسلامى ومن به يدين ، وذخر اليتامى والمساكين : ومنظم شؤون الممالك والجيوش ، الاجل الامجد ، سارى عسكر الجيش الفرنسى القائد العام بونابرت . حياه الله بصنوف السعادة ، بشفاعة اشرف الخلق سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام

بعد الدعاء بدوام بقائكم ، وتمنى عودتكم الميمونة والوجود بيننا ، واذا اردتم الوقوف على احوال القاهرة والجهات البحرية والقبلية ، والاقاليم الشرقية والغربية فهى على أحسن حال من الهناء والرفاهية ، بعيدة عن الاضطراب ، وصنوف العذاب ، والمساجد والاسواق على نظام يدعو الى الاعجاب ، والاعيان والتجار والاهالى يحفظون الجميل ويعترفون بالمنة لذلك الذى اغدق عليهم هذه الخيرات ولا يكفون عن التضرع للعزة الالهية بدوام عزه ومجده .

ولما كانوا قد غمرتهم النعم الالهية ، وتمتعوا بالراحة والرفاهية ، فقد اصبحوا يعجبون بحكمة القائد الذى باسمه يحكم القطر المصرى ، ويرون فى اختياركم هذا القائد دليلاً على عطفكم السامى

اما حاكم الخط فقوى العزم ، يعمل بقواعد العدل والحزم ، والمدير العام للمالية على جانب عظيم من النبل والرأفة والحلم ، ونقيب السادة الاشراف الشيخ البكرى لايزال دائماً على عهد الولاء مقيم ، ورئيس الديوان الشيخ الشرقاوى يصرف الامور تصريف حكيم ، والشيخ المهدى يحفظ لكم المنة والشكر ، والناظر فوسقيار كيخيا هو دائماً زينة الدنيا . وأخيراً فان سكان مصر كلهم لا يرغبون غير عودتكم التي ستكون ان شاء الله عودة قريبة ميمونة ، ويسألون الله عز وجل ان يحفظ جيوشكم من كيد الظالمين ، ويفتح لكم ابواب النجاة والسلامة

وفى غداة سفركم جمع الجنرال دوجا الاعضاء الستين ، الذين يؤلفون الديوان العام وأوصاهم أن يراقبوا الحوادث بعين الانتباه والحذر ، وزاد على ذلك قوله ان

الذين يسلكون سبيل العدل والحكمة يستحقون عفوك ورحمتك ، ولكن الذين يريدون بذر بذور الشر والاضطراب ، عليهم تقع المصائب والويلات التى تأتى مما عملت أيديهم ، فأظهر الناس اعجاباً بهذه النصائح الحكيمة . وفى اليوم نفسه عاد واستدعى مشايخ الحارات والأسواق ووجهاء المدينة والاعيان ، وأنذرهم بأنه إذا أقدم أحد على تعكير السلام والأمن فى الاحياء والاسواق ، فانه ينزل العقاب على الرؤساء الذين لا يمنعون ذلك وأوصاهم بمعاقبة الوشاة الذين يروجون الاخبار الكاذبة التى هى منبع الشر

وكان لهذه النصيحة وقع عظيم على سكان القاهرة ووزعت فرماناتكم الشريفة فى الاقاليم و بفضل ما سبق أن اتخذتموه من التدابير الحكيمة انطبعت فى العقول مقاصدكم الكريمة ومحت إلى الابد كل أثر من آثار العصيان والاضطراب

وتنازلوا بافادتنا عن ما يجري من الحوادث ، وطمنونا عن صحتكم وليحفظكم الله بحق شفاعة النبى عليه الصلاة والسلام

| | |
|---|---|
| السيد خليل البكرى | نقيب الاشراف |
| عبد الله الشرقاوى | رئيس الديوان |
| محمد المهدى | كاتم سر الديوان |
| على كتخيا الجلفى | عضو الديوان |
| السيد احمد المحروقى | » |
| يوسف فرحات | » |
| بودوف | » |
| يوسف باش جاويش | » |
| ميخائيل كحيل | » |
| لطف الله المصرى | » |
| وللار | » |
| جورج نصار | ترجمان |
| ذو الفقار كتخيا | قومسير الديوان |

* * *

وهذا تعريب الرسالة الثانية

قال الله تعالى وقوله الحق « قل إن الارض لله يرثها من يشاء والعاقبة للمتقين »

من ديوان مصر المحمية الى القائد العام للجيوش الفرنسية ، صاحب العظمة التي لا تحد والروية ، وجامع الخلال السنيه المرضية ، أدامه الله ذخراً للضعفاء والمساكين ، والعلماء المتقين ، وأظله بحمايته السرمدية

بعد الدعاء بدوام مجدكم ، وطول بقائكم ، وتمنى عودتكم الميمونة الينا والسلام . نتشرف باخباركم اننا تلقينا كتابكم الشريف المتضمن أخبار الحوادث التى جرت حينما وقعت يافا فى أيدى جيوش الجمهورية الفرنسية ، وما أصاب أعداءكم من الذل والاندحار ، وكان الافضل أن يكفوا عن مقاومة أوامركم العالية ، ويقلعوا نهائياً عن وسائل الحيلة والخداع ، والكذب والنفاق ، التى كانت سبباً لهلاكهم ولكن متى حم القضاء عمى البصر ، ولا تنفع القوة والحيلة فى دفع ما كتب فى لوح القدر

وقد كتبنا أخبار هذه الحوادث وطبعناها ، وأفهمنا الأمة المصرية فحواها ، وجعلناها تشعر بأن لو دخل الجزار الظالم أرض مصر لما أبقى على أحد ، ولا ميز بين الصالحين والاشرار ، وظلمه لشعب سوريا أقوى دليل . وذكرنا لهم أن هذا الطاغية من جنس المماليك وهم أصل نعمته ورفعته . ولكن الله الذى يقرأ ما فى الصدور ، فلا تخفى عليه خافية ، قد أنقذهم من جوره ، ولذلك فان الأمة المصرية تشكر بعد الله سبحانه وتعالى كبار علمائها الذين أسرعوا لاستقبالكم في الجيزة حين مقدمكم السعيد ، والذين حصلوا لهم على حمايتكم العالية ، والنعم التي أغدقتموها عليها وهم يحمدون الله عز وجل على أنه لم يلهمهم ما الهم أهل يافا من التمرد والعصيان ، لأن أهل مصر من غير شك أحسن عباد الله . وهكذا أذعنا هذه الأخبار التى تشهد بحلمكم ورأفتكم

وقد أقمنا لاستقبال الاعلام التى غنمتموها فى يافا احتفالاً عظيماً ، وكان النظام

خية بديعًا ، وهرع الى هذا الاحتفال جميع الاعيان والعلماء والتجار ، وسكان مصر حتى كان هذا اليوم فرحاً للعامة والخاصة . وحملنا هذه الاعلام الى الجامع الأزهر ورفعناها مع المصحف فوق المنابر والأبواب ، ويا ليت اهل يافا اقتفوا أثرنا ونسجوا على منوالنا ، فكانوا يدركون عظيم مكارمكم ولكن اذا أراد الله قصاص شعب ظالم فلا راد لمشيئته ، والويل لمن يخالف ارادته .

واذا أردتم الوقوف على حال مدينتنا السعيدة فهي في غاية السرور والاطمئنان والاخلاص . والجنرال دوجا ، وقائد الموقع ، ومدير المالية العام ، والعلماء والشعب ، يعيشون على أتم وفاق ، بعيدين عن الاضطرابات والوشايات ، ولا ينقصهم شيء غير وجودكم الميمون ، ولا ينفكون عن التضرع لله عز وجل أن يعيدكم قريباً الينا رافلين في حلل المجد والعز

ونقدم الف سلام للجنرال الكسندر برتيه الذي نعرف مزاياه ورأفته ، ولصديق المساكين الشفوق العادل الترجمان الأول فنتور ، ولولدنا «الياس» (١) حفظه الله بشفاعة ابن عباس ، ولولدكم وتلميذكم أوجين (٢) ، الذي هو عندكم أعز من حدقة

---

(١) لايعرف من هوورعا كان شخصاً من أتباع الامبراطور وحاشيته الخاصة وقد ورد اسم هذا الشخص فى المذكرات التى وضعها رستم — المملوك الذى أهداه الشيخ خليل البكرى لنابوليون بعد عودته من سورية — بعد سقوط نابوليون . فقد قص علينا رستم هذا فى مذكراته كيف كانت مقابلته لأول مرة مع نابوليون فقال

« ذهب بى مسيو « الياس » الى الجنرال فقابلنى فى بهو الدار وكان أول ما عمله أن شد أذنى ثم سألنى اذا كنت أستطيع ركوب الخيل الخ الخ .. »

واذن فالياس هذا المذكور فى رسالة المشايخ الى بونابارت ، كان أحد رجال الحاشية أو الحجاب وبمناسبة هذه المذكرات نقول ان رستم هذا تزوج فى باريس من بنت « دوفيل » خادم جوزفين . فلما أفل نجم نابوليون رفض رستم مرافقته الى جزيرة « آلب » وعاش أخيرا فى « دوران » بلدة زوجته ومات وهو فى السنة الرابعة والستين من عمره . وهكذا كانت خاتمة رستم مملوك السيد خليل البكرى سليل ابى بكر الصديق .

(٢) هو اوجين بوهارنيه ابن جوزفين زوجة نابوليون بونابارت

الصين . ولصرافكم أستيف المعروف بغيرته واخلاصه في خدمتنا ، ولكاتم أسراركم بوريين ذو الصفات الممدوحة حفظهم الله جميعاً

واننا ان لم نكن بحاجة للتوصية ، نوصيكم باللطف على أولاد مصر وسوريا المساكين الذين أظهرتم لهم تلك الرأفة العظيمة . وليحرس الله سلامتكم ويعيدكم الينا محفوظين بعنايته الربانية بشفاعة النبي عليه الصلاة والسلام

| | |
|---|---|
| السيد خليل البكرى | نقيب الاشراف |
| محمد المهدى | كاتم سر الديوان |
| عبد الله الشرقاوى | رئيس الديوان |
| ذوالفقار كخيا | قومسير |
| على كخيا الجدلى | عضو الديوان |
| يوسف باش جاويش | » |
| احمد المحروقى | » |
| ميخائيل كحيل | » |
| يوسف فرحات | » |
| لطف الله المصرى | » |
| بودوف | » |
| ولمار | » |
| جورج قصار | ترجمان |

# الاحوال والحوادث فى مصر

## أثناء الحملة السورية

### أى من ١٠ فبراير — ١٤ يونية سنة ١٧٩٩

سرنا وراء نابوليون فى غزوته للبلاد السورية إلى أن عاد إلى الديار المصرية ، كما هو مفصل فى الباب السابق . ولم نرد أن نقطع سلسلة التاريخ في ذلك الباب بذكر ما وقع فى مصر من الحوادث والشؤون التى لها أهمية تاريخية ، واخترنا أن نخصص لها بحثاً يؤلف منثورها ويجمع شتاتها

وقبل أن نأتى على الحوادث المختلفة نذكر أن نابوليون قد أحسن اختيار نائبه ، أو وكيله فى مصر ، ونعنى به الجنرال «دوجا» إذ يظهر من الخطة التى سلكها ذلك الرجل فى إدارة شؤون مصر ، ومن تناوله الحوادث المختلفة ، وتصريفه امورها ، أنه كان على جانب عظيم من القدرة السياسية ، مع تؤدة وأناة وحلم وحسن روية ويقظة تليق بالحاكم الحكيم . ولقد كان سلوكه مع أهالي المنصورة والمنزلة بعد ثورة الشيخ حسن طوبار ، جديراً بالثناء والاعجاب ، ولعل سياسته فى ذلك الظرف هى التى أهلته فى نظر نابوليون ورشحته لتولى الزعامة فى غيبته . وكان الفرنساويون فى حاجة إلى رجل لين فى غير ضعف ، شديد فى غير عنف ، مثل الجنرال دوجا ، فى الوقت الذى غادر فيه نحو نصف الجيش الفرنسى أرض مصر إلى سوريا ، والذى هدد فيه المماليك وعرب الحجاز ، بل وعرب الغرب ، أرض مصر من جميع الجهات ، فكان من المحتم على مديري الامور منهم ، ولاة وحكاماً ، أن يترددوا ويتلطفوا مع المصريين وأن يعاملوهم بأحسن أساليب المعاملة ، مع المحافظة الدقيقة على تقاليدهم وعاداتهم .

وكان من خير المساعدين للجنرال دوجا في مهمته الشاقة ، مسيو بوسيلج مدير الامور المالية الذى كان يسميه الجبرتى « بوسليك الروزنامجى » والجنرال دوستين ، الذى كان حاكما للقاهرة ، وكان يلقب بالقائمقام

وكانت إدارة أمور الوجه القبلي وملاقاة حوادثه العصيبة ومحارباته العنيفة مع مراد بك وحسن بك الجداوي وعثمان بك الشرقاوي ، وعرب الحجاز تحت زعامة الشريف الجيلاني ، موكولة إلى الشجاع الباسل الجنرال ديزيه الذي وطد سلطة الفرنساويين في الوجه القبلي من الجيزة إلى اسوان

وقد أحسن الجنرال دوجا السياسة مع المصريين في العاصمة واهتم بالامور الصغيرة والكبيرة حتى اكتسب ثقة المشايخ والاعيان والمصريين عامة . فمن ذلك أن نابوليون لما برح مصر إلى سوريا في الخامس من شهر رمضان اجتهد الفرنساويون بإرشاد الجنرال دوجا في أن يسلكوا مع المسلمين سلوكا لائقاً بالآداب الاسلامية في ذلك الشهر ، وأصدروا الأوامر المشددة للمسيحيين من أقباط وشوام بأن يحافظوا على التقاليد المرعية في السنوات السابقة ، وبأن لا يتجاهروا بالأكل والشرب في الأسواق ، ولا يدخنوا التبغ ولا يلبسوا العمائم البيض والشيلان الكشمير إلى غير ذلك من التقاليد المرعية في تلك الايام . ثم أخذ الفرنساويون يزورون المسلمين في ليالي رمضان « ويدعون أعيان الناس والمشايخ والتجار للافطار والسحور ويعملون لهم الولائم ، ويقدمون لهم الموائد على نظام المسلمين وعادتهم ، ويتولى ذلك الطباخون والفراشون من المسلمين تطميناً لخواطرهم ، ويذهبون أيضاً ويحضرون عندهم الموائد ويأكلون معهم وقت الافطار ويشاهدون ترتيبهم ونظامهم ويحذون حذوهم ، ووقع منهم من المسايرة للناس ، وخفض الجانب ، ما يتعجب منه » : وقال الشيخ الجبرتي صاحب الكامة المتقدمة « وانقضي شهر رمضان ووقع فيه السكون والطمأنينة وخلو الطرقات من العسكر واختفاؤهم بالليل جملة كافية وانفتاح الأسواق والذهاب والمجيء وزيارة الاخوان ليلا والمشي على العادة بالفوانيس ودونها واجتماع الناس للسهر في الدور والقهاوي ووقود المساجد وصلاة التراويح وطواف المسحرين والتسلي بالرواية والنقول وترجي المأمول وانحلال الاسعار » ثم قال « ولما كان يوم العيد أطلق الفرنساويون المدافع تكريماً واجلالا وطافوا على أعيان البلد للتهنئة والتبريك والمجاملة » ... إلى غير ذلك من الحال الاجتماعية التي تدل على تلطف

الفرنساويين ، وسلوكهم مسلك الحكمة والسياسة بفضل دهاء الجنرال دوجا وفطنته

ومما يجب ذكره في باب الاعمال الطيبة التي تمت في تلك المدة ، إنشاء أول جسر على نهر النيل بين الجيزة والقاهرة وقد أنشئ ذلك الجسر في النقطة التي يوجد فيها الآن كبرى عباس . قال الجبرتي « وضع الفرنساويون جسراً من مراكب مصطفة وعليها أخشاب مسمرة من بر مصر بالقرب من قصر العيني إلى الروضة قريباً من موضع طاحون الهواء تسير عليه الناس بدوابهم وأنفسهم إلى البر الآخر وعملوا كذلك جسراً عظيما من الروضة إلى الجيزة »

وكذلك نذكر مع الثناء على الجنرال دوجا ورجاله تلك الاحتياطات الصحية الشديدة لمنع انتشار الطاعون وتفشيه في البلاد ، إذ أصدروا الأوامر الصريحة للأهالي ونشروا المنشورات في الطرق والجهات المختلفة وقرروا العقوبات الصارمة لمن يتهاون في أمر الطاعون وعدواه . ولعل تلك الاحتياطات الصحية كانت الاولى من نوعها في هذه الديار لوقاية أهلها من أوبئة الطواعين التي فتكت بأهلها فتكا ذريعاً في أوقات عديدة [1]

ويجمل بنا أن نقول هنا إنه كان من المحتمل ، لو ترك الفرنساويون وشأنهم مع المصريين ، ولم توجد لهم إنجلترا القلاقل والمشاكل وساروا بالقطر سيرة دوجا خلال الحملة الشامية ، أن تتوطد بين الفريقين دعائم الوفاق والتفاهم

أما الحوادث المهمة التي وقعت في مصر في الحملة السورية فتنحصر في المسائل الآتية . —

١ — ثورة أمير الحج

٢ — ثورة المهدي بمديرية البحيرة

٣ — المخابرات مع أمراء المسلمين

٤ — حروب ديزيه مع مراد بك والمماليك وعرب الحجاز في الصعيد

وسنشرح مع الايجاز المفيد تلك المسائل واحدة واحدة .

---

(١) راجع ما كتبناه عن الطواعين في المقدمة الاولى

## ١ ـ مسألة أمير الحج

كانت وظيفة امارة الحج من الوظائف الكبرى فى القطر المصرى وكان لا يتقلدها إلا كبار الامراء من المماليك. ولهذه الوظيفة مرتبات ثابتة وأوقاف كثيرة فلما قدم الفرنساويون إلى مصر كان أمير الحج صالح بك من أتباع مراد بك ، قادماً بالمحمل والحجاج المصريين من الاقطار الحجازية وحاول نابوليون أن يستدعيه الى القاهرة كما سبق لنا ذكر ذلك فرفض وانضم إلى ابراهيم بك عند بلدة بلبيس وسافر معه الى الاقطار الشامية وتوفى بها فى تلك السنة . ولكى يؤيد نابوليون للمصريين إنه محافظ على تقاليدهم الدينية وعاداتهم الاسلامية ، ارتأى أن يسند وظيفة إمارة الحج للمدعو مصطفى بك الذى كان فى وظيفة كتخدائية الباشا أو وكيله أو نائبه . قال المعلم نقولا الترك فى حوادث الايام الاولى من احتلال الفرنساويين « ثم ان أمير الجيوش أحضر مصطفى أغا كتخدا با كير « بكر » باشا وأمنه وألبسه فرواً وجعله أمير الحاج وأمره أن يباشر لوازم الحج وما يحتاج اليه، وقال له، لماذا الوزير فرهارباً مع المماليك ؟ ألم يعلم أننا متحدون مع الدولة العثمانية ونحن ما حضرنا هذه الديار إلا باذن السلطان . ثم أمر أن يحرر الى بكر باشا وأن يرجع إلى القلعة كما كان، وله الكرامة والامان » وظاهر من هذا أن نابوليون تعطف على مصطفى بك وأحسن اليه وقلده أكبر المناصب

وقد بحثت كثيراً لعلى اهتدى الى ترجمة لمصطفى بك هذا فى مجلدات الجبرتى أو فى سواه فلم اعثر على اسمه الا فى وقت اختياره لامارة الحج . ويغلب على الظن انه كان من المماليك، وانه كان فى وقت من الاوقات أغات الانكشارية « قومندان وجاق أى فرقة الانكشارية » ثم تولى كتخدائية الباشا ، وبقى بعد دخول الفرنساويين مقرباً منهم وقد عهدوا اليه تشغيل الكسوة الشريفة ومنحوه مرتبات ومخصصات إمارة الحج وجعلوه اميناً على ممتلكات الباشا الوالى التى لم يمسوها بسوء . فلما قصد نابليون الغارة على سوريا إختار كما ذكرنا من المشايخ مصطفى الصاوى وسليمان الفيومى والدواخلى والعريشي لمرافقته ، وأختار معهم مصطفى بك،

امير الحج وأدهم افندى بجمقشى زاده قاضى القضاة . وكان النظام الذى وسمه لهم نابوليون هو ان يسبقهم بمرحلة . فلما وصل الى الصالحية كانوا هم فى بلبيس . ولما برح الصالحية طلب اليهم ان ينتقلوا اليها . قال الشيخ الجبرتى « فبلغهم وقوف العرب بالطريق نخافوا من المرور فذهبوا الى العرين « كذا » فاقاموا هناك واخذ عسكر الفرنسيس جمالهم فأقاموا مكانهم فقلق المشايخ الدواخلى والصاوى والعريشى وخافوا سوء العاقبة ففارقوهم وذهبوا الى العرين، وتخلف الفيومى مع كتخدا الباشا والقاضى » وذكر الجبرتى أيضاً ان الشيخ الصاوى والعريشى والدواخلى وآخرين خافوا عاقبة الأمر ، وذهبوا الى القرين « بالقاف » وحصل للدواخلى توعك وتشويش » وقال أيضاً « واتفق ان الشيخ الصاوى ارسل الى داره مكتوباً وذكر فى ضمنه ان سبب افتراقهم من الجماعة انهم رأوا من كتخدا الباشا اموراً غير لائقة ، فلما حضر ذلك المكتوب طلبه الفرنساوية القيمون بمصر وقرأوه وبحثوا عن الأمور غير اللائقة فأولها بعض المشايخ أنه قصر فى حقهم والاعتناء بشأنهم فسكتوا وأخذوا فى التفحص فظهر لهم خيانته ومخامرتهم عليهم » .. وزاد الجبرتى على ما تقدم ايضاحاً لحوادث ١٧ منه ، إلا انه لم يذكر لنا غرضه من عبارة تخوف المشايخ الثلاثة « سوء العاقبة »، سوى قوله «ان الفرنساويين ظهرت لهم خيانة مصطفى بك وعصيانه»

وحقيقة ما وقع من مصطفى بك ، كما يؤخذ من أقوال المؤرخين الفرنساويين ومن عبارات الجبرتى المتقطعة ، ومن روايات المعلم نقولا المتبعثرة، ان مصطفى بك لما كان فى جهة الشرقية وصلت اليه أنباء من احمد باشا الجزار ، ومن رئيسه السابق بكر باشا يخبرانه فيها ان الجيش العثمانى قادم لتخليص مصر من جهات شتى ، وخيل له ان نابليون قد ذهب بجيشه الى سوريا وانه يستطيع بما له من مركز امارة الحج، ومن صفة الوكالة عن والى الدولة فى مصر، ان يثير على الفرنساويين حرباً عواناً، فأثر على القاضى الذى سبق لنا وصفه بالضعف والجور فى حوادث ثورة القاهرة ، وأراد ان يؤثر على المشايخ الأزهريين ، وهم حريصون دائماً على رعاية صوالحهم ، فلم يتأثر

بعض التأثر إلا الشيخ سليمان الفيومي وعاد الثلاثة الآخرون للقاهرة، وانتقل مصطفى بك والقاضي والشيخ الفيومي وبعض التجار والجند الوجاقلية الذين كانوا معهم، ونادوا بالجهاد وخلاص البلاد، وفي حوادث يوم ١٧ شوال، يقول الجبرتي «ان مصطفى بك انتقل ومن معه الى كفور نجم، ثم الى منية غمر ودقدوس وبلاد الوقف، وانضم اليه الجبالى وبعض العرب العصاة، فأكرمهم وخلع عليهم وأخذ يقبض الأموال. وحين كانوا على البحر (يريد على نهر النيل في جهة ميت غمر) مرت بهم سفن تحمل الميرة والدقيق الى الفرنسيس بدمياط، فاغتصبوا تلك السفن وأخذوا ما فيها قهراً»

والخلاصة ان مصطفى بك قلب لفرنسا ظهر المجن وبادأهم بالعدوان اعتماداً على قدوم جيش الجزار وابراهيم بك من سوريا، فأمتد لهيب الثورة في مديريتي الشرقية والدقهلية. قال لاكروا «وهو ناقل عن كتاب برتران باملاء نابليون» ان مصطفى بك أمير الحج وصلت اليه رسائل من الجزار بأن بونابرت قد قتل، وان الجيش العثماني محيط بالجيش الفرنساوى، فرفع مصطفى بك راية العصيان جهاراً، وأصدر منشوراً يحرض اهالى مديرية الشرقية على الثورة، وذكر في ذلك المنشور، ان بونابرت قتل وان جيشه قد تبدد. فانضم اليه بعض الأهالى حتى بلغت قوته نحو خمسمائة من المشاة ومثلها من الخيالة. فلما وصلت الأخبار الى القاهرة، اصدر الجنرال دوجا أمره الى الجنرال لانوس حاكم أقليم المنوفية بمطاردة مصطفى بك والقضاء عليه، فصدع بما أمر، وبعد عناء ومشاق ومقابلات عديدة، تفرقت قوة امير الحج شذر مذر، وفر هو هارباً الى دمياط. وبحث لانوس عن القرى التى اشتركت في الثورة وأحرقها، لتكون لغيرها مثالاً وعبرة. وقد قال نابوليون في خطابه الى حكومة الديركتوار المؤرخ ١٨ يونيه «أي بعد أربعة أيام من وصوله الى القاهرة» «وهكذا فقد ذلك الرجل — يريد مصطفى بك — في يوم واحد جميع الخيرات التى نالها على يدنا واصبح مشرداً مطروداً من وطنه، بعيداً عن أسرته، التى لا تزال بالقاهرة، وفقد كل كرامة واحترام».

وذكر الجبرتي في حوادث ٢٤ شوال ، ان الفرنساويين صادروا ممتلكات مصطفى بك وقبضوا على كتخدائه الذى كان ناظراً على الكسوة وأخذوا ما تركه بكر باشا من الأمتعة واللابس والسروج والخيل والجمال . قال « فانقبضت خواطر الناس لذلك لأنهم كانوا مستأنسين بوجوده ووجود القاضي ويتوسلون بشفاعتهما عند الفرنسيس وكلمتهما عندهم مقبولة وأوامرهم مسموعة » .. فليتأمل القارىء فى الغرض من قول الجبرتى « وكان الناس مستأنسين بوجود القاضى وامير الحج » كأنما كان وجود هذين الرجلين الممثلين للسلطة العثمانية خير ضمان للمصريين من الاحتلال الفرنساوى ؟ : أو كأنما كان وجودهما يمثل فى نظر القوم في ذلك الزمن ما كان يمثله وجود الغازى احمد مختار باشا فى زمن الاحتلال الانجليزى : أم ليت شعرى ماذا اراد الجبرتى من معنى الاستئناس بوجود ذينك الرجلين ؟ وقد سبق لنا ذكر القاضى واخلاقه ، فلنضرب عنه صفحاً . وأما مصطفى بك هذا فلم يكن من أهل المروءات ولا من ذوى الكفايات ، يدلك على هذا بقاؤه في مصر وعدم سفره مع رئيسه : كما يدلك على انحطاط نفسه وجبنه ، ان المنشورات التى بعثت بها الدولة الي مصر ، وهى التى جئنا على نصها العربى فى صحيفة ٢٦٨ وصلت الى مصطفى بك فأخذها هذا وذهب بها الي نابليون يتقرب اليه ويتملق[1] . ومن دلائل سخافته وضعف خلقه انه بعد ان أغرى القاضى وأضر به وباولاده وأسرته ، وبعد أن سبب الأذى للأهالى الذين عضدوه ، وحرقت قراهم ، وصودرت أملاكهم ، يكتب الى الفرنساوين متملقاً مستعطفاً ، فقد ورد فى حوادث يوم الثلاثاء ٢٦ شوال في الجبرتى ما نصه حرفياً « وفيه حضر امام كتخدا الباشا (الأمام الذى يصلى به ) ومعه مكتوب فيه الثناء على الفرنساوية ، وشكر صنيعهم واعتنائهم بعملهم موكب الكسوة والدعاء لهم وانه مستمر على مودته ومحبته معهم . وفي أخر المكتوب وان بلغكم من المنافقين عنا شيء فهو كذب ونميمة » . قال فقرىء كتابه بالديوان فلما فهمه الفرنسيس كذبوه ولم يصغوا اليه ، وقالوا ان خيانته

---

(١) جبرتى ص ٣٨ جزء ٣ طبعة ثيري .

ثبتت عندنا فلا ينفع الاعتذار ، وكتبوا له انه ان كان صادقاً في مقالته فليذهب الى سارى عسكر بونابارت بالشام ، وأمهلوه ست ساعات بعد وصول الجواب اليه ، وبعدها يأمرون العساكر بمطاردته والقبض عليه . ثم اصدر الجنرال دوجا منشوراً للمصريين يعلنهم بعزل امير الحج ويثنى على المصريين لعدم اشتراكهم فى تلك الفتنة ويشير على الحجاج بمرافقة الكسوة والصرة . . . الخ

ولم يعرف الجبرتى ماجرى على مصطفى بك سوى انه ذكر انه ربما رحل الى الشام ، ولكن المعلم نقولا روى ان مصطفى بك فر الى غزه ومنها الى عكا . فلما دخل على الجزار ، قال انت الذى كنت اغاة الانكشارية وأمير الحج ( يريد عند الفرنساويين ) قال نعم ولكني هربت منهم وأتيت اليك ، فقال الجزار ، ما انت إلاّ جاسوس ثم أمر بقتله »

وهكذا كانت خاتمة مصطفى بك كتخدا الباشا وامير الحج وزعيم هذه الثورة

أما الشيخ سليمان الفيومى الذى اشترك مع مصطفى بك أمير الحج فى هذه الثورة أو سار معه شوطاً بعيداً فيها ، فلم أعثر على ما يثبت أن الفرنسيين عاقبوه أو عنفوه ، لا سيما وانه عضو فى الديوان الخصوصى ومن كبار هيئة العلماء ، ولم يذكر الجبرتى عند ذكره الفيومى فى وفيات سنة ١٢٢٥ هجرية ، — وهى السنة التى توفى فيها الشيخ سليمان الفيومى أى بعد هذا التاريخ بنحو ثلاثة عشر عاماً — شيئاً عن هذه الثورة وانضمامه الى القائم بها . بل بالعكس قال عنه « أنه لما طرقت الفرنساوية البلاد المصرية وأخرجوا منها الامراء وخرج النساء من بيوتهن ، وذهبن الى داره أفواجاً أفواجاً حتى امتلأت داره وما حولها من الدور بالنساء ، فتصدى لهن وتداخل فى الفرنساوية ودافع عنهن ، وأقمن بداره شهوراً ، وأخذ أماناً لكثير من الاجناد ، وأحبه الفرنساوية وقبلوا شفاعاته ويحضرون الى داره ، ويعمل لهم الولائم ، وساس أموره معهم وقرروه فى رؤساء الديوان الذى رتبوه لاجراء الاحكام » وقال أيضاً :

« ولما نظموا أمور القرى والبلدان المصرية على النسق الذى جعلوه ، ورتبوا

على مشايخ كل بلد شيخاً ترجع أمور البلدة ومشايخها اليه ، جعل الشيخ سليمان الفيومي شيخاً للمشايخ ، مضافا ذلك لمشيخة الديوان وحاكمهم الكبير فرنساوي يسمى «ابريزون» ، فازدحمت داره بمشايخ البلدان ، فيأتون اليه أفواجا ويذهبون أفواجا ، وله مرتب خاص خلاف مرتب الديوان واستمر معهم في وجاهة الى أن انقضت أيامهم وسافروا الى بلادهم ، وحضرت العثمانية والوزير يوسف باشا كان الشيخ في عداد العلماء المتصدرين » اه

وغرضنا من نقل هذه الشذرات، من ترجمة حياة الشيخ سليمان الفيومي، إظهار حالة العلماء وتصرفهم مع الفرنسيين ، واستفادتهم من تلك الظروف، وأردنا كذلك أن نلفت النظر الى الفقرة الخاصة بالنظام الذي وضعوه لمشيخة البلاد فان هذا البيان الذي ذكره الجبرتي عفواً ، في ترجمة الشيخ سليمان الفيومي ، لم يذكر في الكتب الفرنسية ولا في غيرها ، حتى لقد صعب علينا رد الاسم الفرنسي — « أبريزون » — الى أصله [١]

## ٢ — ثورة المهدي في مديرية البحيرة

دعوى المهدوية قديمة العهد في الاسلام ، ولطالما جلبت على المسلمين من أسباب المشاكل والحروب والرزايا والتحزبات والانقسامات ، مالا تزال ذكراه مؤلمة لنفوس المسلمين . وقد حدث في أواخر شهر ذي القعدة من سنة ١٢١٣ هجرية، أن رجلا مغربياً لم يذكر لنا واحد من المؤرخين اسمه ، وكل ما ذكره الجبرتي عنه لا يتعدى بضع سطور نأتي على نصها قبل شرح ثورته ودعاويه الطويلة العريضة ومحارباته للفرنساويين أياماً عديدة . قال الجبرتي في ختام أخبار شهر ذي القعدة « ومن حوادثه أن طائفة من عرب البحيرة يقال لهم عرب الغز ، جاءوا وضربوا دمنهور وقتلوا عدة من الفرنسيس وعاثوا في نواحي تلك البلاد حتى وصلوا الي الرحمانية ورشيد ، وهم يقتلون من يجدونهم من الفرنسيس وغيرهم ، وينهبون

(١) عثرت في اللحظة الاخيرة في كتاب ألفه مسيو جورج ريجول George Rigault (Docteur ès Lettres) عن الجنرال عبد الله منو والمدة الاخيرة عن الحملة الفرنسية في مصر — عن النظام الذي وضعه الجنرال منو لمشايخ البلاد والذي جعل به الشيخ سليمان الفيومي شيخا للمشايخ بالاشتراك مع مسيو بريزون (Brizon) — ولما كانت هذه البيانات خاصة بالجزء الاخير من الحملة فنترك لمكانها فيه

البلاد والمزروعات » . ثم قال فى حوادث ٢ من شهر ذي الحجة « وتجمع كثير من الفرنسيس وذهبوا الى جهة دمنهور وفعلوا بها مافعلوا فى بني عدىّ من القتل والنهب لكونهم عصوا عليهم بسبب أنه ورد عليهم رجل مغربى يدعي المهدوية ، ويدعو الناس ويحرضهم على الجهاد ، وصحبته نحو الثمانين نفراً . وكان يكاتب أهل البلاد ويدعوهم للجهاد فاجتمع عليه أهل البحيرة وغيرهم وحضروا الى دمنهور وقاتلوا من بها من الفرنساوية واستمر أياماً كثيرة يجتمع عليه أهل تلك النواحى وتفترق، والمغربى المذكور تارة يغرب وتارة يشرق » اه

هذا كل ما ذكره الجبرتى عن ثورة المغربى المدعى المهدوية فى مديرية البحيرة . واضطراب روايات الجبرتى ونقصها راجع الى أنه مقيم في القاهرة وان الفرنساويين ، لمقتضى السياسة ، يمنعون تسرب الاخبار الصحيحة عن الثورات والحوادث فى داخلية البلاد . والظاهر من رواية المؤرخين الفرنساويين أن ثورة هذا المغربي استفحل أمرها وعظم شأنها حتى اضطربوا لأمرها . أما المعلم نقولا فلم يذكر كلمة واحدة عن حوادث هذه الثورة

وخلاصة ما كتب الفرنساويون فى هذا الصدد هو أن ذلك الرجل المغربى كان من أهالي « درنه » من ولاية طرابلس الغرب وانه اشتهر بالتقوى والصلاح بين قومه حتى كبر اعتقادهم فيه فادعى المهدوية ، وكان رجلا جريئاً فصيح اللسان، قوىّ الجنان يدعى أنه لا يأكل ولا يشرب ، وان الملائكة تغذيه وتحميه وخرج ذلك الرجل من بلدته وليس معه إلا خمسة وعشرون رجلا فلما وصل الى واحة سيوة وجد بها قافلة من الحجاج المغاربة فيها نحو اربعمائة رجل من الاشداء الاقوياء والمسلحين فخطب فيهم وحرضهم على الجهاد ضد الكفار

قال اولئك المؤرخون إنه فى ما بين ٢٤ و ٢٥ ابريل سنة ١٧٩٩ « الموافق ١٨ القعدة » انقض ذلك المغربى على رأس نحو ستمائة رجل على مدينة دمنهور فاستولى عليها بغتة ، وقبض على من فيها من الجنود الفرنساويين وفتك بهم قتلا وذبحاً من أولهم الى آخرهم، واستولى على سلاحهم وعلى مدافع كانت معهم، فلما اشيع أمر انتصاره هذا فى مديرية البحيرة هرع اليه الناس من كل فج ، وكبر اعتقادهم

فيه فاستفحل أمره ، وعظم شأنه، وغلا فى دعاواه ، فكان يقول إن رصاص الكفار وسيوفهم لا تنال منه شيئاً وانه يذر الرماد فى عيون الفرنساويين فيقتلهم ، الى غير ذلك من دعاوى الكرامات التى بني عليها أمثاله ترهاتهم وخزعبلاتهم وشهرتهم، وبلغ عدد الذين انضموا تحت لوائه، على رواية الفرنساويين، أكثر من اربعة آلاف مقاتل ، ولكن ليس فيهم سوى خمسمائة رجل مسلحين ، وكان فى الرحمانية فرقة من الجند الفرنساوي تحت قيادة الضابط ليفيفر «Lefebvre» فلما اتصلت به أخبار استيلاء المهدى على دمنهور وقتله حاميتها الصغيرة ، سار بقوة مؤلفة من خمسمائة جندي بسلاحهم الوافر لملاقاة المهدى والقضاء عليه . فوقعت بين الفريقين معركة كبيرة بين دمنهور والرحمانية ، فقتل من الفلاحين العزل من السلاح خلق كثير إلا أن الثائرين تمكنوا بكثرتهم من الالتفاف حول القوة الفرنساوية وقتلوا منها عدداً كبيراً فاضطر الضابط « ليفيفر » بعد معركة دامت عدة ساعات الى الانسحاب والالتجاء الى الطابية المقامة فى الرحمانية

ولما وصلت أخبار هذه الثورة الى القاهرة اضطرب الجنرال دوجا وأصدر أمره للجنرال لانوس الذى كان مكلفاً بمطاردة مصطفى بك امير الحج ، بأن ينتقل بالقوة التي معه الى البحيرة وأصدر أمراً ثانياً للجنرال فوجير « Fugiere » حاكم أقليم الغربية بالسير بقوة كافية الى الرحمانية . فوصل الى تلك النقطة فى ٥ مايو ، وبرح الجنرال لانوس ميت غمر فى ذلك اليوم وانضم الى القوة المحاربة فى الرحمانية يوم ٩ من ذلك الشهر، وتولى لانوس قيادة الجند التى تحت رياسة فوجير وليفيفر وسار بتلك القوة الكبيرة قاصداً دمنهور فدخلها في اليوم التالي ( ١٠ مايو ) وكان الجند الفرنساوى قد بلغ منه الحنق والغيظ مبلغاً شديداً فأخذ يفتك بالاهالي فتكا ذريعاً ، انتقاما على رأيهم للذين قتلوا من حامية دمنهور . قال « لاكرو » مانصه:

« ولما كان أهالي دمنهور قد اشتركوا فى الثورة وضربوا مثلا سيئاً لأهالي البحيرة لذلك قضى عليهم رجالا ونساء واطفالا بالفناء قتلا بحد السيف واشعلت النار فى دمنهور حتى احترقت عن آخرها ولم يبق من دورها ومساكنها غير أطلال قائمة، وأحجار قاتمة ، وجثث هامدة »

وكان أول الفارين من تلك الواقعة المحزنة ذلك التقى الورع صاحب الكرامات والآيات البينات، الذى تحرسه الآلهة! وتغذيه الملائكة! ولا تميته السيوف! ولا تحرقه النيران: أنتهز ذلك الكاذب المنافق فرصة دفاع الاهلين عن أولادهم وأعراضهم وما يمتلكون من حطام الدنيا، وفر مع جماعة من أتباعه على ظهور الخيل الى حدود الصحراء من شمال مديرية البحيرة، تاركا وراءه أولئك المساكين يتجرعون غصص الموت، ويرون بأعينهم حشاشات أفئدتهم، وفلذات أكبادهم تذبح على شفار السيوف وتحترق في لهيب النار!

وجرم جرّه سفهاء قوم    فحلّ بغير جانيه العقاب

ولكن ذلك المفتون لم يسلم من يد القصاص العادل لأن الجنرال لانوس لم يكتف بتبديد شمل تلك القوى المهدوية، بل سار بقوة كافية لمطاردة الفارين حتى أدرك فى العشرين من شهر مايو «المهدى المنتظر» عند الصحراء، وهناك اخترقت صدره رصاصة فسقط يتضرج فى دمائه

ومن غرائب مقتضيات الجهل أن أولئك المغاربة والعربان المفتونين بمهديهم لم يريدوا أن يعتقدوا أن قائدهم قد مات بل تفرقوا شذر مذر عصابات وجماعات فى أنحاء البلاد يوهمون الناس أن المهدى لم يمت وإنما قد اختفى وهو يحارب بسيفه البتار، من وراء ستار!.. اهـ رواية الفرنسيين

***

ما تقدم من رواية ذلك المغربى الثائر ضد الفرنسيين مستقى من المصادر الفرنسية التى لم يكن لدينا سواها، ولكني عثرت فى اللحظة الاخيرة على بيان من مصدر موثوق بصحته وروايته، لانه أولاً مصدر محايد، وثانياً شاهد عيان. وصاحب هذه الرواية هو الكولونيل روبرت توماس ويلسون الانجليزى أحد ضباط الحملة الانجليزية التى قدمت لمصر تحت قيادة الجنرال أبركرومبي للاشتراك مع الجيش التركى في إخراج الفرنسيين من أرض مصر

فقد وضع الكولونيل ويلسون كتاباً ذا قيمة تاريخية عظمى عن تلك الحملة (١)

(1) History of The British Expedition to Egypt by Robert Thomas Wilson Lieut. Colonel. — London 1803

روى فيه أن الذى يسميه الفرنسيون « المهدى » صاحب الثورة فى البحيرة لم يقتله الفرنسيون وأنه اجتمع بالجيش الانجليزي بالقرب من الرحمانية وسار معه حتى وصل الى القاهرة ، وأنه لم يكن شخصاً عادياً بل كان أحد أمراء المغرب الأقصى واسمه مولاى محمد . وقد أطال الكولونيل ويلسون فى وصف ذلك الرجل فقال عنه انه اجتمع به وأنه رجل مهيب الطلعة ، حسن البزة ، نبيل النزعة ، وانه رأس الحركة الثورية التي قامت فى دمنهور فى غيبة نابوليون فى سورية . قال « وكان يركب فرساً عربية من أجمل الجياد التى وقعت العين عليها وكانت عمامته وجبته ناصعتى البياض، موشاة حوافيها بالذهب وتتدلى على كتفيه شراريب من الدمقس الاحمر ، الى غير ذلك من جميل الملبس وجليل الخلق »

فمن يكون هذا الأمير المغربى مولاى محمد ؟ ذلك ما لم أتمكن من تحقيقه وغاية ما وصل اليه بحثي انني عثرت على الرواية الآتية فى الجبرتى، وهى قبل قدوم الفرنسيين الى مصر بنحو سبع سنوات، إذ قال فى اخبار ١٣ رمضان سنة ١٢٠٦ هجرية ما يأتى:

« وفيه حضرت صدقات من مولاى محمد صاحب المغرب ففرقت على فقراء الازهر وخدمة الاضرحة والمشايخ المفتيين والشيخ البكرى والشيخ السادات والعمريين على يد الباشا بموجب قائمة ومكاتبة »

وهذا النبأ وحده من بين أنباء الجبرتى ورواياته فى مجلداته الأربعة يثبت أنه كان هناك من امراء المغرب أمير يدعى «مولاى محمد»، وانه كانت له صلة بمصر، وأنه كان يرسل الصدقات الى العلماء والمشايخ وطلاب العلم فى الازهر الشريف . فاذا ضم هذا الى رواية ويلسون الذى قابله ورآه وحادثه ووصفه كما عرفه، كان من المحقق أنه لم يكن رجلا مشعوذاً ، وأنه قدم مصر بغتة بجماعة من عرب الصحراء الغربية وأهل الغرب لمحاربة الفرنسيين عن غيرة دينية ، وانه لم يقتل كما روى كتاب الفرنسيين الذين أجمعوا على الخلاصة التى تقدم بيانها .

وكان من سوء حظ الفرنساويين أن عصابة من تلك العصابات المفتونة طوحت بها خاتمة المطاف، بعد ذلك التاريخ بنحو شهر من الزمان، الى جهة بحيرة ادكو وكان الجنرال دومارتين « Doumartin » « وهو من أكبر القواد الفرنساويين ورئيس

فرق الطوبجية ومن كبار المهندسين، وهو الذى أخضع ثورة القاهرة الاولى كما يذكر القراء بمدافعه التى سلطها على المدينة من تلال البرقية والمرتفعات المحيطة بها» ، — يسير فى قارب مسلح ووجهته الاسكندرية للوقوف على كيفية تحصينها وخطط الدفاع عنها ، ويظهر أنه كان موفداً من قبل نابوليون لأداء هذه المهمة بعد عودتهما معا من سورية ، أى بعد ١٤ ، يونيه بقصد التثبت من قوة الدفاع عن شواطىء مصر خوفا من الاساطيل الانجليزية والعثمانية القادمة بجيش لمصر . كان ذلك القائد الكبير يسير فى ذلك القارب فالتقت به عصابة مشردة من عصابات ذلك المهدى فصبت عليه ومن معه فى القارب نارا حامية قضت على أكثر من نصف البحارة وأصيب ( دومارتين ) بعدة رصاصات ، فنقل بها جريحا الى رشيد ومات بسببها فى التاسع من شهر اغسطس فخسر الفرنساويون بموته خسارة كبيرة . وتولى مكانه فى رياسة الطوبجية الجنرال سونجي « Songis »

ولا نجد مناصاً من تذكير القراء بما كتبناه عن ثورة القاهرة وما يجلبه أولئك الأفاقون مثل بدر المقدسى السورى ، وذلك المهدى ، أو الامير المغربى ، على الاهالى الآمنين المطمئنين ، من البلايا والمصائب ، كما حصل لأهالى دمنهور ، وكما وقع لسكان القاهرة من قبلهم . ولا زلنا نقول ونكرر انه مع شديد رغبة الناس فى الخلاص من الحاكم الاجنبى ، فان مصلحتهم وظروفهم تقضى عليهم بالتزام السكينة والابتعاد عن القلاقل مالم تتكافأ القوى ويضمن الفوز ، ولا يفل الحديد إلا الحديد . وكانت تلك المصلحة وتلك الظروف تقضيان على الحاكم الاجنبى من جانب آخر أن يدرك شعور العامة ولا يمكن المهيجين المفتونين من إثارة الخواطر بالضرب على الاوتار الحساسة من العواطف القومية ، وأن يسلك مع الذين قدر عليهم القضاء بالوقوع تحت سيطرته مسلك الحكمة والعدل والانصاف ، وأن يدع إدارة أحكام البلاد فى أيدى أبنائها حتى لا يشعر الاهلون بثقل وطأة السلطة الاجنبية . فبذلك — وبه وحده — يقفل باب التحريض والتهييج فى وجوه طلاب الصيد فى المياه العكرة ، ممن لا ناقة لهم فى البلاد ولا جمل .

## ٣ — المخابرات مع أمراء المسلمين

كانت حملة نابوليون على سورية مدعاة للتأثير العظيم على العالم الاسلامى ، لان محاربة الدولة العثمانية فى سوريا بجيش مدرب تحت قيادة رجل مثل نابوليون بونابارت كان من شأنه أن يبعث الوجل والاضطراب فى قلوب أمراء المسلمين ، الذين كانوا تابعين للدولة العثمانية اسما وكانوا يتحينون الفرص للخلاص من سيطرتها المركزة في القسطنطينية — تلك السيطرة التى كانت تخول لها ارسال الولاة الظالمين المتغطرسين الضالين الى ولاياتها المختلفة . ولهذه الاسباب كان كبار الامراء وذوى العصبية من ولايات الدولة العثمانية ينظرون الى نتيجة الحملة الفرنسية في سوريا لينضموا ، أو ليشايعوا ، أو ليظهروا الولاء للغالب ، أملا فى الخلاص ، ووسيلة للاستقلال عن الاستانة . وكان من هؤلاء الامير بشير الشهابى وأمثاله فى فلسطين وسوريا ، ومنهم أيضاً أمير مكة الشريف مسعود بن غالب

وقد سبق لنا أن ذكرنا (١) أن نابوليون انتهز فرصة موسم الحج فأرسل خطابا لشريف مكة يذكر له فيه استيلاءه على مصر ويدعوه الى المصادقة ، ويظهر أن الشريف غالب لم يحفل بالرد على نابوليون ، ولكنه حين علم أن الفرنسيين قاموا بحملة على سورية وأخذوا يهاجمون عكا ، وانه مما يدخل فى حيز الممكنات أن تتفكك عرى الدولة العثمانية ، بعث بخطاب مطول الى القاهرة يظهر فيه التودد نحو الفرنسيين ويعدهم بالمعونة والتأييد

وقد نشر الجبرتى نص هذا الخطاب ، لان الفرنسيين أذاعوه فى مصر ليقيموا البرهان على ان أمراء المسلمين يراسلونهم ويظهرون العطف نحوهم

وقد رأينا من الواجب إثبات صورة ذلك الخطاب فى هذا الكتاب ، لماله من القيمة الاثرية التاريخية ولاظهار أسلوبه العربى فى ذلك العهد . وصورته كما يأتى :

« من الشريف غالب بن مساعد شريف مكة المشرفة الى عين أعيانه ، وعمدة أخوانه « بوسليك » مدبر أمور جمهور الفرنساوية ، وممهد بنيان السياسة ببداد

---

(١) صحيفة ٢٠٢ من هذا الكتاب

همته الوفية . و بعد فانه وصل الينا كتابك ، وفهمنا كامل ما حواه خطابك ، مما ذكرت من وصول « قنجتنا » وانك أرسلت هجانا برفع العشور عن البن . و بذلت الهمة فى شأن التصرف في نفاذ بيعه . وتأملنا في كتابك فوجدنا من صدق مقاله ما أوجب تمسكنا بوثاق الاعتماد عن تموه غياهب الشك فى كل المراد . ووجب الآن علينا تكوين أسباب المصادقة . والمبادرة فيما ينظم مهمات تسليك الطرق بيننا و بينكم عن الوعث وزوال المناكرة ، وشهلنا الآن الى طرفكم خمسة مراكب مشحونة من تقس بندرنا جدة المعمورة فى هذا الاوان . ولا أمكن لنا خروج هذا المقدار إلا بمشقة علاج مع سلب اطمئنان التجار . لأن كثرة آكاذيب الاخبار، أوجبت لهم مزيد الارتياب والاعذار ، بحيث ما بيننا و بينكم إلا العربان المختلفة رواياتهم على ممر الازمان ، وأما نحن فقد جاءتنا منكم قبل هذا المكاتيب ، التى أوجبت عندنا من خطاب كتبكم زوال تلك الظنون والاكاذيب ، فخاطرنا مستقر بالطمأنينة من قبلكم ، لما ثبت عندنا من الفاظ كتبكم ، والمطلوب فى حال وصول كتابنا اليكم ارسال عسكر من لديكم الى بندر السويس لأجل حفظ أموال الناس، و يصلوا بالأبنان الى مصر . ويبيع التجار ، و يزول وقف الاسباب والباس ، وتهتموا فى رجوعهم كذلك قبل بأوان ، ليكون ذلك سبباً فى كثرة وفود الابنان ، وعند رجوعهم بعد المبيع من مصر الى السويس كذلك تصحبوهم بالعسكر من طرفكم الوثيق ، ليكونوا محافظين لهم من شرور الطريق ، لأن هذه المرة ما أرسل اليكم هذا المقدار ، إلا تجربة واستخباراً من أعيان التجار ، وعند مشاهدة الاكرام والاحتفال بهم ، فى كل حال يرسلون اليكم نفائس أموالهم ، و يهرعون بالجلب لطرفكم ، و يزول الريب عن قلوبهم ، ونرجو الله بهمتنا تسليك الطرقات، وتنجيح المطالب ، وتحصيل الميراث بأحسن مما كانت من الأمان ، وأعظم مما سبق فى غابر الازمان ، ويكثر بحول الله الوارد اليكم من الاسباب الحجازية ، وكذلك

لنا بن فى المراكب ، فمأمولنا منكم القاء النظر على خدامنا ، وبذل الهمة على ما هو من طرفنا ، وأنتم كذلك لكم عندنا مزيد الاكرام فى كل مرام . ولايخفاك أنه ورد علينا قبل بأيام كتب من طرف أمير العسكر الفرنساوية ، محبنا بونابرته ، فما كان لنا منها فتأملناه ، وصار اليه الجواب فوصله اليه . وما كان منها معولا فى ارساله علينا الى نواحى الهند وابن حيدر وإمام مسكت ، ووكيلكم الذى فى المخا ، فجميعاً أصدرناها من طرفنا مع من نعتمده الى أربابها . وإن شاء الله عن قريب يأتيكم الجواب والسلام

تحريراً في ثمانية عشر شهر ذي القعدة سنة الف ومائتين وثلاثة عشر »

* * *

وظاهر من هذا أن مخابرات نابوليون لم تكن قاصرة على شريف مكة بل اتخذه أيضاً واسطة لايصال كتبه وأغراضه الى حيدر آباد في الهند ، والى إمام « مسقط » على الخليج الفارسى ، والى القنصل الفرنسى فى المخا ، أو موخا ، باليمن.

أما حوادث محاربة الفرنسيس للماليك فى الصعيد فقد أجملناها تحت عنوان المحاربات الفرعية بصفحة ١٧٥ من هذا الكتاب

# المدة الاخيرة

## لنابوليون في القطر المصرى

## من ١٤ يونيه — ٢٢ اغسطس سنة ١٧٩٩

### ١ — مسألة القضاء الشرعى

كانت المدة التى قضاها نابوليون فى القطر المصري بعد عودته من سورية الى مبارحته هذه الديار ( من ١٤ يونيه إلي ٢٢ أغسطس سنة ١٧٩٩ ) مملوءة بالحوادث الهامة، منها ماهو محلى" موضعي"، ومنها ماهو عام دولى" فمن الحوادث المحلية التى كان لها شأن هام واهتمام فى الهيئة الاجتماعية المصرية حادثة ابن القاضى التى فتحت باب القضاء الشرعي فى مصر ، وقد سبق للقارئ أن علم من الفصل السابق فى الحوادث التى وقعت أثناء الحملة السورية ، أن مصطفى بك أمير الحج قد استغوى ابراهيم أفندى أدهم قاضى قضاة القطر المصرى المعين بأمر جلالة السلطان، خليفة المسلمين صاحب السلطة الشرعية، فاصبحت مصر في ذلك الحال بغير قاض شرعي تصدر باسمه الاحكام ويأذن للقضاة بالنظر فى الدعاوى . ويظهر أن الجنرال دوجا لما تغيب القاضى خاف من اضطراب القضاء ، فساس الأمور بحكمة ودهاء ، وترك مركز القاضى لولده المدعو ملا" زاده افندى . ويظهر أن العلماء والمشايخ والأعيان لم ينكروا عليه ذلك بل سرهم ورضوا به، كما يتبين لنا من تمسكهم بابن القاضي واهتمامهم بأمره كما سيجىء بيانه . ولا أدرى كيف كان تصور القوم في ذلك الزمن. ألمجرد أن أباه كان متولياً للقضاء بفرمان سلطانى، يكون لذلك الفتى ما كان لأبيه من السلطة الشرعية ؟ أم لمجرد أنه تركى وابن تركى، يكون له حق النظر فى شئون المسلمين والفصل فى قضاياهم وخصوماتهم ؟

وعلى كل حال فان الذى ارتضاه الجنرال دوجا لم يرضه نابوليون، وأراد البت

في مسألة القضاء الشرعي في مصر حتى يقطع الصلة بينها و بين السلطنة العثمانية بعد كل الذي أظهره من رغبة الاتفاق مع الدولة العلية، و بعد علمه بأن تركيا قد اشهرت عليه الحرب، وان الجيوش العثمانية، بالاتفاق مع انكلترا، قادمة للنزاع معه على السلطة في هذه الديار ! فلم يكد يفرغ نابوليون من حفلاته وزياراته، وتوزيع منشوراته، حتى أصدر أمره في ٢٢ محرم سنة ١٢١٤ بالقاء القبض على ملاّ زاده، ابن القاضي، وسجنه في القلعة . فاحدث عمله هذا ضجة في الدوائر الأهلية، كما يظهر ذلك من رواية الجبرتي الذي يقول « فلما اجتمع أرباب الديوان حضرت اليهم ورقة من كبير الفرنسيس فقرئت عليهم ومضمونها أن سارى عسكر قبض على ابن القاضي وعزله وأنه وجه إليكم أن تقترعوا وتختاروا شيخاً من العلماء يكون من أهل مصر ومولوداً بها يتولى القضاء ويقضي بالاحكام الشرعية ، كما كانت الملوك المصرية يولون القضاء برأي العلماء . فلما سمعوا ذلك أجاب الحاضرون بقولهم أننا جميعاً نتشفع ونترجى عنده في العفو عن ابن القاضي فانه انسان غريب ومن أولاد الناس . وإن كان والده قد وافق كتخدا الباشا ( مصطفى بك أمير الحج ) في فعله فولده مقيم تحت أمانكم . »

فانظر كيف أهمل المشايخ الافاضل المسؤولون عن اقامة العدل وارشاد الناس أمر مسألة القضاء التي فتح بابها عليهم نابوليون ، واهتموا بادئ ذي بدء بأمر ابن القاضي وخلاصه ! ذلك لان الهيبة التركية ونفوذها متأصلان في نفوس القوم. ولم تكن جلسة الديوان هذه قاصرة على أعضائه كما يؤخذ ذلك من رواية الجبرتي عن وجود السيد السادات . فقد روى أنه كان حاضراً في المجلس وأغلظ القول للفرنساويين. ولم يذكر الجبرتي شهوداً آخرين من العلماء والاعيان ، ممن ليسوا أعضاء هذه الجلسة التي قصد فيها الفصل في مسألة القضاء الشرعي ، ولكن يؤخذ من العريضة التي قدمها المجتمعون لنابوليون، والتي عثرنا على صورتها بالفرنسية في كتاب شرفيس، أنه حضر تلك الجلسة التاريخية، عدا السيد السادات، المشايخ الامير الشيخ الحريره ( كذا في الاصل وصوابه الحريري ) والدسوقي الجوهري والسرسي

والعريشى والعنانى ، وكثير من أعيان القاهرة وقد شدد السيد السادات فى طلب العفو عن ابن القاضى وقال للمندوبين الفرنساويين الحاضرين « كيف تفعلون هذا وأنتم دائماً تقولون أن الفرنساوية أحباب العثمانية وهذا ابن القاضى من طرف العثمانى فهذا الفعل مما يسىء الظن بالفرنساوية ويكذب قولهم خصوصاً عند العامة »

قال الشيخ الجبرتى « فلما ترجم هذا الكلام للوكيل الفرنساوى قال لا بأس بالشفاعة ولكن بعد تنفيذ أمر سارى عسكر فى اختيار قاضٍ خلافه » ثم هددهم بقوله « ولا تكونوا مخالفين يلحقكم الضرر بالمخالفة فامتثلوا، وعملوا القرعة فطلعت لأكثرية باسم الشيخ احمد العريشى الحنفى ثم كتبوا عرضحالا بصورة المجلس والشفاعة »

فيظهر من هذه الرواية أنه لولا تهديد الفرنساويين للمشايخ لما قبلوا انتخاب واحد منهم من علماء مصر لتولى القضاء فى الديار المصرية ، ولفضلوا أن تنتقل تلك الوظيفة السامية من الوالد الى ابنه ولو كان الابن فتى غير عالم بالشرع الشريف، وذلك لمجرد أنه تركي وابن تركى ! وهذه العاطفة جديرة بالنظر وكان لها ولا يزال لها شأن مهم فى أمور هذه الديار ، ويجب أن تبقى دائماً موضع اهتمام وعناية من يتم له الأمر على ضفاف وادى النيل

ولما علم نابوليون بما دار فى المجلس من الكلام والأخذ والرد حنق على السيد السادات واستدعاه اليه ولامه وعنفه ، ولولا تلطف الشيخ المهدى وحيلته ونيله ثقة نابوليون وحسن ظنه ، لاتسعت مسافة الخلف ، ولربما صودر السيد السادات وعوقب كما وقع له بعد ذلك فى مدة الجنرال كليبر

وواجب علينا أن نقول فى هذا الموقف أن السيد محمد ابا الانوار شيخ السجادة الوفائية فى ذلك الزمن ، كان من ذوى الكفاية والجرأة وكان له من النفوذ والمنزلة فى العالم المصرى ما جرأه مراراً وتكراراً على مقاومة النفوذ الفرنساوى والاحتفاظ بالكرامة الاسلامية ، وكان على جانب عظيم من العلوم

الدينية وتلقى دروسه على أكبر مشايخ ذلك العصر : قال عنه الجبرتى، وهو قليل المدح، إنه لما انتظم أمره أحسن سلوكه بشهامة وحكمة ورياسة وتؤدة، مع التباعد عن الأمور المخلة بالمروءة. ومع أنه كان صديقاً للشيخ عبدالرحمن الجبرتى بدليل قوله عنه «ولما قدمت الفرنساوية لم يتعرضوا له فى شىء وراعوا جانبه وقبلوا شفاعاته وتردد اليه كبيرهم وأعاظمهم وعمل لهم الولائم وكنت أصاحبه فى الذهاب الى مساكنهم والتفرج على صنائعهم ونقوشهم وتصاويرهم وغرائبهم »... الخ... فانه لم يخله من الانتقاد واللذع اللذين كان يميل اليهما الجبرتى بطبعه ، وكانا سبباً فى نكبته فى آخر عمره، فوصف الشيخ السادات بالشره فى حب المال، وبالكبرياء والدعاوى الكاذبة. فمن قوله عنه، إنه ترفع على العلماء والأقران وصار يلبس قاووقا بعمامة خضراء ، متشبها بالأكابر من الامراء ، و بعداً عن التشبه بالمتعممين والمقرئين والفقهاء ، ولما طالت أيامه ، وماتت أقرانه، الذين كان يستحى منهم ويهابهم ، غالى فى دعواه وصار فى داره كبيت حاكم الشرطة يضرب ويجلد ، ومدحوه على منبر الخطابة فى صلاة الجمعة فى زاويتهم المعروفة أيام الموالد ، حتى أن الجبرتى سمع قائلا يقول بعد الصلاة لم يبق على الخطيب إلا أن يقول اركعوا واسجدوا واعبدوا الشيخ السادات، الى غير ذلك من الصفات التي حفظ بها هيبة ذلك البيت القديم ، وألبسه بها هالة من المجد والوقار ، ولكن خلطهم لانسابهم، وامتزاج دمائهم بأبناء السرارى من النسوة الرقيقات من الجراكس والارمن والاروام ، أدخل فى خلقهم بذور الفساد والانحلال ، فانقرض ذلك المجد وهوى ذلك الجلال !

وقلد الشيخ احمد العريشى قضاء مصر ، ولم يذكر لنا الجبرتى ولا سواه صورة المكاتبة التي بعث به المشايخ يرجون العفو والافراج عن ابن القاضى . وقد رأيت صورتها باللغة الفرنسية فيما نقله كرستيان شيرفيس فى كتابه « نابوليون والاسلام » وخلاصة تلك العريضة أن أعضاء الديوان قد انضم اليهم فى جلسة خصوصية المشايخ السادات ، والامير ، والحريرى ، والدسوقى ، والجوهرى ، والسرسى، والعريشي، والعنانى، وكثيرون من أعيان المدينة قد اختاروا بالاقتراع بناء على طلب الجنرال

بونابرته الشيخ احمد العريشي لتولى قضاء مصر مكان ابن القاضى المعزول ، وان أولئك المجتمعين من أعضاء الديوان والعلماء والاعيان يرجون بونابرته فى الصفح أو الافراج عن ابن القاضى الذى لم تكن له علاقة بعصيان أبيه وانضمامه الى أمير الحج ، ثم ذكروا له أن الاهالى تولاهم الكدر والحزن على ما أصاب القاضى وولده وان أمه وجدته وأخته فى غم شديد واضطراب عظيم قلقاً عليه . ومما قالوه أيضاً إنه لو عين للبلد كل يوم قاض جديد فانه لا يرتاح لهم بال ، ما دام الذى كان متولياً للقضاء معتقلا مسجوناً ، وانَّ أعضاء الديوان يتكفلون بابن القاضى ويضمنون حسن سيره وولاءه للحكومة ، وذكروا له أن واجبهم هو الذى قضى عليهم بهذا الطلب لكى يوقفوا بونابرته على عواطف الامة وشعورها ، إزاء ذلك الحادث ، ودعوا له بطول العمر والسلامة ! فلما وصل هذا الخطاب الى نابوليون أصدر أمره باعداد حفلة لتولية الشيخ العريشي قضاء مصر ، وخلع عليه خلعة ثمينة وسار فى موكب كبير إلى دار المحكمة الكبرى بين القصرين . ثم أصدر أمره بأطلاق سراح ابن القاضى ، وكان الرجل الطيب الوجيه السيد احمد المحروقى كبير تجار مصر قد أخذ أسرة القاضى الى داره تطميناً لخواطرهم وانتهى ذلك الحادث الذى أظهر فيه المشايخ والاعيان تضامناً يحمدون عليه

ويظهر حقيقة أن الشعب المصرى كان متأثراً من اعتقال ابن القاضى حتى أن الفرنساويين رأوا من الضرورى ، على رواية الجبرتى ، عند ما أفرجوا عن ذلك الفتى ، « أن يركب مع أرباب الديوان والأغا وساروا به وسط المدينة ليراه الناس ويبطل القيل والقال »

وسرعان ما فعل ذلك نابوليون حتى اتبع خروج ابن القاضى من سجن القلعة بمنشور طبعه ووزعه وألصقه بالاسواق كردّ على خطاب العلماء . وقد ترك لنا الجبرتى صورة هذا المنشور كعادته فى جمع ما طبع ووزع ، وعدم وصول يده الى غير ذلك ، مما كتبه أعضاء الديوان . ولما كان هذا المنشور على جانب من الأهمية لانه يشرح سياسة نابوليون ورأيه في مسألة القضاء الشرعى رأينا أن نأتى على أهم ما جاء فيه . قال :

«من سارى عسكر الكبير بونابرته أمير الجيوش الفرنساوية محب أهل الملة المحبوبه . خطاباً إلى السادات العلماء أنه وصل لنا مكتوبكم بشأن القاضى فنخبركم أن القاضى لم أعزله وإنما هو هرب من أقليم مصر وترك أهله وأولاده وخان محبتنا من المعروف والاحسان الذى فعلناه معه ، وكنت استحسنت أن ابنه يكون عوضاً عنه فى محل الحكم فى مدة غيبته، ولكن ابنه لم يكن قاضياً متولياً للأحكام على الدوام، لأنه صغير السن وليس أهلا للقضاء، فأنا لا أحب مصر خالية من حاكم شرعى يحكم بين المؤمنين . فأستحسنت أن يجتمع علماء المسلمين ويختاروا باتفاقهم قاضيا شرعياً من علماء مصر وعقلائهم لأجل موافقة القرآن العظيم باتباع سبيل المؤمنين، وكذلك مرادى أن حضرة الشيخ العريشى الذى اخترتموه جميعاً أن يكون لابساً من عندى وجالساً فى المحكمة، وهكذا كان فعل الخلفاء فى العصر الاول باختيار جميع المؤمنين .... وسبب رفعنا لابن القاضى ( رفعه للقلعة أى اعتقاله ) سكون الفتن والاصلاح بين الناس، وأعرف أن أباه ما كان يكرهني ولكنه ذهب عقله وفسد رأيه . وأنتم يا أهل الديوان تهدون الناس الى الصواب والنور من جنابكم لأهل العقول، فعرفوا أهل مصر أنه انقضت وفرغت دولة العثمانلى من أقاليم مصر وبطلت أحكامها منها، وأخبروهم أن حكم العثمانلى أشد تعباً من حكم الملوك وأكثر ظلماً، والعاقل يعرف أن علماء مصر لهم عقل وتدبير وكفاية وأهلية للأحكام الشرعية يصلحون للقضاء أكثر من غيرهم فى سائر الاقاليم . وانتم يا أهل الديوان عرفونى عن المنافقين المخالفين أخرج من حقهم[1] لأن الله تعالى أعطانى القوة العظيمة لأجل ما أعاقبهم فان سيفنا طويل ليس فيه ضعف، ومرادى أن تعرفوا أهل مصر أن قصدى بكل قلبى حصول الخير والسعادة لهم مثل ما هو بحر النيل أفضل الأنهار وأسعدها ، كذلك أهل مصر يكونون أسعد الخلائق أجمعين ، بأذن رب العالمين . اه

ومع أن نابوليون قد أكد على المشايخ فى خطابه الذى وجهه اليهم أن يكون

---

(١) تعبير فى ذلك الزمن يراد به أى « أعاقبهم »

القاضي الذي ينتخبونه من أهل مصر ومولوداً بها فان الشيخ احمد العريشي لم يكن مصري الأصل ، لانه في الواقع ونفس الأمر سوري، ولد في بلدة خان يونس واسمه احمد اللجام الخانيونسي أو اليونسي ، وقدم الى الدار المصرية عام ١١٨٧ ﻫ أي قبل هذه الحوادث بنحو اثنين وعشرين سنة وتلقى الدروس بالأزهر والتصق بابن بلدته الشيخ عبدالرحمن اليونسي الملقب بالعريشي أيضاً وحضر الفقه على الشيخ حسن الجبرتي، والد الشيخ عبد الرحمن الجبرتي المؤرخ ، ثم تولى بعد الشيخ عبد الرحمن العريشي مشيخة رواق الشوام وكان يسكن في دار واسعة بسوق الزلط وقال عنه الجبرتي إنه كان فصيحاً مستحضراً متضلعاً من المعقولات والمنقولات وتوفى سنة ١٢١٨ هجرية

## ٢ — استعداد الانكليز والترك

لم يكن ليكفي انكلترا إخفاق نابوليون في غاراته على سوريا، أوفشله في مشروع تأسيس مملكة شرقية يسطو بواسطتها على الهند ،بل بقيت انكلترا مصممة على إخراج مصر من سلطة الفرنساويين ، ولم تكن انكلترا وحدها بقادرة على ذلك لصغر جيشها ، وعدم إمكانه مجاراة الجيش الفرنساوي المدرب الذي يقوده نابوليون ، نابغة الحرب في ذلك الزمان

صحيح أنها سدت في وجهه السبل ، وحطمت سفنه ، وحالت بينه وبين بلاده، إلا أن نابوليون قد أظهر في غارته على سوريا ، ومقدرته على البقاء في مصر ، أنه قادر بمن معه من الجيوش والقواد والعلماء أن يغير مركز مصر ، ويرقى مواردها الطبيعية ، ويصلح من شئونها الادارية ، بحيث يستطيع أن يوجد على ضفاف النيل دولة جديدة قوية ينشيء فيها السفن في البحر الاحمر ، ويغير على الهند او غيرها متى توفرت معداته ، هذا عدا أن وجوده في مصر معطل لسير التجارة الانكليزية، ولمشروعات انكلترا الامبراطورية . واذا كان محمد على الأمي ، بلا قواد عظماء ولا علماء فضلاء ، ولا مشرعين ولا مخترعين ، استطاع بعد ذلك بعشرين عاماً أن يوجد من مصر الاساطيل والجيوش ، فهلا كان في استطاعة نابوليون

ومن معه ، إذا بقوا فى أرض مصر ، أن يفعلوا فعله ؟ لا شك فى أن ذلك هو ما كان يفكر فيه نابوليون بعد واقعة أبى قير البحرية ، كما صرح بذلك فى كثير من أقواله

ولم يكن لدى انكلترا من الوسائل إلا استخدام الفكرة الاسلامية ، وتحريض الدولة العثمانية والمماليك الذين اغتصب نابوليون الحكم من أيديهم ، لمقاومة الفرنساويين وتكدير صفو عيشهم فى أرض مصر حتى يتركوها ، إما بالقهر وإما بالرضا والصلح . فلما تم اتفاق انكلترا مع الدولة العثمانيـة وعاد نابوليون بالفشل من سوريا وضعت انكلترا خطة لاحتلال مصر بواسطة الجيوش العثمانية فى البر ، واسطولها ، تحت قيادة السر سدنى سميث ، فى البحر

وكانت تلك الخطة تقضى بأن تبعث الدولة العثمانية جيشين ، أحدهما تنقله السفن العثمانية والانجليزية من رودس والموانى العثمانية إلى أبى قير ، والجيش الثانى يزحف من سوريا وتكون مقدمته مؤلفة من ابراهيم بك ومماليكه ، ومن ينضم اليه من جيش الجزار . وإتماماً لضمان نجاح هذا المشروع تقرر الاتفاق مع المماليك الموجودين فى مصر تحت إمرة مراد بك وغيره من كبار الزعماء ، مثل عثمان بك الطنبرجى وعثمان بك الشرقاوى وحسن بك الجداوى وغيرهم . ووضعت لذلك خطة من مقتضاها أن يكون مراد بك مستعداً بجيشه فى مديرية البحيرة وأن يكون عثمان بك الشرقاوى بعزوته ومماليكه فى الشرقية ، فالاول يلتقى بالجيش العثمانى القادم بحراً إلى أبى قير ، والثانى ينضم الى الجيش القادم من سوريا عن طريق العريش

وربما سأل سائل : وكيف كان يمكن الاتفاق والمخابرة مع المماليك فى الوجه القبلى ، والفرنساويون فى جميع بلاد القطر المصرى قد سـدوا فى وجوههم السبل وضيقوا عليهم المذاهب ؟ والجواب على هذا هو ان طرق الصحراء شرقاً وغرباً ، كانت فى أيدى العربان ، وهم موالون للمماليك والاتراك ، فأولئك كانت مهمتهم إيصال الاخبار والمراسلات بين مصر وسوريا وشواطىء طرابلس الغرب حيث تلقى السفن الانكليزية مراسيها ، ويلتقى ضباطهـا بالعربان ، ويزودونهم بالرسائل والأموال لرؤساء البدو والمماليك ، فيسير أولئك فى الصحراء من واحة سيوه إلى وادى النطرون ثم الى الفيوم وغيرها

فلما تم وضع نظام تلك الخطة تحرك مراد بك بمن معه من المماليك من الصعيد إلى مديرية البحيرة ، وانحدر محمد بك الألفي وعثمان بك الشرقاوى على الضفة اليمنى من النيل ومعهما نحو ثلاثمائة من فوارس المماليك ، وانضم اليهم نحو ثلاثمائة أخرى من عرب الصحراء الشرقية ، وعسكر هذا الجيش فى البقعة المسماة « منبع آبار » بين السويس ومصر ، وكان ذلك فى ٧ يونيه سنة ١٧٩٩ (الموافق يوم الاحد ٣ صفر سنة ١٢١٤) وأخذت الرسل تذهب وتجيء بين ذلك المعسكر وأهالى الشرقية لتحريضهم على الثورة فى وجه الفرنساويين . فتنبه لذلك الجنرال لاجرانج Lagrange المتولى القيادة فى الشرقية ، فزحف بفرقة من الخيالة ونصف أورطة من الهجانة وباغت ذلك الجيش الصغير من المماليك والاعراب واحتاط به فى ليلة (١١ يوليه — ٨ صفر) ودارت بين الطرفين معركة غير منتظمة انتهت بتشتت المماليك وقتل كثيرين منهم ، وغنم الفرنساويون عدداً وافراً من الجمال ، وجميع ما كان مع تلك القوة من الميرة والذخيرة وأسروا نحو ثلاثين مملوكاً جيء بهم الى القاهرة . وهذه الرواية ، عن المصادر الفرنسية ، لا تختلف كثيراً عن رواية الجبرتى التى سردها فى حوادث ١١ صفر ، (أى بعد أربعة أيام من حدوث الواقعة) ، وانما ذكر الجبرتى أن القوة التى داهمت المماليك كانت مؤلفة من « جماعة من العسكر المنضمة اليهم » ثم قال « فلما داهموهم بادروا بالفرار وركب عثمان بك بقميص واحد على جسده وطاقية فوق رأسه ، وتركوا متاعهم وحملتهم ، ووجدوا على فراش عثمان بك مكاتبة من ابراهيم بك يستدعيهم للحضور اليه بالشام »

والحقيقة أن عثمان بك ومن معه استدعوا لانتظار ابراهيم بك ومماليكه وجيش الجزار ، بناء على التعليمات الواردة من رسل الانكليز . فأما ابراهيم بك — وهو دائماً شديد الحرص — فكان يسير من غزة على مهل لكيلا يدخل مصر قبل قدوم الجيش العثمانى من رودس ، وذلك خوفاً من الوقوع فى أيدى الفرنساويين ، فلما بلغه خبر تلك الهزيمة لعثمان بك والالفى بك عاد أدراجه الى سوريا . وأما الجزار الخبيث فاكتفى بعودة الفرنساويين من سوريا ، واستخلاصه هو عكا ، وامتداد نفوذه

فى الولايات السورية ، ثم قلب للدولة العثمانية وللانكليز ظهر المجن ، ولم يحفل بفرمانات الدولة ، ولا برسائل يوسف باشا الصدر الاعظم ، الذي قدم بجيش عظيم الى سوريا قاصداً مصر . وكذلك لم يحفل بخطابات السرسدنى سميث صاحب الفضل الاكبر عليه ، ذلك الذى انقذه من مخالب الفرنساويين وأبقاه سلطاناً مستبداً فى عكا وسوريا ، فلم يبعث ذلك الطاغية بما وعد به من الجند ، ولا ماوعد به من الميرة والذخيرة الى الجيش العثمانى القادم بحراً ، ولذلك حنق عليه السرسدنى سميث وعزم على التنكيل به ، كما يؤخذ ذلك صريحاً من نص خطاب عثرت عليه فى كتاب تاريخ الامير حيدر الشهابى، مكتوب من السرسدنى سميث إلى الامير بشير الشهابى بعد هذا التاريخ بستة أشهر (١) . وأما مراد بك فتحرك بمن معه من المماليك والعربان من الفيوم سائراً فى طريق الصحراء الى أن وصل الى جهة وادى النطرون فى مديرية البحيرة وهناك وقعت بينه وبين الجنرال (مورات) قائد الخيالة المشهور فى

---

(١) لما كان هذا الخطاب مجهولا لدى المؤرخين وله قيمة أثرية ، فضلا عما فيه من غرابة أسلوب التخاطب بين السرسدنى سميث والامير بشير، ولما فيه من الاشارة الى موقعة ابى قير البرية، رأيت أن آتى على نص هذا الخطاب فى هذه الحاشية :

« من سميث سارى عسكر سلطان بلاد الانكليز ونائب حضرة السلطان سليم ، الى الاخ الحبيب بشير الكامل الشرف والاحترام

أما بعد فانى لما وصلت الى بيروت سألت عن احوالك يا أخى وصديقى المحبوب فبلغنى ماوقع لك من احمد باشا الجزار فانه ولى مكانك اولاد الامير سيف وطردك من الولاية التى أنعمت بها عليك الدولة العثمانية عز نصرها . فحالا صرت اتوجه الى غزة لمواجهة أخينا الصدر الاعظم وقائم مقام الدولة العلية . وانشاء الله عن قريب تصل منى الاخبار التى تسرك . ولا تظن يا أخى الحبيب ان انقطاعى عنك لسبب غير كثرة الحروب والاتعاب التى حصلت لى فى ابى قير والاسكندرية وذلك لعدم اسعاف الجزار باشا اياى ، لانه تعهد أن يوجه الى الاسعاف بالمراكب والذخائر والآلات ونكث وعده وعهده والآن صار عدواً لى وللدولة العليه لان العهد بيننا أن عدو الدولة عدو الدولتين ، وصديق الدولة صديق الدولتين ، وانت يا أخى كن براحة بال انشاء الله قريباً تنال كل ماترغب فيه وقد تركت لك مركبا فى بيروت لاجل كل مايلزمك من الذخائر وغيرها وانشاء الله لا ابطىء عنك فى الاخبار وأنا اعلم أن بعض الوشاة فى دولتك يوصلون صورة كتابى هذه الى جزار باشا ، ولكن فليعلم أنه سيحل به الندم ، وتنزل عليه النقم ، وقد حررت لك هذه الاسطر من ظهر الطامور فى ٥ كانون الاول ( ديسمبر ) ولا بد ان تخبرنى دائما عنك والسلام »

تاريخ الحروب النابوليونية فى أوروبا ، موقعة انتهت بهزيمة مراد بك ورجوعه بمن معه من فوارسه الى مديرية الجيزة جنوباً . وفى رواية أخرى أن الجنرال ( مورات ) سبق مراد بك الى وادى النطرون فلما قدم هذا ورأى استعداد الفرنساويين ، انسحب بجيشه راجعاً الى الجيزه وقتل وأسر منه أفراد قلائل فى أثناء تعقب الفرنساويين له . وتجد أخبار الذين أسروا من المماليك فى حوادث الاسبوع الاول من شهر صفر من يوميات الجبرتى

ونقل لاكروا عن المذكرات التى أملاها نابوليون فى سانت هيلين أن مراد بك لما عاد من البحيرة الى الجيزة وصل الى جهة الاهرام وصعد الى قمة الهرم الكبير فى يوم ١٣ يوليو ، وأخذ يتبادل الاشارات مع زوجته السيدة نفيسة وهى فوق سطح منزلها . قال ولما تناقل الناس فى القاهرة خبر هذه الاشارات قلقت السيدة المذكورة وخافت أن يلحق بها الفرنساويون أذى فذهبت الى منزل الجنرال بونابارت وطلبت مقابلته ، فتلقاها بكل احترام وإكرام وأكد لها أنه لم يحفل بما وجه لها من التهم ثم قال لها :

« ولو أنك تريدين الاجتماع بزوجك لما تأخرت عن أن أهادنه أربعة وعشرين ساعة لكى تلتقيا، إذا كان فى هذا مايسرك ويسره » . ولولا أن سند هذه الرواية قويّ ومصدرها مما يجب الوثوق به ، لما حفلنا بها ولما اعتقدنا صحة وقوعها على تلك الصورة . وكيفما كانت حقيقتها فما لاشك فيه هو أن نابوليون كان شديد الميل — وخصوصاً فى ذلك الوقت — الى الاتفاق مع مراد بك . ولا يبعد أنه أراد أن يتخذ من منزلة السيدة نفيسه ومكانتها لدى زوجها ، وسيلة للصلح والتحالف معه . ولقد كانت السيده نفيسه دائماً موضع إكرام الفرنساويين وإجلالهم ، وكان يحتمى فى نفوذها نسوة أمراء المماليك وغيرهن من كبار وصغار [1]

---

( ١ ) كانت السيدة نفيسة ، الملقبة بالمرادية نسبة الى مراد بك ، جركسية الاصل من بلاد الكرج ، تسرى بها على بك الكبير المشهور وبنى لها — كالروى الجبرتى وغيره — داراً مطلة على بركة الازبكية بدرب عبد الحق قريباً من ميدان الاوبرا الحالى . ولما جرى لعلى بك ماجرى له بسبب خيانة مملوكه محمد بك ابو الدهب ، زوجها هذا الى مملوكه مراد بك . وكانت سيدة محترمة مبجلة حازت شهرة واسعة فى مدة امارة مراد بك ومدة الاحتلال الفرنسى . وعاشت الى زمن

ولقد أدرك نابوليون بثاقب فكره أن تلك الحركات المتوافقة في الشرق والغرب، وتلك التنقلات في الصحارى المحرقة في فصل الحر الشديد، ليست إلا مقدمة لحركة

---

امارة محمد على باشا لانها توفيت في ٢٢ ديسمبر سنة ١٨١٦ — ٢٥ جمادى الاولى سنة ١٢٣١، اى بعد الحملة الفرنسية بثمانية عشرة سنة ودفنت بجوار الامام الشافعي

والسيدة نفيسة هذه روايات تاريخية مع نابوليون والسياسة الفرنسية نرى من الضرورى اثباتها في هذه الحاشية، لأنه لا أثر لها مطلقا في المصادر العربية. فمن هذه الروايات ما رواه فيلكس مانجين Felix Mangin مؤلف تاريخ محمد على من أن الحكومة الفرنسية قبل الحملة ببضع سنوات كانت مسيو ماجالون، قنصل فرنسا في مصر، بأن يقدم للسيدة نفيسة المرادية، باسم الحكومة الفرنسية، ساعة ذهبية مرصعة بالماس اعترافا بافضالها، وجليل اعمالها. فلما كانت الحملة الفرنسية واحتل نابوليون بجنوده القاهرة لم تفزع السيدة نفيسة ولم تفر مع زوجها بل أخذت تقوم بحماية السيدات من زوجات المماليك، وتسهر على مصالح الفقراء والمساكين. وتمد يد المعونة لمن يقضى عليهم الفرنسيون بالمغارم والضرائب. وكانت موضع احترام الجميع من المصريين والاجانب. قال « مانجين » : وحدث أن الفرنسيين لما احتلوا القاهرة فرضوا على نساء البكوات والكشافة ضريبة قدرها خمسمائة الف فرنك فقدمت الست نفيسة (كما كانوا يسمونها) الساعة التي أهدتها اياها الحكومة الفرنسية من حصتها في الغرامة، فقدرت بأربعة وعشرين الف فرنك وعملت عنها لوترية فكانت من حصة « بوسيلج » فاعطاها لنابوليون، وهذا اهداها لخليلته « بولين فوريس »

ومما جرى للسيدة نفيسة مع نابوليون بونابرت ما رواه ويلسون في كتابه عن الحملة الانجليزية نقلا عن الثقاة، ان لم يكن عن السيدة نفيسة نفسها. وهو أن هذه السيدة اقامت في منزلها مأدبة لبعض ضباط الجيش الفرنسي من باب المجاملة والتلطف، وعند انصرافهم من المنزل بعثت بخاتم مرصع بالجواهر الكريمة ذى قيمة كبيرة الى أوجين بوهارنيه (ابن جوزفين زوجة نابوليون) كهدية وتكريم. قال ويلسون « فلم يمض على هذه الهدية بضعة ايام حتى فرض الفرنسيون ضريبة فادحة على السيدة نفيسة. فلما اعترضت على ذلك وشكت من فداحة الضريبة، أفهموها انه مادام عندها مثل هذه الجواهر الثمينة فانها قادرة على أن تدفع اكثر من ذلك » .. فتأمل

ومات مراد بك زوج السيدة نفيسة بالطاعون قبل جلاء الفرنسيين عن مصر، فلم يصف لها من بعده عيش، وعاكسها الدهر، ومال ميزان عزها وسعدها بعد ذلك الجاه والجلال. وذلك لان الاتراك لما دخلوا، مصر بعد خروج الفرنسيس، ونفثوا سموم بغضهم وحقدهم على المماليك صبوا جام غضبهم على السيدة المذكورة، ووجه اليها خورشيد باشا الاهانات المتوالية حقدا لما كان يظهره الاهالى والعلماء والامراء نحو تلك السيدة من الاحترام والاجلال

ولعل أمر جرعة تجرعتها في أواخر أيامها، ما لقيته من محمد على — بعد توليه امارة مصر — من المعاكسات والمشاكسات اذ صادر املاكها واغتصب ما لديها من مال وعقار فضاقت ذات يدها وعاشت في فقر وفاقة، مع مروءة وحشمة حتى ادركتها الوفاة في سنة ١٨١٦

ومما رواه (مانجين) ان نابوليون، وهو في قمة مجده في فرنسا واوروبا لم ينس السيدة نفيسة المرادية، اذ بعث بأوامره الى مسيو (ماتيودلسبس) قنصل جنرال فرنسا في مصر، في اوائل حكم محمد على، ليتخذ كل الوسائل لحماية السيدة نفيسة والدفاع عن صوالحها. ولكن لم يجدها ذلك نفعا

حربية من جانب أعدائه ولذلك انتقل بجزء كبير من الجيش فى ١٤ يوليه إلى جهة الجيزة وأصدر أمر الجنرال برتيه رئيس هيئة أركان الحرب، بأن يجهز حملة بالبطاريات والمدافع وينتقل بها إلى جهة الاهرام، وقضى نابوليون ليلته معسكراً فى تلك البقعة . والى هذه الفترة تنسب الاشاعة التى رواها بعض المؤرخين الذين قالوا إن نابوليون استدعى مشايخ المسلمين الى الجيزة وسار بهم الى الاهرام ، ثم أعلن اسلامه هناك، وانه دخل الهرم الكبير . وقد نفى « بوريين » في مذكراته هذه الرواية ، وقال إن نابوليون لم يستدع المشايخ ولم يعلن اسلامه ، بل ولم يدخل الهرم ابداً !

وفى اليوم التالى ( ١٥ يوليه ) عند الساعة الثانية ظهراً أبصر نابوليون فارساً ينهب الارض نهباً فتلقاه ووجد معه رسالة من الجنرال مارمون ( Marmont ) قومندان حامية الاسكندرية ، وفى هذه الرسالة ينبئه بان ثلاث عشرة سفينة كبيرة وتسع فرقاطات وثلاثين غرابا ( Chaloupes ) مسلحة، وتسعين نقالة محملة بالجنود العثمانية وقد ألقت مراسيها فى مساء ١٢ يوليو فى مياه خليج أبى قير، وأنها استطاعت أن تنزل جنودها الى الساحل فى يوم ١٤ ، وانها استولت على الطابية القائمة فى تلك النقطة

## ٣ — قبل معركة أبى قير

فلما تلقى نابوليون هذا الخبر أدرك فى الحال عظيم أهميته إذ لم يخف على مثله، ولا سيما وقد قتل المسائل فكراً وتمحيصاً بعد عودته من سوريا وعرف حرج مركزه فى هذه الديار ، أن المعركة الفاصلة بينه وبين الانكليز فى مصر قد حان وقتها . فاذا استطاعت القوة العثمانية التوغل فى أرض مصر، واستطاع الانكليز والترك الاستيلاء على الثغور المصرية ، فقد قضى على نابوليون وجيشه ، وقضى على هاتيك المطامع الكبرى القضاء المبرم

ولقد أدرك نابوليون بثاقب فكره وخبرته العسكرية ، أن الجيش العثمانى الذى تجىء به الى أبى قير هو بقية الجيش الذى كان فى رودس والذى أخذ منه جزء

لامداد عكا ، وأن هذه البقية لا تزيد عن خمسة عشر الف مقاتل ، مع فئة من الضباط الانكايز ، وان هذا الجيش إنما جاء معتمداً على أمرين :

أولهما : تعضيد المماليك الذين يقومون مقام الخيالة لهذا الجيش الذى لم تكن معه الخيول الكافية

وثانيهما : قيام الاهالى والعربان فى وجه الفرنساويين فى جميع جهات القطر المصرى . فاذا استطاع نابوليون أن يحول بين اتصال الجيش العثمانى بالمماليك ، ويمنع حدوث الاضطرابات فى داخلية البلاد ، فقد استطاع ان يخلص من ذلك المأزق الحرج

ولقد أجمع كتاب المذكرات الخصوصية ، ورواة الاخبار العمومية ، ومؤرخو هذه الفترة من المتقدمين والمتأخرين ، أن نابوليون لم يبد فى حياته نشاطاً وذكاء وقاداً ، وبعداً فى النظر ، مثلما أظهره فى ذلك الحين ، فانه ما كاد يتلقى نبأ نزول الجنود العثمانية فى ساحل أبى قير حتى أخذ يصدر الأوامر تباعا بسرعة البرق ، وبحيث لم تكد تمضى أربعة وعشرون ساعة ، حتى كان جميع الجيش الفرنساوى المتشتت فى وادى النيل ، شرقا وغرباً ، وجنوباً وشمالا ، يسير الى نقطة معينة وهى الرحمانية . فالجنرال ( ديزيه ) فى الصعيد صدرت له الأوامر بالتخلى عن جميع الوجه القبلى ليقدم بجيشه الى القاهرة ، والجنرال ( رينيه ) المعسكر فى بلبيس أمر بترك ثلاثمائة جندى فى الصالحية لمراقبة الحدود الشرقية ، وأن يسير هو بجميع الجنود الفرنساوية ، من أقرب طريق الى نقطة الرحمانية ، وكذلك تلقى الجنرال كليبر الأوامر بالتحرك من دمياط الى جهة أبى قير ، وكذلك تلقى الجنرال كليبر الأوامر بالتحرك من دمياط الى الاسكندرية ، وكذلك تلقى الجنرال منو الاوامر بالسير من رشيد

والخلاصة إن نابوليون لم يبت تلك الليلة فى الجيزة حتى كان الجيش الفرنساوى من جميع الجهات يسير قاصداً نقطة واحدة

ولم تمض ثلاثة أيام حتى كانت جميع القوى الفرنساوية مجتمعة فى الرحمانية

وهناك أصدر نابوليون منشوراً للمصريين يعدهم ويهددهم ويحـذرهم ، ويتملقهم ويتقرب منهم ، موجها فيه الخطاب الى أعضاء الديوان . وقد حفظ الجبرتي وتقولا الترك ذلك المنشور باللغة العربية وهذا نصه :

« لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم. نخبركم يا محفل الديوان بمصر المنتخب من أحسن الناس وأكملهم بالعقل والتدبير . عليكم سلام الله تعالى ورحمته وبركاته . بعد مزيد السلام عليكم، وكثرة الاشواق اليكم ، نخبركم يا أهل الديوان ، المكرمين العظام ، بهذا المكتوب أننا وضعنا جماعات من عسكرنا بجبل الطرانه وبعد ذلك سرنا إلى اقليم البحيرة لأجل أن نرد راحة الرعايا المساكين، ونقاصص اعداءنا المحاربين . وقد وصلنا بالسلامة إلى الرحمانية وعفونا عفواً عمومياً عن كامل أهل البحيرة حتى صار الاقاليم فى راحة تامة، ونعمة عامة . وفى هـذا التاريخ نخبركم أنه وصل ثمانون مركباً صغاراً وكباراً حتى ظهروا بثغر الاسكندرية وقصدوا أن يدخلوها فلم يمكنهم الدخول من كثرة البنب وجلل المدافع النازلة عليهم ، فرحلوا عنها وتوجهوا يرسون بناحية أبي قير وابتدأوا ينزلون الى البر ، وأنا الآن تاركهم وقصدى أن يتكامل الجميع فى البر وأنزل عليهم أقتل من لا يطيع وأخلي بالحياة الطائعين ، وآتيكم بهم محبوسين تحت السيف لاجل أن يكون فى ذلك شأن عظيم فى مدينة مصر . والسبب فى ذلك فى مجيء هذه العمارة الى هذا الطرف العشم بالاجتماع على المماليك والعربان ، ولاجل نهب البلاد وخراب القطر المصرى ، وفى هـذه العمارة خلق كثير من « الموسقو » الافرنج الذين كراهتهم ظاهرة لكل من يوحد الله ، وعداوتهم واضحة لمن كان يعبد الله ، ويؤمن برسول الله ، يكرهون الاسلام ، ولا يحترمون القرآن ، وهم نظراً لكفرهم فى معتقدهم يجعلون الآلهة ثلاثة، وان الله ثالث تلك الثلاثة ، تعالى الله عن الشركاء . ولكن عن قريب يظهر لهم أن الثلاثة لا تعطى القوة ، وان كثرة الآلهة لا تنفع ، بل إنه باطل لان الله هو الواحد الذى يعطي النصرة لمن يوحده ، هو الرحمن الرحيم ، المساعد للعين ، القوى للعادلين الموحدين ، الماحق رأي الفاسدين المشركين ، وقد سبق فى علمه القديم، وقضائه العظيم ، أنه أعطاني هذا

الاقليم وقدّر وحكم بحضوري عندكم الى مصر، لأجل تغييري الأمور الفاسدة، وأنواع الظلم، وتبديل ذلك بالعدل والراحة، مع صلاح الحكم. وبرهان قدرته العظيمة، ووحدانيته المستقيمة، ان لم يقدر الذين يعتقدون أن الآلهة ثلاثة قوة مثل قوتنا، لأنهم ما قدروا أن يعملوا الذى عملناه، ونحن المعتقدون وحدانية الإله، نعرف أنه العزيز القادر، القوى القاهر، المدبر للكائنات، والمحيط علمه بالأرضين والسموات، القائم بأمر المخلوقات، هذا ما فى الآيات، والكتب المنزلات. ونخبركم بالمسلمين إن كانوا بصحبتهم، يكونوا من المغضوب عليهم لمخالفتهم وصية النبي عليه أفضل الصلاة والسلام، بسبب اتفاقهم مع الكافرين الفجرة اللئام، لأن أعداء الاسلام، لا ينصرون الاسلام، ويا ويل من كانت نصرته بأعداء الله! وحاشا الله أن يكون المستنصر بالكفار مؤيداً، أو يكون مسلماً ساقتهم المقادير للهلاك والتدمير، مع السفالة والرذالة، وكيف لمسلم أن ينزل فى مركب تحت بيرق الصليب، ويسمع فى حق الواحد الأحد، الفرد الصمد، من الكفار، كل يوم تحريفاً واحتقاراً، ولا شك أن هذا المسلم فى هذا الحال، أقبح من الكافر الاصلي في الضلال

نريد منكم يا أهل الديوان أن تخبروا بهذا الخبر جميع الدواوين والأمصار، لاجل أن يمتنع أهل الفساد من الفتنة بين الرعية، فى سائر الاقاليم والبلاد، لأن البلد الذى يحصل فيه الشر يحصل لهم مزيد الضرر والقصاص. انصحوهم يحفظوا أنفسهم من الهلاك خوفاً عليهم أن نفعل فيهم مثل ما فعلنا فى أهل دمنهور، وغيرها من بلاد الشرور، فانهم بسبب سلوكهم المسالك القبيحة قاصصناهم. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

تحريراً بالرحمانية فى يوم الاحد ١٥ صفر ١٢١٤ — طبع بالمطبعة الفرنسية العربية

***

ولقد قصد نابوليون بهذا المنشور عدة أمور: أولها وأهمها، إلقاء الرعب فى قلوب المصريين ليخلدوا الى السكينة، وليخافوا عاقبة الفتك بهم، كما حصل لاهالى دمنهور عقب ثورة المهدى، أو مولاى محمد. وأراد نابوليون أن يفهم المصريين

أن القادمين ليسوا أتراكا مسلمين بل هم روسيون مسيحيون لا يعتقدون بالوحدانية مع أنه لم يكن مع الجيش العثمانى الذى نزل فى أبى قير جندى من الروس، ولا من الانكليز . ولم يثبت التاريخ سوى وجود بعض الضباط الانكليز الذين قدموا مع الاسطول البريطانى ليكونوا فى هيئة أركان حرب للشير مصطفى كوسه باشا قائد ذلك الجيش . وما قصد نابوليون بذلك الاختلاق الا الإيهام والتغرير بالعقول وتلك خطة تبررها السياسة فى أيام الحروب ، ولكن المعلم نقولا الترك أراد أن يعتذر عن هذا الاختلاق — أى دعوى أن الجيش القادم معظمه من الروس المسيحيين — فقال :

« وخشى أمير الجيوش من العامة في مصر وغيرها من البلدان فكتب فرماناً الى علماء مصر وأرباب الديوان يخبرهم بورود المراكب وخروج عساكرها الى البر وانها مراكب نصارى، ولكن ربما معهم بعض المسلمين . وتعريفه بذلك استناداً على الفرمان الذى ورد من الدولة العثمانية الى الجزار والأقطار الشامية حيث يقول « قريباً نحضر لكم الدونتمة الهمايونية مع دونما الدولة المسكوبية المتحدة مع دولتنا بالحب والصداقة ، ونحضر لكم عشرين الف مقاتل فى البر مع الدولة القوية غير العساكر البحرية ، لأجل طرد الملة الفرنساوية » وهذا الفرمان قد حضرت صورته الى أمير الجيوش وأطلع عليه العلماء والأعيان وأهل تلك البلدان » اهـ

والمعلم نيقولا يشير بالطبع إلى المنشور الذى سبق لنا الكلام عنه وليس فيه شىء مما يقوله المعلم نقولا، اللهم إلا اذا كان يشير الى منشور لم نقف له على أثر فى الكتب الفرنسية ولا الانكليزية ولا العربية ومع ذلك فان ذكر العمارة الروسية وقدومها مع الجيش العثمانى ليس معناه انزال جنود روسية مع العساكر التركية فى أرض مصر . ولكن يظهر أن المعلم نقولا أراد أن يعتذر لنابوليون بما لم يعتذر به نابوليون عن نفسه !!

وأغرب من هذا تعليق المرحوم ميخائيل بك شاروبيم على هذا المنشور فى كتابه ( الكافى ) بالعبارة الآتية :

« قلت وفى هذا الخطاب ، إن كان صحيحاً ، من النقد على بونابارته والتعيب، ورميه بالغش والخديعة، ما يزرى به ويحط من عظمته ويذهب بشهرته »

ولماذا لا يكون ذلك المنشور صحيحاً ونصه فى الجبرتى ورسالة المعلم نقولا وصورته المطبوعة محفوظة فى أوراق نابوليون المحفوظة (١) ثم لماذا يزرى من نابوليون ويحط من عظمته ويذهب بشهرته الأبدية الخالدة ، وهو إنما فعل ما تقضى به السياسة وأساليبها . وأكاذيبها أيضاً . !

ولقد أحدث قدوم ذلك الجيش العثمانى حركة في نفوس المصريين فانتعشت أرواحهم، وأنتشت آمالهم ،وخيل لهم الخلاص من الاحتلال الاجنبى، مع ان القادمين عليهم لا يريدون لهم خلاصاً ، ولا يودون لهم حرية واستقلالا . ولكن هكذا فطر المصريون على أنهم والأتراك أمة واحدة ، وإن لم يرض الاتراك باعتبار المصريين كذلك ، ولا سيا فى ذلك الزمن إذ الجندى جندىّ ، والفلاح فلاح ! ! ولذلك خشى الفرنساويون عاقبة هيجان المصريين ، وقيامهم عليهم ، فترك نابوليون فى القاهرة الجنرال «روجا» الذى اشتهر بدهائه ولينه وحسن تصرفه مع المصريين أثناء الحملة السورية وترك له قوة كبيرة من الفرنساويين فى القلعة عدا قوة أخرى من الأروام الذين جندوهم ودربوهم ، وكلف الجنرال ديزيه بالتخلى عن الصعيد والقدوم بجيشه إلى القاهرة

ولقد كانت ساعة الفرنسيين عصيبة والجوّ أمامهم مظلماً قاتماً لأنه مع هذه الاحتياطات الكثيرة ، ومع ذلك المنشور الذي أكثر فيه نابوليون من التزلف للمصريين ودعوي الاسلام والطعن على المسيحية ، فان الحركة التى دب دبيبها بين المصريين كانت تشعر بما داخل نفوس القوم من الفرح والسرور بقدوم الجيش العثمانى ، فقد روى الجبرتى الحادثة الآتية : قال فى حوادث يوم ١٦ صفر

« ولما تحققت هذه الأخبار ( نزول الجيش العثمانى في أبى قير ) كثر اللغط بين الناس وأظهروا البشر وتجاهروا بلعن النصارى واتفق أنه تشاجر بعض المسلمين بحارة البرابرة بالقرب من كوم الشيخ سلامة مع بعض نصارى الشوام فقال المسلم

(١) أوراق نمرة ١٤٢٩٦ و٤٢٩٧

للنصرانى : إن شاء الله بعد أربعة أيام نشتفى منكم . وكلام من هذا المعنى فذهب ذلك النصرانى مع عصبة من جنسه الى الفرنسيس . وأخبروهم بالقصة وزادوا وحرفوا وعرفوهم أن قصد المسلمين إثارة فتنة فأرسل قائمقام إلى الشيخ المهدى وتكلم معه فى شأن ذلك وحاجَّه وأصبحوا فاجتمعوا بالديوان فقام المهدى خطيباً وتكلم كثيراً ونفى الريبة وكذب أقوال الخصوم وشدد فى تبرئة المسلمين عما نسب اليهم وبالغ فى الحطيطة والانتقاص من جانب النصارى . وهذا المقام من مقاماته المحمودة ، ثم جمعوا مشايخ الاخطاط والحارات وحبسوهم »

فهذه الحادثة البسيطة تمثل لنا صورة مجسمة للشعور القومى فى تلك الفترة وهي حال يجب على المؤرخ أن لا يفوتها ، والدليل على تخوف الفرنسويين انهم زادوا فى الحيطة فجمعوا ، كما ذكر الجبرتى ، مشايخ الأخطاط والحارات واعتقلوهم

فلنترك أهل القاهرة فى آمالهم وتصوراتهم ، ولنتبع نابوليون وجيشة الى تلك المعركة الهائلة التى وقعت بينه وبين الجيش العثمانى وكانت عاقبتها وبالا على العثمانيين — تلك الواقعة التي قال عنها نابوليون للجنرال مورات : «على هذه الواقعة سيترتب مستقبل العالم بأسره» ولكن نابوليون وحده هو الذى كان يدرك السبب فى ذلك . ويعلم أن انتصاره في تلك المعركة يمهد له سبيل العودة الى فرنسا ، وعلى جبينه إكليل الفوز والنصر ، فيستطيع أن يقبض على السلطة فى تلك الديار ، ويستطيع أن يصل إلى ما وصل إليه من الملك والمجد والفخار

## — ٤ — واقعة أبى قير

أخطأ سرهنك باشا وغيره من المؤرخين الذين قالوا إن نابوليون قهر الجيش العثمانى الذى نزل فى أبى قير بستة آلاف مقاتل . والحقيقة التى أثبتها الكتاب الفرنساويون أن الجيش الذى جمعه نابوليون فى الرحمانية وسار به الى أبى قير كان لا يقل عن عشرين الف مقاتل من خيرة الجنود المشاة المدربين عدا ثلاثة آلاف من الخيالة . ولم يكن الجيش العثمانى يزيد عن ثمانية عشر الفاً من الجنود وليس منهم

سوى مائتي جواد للقائد وأركان حربه . وبعض الضباط ، وذلك باعتراف نابوليون في المذكرات التى أملاها فى سانت هيلانة

قلنا إن القائد العثمانى أنزل جنوده فى يوم ١٤ يوليو على ساحل أبى قير، وتقول إنه كان يؤمل أن تصل اليه المماليك بالخيول والامدادات . وروى المعلم نقولا فى رسالته أن المشير مصطفى كوسه باشا لما أنزل جنوده واستولى على القلعة التى أقامها الفرنساويون ، أرسل المنشورات الى المصريين والعربان يستنهضهم للقيام فى وجه الفرنساويين ، وان كبار القوم ذهبوا اليه وخلع عليهم الخلع الثمينة . ولا أثر لهذه الرواية ، لا فى المصادر العربية ولا فى المصادر الفرنساوية ، وكل ماذكره الجبرتى من علاقة الجيش التركي بالمصريين، قوله فى حوادث ١٨ صفر «إنه وردت أخبار وعدة مكاتيب لكثير من الاعيان وكلها على نسق واحد تزيد عن المائة مضمونها ان المسلمين وعسكر العثمانيين ومن معهم ملكوا الاسكندرية فصار الناس يحكى بعضهم لبعض ... الى آخره »

ولاشك فى أن السرعة التى جمع بها نابوليون جيشه وهاجم العثمانيين لم تمكنهم، لا من الاجتماع بالمماليك ، ولا من دعوة سواهم . وكان ذلك سر فوز نابوليون فى تلك الموقعة ، وفى كثير من المواقع الكبيرة التى كسبها فى أوربا . ولو أن الجنرال منو ، بعد هذا التاريخ بنحو سنتين ، قلد رئيسه فى السرعة والنشاط وعدم إضاعة الوقت، لما استطاع الجيش الانكليزى الذى قدم تحت قيادة الجنرال «أبركرومبى» أن يحصره فى الاسكندرية ، وينتهى بالاشتراك مع الجيش العثمانى بالوصول الى القاهرة ، واخراج الفرنساويين منها

وكان نابوليون يتصور أن الجيش العثمانى لايبقى فى أبى قير بعد أن احتل قلعتها أكثر من يوم واحد ، وأنه سيزحف فى داخلية البلاد فيجتمع عليه المماليك المشتتون فى الوجه البحرى ، ويلتف عليه عربان البحيرة وسواها ، ولذلك عسكر نابوليون عند الرحمانية فى يوم ١٩ يوليو ، فلما وصلت اليه الاخبار بأن الجيش العثمانى لايزال مرابطاً فى أبى قير أسرع فى نقل مركز جيشه من الرحمانية الى بركة غطاس الواقعة بالقرب من بحيرة المعديه، وعلى مسافة قريبة من الاسكندرية وأبى قير ، فمنع بذلك

الجيش العثمانى من التحرك الى داخلية البلاد ، أو الى محاصرة الاسكندرية دون أن يلتقى مع الجيش الفرنساوى فى معركة فاصلة

وفى ٢٤ يوليو اتخذ نابوليون الاسكندرية مقراً للمعسكر العام، ولم يكن قد رأى ذلك الثغر منذ احتله عند قدومه منذ سنة وشهر ، ولما التقى نابوليون بالجنرال مارمون (Marmont) ،قومندان حامية الاسكندرية، لامه وعنفه على تمكين الجيش العثمانى من النزول الى البر ، وكان هذا الجنرال قد خرج بألف ومائتي مقاتل لمقاومة العثمانيين، فلما رأى أنه لا يقدر على مقاومة ذلك الجيش الكبير عادأدراجه الى الاسكندرية وتحصن فيها . ولو أسرع القائد العثمانى، ولم ينتظر قدوم نابوليون من الرحمانية لكان من الممكن أن تكون النتيجة غير ما كانت ولكن الجيش العثمانى بقى فى أبى قير من يوم ١٤ الى يوم ٢٤حتى تمكن نابوليون من الوصول الى الاسكندرية والوقوف فى وجه خصمه . كل ذلك والجيش العثمانى لا يظن أن الفرنساويين قد أصبحوا أمامه وجهاً لوجه، وأن المسافة بين الفريقين لا تزيد على بضع كيلو مترات

ولقد سبق لنا أن قلنا أن وصف الحركات العسكرية فى المواقع الحربية ليس من اختصاص المؤرخ المصرى الذى يقصد تدوين تاريخ أمته . وأما وصف المعارك الحربية من الوجهة الفنية فهو من اختصاص كتاب الافرنج الذين يهمهم وصف المعارك لاسباب فنية وقومية ، ولهذا نكتفى بأن نقول إن الجيش العثمانى فى هذه المعركة لم يكن مستوفياً الاسباب التى تساعده على الفوز لعدم وجود قوة كافية من الخيالة. ولان المماليك الذين اعتمد على مساعدتهم لم يستطيعوا تقديم تلك المساعدة، ولان سرعة نابوليون ونشاطه لم تمكن الأتراك من التحصن اللازم واستعمال الوسائل التى يستطيع بها شل حركات الجيش الفرنساوى

وخلاصة ما يمكن ذكره من وصف هذه المعركة التاريخية أنه فى فجر ٢٥ بدأ الجيش الفرنسى فى الزحف وكان الجنرال (مورات) Murat على رأس جيش عدده ٢٣٠٠ فارس فى القدمة ، والجنرال ( لان ) Lannes ومعه ٢٧٠٠ فى الميمنة والجنرال ( لانوس ) Lanusse ومعه ٢٤٠٠ رجل لحفظ خط الرجعة ، والجنرال

دافو Davout ومعه ثلاثمائة من فرسانه يقوم بحفظ المواصلات بين الجيش والاسكندرية، وبمنع الاعراب من دخول شبه جزيرة أبي قير

وتلاقى الجيشان وجهاً لوجه ومكثا ساعتين وقد لزما السكون ثم بدأت المدافع الكبيرة تقذف نيرانها على مراكب صغيرة للأتراك دخلت بحيرة ادكو فغرق بعضها وانسحب البعض الآخر، وتقدم الجنرال مورات بفرسانه وباربعة بطاريات من المدفعية ونزل الاتراك الى السهل حيث كان الفرسان الفرنسويون ينتظرونهم وقذفت المدافع عليهم النار وفغرت البنادق أفواهها تمطرهم الرصاص فحاولوا العودة والنزول الى المراكب

وكانت النتيجة أن نابوليون تمكن في يوم واحد (٢٥ يوليو) من القضاء على ذلك الجيش العثماني المؤلف من خيرة الجنود الانكشارية بسالة واقداماً، وقتل منهم في هذه الواقعة عدد كبير، واختل نظام الجيش العثماني فأركن جنوده الى الفرار طالبين النجاة بالالتجاء الى القوارب في مياه أبي قير ولكن الجزء الاكبر منهم لم يتمكن من اللحاق بالسفن فغرق منهم خلق كبير

وقد ذكر الفرنساويون أن نحو عشرة آلاف من الجنود الأنكشارية غرقوا في محاولتهم الفرار، وذكروا أيضاً أن السرسدني سميث أميرال الأسطول الانكليزي كان في البر مع فئة من ضباط الانكليز هيئة أركان حرب المشير مصطفى باشا، فلما رأى هزيمة الجيش العثماني، وبعد أن كاد يقع أسيراً في يد الفرنساويين، أسرع بالنزول في القارب للحوق بسفينته. وهنا ذكر المؤرخون رواية لا أجد ما يدعو الى عدم تصديقها، وإن كنت لم أجد ما يثبتها أو ينفيها في المصادر الاخرى، تلك الرواية هي إنه كان بين الجنود العثمانيين الذين ألقوا بأنفسهم في البحر فراراً من الفرنساويين، جندي من الباشبوزق قد غلبته الأمواج، وحامت حوله رسل الموت، وهو يطفو مرة ويرسب أخرى، حتى ألقته المقادير بجوار قارب السرسدني سميث الذي أبصر ذلك الجندي المشرف على الهلاك فمد يده لانقاذه وتمكن بمساعدة من معه من رفعه الى القارب فلم يكن من المغرقين

أفتدرى أيها القارىء، أو كنت تعلمين أيتها المقادير، من كان ذلك الجندي المشرف على الهلاك الذى طرحته أمواج القدرة الإلهية بجوار ذلك القارب الذى يحمل بحارة من الانكليز؟ ولم ترمه بجوار قارب من القوارب التى وصل اليها بعض أولئك الجند الذاهلين عن اخوانهم فى الملة والدين، وكل منهم قد ذهل عن أخيه، وفصيلته التى تأويه؟

ذلك الجندى هو محمد علي من بلدة قولة الحقيرة، قدم مع القادمين المتطوعين لخلاص مصر من أيدى الفرنساويين، وما كان هو يدري، ولا النجم يدرى، أنه جاءها وسيجيئها ليستخلصها لنفسه، ولأولاده من بعده، سواء من أيدى الفرنساويين، ثم المماليك، ثم الانكليز، ثم الاتراك ... ولكن الى حين !! وهل كان يدرى السر سدنى سميث، وهو يمد يده الى ذلك الجندى البائس الضائع الذى يكاد يلفظ النفس الأخير، أن هذا الرجل، بعد ثمانية أعوام بالضبط من هذا التاريخ، سيسحق بنفسه ورجاله الحملة الانكليزية التى بعثت بها انكلترا إلى مصر فى سنة ١٨٠٧، تحت قيادة الجنرال «فريزر»، ويلحق بها العار والشنار، ويباع بعض جنودها الأسرى من الانكليز، بيع السلع والمماليك والعبيد فى سوق الرقيق؟ أتراه لو كان يدرى ماذا كان يفعل؟ أظنه كان ينقذه من الغرق، ولكن ما أظنه كان يسمح له بالعودة الى أرض مصر في الحملة العثمانية الثانية؟! ولو غرق ذلك الجندي فى تلك اللحظة، لتغيرت صحائف التاريخ ولما رأت مصر نبوغ محمد على وهمته، ولا بسالة ابراهيم وبطولته، ولا إسراف اسماعيل ومهارته، ولا ذكاء عباس وكارثته!

أما قائد الحملة العثمانية السرعسكر مصطفى كوسه باشا فان الجنرال مورات — قائد الخيالة الفرنساوية التى أبلت بلاء حسناً فى هذه الواقعة وكانت لها اليد العليا فى ذلك الفوز الذى أنعش قلوب الفرنساويين وأحيا ميت آمالهم — أسره بيده بعد أن أطلق عليه القائد العثمانى رصاصة من غدارته أصابت يده، وجاء به الى نابوليون فأحسن وفادته وأكرم مثواه

وكان مع المشير مصطفى كوسه باشا أحد أولاده فامتنع مع نحو ثلاثة آلاف من

الانكشارية وتحصن فى طابية أبى قير وأبى التسليم على الرغم من النصائح التى أسداها اليه أبوه ، وقد كلف الجنرال منو ، الذى قدم بفرقة من الجند الفرنساوى من رشيد واشترك فى المعركة ، بأن يوالى حصار ذلك الحصن حتى يسلم من فيه. وقد سلموا فعلا بعد قليل من الزمن

ولما وصلت أخبار هذا الفوز الفرنسى الى القاهرة طرب الفرنساويون وشاركهم فى أفراحهم وسرورهم جميع الذين كانوا يخشون قدوم الاتراك ، سواء فى ذلك النصارى وبعض أفراد المسلمين الذين انحازوا للفرنساويين ، وارتبطت مصالحهم بوجودهم معهم. فقد روى « ميو » فى مذكراته: أنه لما أذيع فى القاهرة انتصار الفرنساويين فى واقعة أبى قير كان النصارى يعانقون الفرنساويين فرحاً وطرباً ، وأقيمت الاحتفالات والزينات ثلاثة أيام متوالية، وقال الشيخ الجبرتى فى حوادث شهر صفر « وفى عشرينه أشيع أن الفرنساوية تحاربوا مع العساكر الواردين على أبى قير وأخذوا مصطفى باشا أسيراً وكذلك عثمان خجا وغيرهما، وأخبر الفرنسيس أنه حضرت لهم مكاتبة بذلك من أكابرهم ، فلما طلع النهار ضربوا مدافع كثيرة من قلعة الجبل وباقى القلاع المحيطة بصحن الازبكية وعملوا فى ليلتها (أعنى ليلة الاربعاء) حراقة بالأزبكية من نفوط وبارود وسواريخ تصعد فى الهواء ... ولم يذكر الجبرتى صورة الخطاب الذى بعث به الجنرال دوجا الى المشايخ واكتفى بقوله . . « وفى يوم الجمعة تاسع عشرينه ( صفر ) حضرت مكاتبة من الفرنسيس بحكاية الحال ( عن موقعة أبى قير ) التى وقعت لم أقف على صورتها ». ولكن المعلم نقولا الترك حفظ نص ذلك المنشور الذى طبع فى المطبعة الفرنساوية فى القاهرة وتاريخه ٢ ربيع الاول . وهذا نصه حرفياً من رسالة المعلم نقولا :

« من حضرة سارى عسكر الجنرال « دوكا » قائمقام أمير الجيوش بمصر حالا : الى علماء الاسلام ، وكافة أرباب الديوان

بعد السلام عليكم ، وكثرة الاشواق اليكم ، لا يخفاكم انه وصلني خبر صحيح بأن العساكر الفرنساوية ملكت قلعة ابو قير فى ١٤ ترميدور الموافق شهر صفر

سنة ١٢١٤ ، وأنهم استأسروا فيها ثلاثة آلاف نفر ومن الجملة مصطفى باشا . وغاية ما وقع أن العمارة التي نزلت فى أبو قير كانت بها عساكر خمسة عشر الف لم يخلص منهم أحد بل الكل تلاشوا وهلكوا . ثم اخبركم عن لسان حضرة السارى عسكر الكبير بونابرته انكم فى الحال تظهرون هذا الخبر بين الخاص والعام ، وتشهروه فى الاقاليم المصرية فأنه خبر فيه سرور وفرح . والزمكم أن تعرفونى في الحال عن إشهار هذا الخبر الفاخر المعتبر . واخبركم ان حضرة السارى عسكر الكبير بونابرته يحضر اليكم عن قريب . والله تعالى يحفظكم والسلام ختام .

تحريراً فى ٢٢ ترميدور سنة السابعة لمشيخة الفرنساوية الموافقة الى ٢ ربيع الاول سنة ١٢١٤»

وأما عثمان خجا أو خواجه الذى ذكره الجبرتى ، فقد كان من المماليك الذين تولوا الاحكام في مدة مراد بك ، وكان من أتباع صالح بك الذى كان أميراً للحج عند قدوم الفرنساويين، وكان مولى من قبله على ثغر رشيد فسام أهلها سوء العذاب ظلماً واستبداداً، وكان مع صالح بك في حجته الأخيرة فلما مات هذا بالشام، ذهب عثمان خجا الى الاستانة وجاء مع المشير مصطفى باشا وجيشه

ومع أن نابوليون أحسن معاملة مصطفى باشا وولده تودداً للعثمانيين وتقرباً منهم، ورغبة منه فى اتخاذ أسيره العظيم واسطة فى الصلح والمخابرات مع رجال الدولة ، فإنه أراد ، من جهة أخرى، أن يفهم للمصريين والعثمانيين أنه لا يعفو عن المماليك ولا يعاملهم كما يعامل الاتراك ، فاصدر أمره بقتل عثمان خجا ، وفي رواية الجبرتى، إنهم ذهبوا به إلى رشيد «وطافوا به فى البلدة يزفونه بطبولهم وهو مكشوف الرأس حافى القدمين حتى وصلوا به إلى داره فقطعوا رأسه وعلقوه على شباك داره ليراها الناس أجمعين » .. وهذه الرواية ناقصة لأن نابوليون ما كان ليأمر بقطع رقبة كبير من أمراء المماليك بعد أن وقع فى يده أسير حرب، كما وقع مصطفى باشا وولده وغيره، إلا بناء على تهمة توجه اليه ، وحكم يصدر عليه، وقد وفق المملم نقولا الترك فى رسالته الى الحصول على صورة التهمة التى وجهت الى عثمان خجا، والفتوى بالحكم عليه

بالاعدام ، وقد طبعت تلك الفتوى فى المطبعة الفرنساوية . ولأهميتها التاريخية ولعدم تداولها فى المصادر العربية نأتى على نصها

« هذه صورة الفتوى حكم الشرع الشريف الذى صدر من محكمة رشيد دام جلالها على عثمان خجا (خواجه) خطاباً إلى حضرة الجنرال الحاكم فى البلد المذكورة مؤرخ فى اربعة وعشرين من شهر ترميدور من إقامة الجمهور الفرنساوى ، الموافق ٨ ربيع أول سنة ١٢١٤

وصلتنا مكاتبتكم بالأمر اننا نستخبر ونكشف عن جميع الأعمال التى حدثت من طرف عثمان خواجه كردلى، وننظر ان كان حصل منه الشر أكثر من الخير، وبموجب هذا الأمر بحضور حضرة سيدنا شيخ الاسلام العالم المتورع الشريف احمد الخضرى مفتى حنفى ، ونقيب الاشراف المكرم المحترم الشريف بدوى ، وقدوة الأعيان الحاج احمد أغا السلحدار، والمكرم على شاويش كتخداء، وقدوة التجار احمد شحال ، والمكرم ابراهيم الجمال والشريف على الجانى ( لعله الحامى ) والشيخ مصطفى ظاهر والشريف ابراهيم سعيد والمكرم محمد القادم والحاج باشى سليمان وبحضور جماعة المسلمين خلاف المذكورين أعلاه

ثم حضر رمضان حودى ومصطفى الجيار واحمد شاويش وعبدالله والحاج حسن أبوجوده والحاج بدوى المقرالى وعلى أبو زرازير، وبدوى دياب وحسن عرب، وثبت من إقرارهم ومن شهاداتهم أن عثمان الخواجه المذكور كان ظلمهم ظلماً شديداً بالضرب والحبس من دون حق ، ونهب أملاكهم وخلاف ذلك — سئل جماعة من المسلمين الحاضرين فى المجلس إن كان حصل من عثمان خواجه الشر أكثر من الخير فكلهم قالوا بلسان واحد أنه حصل من طرف عثمان خواجه الشر أكثر من الخير ، وبسبب ذلك انقطع رأس عثمان خواجه حاكم رشيد سابقاً

مطابق لأصله ومعناه باسم حاكم رشيد الآن — طبع بالمطبعة الفرنساوية بمصر المحروسة »

فهل كانت تلك المحكمة الغريبة تصدر هذا الحكم على عثمان خواجه

حاكم بلدتهم سابقاً ، لو أتيح للعثمانيين الظفر والفوز فى واقعة ابى قير ؟ أو ما كان أولئك المشايخ والاعيان يستقبلونه بالطبول والزمور ، ويقيمون له الولائم ، ويمدحونه بالقصائد ، ويذكرون ما كان عليه من عدل وكرم وسماحة ؟؟

الا إنهـا الايام أبناء واحد وهذى الليالى كلها أخوات

إن فى ذلك لعبرة !

— ٥ —

ومع أن انتصار الفرنساويين فى واقعة أبى قير قد كان عظيماً وحاسماً ، إلا أنهم ابتاعوا ذلك الفوز بثمن غال وبأرواح ثمينة عزيزة خصوصاً لدى جيش سدت فى وجهه السبل وصار إمداده بالرجال مستحيلا ، فقد خسر الفرنساويون فى هذه الواقعة — على رواية نابوليون فى تقريره لحكومة الديركتوار ( ولاحظ أنه كان في جميع هاتيك التقارير يخفف من ذكر الخسارة ويباهى بانتصاره ويبالغ فى خسائر أعدائه ) — خمسمائة قتيل وخمسمائة جريح . ومات من قواده وضباطه الجنرال لاتورك (Leturcq) والقائد دوفيفية (Duvivier) والقائد كريتين ( Cretin )[1] ومن أركان حربه الضابط (Guilbert) وجرح الجنرال الان لان ومورات وفوجيبر والضابط مرانجيه .

ومما يدل على سرور الفرنساويين بنتيجة تلك الواقعة ، ذلك المنشور الذى أصدره الجنرال نابوليون الى جيشه فى اليوم التالى وفيه يقول :

« ان اسم أبى قير كان شؤماً لدى عموم الفرنساويين ولكن يوم ٧ ترميدور ( ٢٥ يوليو ) جعل ذلك الاسم مقروناً بالفخار ، وان الانتصار الذى حازه الجيش في هذا اليوم سيساعد على عودته الى أوروبا في وقت قريب . لقد فتحنا « ماينيس »

---

(١) من أغرب الروايات عن ( كريتين ) هذا ما رواه زميله الكبتن تورمان في مذكراته التى نشرها فيما بعد الكونت فليرى Le Comte Fleury وقد شهد الكبتن تورمان واقعة أبى قير بنفسه مع الضابط كريتين وكان كلاهما من متخرجي مدرسة الهندسة بفرنسا فقد روى عن زميله كريتين قبل الواقعة بزمن طويل بينما كانا يجوسان خلال تلك البقعة أن أبصر نجداً أو ما يسمونه تبة مرتفعة فقال لتورمان انى سأموت وسأدفن على هذه التبة . وجدت فلا أنه قتل فى واقعة أبى قير فدفنوه على تلك الربوة وأقاموا فيها قلعة ومرصداً عرفا باسم « حصن كريتين » فى الحرب مع الحملة الانجليزية بعد ذلك

وامتلكنا حدود « الرين » بإغارتنا على جزء من ألمانيا ونعيد اليوم فتح املاكنا في الهند وأملاك حلفائنا . وهكذا تمكنا بواسطة معركة واحدة من أن نضع في يد حكومة بلادنا الوسائل اللازمة لاجبار حكومة انجلترا ، على الرغم من انتصاراتها البحرية ، على عقد صلح تفتخر به الجمهورية . ولقد تكبدنا كثيراً من المشاق وقاتلنا أعداءاً من جميع الأجناس والعناصر ، وسنضطر أن نقهر غيرهم ولكن النتيجة ستكون جديرة بفخارنا ، وجديرة بتقدير الوطن لاعمالنا حق قدرها »

ويدأ نابوليون في تنشيط رجاله بمكافأتهم على أعمالهم ومجهوداتهم فاصدر أمره لقومندان الطوبجية بأن يسلم إلى فرقته الجنرال مورات الخيالة المدفعين اللذين كانت الحكومة الانجليزية أهدتهما للباب العالي وغنمهما الفرنساويون في هذه المعركة ، وأمر أن يحفر على ذينك المدفعين اسم الاورط الخيالة التي اشتركت في الواقعة وأن يحفر عليهما كذلك اسم الجنرال مورات والادجونانت جنرال ( رواز ) وأن يكتب على حافة كل مدفع « واقعة أبي قير » ثم أصدر أمره بأن تسمى ثلاث قلاع من قلاع الاسكندرية بأسماء كريتين ودوفيفيه ولاتورك ، تذكاراً لأولئك القواد والضباط الذين قتلوا في المعركة . وقد ورد ذكر أسماء هذه القلاع في حصار الانجليز للاسكندرية في الحرب الاخيرة مدة الجنرال منو وأصدر كذلك نابوليون أمره بترقية الجنرال فولتريه والجنرال برتران ومنح الاطباء الذين عالجوا الجرحى ثلاثة آلاف جنيه

ومما هو جدير بالذكر، فيما له مساس بتأثير الظروف والحظوظ أو المقادير على بني الانسان، أن واقعة أبي قير هذه أثرت في تاريخ الجنس البشري ، وفي حياة الاشخاص الذين اشتهر اسمهم فيها ولا سيما نابوليون بونابرت وصهره ( فيما بعد ذلك ) الجنرال مورات ، فواقعة أبي قير مهدت لنابوليون العودة الى فرنسا متوجاً بغار الفوز والانتصار والشهرة الحربية فمكنه ذلك من القبض على صولجان الحكم في فرنسا ، وواقعة أبي قير الذي أظهر فيها مورات من المهارة العسكرية في حركات الخيالة ، ومن الجرأة والاقدام ما جعل نابوليون ينسى ، او يتغاضى عما نسب الى مورات من العلاقات الغرامية مع زوجته جوزفين أثناء معارك ايطاليا . فقد كان

مورات فتى رشيق القوام، حلو الشمائل، محبوباً لدى السيدات، وكانت له منزلة خاصة لدى « مادام تاليان » ولدى « جوزيفين ». وطنّ فى أذن نابليون نبأ هذه العلاقات النسائية مع مورات فغضب عليه وأساء معاملته فى ايطاليا وما قبله فى حملة مصر الا مضطراً بتأثير مادام تاليان، أو رغبة من نابليون فى ابعاده عن فرنسا خلال غيبته فى حملة مصر. ومع ان مورات أبلى بلاء حسناً فى واقعة امبابه، فان قلب نابليون لم يصف له إلا بعد ذلك الفوز الحاسم فى أبى قير — ذلك الفوز الذى اشتراه مورات بتعريض حياته للخطر والهلاك

وكان ذلك سبباً فى توطيد علائق المحبة بين الرجلين ! وكانت أبى قير سبباً فى زواج مورات « بكارولين » أخت بونابرت، ثم الى ما وصل اليه حتى صار ملكا لنابولى فى ايطاليا. وهكذا الاقدار !!

* * *

ولما وصلت أنباء تلك الواقعة الى أوربا اهتزت لها جوانب فرنسا طرباً وسروراً ضيما وقد كانت فرنسا في ذلك الوقت مخذولة في حروبها مع النمسا وغيرها من الدول المعادية.

وأما الباب العالى فانه أظهر السخط على السر سدنى سميث الذى كان سبباً في المجازفة بتلك الحملة، وتعريض جيش كبير من عساكر الدولة العثمانية للانكسار، دون اتخاذ الوسائل الكافية للنصر، وانتهز أحمد باشا الجزار حاكم عكا فرصة انخذال السر سدنى سميث فأكثر من التشنيع عليه ليبرر لدى رجال الدولة تأخره عن المخاطرة برجاله في تلك الحملة المشئومة

وكان أميرال الاسطول العثمانى يدعى باترونابك فلما فشلت الحملة اتهمه الانكشارية في رودس بأنه مالأ أعداء الاسلام وقصر في واجباته فحكموا عليه بالاعدام وقتلوه أشنع قتلة. ومن آراء نابليون في هذه المعركة قوله في مذكراته التى أوحى بها للجنرال برتران في سانت هيلانة

« ليت شعرى ماذا كان يؤمل السرسدني سميث من تدبير تلك الحملة والاشارة

بها ؟ أكان يؤمل الاستيلاء على مصر بواسطة ثمانية عشر ألف رجل من المشاة عديمي الخبرة والدربة ولا خيول عندهم ولا مدافع ولا آلات حربية تحمى ظهورهم؟ أم كان يرجو من وراء ذلك أن يحمل الجيش الفرنسى على فتح باب المخابرات لكي يعود الى أوربا ؟ فهل نسى أن بونابرت كان قائد ذلك الجيش و بطله المغوار ؟ لا يوجد إلا جواب واحد على هذه الاسئلة وهو أن جهل ذلك الضابط البحرى بشئون الحرب البرية هو الذي برّر عنده مشروع تلك الحملة . ولقد أرتكب مثل هذه الغلطة الفظيعة حين ألقى فى يد الهلاك والفناء ، على سواحل دمياط ، بضع مئات من أحسن الجيوش الانكشارية بعد هذا التاريخ بشهور قلائل » اه

ولكن هناك جواباً آخر غير جهل السر سدنى سميث القائدالبحرى ، بالحرب البرية ... ذلك الجواب الذى أثبته تاريخ انكلترا الاستعمارى في جميع حوادث القرن الماضى ، هو أن الانكليز لا يبالون بمقدار ما يعرضون من الرجال للموت والفناء ، ما دام أولئك الجنود من جنس غير جنسهم ، وطينة غير طينتهم ، فلهم الغنم وعلى غيرهم الغرم . ووقائع السودان ، وحملة هيكس باشا ، وحوادث الحرب الأخيرة فى شمال فرنسا ، أعظم برهان على هذا الرأى ، والسياسة لا قلب لها ولا ضمير . وهكذا فعلت فرنسا بأهل مراكش والجزائر فى الحرب الاخيرة . وهكذا تفعل جميع الامم والدول

## ٦ — استطلاع أخبار فرنسا

وفى صبيحة اليوم التالى للواقعة ( ٢٦ يوليو ) ، وقبل أن يعود نابوليون الى الاسكندرية أوفد اثنين من ضباطه لمقابلة السر سدنى سميث فى بارجته المسماة « تايجر » ( النمر ) بحجة المخابرة معه فى تبادل الأسرى من الفريقين ، إذ كان عند الاميرال الانكليزى نحو ثلاثين من الجند الفرنساوي الذين أسروا فى حصار عكا ، كما أنه كان عند الفرنساويين كثير من أسرى الاتراك ولم تكن رغبة تبادل الاسرى هى التى حملت نابوليون على ايفاد ذينك الضابطين لمقابلة عدوه اللدود

بل كانت له من وراء ذلك غاية أخرى ، وهي الوقوف من السر سدنى سميث على أخبار فرنسا وأحوالها ، بعد أن انقطعت أخبارها عن نابوليون عدة شهور ، وربما كانت له غاية أخرى، وهي الوقوف على حركات خصمه وسكناته، لعله يتمكن من الافلات من يده، خصوصاً وقد صمم نهائياً على مغادرة القطر المصرى والعودة الى فرنسا بعد أن تحقق لديه أن الحملة الفرنسوية فى مصر مقضى عليها بالفشل ، لضعف الحكومة المركزية فى باريس ، ولانقطاع المواصلة والمدد بين فرنسا ومصر بعد تحطيم الاسطول الفرنساوى ، وعجز البحرية الفرنساوية عن مجاراة الانكليزية . فلما وصل الضابطان المشار اليهما آنفاً الى البارجة الانكليزية ، استقبلهما السر سدنى سميث بالحفاوة والتكريم . وذكر « بوريين » فى مذكراته أن نابوليون بعث مع رسوليه بهدايا نفيسة للسر سدنى سميث فأهدى هذا مثلها للضابطين ولاطفهما كثيرا وقبل منهما ما جاءا لأجله من تبادل الاسرى

ولم يكن ليخفى على مثل السر سدنى سميث أن وراء فكرة تبادل الاسرى وزيارة أولئك الضباط غاية أخرى لنابوليون ، ولكن لم يثبت لنا التاريخ فى مذكرات أو معلومات ما كان ينويه الاميرال الانكليزى حين أعطى الضابطين الفرنساويين ، فيما أعطاهم، بضع نسخ من الجرائد الانكليزية ومجموعة من أعداد جريدة (لاجازيت فرنسيز ده فرانكفورت ) الصادرة فى المدة الواقعة بين أول ابريل وآخر يونيو من تلك السنة ، وقد كانت أعداد هاتيك الصحيفة والصحف الانكليزية مشحونة بأخبار انخذال الجمهورية الفرنساوية وخسائرها فى حروب المانيا والنمسا وايطاليا

ويرى فريق من كتاب الانكليز أن السر سدنى سميث أراد ، بارسال تلك الصحف لنابوليون، ايقافه على أحوال بلاده واختلال شؤونها ليحمله على فكرة الانجلاء عن مصر والعودة الى فرنسا ، وكانت نظرية عقد صلح ، مع قائد الجيش الفرنسى فى مصر، يقضى بجلاء ذلك الجيش عن وادى النيل، جلاء مقروناً بالحقوق العسكرية، أوما يسمونه «شرف الحرب» ــ فكرة قائمة برأس السر سدنى سميث .

والدليل على ذلك أن قرر تنفيذها مع الجنرال كليبر ووضعت لذلك معاهدة وافية بعد سفر نابوليون ، دون أن تكون لدى السر سدني سلطة تخول له ذلك العمل من حكومة بلاده . ويرى فريق من كتاب الفرنساويين أنه أراد أن يحرك فى نفس نابوليون فكرة الفرار من مصر حين يعلم باختلال الاحوال فى فرنسا ونضوج الثمرة التى كان يتطلع اليها ، وربما كان يؤمل السر سدنى سميث من وراء ذلك أن ينقض على نابوليون ويأسره فى البحر ويأخذ كل ما معه من التحف والطرف غنيمة باردة !!

ويرى غير هؤلاء أن السر سدنى سميث أراد مجرد النكاية بنابوليون حين أرسل له تلك الصحف ، كأن يقول له « كيفما كانت انتصاراتك فى البر فأنت فى قبضة يدى وبلادك مخذولة فى حروبها مضطربة فى داخليتها » وربما أراد الاميرال الانكليزى كل هاتيك الاغراض . ولكن ما لا نزاع فيه ، والذى عليه ثقاة المؤرخين ، هو أن نابوليون لم يكن جاهلا بأحوال بلاده واضطراباتها . فقد ثبت من التحقيقات التاريخية أن يوسف بونابرت ، شقيق نابوليون ، بعث له برسائل وصلت اليه ، على رواية بعضهم ، وهو فى حصار عكا ، وعلى رواية آخرين ، وصلت اليه فى القاهرة ، شرح له فيها حالة فرنسا وحثه على الاسراع فى العودة اليها وقد روى ( ميو ) فى مذكراته حكاية غريبة ، وهى إن أسرة نابوليون فى فرنسا استأجرت رجلا يونانياً اسمه ( بورباكي ) وكانت له سفينة راسية فى ميناء (ليفورنو) بإيطاليا ، واتفقت معه على مبلغ أربعة وعشر الف فرنك تدفع له إذا هو استطاع إيصال الخطابات التى كتبها شقيقه الى يده فى مصر ، وذكر ( ميو ) أن بورباكي وصل الى الاسكندرية وتواترت اشاعة فى الجيش الفرنساوى ، بعد عودته من سوريا ، بقدوم رجل يونانى فى بعثة سرية من فرنسا . وشك «ميو» فى وصول خطاب من حكومة الديركتوار لنابوليون يدعوه الى العودة الى فرنسا لتولى قيادة جيوشها . ولكن المؤرخين المعجبين بنابوليون ، ذكروا نص ذلك الخطاب وتاريخه من باريس فى ٢١ مايو سنة ١٧٩٩ ، فيكون وصوله الى القاهرة فى أواخر شهر يونيو معقولا .

وعلى كل حال فلا نزاع فى أن نابوليون لم يكن فى حاجة الى صحف السر سدنى سميث ليصمم على العودة بنفسه الى فرنسا ، فأنه ، قبل أن يتولى قيادة الحملة على مصر ، كان متطلعاً الى السيادة على فرنسا. ولا يخفى على ذكاء مثله الوقاد ان مصر لا تكون إلا فى يد صاحب السيادة البحرية ، وان اتصاله بفرنسا قد أصبح مقطوعاً ، وان آماله فى الشرق قد قضى عليها القضاء المبرم فى عكا ، فعودته لبلاده فى ذلك الوقت كانت ضربة لازب . وانما اتخذ ما ورد فى تلك الصحف واسطة للتأثير على من أراد أن يعود بهم من القواد ، وليبرر خطته أمام بقية ضباط الجيش وقواده ورجال البعثة العلمية الذين جاء بهم ، ثم تركهم وانسل الى وطنه

قال بوريين فى مذكراته ما نصه :

« لما وصلت الصحف التى أرسلها السر سدنى سميث انكب نابوليون على تلاوتها طول الليل » ومن حديثه بعد ذلك مع بوريين قوله :

« لقد وقع ما كنت أخشاه ! لقد خسر أولئك البلهاء ايطاليا ، وذهبت انتصاراتنا هباء منثورا : فلا بد لى من مبارحة مصر حالا »

ثم أمر بان يستدعى اليه الجنرال الكسندر برتييه فلما حضر أمره بالجلوس وقال له « ان الأمور فى فرنسا سائرة من ردىء الى أردأ ولا بد لى من السفر وأحب أن تكون معى » ثم اجتمع نابوليون بالاميرال ( غانتوم ) واستدعوا اليهم ( بوريين ) ، ناقل هذه الرواية ، واتفق الاربعة فيما بينهم على كتم السر وأمر غانتوم بأعداد البارجتين لاموبرون ولاكاريير La Carriere—La Muiron وإعداد سفينتين آخريين صغيرتين وهما لارافانش ولافورتون ( الانتقام والحظ ) ، وأن تكون بحارة هاته السفن لا يزيدون عن ٤٠٠ الى ٥٠٠ ، وأن يعد ما يلزم من المؤونة والمياه ما يكفى لمدة شهرين ، واختلى نابوليون بغانتوم وتباحث معه فى طريقة الفرار والتحيل للخلاص من الوقوع فى أيدى السفن الانكليزية

وأصدر نابوليون أمره بالسفر الى القاهرة ، وذلك أولا لكي يوهم السر سدنى سميث . الذى كان واقفاً بالمرصاد فى بارجته « النمر » ، بأنه مصمم على البقاء في مصر

وثانياً ليدعو معه من يشاء من خاصة رجاله ، وليأخذ الى فرنسا كل هاتيك الجواهر الثمينة ، والمقتنيات الفاخرة ، والطرف النادرة ، التى جمعها من دور المماليك ومن نسائهم ... ولا تقول هذا القول الذى سبقت لنا الاشارة اليه جزافاً ، فقد ذكر المعلم نقولا الترك العبارة الآتية بحروفها « ودبر بونابارته أمر السفر وهيأ ثلاث مراكب وأرسل لهم ليلا عدة صناديق مملوءة بالجواهر الثمينة ، والاسلحة العظيمة ، والامتعة والقماش ، والامور التى كان اكتسبها » .

* * *

## ٧ — آخر عهد القاهرة بنابوليون بونابرت

ففى الخامس من شهر أغسطس سنة ١٧٩٩ — الموافق يوم الاثنين ٣ ربيع الاول سنة ١٢١٤ — برح نابوليون الاسكندرية قاصداً القاهرة فبات يوم ٦ فى الرحمانية ، وفى مساء يوم السبت ١٠ اغسطس وصل الى القاهرة . قال الشيخ الجبرتى فى حوادث ذلك اليوم « وفى ليلة الاحد تاسعه حضر سارى عسكر الفرنساوية بونابارته ودخل الى داره بالازبكية وحضر صحبته عدة أناس من أسرى المسلمين وشاع الخبر بحضوره فذهب كثير من الناس الى الازبكية ليتحققوا الخبر على جليته فشاهدوا الاسرى وهم وقوف فى وسط البركة ليراهم الناس ثم أنهم صرفوهم بعد حصة من النهار فأرسلوا بعضهم الى جامع الظاهر خارج الحسينية وأصعدوا باقيهم الى القلعة ، وأما مصطفى باشا سارى عسكر فانهم لم يقدموا به لمصر بل أرسلوه الى الجيزة مكرما » اهـ

وفى نفس ذلك اليوم الذى كان يتفرج سكان القاهرة على أسرى الاتراك الذين اختار الجبرتى أن يسميهم « أسرى المسلمين » — مما يدل على أن المسلمين لا يميزون في الدين جنسية — كان المشايخ العلماء والاعيان فى القاهرة وسراتها يسمعون من فم نابوليون ، على لسان تراجمته ، مر الكلام وقاذع اللفظ توبيخا لهم

على ما أظهره المصريون من السرور والاستبشار بقدوم العثمانيين . وقد نقل لنا الجبرتي كلمات قليلة من العبارات التي فاه بها نابوليون في ذلك الموقف ، إلا أن المعلم نقولا الترك جاءنا بخلاصة خطبة نمقها قلمه بعبارات مسجعة ، كأنما كتبها لنابوليون ليلقيها بذلك النص !! والمؤرخان الجبرتي ، ونقولا الترك ، انما جمعا شتات كلمات سمعها كل واحد منهم على حدة من أفراد من الذين حضروا ذلك المحفل . ولا يبعد أن يكون كل واحـد منهما حاضراً ، لان الشيخ عبد الرحمن الجبرتي ، وإن لم يكن إذ ذاك عضواً من أعضاء الديوان ، إلا أنه كان من كبار العلماء ، وشيخ رواق الجبرتية ، فله حق الذهاب مع العلماء والاعيان للسلام على نابوليون ، كما أن المعلم نقولا الترك قد كان بالطبع من الادباء المعروفين ، وقد مدح نابوليون بقصيدة، وله صلات بالمستشرقين والسوريين المترجمين من أبناء جنسه . فمن الممكن أن تكون روايته لأقوال نابوليون أصدق وأوفى من عبارة الجبرتي ، خصوصاً وإن في عبارات نابوليون شيئا من التعريض بمنزلة النبي صلى الله عليه وسلم ، فلا يرضى الجبرتي أن يثبتها في كتابه

لهذا نرى من الضروري أن نثبت العبارتين ولا سيما أن المسيو « كرستيان شرفيس » صاحب كتاب ( بونابارت والاسلام ) اهتم بعبارة المعلم نقولا ونقل صورة فوتوغرافية للصحيفة الواردة فيها ، من النسخة المطبوعة في باريس

وإلى القارىء عبارة الشيخ عبد الرحمن الجبرتي . قال : « ولما استقر سارى عسكر بونابارته في منزله ذهب للسلام عليه المشايخ والاعيان وسلموا عليه . فلما استقر بهم المجلس قال لهم على لسان الترجمان : إن سارى عسكر يقول لكم انه لما سافر إلى الشام كانت حالتهم طيبة في غيابه وأما في هذه المدة فليس كذلك لانكم كنتم تظنون أن الفرنسيس لا يرجعون بل يموتون عن آخرهم فكنتم فرحانين مستبشرين وكنتم تعارضون الأغا في أحكامه وأن المهدى والصاوى ما هم « بونو » أى ليسوا بطيبين ونحو ذلك . وسبب كلامه الحكاية المتقدمة التي حبسوا بسببها

مشايخ الحارات فان الاغا الخبيث(١) كان يريد أن يقتل كل يوم أناساً بأدنى سبب فكان المهدى والصاوى يعارضانه ويتكلمان معه فى الديوان ويوبخانه ويخوفانه سوء العاقبة وهو يرسل إلى سارى عسكر فيطالعه بالاخبار ويشكومنها . فلما حضر عاتبهم فى شأن ذلك فلاطفوه حتى انجلى خاطره وأخذ يحدثه على ما وقع له من القادمين الى أبى قير والنصر عليهم وغير ذلك » اه

وأما عبارة المعلم نقولا الترك فهى كما يأتى «وفى خامس شهر ربيع أول (هذا خطأ وصوابه عاشر) حضر أمير الجيوش إلى مصر، ودخل بالعز والنصر، وبليت أعداؤه بالذل والقهر، وصحبته مصطفى باشا وولده مأسورين مع جملة الاسارى (وهذا أيضاً غير صحيح لان مصطفى باشا وابنه أرسلا للجيزة قبل قدوم نابوليون بعدة أيام) وفى ثانى يوم من وصوله حضرت لعنده جميع الحكام والعلماء والاعيان وأرباب

(١) كانت كلمة الآغا اذا ذكرت منفردة يراد بها المستحفظان أى محافظ القاهرة أو بعبارة أصح حكمدار البوليس، لان الوجاق السادس فى زمن المماليك كان يسمى وجاق الانكشارية ويسمى أيضا المستحفظان، أى وجاق الحراس الذين يناط بهم حفظ المدينة، فآغاوجاق المستحفظان أى ومنداان أورطة الانكشارية يسمى «آغات مستحفظان» أى حكمدار البوليس فى الوقت الحاضر وان كانت هناك فى ذلك الوقت وظيفة اسمها رئيس الشرطة وهى دون وظيفة أغات مستحفظان وكان أول من عين لهذه الوظيفة عند قدوم الفرنساويين محمد اغا المسلمانى الارمنى الاصل، ثم عين بدله رجل يقال له مصطفى أغا، وكان من آلات الفرنسويين وصنائعهم وقتله الاتراك لما دخلوا القاهرة فى مدة كليبر، وكان من أتباع هذا الاغا رجل اسمه عبد العال وصل فى المدة الاخيرة للفرنساويين فى مصر الى أن صار هو أغات مستحفظان وله حوادث مشهورة واضطر أن يسافر مع الفرنسويين عند خروجهم خوفاً من انتقام الاتراك والمصريين منه لظلمه وفجره . وقد أقام فى مرسيليا وتوفى بها . قال عنه رفاعة الطهطاوى أحد رجال البعثة العلمية التى أرسلها محمد على الى فرنسا العبارة الآتية

« ثم أنه يوجد في مرسيليا كثير من نصارى مصر والشام الذين خرجوا مع الفرنساويين حين خروجهم من مصر وهم جميعاً يلبسون لبس الفرنسيس . ويندر وجود أحد من الاسلام الذين خرجوا مع الفرنسيس فان منهم من مات ومنهم من تنصر والعياذ بالله خصوصاً المماليك الجورجية والجركسية والنساء اللواتى أخذهن الفرنسيس صغار السن ، وقد وجدت امرأة عجوز باقية على دينها . وممن تنصر انسان يقال له عبد العال ، ويقال أنه كان ولاه الفرنسيس بمصر أغات أنكشارية فى أيامهم فلما سافر تبعهم وبقى على اسلامه نحو خمسة عشر سنة ثم بعد ذلك تنصر والعياذ بالله بسبب الزواج بنصرانية ثم مات بعد قليل . ولقد رأيت له ولدين وبنتاً أتوا فى مصر وهم على دين النصرانية أحدهما معلم الآن في مدرسة أبى زعبل »

الديوان ، وهنأوه بقدومه وانتصاره، فنظر اليهم بعين فراسته واختباره، وقد وجدهم في حزن شديد . وقد بلغه الهرج الذى حصل في غيابه ، وعزمهم عليه في انقلابه، والكتابات التى أتت إليهم من مصطفى باشا وعثمان خواجة حين حضروا الى أبى قير فقال لهم « لقد أخذنى منكم العجب أيها العلماء والسادات إذ أننى أراكم تغتمون وتحزنون من انتصارى ، حتى الآن ما عرفتم مقدارى ، وقد خاطبتكم مراراً عديدة وأخبرتكم باقوالى بأننى أنا مسلم موحد ، وأعظم النبى محمد ، وأود المسلمين ، وأنتم الى الآن غير مصدقين ، وقد ظننتم أن خطابى هذا خشية منكم مع أنكم شاهدتم بأعينكم،وسمعتم بأذنكم ، قوة بطشي واقتدارى ، وحققتم فتوحاتى وانتصارى، فقولى لكم انى أحب النبى محمد ، ذلك لأنه بطل مثلى ، وظهوره مثل ظهورى، بل وأنا أعظم منه، إذ أننى غزوت أكثر منه ، ولى باقى غزوات غزيرة ، وانتصارات كثيرة ، سوف تسمعونها بآذانكم وتشاهدونها بأعينكم ، فلو كنتم عرفتمونى،لكنتم عبدتمونى،وسوف يأتيكم زمان به تذلون،وعلى ما فعلتم تندمون ، وعلى أيامنا تتحسرون وتبكون،فأنا قد بغضت النصارى ولاشيت دياناتهم ،وهدمت معابدهم ، وقتلت كهنتهم ، وكسرت صلبانهم ، ورفضت إيمانهم ، فهل تريدون أن أرجع نصرانياً ثانياً،فاذا رجعت فلا تجدون في رجوعى فائدة، فدعوا عنكم هذه الاحوال ، وأمتثلوا لأمر الله المتعال ، وكونوا فرحين مطمئنين، ليحصل لكم النجاح والصلاح . وقد نبهتكم مراراً عديدة ، ونصحتكم نصائح مفيدة، فان كنتم تعرفونها وتذكرونها ، فتربحوا وتنجحوا وان كنتم رفضتوها تخسرون وتندمون » اه كلام نابوليون . وقال المعلم نقولا « ثم انصرفت العلماء وهم مندهلون من هذا الخطاب، ومتعجبين كل الاعجاب ، ولم يقدر أحد أن يرد له جواب » اه

ونحن نترك مناقشة ما كتبه مسيو شرفيس تعليقاً وبحثاً فى هذه الأقوال المنسوبة الى نابوليون بونابارت، الى الباب الذى سنخصصه فى الكلام على مسألة بونابارت وإسلامه، وقد وعدنا بذلك فى مواقف سابقة. ولكن لا بد لنا من القول ها هنا بأن عبارة المعلم نقولا مبالغ فيها وان نابوليون ما كان ليخطر له ببال فى

تلك اللحظة ، أن له بقية من « غزوات غزيرة وانتصارات كثيرة » ولعل المعلم نقولا كتب رسالته ، أو أعاد تنقيحها ، بعد أن ذاعت شهرة نابوليون وغزواته فى اوروبا فاختلق من دماغه ما اختلق

وكان من نتائج فوز الفرنسيين فى واقعة أبى قير ، كما هو ظاهر من عبارات نابوليون التى أذاعها فى طول البلاد وعرضها ، أن يقوى النفوذ الفرنسى ، وأن يجنح الذين أظهروا الميل والولاء للفرنسيين الى التغالى والتعالى على المصريين ، وعدم المبالاة بشعورهم ، ولاسيما بعد أن بدت من المصريين بوادر الشماتة والاستبشار بقدوم الاتراك . وما كان المصريون فى ذلك الزمن يظنون أو يتخيلون أن الجيش التركى يقهر ويذل على أيدى جماعة كالفرنسيس . ومن العبارة الآتية التى ننقلها عن الجبرتى ، دليل جلىّ على الحالة السياسية والشعور المصرى فى تلك الفترة . والعبارة على بساطتها لها دلالة قوية على ما كان يحس به المصريون بارزاً فى صورة أبقتها لنا ريشة الجبرتى : قال بمناسبة الاحتفال بحفلة وفاء النيل عقب عودة نابوليون للقاهرة :

« خرج النصارى البلدية من القبطة والشوام والاروام وتأهبوا للخلاعة والقصف والتبرج واللهو والطرب ، وذهبوا تلك الليلة الى بولاق ومصر العتيقة والروضة واكتروا المراكب ونزلوا فيها وصحبتهم الآلات والمغانى ، وخرجوا فى تلك الليلة عن طورهم ، ورفضوا الحشمة ، وسلكوا مسلك الامراء سابقاً من النزول فى المراكب الكثيرة المقاذيف وصحبتهم نساؤهم وقحابهم وشرابهم ، وتجاهروا بكل قبيح من الضحك والسخرية والكفريات ومحاكاة المسلمين ، وبعضهم تزيا بزىّ أمراء مصر ولبس سلاحاً وتشبه بهم وحاكى ألفاظهم على سبيل الاستهزاء والسخرية وغير ذلك ، وأجرى الفرنساوية المراكب المزينة وعليها البوارق وفيها أنواع الطبول والمزامير فى البحر ، ووقع فى تلك الليلة فى البحر وسواحله من الفواحش والتجاهر بالمعاصى والفسوق ما لا يكيف ولا يوصف ... الى آخره ...

ونترك للقارىء ما يستنتجه من مغزى هذه العبارة وننتقل إلى بقية أعمال نابوليون في مصر قبل مبارحته أرضها

## ـ٨ـ محاولات سياسية مع تركيا

كانت المدة التي قضاها نابوليون بونابارت في القاهرة بعد معركة أبي قير عبارة عن أسبوع واحد (من يوم الأحد ١١ أغسطس إلى الاحد ١٨ منه) وصادف يوم ١١ ربيع الاول الموافق ١٣ أغسطس المولد النبوى فاحتفل السيد خليل البكرى بالمولد كعادته احتفالا كبيراً أقام له مهرجانا فخما فى الازبكية ودعا اليه نابوليون بونابارت إلى منزله فلبى الدعوة . وإلى القارئ رواية الجبرتى فى هذا الصدد . قال: « دعا الشيخ خليل البكرى سارى عسكر الكبير مع جماعة من أعيانهم وتعشوا عنده وضربوا ببركة الازبكية مدافع وعملوا حراقة وسواريخ ونادوا في ذلك اليوم بالزينة وفتح الاسواق والدكاكين ليلا وإسراج قناديل واصطناع مهرجان » اه وهكذا شارك نابوليون فى احتفال المولد النبوى للمرة الثانية والاخيرة فى حياته وهو مشغول البال بالاستعداد للسفر، أو بعبارة أصح للهرب من القطر المصرى

وفى هذه المدة حاول نابوليون الصلح مع الدولة العثمانية ، خصوصاً وقد علم أن الصدر الاعظم يوسف باشا ضيا قد برح الاستانة وحضر بنفسه الى الاناضول وسوريا ليجمع جيشا يهاجم به مصر من طريق . الشرق وأراد نابوليون أن يتخذ من وجود المشير مصطفى كوسه باشا فى القاهرة أسيراً ، واسطة فى المخابرة مع الصدر الاعظم فكتب خطابا طويلا ، لا تزال صورته باللغة الفرنساوية محفوظة فى أوراق وزارة الحربية، وفى مكاتبات نابوليون بنمرة ٤٣٦٥ ، وتاريخه ١٧ أغسطس ، أى قبل سفره من القاهرة لاسكندرية ومنها لفرنسا بيوم واحد. ولما كان هذا الخطاب على جانب عظيم من الاهمية السياسية ، رأينا أن نأتى على تعريبه من الاصل الفرنساوى . قال بعد الديباجة مخاطبا الصدر الاعظم

« أريد بواسطة هذا الخطاب أن أوقفكم على مركز مصر الحقيقى لعلى بذلك أساعد على فتح باب المخابرات بين الباب العالى والجمهورية الفرنساوية فيما عساه يؤدى إلى وضع حد للحرب القائمة بين الامتين ، تلك الحرب التى لا تعود إلا بالخسارة على الجانبين ، وإنى لا أدرى أى طالع نحس قضى بشبوب نار الحرب

بين أمتين عاشتا طول الزمان على صفاء ووفاق لبعد ما بينهما من الشقة ، ولعداوة فرنسا للروسيا ، وعداوة هذه الأبدية لتركيا . وكيف لاترى دولتكم أن كل جندى تخسره فرنسا ، هو خسارة للامة العثمانية ؟ وكيف خفى على فطنتكم السياسية ، وخبرتكم بشئون ممالك العالم ، أن الروسيا وألمانيا طالما اتفقتا على تجزئة المملكة العثمانية ولم يمنعها عن ذلك إلا معارضة فرنسا ؟

إن مثل دولتكم لايخفى عليه أن العدوة الحقيقية للاسلام هي الروسيا ! أوليس القيصر بولس الاول رئيس فرسان مالطة يعلن أنه يحمل شعار الصليبيين ضد الاسلام ؟ أوليس هو حامى ذمار الارثوذكسية الرومية وأتباعها أكثر أعداء المسلمين عدداً وأشدهم حقداً ؟

وأما فرنسا فانها بالعكس من ذلك قضت على فرسان مالطة وأفرجت عن الاسرى الاتراك الذين اعتقلهم المالطيون ، وفرنسا هي التى تعتقد الآن كما يعتقد المسلمون أن الله واحد فرد صمد

ومعنى هذا كله أن الباب العالى قد أعلن الحرب على أصدقائه الاوفياء ، وحالف عليهم أعداءه الالداء ، ومن الغريب أن الباب العالى يبقى صديقاً لفرنسا وهى مسيحية حتى إذا خلعت رداء المسيحية ، وقاربت فى معتقداتها دين الاسلام ، قلب لها الباب العالى ظهر المجن وبادأها بالشر والعدوان ! فلا نزاع إذن فى أن روسيا وانكلترا قد خدعتا الباب العالي ، ومنعتا وصول رسلنا الذين بعثنا بهم للاستانة ليشرحوا لحكومتها فكرة وخطة الحملة الفرنسوية على مصر ، تلك الخطة التي صرحتُ مراراً وتكراراً من أنها لا ترمى إلا للقضاء على المماليك والاضرار بمصالح انكلترا ، دون التعرض إلى حقوق صديق فرنسا جلالة السلطان سليم ، وان المعاملة التى عاملت بها جميع رجال الدولة العثمانية الذين وجدتهم في مصر ، وكذلك معاملتنا للسفن التى تحمل الراية العثمانية ، لأصدق برهان على حسن نيات الجمهورية الفرنسية . ولكن مع كل هذا أعلن الباب العالى الحرب على فرنسا فى أول يناير ، ومع علمي بذلك فانني لم أيأس من إمكان اعادة المياه الى مجاريها ، فبعثت بالستوين « بوشان » قنصل

الجمهورية الفرنساوية رسولا للباب العالى فقوبل بالقبض عليه وسجنه ، وقوبلت مساعيّ بحشد الجيوش فى غزة وأمرها بالزحف على مصر فاضطررت ان احاربهـا فى سوريا ، بدلا من ان تحاربنى فى وادى النيل

ولا يخطرن على بالـكم أننى أ كتب هذا خوفاً وتزلفاً ! كلاّ فان جيشى قوىّ مدرب جامع لـكل الصفات التى تؤهله لقهر أعدائه ، وقد أقمت القلاع و الحصون على الحدود وعلى شواطيء البحار فأصبحت فى أمن ، وأضحت جيوشى لا تغلب ، ولـكنى مع كل هذا رأيت من واجبي نحو الانسانية ، ونحو السياسة الرشيدة الصحيحة ، ونحو أقوم وأصدق حليف لفرنسا ، أن أسعى هذا المسعى

وإنى واثق من أنه لا يمكن للباب العالي أن يدرك بالحرب و إراقة الدماء ، ما يناله بالمسالمة والصفاء ، وإنى لعلى قدم الاستعداد لسحق أى جيش يقصد به الاغارة على مصر ، ولـكنى مستعد من جهة أخرى أن أقابل كل مسعى للتوفيق بأحسن ما تريده الدولة العثمانية من التساهل . فعليكم بعد هذا أن توقفوا تيار هذه الاستعدادات التى تبذلون فيها نهاية جهدكم عبثاً ، ولتعلموا أن أعداء تركيا ليسوا فى مصر ، بل هم على مقربة من البوسفور ، وهم الآن فى جزيرة كورفو تمخر سفنهم فى مياه الأرخبيل بسبب سوء تصرفات رجال الدولة ( يشير الى وجود السفن الروسية في البحر الابيض وخروجها من البوسفور )

على تركيا أن تقوى جيوشها وتكثر من بناء السفن وتسليحها ولتدعو المسلمين تحت ظل البيرق النبوىّ ، لا لمحاربة فرنسا ، بل لمحاربة الروس والالمان الذين يريدون جميعاً إضعاف تركيا ونيل أغراضهم . وان قلتم إن تركيا تريد مصر ، نقول لـكم إن فرنسا لم ترد ولا تريد أن تسلبكم إياها

فاما أن تبعثوا بسفراء مفوضين لباريس ، وإما ان تبعثوا برسول منكم الى القاهرة ، وإنى أؤكد لـكم أنه لا تنقضى ساعتان من الزمان فى المناقشة والايضاح ، حتى يتم الاتفاق على الصلح والسلام ، ونحن مستعدون أن نقفل البحر في وجه الروسيا ونقاوم تلك الدولة التي تتخذنا جميعاً ألعوبة لأغراضها ومطامعها ، فليسَ

من مصلحة فرنسا أن توجه مهارة جيوشها وبسالة جنودها ضد المسلمين ، بل بالعكس تقضي مصلحتها بالاتفاق على الدوام ضد أعدائها وأعداء الاسلام .
وأظن إنني وفيت المقام حقه من الشرح والبيان ، فان أردتم المخابرة فني امكانكم استدعاء السنتوين بوشان الذى بلغني أنه محجوز عندكم . وفى إمكانكم اتخاذ أية وسيلة أخرى ، وانى أؤكد لكم إن أسعد أيام حياتى هو اليوم الذى أستطيع فيه إيقاف تيار العداوة بين تركيا وفرنسا ، والقضاء على هذه السياسة العقيمة الخ

الامضاء « بونابارت » (١)

***

وبعث نابوليون هذا الخطاب مع أحد الضباط العثمانيين المأسورين ، باتفاق وتعليمات من المشير مصطفى باشا . ولا علم لمولانا الشيخ الجبرتى بهذه المساعى لأنه لم يشر إليها بحرف واحد ، ولكنها اتصلت بالمعلم نقولا الترك فأشار اليها بقوله « وابتدأ ( بونابارت ) يكاتب الدولة على يد مصطفى باشا ويذكرهم صداقة الفرنساويين ويحذرهم من باقى الدول وأن الاوفق لهم إقامة الفرنساوية في مصر وأنهم أنسب من الغز وتبقى الخطبة والسكة باسم الدولة العثمانية ويمشى الحج كعادته القديمة ويدفعون الأموال المعتادة للخزينة ، وارسل مصطفى باشا هذا الخطاب مع أحد أتباعه »

ومثل هذه البيانات لا بد أن يكون قد سمعها المعلم نقولا من المحيطين بالمشير العثمانى من السوريين التراجمة ، ومثل هذا لا يتيسر طبعاً للشيخ الجبرتى

ولا شك فى أن هذه المساعى النابوليونية ، لم تلق من الأتراك آذاناً صاغية لأن نفوذ انكلترا كان بالغاً حده فى الاستانة بواسطة الصدر الأعظم يوسف ضيا باشا ، الذى كانت صلاته مع السير سدنى سميث على غاية الإحكام والوفاق ، وكان مع ضيا باشا عدد كبير من الضباط الانكليز ، كما يظهر ذلك جلياً من أخبار متقطعة ، وجمل متفرقة ، يراها القارىء فى تاريخ هذه الفترة من كتاب الأمير حيدر الشهابى وكان السير سدنى سميث تعرف بالامير بشير الشهابى فى بيروت وسعى للتوفيق

(١) محفوظات وزارة الخارجية الفرنسية — مكاتبات نمرة ٤٣٦٥ ( ١٧ أغسطس سنة ١٧٩٩ )

والصلح بينه وبين احمد باشا الجزار ، فلم يحفل به ذلك الطاغية ، فأراد الاميرال الأنكليزى الاستعانة بنفوذ الصدر الاعظم فلم يحفل به الجزار أيضاً .

وليس هذا مجال البحث فى تلك الآراء النابوليونية فيما يختص بعلاقات تركيا مع فرنسا السياسية ، ولا سيما فيما له علاقة بمصر وبقاء السيادة العثمانية مع الاحتلال الفرنسى فإن أحوال الزمان قد تغيرت ، ومراكز الدول قد تبدلت ، إلا أن ذلك لا يمنع أن نقول أن ما قرره نابوليون من عداوة الروسيا لتركيا — تلك العداوة الدائمة الأبدية التى قضت بها صوالح الدولتين وتجاورهما ، وتعارض أغراضهما — لا يختلف فيه اثنان ، ولكن مع هذا وقفت بينهما السياسة الأنجليزية فى ذلك الزمن كما وقفت بين فرنسا وتركيا وتقسها ضد الروسيا فى حرب القريم ، وكما وقفت بين فرنسا وروسيا وتقسها أيضاً ضد ألمانيا وتركيا فى الحرب الاخيرة الكبرى ! فهل معنى هذا أن السياسة الأنكليزية أرقى وأدق وامهر من جميع سياسات الدول الاخرى؟ وهل أوتى الانكليز من الحكمة والدهاء وبعد النظر ما لم يؤته غيرهم ؟ الحقيقة فى رأينا القاصر أن الفضل فى نجاح السياسة الأنكليزية فى جميع الادوار ، راجع إلى تماسك أجزاء الامة البريطانية ، وتوحيد أفكار القائمين فيها بأدارة الامور وتدبير مهام الملك ، والى الكثير من الحظ الذى لا يزال طالعه ملازماً لهذه الدولة البريطانية

## — ٩ —

## الاستعداد للسفر

فى اليوم الذى كتب فيه نابوليون بونابارت ذلك الخطاب إلى صاحب الدولة الصدر الاعظم يوسف ضيا باشا كتب خطاباً بعث به إلى أعضاء الديوان من المشايخ والاعيان ، لم يذكر نصه الجبرتى ، ولا المعلم نقولا سوى ما قاله الاول « وفى ثالث عشر أشيع أن كبير الفرنسيس سافر إلى جهة بحرى ولم يعلم أحد أى جهة يريد وسأل أحدهم بعض أكابرهم فأخبر أن سارى عسكر المنوفية ( الجنرال لانوس ) دعاه إلى ضيافته بمنوف ، وراج ذلك على الناس وظنوا صحته »

وإلى القارىء نص خطاب نابوليون معرباً عن المصادر الفرنسية :

« إلى أعضاء الديوان الموقرين

« غداً أسافر إلى منوف حيث أنوى التنقل فى جهات الوجه البحرى لأقف بنفسى على المظالم التى يمكن أن يكون قد ارتكبها الحكام ، وأتفقد الاحوال ، وأتعرف بأهالى البلاد ، ولذلك أطلب منكم أن توطدوا دعائم الثقة عند الخاصة والعامة ، وأكدوا للامة المصرية ، أننى أحب المسلمين ، وأسعى فى خيرهم وسعادتهم ، وافهموا الناس أن لدى من الوسائل ما أنفع به الاصدقاء ، وأنكل بواسطته بالاعداء ، وأحب أن تبعثوا لى دائماً بأخباركم ، وتوقفونى على حقائق الامور ومقتضيات الاحوال . اهـ : الامضاء « بونابارت »

وظاهر أن نابوليون إنما قصد بهذا الخطاب التعمية والابهام لكيلا يذيع سر سفره من القطر المصرى .

وروى بعض المؤرخين أنه قد كان فى نية نابوليون قضاء أسبوع آخر فى القاهرة لكثرة ما لديه من المهام التى تقضى وضع خطط ونظامات ، ولانه كان يود أن يأخذ ، معه صديقه الجنرال ( ديزيه ) فاتح الصعيد ليكون من أكبر أنصاره وأعوانه فيما يطمع إليه من الاغراض فى فرنسا ، ولكن ( ديزيه ) كان فى أقاصى الصعيد وتلزم لحضوره مدة طويلة ، وما منع نابوليون من انتظاره ، إلا ما ورد إليه من الاخبار التى بعث بها الاميرال غانتوم من الاسكندرية يخبره فيها بابتعاد السفن الانكليزية عن المياه المصرية ، أنه إن لم تسافر السفينتان اللتان ستقلان نابوليون وحاشيته فى ٢٤ اغسطس ، فلا يبعد أن تعود البواخر الانكليزية ويكون السفر إلى فرنسا مهدداً بالخطر إن لم يكن مستحيلاً

ففى يوم ١٨ اغسطس برح نابوليون القاهرة قاصداً منوف ، وكان القواد الذين صمم على أخذهم معه الجنرالات مورات ، وبرتران ، وأندريوسى ، ومارمون ، ولان . ومن رجال البعثة العلمية مونج وبرتلو ودنوف وبرسفال . وروى بوريين سكرتير نابوليون فى مذكراته قال « وبقى سر السفر الى فرنسا مكتوماً ، إلا أن الجنرال (لانوس) ، قومندان مديرية المنوفية ، لما نزلنا عنده فى يوم ١٩ لم تخف عليه وجهتنا ، فقال لى « إنكم مسافرون الى فرنسا » ولم يزده جوابى بالنفى إلا زيادة فى الشك »

وفى يوم ٢٢ وصل نابوليون ومن معه إلى الاسكندرية . وقد قال برتران فى مذكرات سانت هيلانة عند اختياره للجنرال كليبر فى قيادة الجيش الفرنساوى فى مصر ما نصه : « كان الجنرال ديزية أكفأ ضابط لتولى رياسة جيش الشرق ولكن وجوده فى فرنسا كان أنفع ، ويليه فى الدرجة الجنرال كليبر ، ثم الجنرال رينيه . ولقد فكر نابوليون في استصحاب أولئك الثلاثة معه الى فرنسا وفى أن يترك القيادة فى مصر للجنرال لانوس ، ولكن لما فكر فى أخطار السفر فى البحر ، فضل أن يترك رياسة الجيش فى مصر فى يد ضابط ذى كفاية ووقع اختياره على الجنرال كليبر »

وهذه العبارة كتبت بعد ستة عشر عاماً من هذا التاريخ ، وأراد بها نابوليون تبرئة نفسه مما وجه إليه من التهم ، مع أنه لم يكن يحب الجنرال كليبر ولم يرد أن يقابله قبل سفره من مصر خشية من جرأة كليبر ولسانه المرّ ، وتحاشياً من أن يقول له « إما أن نسافر معاً وإما أن نبقى معاً » ، وإلا لو أراد أن يجتمع بالجنرال كليبر قبل سفره ، لضرب له موعداً مناسباً ؛ بل وما كان ليكلفه مشقة العودة إلى دمياط بعد أن حضر إلى أبى قير بعد نهاية الواقعة. والدليل على هذا الرأى أنه اختار لمقابلته واعطائه الرسائل والتعليمات التى كتبها لخلفه ، الجنرال منو المعروف بوداعته وخضوعه وولائه لنابوليون (١)

وكان نابوليون لما وصل إلى الأسكندرية أقام خيمته فى الجهة المعروفة الآن

---

(١) يحسن بنا فى هذا المقام أن نبين العلاقة التاريخية بين نابليون بونابرت والجنرال (عبدالله) جاك منو . وان كان الجزء الاكبر من تاريخ الجنرال منو وحكومته فى مصر بعد مقتل الجنرال كليبر ، مما يدخل فى الجزء الثانى من تاريخ بقية الحملة الفرنسية فى مصر . ولكنا نقول هنا ان نابليون كانت له يد قديمة وفضل سابق على الجنرال منو ، اذ كان هذا قدم للمحاكمة أمام (الكونفنسيون) لتقصيره فى واجباته الحربية سنة ١٧٨٩ (أى قبل الحملة على مصر بتسع سنوات ) فدافع عنه نابليون بونابرت عند (باراس) وعفى عنه . ولهذا بقى الرجل ذاكراً لجميل بونابرت وكان من أكبر أعوانه بين قواد الحملة . وأما كليبر فكانت علاقته سيئة مع نابليون . وكان هذا الاخير يخشاه كثيراً . وكليبر ألمانى العنصر لأنه « ألزاسى » الموطن

وهذه المعلومات مأخوذة من كتاب **Le Genéral Abdallah Menou par George Rigault**

فى الرمل بمحطة « كامب سيزار » ( معسكر القيصر ) فلما اجتمع به منو أعطاه كتاب التعليمات التى وضعها لكليبر وترك معه أيضاً عدة رسائل منها واحدة إلى ديزيه بدعوة إلى السفر لفرنسا بأقرب فرصة ورسالة أخرى لصديقه الحميم « جونو » يعتذرفيه لعدم تمكنه من أخذه معه، وفى هذه الفترة، وفى تلك البقعة الأثرية، صرح نابوليون للجنرال منو، لأول مرة، بما تتوق اليه نفسه من التطلع إلى ملك فرنسا، إذ قال له كما ورد فى مذكرات سانت هيلانة :

« سأصل الى باريس وأطرد أولئك المحامين ( أعضاء حكومة الديركتوار ) الذين يهزأون بنا والذين لا يصلحون لأدارة أحكام الجمهورية، وعند ذلك أضع نفسي فى رياسة الحكومة وأجمع حولى الأحزاب المتنافرة، وأعيد الجمهورية الأيطالية وأثبت قدم فرنسا فى هذه المستعمرة الفاخرة ( مصر ) »

# رسالة بونابارت

## لكليبر خليفته

ترك نابوليون كليبر خلفاً له فى القيادة العامة على الجيش الفرنساوى فى مصر، وبعبارة أخرى حاكماً عاماً مطلق التصرف فى شؤون القطر المصرى . وكتب له خطاباً مطولا له قيمة تاريخيـة عظمى لأن نابوليون رسم فى ذلك الخطاب أوفى تلك المذكرة السياسية، الخطة التى يسلكها الجنرال كليبر فى الامور الداخلية والخارجية

وهذا الكتاب محفوظ بالنص الاصلى فى وزارة الحربية الفرنسية ( وثيقة نمرة ٤٣٧٤ )، ولأهمية هذا الخطاب، وعدم وجود أثر له فى اللغة العربية، رأينا أن نأتى هنا على تعريبه بدقة واتقان، قال :

« تجد أيها القائد المواطن طىّ كتابى هذا أمراً تستلم بموجبه قيادة الجيش العليا فإنى قد عزمت على تقديم موعد سفرى يومين أو ثلاثة أيام خوف عودة السفن الأنجليزية . وقد اصطحبت معي القوادبرتيه وأندريوسى ومورات ولان ومارمون والمواطنين مونج وبرتوليه — وتجد مع كتابى هذا بعض الأوراق التى ترى منها

أننا قد خسرنا إيطاليا وأن مدن مانتو وتورين وتورتون محصورة[1] على أنه يوجد مجال للأمل بأن المدينة الأولى تتحمل الحصار إلى نهاية شهر نوفمبر المقبل، وأنا أرجو أن أصل إلى أوروبا — إذا ابتسم لي الحظ — قبل ابتداء شهر اكتوبر

وتجد أيضاً لغة اصطلاحية للمخاطبة مع الحكومة ولغة أخرى للمخاطبة معي أنا

أرجولا ان تسغر في شهر أكتوبر (جونو) ومعه خدمي وجميع حوائجي التي تركتها في القاهرة . ولا مانع أن تبقى لديك من تريده منهم

ترغب الحكومة في سفر الجنرال ديزيه إلى أوروبا في شهر نوفمبر ما لم تطرأ حوادث مهمة وستعود لجنة الفنون إلى فرنسا في شهر نوفمبر أي حالما تنتهي مهمتها وأعضاؤها يبتمون الآن في انجاز الاعمال الباقيـة التي تقوم بها في زيارة صعيد مصر . على أنه يجوز لك أن تستبقي منها من تتوسم فيه المنفعة لك

سافر الأفندي الذي أسرناه في أبي قير إلى دمياط وقد كتبت لك لترسله إلى قبرص فهو يحمل إلى الصدر الاعظم كتاباً تجد طيه نسخة منه

إن وصول أسطولنا إلى برست وطولون ، ووصول الاسطول الاسباني إلى قرطجنة مما لا يدع مجالا للشك في امكان ارسالنـا إلى مصر البنادق والسيوف والمسدسات وبقي المهمات التي تحتاجها والتي سأرسلها لك مع قسم من الجيش الاحتياطي لتعويض الخسائر التي أصابتنا في الموقعتين ، وستعلمك الحكومة حينئذ عن نياتها ، وأنا شخصياً بصفتي العمومية و بصفتي الخصوصية سأعد الاجراءات اللازمة لارسل لك ما يهمك من الأخبار من آن إلى آخر

واذا لم تنجح الوسائل التي سنستعملها للاتصال بك لطروء حوادث ليست في الحسبان، ولم يصلك من الآن إلى شهر مايو أية نجدة وأي خبر من فرنسا، وإذا تفشى الطاعون في مصر على الرغم من كل الاحتياطات التي اتخذت هذه السنة وقضى على ١٥٠٠ جندياً من جيوشك مما يعد خسارة كبرى ، فعليك والحالة هذه أن لا تركب متن الخطر في اثارة المعركة المقبلة بل أنك مفوض في عقد الصلح مع الباب العالي العثماني حتى ولو كان الجلاء عن مصر من شروط الصلح الأساسية، إنما

---

(١) مدن ايطالية محصنة Mantone, Turin et Tortone

يجب أن ترجىء تنفيذ هذا الشرط إلى حين عقد الصلح العام

وانك تقدّر، أكثر من أى شخص آخر، أيها الجنرال المواطن، أهمية امتلاك مصر وبقائها فى يد فرنسا. إن السلطة التركية المتداعية الأركان تنهدم شيئاً فشيئاً وسيكون إجلاء فرنسا عن مصر من المصائب التى تعظم نتائجها إذ قد نرى فى أيامنا، هذه البلاد تنتقل إلى يد أوروبية أخرى

وعند ما تضع خططك يجب أن تراعى الأنباء التى ترد اليك عن انتصار أو انكسار الجمهورية فى أوروبا

إذا أجابك الباب العالى قبل أن تصلك أنبائى من فرنسا، وقبل فتح باب مفاوضات الصلح التى اقترحتها عليه، فيجب أن تصرح أنك حائز على كافة السلطات التى أحوزها أنا، وباشر المفاوضة، وأيد ما سبق وصرحت أنا به من ان فرنسا لا تنوى اقتطاع مصر من أملاك الباب العالى واطلب انفصال الباب العالى عن التحالف، ومنحه إيانا حق التجارة فى البحر الأسود، واطلب هدنة ستة أشهر نتبادل فى أثنائها المصادقة على المعاهدة.

وإذا فرض أن الظروف حملتك على أن تعقد أنت بنفسك المعاهدة مع الباب العالى، فيجب إشعاره بأنه لا يمكنك تنفيذها قبل التصديق عليها، وحسب المتبع بين كافة الدول تكون المهلة بين إمضاء المعاهدة والمصادقة عليها هدنة لا يحدث فيها أى عمل عدائى

وانك تعرف، أيها القائد المواطن، ما هى نظريتى فى سياسة مصر الداخلية فإنك مهما تفعل فستجد المسيحيين دائماً أصدقاءنا. إنما يجب منعهم على كل حال من الاستخفاف بمواطنيهم حتى لا يتعصب الأتراك ضدنا كما هم متعصبون ضد النصارى فتصبح العلة لا شفاء لها، ويجب أن تحذر روح التعصب وتنومها إلى أن تتمكن من استئصالها. اذا حزت ثقة كبار مشايخ القاهرة فانك تجمع حولك أفكار مصر بأجمعها، وأفكار كل زعيم من زعماء الشعب. لا شىء أقل خطراً علينا من المشايخ

الذين يرهبون القتال ولا يعرفون طرقه ، ولكنهم مثل القسيسين يوحون بالتعصب دون أن يكونوا هم أنفسهم متعصبين

من جهة التحصينات فإن الاسكندرية والعريش هما مفتاحا مصر . كان لدى مشروع لأقامة متاريس من النخل فى الشتاء القبل ، منها متراسان من الصالحية إلى القطية ، ومتراساً من القطية إلى العريش ، وأحد المتراسين الآخرين يقام حيث وجد الجنرال مينو مياها صالحة للشرب

يطلعك الجنرال سانسون قائد فرقة الهندسة والجنرال سونجى قائد مدفعية الجيش على كل ما يتعلق بأمور جيشهما

المواطن بوسيلج قد عهد إليه بالشئون المالية فقط ، وعهدى به رجل جد وعمل وقد صار لديه الآن بعض المعلومات عن الإدارة المصرية المرتبكة . كنت أفكر فى انشاء طريقة جديدة لجمع الأموال الأميرية فيما إذا لم يحدث أمر جديد مما يغنينا عن استخدام الأقباط تقريباً ، وإنى أوصيك بالتفكر ملياً فى هذا الأمر قبل الاقدام عليه ، فالأفضل أن تبتدىء بمثل هذا العمل متأخراً قليلاً ، من أن تبتدىء به قبل أوانه

ستظهر السفن الحربية الفرنسية بلا ريب فى هذا الشتاء أمام الأسكندرية أو البرلس أو دمياط . يجب أن تبنى برجاً فى البرلس . اجتهد فى جمع ٥٠٠ أو ٦٠٠ شخصاً من المماليك حتى متى لاحت السفن الفرنسية تقبض عليهم فى القاهرة أو الأرياف وتسفرهم إلى فرنسا ، وإذا لم تجد عدداً كافياً من المماليك فاستعض عنهم برهائن من العرب ومشايخ البلدان ، فإذا ما وصل هؤلاء إلى فرنسا يحجزون مدة سنة أو سنتين يشاهدون فى أثنائها عظمة الأمة ، ويعتادون على تقاليدنا ولغتنا ولما يعودون إلى مصر يكون لنا منهم حزب يضم إليه غيرهم

كنت قد طلبت مراراً جوقة تمثيلية وسأهتم اهتماماً خاصاً بارسالها لك لأنها ضرورية للجيش وللبدء فى تغيير تقاليد البلاد

إن المركز السامى الذى ستشغله بصفتك رئيساً أعلى ، سيفسح المجال أمام

المواهب التى خصتك بها الطبيعة واعلم أن مايجرى هنا لذو أهمية كبرى وستكون نتائجه عظيمة على التجارة فنحن فى عهد ثورات كبيرة

لقد اعتدت على أن أرى مكافأة أعمال الحياة ومتاعبها فى أفكار حكم الاجيال الخالفة فإنى أبرح مصر مع أسف كبير ، لان مصلحة الوطن ومجده ، والطاعة الواجبة علىّ نحوه ، والحوادث الاستثنائية التى وقعت أخيراً ، هى وحدها التى تحملنى على المرور بين اساطيل الأعداء فى ذهابى إلى أوروبا ، ولكنى سأبقى بقلبى وأفكارى بينكم وسأفخر بنجاحكم مقدار فخرى بنجاح ما أباشره بيدى ، وأنى أعتبر الايام التى تمضى دون أن اعمل فيها عملاً نافعاً للجيش الذى أترك لكم قيادته ، تعدّ من الايام التى أسأت التصرف فيها ، وقد عهدت إليكم إشادة البناء العظيم الذى وضعنا أحجاره الاساسية

إن الجيش الذى أتركه فى عهدتكم مؤلف جميعه من أبنائى فقد شاهدت علامات الاخلاص والتعلق بى على وجوههم حتى فى أشد أيام محنتهم ، فدعهم يسيرون فى هذا السبيل ، وستقوم بهذه المهمة نحوهم نظراً للاعتبار الخاص الذى أكنه لك ونظراً لتعلقى الحقيقى بهم وسلام عليك !

« بونابارت »

## وقع الخبر فى مصر

دهش الناس فى مصر من فرنسيين ومصريين حين وصل إلى القاهرة نبأ ارتحال الجنرال بونابرت من مصر فروى الجبرتى فقال :

«وفى ثامن عشرينه (أى ٢٨ ربيع الاول) ورد من بونابارته سارى عسكر الفرنساوية كتاب من الاسكندرية خطاباً لاهل مصر وسكانها ، فأحضر قائمقام دوجا الرؤساء المصرية وقرأ عليهم الكتاب ومضمونه أنه سافر يوم الجمعة حادى عشرين الشهر المذكور إلى بلاد الفرنساوية لاجل راحة أهل مصر وتسليك البحر

فيغيب نحو ثلاثة أشهر ويقدم مع عساكره ليصفوله ملك مصر ويقطع دابر المفسدين . وأن المولى على أهل مصر وعلى رياسة الفرنساوية جميعاً هو كليبر ، سارى عسكر دمياط »

ونحن لا نعلم ما إذا كان الجنرال دوجا قد اكتفى بقراءة خطاب نابوليون لاعضاء الديوان من المشايخ أو أنه أمر بترجمته وطبعه ونشره . إذ لو فعل ذلك لجاز لنا أن نعتقد أن الجبرتى كان يحرص على نصه كما أن العلم نقولا لم يشر اليه مطلقاً — وان يكن قد حفظ لنا صورة الخطاب الذى وزع بامضاء المشايخ ، وهو مالم يأت به الجبرتى على نصه ، ولهذا فاننا نأتى على تعريب نص آخر خطاب بعث به نابوليون إلى أعضاء الديوان نقلا عن كتاب الكابتن لاجونكيير (١)

« من القائد العام بونابرت الى ديوان القاهرة المنتخب من خيرة الرجال وأوسعهم معرفة واكثرهم حكمة

القيادة العامة بالاسكندرية فى ٢٢ اغسطس سنة ١٧٩٩

« لما كنت عالماً ان اسطولى على قدم الاستعداد وان جيشاً كبيراً سيسافر . وكنت أعتقد كما قلت لكم مراراً بأننى اذا لم أضرب أعدائى ضربة شديدة أسحقهم بها فلا أستطيع أن أتمتع هادئاً بامتلاك مصر التي هى أجمل بلاد الدنيا ، فقد عولت على أن اكون على رأس أسطولى تاركا القيادة العامة أثناء غيابى للجنرال كليبر وهو رجل ذو مزايا خاصة وقد أوصيته أن يحفظ للمشائخ العلماء ما كنت أحفظه لهم من المحبة والود .

فابذلوا جهدكم ليثق به الشعب المصرى ثقته بى . ومتى عدت بعد شهرين أو ثلاثة أكون مسروراً لأنى أحمل لهذا الشعب المدح والثناء ، وللعلماء حسن الجزاء .

«بونابرت »

وكتب نابوليون الخطابين الآتيين للجنرال « دوجا » ولبوسيلج الروزنامجى

(1) Histoire de L'expédition d'Egypte par M. le capitaine G. de la Jonquière

« من القائد العام بونابرت إلى الجنرال دوجا

القيادة العامة بالاسكندرية فى ٢٢ أغسطس سنة ١٧٩٩

حينما تقرأ هذا الكتاب أكون أيها المواطن الجنرال فى وسط البحر لان أحوال فرنسا توجب على السفر اليها . وفضلا عن ذلك فان سفرى هو الوسيلة الوحيدة لتأمين هذه السفن ورجال الجيش

إن كليبر يحفظ لك حباً واحتراماً . وأنت واثق أن بعض السفن الحربية الفرنسية ستصل فى الشتاء وتستطيع أن تبحر عليها للعودة إلى منصبك فى القسم التشريعى لتتمكن من استخدام مهارتك وحزمك لحفظ السكينة فى هذه المدينة العظيمة وفى مصر والجيش

وتأكد أنه مهما كانت الظروف التى يحكم علينا بها القدر فانني أحفظ لك دائماً من الاحترام والود مثل ما تشعر به نحوى

بونابرت

***

من القائد العام بونابرت إلى المواطن بوسيلج

القيادة العامة بالاسكندرية فى ٢٢ أغسطس سنة ١٧٩٩

إن الحوادث التى جرت فى أوروبا منذ ١٥ يونية تجعل من واجبى الاسراع فى السفر . وأرجو أن أصل قبل سقوط مدينة مانتو

إن الجنرال كليبر الذى تولى قيادة الجيش يجلك ويحبك

وسأطلع الحكومة فى باريس على ما تقدم لهذه البلاد من الخدم الجليلة فى كل يوم . ومهما كانت الظروف فانك تستطيع أن تعتمد على نيتى فى أن أقوم بتأدية كل عمل يسرك . بونابرت

***

قلنا إن المعلم نقولا الترك حفظ لنا فى رسالة نص الخطاب الذى وزع بامضاء المشائخ عن سفر نابوليون وهذا نصه :

« من محفل الديوان الخصوصى ، خطاباً الى سائر الاقطار المصرية ، من الاقاليم القبلية والبحرية ، وكامل الرعايا وفقهم الله !

نخبركم انه حضر الى الديوان مكتوب من حضرة الجنرال ( دوكا ) القائم مقام، بأن سارى عسكر بونابرته الكبير ، أمير الجيوش الفرنساوية ، توجه الى البلاد الفرنساوية ، لأجل حصول الراحة الكاملة الى الاقطار المصرية ، وانه كان حضر له استعجال من الجمهور فى بلاده ، لطول غيابه ، أقام عوضه رجلا كاملا عاقلا فيه شفقة ورحمة عامة على الرعية ، جعله أميراً على الجيوش الفرنساوية ، وأخبرنا القائمقام اننا نكون فى غاية الأمان والاطمئنان ، على ديننا وعرضنا ومتاجرنا ، وأموالنا وأسباب معاشنا ، وكما كنا فى زمان حضرة السارى عسكر الكبير بونابرته، ننصحكم ياأيها الرعايا لا تطيعوا أهل الفساد، واتركوا الفتن والعناد ، وامتثلوا أمر خالق العباد ، والسلام عليكم ختام

الفقير السيد خليل البكرى الفقير عبد الله الشرقاوى الفقير محمد المهدى
نقيب الاشراف رئيس الديوان كاتم سر الديوان

الفقير مصطفى الصاوى الشافعى . الفقير سليمان الفيومى المالكي . الفقير السيد احمد المحروقى . — الفقراء : على كتخدا . يوسف باش شاويش . لطف الله المصرى.
يوسف فرحات . جبران سكروج . وملار . بودوف . ذو الفقار كتخدا
نظر وعلم — وكيل الفرنساوية « جلوتيه »

طبع بمطبعة الفرنساوية بمصر المحروسة

* * *

ثم قال المعلم نقولا « ثم حضر الجنرال كليبر من دمياط إلى بولاق والتقاه القائم مقام دوكا (Dugua) وشيخ البلد دوسطين (Dustin) ودخل مصر بالعز والنصر ، وقدم للسلام عليه القواد والحكام والعلماء والاعيان »

وقال الجبرتى فى ختام روايته عن سفر نابوليون

« فتحير الناس وتعجبوا فى كيفية سفره ونزوله البحر مع وجود مراكب

الانكليز ووقوفهم بالثغر ورصدهم الفرنساوية من وقت قدومهم الديار المصرية صيفاً وشتاء . ولكيفية خلاصه أنباء وحيل لم أقف على حقيقتها »

ونحن سنكمل لمولانا المرحوم الشيخ الجبرتى هذه الانباء والحيل التى لم يقف على حقيقتها نقلا عن أقوال الذين رافقوا نابوليون فى سفره ومجازفته لتتم بهذه الصورة ، وتختم الرواية

# وقع الخبر على كليبر

عرف القارىء من الفصل السابق ان نابوليون لم يكن ينوى الاجتماع بكليبر ولذلك ترك أوامره وتعلماته للجنرال منو فى ضواحى الاسكندرية . أما كليبر فانه وصل إلى رشيد انتظاراً لمقابلة نابوليون فعلم من منو أن القائد العام سافر من الاسكندرية ولم يذهب الى مكان المقابلة فى رشيد . عند ذلك أحس كليبر بأن نابوليون خدعه وانه سافر قبل أن يقابله أو يستشيره فى قبول تلك المهمة الشاقة في تلك الظروف العصيبة . كيف لا وقد كانت حالة الفرنسيين فى مصر مما لا يغتبط به بحال من الاحوال على الرغم من انتصارهم فى واقعة أبى قير، اذ لم يبق من الثلاثين ألفاً من الجنود الذين احتل بهم نابوليون مصرا أكثر من عشرين الفاً وكانت الاحوال المالية في غاية الحرج، ومرتبات الوظفين والجنود متأخرة مما ساعد على الانحطاط الادبي ، وتفشى هذا الشعور بين طبقات الجيش وأسلحته المختلفة .

واذا ضممنا الى كل هذا استعداد الاتراك، بالاشتراك مع الانجليز، للهجوم على مصر ، وشعور المصريين بالاشمئزاز من الفرنسيين وسلوكهم وآدابهم ومعاملاتهم الشخصية والعمومية، ونفور المصريين أيضاً من الحاكم الاجنبي ، ولو كانت حكومته أحسن نظاماً وأوفر عدلا من حكم المماليك أو الاتراك

نقول اذا ضممنا كل هذه الامور بعضها الى بعض، أدركنا حالة الجنرال كليبر النفسية وتغيظه من بونابرت وسفره وتركه له هذه المهمة الشاذة القاسية ، على الرغم من الظهور بمظهر الرياسة والسلطة الكبيرة التى كانت لسلفه نابوليون بونابرت

روى منو فيما كتب من مذكراته بعد، أن كليبر حين وصل الى رشيد —

حيث تلقادمنو ليسلمه أوامر نابوليون — وعلم بسفر القائد العام وانه لم ينتظر مقابلته ووقف على أسماء القواد الذين اختارهم نابوليون للسفر معه — أظهر منتهى الحنق والغيظ وسلق نابوليون بألسنة حداد

وكان من أثر حقده وغيظه أنه أصدر أوامره فى الحال بتسفير خليلة نابليون ( بولين فورس ) كيما تتبعه الى باريس وكيما تعلم بأمرها جوزفين وفى ذلك من النكاية ما فيه ولكيما يفهم نابليون أنه ( أى كليبر ) رفض الهدية التى أهداها له !

# سفر نابوليون من مصر

كان سفر نابوليون بونابارت من مصر أشبه بالقصص الخيالية وأساطير الأولين منه بالحقائق التاريخية والحوادث الواقعية ، فانه كان يعلم علم اليقين أن السفن الانكليزية الكثيرة العدد والعُدد واقفة له بالمرصاد ، وأن أعظم ما تتوق إليه نفس السر سدنى سميث ، أو أى ربان سفينة من سفن الأسطول الانجليزى ، هو أن يلقى القبض على نابوليون بونابارت رجل فرنسا وعدو انكلترا اللدود . وكان يعلم فوق ذلك أن القابضين على زمام الأحكام فى باريس يغارون منه ولا يريدون وجوده بينهم ، لان الشعب الفرنسى متحمس له ، معجب به ، والعقلاء من القوم لا يريدون الخلاص من استبداد الملوك ليقعوا فى يد استبداد حربى ، أشد نكاية وأثقل وقعاً

فنابوليون الرجل المملوء بالآمال كان يعلم كل ذلك ، فلا الطريق مأمونة ، ولا أصحاب السطوة فى بلاده يرغبون فى وجوده ، ومع كل هذا صحت عزيمته على اقتحام الأخطار والمقامرة بكل شىء فى الوجود ، ولا أعز فيه من الحياة ، التى خاطر بها ! فاما للسماك وإما للسمك !

ونحن لا نريد أن نتبع نابوليون فى سفره المحفوف بالأخطار ، فتلك صحيفة من تاريخ الرجل وأخرى من تاريخ فرنسا ، ونحن إنما نكتب تاريخ مصر ويكفينا فى هذا المقام أن نذكر ما له مساس بسفره من حوادث هذه الديار فنقول :

إن نابوليون اتفق مع الأميرال غانتوم على أن تكون تحت أمرته السفينتان

لا كارپير LaCarriére ولاموپرون La Muiron وركب فى الأولى بونابارت والجنرالان « برتيه ومونج » ومعهما « برتللو » العالم الرياضى ، و« بوريين » سكرتير نابوليون. وركب فى الثانية الآخرون. وقد روى « بوريين » لنا فى مذكراته أن عدد الذين ركبوا السفينتين كان يبلغ من اربعمائة إلى خمسمائة بين قواد وضباط وعلماء وأتباع.
وكان ممن سافر مع نابوليون رستم المملوك المشهور الذى أهداه إليه السيد خليل البكرى وسبقت لنا الاشارة الى تاريخه معــه ، ومما رواه سافارى ( كونت ده رفيجو ) فى مذكراته ، أن نابوليون ومن معه غادروا ضواحى الاسكندرية ليلاً بحيث لم يعلم بهم أحد ، ولما نزلوا البحر من نقطة على الشاطىء ( لا بد وأن تكون برج العرب قرب المكس ) تركوا الخيول التى كانوا يركبونها فعادت أدراجها جافلة إلى الاسكندرية فذعرت الحامية وارتفعت أصوات الأبواق ، وهب الحراس ظناً منهم أن هناك حملة فاجأتهم على غرة ، حتى إذا ابصروا الخيل بلا فوارس لها ، ظنوا أن كميناً من الأعراب فتك بشرذمــة من الجنود الفرنساويين ، فأصدر قائد الحامية أمراً باعــداد حملة للاستكشاف ، وصارت المدينــة فى هرج ومرج ، وضجيج وصخب ، حتى اتضح الأمر ، وعرف جواد نابوليون وأخبر بعض الخدم العائدين بما جرى

ولما كنا قد وعدنا أن نــكمل لمولانا الشيخ الجبرتى عبارته بذكر أنبــاء الحيل التى استطاع بهــا نابوليون بونابرت الوصول الى فرنسا « مع وجود مراكب الانجليز ووقوفهم بالثغر ورصدهم الفرنساوية » فلا مندوحة لنا من نقل بيان موجز للوسائل التى اتخذت للتملص من الاساطيل البريطانية ، ولدينا فى مذكرات بوريين ، كاتم أسرار نابوليون ورفيقه في هذه الرحلة المحفوفة بالاخطار ، العبارة الآتية :

قال بوريين :

« فى يوم ٢٣ اغسطس سنة ١٧٩٩ ركبنا فى السفينتين (لاموپرون ، ولا كارپير) وكان عددنا يتراوح بين ٤٠٠ و٥٠٠ وكانت الليلة حالكة الظلام بحيث كنا نلتمس الوصول الى السفينتين تحت نور النجوم الضئيل

ولم يكن الاميرال غانتوم حرا فى تصرفاته واتخــاذ السبل البحرية التى يراها

موصلة بنا الى الشواطىء الفرنسية لان نابوليون استبد بالامر وقال للاميرال بصراحة وصرامة : إن ارادتى هي أن تسير بمحاذاة الشواطىء الافريقيـة الى أن نصل الى جنوبى جزيرة سردينيا .. إن معي بضعة أفراد من الرجال الابطال ومعى كمية من الذخائر والمدافع فاذا انقض علينا الانجليز ونحن بجوار الشاطىء الافريقى ، فانى أستطيع أن أنزل الى الارض اليابسة وأشق طريقى بهؤلاء الشجعان الصناديد الى وهران، أو الى تونس، أو الى أية فرضة بحرية أخرى لعلنا نستطيع الحصول على ما يوصلنا الى بلادنا »

تلك كانت إرادة نابوليون وعزيمته الصارمة !

ثم استمر بوريين فى وصف الرحلة والقلق الذى كان يساور نابليون ومن معه من انقضاض السفن الانجليزية عليهم ، حتى أراد الله الذى اختار نابليون بونابرت لعرش فرنسا لينفذ على يديه ارادته العالية فى اوروبا ، أن تصل السفينتان الفرنسيتان الى خليج ( مريجوس ) في جنوب فرنسا فى الثامن من شهر اكتوبر من تلك السنة

***

وهنا نقف بالقلم بعد أن وصلنا بنابوليون بونابرت الى بلاده

والى هنا ينتهى أمرنا مع نابوليون بونابرت و ينتهى هذا الكتاب

# ذيل أول

## بحث فى رواية اسلام نابوليون

كثيراً ما أشرنا في مواقف عديدة من هذا الكتاب الى رواية إسلام نابوليون ، أو رغبته في اعتناق الدين الاسلامى ، أو اعتقاده الشخصى فى دين محمد عليه الصلاة والسلام ، ووعدنا بأن نخصص بحثاً فى هذا الموضوع لما له من الاهمية العظمى من الوجهة التاريخية ، ومن وجهة رأى رجل من أعظم عظماء الرجال ، فى الدين الاسلامى . رجل فتح مصر للعالم الاوروبى ، وتولى الحكم فيها ، بل وضع أسس النظامات والمباحث التى سارت فى طريقها مصر ، منذ ذلك العهد الي يومنا الحاضر . وسنحاول التحقيق والتدقيق ما استطعنا ، معتمدين فى هذا البحث العويص على تصريحات نابوليون وآرائه الشخصية فى منفاه بسانت هيلانه ، وكذلك على آراء الذين عاشروه فى مصر وفى أوروبا ، أو فى منفاه أيضاً . فنقول :

تناقل بعض المؤرخين رواية إسلام نابوليون بونابرت فى مصر ، وردد هذه الرواية كثيرون ممن لا يمحصون الحقائق ، بحيث صارت ، بغير حذر ولا تحفظ ، كأنها حقيقة تاريخية ، على الرغم من أن حياة نابوليون ، بعد مبارحته أرض مصر نهائياً ، معروفة مفصلة ، وتمسكه بالمسيحية ، وتتويج البابا له ، وزواجه من ماري لويز بجميع المظاهر والطقوس المسيحية ، — من الحوادث المقررة المعروفة فى صحائف التاريخ

ونحن نقرر هنا قبل الدخول فى الموضوع ، أو اطالة البحث :

أولا — أن نابوليون بونابرت لم يعتنق الدين الاسلامى مطلقاً

ثانياً — أن نابوليون ابن الثورة الفرنسية لم يكن له اعتقاد صحيح فى دين من الاديان

ثالثاً — أنه كان ينوى التظاهر باعتناق الدين الاسلامى اذا استحالت عليه العودة الى فرنسا

رابعاً — أنه كان يرى فى سهولة الدين الاسلامي وموافقته للفطرة الانسانية ماحببه فيه وأمال قلبه اليه

ولدينا تصريحات نابليون نفسه فيما أملاه على الجنرال برتران فى مذكرات سانت هيلانه عن فتح مصر ، وعن فكرة اعتناق الدين الاسلامى ، وهى الحجة القاطعة فى هذا الباب

قال عن لسان برتران ماتعريبه :

« كان دهاة السياسيين الذين خبروا مصر ووقفوا على أحوال سكانها وطباعهم يعدون الدين أكبر عقبة تعترض توطيد اقدام الفرنسيين فى مصر . وقد قال ( فولنى ) الرحالة فى سنة ١٧٨٨ : « للبقاء فى مصر تجب مواجهة حروب ثلاثة . أولاها ضد انجلترا، والثانية ضد الباب العالى، والثالثة — وهى أشدها صعوبة — ضد المسلمين الذين يتألف منهم شعب مصر» . وقد سببت هذه الاخيرة للفرنسيين بلاء شديداً ، وكبدتهم خسائر جساماً، وكانت أشد العقبات التي يصعب تذليلها

وضع الفرنسيون أيديهم على الاسكندرية والقاهرة، وانتصروا في شبراخيت وامبابه ، ومع ذلك بقى مركزهم مزعزعاً يعبث به المسلمون الذين أذهلتهم سرعة الحوادث، فخضعوا واستسلموا أمام القوة، ولكنهم لبثوا ينظرون بعين الكراهية والمقت الى فوز «الكفار» الذين دنسوا بوجودهم مياه النيل المقدسة . وكان المسلمون يعدون من الفضيحة والعار وقوع الطريق الاول لبلد الكعبة المقدسة ، بيد غير المؤمنين، وظل العلماء والأئمة يرددون الآيات التى تنص على مقاومة الكفار

ومن المبادىء الاساسية التى سار عليها الاتراك والمماليك فى سياستهم ، انهم أبعدوا المشايخ عن المناصب الادارية والقضائية . ولذلك دهش العلماء والمشايخ الاجلاء ، حينما رأوا أنفسهم فى(زمن الفرنسيين) يولون القضاء والمناصب الادارية ، ويحكمون بين الناس. وعلامقامهم في أعين الشعب ولم يمر شهر واحد من دخول الجيش الفرنسي الى القاهرة ، حتى تغير احساس المشايخ نحو الفرنسيين، وتعلقوا تعلقاً شديداً «بالسلطان الكبير»!! واخلصوا له الود. وما كانت أشد دهشتهم حينما رأوا الفرنسيين الذين انتصروا في موقعة امبابه يظهرون اهتماماً كبيراً بقرى هؤلاء المشايخ وأملاكهم الخاصة، ويحافظون عليها محافظة كبيرة. ولم يتمتع أولئك المشايخ من قبل بمثل الاحترام والانصاف والرعاية التى تمتعوا بها تحت حكم الفرنسيين . بل سعى الناس الى العلماء

يطلبون حمايتهم ، لا المسلمون وحدهم فحسب ، بل المسيحيون أيضاً من الاقباط واليونانيين والارمن الذين كانوا يقيمون فى مصر

وكان المسيحيون قد انتهزوا فرصة دخول الجيش الفرنسى، وأرادوا أن يطرحوا عن أعناقهم النير القديم ، وأن يخرجوا عن تقاليد البلاد وعاداتها وأن يحتقروا المسلمين أو يناوئوهم. فلما بلغت هذه الاخبار آذان القائد العام عنف اولئك المسيحيين، وأغلظ لهم القول، وأكرههم على مراعاة العادات القديمة وعدم الاخلال بها (١)، فقوبل عمله هذا من المسلمين بالفرح ، ونال القائد العام ثقتهم التى لا حدَّ لها

لم يحفل الجيش الفرنسى بالدين منذ الثورة ، ولم يدخل رجاله الكنائس فى ايطاليا ، ولم يغشوا كذلك كنائس مصر، ولم تغب هذه الملاحظات عن أعين العلماء والمشايخ الذين كانوا يغارون على الدين الاسلامى ، وطربوا لهذا الامر واعتقدوا أن الفرنسيين، إن لم يكونوا من المسلمين ، فهم على الاقل ليسوا من الكافرين ، وأن «السلطان الكبير» من غير شك يحميه النبي! وجعلوا يذيعون هذه الفكرة، ويعملون على ترويجها بين الشعب ، ويقولون للناس إن الفرنسيين لم يكونوا لينتصروا على المؤمنين ويقهروهم، لو لم يكن قائدهم متمتعاً بحماية النبي ورعايته، وأن جيش المماليك، وهو أقوى جيش في الشرق دون جدال، لم يستطع أن يقف أمام الجيش الفرنسى الا لأن المماليك كانوا من الملحدين، وأن هذا الانقلاب ورد ذكره عدة مرات في القرآن.

وجعل نابليون بعد ذلك يضرب على الوتر الحساس ويتكلم عن الوطنية العربية، قائلا: « لماذا تخضع الامة العربية للاتراك؟ وكيف تكون مصر، جنة الله في أرضه، وبلاد العرب المقدسة ، مهبط الوحي، خاضعتين لشعب يخرج من القوقاز؟ واذا هبط الآن النبي من السماء، فالى أين يذهب؟ أيذهب الى مكة، وهى لم تبق عاصمة المملكة الاسلامية؟ أم يذهب الى الأستانة وهى مدينة دنسة يزيد فيها عدد الكافرين على المؤمنين؟ ولو ذهب اليها لكان فى وسط أعدائه . !! إنه بلا شك يفضل مياه النيل المقدسة، وينزل فى الجامع الازهر وهو أول مفتاح للكعبة المقدسة »

وكان المشايخ الاجلاء يسمعون هذه الاقوال وعلى وجوههم علامات الفرح

(١) قارن هذا التصريح بما شرحناه فى صحيفة ٢٠٦ وما بعدها عن المسلمين والاقباط فى عهد بونابرت

وأيديهم مشتبكة على صدورهم وهم يتمتمون « طيب ! طيب ! »

ولما فرَّ مراد بك من أمام نابليون الى الصعيد قال لهم نابليون « إننى أريد أن أعيد مملكة العرب، ومن يمنعني من ذلك ؟ لقد أهلكت المماليك وجيشهم أقوى جيش فى الشرق بأسره، ومتى تفاهمنا وعرف المصريون ما أريده من الخير لهم، فأنهم سيظهرون لى الود والاخلاص، وحينئذ أعيد الى مصر مجد الفاطميين ».

وكان هـذا الحديث الذى فاه به نابليون موضوع سمر كبار المصريين فى القاهرة وكان الذين شاهدوا منهم موقعة الاهرام يعززون ذلك القول ويقولون للناس إنه سهل هين على الفرنسيين

وكان الشيخ المهدي أفصح المشايخ لساناً، وأوسعهم معرفة، وأصغر علماء الازهر سناً، وأكبرهم ثقة بنابليون، فعرب أقواله هذه ونظمها شعراً حفظه الناس وتغنوا به فى صحارى أفريقيا وبلاد العرب ! ! !

وكان يرد على العلماء الذين كانوا يؤلفون الديوان الكبير، تقارير من الاقاليم تنبيء بانتشار الفوضى التى كان سببها سوء التفاهم، ولأن الناس كانوا يسمون الفرنسيين بالكافرين. وبدأ « السلطان الكبير » يشكو مر الشكوى فى حديثه مع العلماء مما كان ينشره أئمة المساجد ويذيعونه بين الناس وتحريضهم إياهم على الفتنة

وفى ذات يوم وجد نابليون الفرصة سانحة فقال لعشرة من كبار المشايخ الذين كان يثق بهم « يجب وضع حد لهذه الحال ولابد إذن من فتوى تصدر من الجامع الازهر تأمر الناس أن يقسموا لى يمين الطاعة »

فاصفرت وجوه المشايخ، وتولاهم رعب شديد، وارتبكوا فى أمرهم، وارتج عليهم القول. وكان الشيخ الشرقاوى، شيخ الجامع الازهر، أربطهم جأشاً فقال لنابليون « إنك تريد حماية النبي وهو يحبك وتريد أن يسرع المسلمون للانضواء تحت بنودك، وتريد إعادة مجد العرب، وتقول إنك لست من الكافرين، فاسلم إذن وادخل فى دين النبي وحينئذ يهرع اليك ١٠٠ الف من المصريين و ١٠٠ الف من العرب يأتون من مكة والمدينة، وينضم الجميع تحت لوائك ويلتفون حولك. ومتى مرنتهم على أساليبك، ودربتهم على القتال، استطعت أن تفتح بهم الشرق كله، وتنقذ وطن النبي ». فانبسطت

أسارير المشايخ وركعوا جميعهم على الارض يطلبون المعونة من السماء .. ودهش نابليون وأخذه العجب، لانه كان يرى ان الانسان يجب أن يموت على دينه ولكنه أدرك بثاقب فكره وسرعة خاطره أنه يستطيع أن يستغل ذلك القول لفائدته، فأجاب

« إن عقبتين من أصعب العقبات تعترضانني ورجالي لنصير مسلمين . أولاهما الختان ، والثانية الخمر الذي تعود جنودي منذ الصغر احتساءه ، وأنا لا أستطيع أن أقنعهم بالعدول عنه »

فاقترح الشيخ المهدي أن يعرض المسألة على ستين عالماً من علماء الازهر للمناقشة فيها . وذاعت الاشاعة في كل الجوامع أن كبار المشايخ يعملون ليلا ونهارا لتعليم « السلطان الكبير » وقواده قواعد الدين الاسلامي، وانهم يريدون إصدار فتوى يسهلون بها اعتناق الفرنسيين للدين الحنيف ، فطرب المسلمون وفرحوا وأذيع أن الفرنسيين يعجبون بالنبي محمد، وأن القائد العام يحفظ القرآن ويعتقد أنه مذكور فيه الماضي والحاضر والمستقبل ، وأن الكتاب يحوى كل الحكمة ، وأنه يريد اعتناق الدين الاسلامي. ولكن تحول بينه وبين بغيته مسألة الختان وشرب الخمر ، وظل أئمة المساجد والمؤذنون متحمسين مدة أربعين يوماً لهذا الخبر ؛ وأفادت هـذه الحادثة الفرنسيين فائدة كبيرة إذ لم يعد المصريون يعدونهم من الكافرين

وذاعت أشاعات كثيرة بين الشعب ، فمن قائل إن النبي محمد ظهر ا « للسلطان الكبير » وقال له « إن المماليك لم يحكموا الا طبق أهوائهم ولذلك أعنتك عليهم وأنت تحفظ القرآن وتحبه ، وقد أعدت السلطة للعلماء والمشايخ، ولكن يجب عليك أن تتم ما بدأت به فاعتنق مبادئ شريعتي واعمل بها . أنها مبادئ الله نفسه. إن العرب لا ينتظرون غير هذه الاشارة وسأعهد اليك بفتح آسيا كلها »

وقد اغتنم نابليون فرصة رواج هذه الاشاعات، ورد على العلماء قائلا إنه طلب من النبي أن يمهله سنة لتهيئة جيشه ، وإعداده للدخول في دين الاسلام ، فأجابه النبي الى ما طلب ، وإنه وعد ببناء جامع كبير وأنه سينجح في حمل جيشه كله على اعتناق الدين الاسلامي، وإنه منذ الآن يعده الشيخان السادات والبكري كذلك » اه

***

هذا ما أملاه نابليون بونابارت بنفسه على الجنرال برتران لينشره فى كتابه الذى سبقت اليه الاشارة فى هذا الكتاب . وفى هذه الاقوال يصف نابليون نفسه « بالسلطان الكبير » حين كان بمصر ، مع أن هذا اللقب كان كبيراً عليه أيام وجوده فى هذه الديار . حتى اننا شككنا فى أنه خوطب فى مصر بهذا اللقب الذى لم يذكره الجبرتى ، ولا المعلم نقولا الترك وهما معاصران ، والاخير منهما سورى مسيحى ممن مالأوا الفرنسيين فى ذلك الزمن وله فى مدح نابليون قصيدة كلها مبالغة واغراق وفيها يقول

الشهم بونابارتة ليث الوغى والاقتدار
من فاق قدراً وارتقى اوج العلا وسما الفخار

الى غير ذلك من مبالغات الشعراء ، ومع ذلك لم يذكر ذلك اللقب !

والخلاصة هى أن هذه التصريحات الصريحة من نابليون بونابارت ، وهو فى منفاه فى سانت هيلانة وعلى حافة القبر ، بعيداً عن مظاهر السياسة ومطالبها واكاذيبها ، دليل قاطع على أن نابليون لم يعتنق الاسلام ، وانما كان يفكر فيما يفعله لو قضت عليه الظروف بالبقاء فى مصر مقطوع الصلة بفرنسا ، وهو ما كان يريد طبعا الا أن يتخذ من اعتناق الدين الاسلامى هو وجيشه فى مصر ، وسيلة للتغرير بالمصريين والمسلمين فى الشرق

فاذا ضممنا الى هذه التصريحات الغريبة ، ما ورد فى بعض منشورات نابوليون فى القاهرة عن معتقداته الدينية ، وإشاراته العديدة الى الدين الاسلامى ، تحقق لدينا أن نابوليون ، ابن الثورة الفرنسية ، لم يصح له اعتقاد فى دين من الاديان

فقد ورد فى منشور المشايخ الذى صدر بعد عودة نابوليون من حملته على سوريا قول المشايخ [1]

« ولما حضر سارى عسكر الى مصر [2] أخبر أهل الديوان من خاص وعام ،

---

(١) صحيفة ٣٣٢ من هذا الكتاب

(٢) لقب سارى عسكر وأمير الجيوش هو غاية اللقب الذى سمح به المشايخ لنابوليون وليس « السلطان الكبير »

أنه يحب دين الاسلام ، ويعظم النبي عليه السلام ، ويحترم القرآن ، ويقرأ فيه كل يوم باتقان . . . . وعرفنا أن مراده يبنى لنا مسجداً عظيماً بمصر لا نظير له فى الاقطار ، وانه يدخل فى دين النبى المختار ، عليه أفضل الصلاة وأتم السلام »

وهذا القول ينطبق تمام الانطباق على ما رواه نابوليون، فيما تملناه آنفاء عن نفسه في سانت هيلانه ، بعد تاريخ هذا المنشور بواحد وعشرين عاما !

اما اعتقاد نابليون فى الاديان وخاصة فى الدين الاسلامى ، فأمر يرجع فيه الى تصريحات نابليون وآرائه الخاصة التى نطق بها فى أوقات مختلفة من حياته، وخصوصاً فى الجزء الاخير منها ،اى فى السنوات الست التى قضاها فى جزيرة سانت هيلانه منفيا ، وحين كان يعتقد بقرب انفراط عقد الحياة ودنوه من حافة القبر . وقد لخص اللورد روزبري معتقدات نابليون الدينية، من احاديثه المختلفة مع لاس كاس، وانتوماراشى وجورجو وغيرهم[1] فقال ماتعريبه :—

« ولقد كان من أهم النقط التى تدور حولها أحاديث نابوليون فى منفاه مسألة الدين وكان الانجيل من الكتب التى كان نابوليون يحب تلاوتها بصوت عال ....

وليس من الغريب أن تتجه أفكار نابوليون في تلك الساعات المظلمة الى مسائل الاعتقادات الدينية .... ويؤكد (برتران) بلهجة صارمة أنه لم يحدث قط أن سمع نابوليون ، — سواء أكان ذلك فى فرنسا أم فى جزيرة ألبا ، أم فى جزيرة سانت هيلانه ، — ينكر وجود الخالق ، أو يشك فى « الوهية » المسيح ، وكان نابوليون على الدوام يمنع المناقشات التى تدور حول موضوع معتقده الدينىّ ، ويقول إنه يؤمن بما يؤمن به قسيس كنيسته !

ولكن العالم لايقتنع بهذه المواربة، ويحب أن يقف على حقيقة اعتقاد نابوليون ورأيه فى الدين. ولا نظن أن « جورجو » اخترع من عنده جميع ما كتبه فى مذكراته عن أحاديث نابوليون وآرائه الدينية فى سانت هيلانه »

ثم انتقل اللورد روزبرى الى بيان موجز عن اعتقاد نابوليون فذكر فيما ذكر أنه كان يميل الى الدين الاسلامى، ويعترف أن علماء الازهر فى مصر زعزعوا أفكاره

(1) Las Cases, Antomarachi, Gourgaud.

بآرائهم وحججهم ، وأقنعوه بان من يعبد ثلاثة آلهة لا يكون إلا وثنيا ..... ومن معتقدات نابوليون فى المسيح أنه لم يوجد ، وغاية ما فى الأمر أن واحداً من الناس الكثيرين الذين يتحمسون ادّعى أنه نبي أو مسيح — وفى كل زمان كثيرون من هذا الطراز — ، وانه قتل أو صلب لذلك السبب. وكان يعتقد نابوليون فى موسى كزعيم شعب وقائد، ولكن اليهود كانوا قساة وجبناء. وبلغ اعتقاد نابوليون فى المسيح الى درجة أنه كان يقول : إنه لا يستطيع أن يتصور أو يصدق أن رجلا ذكياً مثل البابا بيوس السابع يعتقد حقيقة فى المسيح ! وأما الدين الاسلامى فانه بعكس ذلك سهل ، وأرق من المسيحية ، لأنه افتتح نصف العالم فى عشر سنوات ، فى حين أن المسيحية لم توطد قدمها قبل ثلاثمائة عام ، وصرح نابوليون فى وقت آخر بأن الدين الاسلامى أحلى وأظرف الديانات الموجودة ، وقال عن نفسه مرة « نحن المسلمون » !

***

ويرى القارىء من هذه المعلومات المستقاة من مصادرها الأصلية ما يؤيد بجلاء آراءنا التى أثبتناها فى صدر هذا البحث ، وأن ما ادعاه بعضهم ، من أن نابوليون أسلم ، لا حقيقة له على الاطلاق ، وان الرجل لم يكن الا من أصحاب الآراء الحرة ، المتشككين فى جميع الأديان

# ذيل ثان

## مكتبة الكتاب — أى مصادره

يهتم كتاب الغرب بذكر المصادر التى اعتمدوا عليها فى تأليف كتاب من الكتب وخصوصاً التاريخية منها ، فينشرون بياناً للكتب والتقارير والمذكرات وجميع المصادر التى استقوا معلوماتهم منها ، ويسمون ذلك مكتبة الكتاب Bibliographie أى مصادره ، وقد زاد بعضهم اهتماماً بالمصادر الى درجة ان خصص لها بحثاً مستفيضاً عن أصحاب تلك المصادر ومبلغ ما لهم من القيمة فى تصوير الحقائق وتقريرها ، ومن هؤلاء اللورد روزبرى فى كتابه عن نابوليون فى سانت هيلانه فانه خصص الفصول الأولى من كتابه للبحث فى المصادر ووصفها بأنها كالأساس الذى يبنى عليه المنزل .

ولقد أعجبنى هذا الرأى حتى اننى قلت عنه فى رسائل «من والد الى ولده» في باب دراسة التاريخ ، ما يأتى :

« ومما تجب العناية به فى دراسة التاريخ والاشتغال به ، تمحيص المستندات والمصادر التى اعتمد الكاتب المؤرخ عليها ، وتقدير ما لتلك المستندات والمصادر من القيمة الحقيقية . ولم أر من المؤرخين من محص مصادر مؤلفه وعرضها على القراء بنقد صحيح ، ليكون القارىء على بصيرة بقيمة ما يسند الى تلك المصادر ، مثل اللورد روزبرى فى كتابه العظيم عن نابليون بونابرت فى منفاه بجزيرة سانت هيلين ، فانه بدأ بذكر المصادر التى اعتمد عليها ، وهم اولئك القواد والضباط ورجال حاشية الامبراطور المنفى الذين كتبوا عنه ونقلوا أقواله أو أحاديثه وتصريحاته ، وما كان بينه وبين حاكم الجزيرة من المشادة والخلاف والمشاكل . فبعد ان وصف منزلة كل كاتب منهم لدى الأمبراطور ، وكيف كان من الممكن ان يكون موضع سره ، والى أى حد يصح الاعتماد على رواية الكاتب في موقف من المواقف ، ومسألة من المسائل ، وما هو ماضى ذلك الكاتب ، وما هى صفاته وأخلاقه ، وما هى آراؤه السياسية والحزبية ،

كما تقدر قيمة الثقة التى يحق له التمتع بها ، وعلى هذه الطريقة وضع الورد روزبرى قاعدة جديدة فى كتابة التاريخ . وقد عولت ان شاء الله أن اسلك هذه الطريقة فى مقدمة الكتاب[1] الذى وضعته عن تاريخ الحملة الفرنساوية ونابليون فى مصر إذ يتحتم أن يقف القارىء على القيمة الحقيقية لاكبر المصادر العربية فى تلك الفترة التاريخية ، وهو كتاب الشيخ عبد الرحمن الجبرتى والى أى حد تمكن الثقة بروايته ، وكيف كانت علاقة ذلك المؤرخ بالمماليك أولا ، وبالفرنساويين ثانياً ، وماهى منزلته فى درجة التحقيق وصدق الرواية ، وما يصح الاعتماد فيه على قوله ، وما لا يصح منه ، فى الظروف المختلفة ، ثم مقارنة ذلك بالمصدر العربى الآخر ، وهو رسالة المعلم نقولا الترك ، وبيان الفارق بينهما من وجهة نظر الشيخ الازهرى المسلم ، والمسيحى اللبنانى ، الى تلك الحوادث والحالة السياسية ، ويتبع ذلك مقابلة هذين المصدرين العربيين بالمصادر الفرنسية رسمية وغير رسمية . . .

***

على هذا النحو كنت أطمع فى دراسة ، ووصف ، وتحليل ، المصادر التى اعتمدت عليها فى هذا الكتاب ، ولكن أرانى عاجزاً عن تناول هذا البحث وايفائه حقه كما تصبو اليه نفسى

ولا ينكرن القارىء علىّ أننى تعرضت فى متن الكتاب للحكم على أشخاص المؤلفين الذين اعتمدت عليهم ، ونقلت عنهم ، واستشهدت بهم ، فيما كتبته عن عبد الرحمن الجبرتى والمعلم نقولا الترك وعن الشيخ الشرقاوى ، وعلى غيرهم من الكتاب الافرنج ، ولكن تلك الالمامات البسيطة الخفيفة لا تشبع مطمعى الادبى

فامام هذا المطمع ، ومع الشعور بذلك العجز ، لا أرى مناصاً من التوسط بين الممكن والمستعصى فاكتفى بكلمات موجزة عمن لا مناص من التكلم عنهم لايضاح قيمتهم التاريخيـة ، ومكانتهم فى التحقيق والتدقيق ، مع بيـان لتاريخ حياتهم ولظروفهم الخاصة .

---

(١) بعد تردد كبير اخترت أن أضع هذا البحث ذيلا للكتاب لا مقدمة له

ولست من رأى الذين ينشرون، فى مقدمة الكتاب أو فى آخره، قائمة بأسماء الكتب التى قرأوها أو اعتمدوا عليها كمصادر لكتابهم، ما داموا قد أشاروا الى تلك المصادر وذكروها فى ذيل الصحائف أو فى متنها، وانما أردت فى هذا البحث أن أبين للقارئ قيمة المصادر وتاريخ أصحابها، ومنزلتهم في درجة تقرير الحقائق، و بعدهم أو قربهم من الاشخاص الذين كتبوا عنهم فأقول : إن المصدر الذى يصح الاعتماد عليه ، والثقة به ، أو الاقتباس منه . والنقل عنه ، واحد من اثنين :

إما معاصر وشاهد عيان، — حتى ولو كان متحيزاً أو ضالعاً مع فريق دون فريق — وإما حجة ثقة ، وباحث مفكر ، ممتاز بعبقرية خاصة

فالأول من دوّن الحوادث والوقائع التى رآها بعينه ، أو سمعها من معاصريه بأذنه . وأهل المعرفة لا يعدون ما يضعه المعاصرون من المذكرات والاخبار تاريخاً بالمعنى الصحيح ، لاسباب كثيرة أهمها قربهم من الحوادث وتأثرهم بالاشخاص ، واقتصارهم على تدوين الحوادث ، دون ابداء الآراء ، أو استنتاج الاحكام ، ويصفون كتب المعاصرين بأنها مذكرات تصلح لأن تكون مادة أو غذاء كما وصف( ميو ) مذكراته متواضعاً بقوله Memoires pour servir a l'histoire

وأما الثانى فهو الباحث المدقق المفكر المشهود له بسعة الاطلاع والنبوغ ، والذى تهيئ له الظروف ، الوقوف على المعلومات والمخطوطات والمحفوظات ، من الوثائق الرسمية وغير الرسمية، مما لا يتيسر لسواه من الكتاب . فاذا قيل مثلا أن « إدوارد جيبون » أو أن « اللورد ماكولى » قال كذا وكذا فى تاريخه، أو أن مونتسكيو اوجيزو أو تيير ، قال كيت وكيت ، وأبدى رأيه فى حادث أو أمر ( لم يقع فى زمانه ) ، فلا مناص من الثقة بذلك الرأى ، وإحناء الرأس إجلالا لمنزلة قائله ، لانه حجة ثقة وآراؤه نتيجة بحث عويص مستفيض

وليس لدينا فى اللغة العربية، عن الفترة التى كتب عنها هــذا الكتاب، من الفريق الأول سوى الشيخ عبد الرحمن الجبرتى الازهرى والمعلم نقولا بن يوسف الترك ( أو التركى ) البيروتى اللبنانى :

وليس عندنا فى هذه الفترة ، مع الاسف الشديد ، واحد من الصنف الثانى .

حقيقة أنه يوجد معاصر آخر وضع رسالة جاء فيها على شىء من تاريخ الحملة الفرنسية فى مصر ونعنى به الشيخ عبدالله الشرقاوى شيخ الجامع الازهر فى ذلك الحين وصاحب رسالة ( تحفة الناظرين فيما ولى مصر من الولاة والسلاطين )

وقد سبق لنا أن جئنا على ترجمة حياة الشيخ الشرقاوى ( فى صحيفة ٢٩٦ ) وأشرنا الى رسالته التى لا قيمة لها على الاطلاق ، اللهم إلا من وجهة صدورها من رجل كانت له صفة العلماء ، وكان شيخاً للجامع الازهر ، ورئيساً للديوان فى أيام الفرنسيين . ولما كانت رسالته لا تعتبر من المصادر التاريخية ، وسبق لنا الكلام عنها ( فى صحيفة ٢٩٧ ) فليس لها دخل فى بحث تقدير المصادر التاريخية

بقى الكلام عن المصدرين الآخرين وهما كتاب ( عجائب الآثار فى التراجم والاخبار ) ، للشيخ عبد الرحمن الجبرتى ، وكتاب ( ذكر تملك الفرنساوية للديار المصرية ) تأليف المعلم نقولا الترك اللبنانى

هذان هما المصدران العربيان اللذان يصح الاعتماد عليهما لأن صاحبيهما عاشا فى تلك المدة ، وشهدا بأعينهما ، وسمعا بآذانهما ، الحوادث التى دوناها ، وان كان كل واحد منهما يختلف عن الآخر اختلافاً بيناً ، لأن الأول ( الجبرتى ) كان من علماء الازهر وشيخ رواق الجبرتية وكانت له علاقات وصلات بكبار المماليك ، واما الثانى فقد كان سوريا لبنانياً نزيلا فى هذه الديار ، وكانت له صلات بالتراجمة والمستشرقين من رجال الحملة الفرنسيين

ولنبدأ أولا من المعلم نقولا لقصر موضوع الكلام فى شأنه ، فنقول : كل ما استطعت أن أحصل على معرفته من تاريخ هذا الرجل ، هو أنه ولد فى دير القمر بلبنان سنة ١٧٦٣ وتوفى سنة ١٨٢٨ أى أنه كان يبلغ من العمر نحو ٣٥ سنة حين كان فى مصر أيام الحملة وأصل عائلته من الاستانة ، واسم أبيه يوسف الترك أو التركى ، ويظهر أنه حضر لمصر قبل الحملة بزمن قصير وانه كان فى خدمة الامير بشير الشهابى الدرزى الذى أرسله لمصر . وأذكر انى قرأت له أبياتاً من الشعر فى مدح الامير بشير الشهابى فى كتاب تاريخ الامير حيدر

أما رسالته عن الحملة الفرنسية فقد سبقت الاشارة الى وصفها فى مواضع كثيرة من هذا الكتاب ، وعبارتها مسجعة، وفيها ركاكة . والغريب أنها لم تطبع فى مصر ولا فى سوريا كرسالة مستقلة ذات قيمة تاريخية، ولولا أن مسيو «ديجرانج إينيه» حفل بها وطبعها فى باريس مع ترجمتها الفرنسية لضاع أثرها بتاتاً . وقد ذكر ديجرانج أنه نقل هذه النسخة من ثلاث واحدة بخط المؤلف ، أهداها لأحد مشايخ المارونية ، والثانية أعطاها له مسيو كوسين ده برسيفال والثالثة وجدها فى المكتبة الملكية فى باريس

والرسالة فى رأيى جديرة بالثقة فى مواضع كثيرة، وخاصة فى الحوادث والمسائل التى كانت في الجانب الفرنسى، والجالية الاجنبية فى مصر ، حيث البيئة التي يعيش حولها مثل المعلم نقولا الترك . وفضلا عن ذلك فانه من مزايا هذه الرسالة أن صاحبها حفظ لنا بعض المنشورات التى أهملها الجبرتى عمداً أو سقطت من أوراقه

ولا أدرى بالضبط متى كتب المعلم رسالته ، وما أظن أنه كان يكتبها فى أثناء وقوع حوادثها وهو في مصر . ولكن يظهر أنه جمع مذكرات وأوراقاً ومنشورات ، وصنف رسالته بعد عودته الى سوريا حيث ترك النسخة الخطية لدى أحد شيوخ الموارنة . ولم يذكر فى مقدمة رسالته شيئاً عن تاريخ وضعها، ولا إشارة الى أنه شهد حوادثها بنفسه ، ولا متى حضر لمصر ، ولا متى برحها ، فان من الجائز انه لم يحضر الايام الاولى من الاحتلال الفرنسى، ولم يشهد بنفسه واقعة إمبابه ، وان كانت روايته عن اجتماع المماليك فى دار ابراهيم بك في القصر العينى ، عند وصول خبر نزول الفرنسيين فى الاسكندرية ، تدل على أنه كان بالقاهرة وعارفاً بأسماء كبار المماليك الذين شهدوا تلك الجلسة التاريخية .

ويؤكد ديجرانج مترجم رسالة المعلم نقولا الى الفرنسية وطابعها بالعربيـة أنه قابل المعلم نقولا الترك فى دير القمر بلبنان قبل وفاته ولم يذكر لنا فى أى وقت بالضبط قدم المؤلف القاهرة ، ولكنه اكد لنا أن الذى أوفده الى مصر هو الامير بشير الشهابى حوالى عهد الحملة الفرنسية [1] (كذا) وأنه بقى فى مصر مدة الحملة

(1) Vers l'epoch de notre expédition

الفرنسية لغاية دخول الترك مع الانجليز ، كما هو ظاهر من الرسالة إذ ورد في آخرها ثناء على الاتراك (بعد الثناء على الفرنسيين) ، وبعض أبيات قالها في مدح يوسف باشا الصدر الاعظم القائد للجيوش التركية

أي صدر الصدور لارض مصر بنصر أشرقت فيه الديانة
بعام قد كساه النور أرخ به فتحت بيوسف الكنانة

وكما مدح من قبل نابوليون ورثى كليبر ، مدح يوسف باشا !!

وفي رواية « كاردين »[1] ان الامير بشير الشهابي زعيم الدروز أوفد المعلم نقولا الترك لايقافه على حوادث مصر واحتلال الفرنسيين لها لانه كان يتوقع حملتهم على الشام . وكان يرغب الانضمام الى الفرنسيين لو أن نابليون نجح في الاستيلاء على عكا (كما انضم فعلا الامير بشير الى ابراهيم باشا بعد سقوط عكا في يد المصريين) وذكر « كاردين » أن الامير بشير لما أوفد المعلم نقولا أمره بالاقامة في دمياط لموافاته بالاخبار منها ، ولكني أعتقد انه برح دمياط وجاء الى القاهرة في خلال الحوادث التي كتب عنها ، وذكر « كاردين » أيضاً أن أحمد باشا الجزار ضبط كتاباً من الكتب التي كان يبعث بها المعلم نقولا لمولاه الامير بشير فكان ذلك سبباً في إلحاق الاذى بأخ للمعلم نقولا كان مقيما في عكا

ومما رواه كاردين أيضاً عن المعلم نقولا أنه بعد جلاء الفرنسيين عن مصر عاد الى دير القمر وفقد بصره في أواخر أيامه فكان يملي شعره على ابنته « ورده » . وليس في مقدمة الرسالة ولا في ختامها إشارة الى زمن وضعها ولا الى السبب الذي دعاه للحضور الى هذه الديار ، وكيفما كان الحال فانه كتب عن حوادث شهدها بنفسه ورآها بعينه

ومن هذه الملاحظات وما تقدمها يحق للقاريء والباحث المدقق ، والمؤرخ المحقق ، أن يقدر منزلة رسالة المعلم نقولا الترك من الوجهة التاريخية

---

(١) اسكندر كاردين كان مترجماً بقنصلية فرنسا الجنرالية في مصر حوالي سنة ١٨٣٠ م وتوفي في السنة التي طبعت فيها ترجمته للجبرتي وخلاصة رسالة المعلم نقولا عن الحملة الفرنسية سنة ١٨٣٨ — وعنوان كتابه بالفرنسية كما هو في ذيل الصحيفة التالية

وكنت أتصور أن المعلم تقولا الترك يعرف الفرنسية حتى أن الامير بشيراً أوفده لمصر للاختلاط بالفرنسيين، ولموافاته باخبارهم، وإيقافه على حقيقة أحوالهم، ولكن «ديجرانج» ، الذى قابله فى دير القمر وترجم رسالته، يؤكد أن المعلم تقولا لم تكن له ادنى معرفة باللغة الفرنسية . وهذه نقطة ذات أهمية لانها تفسر لنا كثيراً من أسباب غلطاته وسقطاته

ومما هو جدير بالذكر عن المعلم تقولا الترك أن قصيدته فى مدح نابوليون ترجمها مسيو مارسل المستشرق الذى سبقت الاشارة اليه فى صحيفة ٥١ من هذا الكتاب وأذكر أننى اطلعت على ديوان شعر له بخط اليد فى مكتبة المرحوم مخلع باشا ، ولا ادرى ماذا جرى له

ومما هو جدير بالذكر أيضاً وصف المعلم تقولا لنابوليون بونابارت كما رآه بعينيه فى مصر، وهى صورة يحرص عليها المؤرخون لمقارنتها بالصورة التى صار اليها نابوليون حين أصبح امبراطوراً عظيما . قال المعلم تقولا « وكان نابوليون قصير القامة رقيق الجسم، أصفر اللون، باعه اليمين أطول من اليسار ، مملوءاً من الحكمة، مشمولا بالسعد والنعمة ، يبلغ من العمر ثمانية وعشرين سنة »

***

والآن ننتقل الى المصدر التاريخى الثانى وهو كتاب « عجائب الآثار، فى التراجم والاخبار» لمؤلفه الشيخ عبد الرحمن الجبرتى ، أحد علماء الازهر، وشيخ رواق الجبرتية فى مدة الاحتلال الفرنسى ، وما بعده حتى زمن محمد على

ولد الشيخ عبد الرحمن الجبرتى فى مدينة القاهرة بسنة ١١٦٧ هجرية ( ١٧٥٤ م. ) وكان جده السابع يدعى ايضاً الشيخ عبد الرحمن الجبرتى ، وهو أول من قدم مصر من الجبرتية « نسبة الى جبرت احدى القاطعات الاسلامية

---

; Journal d'Abdurrahman Gabarti: Pendánt l'occupation Française en Egypte; suivi d'un précis de la même Campagne par Mou'allem Nicoula El Turk :—

Traduite par Alexandre Cardin, Dragoman-Chancellier du Consulat Gén. de France en Egypte, 1838.

فى بلاد الحبشة» فى اوائل القرن العاشر الهجرى . فتكون اسرة الشيخ عبدالرحمن الجبرتى قد قضت فى هذه الديار اكثر من ثلاثمائة عام وانقرضت بوفاة المؤرخ فى٢٧ رمضان سنة١٢٣٧ هـ. ( ١٨ يونيو سنة ١٨٢٣ م. ) لأن الشيخ عبد الرحمن لم يعقب من الاسرة الجبرتية غير ابن وابنة. توفى الولد بعد وفاة والده ببضع سنوات، وعمرت الابنة ولا يعرف عنها ولا عن ذريتها شيء .

وأهم من اشتهر من الاسرة الجبرتية بالعلم والفضل ، الشيخ حسن الجبرتى والد المؤرخ ، فقد كان ممن يشار اليهم بالبنان فى زمانه ، وتلقى العلم عليه كثيرون من العلماء الذين ذكرت أسماؤهم فى هذا الكتاب وكانوا اعضاء فى الديوان الذى انشأه نابوليون ، وصور بعضهم لا تزال معلقة فى متحف فرساى ، مثل المشائخ الشرقاوى والمهدى والصاوى والفيومى وتوفى الشيخ حسن سنة ١١٨٨ هـ. ولم يترك من الذرية ، على كثرة ما ولد له من الذكور والاناث ، وعلى كثرة من تزوج من الحرائر وتسري من الرقيقات الجركسيات والحبشيات ، غير المؤرخ عبد الرحمن . ويظهر أن والدة المؤرخ كانت واحدة من تلك السراري التركية أو الجركسية الاصل . وذكر الذين ترجموا كتاب الجبرتى الى الفرنسية ان والده ترك له ثروة كبيرة وكانت له ضيعة فى بلدة إبيار ذهب اليها — كما يقول كاردين — عند احتلال الفرنسيين ولم يعد الى القاهرة الا بعد مدة من الزمن — وهى رواية اذا صحت فانها تثبت أن الشيخ عبد الرحمن لم يشهد بنفسه كثيراً من الحوادث التى وقعت فى اوائل دخول الفرنسيين ويكون ما كتبه عنها منقولا من أفواه الناس ويضعف الثقة بكثير من رواياته

اما عن الكتاب ( كتاب عجائب الآثار ) فاقول إن الكثيرين من الأدباء وأهل الفضل لا يقدرون كتاب الشيخ عبد الرحمن الجبرتى حق قدره، كأثر تاريخى عظيم ، وعمل أدبى مجيد ، ومذكرات يومية ذات قيمة كبرى للمؤرخ . والسبب فى النظر اليه بهذه العين يرجع الى أن الناس لا يميلون الى هذا النوع من الاسلوب من جهة، ولأنه مجموعة من عبارات وروايات وحوادث غير متمازجة ولا متناسقة ، من جهة اخرى !

ولكن الذين لا يأخذون الامور بظواهرها ، والذين يتعمقون فى البحث ، عن حوادث تلك الايام وظروفها وأحوالها ، لا يسعهم الا الاعجاب بذلك السفر الجليل وواضعه. فالشيخ عبد الرحمن الجبرتى هو بلا نزاع مؤرخ هذه الفترة وجامع شتات أخبارها، باخلاص وحسن نية ومجهود كبير . بل هو كاتبها العظيم وصحافيها الأمين ، والذى لولاه لبقى تاريخ هذه الفترة، التى تبلغ نحو خمسين سنة — أى من نهاية القرن الثانى عشر الهجرى الى أوائل القرن الثالث عشر — صحيفة بيضاء ، او قطعة جرداء ، فى اللغة العربية .

والذي يهمنا فى كتابه (من حيث علاقته بهذا الكتاب) هو القسم الواقع فى الجزء الثالث، وقليل مما تقدمه من أخبار كبار المماليك فى النصف الاخير من الجزء الثانى . ومهمتنا فى هذا البحث تنحصر فى قيمة الاخبار الواردة فيه ، وصدق الوثائق المحفوظة به من منشورات وتعليمات وغيرها ، وقرب ذلك أو بعده من الحقيقة التاريخية .

ولا تردد مطلقاً في الحكم على أن الصدق فى الرواية كان رائد الشيخ في كل ما كتبه ، ولم يكن يحابى ولا يداجى، الا في النادر من ميوله الشخصية وعلاقاته الخاصة بكبار المماليك كميله الى ابراهيم بك ووقاره ، ونفوره من مراد بك وطيشه وجرأته .

أما من وجهة أن كتاب عجائب الآثار، كتاب تاريخى فلا مندحة من الاعتراف بأنه ليس من التاريخ، على أسلوبه الصحيح ، فى شىء ، وانما هو مذكرات وروايات قيد المؤلف شواردها ، بغير ترتيب ولا تنسيق ، تصلح ان تكون مادة للمؤرخ، مع شىء غير قليل من الصعوبة والعناء .

وكتاب الجبرتى فى نظرى أشبه بالتلول الأثرية لا تكاد تحفر فيها ، او تزيل الأتربة من جانب، حتى تعثر بجوهرة ثمينة ، أو تحفة نادرة ، وقد لا تعثر بشىء مطلقاً فى جزء كبير منها ، وهكذا لا تمكن الاستفادة من كتاب الجبرتى إلا إذا عالجته حفراً ، وبحثاً وغربلة ، ومقارنة ومقابلة ، واستخرجت الدر من الصدف ، والمعدن

من التراب ، وميزت بين ما له قيمة و بين ما ليست له قيمة . . ولا يسهل هذا إلا بعناء ومقارنة بينه و بين المصادر الأخرى . فى اللغات الاجنبية — وهى قليلة ونادرة جداً فى الجزء الخاص بالماليك قبل الاحتلال الفرنسى — وكثيرة فيما يختص بالحملة — من مذكرات ومؤلفات ، وأوراق رسمية ، وغير رسمية

وليس من السهل معرفة كيف كان يكتب الجبرتى مذكراته هذه ، ولكن المعقول المستنتج من كثير من رواياته انه كان يجلس لنفسه بعد مرور بضعة أيام فيدون ما يكون قد رآه أو سمعه أو وصل الى علمه . وهو يعترف فى مقدمة كتابه فيقول

« كنت سودت أوراقاً فى حوادث آخر القرن الثانى عشر ، ومايليه وأوائل القرن الثالث عشر الذى نحن فيه ، جمعت فيها بعض الوقائع إجمالية ، وأخرى محققة تفصيلية ، وغالبها محن أدركناها ، وأمور شاهدناها ، واستطردت فى ضمن ذلك سوابق سمعتها ، ومن أفواه الشيخة تلقيتها ، فحببت جمع شملها وتقييد شواردها فى أوراق منسقة النظام ، مرتبة على السنين والأعوام . . وما بعدها الى التسعين أمور شاهدناها ثم نسيناها وتذكرناها ، ومنها إلى وقتنا أمور تعقلناها وقيدناها وسطرناها وسنورد ان شاء الله تعالى ما ندركه من الوقائع ، بحسب الامكان والخلو من الموانع ، الى أن يأتى أمر الله ، وان مردنا الى الله . ولم اقصد بجمعه خدمة ذى جاه كبير أو طاعة وزير أو أمير ، ولم أداهن فيه دولة بنفاق ، أو مدح أو ذم مباين للأخلاق ، لميل نفسانى ، أو غرض جسمانى »

والشيخ الجبرتى نفسه يعترف فى كتابه أنه ابتدأ فى جمع أوراق كتابه وتنسيقه فى السنة السادسة والعشرين ، بعد المائتين والألف ، أى بعد ثلاثة عشر عاماً من خروج الفرنسيين من مصر . فتأمل مقدار الأغلاط التى يقع فيها رجل أزهرى يجمع أوراقه المتناثرة بعد مرور ثلاثة عشر عاماً على الحوادث التى يكتب عنها! وليكن ذلك منك على بال ، لتقدير روايات الجبرتى حين تنقل عنه ، أو تعتمد عليه [1]

ومما يجب ملاحظته ان كتاب الشيخ عبد الرحمن ، عن الفترة التى شهدها بنفسه ،

---

(١) راجع صحيفة ١٥٥ و١٦٥ من هذا الكتاب

إنما هو تاريخ للقاهرة، أكثر مما هو تاريخ لمصر، لأنه لم يقف الا على النادر جداً من الحوادث التي وقعت خارج القاهرة في الوجهين القبلي والبحري. فهو لم يذكر ثورة (المهدي) في البحيرة الا بكلام لاقيمة له، كما أوضحنا ذلك عند الكلام عليها، ولم يعرف أكان المهدي هو «مولاى محمد» من أمراء الغرب، الذي سبق له ذكره في الجزء الثاني من كتابه[1] أم كان شخصاً آخر؟ مع أن «مولاى محمد» دخل القاهرة مع الانجليز والأتراك عند جلاء الفرنسيين ولا يعقل أن الشيخ عبد الرحمن الجبرتي لم يقابله ولم يتعرف به

ومما يثبت ان معلومات الجبرتي لم تتعد القاهرة انه لم يشر الى محاربات الصعيد ولاغيرها إلا بعبارات قصيرة متقطعة ليس فيها شيء من المعلومات الصحيحة.

ومع انه من كبار العلماء في القاهرة فانه لم يذكر اسم الشيخ السيري كبير علماء الاسكندرية، الذي كان موضع ثقة نابوليون وكانت كلمته النافذة في ذلك الثغر، ولم يشر اليه إلا حين جاء ذكره في ايام حكم محمد على[2] والشيخ عبد الرحمن معذور في قصر أخباره على ما يصل إلى علمه، وهذا هو شأن المذكرات أو اليوميات التاريخية، ولكن ليس للمؤرخ في هذا الزمن أدنى عذر في قصر اعتماده على ما كتبه الجبرتي، وهذا شأنه

***

بقي علينا أن نشير إشارة موجزة إلى خاتمة صاحبنا الجبرتي وموته مقتولاً في طريق شبرا، فقد ذكروا انه وظف إماماً في سراى محمد على باشا بشبرا وان محمد بك الدفتردار حقد عليه فسلط عليه من أودى بحياته وهو عائد من شبرا الى القاهرة على حماره، وليس بصحيح ما ادعاه «كاردين» من ان الذي قتل بطريق شبرا هو ابن الشيخ عبد الرحمن وليس هو. وهذا غريب من «كاردين» مع انه كان موظفاً بقنصلية فرنسا في القاهرة حوالى سنة ١٨٣٠ أى بعد وفاة المؤرخ بنحو سبع سنين

(١) راجع صحيفة ٣٥٤ و٣٥٦ من هذا الكتاب

(٢) كان الشيخ محمد السيري كبير علماء الاسكندرية وله ذرية باقية فيها ولما جاءت مدة محمد على باشا عارضه الشيخ في كثير من المسائل التي كان يراها مخالفة للشرع ففر الى سوريا سنة ١٢٢٢ هـ، وتوفي في بيروت سنة ١٢٣٨ أى بعد وفاة الجبرتي بعام واحد ودفن في بيروت

ولا صحة لما يذاع أيضاً من أن هناك جزءاً خامساً من كتاب «عجائب الآثار» لم يصرح بطبعه لما فيه من الطعن على محمد على باشا، لأنه توجد نسخة خطية من تاريخ الجبرتى فى مكتبة وزارة الحربية الفرنسية فى باريس، ولو كان فيها شىء لم ينشر فى الطبعة المصرية، لما خفى أمره على المستشرقين

وفضلا عن ترجمة الجزء الخاص بالحملة الفرنسية فى مصر الى اللغة الفرنسية بواسطة مسيو «كاردين»، فقد ترجم كتاب الجبرتى الى اللغة الفرنسية بكمله فى ثمان مجلدات جماعة من فضلاء المصريين وعلى رأسهم المرحوم شفيق بك منصور يكن

وترجم الجزء الخاص بالحملة الفرنسية إلى التركية مصطفى افندى بهجت الطبيب الخاص للسلطان سليم الثالث تحت عنوان ( إنقاذ مصر من الفرنساوية )

***

وكنت أحب ان أتوسع فى بيان المصادر الفرنسية والانجليزية التى اعتمدت عليها فى هذا الكتاب، ولكن المقام يضيق عن ذلك من جهة، ولأنى مكتف بالاشارات والتعليقات والبيانات التى كتبتها عن هذه المصادر فى متن الكتاب وفى حواشيه فهى فى هذا الباب كافية وافية .

# فهرست

صحيفة

فهرست

صحيفة

